الحرب والسلم

(الكتاب الثالث)

إلياذة العصور الحديثة



ليو تولستوي

الحرب والسلم (الكتاب الثالث)

إلياذة العصور الحديثة

تأليف
ليو تولستوي



الحرب والسلم (الكتاب الثالث)

ليو تولستوي

War and Peace (Book 3)

Leo Tolstoy

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٦٨ ٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٨٦٩.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

الكتاب الثالث ٩

الجزء الأول ١٣

١- تحديد المسئولية ١٧

٢- أول الغيث ٢٣

٣- النبأ ٢٩

٤- الرسول ٣٥

٥- العودة إلى فيلنا ٣٩

٦- في حضرة الإمبراطور ٤٣

٧- عودة الرسول ٥٣

٨- عودة إلى ليسيا جوري ٥٧

٩- حالة الجيش ٦٥

١٠- الجنرال بفويل ٧٣

١١- مجلس حربي ٧٧

١٢- الرئيس روستوف ٨٣

١٣- في المنزل ٨٩

١٤- الاشتباك الأول ٩٣

١٥- هجوم الفرسان ٩٧

١٦- مرض ناتاشا ١٠١

١٧- الشفاء ١٠٥

١٨- دعاء سينود ١٠٩
١٩- الروسي بيزوخوف ١١٥
٢٠- النداء الإمبراطوري ١١٩
٢١- الإمبراطور في موسكو ١٢٧
٢٢- مناقشات النبلاء ١٣٣
٢٣- قرار نبلاء موسكو ١٣٩

الجزء الثاني ١٤١
١- تدابير مزعومة ١٤٥
٢- صفح الأمير العجوز ١٥١
٣- ذكريات كاتيرين ١٥٥
٤- استسلام سمولنسك ١٥٩
٥- رسالة باجراسيون ١٧١
٦- كوتوزوف يتسلَّم القيادة ١٧٩
٧- لافروشكا وبونابرت ١٨٣
٨- موت الأمير بولكونسكي ١٨٧
٩- فطنة ألباتيتش ١٩٥
١٠- الأميرة ودرون ٢٠١
١١- قرار الفلاحين ٢٠٧
١٢- ذكريات ماري ٢١١
١٣- تدخُّل روستوف ٢١٣
١٤- إخماد الفتنة ٢١٧
١٥- كوتوزوف وآندريه ٢٢٣
١٦- طريقة كوتوزوف ٢٢٩
١٧- رياء موسكو ٢٣٣
١٨- قرار بيير الأخير ٢٣٩
١٩- معركة شيفاردينو وبورودينو ٢٤٥
٢٠- رحلة بيير ٢٥١
٢١- عذراء سمولنسك ٢٥٥

٢٢- وجوه قديمة ٢٦١
٢٣- تصرُّف بينيجسن ٢٦٥
٢٤- إحساس آندريه ٢٦٧
٢٥- آراء جديدة ٢٧١
٢٦- ملك روما ٢٧٩
٢٧- خُطَّة نابليون ٢٨٣
٢٨- آراء المؤرِّخين ٢٨٧
٢٩- الطلقات الأولى ٢٩١
٣٠- بدء المعركة ٢٩٥
٣١- في جحيم المعركة ٢٩٩
٣٢- استعدادة التل ٣٠٧
٣٣- المعركة الرئيسية ٣٠٩
٣٤- مخاوف نابليون ٣١٣
٣٥- السيد العجوز ٣١٩
٣٦- جرح الأمير آندريه ٣٢٣
٣٧- لقاء الغريمَيْن ٣٢٩
٣٨- آراء نابليون ٣٣٣
٣٩- نتائج المعركة ٣٣٧

الجزء الثالث ٣٤١
١- في قوانين التاريخ ٣٤٥
٢- المغيب ٣٤٩
٣- حالة كوتوزوف ٣٥٣
٤- المجلس العسكري ٣٥٧
٥- إعداد حريق موسكو ٣٦١
٦- خطة هيلين ٣٦٥
٧- رسالة هيلين ٣٦٩
٨- محنة بيير ٣٧٣
٩- العودة إلى موسكو ٣٧٧

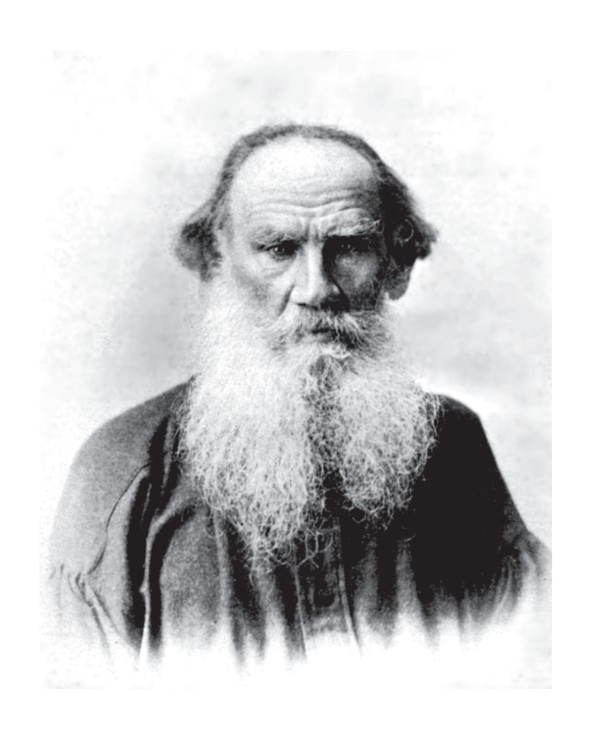
١٠- قصة النداء	٣٨١
١١- اختفاء بيزوخوف	٣٨٥
١٢- آل روستوف	٣٨٩
١٣- الضباط الجرحى	٣٩٣
١٤- الأمير آندريه	٣٩٧
١٥- عواطف الكونت	٤٠١
١٦- نقل الجرحى	٤٠٥
١٧- رحيل آل روستوف	٤١١
١٨- قصة بيير	٤١٧
١٩- نابليون على مشارف موسكو	٤٢١
٢٠- الحيلة الميتة	٤٢٥
٢١- أعمال السلب	٤٢٩
٢٢- مافرا والضابط المجهول	٤٣٣
٢٣- الغوغاء	٤٣٧
٢٤- حالة روستوبتشين	٤٤٣
٢٥- انسحاب روستوبتشين	٤٤٧
٢٦- احتلال موسكو	٤٥٧
٢٧- نفسية بيير	٤٦٣
٢٨- حياة الضابط	٤٦٩
٢٩- الرئيس رامبال	٤٧٣
٣٠- المظاهر الأولى	٤٨٣
٣١- خطة ناتاشا	٤٨٧
٣٢- لقاء الحبيبَيْن	٤٩٣
٣٣- الحريق	٤٩٩
٣٤- اعتقال بيير	٥٠٧

الكتاب الثالث

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة «دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية» استنادًا إلى الترجمتين الفرنسية والإنجليزية، وروجع النص الأخير على الأصل الروسي.



ليو تولستوي.



ليو تولستوي، عام ١٩١٠م.

الجزء الأول



الأمير نيقولاس.

الفصل الأول

تحديد المسئولية

في الأشهر الأخيرة من عام ١٨١١م حشدت أوروبا وأعدَّت قوات عظيمة، وفي عام ١٨١٢م وُجِّهت هذه القوات وتعدادها الملايين من الرجال، بما في ذلك رجال النقل والتموين، من الغرب إلى الشرق نحو الحدود الروسية؛ حيث كانت تتجمَّع بالمِثل القوات الروسية منذ عام ١٨١١م، وفي الثاني عشر من حُزيران اجتازت جيوش أوروبا الغربية الحدود، وبدأت الحرب؛ أي إنه وقع حدث مخالف للعقل، مخالف لكل طبيعة الإنسان! ولقد ارتكبت هذه الملايين من الرجال بعضها في حق بعض عددًا كبيرًا من الكبائر والمخادعات والخيانات والسرقات وترويج النقد الزائف والنهب والحرائق والقتل، تعجز وثائق كلِّ محاكم العالم عن تقديم أمثلة مماثلة خلال قرون. كلُّ هذا دون أن يعتبر فاعلو هذه الرذائل خلال تلك الحِقبة من الزمن أنها جرائم بشعة.

ما الذي سبَّب هذا الحدث الأعجوبي؟ وماذا كانت أسبابه؟ إنَّ المؤرخين يُظهِرون بتأكيد خالص أنها إهانات الدوق أولدنبورج وخرق الحصار البرِّي،[١] وطمَع نابليون وعناد ألكسندر وأخطاء الدبلوماسية ... إلخ. أي إنه لو كان الأمر كذلك، كان يكفي لتفادي الحرب أن يجتهد ميترنيخ[٢] أو رومیانتسیف[٣] أو تاليران[٤] بين عشية وضحاها، فيحرِّر

[١] الحصار البري Blocus Continental: مجموعة تدابير اتُّفق عليها في برلين يوم ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٠٦م من جانب نابليون الأول؛ ليغلق في وجه التجارة البريطانية كل مرافئ القارَّة ويهدم بذلك بحرية بريطانيا. ولقد سبَّبت هذه التدابير أضرارًا كثيرة لبريطانيا، لكن تنفيذها أدَّى بالتالي إلى اتفاق أوروبا ضد نابليون.

[٢] كليمانت ونسسلاس: أمير ميترنيخ وينبورج، رجل دولة نمسوي، وُلد في كوبلنتز عام ١٧٧٣م، وتُوفِّي عام ١٨٥٩م. دبَّر زواج ماري لويز بنابليون الأول، ثم أضحى بعد تشكيل «الحِلف المقدَّس» الحَكَم في أوروبا، وعمل جاهدًا للمحافظة على السلطة المطلقة «أبولوتيسم».

مخابَرة سياسية بارعة، أو أن يكتب نابليون إلى ألكسندر بكل بساطة: «سيدي أخي، إنني أوافق على إعادة الدوقية للدوق أولدنبورج.»[٥]

يُلاحَظ أن هذه كانت وجهة نظر المعاصرين، ويلاحَظ كذلك أن نابليون كان يعزو منشأ الوقيعة إلى دسائس بريطانيا، كما أعلن بذلك بكل صراحة في سانت هيلين.[٦] ويلاحَظ أن أعضاء مجلس النواب البريطاني ألقوا المسئولية على طمع الإمبراطور. فالدوق أولدنبورج لا بدَّ وأن يستشهد بالقسوة التي كان ضحيةً لها، وبالمفاوضين والحصار الذي كان يجرُّ الخراب على أوروبا والعسكريين القدماء، وضرورة تقديم ما يشغلهم والمشرعين وسرعة إقامة «المبادئ الطيبة» والدبلوماسيين وواقع أنَّ التحالف المعقود عام ١٨٠٩م بين النمسا وروسيا لم يُخفَ بمهارة كافية على نابليون بسبب رداءة تدبيج المذكرة (ميوراندوم) رقم ١٧٨. يُلاحَظ أنَّ المعاصرين وإن استعانوا بكل هذه الأسباب وبعددٍ آخر تبعًا للتباين المتناهي في وجهات النظر، فإنها تبدو لنا — نحن الأعقاب الذين نقدِّر هذا الحدث الهائل على كل رحابته، ونتعمَّق في معناه البسيط بقدر ما هو رهيب — أقلَّ كفايةً. أن يكون الملايين من المسيحيين قد تألَّموا أو تذابحوا لأن نابليون كان طمَّاعًا وألكسندر عنيدًا وسياسة بريطانيا ملتوية والدوق أولدنبورج مُهانًا، أمرٌ يستغلق علينا فهمُه! إننا لا نعقل أنَّ هناك رِباطًا يمكن أن يجمعَ بين هذه الظروف وبين جرائم القتل أو أعمال العنف ولا نرى كيف أنَّ الإهانة الموجَّهة إلى دوق قدرت على نقل الألوف من الرجال من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ليقتلوا وينهبوا سكان أقاليم سمولنسك[٧] وموسكو، أو ليقتلوا من قبلهم.

---

[٣] رومیانتسیف: سياسي سبق ذكره.

[٤] شارل موريس دو تاليران بيريكور: أمير بنييفان، سياسي فرنسي، وُلد في باريز عام ١٧٥٤م، وتُوفِّي عام ١٨٣٨م. كان أسقف أوتون من قبلُ، ثم رئيسًا للجمعية الوطنية عام ١٧٩٠م، فوزيرًا للعلاقات الخارجية تحت حكومة «الإدارة»، ثم حكومة «القناصل»، ثم المملكة. ولعب دورًا هامًّا لامعًا في مؤتمر فيينا، وفي لندن حيث سمَّاه لويس فيليب سفيرًا. كان سياسيًّا غير شريف، ولكن مليئًا بالذكاء والإمكانيات.

[٥] أولدنبورج: بلد ألماني عضو في الرايخ الألماني، كان فيما مضى غراندوقية، ثم أضحى جمهوريةً عام ١٩١٩م.

[٦] جزيرة سانت هيلين (القدِّيسة هيلانة): الجزيرة التي نُفي إليها نابليون بونابرت في نهاية حكمِه ومات فيها.

[٧] سمولنسك: مدينة روسية على الدنيبر — نهر — سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة. انتصر الفرنسيون فيها عام ١٨١٢م.

إنَّ الأسباب في نظرنا، نحن الذين نمثِّل الأجيال المتعاقبة، نحن الذين لسنا مؤرِّخين والذين لا نتيه في مصلحة الاستقصاءات، بل نستطيع أن نتفحَّص هذا الحدث بحسٍّ جليٍّ أكثر من أن تُحصى، وكلما ازددنا تعمُّقًا في البحث عن هذه الأسباب، كلما تبدَّت لنا أكثر عددًا، وكل سبب نأخذه على حدةٍ، وكل مجموعة من الأسباب تبدو لنا بآنٍ واحد عادلةً في نفسها خاطئةً بسبب تفاهتها ومقارنتها بجسامة الحدث، حتَّى لتعجز عن الإتيان به دون تدخُّل الأسباب المطابقة الأخرى كلها. فإذا كنا مثلًا نستشهد برفض نابليون إيقاف قواته وراء الفيستول[٨] وإعادة دوقية أولدنبورج، فلماذا لا نستعرض كذلك رغبة أيٍّ كان من العرفاء الفرنسيين في التطوع من جديد أو رفضه؟ لنفرض جدلًا أنَّ هذا الرجل ومن ورائه ألوف آخرون من العرفاء، رفضوا أن يعودوا إلى الخدمة، فإنَّ جيش نابليون كان سيُمنى بنقصٍ، والحرب ما كانت لتقع.

لو أن نابليون لم يعتبر الانطواء وراء الفيستول مُذلًّا لَمَا تقدَّم بقواته، ولَمَا وقعت الحرب. لكن لو أنَّ رقباءه كلهم رفضوا الخدمة لما وقعت الحرب كذلك. كما أنه لولا دسائس الإنجليز ووجود الدوق أولدنبورج، ولو أن ألكسندر لم يكن سريع الغضب ولم تكن لروسيا حكومة أوتوقراطية، ولو لم تقع الثورة الفرنسية وحكومات «الإدارة»[٩] و«المملكة»[١٠] وأي شيء؛ مما أدَّى إلى تلك الثورة ... إلخ. فإن العدوان كان مستحيل الوقوع. ما كان ليحدث شيء لولا سبب من هذه الأسباب؛ فالتقاؤها ومليارات أخرى مشابهة وضع النار في البارود، لا يمكن استبعاد أيُّ سبب ولقد تأدَّى الحدث؛ لأنه كان لا بدَّ وأن يكون هكذا فحسب. كان يجب أن يمضي الملايين من الرجال فاقدين التعقل مُطلِقين كل عاطفة إنسانية، ومن الغرب إلى الشرق ليقتلوا أشباههم كما انحدرت جماهير من الرجال قبل بضعة قرون من الشرق إلى الغرب ليقتلوا أمثالهم هناك.

---

[٨] فيستول: بالألمانية ويخسل، بالبولونية ويسلا. نهر بولوني يروي كراكوفيا وفارسوفيا، ويتلقَّى مياه بيليكا وناروبوج ثم يصبُّ في دانتزيج — البلطيق — على شكل دلتا. طوله ١٠٧٠كم.

[٩] الإدارة (دير كتوا): اسم أُعطي للحكومة التي أدارت شئون فرنسا ابتداءً من ٢٧ تشرين الأول ١٧٩٥م (٥ برومير عام ٤ للثورة)، وقَلَبَها الجنرال بونابرت في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩م (١٨ برومير عام ٨ للثورة)، وكان «المديرون» يحكمون بمساعدة مجلس الأعيان ومجلس الخمسمائة.

[١٠] المملكة (أمبير): أسسها بونابرت الأول عام ١٨٠٤م، وتفكَّكت عام ١٨١٥م، فأعادها نابليون الثالث عام ١٨٥٢م، لتتفكَّك من جديد في ٤ أيلول ١٨٧٠م.

وفي الواقع إن أفعال نابليون وألكسندر اللذين كان كلامهما وحده يستطيع في الظاهر إثارة الحدَث أو حبسه، كانت تساوي بتفاهة وزنها قيمة أفعال الجندي البسيط الذي كان القَدَر أو التجنيد يُرغمه على خوض الحرب. ما كان يمكن أن تكون غير ذلك؛ لأنه لكي تتم مشيئة نابليون أو ألكسندر المحكَّمَيْن الظاهرَيْن بالمقدَّر، كان لا بدَّ من مساهمة الملابسات التي لا تُحصى طالما أنَّ الأمر ما كان ليقع لو استبعدت إحداها. كان لا بدَّ لهذه الملايين من الرجال الذين كانت بين أيديهم القوة الفاعلة بوصفهم جنود القتال ونقل أرزاق المدافع أن يوافقوا جميعًا على إمضاء مشيئة هذين الشخصين الضعيفين المنعزلين، وأن يكونوا مسترشدين بعدد لا يُحصى من الأسباب المختلفة المركَّبة.

لا بدَّ من اللجوء إلى مذهب الجبرية إزاء بعض الظواهر التاريخية العارية عن المعنى، أو التي يفوتنا معناها. والواقع أنَّ عقلنا كلما اجتهد في تفسيرها كلما بدت لنا منافية للصواب، متعذِّرة الفهم.

إنَّ كلَّ رجل يعيش من أجل نفسه ويستعمل حريته لبلوغ أهداف خاصة، ويشعر بكل كيانه أنه قادر أو عاجز على القيام بهذا أو ذاك من الأفعال، لكنه ما إن يعمل حتَّى يُصبح عمله الذي أنجزه في لحظةٍ ما من الديمومة لا رجعة فيه، ومِلكًا منذ ذلك الحين للتاريخ؛ حيث لا يعود حرًّا، بل خاضعًا للقَدَر.

إنَّ للحياة البشرية وجهَيْن؛ فهناك من الجانب الأول الحياة الشخصية التي تبلغ الحرية فيها مبلغَ ما للغايات من تجرُّد، ومن الجانب الآخر الحياة البدائية الجماعية التي يجب على الإنسان فيها أن يخضع حتمًا للقوانين المعينة له.

والإنسان يعيش عامدًا من أجل نفسه، لكنه يساهم دون عمد في أهداف الإنسانية جمعاء التاريخية. والفعل المنجز لا مردَّ له، وباتحاده مع ملايين الأفعال الأخرى المتمِّمة من قِبل الغير يأخذ قيمةً تاريخية. وكلما ارتفعت مرتبة الرجل على السلم الاجتماعي، كلما كانت الشخصيات التي يعقد معها العلاقات أرفع شأنًا، وكانت سلطته على الغير أوسع مدًى، وكلٌّ من أعماله مرتديًا طابعًا واضحًا من الضرورة والاصطفاء.

«إنَّ قلوب الملوك في يد الله.»[١١]

والملك عبد التاريخ.

---

[١١] أورد المترجم إلى الفرنسية ملاحظة حول هذه الجملة: «إنَّ النص الصحيح هو: إن قلب الملك مجرى ماء في يد ياهوه.» الأمثال: ١××، ١. ترجمة كرامبون.

والتاريخ، أي إن حياة الإنسانية العامة الجماعية غير العمدية تستخدم كل دقيقة من حياة الملوك لإنجاز مشاريعها.

وعلى الرغم من أنَّ نابليون عام ١٨١٢م كان يعتقد أكثر من أي وقت مضى أنَّه عليه وحده يتوقف «إهراق دم شعوبه أو عدم إهراقه» كما قال له ألكسندر في رسالته الأخيرة التي كتبها إليه. فإنه كان أكثر من أي وقت مضى خاضعًا لهذه القوانين الجبرية التي كانت تلزمه بتنفيذ عمل التاريخ العام الذي كان يجب حتمًا أن يُنفَّذ وهي تترك لهم التوهُّم بأنه إنما يعمل وفقًا لرغبته الشخصية.

تحرَّك رجال الغرب نحو رجال الشرق كي يُقتِّل بعضهم بعضًا، وتبعًا لقانون توافق الأسباب كانت ألوف الأسباب الصغرى متفقة مع هذه الحركة: خرق الحصار البرِّي، إهانات الدوق أولدنبورج، تسيير الجيوش في بروسيا الذي كان نابليون يُفكِّر في الشروع فيه بغية تأمين سلام مسلَّح فحسب، غرام إمبراطور الفرنسيين المتأصِّل بالحرب متفقًا مع استعداد خاص من جانب شعبه، الجاذبية المباشرة للتجهيزات الجسيمة والنفقات التي أوجبتها، حاجة الحصول على فوائد لتغطية هذه النفقات، استقبالات دريسد[١٢] المسكرة، المفاوضات الدبلوماسية التي كان المعاصرون يظنون أنها تجري برغبة مخلصة للحصول على السلم، والتي كانت في حقيقتها تسيء إلى أنانية هذا وذاك من الجانبين، وملايين من الأسباب الأخرى كانت تساهم في إتمام الحَدث.

تسقط تفاحة عندما تكون ناضجة، فلماذا تسقط؟ هل يجذبها ثقلها إلى الأرض أم أنَّ طرفها قد يبس، أم أنَّ الشمس حمستها، أم هزَّتها الريح فأسقطتها؟ هل تستجيب بكل بساطة لنداء الغلام الخفي الذي اشتهاها؟

لا شيء من كل هذا هو السبب! ليس هنا إلا توافق أسباب مواتية لإنجاز أية تظاهرة أولية في الحياة العضوية. فعالِم النبات يقول إنَّ التفاحة تسقط نتيجة تملُّل النسيج النووي أو شيء آخر من هذا النوع. والفتى يزعم أن التفاحة سقطت لأنه يشتهيها فتوجَّه بصلاة لهذه الغاية. وكلاهما يكون على حقٍّ. هذا يؤكِّد أنَّ نابليون جاء إلى موسكو لأنه كان يريد ذلك، وأنه وجد فيها خسرانه؛ لأنَّ ألكسندر كان قد اعتزم على إلحاق الخسارة به. وذاك

[١٢] دريسد: بالألمانية درسدن، مدينة ألمانية عاصمة الساكس على نهر إيلب، عدد سكانها ٦٣٠٢٢٠ نسمة، انتصر فيها نابليون على الحلفاء عام ١٨١٣م. شهيرةٌ اليومَ بإنتاج الآلات الميكانيكية والدقيقة والنسيج والخَزف.



المذنَّب العظيم عام ١٨١٢م.

يؤكِّد أن جبلًا زنته ألوف الأطنان قوِّض من قاعدته، فانهار نتيجةً لضربة معول أخيرة من يد آخر حفَّار. كلاهما مخطئ ومصيب معًا! إن الرجال العظام المزعومين ليسوا في الوقائع التاريخية إلا عناوين لا يربطها بالأحداث أي نوع من الصلات، رغم أنها تضفي أسماءها على تلك الأحداث.

وعلى الرغم من أنَّ تصرفاتهما بدت لهما ناجمة عن محض اختيارهما، فليس بينهما واحد مخيَّرًا بالمعنى التاريخي للكلمة، بل كلٌّ منهما مرتبط بسير التاريخ العام ومعيَّن منذ الأزل.

الفصل الثاني

أول الغيث

في التاسع والعشرين من آيار، غادر نابليون دريسد التي أمضى فيها ثلاثة أسابيع محاطًا ببطانة من الأمراء و«الدوقات» والملوك، بل ومعه حتَّى إمبراطور. لقد عامل قبل سفره الإمبراطور والملوك والأمراء الذين خدموه بإخلاص بمزيد من الإكرام، وعدَّل الأمراء والملوك الذين كان مستاءً منهم، وقدَّم لإمبراطورة النمسا لآلئ وماسات أخذها من صندوقه الخاص؛ أي إنها جواهر مصادَرة من ملوك آخرين. وبعد أن ضمَّ بين ذراعَيْه ماري لويز بحنانٍ تركها — كما يؤكِّد مؤرخه — محزونة جدًّا لهذا الرحيل الذي على ما يبدو لم تكن لماري لويز القوة على احتماله، وهي التي تُعتبر وكأنها زوجته، رغم أن زوجته الشرعية موجودة في باريز. وعلى الرغم من أن الدبلوماسيين ظلوا مؤمنين بإقامة السلم، وعملوا بنشاط لهذه الغاية، وعلى الرغم من أنَّ نابليون كتب لألكسندر رسالةً بخطِّ يده دعاه فيها «بسيدي أخي»، وأكَّد له فيها أنه لا يريد الحرب، ولن ينفكَّ عن تقديره ومحبته، فإن الإمبراطور ما كان ذاهبًا إلا للالتحاق بالجيش، فيعطي في كل مرحلة أوامر جديدة ترمي إلى الإسراع بالسير نحو الشرق. كان في عربة مقطورة إلى ست جياد، يحيط به التابعون ومساعدو الميدان والحرس، يسير في طريق بوزن[١] ثورن[٢] دانتزيج[٣] كونيجزبيرج[٤] الكبرى، وفي كل مدينة من هذه المدن يستقبله ألوف من الناس بحماس ممتزج بالرعب.

كان الجيش يسير نحو الشرق، كما أنَّ الجياد الستة التي تجرُّ مركبته، والتي كانت تبدَّل في كل مرحلة، كانت تحمل نابليون نحو الجيش. لحق به في العاشر من حزيران،

---

[١] بوزن: وبالبولونية بوزاني. مدينة بولونية عاصمة بوزنانيا على نهر وارتا، سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة، شهيرةٌ بالمصاهر والمنتجات الكيميائية، موطن هندنبورج.

[٢] ثورن: وبالبولونية توروني. مدينة بولونية عاصمة بوميريليا على نهر فيستول، سكانها ٤٠٠٠٠ نسمة.

وأمضى الليل في صلب غابة فيلكوفيسزكي في أملاك «كونت» بولوني؛ حيث أُعِد له جناح خاص لحلوله.

وفي صبيحة اليوم التالي، تجاوز الجيش فبلغ نييمن[٥] في عربة؛ حيث راح يتفحَّص الضِّفاف وهو في الزي البولوني بحثًا عن مكان مناسب لعبور القطعات.

ولَمَّا رأى القوقازيين القائمين على الشاطئ الآخر والأقفار اللامتناهية التي تقوم في وسطها موسكو المدينة المقدَّسة، عاصمة هذه المملكة التي تُذكِّر بمملكة يأجوج ومأجوج التي احتلها الإسكندر المقدوني، أمر نابليون بالسير إلى الأمام وسط الدهشة العامة والاستخفاف بكل العبارات الاستراتيجية أو السياسية. ومنذ صبيحة اليوم التالي اجتازت قواته النييمن.

وفي الثاني عشر، خرج مبكِّرًا من خيمته التي نُصبت ذلك اليوم عند منحدر من الضفة اليسرى، وراح يفحص بمنظاره تدفُّق جيوشه التي كانت تخرج من غابة فيلكوفيسزكي لتنتشر على الجسور الثلاثة المقامة على النييمن. وكان الجنود عارفين بوجود الإمبراطور، يبحثون عنه بأنظارهم، فإذا ما شاهدوا على المرتفع، أمام خيمته متنحيًا عن حاشيته، شبحَهُ وهو في «الرودنجوت» وعلى رأسه القبعة الصغيرة، ألقوا في الهواء بقلانسهم الوبرة وهم يصيحون: «عاش الإمبراطور!» وظلَّت القطعات تتدفَّق بلا انقطاع من الغابة التي كانت تخفيها وتمر منقسمة عن طريق الجسور الثلاثة إلى الضفة الأخرى.

«سوف نصل هذه المرة. آه! عندما يتدخَّل بنفسه يحمي الوطيس ... باسم الله! ... ها هو ذا ... يحيا الإمبراطور ... ها نحن أولاء في أقفار آسيا! بلد رديء رغم كل شيء.»

«وداعًا يا بوشيه، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو.» «إلى اللقاء وحظًّا سعيدًا! ...»

«هل رأيته، الإمبراطور؟ يحيا الإمبراطور ... طور!» «إذا جعلوا مني حاكمًا للهند سأجعلك يا جيرار وزيرًا لكشمير، هذا مقرر.» «يعيش الإمبراطور! يعيش! يعيش! يعيش!»

---

[٣] دانتزيج أو دانزيج: مدينة حرة في أوروبا الوسطى من ١٩١٩م حتَّى أول أيلول ١٩٣٩م، وهو تاريخ إلحاقها بالرايخ الألماني، سكانها ٤١٥٠٠٠ نسمة، احتلها الإفرنسيون عام ١٨٠٧م، وأعيدت إلى بولونيا بعد هزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥م، موطن فارنهايت وشوبنهاور.

[٤] كونيجزبيرج: اليوم كالييننجراد. مدينة ليتوانية بروسيا الشرقية، سكانهما ٣٧٢٠٠٠ نسمة، مرفأ على بريجل، موطن «كانت» و«بيتوبية»، احتلها سولت عام ١٨٠٧م.

[٥] نييمن: نهر في روتانيا البيضاء وليتوانيا، يروي جرودنو وكوفنو وتيلسيت، ويصب في البلطيق، طوله ٨٣٠كم.

«يا للقوقازيين الأنذال، كيف يفرون؟! يحيا الإمبراطور! ها هو ذا! هل تراه؟ لقد رأيته مرتين كما أراك. العريف الصغير ... لقد رأيته يعطي الصليب إلى واحدٍ من الكهول ...»
«يحيا الإمبراطور! ...»

تلك كانت العبارات التي يتبادلها الشبان والكهول، أشخاص من كل نوع ومن كل المراكز الاجتماعية. وكانت الوجوه كلها تعكس فرحة واحدة لرؤية بدء الحملة المنتظرة بفارغ الصبر، وحماسًا واحدًا وتفانيًا واحدًا للرجل ذي الرودنجوت الرمادي الذي كان يُرى في الأعلى فوق المنحدر.

وفي الثالث عشر، جاءوا إلى نابليون بحصان عربي أصيل، فامتطاه وانتهى إلى واحد من جسور النييمن هربًا، وقد أصمَّته خلال الطريق الهتافاتُ بحياته التي احتملها؛ لأنه ما كان يستطيع أن يحرِّم على جنوده الإعراب عن محبتهم له بهذا الشكل، وكانت هذه الصيحات المسترسلة توقِّره، كانت تحرفه عن المشاغل ذات الصبغة العسكرية التي كان فريسة لها منذ أن لحق بالجيش. اجتاز النهر على واحد من الجسور المتهزِّزة، وانحرف فجأةً إلى اليسار، ثم جرى على حصانه في طريق كوفنو[٦] يسبقه قنَّاصة من الحرس الراكب يستخفُّهم الفرح كانوا يشقُّون له طريقًا خلال القطعات. ولمَّا وصل إلى شاطئ فيليًّا العريض؛ توقَّف قُرْب فيلق من الفرسان البولونيين الذين كانوا نازلين هناك.

هتف البولونيون بدورهم: «يحيا!»

وفي غمرة حماسهم أفسدوا نظام الصف، وتدافع بعضهم بعضًا ليروه بشكل أفضل.

تأمَّل نابليون النهر ثم ترجَّل عن حصانه وجلس على لوح خشبي على جانب الشاطئ، ودون أن ينبس بكلمة حملوا له منظاره بإشارة منه؛ فأسنده على كتفِ واحدٍ من أتباعه، الذي هرع تملؤه الغِبطة، وراح يفحص الشاطئ المقابل، استغرق في دراسة الخريطة المنشورة على جذوع شجرة، ودون أن يرفع رأسه نطق ببضع كلمات، فحثَّ اثنان من مساعدي الميدان جوادَيْهما نحو الفرسان البولونيين. ولمَّا وصل أحدهما إليهم، سَرَتْ همهمة بين الصفوف: «ماذا قال؟ ماذا قال؟»

كان الأمر ينصُّ على البحث عن مخاضة وعبور النهر. سأل زعيم الفرسان — وكان رجلًا مسنًّا أنيق اللباس وهو مضرَّج الوجه يُتمتم من التأثُّر — المساعدَ عمَّا إذا كان

---

[٦] كوفنو بالروسية واسمها الحالي كاوناس: عاصمة ليتوانيا حتَّى عام ١٩٤١م على نهر ميميل (نييمن)، سكانها ١٥٢٤٠٠ نسمة بقيادة نابليون بونابرت.

يسمح له بعبور النهر سباحةً دون التفكير في المخاضة، ولقد التمس بذعرٍ ظاهرٍ خشيةَ أن يرفض ملتمسه، شأن الصبي الذي يسأل الإذن بامتطاء صهوة جواد، أن يُسمَح له بتنفيذ هذه المأثرة تحت بصر الإمبراطور. فأجاب المساعد بأن هذا لن يكون — ولا ريب — مستاءً من هذه الغَيْرة المفرِطة.

وفي الحال هزَّ الضابط المسنُّ ذو الشاربين الطويلين سيفه، وهتف ملتمع العينين مُشرِق الأسارير: «فيفا! يحيا.» ثم أعطى الأمر لجنوده أن يتبعوه، وهمَز حصانه واندفع نحو النهر. ولَمَّا جمح الحصان، شدَّد عليه بغضب وغاص في الماء متجهًا نحو موضع يكون التيار فيه قويًّا، وتبعه مئات من الفرسان، ولكن ما إن بلغوا منتصف النهر حتَّى استبدَّ بهم البرد والخوف، فتعلَّق بعضهم ببعض وهم حيارى. غرقت بعض الجياد، وبعض الرجال كذلك، وحاول آخرون أن يسبحوا وهم متشبِّثون بعضهم بسروج الجياد وبعضهم بأعرافها. جاهدوا لبلوغ الشاطئ الآخر رغم أنَّ هناك مخاضةً على بُعد خمسمائة متر من المكان، لكنَّهم كانوا فخورين بأن يسبحوا وأن يغرقوا تحت أبصار ذلك الرجل الجالس على جذع شجرة، الذي لم يكن ينظر حتَّى ما كانوا يفعلون. ولَمَّا عاد المساعد العسكري، انتهز فرصة مواتية ليلفت انتباه الإمبراطور إلى تفاني البولونيين في سبيل شخصه، وحينئذٍ نهض الرجل ذو «الرودنجوت» الرمادي واستدعى بيرتييه،[٧] وراح يتنزَّه معه على طول النهر وهو يعطيه أوامره ويُلقي نظرات ساهمة مستاءةً على أولئك الفرسان الذين كانوا بغرقهم يحوِّلون انتباهه عن الأعمال الجدِّية.

كان قانعًا منذ زمن طويل أنَّ وجوده في كل أركان العالم ابتداءً من أفريقيا وحتى أقفار موسكوفا، يُكهرِب كل الرجال ويثير فيهم جنون التضحية؛ لذلك فقد استحضر جواده وعاد إلى مخيَّمه.

وعلى الرغم من القوارب التي أُرسلت لإنقاذهم، فقد غرق حوالي أربعون فارسًا وارتدَّ معظمهم إلى الشاطئ. أما الزعيم وعدد من الرجال، فقد بلغوا بصعوبة الشاطئ الآخر، وما إن ظهروا هناك بثيابهم المبلَّلة بالماء حتَّى هتفوا: «فيفا!» وهم ينظرون إلى المكان الذي كان فيه نابليون، والذي لم يعد فيه، شاعرين بالسعادة.

---

[٧] بيرتييه: لويس ألكسندر بيرتييه، أمير واجرام، أمير نوشاليه، ماريشال فرنسا، وُلد في فرساي عام ١٧٥٣م، كان الماجور جنرال في الجيش الكبير (جيش نابليون الذي غزا روسيا)، كان على حظوة كبيرة لدى نابليون الأول، بيد أنه وقَّع بنفسه عام ١٨١٤م وثيقة انحطاطه، قتل نفسه، أو قُتل، في بامبيرج عام ١٨١٥م.

وفي المساء، بين قرارين: الأول يهدِف إلى سرعة استقدام نقد زائف معدٍّ لإدخاله إلى روسيا. والثاني إعدام سكسوني عُثر معه على رسالة تحوي معلومات عن حركات الجيش الفرنسي، اتخذ الإمبراطور قرارًا ثالثًا ينص على تسمية الزعيم البولوني الذي اندفع في النهر دون أية ضرورة مُلحَّة، عضوًا في جوقة الشرف التي كان هو رئيسها.

إنَّ الذين يريدون الموت يتخلَّون عن تعقُّلهم أولًا.

الفصل الثالث

النبأ

في تلك الأثناء كان إمبراطور روسيا في فيلنا[1] منذ أكثر من شهر؛ حيث كان يتفقَّد جيوشه ويشاهد مناورات عسكرية. كان الناس كلهم يتوقَّعون الحرب، ولقد غادر الإمبراطور بيترسبورج عامدًا ليعدَّ العُدَّة للحرب، مع أنه لم يكن هناك شيء بعد. لم تكن لديه خطة عامة للعمليات، ولقد عُرض عليه عددٌ منها ولكن دون أن يتبنَّى إحداها. وكلَّما أطال ألكسندر مقامه، ازداد البلبال في اتخاذ ما يجب اتخاذه. كان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده الأعلى، ولكن لم يكن هناك قائد أعلى، وكان الإمبراطور يرفض الاضطلاع بهذا المنصب الرفيع.

كان الوقت يمر في انتظارٍ غير مُجدٍ، والسأم يزيد في إعاقة الاستعدادات يومًا بعد يوم، وحاشية جلالته تبدو صارفةً كل عنايتها إلى تمضية وقته على أحسن وجه، ونسيان خطر الحرب الوشيكة.

وبعد عديد من الحفلات الراقصة والأعياد التي أقامها الأشراف البولونيون ورجال الحاشية والإمبراطور نفسه، واتت أحدَ المساعدين العسكريين من الجنرالات البولونيين في شهر حُزيران فكرةُ إقامة مأدبة عشاء وحفلة راقصة على شرف جلالته باسم كل زملائه. وقد قُبِلت هذه الفكرة بحماس، وأبدى الإمبراطور قبوله، ففتح المساعدون العسكريون الجنرالات حملة اكتتاب، ووافقت التي كانت تتمتَّع بالتفاتة ألكسندر الخاصة على أن تقوم

[1] فيلنا: الاسم القديم لمدينة ويلنو اليوم على نهر فيليا، سكانها ٢٠٧٠٠٠ نسمة، احتلَّتها بولونيا عام ١٩٢٠م، لكن ليتوانيا طالبت بها باعتبارها عاصمتها السابقة، فأعادها السوفياتيون إليها عام ١٩٣٩م.

بدور ربَّة البيت. ولمَّا كان الكونت بينيجسن،[٢] الذي كانت أملاكه واقعة قرب إقليم فيلنا، قد وَضع تحت تصرُّف المنظِّمين قصرَهُ في زاكرت؛ فقد تقرَّر أن يتمَّ العيد، الذي يشتمل على العشاء والحفلة الراقصة والنزهة على الماء والنيران الاصطناعية، يوم الثالث عشر من حزيران.

فاليوم — إذن — الذي أعطى فيه نابليون الأمر باجتياز النييمن، والذي راحت طلائعه تردُّ القوقازيين فيه، وتنتهك حرمة الحدود الروسية، كان ألكسندر يُمضي السهرة عند الكونت بينيجسن مدعوًّا من قِبل مساعديه العسكريين.

كان الاحتفال مرِحًا رائعًا، وقد أكَّد العارفون أنهم لم يرَوْا من قبلُ قطُّ هذا العدد من النساء الجميلات مجتمعات. وكانت الكونتيس بيزوخوف، التي تَبِعت الإمبراطور إلى فيلنا ترافقها سيدات روسيات أخريات، تكسف «بجمالها الروسي» المترَف جمال البولونيات الأكثر رقَّةً ولطفًا، ولقد لفتت إليها الأنظار وشرَّفها الإمبراطور بمراقصتها.

وكان بوريس دروبتسكوي هناك أيضًا عَزَبًا — كما كان يقول — لأنه ترك زوجته في موسكو، وعلى الرغم من أنه لم يكن قطُّ مساعدًا عسكريًّا جنرالًا فقد ساهم رغم ذلك بمبلغ كبير في الاكتتاب. كان حينذاك قد أضحى رجلًا غنيًّا متقدِّمًا جدًّا في طريق المراتب والوظائف، بعيدًا عن البحث عمَّن يحميه، يعامل أرفع معاصريه مكانةً معاملة الندِّ للندِّ، ولقد وجد هيلين في فيلنا، وهو الذي فقد آثارها منذ بعض الوقت، وكان الماضي منسيًّا. ولكن، بما أنَّ هيلين كانت تتمتَّع بالتفاتة شخصية سامية وأفضالها، وكان بوريس متزوِّجًا منذ بعض الوقت، فقد أصبحا لفورهما أصدقاء قدماء.

حوالي نصف الليل كان الرقص لا يزال دائرًا، ولمَّا لم تجد هيلين فارسًا جديرًا بمراقصتها؛ فقد عرضت على بوريس أن ترقص «المازوركا» بصحبته، فشكَّلا الزوج الثالث. وبينما كانا يتسامران حول معارفهما القدماء، كان بوريس يلامس بنظرة لا مبالية كتفَي هيلين العاريتين الباهرتين البارزتين فوق مشدٍّ من شف داكن موشَّى بالذهب. ولكن دون أن يشعر أحدٌ — بل ولعله لم يشعر هو نفسه، كانت تلك النظرة لا تنفكُّ تتابع الإمبراطور الذي كان موجودًا في ذلك البهو نفسه. ما كان ألكسندر يرقص،

[٢] بينيجسن: هو أوجوست دو بينيجسن، جنرال روسي وُلد في برونسويك عام ١٧٤٥م وتُوفِّي عام ١٨٢٦م. هزمه الإمبراطور نابليون بونابرت في إيلو، وهي مدينة ليتوانية قُرب كالييننجراد عام ١٨٠٧م.

كان واقفًا قُرب الأبواب يستوقف هذا تارةً وذاك تارةً أخرى، ويُنعِم عليه بتلك الكلمات اللطيفة التي كان وحده يُحسِن النطق بها.

لاحظ بوريس عند بدء المازوركا أنَّ الجنرال المساعد العسكري بالاشيف — وهو أحد المقرَّبين إلى الإمبراطور — اقترب من سيدة وراح ينتظر — رغم آداب البروتوكول — أن يفرغ هذا من التحدُّث إلى سيدة بولونية. استفسره ألكسندر بالنظر، ولمَّا أدرك أنْ لا بدَّ من أسباب خطيرة أدَّت إلى تجاوز تابعه، خطا خطوة نحوه بعد أن صَرف السيدة بإشارة من رأسه. وما كاد بالاشيف يدلي ببعض الكلمات حتَّى ارتسمت الدهشة العميقة على وجه ألكسندر. أمسكَ بمساعده العسكري من ذراعه واجتاز البهو معه دون أن يعير الجموع التي كانت تتنحى له عن فسحة عريضة لمروره، التفاتًا. غير أن آراكتشييف وحده، الذي كان بادي الانفعال العميق، خرج من بين الجموع وكأنه توقَّع أن يوجِّه إليه ألكسندر الكلام، بعد أن ألقى نظرة على وجه سيده ونخر بخفَّة بأنفه الأحمر. أدرك بوريس الذي لم يغِب عنه هذا التدبير، أن آراكتشييف غيران من بالاشيف، مستاء لأن نبأً لا بدَّ وأنه هام لم يُنقل إلى الإمبراطور عن طريقه، لكن الإمبراطور مرَّ أمامه دون أن يرمقه، واقتاد بالاشيف إلى الحديقة المُنارة، فأسند آراكتشييف سيفه بيده وألقى حوله نظرات غاضبة ثم تبعه على بُعد عشرين خطوة.

ظلَّ بوريس طيلة رقصة المازوركا مضطرب الخاطر لمعرفة النبأ الذي حمله بالاشيف، وكيف يستطيع الإحاطة به قبل كل الناس. وفي اللحظة التي كان عليه أن ينتقي سيدة غمغم في أذن هيلين أنه سيأخذ الكونتيس بوتوكا التي يظن أنها خرجت إلى الشرفة، ثم اندفع بخطواته المنزلقة نحو باب الحديقة وتوقَّف لدى رؤيته الإمبراطور وبالاشيف وهما عائدان إلى البهو. وبسرعة كليَّة، وكأنه لم يجد وقتًا للانحراف، توقَّف بوريس وقفة محترمة إلى جانب إطار الباب.

كان الإمبراطور يُنهي محادثته مع بالاشيف بانفعال الرجل الذي تلقَّى إهانة بالعبارات التالية: «الدخول إلى روسيا دون إعلان الحرب! لن أعقد صُلحًا طالما بقي فوق أرضي عدو واحد مسلح.»

بدا لبوريس أن الإمبراطور يتفوَّه بهذه الكلمات بلون من الرضاء؛ لقد حَلَت له الصيغة التي أعطاها لفكرته. لكنه مع ذلك استاء؛ لأن بعضهم سمع قوله فأضاف وهو يقطِّب حاجبَيْه: «لا يجب أن يعلم أحدٌ شيئًا.»

أدرك بوريس أن هذه الملاحظة موجَّهة إليه، فخفض عينيه وأحنى رأسه، لكن الإمبراطور في تلك اللحظة كان يدخل إلى البهو؛ حيث لبث قرابة نصف ساعة أخرى.

كان بوريس على هذا النحو أوَّل من عَلِم بأنَّ الفرنسيين اجتازوا النييمن، فاستطاع بذلك أن يُظهر لبعض الشخصيات العالية أنَّ ما هو خافٍ على غيره معلومٌ لديه، الأمر الذي زاده رفعةً في نظر هؤلاء.

بدا هذا النبأ شديد الإذهال؛ لأنه جاء في غمار حفلة راقصة بعد شهر انتظار غير مُجدٍ. ولقد ألهم السخطُ والغضبُ الإمبراطورَ الصيغةَ التي أظهر رضاءه عنها؛ لأنها كانت تستجيب تمامًا لعواطفه، والتي أصبحت فيما بعد ذائعة الشهرة. وعندما عاد من الحفلة الراقصة في الساعة الثانية صباحًا، أرسل يستدعي أمين سرِّه شيشكوف، فأملى عليه أمرًا يوميًّا لقطعاته وكتابًا ملكيًّا إلى الماريشال الأمير سالتيكوف عُني فيه بأن تظهر الجملة العتيدة التي يؤكِّد فيها أنه لن يعقد صلحًا طالما كان فرنسيٌّ واحدٌ مسلحٌ يطأ الأرض الروسية.

وفي اليوم التالي، استكتب إلى نابليون الرسالة التالية:

> سيدي أخي، لقد علمت أمس أنه رغم الإخلاص الذي حافظت به على تعهُّداتي حيال جلالتكم، فإن قطعاتكم قد اجتازت الحدود الروسية، وتلقيتُ الآن من بيترسبورج إشعارًا يعلن فيه الكونت لوريستون — عطفًا على هذا الاعتداء — أنَّ جلالتكم اعتبرتم نفسكم في حالة حرب معي منذ أن طلب الأمير كوراكين أوراق اعتماده. إنَّ الأسباب التي بنى عليها الدوق دوباسانو[٣] رفضَه إعادتها إليه ما كانت قطُّ لتجعلني أتوقَّع أنَّ هذا التصرف سيغدو ذريعة للاعتداء. والواقع أنَّ هذا السفير لم يكن قطُّ مُجَازًا كما أعلن ذلك بنفسه، وإنني ما أُنهيَ إليَّ النبأ حتَّى أعلمتُهُ مبلغ استنكاري، وأمرته بالبقاء في مركزه. فإذا كنتم جلالتكم لا تنوون سفك دماء شعوبكم بسبب سوء تفاهم من هذا النوع،

---

[٣] هو ج. بيرنار دوق دوباسانو: رجل دولة فرنسي، وُلد في ديجون عام ١٧٦٣م، وتُوفِّي عام ١٨٣٩م. امتاز بتفانيه في خدمة نابليون بونابرت، ثم أضحى أمير فرنسا على عهد لويس فيليب.

يُفهم من سياق هذه الرسالة أنَّ الأمير كوراكين كان سفير روسيا في فرنسا؛ فطلب سحب أوراق اعتماده، وأن الكونت لوريستون كان سفير فرنسا في بيترسبورج عاصمة القيصر في ذلك الحين.

وتوافقون على سحب قواتكم من الأراضي الروسية، فإنني سأعتبر ما حدث كأنه لم يكن، وحينئذٍ يمكن إيجاد تسوية بيننا. وفي الحالة المعاكِسة يا صاحب الجلالة، أجد نفسي مُرغمًا على صدٍّ هجوم لم يُثِره قط شيء من جانبي، وأنه يتوقَّف على جلالتكم إنقاذ الإنسانية من مصائب حرب جديدة، وإنني ... إلخ.

التوقيع: «ألكسندر»

الفصل الرابع

الرسول

في الثالث عشر من حزيران، استدعى الإمبراطورُ بالاشيفَ الساعة الثانية صباحًا، وبعد أن قرأ عليه رسالته إلى نابليون أعطاه الأمر بالذهاب بنفسه لتسليمها بالذات إلى الإمبراطور الفرنسي. ولمَّا أذن له بالانصراف كرَّر مرةً أخرى «أنه لن يعقد صلحًا طالما ظلَّ عدو واحد مسلَّح على الأرض الروسية»، وحتَّم عليه أن يعيد هذه الكلمات بأمانة على مسامع نابليون. أما إذا كان لم يضمِّنها رسالته، فلأنه كان يشعر بفطنته المألوفة أنها لا تتفق مع محاولة أخيرة بقصد التسوية، لكنه أَمَرَ بالاشيف أن ينقلها إليه شفهيًّا.

وصل بالاشيف فجر الرابع عشر من حزيران إلى قرية ريكونتي التي تحتلها الطلائع الفرنسية، مصحوبًا بنافخ بوق وقوقازيين، فأوقفه حُرَّاس من الخيَّالة.

صاح به رقيب أول من الفرسان في بزَّة من القطيفة الحمراء وقلنسوة مزغبة يأمره بالوقوف، فلم يُطِع بالاشيف الأمر فورًا، واستمرِّ يمشي مترجِّلًا، فقطَّب صف الضابط حاجبَيْه وتمتم بالسِّباب، ثم قطع الطريق على الجنرال الروسي بحصانه وامتشق حسامه، ثم استجوبه بغلظة: «هل هو أصم حتَّى لا يسمع ما يقال له؟!» أعلن بالاشيف اسمه فأرسل الرقيب الأول جنديًّا لاستقدام ضابط، وراح يثرثر مع رفاقه دون أن يُلقي بالًا إلى الرسول الروسي أو أن يمنحه مجرَّد نظرة.

أما بالاشيف الذي كان على علاقة دائمة مع السلطة العليا، وكان قبل ثلاث ساعات يتحادث مع الإمبراطور وقد أَلِف أساليب الحفاوة والترحيب بحُكم منصبه، فقد دهش دهشةً أليمة عندما رأى أنه يعامَل معاملة العدو في أرض روسية، وأنه — إضافةً إلى ذلك — محروم من كل اعتبار من قِبل هذا الممثل عن القوة الوحشية.

كانت الشمس تخترق السُّحب، والهواء يُرطِّبه الندى ويُبرِّده، والقرويون يسوقون ماشيتهم إلى الحقول، والقُبَّرات تنبعث الواحدة أثر الأخرى من القمح أشبه بالفقَّاعات فوق سطح الماء وهي تُطلِق لحنَيْها السريعين المتلاحقين.

راح بالاشيف، بانتظار الضابط الذي ذهبوا يستقدمونه من القرية، يتفحَّص ما حوله، وراح القوقازيان والبواق يتبادلون بين الحين والآخر نظرة مع الفرسان الفرنسيين.

جاء زعيم الفرسان، الذي فاجأوه حتمًا فور مغادرة سريره، على صهوة جواد أشهب جميل وهو في أحسن هندام، يتبعه اثنان من رجاله. بدا الضابط والجنود، بل وحتى جيادهم أيضًا، بمظهر القرير الظريف. كان ذلك في بداية الحرب حينما كانت القطعات لا تزال شديدة التأنُّق، وكأنها في صبيحة عرض مع شيء ما أكثر «عسكريةً» في تجهيزاتهم، وذلك اللون من البهجة والاندفاع الذي يصحب دائمًا الشروع في حملة ما.

وعلى الرغم من أن الزعيم كان يجد صعوبة في إخفاء تثاؤبه، فإنه بدا أنيسًا ولم تفُتْه قطُّ أهمية المهمة التي جاء بالاشيف من أجلها. اجتاز معه الخط الأول وطمأنه بأنه، تبعًا لرغبته، لن يلبث حتَّى يَمثُل بين يدَي الإمبراطور الذي كان مقرُّ قيادته على ما يعتقد في مكان مجاور.

اجتاز قرية ريكونتي ومرَّ بحُرَّاس خيول ورُقَباء وفرسان كانوا يحيُّون زعيمهم وهم يتطلَّعون بفضول إلى الزيِّ الروسيِّ. وعند خروجهما من الضيعة قال الزعيم لبالاشيف إنهما سيجدان على بُعد كيلومترين من هناك قيادة الفوج، وأنَّ هذه القيادة سترسله إلى القيادة العامَّة.

وكانت الشمس قد بزغت وراحت تسطع بنشوةٍ فوق الخُضرة الزاهية.

تسلَّقا سفحًا، وما كادا يجتازان حانًا يُتوِّجُه حتَّى شاهد إقبالتهما كوكبةُ فرسان تظهر صاعدة السفح الآخر، وعلى رأسها يتقدَّم رجل مديد القامة ذو قبَّعةٍ يزيِّنها ريش، وشعرٍ أسود تتساقط خصلاته على كتفَيْه، وساقين طويلتين مندفعتين إلى الأمام تبعًا لعادة الفرنسيين الفرسان، على صهوة جواد أدهم كانت عدَّته تلتمع تحت وهج الشمس. فلمَّا رأى هذا الرجل بالاشيف، اندفع بجواده وهو يماوج تحت شمس حزيران الحادَّة، ويلألئ ريش قبَّعته ومجوهراته وشرائطه الذهبية.

ولم يكَد بالاشيف يصبح على مسافة طولَيْن من ذلك الفارس ذي المظهر المسرحي المغطَّى بالأساور والريش والقلائد والبهارج حتَّى همس الزعيم الفرنسي «أولز» في أذنه بغمغمة كلها احترام: «ملك نابولي!» والواقع أن ذلك الفارس كان مورا[١] الذي بات الآن

يُدعى ملك نابولي. وعلى الرغم من استحالة معرفة السبب الذي من أجله أُعطي له هذا اللقب، فقد كانوا يسمُّونه كذلك، وكان هو نفسه مقتنعًا بأنه ملك؛ الأمر الذي كان يعطيه مظهرًا أكثر وقارًا وأكثر عَظَمَةً من ذي قبل. ولقد كان مقتنعًا بذلك، حتى إنه عشيَّة يوم رحيله، بينما كان يتنزَّه مع زوجته في شوارع نابولي إذ حيَّاهما بعض الإيطاليين بصيحة «يحيا الملك»، فالتفت إلى زوجته وقال لها بابتسامة حزينة: «التُّعساء، إنهم لا يدرون أنني سأغادرهم غدًا.»

وبنفس الوقت الذي اعتبر نفسه فيه ملكًا حقيقيًّا، وراح يرثي للألم الذي سيصيب رعيَّته بسبب غيابه، فإن مورا عندما تلقَّى الأمر بأن يعود إلى الخدمة، وعلى الأخص في دانتزيج عندما قال له صهره المبجَّل: «لقد جعلتُك ملكًا لتحكم على طريقتي وليس على طريقتك»، استعاد بدعة عمله المألوف أشبه بجواد حسن التغذية ولكن قليل الشحم، ما إن أحسَّ بنفسه مقطورًا إلى عربة حتَّى أَكْدَفَ المحمل ومضى، وراح في أبهى حُلَّة ودون أن يدرك السبب يتوثَّب بخفَّة على طُرق بولونيا.

ولمَّا شاهد الجنرال الروسي، ألقى رأسه المتوَّج بالشعر العَكِف إلى الوراء بحركة ملوكية، واستفسر الزعيم الفرنسيُّ بنظرةٍ، فعيَّن هذا لجلالته بكل احترام صفة دو بالاشيف الذي لم يتوفَّق في النطق باسمه.

قال الملك وهو يحسم الصعوبة بعزمه المألوف: «دو بالماشيف.»

ثم أضاف بحركة تدلُّ على تنازله الملوكي: «يسعدني أنني تعرَّفت إليك يا جنرال.»

وما إن راح يتحدَّث بسرعة وبصوت مرتفع حتَّى تبدَّدت رِفعته كلها، واتخذ دون أن يلاحظ هو نفسه لهجة سذاجة قلبية. وضع يده على حَارِك جواد بالاشيف وقال وكأنه يأسَف لتوافق ظرفي ليس من اختصاصه الحكم عليه: «حسنًا يا جنرال، إنَّ كل شيء على ما يبدو راجع إلى الحرب.»

أجاب بالاشيف وهو يفرط في استعمال كلمة يا صاحب الجلالة — وهو تودُّد لا بدَّ منه عندما يتحدَّث المرء إلى شخص لا يزال هذا اللقب جديدًا عليه: «يا صاحب الجلالة، إنَّ الإمبراطور مولاي لا يرغب قطُّ في الحرب كما ترون جلالتكم.»

[١] جواشيم مورا: أخو زوجة نابليون الأول، وزوج كارولين بونابرت ماريشال فرنسا. وُلد عام ١٧٦٧م في باستيد مورا، ونُصِّب ملكًا على نابولي بين ١٨٠٨–١٨١٥م، ثم اضطر إلى التخلِّي عن مملكته التي حاول استردادها فيما بعد، لكنه اعتُقل في بيزو وأُعدم رميًا بالرصاص.

وبينما كان السيد «دو بالاشيف» يتحدَّث إليه، كان وجه ملك نابولي يطفح برضى سخيف، لكن الملك مرغَم؛ لقد وجد أنَّ من الضروري بوصفه ملكًا وحليفًا أن يدخل في محاورة سياسية مع مبعوث ألكسندر. وعليه، فقد ترجَّل عن جواده وأمسك بذارع بالاشيف، ونأى به بضع خطوات بعيدًا عن حاشيته التي كانت تنتظره بامتثال، وراح وهو يتنزَّه معه عرضًا وطولًا يحدِّثه بمواضيع حرص على أن يعطيها بعض الوزن. وتبعًا لقوله، فإنَّ الطلب إلى الإمبراطور بسحب قواته من روسيا قد نكَّده بقدر ما جَرحت علانيةُ هذا المطلب الملحاح كرامة فرنسا.

ولمَّا راح بالاشيف يعترض بأنَّ هذا الطلب ليس فيه ما يهين بالنظر إلى ... قاطعه مورا قائلًا بابتسامة بلهاء: «إذن، فإنَّ المحرِّض ليس الإمبراطور ألكسندر في رأيك؟»

عرض بالاشيف الأسباب التي من أجلها كان يرى أنَّ نابليون هو مثير الحرب، فقاطعه مورا من جديد قائلًا باللهجة التي يتظاهر بها الخدم الحريصون على البقاء على وفاق وودٍّ رغم مشاحنات أسيادهم: «آه! يا عزيزي الجنرال، أتمنَّى من كل قلبي أن يسوِّي الإمبراطوران الأمرَ بينهما، وأن تنتهي الحرب التي بدأت رغمًا عني في أسرع وقت ممكن.»

استعلَم بعدئذٍ عن صحة الغراندوق، واستعرض ذكرى الأويقات الطيبة التي قضياها معًا في نابولي. وفجأةً، وكأنه شعر فجأةً بوقاره الملكي، انتصب بجلالٍ واتخذ الوقفة التي وقفها ساعة تتويجه وقال مُشفِعًا قوله بحركة فضفاضة: «لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال، أتمنَّى نجاح مهمتك.»

ولحق بحاشيته التي كانت لا تزال تنتظره بامتثالٍ ظاهرٍ وهو متَّشح بمعطفه الأحمر الموشَّى بالذهب ومزيَّن بريشِ قبَّعته الذي يخفق مع الريح، ومجوهراته التي تلتمع تحت ضوء الشمس.

تابَعَ بالاشيف طريقه، ولمَّا كان مطمئنًّا إلى أقوال مورا، فقد كان يظن أنه لن يلبث حتَّى يجد نفسه في حضرة نابليون، لكنَّ حُراس فوج مدفعية دافو[2] استوقفوه في القرية التالية كما وقع له على خطِّ الجبهة، واستُدعي مساعد عسكري ليقوده إلى حضرة الماريشال.

---

[2] لويس نيكولا دافو: دوق دوئرسادت، أمير إيكمول، ماريشال فرنسا، وُلد في آنو عام ١٧٧٠م، وتُوفِّي عام ١٨٢٣م، وكان من أفضل معاوني نابليون.

الفصل الخامس

العودة إلى فيلنا

كان دافو آراكتشييف نابليون آراكتشييفًا دون جُبن، ولكن شديد التدقيق مثله، عاجزًا مثله عن إثبات تفانيه لسيده عن طريق آخر غير قسوته.

إنَّ رجالًا كهؤلاء يُعتبرون ضرورة في مجموعةِ دولةٍ ما كضرورة الذئاب في الطبيعة؛ فهم موجودون وهم محافظون على وجودهم مهما بدت دالتهم على رئيس الدولة مستحيلة. إنَّ هذه الضرورة المُلحَّة وحدها تُفسِّر كيف أن هذا الآراكتشييك القاسي الذي كان ينتزع بيديه شارب النخبة من جنوده دون أن يجرؤ، بسبب ضعف أعصابه، أن يواجه أدنى خطر، تفسِّر كيف أنَّ ذلك الشخص معدوم الثقافة والتهذيب استطاع أن يمارس تأثيرًا بعيدًا على طبيعة ألكسندر النبيلة الحانية الأبيَّة!

وجد بالاشيف دافو جالسًا فوق برميل في مكدس منشغلًا في تدقيق حسابات، وإلى جانبه مساعد عسكري واقف. كان المريشال يستطيع أن يجد مستقرًّا أفضل، لكنه كان من أولئك الذين يحبُّون أن يوفِّروا لأنفسهم أكثر الشروط الحياتية خشونةً ليظهروا هم أكثر خشونةً. ومن أجل ذلك هم مُثقَلون أبدًا بالعمل ينوءون. كان المرء يقرأ على وجهه: «كيف يفكِّر المرء بمباهج الحياة عندما يكون — كما ترى — جالسًا على برميل في مكدس حقير منكبًّا على العمل!» إنَّ سرور هؤلاء الأشخاص البالغ ورغبتهم الفطرية تقتصر على إلقاء عملهم المستمر الضَّجِر في وجوه الناس الذين يستسلمون لتيار الحياة، وهذا هو الذي أحسَّ به دافو عندما رأى بالاشيف يصل. استغرق أكثر من أي وقتٍ آخر في حساباته، وبعد أن ألقى نظرةً خلال نظَّارتَيْه على وجه الجنرال الذي أعادت له رحلته المبكرة ومداولته مع مورا بشاشته، زاد تخديد حاجبَيْه دون أن ينهض أو حتى أن يشرع بحركة ما وابتسم ابتسامةً قبيحة. ولَمَّا لاحظ الأثر غير المستحبِّ الذي أحدثه استقباله هذا على الوافد الجديد، انتهى به الأمر إلى أن يرفع رأسه، وأن يسأله بلهجة جامدة عما يريد.

عزا بالاشيف هذا الاستقبال البارد إلى واقع جهل دافو بصفته المزدوجة كمساعد عسكري ومبعوث إلى نابليون من قِبَل الإمبراطور ألكسندر فقط؛ لذلك فقد بادر إلى الإدلاء بألقابه، ولكن خلافًا لَمَا كان ينتظر، لم يَزِد ذلك دافو إلا جفاءً وتجهُّمًا. قال: «أين رسالتك وسأرسلها إلى الإمبراطور؟»

فاعترض بالاشيف بأنَّ لديه أمرًا بتسليم الرسالة إلى الإمبراطور بالذات.

– «إن أوامر إمبراطوركم ذات قيمة في جيشكم، أمَّا هنا، فعليك أن تعمل ما يقال لك أن تعمله.»

وكأنه أراد أن يُشعر الجنرال الروسي بطريقة أفضل بأنه هناك رهن القوة القاهرة، فقد أرسل مساعده العسكري يستدعي الضابط المنوب.

وضع بالاشيف الرسالة على الطاولة التي كانت عبارة عن بابٍ رُكِّز على برميلين، كانت رزَّاته لا تزال تتدلَّى منه؛ فأخذها دافو وقرأ ما على الغلاف.

قال بالاشيف: «أنتَ مطلقُ الحرية في أن تعاملَني باحترام أم لا، لكن من واجبي أن ألفتَ انتباهك إلى أنني أُعتبر بين مساعدي جلالته العسكريين الجنرالات.»

نظر إليه دافو دون أن ينبس ببنت شفة.

لقد طاب له بشكل ظاهر أن يكتشف على تقاطيعه لونًا من البلبال. قال: «سوف تُعامَل بما يحقُّ لك من احترام.»

ثم وضع الرسالة في جيبه وغادر المكدس.

وفي غضون دقيقة واحدة جاء مساعد الماريشال العسكري السيد دوجاستري يأخذ بالاشيف ليدلَّه على المسكن الذي أُعِدَّ له.

ولقد تناول بالاشيف الطعام ذلك اليوم مع الماريشال في المكدس على الطاولة ذات البرميلين.

وفي صبيحة اليوم التالي، ذهب دافو منذ الصباح الباكر بعد أن استقدم بالاشيف، وحتَّم عليه بصرامة أن يمكث حيث هو، وأن يتنقَّل مع القوافل في حال صدور أوامر مماثلة إليها، وألا يتحدَّث إلا مع السيد دوجاستري.

وبعد أربعة أيام من الوحدة كان العدو خلالها يشتدُّ في اختضاع مُنصَّبٍ بقدر ما هو تابع للقدرة الكلية، وبعد مراحل عديدة اجتيزت مع متاع الماريشال والقطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة كلها، عاد بالاشيف إلى «فيلنا» التي باتت الآن في قبضة العدو، عن طريق الباب نفسه الذي خرج منه قبل بضعة أيام.

وفي اليوم الثاني، جاء أحد حُجَّاب الإمبراطور السيد دوتورين يُعلِمه بأنَّ نابليون قد منحه مقابلة.

قبل أربعة أيام، كان حُرَّاس فوج بريوبراجنسكي يقفون على باب المنزل الذي قادوا بالاشيف إليه. أمَّا الآن، فكان في مكان أولئك جنديَّان فرنسيَّان ببَزَّة زرقاء ذات «قلبات» كبيرة وقلنسوة مزغبة، وموكب من الفرسان الفرنسيين والألمان وحاشية أنيقة من المساعدين العسكريين والغلمان والجنرالات ينتظرون خروج نابليون، وحصانه المطهم والمملوكُ روستان واقفَيْن قُرب المرقاة، كان نابليون يستقبل بالاشيف في البيت نفسه الذي سلَّمه ألكسندر فيه رسالته إليه.

الفصل السادس

في حضرة الإمبراطور

على الرغم من أنَّ بالاشيف كان معتادًا على بهاء البلاطات، فإنَّ الترف والبذَخ في هذا البلاط أحدثا في نفسه أثرًا قويًّا.

أدخله الكونت دوتورين إلى حجرة رحيبة، وكان عدد كبير من الجنرالات والحُجَّاب والأشراف البولونيين — عرف بالاشيف كثيرًا بينهم كانوا من قبل يحيطون بألكسندر — ينتظرون فيها. وأعلن دوروك[1] أنَّ الإمبراطور سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته.

وبعد دقائق من الانتظار، بدا الحاجب المنوب وانحنى بتأدُّب أمام بالاشيف ثم دعاه أن يتبعه.

دخل بالاشيف إلى بهو صغير يقود أحد أبوابه إلى المكتب؛ ذلك المكتب الذي تلقَّى فيه آخر أوامر ألكسندر، وانتظر دقيقتين أو ثلاث دقائق. تناهي إلى سَمْعه وَقْع خطوات متلاحقة وراء الباب الذي انفتحت ضلفتاه فجأةً، وران الصمت ثم ارتفعت خطوات أخرى متزنة ونشيطة وراحت تقترب؛ ذاك كان نابليون، وكان قد فرغ من ارتداء ملابسه للركوب. كانت بزَّته الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تنسجم مع استدارة بطنه، والسروال المصنوع من الجلد الأبيض يطبع فخذَي ساقَيْه القصيرتين السمينتين المغيَّبتين في أحذية عالية، وكان شعره القصير قد رُجِّل ولا ريب منذ حين. لكن خُصلة منه كانت تقع على وسط جبينه العريض، في حين أنَّ عنقه الأبيض السامن الذي تتضوَّع منه رائحة ماء «الكولونيا» كان يتباين كليًّا مع ياقة البَزَّة السوداء، وكان وجهه الممتلئ الذي لا زال فَتيًّا، ذو الذقن البارز، مطبوعًا بلطف جليل إمبراطوري حقًّا.

[1] جيرو كريستوف ميشيل: جنرال فرنسي وُلد في بون-آ-موسون عام ١٧٧٢م وقُتل قُرْب بوتزن عام ١٨١٣م، كان ماريشال القصر الأكبر ودوق دوفريول.

اقترب بمشية سريعة وهو يتوثَّب مع كل خطوة ورأسه مائل قليلًا إلى الوراء. كان لشخصه القصير الممتلئ ذي الكتفين العريضتين القويتين والبطن والصدر البارزين — رغمًا عنه إلى الأمام — مظهر جليل معبِّر، مظهر أبناء الأربعين الذين أَلِفوا الحياة الرغيدة، كما كان يَرى كذلك أنه على أفضل مزاج ذلك اليوم.

أجاب على تحية بالاشيف العميقة المفعَمة بالاحترام بحركة من رأسه، وراح وهو يتجه نحوه مباشرةً يتكلَّم شأن الرجل الذي تُعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة، والذي لا يتنازل قطُّ إلى تحضير محاضراته لعِلمه بأنه سيقول دائمًا وبكلٍّ إجادة ما يجب أن يقوله.

– «مرحبًا يا جنرال، لقد تلقَّيت رسالة الإمبراطور ألكسندر التي حملتَها، وإنني مسرور جدًّا برؤيتك.»

حطَّ لحظةً عينَيْه الكبيرتين على وجه بالاشيف، ثم ما لبث أن أشاح بهما. لا ريب أنَّ شخصية بالاشيف ما كانت تعنيه في شيء؛ لأن ما يدور في سريرته هو وحده الذي كان يثير اهتمامه، أمَّا كل ما هو خارجي فلم تكن له أيَّة أهمية؛ ألم يكن يعتقد بكل حزم أنَّ كل ما في الكون يتوقَّف على مشيئته وحدها؟

قال: «إنني لا أرغب ولم أرغب قطُّ في الحرب، لكنهم أجبروني على خوضها.»

ثم أضاف وهو يبرز الكلمة: «والآن أيضًا، إنني على استعداد لتقبُّل كل المبرِّرات التي تستطيع تقديمها إليَّ.»

شرح بطريقة واضحة وموجزة أسباب استيائه من الحكومة الروسية، ولقد اقتنع بالاشيف قناعة عميقة استنادًا إلى لهجة إمبراطور الفرنسيين الهادئة المتزنة، بل والودية، أنه راغب في السلم، وأنه سيشرع في المفاوضات عن طيب خاطر.

همَّ بالاشيف أن يقول: «مولاي، إنَّ مولاي الإمبراطور …» عندما راح نابليون يستفسره بنظره بعد أن انتهى من جملته. ولقد أعدَّ المبعوث الروسي محاضرته منذ وقتٍ طويل، لكن تينك العينين المصوَّبتين إليه شوَّشتاه، وبدا نابليون وهو يفحص بابتسامة لا تكاد تُرى بزَّة بالاشيف وسيفه كأنه يقول له: «إنَّك مضطرب، تماسك أعصابك.»

ولَمَّا استردَّ هذا روعه قال إنَّ الإمبراطور ألكسندر لا يعتبر «حالة حرب» طلب استعادة الجوازات الذي قدَّمه كوراكين، الذي تصرَّف من تلقاء نفسه دون أن يقرَّه في ذلك مولاه، وأن ألكسندر لا يريد الحرب، وليست له أيَّة علاقات مع إنجلترا.

فردَّ نابليون: «ليست له «بعدُ» أيَّة علاقات.»

لكنه قطَّب حاجبَيْه وأشار بإيماءة خفيفة من رأسه إلى بالاشيف أن يستتلي وكأنه خشي أن يسفر عن عواطفه.

وبعد أن عرض كل ما كانت تعليماته تحويه من أقوال، أكَّد بالاشيف أنَّ الإمبراطور ألكسندر — مع رغبته في السلام — لن يشرع في مفاوضات إلا شريطة …

وهنا تردَّد وتذكَّر الكلمات التي حذفها الإمبراطور من رسالته، والتي أمر أن تظهر في رسالته الملكية إلى سالتيكوف وكلَّفه هو — بالاشيف — أن يردِّدها حرفيًّا على مسامع نابليون. تذكر الجملة: «طالما بقي جنديٌّ عدوٌّ مسلَّح واحد على الأرض الروسية.» لكن شعورًا شديد التعقيد استوقف الجملة على شفتَيْه، ومهما بلغت رغبته فإنه لم يستطع أن يتفوَّه بها، فاستبدلها وهو شديد الخجل بالعبارة التالية: «شريطة أن تعود القطعات الفرنسية عبر النييمن من جديد.»

لم يَخفَ اضطراب بالاشيف على نابليون؛ فقد تقلَّص وجهه وراحت ربلة ساقه اليسرى تضطرب في حركة منظَّمة. استأنف الكلام دون أن يُبدِّل مكانه بصوت أكثر ارتفاعًا وتهافتًا عن ذي قبل. وقد لاحظ بالاشيف رغمًا عنه كلَّما أطرق بعينيه خلال الوقت الذي استغرقته المحاضرة التي تلَت، أنَّ ارتعادة ربلة الساق اليسرى آخذة بالتزايد كلَّما ازداد صوت الإمبراطور ارتفاعًا.

شرع يقول: «لستُ أقل رغبةً في السلام من الإمبراطور ألكسندر، ألستُ أبذل كلَّ ما في وُسعي منذ ثمانية عشر شهرًا في سبيل السلام؟ منذ ثمانية عشر شهرًا وأنا أنتظر الإيضاحات.»

ثم أضاف وهو يعبس ويقوم بحركة عنيفة بيده الصغيرة البيضاء السمينة: «ولكن ماذا تراهم يتطلَّبون مني لقاء الدخول في مفاوضات؟»

قال بالاشيف: «انسحاب الجيوش إلى وراء النييمن يا صاحب الجلالة.»

استطرد نابليون: «وراء النييمن؟ إنكم إذن تريدونني الآن على أن أنطوي وراء النييمن.»

ثم كرَّر وهو يُغرق نظراته في عينَي بالاشيف: «وراء النييمن فقط؟»

فانحنى هذا إشارةً بالموافقة.

إنهم لا يطلبون الآن بدلًا من إخلاء بوميرانيا[٢] التي أصروا عليه قبل أربعة أشهر إلا الانسحاب وراء النييمن. أدار نابليون ظهره فجأةً وراح يذرع الحجرة بخطاه.

[٢] بوميرانيا: واحدة من جزر أرخبيل بسمارك تحت الانتداب الأسترالي.

– «تقول إنهم يطلبون مني التراجع وراء النييمن. لكنهم منذ شهرين طلبوا مني أيضًا أن أتراجع وراء الأودر[٣] والفيستول، ثم توافقون مع ذلك على إجراء مفاوضات.»

مشى دون أن ينطق بكلمة من جانب الحجرة إلى الجانب الآخر، ثم توقَّف فجأةً قبالة بالاشيف. لاحظَ هذا أن ربلة الإمبراطور تضطرب أكثر من ذي قبل، وأن وجهه يبدو كأنه تصلَّب في تعبير صارم. كان نابليون يعرف هذه الخاصة، وقد قال لحاشيته: «إن لاهتزاز ربلتي اليسرى إشارة كبيرة عندي.»

هتف فجأةً بفوران دهش له بنفسه: «إن مثل هذه العروض، كإخلاء الأودر والفيستول، يمكن أن تُسأل من غراندوق دو باد[٤] ولكن ليس مني. إنني لا أقبل شروطكم ولو أعطيتموني بيترسبورج وموسكو. تقولون إنني بدأت الحرب؟! ولكن مَن الذي لحق بالجيش أولًا؟ الإمبراطور ألكسندر وليس أنا. والآن تحدِّثونني عن التفاوُض في حين أنني أنفقت الملايين، وأنكم حلفاء مع الإنجليز وموقفكم سيئ! تعرضون عليَّ مفاوضات! ولكن ما هو هدفكم من التحالف مع إنجلترا؟ ماذا أعطتكم؟»

كان يلقي بجمله دون أن يتابع التفكير في إبراز محاسن السلم ومناقشة إمكانياته، بل لكي يبرهن حقَّه وقوته في الوقت نفسه الذي يدلِّل فيه على خطيئات ألكسندر وأضراره. لقد أراد بادئ ذي بدء أن يُبرِز ولا شكَّ ميزات موقفه، وأن يلمِّح بأنه يقبل الشروع في مفاوضات رغم ذلك، لكنه كلما ازداد اندفاعًا في الكلام تناقصت سلطته على كلماته حتَّى اقتصرت محاضرته على تعظيم نفسه، والحطِّ من ألكسندر؛ أي على عكس ما كان يُزمِع السير فيه عند بدء المقابلة.

– «إنهم يزعمون أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك؟»

حرَّك بالاشيف رأسه إيجابًا وشرع يقول: «عقد الصلح ...»

لكن نابليون قاطعه. كان ولا ريب يشعر بحاجة ماسَّةٍ إلى الكلام، فتابع بتلك الثرثرة الغاضبة التي يمتاز بها الأشخاص الذين أفسدتهم النَّعماء: «نعم، إنني أعرف أنكم

[٣] أودر: بالبولونية أودرا. نهر بولوني ألماني ينبع في سلسلة جبال السوديت ويخترق سليزيا ثم يمرُّ في وروكلاو وفرانكفورت وسزيزيسن، ويصبُّ في البلطيق، طوله ٨٦٤كم.

[٤] باد: بالألمانية بادن. بلد ألماني، كانت فيما مضى غراندوقية ثم أصبحت جمهورية عام ١٩١٩م. وهي واقعة على ضفَّة الرين اليمنى، سكانها ٢٤١٣٠٠٠ نسمة، عاصمتها: كارلسرو، تُغطِّي جانبًا من أرضها الغابة السوداء المعروفة.

عقدتم الصلح مع الأتراك دون أن تحصلوا على مولدافيا[٥] ولا فالاكي،[٦] وأنا كنت سأقدِّم لإمبراطوركم هاتين المقاطعتين هدية كما أعطيته فنلندا.»

واسترسل بإصرار: «نعم، لقد وعدت الإمبراطور ألكسندر بمولدافيا ولافالاكي، وكنت سأُعطيه هاتين المقاطعتين الجميلتين اللتين أفلتتا من يده. كان يستطيع أن يضمَّهما إلى مملكته، فكانت روسيا ستمتدُّ تحت حكم من خليج بوتني[٧] إلى مصبِّ الدانوب،[٨] إنَّ كاتيرين[٩] العظيمة ما كانت لتستطيع أن تعمل أفضل من ذلك.»

أخذ هياجه يزداد، وراح يتمشَّى داخل الحجرة ويردِّد كلمة كلمة تقريبًا ما قاله لألكسندر إبَّان مقابلتهما في تيلسيت.

– «كلُّ هذا كان سيناله بصداقتي. آه! يا للمُلك الجميل! يا للمُلك الجميل! ...»

وكرَّر عدة مرات هذه الكلمات ثم أخرج من جيبه مسعطًا من الذهب شَمَّ أخذةً منه بنهم وأردف: «يا للمُلك الجميل الذي كان يمكن أن يكون عليه مُلك الإمبراطور ألكسندر!»

---

[٥] مولدافيا: وبالرومانية مولدوفا. مقاطعة دانوبية قديمة، ضُمَّت عام ١٨٥٩م مع فالاكي، وشكَّلت مملكة رومانيا حتَّى عام ١٩١٨م. وهي عبارة عن سهل شرقي جبال الكاربات ترويه مياه نهر سيريه، سكانها: ٢٨٠٠٠٠٠ نسمة. وهناك جزء من مولدافيا على ضفة دنييستر الشرقية، بنى فيها السوفياتيون عام ١٩٢٤م جمهورية ألحقوها بأوكرانيا.

[٦] فالاكي: هي المقاطعة الدانوبية التي شكَّلت جانبًا من المملكة الرومانية حتَّى عام ١٩١٨م، وهي اليوم منقسمة إلى فالاكي الكبرى ومونتينيا، غنيَّة بالزراعات الواسعة وتربية المواشي وبإنتاج الفحم والزيت.

[٧] بوتني: منطقة في شمال أوروبا مقسَّمة بين السويد وفنلندا، وفيها الخليج المسمَّى باسمها الذي تشكِّله مياه البلطيق.

[٨] الدانوب: وبالألمانية دانو. نهر كبير في أوروبا، ينبع من الغابة السوداء، ويروي ألمانيا والنمسا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا، ويصبُّ في البحر الأسود مشكِّلًا دلتا ذات ثلاث شعب. وهو يمر في أولم وراتيسبون وفيينا وبرسبورج وبودابست وبلجراد وبرايلا وجلاتز، ويتلقَّى مياه الروافد «إيزار» وإين ودراف وساف من الجهة اليمنى، وتيس وسيريه وبروت من الجهة اليسرى، وطوله ٢٨٦٠كم، وهو شريان تجاري كبير.

[٩] كاتيرين العظيمة: هي كاتيرين الثانية إمبراطورة روسيا، وُلدت في ستيتن عام ١٧٢٩م، وتوفَّيت عام ١٧٩٦م، وهي ابنة الدوق أنهالت-زيربست، وزوجة بطرس الثالث. حكمت بمفردها بعد اغتيال زوجها من عام ١٧٦٢م حتَّى سنة ١٧٩٦م، وقد خاضت البلاد على عهدها حروبًا رابحة وغزوات على الأتراك، ومَنحت حماية خاصة للعلماء والفلاسفة، وخصوصًا الفرنسيين؛ مما غطَّى أعمال العنف التي اشتهرت بها.

ثم تأمَّل بالاشيف بعطف، فلمَّا همَّ هذا أن يتقدَّم بملاحظة، قاطعه فورًا وهو يقول مبيِّنًا دهشته برَفْع كتفَيْه: «ما الذي كان يمكن أن يرغب فيه أو أن يبحث عنه دون أن تنيله إياه صداقتي؟! ولكن لا، لقد فضَّل أن يخلق حوله لفيفًا من أعدائي! وممَّن؟! لقد استقدم إلى جواره آل ستين وآل آرمفيلت وبينيجسن ووينتزنجيرود! إنَّ ستين خائن مطرود من بلاده، وآرمفيلت فاجر ودسَّاس، ووينتزنجيرود فرنسي ملتحق بخدمة العدو، وبينيجسن عسكري أكثر من الآخرين قليلًا، ولكنه مع ذلك عاجزٌ، ما استطاع أن يعمل شيئًا عام ١٨٠٧م، فكان يجب أن يوقظ في نفس الإمبراطور ألكسندر ذكريات رهيبة.»

واسترسل نابليون الذي لم يكن نطقه ليتماشى مع فكرته؛ لكثرة تهافت البراهين وسرعة تجمُّعها ليُثبت حقَّه المشروع وقوَّته اللذين كانا في نظره بمعنًى واحد: «لو أنَّ هؤلاء كانوا على قيمة ما لأقنعني استخدامه لهم، ولكن لا، إنهم لا يصلحون لشيء؛ لا للسلم ولا للحرب! إنَّ باركلي[10] على ما يزعمون أفضل منهم جميعًا، لكن هذا ليس رأيي إذا حكمنا عليه تبعًا لأوَّل تصرفاته. ثم ماذا يعملون؟ ماذا يعمل كل هؤلاء الأتباع؟ إن بفويل يقترح وآرمفيلت يناقش وبينيجسن يتمعَّن، أمَّا باركلي الذي استُدعي ليعمل، فإنه لا يدري أي جانب يأخذ، ويمرُّ الوقت دون أن يُؤتى بجديد! إن باجراسيون وحده رجل حرب. إنَّه غبيٌّ، لكن لديه الخبرة والنظر الثاقب والعزم ... وأي دور يلعب إمبراطوركم الشاب بين هذا الخليط؟ إن هؤلاء الناس يرتكبون الإثم ثم يحمِّلونه مسئولية أعمالهم. إنَّ ملكًا لا يجب أن يكون في الجيش إلا إذا كان جنرالًا.»

ألقى بهذه الكلمات وكأنه تحدٍّ مباشرٍ موجَّه إلى ألكسندر. ما كان يجهل أنَّ هذا يُشعر بضعفٍ في ثقته بأنه رجل حرب. استرسل: «لقد بدأت الحملة منذ ثمانية أيام فلم تعرفوا كيف تدافعون عن فيلنا. لقد شُطِرتم إلى شطرين، وطُردتم من الأقاليم البولونية. إنَّ جيشكم يدمدم.»

قال بالاشيف وقد بهرته أضواء هذه الجمل الاصطناعية التي ما كان يتوصَّل إلى استيعابها: «على العكس يا صاحب الجلالة، إن القطعات تتحرَّق شوقًا إلى القتال ...» قاطعه نابليون: «إنني أعرف كلَّ شيء، أعرف كلَّ شيء. إنني أعرف أعداد ألويتكم بمثل

---

[10] ميشيل باركلي دوتولي: جنرال روسي، وُلد في ليفونيا، من أصل إيكوسي، وكان خصمًا بارعًا لنابليون الأول. وُلد عام ١٧٦١م، وتُوفِّي عام ١٨١٨م.

الدقة التي أعرف بها أعداد ألويتي. ليس لديكم مائة ألف رجل تحت السلاح، بينما لديَّ ثلاثة أضعاف هذا العدد.»

ثم أضاف ناسيًا أن هذا القسم لم يكن ليعني شيئًا أبدًا.

– «إنني أعدك بشرفي. أعطيك وعدًا بشرفي أنَّ لديَّ خمسمائة وثلاثين ألف رجل على هذه الضفة من الفيستول. لن يستطيع الأتراك مساعدتكم. إنهم لا يصلحون لشيء، وقد برهنوا على ذلك بعقد الصلح معكم، أمَّا السويديون، فإنهم مصطَفُون لأن يُحكَموا من قِبل مجانين. لقد كان ملكهم مجنونًا فأبدلوه واتخذوا آخر؛ برنادوت[١١] الذي سرعان ما فقد صوابه هو الآخر؛ لأنه يجب أن يكون المرء مجنونًا حتى يعقد اتحادًا مع روسيا وهو سويدي.»

انفرج فمُ نابليون قليلًا وشمَّ أخذةً جديدة من السعوط.

كان لدى بالاشيف إثر كل جملة من جمل الإمبراطور اعتراضٌ يُقدِّمه، لكنه كلما حاول أن يفتح فمه مرةً أغلقه له نابليون. أراد أن يقول بخصوص خبال السويديين أنَّ السويد أصبحت بتحالفها مع روسيا أشبه بالجزيرة؛ لأن هذه تحميها من الخلف. لكن نابليون خنق صوته بصيحات الغضب. لقد كان في تلك الحالات من الإثارة التي يشعر المرء معها بحاجة إلى أن يتكلَّم ويتكلَّم ويتكلَّم لمجرد أن يُثبت لنفسه أنه على حق، وكان بالاشيف كمن يقف على الأشواك؛ فهو كسفير، يخشى أن يسيء إلى كرامة نفسه بالامتناع عن أي اعتراض. أمَّا كرجل، فقد أحنى ظهره تحت زوبعة هذه الغضبة الهوجاء. كان يعرف قلة أهمية هذا القدح الذي ما إن يستعيد الإمبراطور هدوءه حتَّى يكون أوَّل من يخجل منه. لذلك فقد وقف في مكانه معلَّق الأبصار بساقَي نابليون الضخمتين المنفعلتين يحاول جاهدًا أن يتحاشى نظرته.

استرسل هذا: «ثم ماذا يهمني من حلفائكم بعد كل شيء؟ إنَّ لديَّ حلفاء أنا الآخر، وحلفاء طيبين: البولونيين. إنهم ثمانون ألفًا ويقاتلون كالأسود، وسوف يصبحون بعد قليل أكثر من مائتي ألف.»

---

[١١] شارل برنادوت: ماريشال فرنسا، وُلد في بو عام ١٧٦٣م، وامتاز في حروب حكومتَي: الثورة والملكة. تبنَّاه ملك السويد شارل الثالث عشر عام ١٨١٠م، فنسي منشأه ليلتحق عام ١٨١٣م إلى الحلفاء ويحارب الفرنسيين. وفي عام ١٨١٨م أصبح ملكًا للسويد باسم شارل الرابع عشر، أو شارل جان. وتُوفِّي عام ١٨٤٤م.

ولقد أبلغ الشعورُ بأنَّ هذا المزعم ليس إلا محض كذب، وموقف بالاشيف المتحفِّظ الذي ما كان ينبس ببنت شفة، غضبَ الإمبراطور إلى أَوْجِهِ، فأتى بنصف دائرة فجأةً واتجه رأسًا إلى محدِّثه، فألقى في وجهه عباراته مشفوعة بحركات سريعة ونشيطة من يديه البيضاوين: «اعلموا تمامًا أنَّكم إذا أثرتم بروسيا ضدي فإنني سأمحوها من خريطة أوروبا ...»

وأيَّد هذا التهديد بأنْ كَنَس يدَه اليسرى بيده اليمنى ووجهه ممتقع متقلِّص.

«نعم، سوف أُلقي بكم إلى ما وراء دونا[12] وما وراء الدنيبر،[13] وسأقيم في وجهكم هذا السد الذي كانت أوروبا شديدة العمى، مجرمة كل الإجرام؛ إذ تركته ينهار. نعم، هذا ما ينتظركم، هذا ما تكونوا قد ربحتموه من ابتعادكم عنِّي.»

مشى بضع خطوات بسكون وكتفاه العريضتان تهتزَّان بطفرات صغيرة. أعاد مسعطه إلى جيبه ثم أخرجه وحمله مرارًا إلى أنفه، ثم عاد إلى بالاشيف ونظر باستهزاء في عينيه، ثم قال له بهدوء بعد فترة: «ومع ذلك، يا له من مُلك جميل ذاك الذي كان يستطيع مولاك أن يحصل عليه.»

ولَمَّا كان يجب على بالاشيف أن يقول شيئًا ما، فقد ردَّ أنهم من الجانب الروسي لا يرون الموقف على مثل هذا التجهُّم. فلم يُجِر نابليون جوابًا، بينما ظلَّت نظرته المستهزئة مصوَّبة إلى بالاشيف وكأنه لم يسمع ما قاله. ولَمَّا أضاف هذا بأنهم في روسيا يتوقَّعون من الحرب نتائج ممتازة، هزَّ الإمبراطور رأسه بمراعاة وكأنه يقول له: «نعم، أعرف، إنَّ من واجبك أن تقول هذا القول، لكنك أنت نفسك لا تصدِّق كلمة واحدة. لقد أقنعتك.»

ولَمَّا فرغ بالاشيف أخرج نابليون مسعطه من جديد وشمَّ أخذةً جديدة، ثم قرع الأرض بقدمه مرتين متعاقبتين. فُتِح الباب إثر هذه الإشارة وظهر حاجب أعطى الإمبراطور قبَّعته وهو منطوٍ إلى اثنين بكل احترام، ثم قفَّازيه، بينما قدَّم له آخرُ منديلَهُ. استدار نابليون نحو بالاشيف دون أن يعبأ بالحجاب، وقال وهو يأخذ قبَّعته: «طمئِن الإمبراطور ألكسندر باسمي بأنني مخلص له كما في الماضي تمامًا. إنني أعرفه وأُقدِّر

---

[12] دونا: اسم الدانوب بالهنغارية.

[13] دنيبر: نهر روسي أوكراني يروي سمولنسك وموهيليف وكييف ودنيبر وبتروفسك وخيرسن، ويصبُّ في البحر الأسود. طوله ٢١٤٦كم، وكان من قبلُ يُدعى بوريستين.

صفاته الكبيرة حقَّ قدرها. لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال، سوف تتلقَّى رسالتي إلى الإمبراطور.»

وتوجَّه نابليون بسرعة نحو المخرج، فاندفع كل أولئك الذين كانوا ينتظرونه بالردهة إلى السلَّم ليسبقوه.

الفصل السابع

عودة الرسول

بعد كلِّ ما قاله له نابليون في سَوْرة غضبه، وبعد كلماته الأخيرة البالغة في الجفوة: «لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال، سوف تتلقى رسالتي»، بات بالاشيف شديد القناعة بأن الإمبراطور ليس عازفًا عن مقابلته بعد الآن فحسب، بل وأنه سيتجنَّب رؤيته؛ هو السفير المذل الذي شهد انفعاله غير اللائق. وهذا أسوأ ما في الأمر؛ لذلك لا تَسَلْ عن دهشته عندما وجد نفسه يدعوه دوروك إلى مائدة الإمبراطور ذلك اليوم بالذات.

كان بيسيير[1] وكولنكور[2] وبرتييه حاضرين ذلك الغداء.

استقبل نابليون بالاشيف ببشاشة مؤنسة. لم يترك في نفسه مشهدُ الصباح أيَّ أثر من الارتباك أو الأسف، بل كان هو الذي راح يسعى إلى الترفيه عن ضيفه. لا ريب أنه كان مقتنعًا منذ أمدٍ طويل بأنه لا يمكن أن يخطئ، وأن كل ما يعمله إنما هو نِعْم العمل؛ ليس لأن عمله ينسجم مع تعريف الخير والشرِّ الرائج، بل لأنه هو صاحب العمل ليس إلا.

لقد عاد شديد المرح من نزهته في شوارع فيلنا؛ حيث استقبلته الجماهير وتبعته بحماس. كانت النوافذ كلها على طول طريقه مفروشة بالسجَّاد مزينة بالأعلام وبالشعارات التي تحمل الأحرف الأولى من اسمه، وحيَّتهُ النساء البولونيات ملوِّحات بمناديلهنَّ.

---

[1] جان باتيست بيسيير دوق ديستري: ماريشال فرنسي، وُلد في بريساك عام ١٧٦٦م، وقُتل صبيحة معركة لوتزن عام ١٨١٣م، وكان من أفضل مساعدي نابليون.

[2] الماركيز لويس دو كولنكور دوق دوفنسين: جنرال فرنسي، وُلد في كولنكور عام ١٧٧٢م، وتُوفِّي عام ١٨٢٧م. مثَّل نابليون في مؤتمر شاتيُّون. أمَّا أخوه أوجست دو كولنكور الذي وُلد عام ١٧٧٧م، فقد قُتل عام ١٨١٢م في موسكو.

وعلى المائدة، أجلس بالاشيف إلى جانبه وعامله ليس ببشاشة فحسب، بل وكأنه يرى فيه واحدًا من بطانته، واحدًا من أولئك الذين يؤيدون خططه ويُسَرُّون بنجاحه. تعمَّد التحدث عن موسكو، وراح يسأل ضيفه عن العاصمة بفضول المسافر الذي يجمع المعلومات عن البلد الذي يُزمع زيارته وهو قانع بأنَّ هذا التحرِّي لا بدَّ وأن يضاعف نشوة بالاشيف بوصفه روسيًّا.

سأله: «كم يبلغ عدد سكان موسكو وعدد البيوت؟ هل حقيقةٌ أنهم يسمُّونها موسكو المقدَّسة؟ كم عدد الكنائس فيها؟»

وبينما هم يجيبونه بأن العدد يبلغ مائتين، بدا مندهشًا.

– «ولماذا كل هذا العدد من الكنائس؟»

فقال بالاشيف: «إنَّ الروسيين شديدو الورع.»

استطرد نابليون وهو يستجدي بعينيه موافقة كولنكور: «ثم إنَّ وفرة عدد الأديرة والكنائس كان دائمًا الدليل على مدينة متأخِّرة.»

سمح بالاشيف لنفسه أن يناقض الإمبراطور باحترام. قال معترضًا: «إنَّ لكل بلد تقاليده.»

– «ولكن لم يعد في كل أوروبا شبيهٌ لهذا.»

– «لتتفضَّل جلالتكم بمعذرتي، لكن في إسبانيا — كما هو الحال في روسيا — عددًا كبيرًا من الأديرة والكنائس.»

وعندما حُمل إلى بلاط روسيا هذا الجواب الذي يُخفي بين طيَّاته تلميحًا عن هزيمة الفرنسيين الحديثة في إسبانيا، فإنه لقي فيه أرفع تقدير. أمَّا على مائدة نابليون، فإنه لم يحدث أي أثر، بل إنه مرَّ دون أن يؤبه له.

كانت وجوه السادة الماريشالات اللامبالية تدل بوضوح على أنَّ هذا الجواب الماكر قد غاب عن أذهانهم رغم أنَّ لهجة بالاشيف قد أبرزته. بدوا وكأنهم يقولون: «إذا كان في الأمر قصدٌ ما، فإنه يفوتنا إدراكه.» ولقد خمَّنوا مؤدَّاه بانتباهٍ ضئيل جدًّا، حتى إن نابليون لم يأبه له، بل استرسل في طرح أسئلته، فسأل بالاشيف بسذاجة عن أقصر الطرق المباشرة للذهاب إلى موسكو، وعن المدن التي تحاذيها. فأجاب بالاشيف — الذي ظلَّ طيلة الغداء مترقِّبًا — بأنه لَمَّا كانت كل الطرق تؤدِّي إلى روما، فإنَّ كل الطرق كذلك تؤدِّي إلى موسكو، وإن بين هذه الطرق العديدة واحدًا يمر ببولتافا، وهو على التأكيد

ذلك الذي انتقاه شارل[٣] الثاني عشر. ولقد تضرَّج وجه بالاشيف بحُمرة الفرح لما في ردِّه من معنًى لاذع، لكنه ما إن فاه باسم بولتافا حتَّى بادر كولنكور، لكي يضع حدًّا لهذه المحادثة الخطيرة، إلى وصف حالة طريق بيترسبورج-موسكو السيئة، ثم استرسل في سرد ذكرياته عن العاصمة.

وبعد الطعام، انتقلوا لتناول القهوة إلى مكتب نابليون، الذي كان قبل أربعة أيام مكتب ألكسندر. جلس نابليون وأشار إلى بالاشيف، وهو يحرِّك قهوته في قدح من خزف «سيفر» الشهيرة، أن يجلس على مقربةٍ منه.

كان نابليون في تلك الحالة السعيدة التي تعد الإنسان الذي تناول طعامًا طيبًا أكثر من أي شيء آخر لأنْ يشعر بالرضى عن نفسه، ويرى الأصدقاء في كل مكان. فكان إذن يظن أنه المثل الأعلى للأشخاص المحيطين به بما فيهم بالاشيف الذي استوى الآن بلا ريب في صفوف المعجبين به. لذلك فقد قال له بابتسامة تحمل سخرية رقيقة: «لقد قالوا لي إنَّ هذا هو المكتب الذي كان يشغله الإمبراطور ألكسندر. أليس ذلك مثيرًا للفضول يا جنرال؟»

بدا قانعًا أنَّ هذه الملاحظة لا بدَّ وأن تُدخل السرور على نفس محدِّثه. أليست الدليل على تفوُّقه هو — نابليون — على ألكسندر؟

اكتفى بالاشيف، الذي ما كان يستطيع أن يجيب بشيء، بإحناء رأسه.

استرسل نابليون دون أن يكفَّ عن ابتسامته الجوفاء المتهكِّمة: «نعم، في هذه الحجرة منذ بضعة أيام، كان وينتزنجيرود وستين يتشاوران. إنَّ ما لا أستطيع فهمه هو أنَّ الإمبراطور ألكسندر أحاط نفسه بكل أعدائي الشخصيين، كلا، الحق يقال إنني لا أستطيع فهمه. ألم يُفكِّر إذن في أنني قد أتصرف تصرُّفًا مماثلًا؟»

---

[٣] شارل الثاني عشر ابن شارل الحادي عشر: وُلد في ستكهولم عام ١٦٨٢م، وما إن أعلنت الولايات أنه بلغ سنَّ الرشد حتَّى بدأ بهزيمة ملك الدانمارك في كوبنهاجن عام ١٧٠٠م، والروسيين في نافا، وأوجست الثاني البولوني في كيسو عام ١٧٠٣م، ثم نازع من جديد بطرس الأكبر، فلم يقوَ رغم ضخامة جيوشه أن ينتصر على خصمه القويِّ في بولتافا عام ١٧٠٩م، فاضطر إلى الالتجاء إلى تركيا. وبعد أن حاول — دون جدوى — العودة إلى إشهار الحرب بمساعدة السلطان أحمد الثالث، عاد إلى السويد عام ١٧١٥م، وكانت السويد في حالة مؤسية. كان شارل الثاني عشر يُغذِّي في نفسه مشاريع جريئة وقوية عندما قُتل بطلق ناري في حصار فريديريكشالد عام ١٧١٨م، وهو الذي كتب عنه الشاعر الفرنسي فولتير تاريخ شارل الثاني عشر عام ١٧٣١م.

كان وهو يلقي هذا السؤال يستسلم لبقيةٍ من سَوْرة غضبِ الصباح التي لم تتبدَّد تمامًا. أضاف وهو ينهض ويدفع فنجانه عنه: «ليعلم جيدًا أنني سأعمل مثله. سوف أطرد من ألمانيا كل أقربائه؛ آل «وورتمبرج» و«باد» و«ويمار» ... نعم، سوف أطردهم من هناك. فليهيِّئ لهم إذن مأوًى في روسيا.»

أحنى بالاشيف رأسه وأماراته المتعبة توحي بأنه يرغب في الإذن له بالانصراف، وأنه لا يُصغي إلى تلك الأقوال إلا مُكرَهًا. لم يلاحظ نابليون شيئًا من كل هذا، لم يعد يُعامِل بالاشيف بوصفه رسولًا للعدو، بل كرجل اكتسبه إلى جانبه عليه أن يبتهج للهجاء المكلَّل لسيده القديم.

– «ولماذا أمسك الإمبراطور ألكسندر بزمام قيادة جيوشه؟ ما الفائدة؟ إن الحرب مهنتي، أمَّا هو فإن مهنته أن يحكم لا أن يقود الجيوش! لماذا اضطلع بمثل هذه المسئولية؟»

أخرج نابليون مسعطه مرةً أخرى، ثم سار بضع خطوات دون أن يتكلَّم، وفجأةً توجَّه إلى بالاشيف ورفع يده إلى وجه ذلك الجنرال الروسي ذي السنوات الأربعين بحركة متَّزنة فجائية وبسيطة — وكأنه يقوم بعمل هام ومتملق — وجذب أذنه جذبًا خفيفًا وهو يرسم على شفتَيْه ابتسامة.

«أن تُجذَب الأذن من قِبل الإمبراطور» يُعتبر في البلاط الفرنسي شرفًا كبيرًا، بل وحُظوة عالية.

سأل وهو يعتبر — ولا ريب — أنَّ من المضحك أن يكون امرؤٌ في حضرته «ممالِقًا» ومعجَبًا برجل آخر غيره هو، نابليون: «حسنًا، لِمَ لا تتكلَّم بشيء أيها المعجب بالإمبراطور ألكسندر الممالِق له؟»

ثم أضاف وهو يجيب على تحية بالاشيف بإشارة من رأسه: «هل أُعِدَّت الجياد للجنرال؟ أعطوه جيادي، إنَّ أمامه رحلة طويلة يقوم بها.»

وكانت الرسالة التي حملها بالاشيف، الأخيرة التي كتبها نابليون إلى ألكسندر. لقد نقلت كل تفاصيل المقابلة إلى إمبراطور روسيا وبدأت الحرب ...

الفصل الثامن

عودة إلى ليسيا جوري

بعد مقابلة مع بيير في موسكو، سافر الأمير آندريه إلى بيترسبورج لبعض الأعمال كما قال لأقربائه، ولكنه في الحقيقة كان يرمي من وراء ذلك إلى إجراء مقابلة مع الأمير آناتول كوراجين كان يراها ضرورية. بحث عنه فور وصوله ولكن دون جدوى؛ ذلك أن آناتول الذي أخطره أخو زوجته بأن آندريه يطارده، لم يلبث حتَّى التمس من وزير الحربية عملًا في جيش مولدافيا، وحصل على ما أراد. قابل آندريه خلال إقامته في العاصمة، كوتوزوف؛ جنراله السابق دائم الاستعداد لأداء ما يحتاج إليه، فعرض عليه هذا أن يصحبه معه إلى مولدافيا؛ حيث عُيِّن قائدًا أعلى. فقَبِل آندريه وذهب إلى تركيا بوصفه ملحَقًا في أركان حرب الجنرال.

ما كان إرسال طلب مبارزة إلى كوراجين ليلقى قبولًا من جانب الأمير آندريه، الذي ما كان يريد المساس بسمعة الكونتيس روستوف بأي ثمن؛ لذلك كان يبحث عن مقابلة شخصية مع آناتول تسمح له أن يتحدَّاه متخذًا حجَة أخرى، لكنه كان أملًا ضائعًا؛ ذلك أنَّ آناتول، حال وصول الأمير إلى الجيش التركي، بادر بالعودة إلى روسيا. ولقد شعر آندريه في ذلك البلد الجديد ببعض الارتياح بفضل الشروط الحياتية الجديدة، ولقد وَجَّهت إليه خيانةُ مخطوبته ضربةً شديدة الإيلام، حتَّى إنه لمزيد ألمه كان مرغمًا على عدم التظاهر بمبلغ عذابه. ومنذ ذلك الحين بدَت له المباهج التي كان يتذوَّقها في الحياة تافهة، وتلك الحرية وذلك الاستقلال اللذان طالما قدَّرهما من قبلُ أكثر تفاهةً وسلاخةً. وتلك الأفكار التي واتته تحت سماء أوسترليتز، والتي كان يحب تعميمها مع بيير، تلك الأفكار التي لَشَدَّ ما فتنت وحدته في «بوجوتشاروفو» وسويسرا وروما، والتي كانت تفتح له آفاقًا مضيئة لا متناهية، لم يعد يتوقَّف عندها، بل إنه كان يدفع عنه حتَّى مجرد ذكراها. لم يَعُد يهتم الآن إلا بالمصالح الدارجة الأكثر آنيَّةً دون رابطة مع المصالح السابقة، ويتعلَّق

بحماس تزداد شدتُه كلَّما ابتعدت هذه عن مشاغله السالفة. وتلك القبَّة اللامتناهية التي كانت منتشرة من قبلُ فوق رأسه بدت وكأنها استُبدلت بأخرى منخفضة محدودة أخذت تسحقه، قبة يبدو كل شيء تحتها جليًّا واضحًا، ليس تحتها شيء غامض أو خالد.

كانت الخدمة العسكرية بين كلِّ المشاغل التي تعرِض له، أبسطها وأفضل ما يتقنه منها. ولقد أكبَّ على واجباته كجنرال مساعد عسكري، فأنجزها بكثير من الغيرة والدقة، حتى إن كوتوزوف نفسه دهش لهما. ولَمَّا لم يَعُد يجد كوراجين في تركيا، فإنه لم يقدِّر أنَّ من المناسب الجري وراءه إلى روسيا، ولكنه لم يكفَّ عن الإسرار لنفسه بأنه رغم مرور الزمن والاحتقار الذي يشعر به حيال هذا الشخص، ورغم كل ما لديه من أسباب تجعله يجده غير جدير بمبارزة، يتحدَّاه عند أول فرصة دون مراء، مثله في ذلك كمثْل الرجل المتضوِّر من الجوع، الذي يُلقي بنفسه على الطعام بحكم غريزته. فكان إحساسه بأن إهانته لم يُنتقم لها وأنَّ الغضب لا يزال يغلي في أعماق قلبه، يسمِّم الهدوء الذي اصطنعه في تركيا بفضل فاعلية متحرِّكة نوعًا ما، كان الزهو، بل والطمع، يجدان فيها حسابهما.

عندما بلغ نبأ الحرب مع نابليون عام ١٨١٢م إلى بخارست؛[1] حيث كان كوتوزوف منذ شهرين يمضي الليل والنهار لدى خليلته «فالاك»، التمس الأمير آندريه تعيينه في جيش الغرب، فامتثل كوتوزوف، الذي كانت غيرة بولكونسكي تبدو له الآن لومًا عنيفًا على قلة مروءته الشخصية؛ لطلبه، وأسند إليه مهمة لدى باركلي دوتوللي.

وقبل أن يلحق بالجيش الذي كان يحتلُّ معسكر دريسًّا في آيار، قرَّر آندريه أن يمر «بليسيا جوري»؛ إذ إن هذا الملك الذي يقع على بُعد مرحلة صغيرة من طريق سمولنسك الكبيرة، كان كذلك على طريقه، ولقد استجدَّ خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة كثير من التبدُّل في حياته، كثير من الانقلابات في طرق تفكيره وتحسُّسه، ورأي كثيرًا من الأشياء خلال رحلاته في الغرب كما في الشرق، حتى إنه شعر بذهول حقيقي عندما وجد في ليسيا جوري نهج الحياة إياه الذي لم يتبدَّل حتَّى في أتفه تفاصيله. وعندما اجتاز الممشى وتخطَّى الباب الكبير، ظنَّ أنه قد ولج قصرًا مسكونًا نائمًا؛ فالنظام والصمت والنظافة لا زالت سائدة في ذلك البيت، والأثاث لا زال إياه، والجدران نفسها والحركات ذاتها والرائحة بعينها والوجوه الوجِلة نفسها، وإن كانت

---

[1] بخارست: وبالرومانية بوكوريختي. عاصمة رومانيا على نهر دامبوفيتزا من روافد الدانوب الثانوية، سكانها ٩٨٤٠٠٠ نسمة.

قد هرمت بعض الشيء. كانت الأميرة ماري لا زالت هي هي، دميمة وجِلة متصاعدة في السن، أمضت أجمل سنيها دون أيَّة فائدة ولا أيَّة بهجة في مخاوف وآلام سرمدية. والآنسة بوريين لا زالت تلك المِغناج شديدة الرضى عن شخصها الصغير، تعرف كيف تتمتَّع بأتفه اللحظات وتنسج لنفسها أكثر الآمال إشراقًا. وديسال، المدرِّس الذي جاء به من سويسرا، كان الآن مرتديًا «رودنجوتًا» على الطريقة الروسية، ويتحدَّث روسيَّةً فاسدة عندما يخاطب الخدم، لكنه لا زال ذلك المربِّي الذي كان بذكائه القليل وثقافته وصلاحه على جانب من التحذلق. أما الأمير العجوز، فإنَّ نقص سن في زاوية الفم كان التبدُّل الجسدي الوحيد الذي يلاحَظ عليه، أما تبدُّله المعنوي فكان سرعة غضبه المتفاقمة و«شطقته» الآخذة في الازدياد حيال كل أحداث هذا العالم. إلا أنه نيكولا الصغير وحده هو الذي كبر وظهرت تقاسيمه. كان يضحك تحت شعره الفاحم العَكِف دون أن يدرك السبب، يسلبه كل شيء ويرفع الشفة العليا من فمه الجميل كما كانت تفعل الأميرة الصغيرة المتوفَّاة. كان وحده لا يخضع لنظام الاستقرار الذي بدا وكأنه يتحكَّم في ذلك القصر المسحور، ولكن على الرغم من أنَّ المظاهر ظلَّت دون تبديل، فإن العلاقات الخاصة بين السكان قد تبدَّلت كثيرًا منذ رحيل آندريه. كانوا الآن يؤلِّفون معسكرَيْن معاديَيْن غريبين أحدهما عن الآخر، أرغمهما وجوده على التقارب لبعض الوقت، فالأمير العجوز والآنسة بوريين والمهندس ينتمون إلى أحد المعسكرين، بينما يتألَّف المعسكر الآخر من ماري وديسال ونيكولا الصغير والخدم والمرضعات.

خلال إقامته، تناولوا جميعهم الطعام معًا، لكن آندريه كان يرى أنهم يعاملونه معاملة الضيف الذي يقومون إكرامًا له باستثناءٍ للقاعدة، والذي يزعجهم وجوده. ولقد شعر بغريزته بهذا الارتباك في اليوم الأول، فلم يتكلَّم إلا لِمَامًا، بينما تمسَّك الأمير العجوز الذي لمس مظهر ولده المصطنَع بصمتٍ عنيد، وانسحب فور الانتهاء من الطعام، وعندما دخل عليه آندريه حوالي المساء ليراه، راح يقصُّ عليه حملة الكونت كامنسكي الشاب؛ ظنًّا منه أنَّ هذا سيردُّ له طبيعته المألوفة، فكان أبوه يقاطعه متشكِّيًا من ماري، متَّهِمًا إياها بأنها تؤمن بالخرافات وتكره الآنسة بوريين؛ «الشخص الوحيد — كما أكَّد — المخلص لي إخلاصًا حقيقيًّا.»

فإذا كان الأمير العجوز مريضًا، فإنما الذنب — على دعواه — ذنب ماري وحدها التي تتعمَّد إيلامه وإثارة أعصابه، والتي تُفسِد نيكولا الصغير بفرط رحمتها وقصصها

البَلْهاء. وكان في الواقع يعرف تمامًا أنه هو الذي يعذِّب ابنته، لكنه كان يعرف كذلك أنه لا يستطيع الامتناع عن ذلك، وأنها — على أيَّة حال — تستحق مثل تلك المعاملة. كان يحدِّث نفسه: «لماذا لا يحدِّثني آندريه، الذي يرى كل هذا، عن ماري شيئًا؟ هل يتصوَّر اتفاقًا أنني فاجر أو مجنون عجوز ابتعدت عن ابنتي لأكون على ما يرام مع الفرنسية؟! إنه لا يفهمني؛ لذلك يجب أن أشرح له كلَّ شيء، يجب أن يفهمني.» وراح يشرح الأسباب التي تجعل عقلية ابنته المستحيلة غير محتملة.

قال آندريه دون أن ينظر إلى أبيه؛ لأنه كان للمرة الأولى سيسمح لنفسه بلوم أبيه: «لو أنك لم تُثِر هذه المسألة للبثتُ صامتًا، لكنك وأنت تسألني رأيي فإنني سأقول لك بصراحة ما أراه في كلِّ هذا. إذا كان هناك سوء تفاهم بين ماشا (تصغير ماري) وبينك فإنني لا أستطيع أن أجعلها مسئولة؛ لأنني أعرف مقدار ما تحبك وتحترمك.»

واستطرد آندريه وهو يستسلم لانفعال بات مألوفًا لديه منذ بعض الوقت: «وطالما أنك تسألني الرأي، لن أقول لك إلا شيئًا واحدًا: إنَّ الخلاف — إذا كان هناك خلاف — ناشئ عن هذه الامرأة الحقيرة وحدها التي ما كان يجب أن تكون مرافقة أختي.»

لبث العجوز بادئ الأمر مشدوهًا وعيناه تحدقان في ولده، ثم كشف بابتسامة مرغمة عن ذلك الفراغ الذي أحدثه فقدان السن في زاوية فمه، ذلك الفراغ الذي لم يكن آندريه ليألفه بعد.

– «مَن هي هذه الرفيقة يا عزيزي؟ ... لقد أثاروك قبل أن تدخل إليَّ.»

استلقى آندريه بلهجة قاسية محتدة: «أبي، ما كنت أريد أن أقاضيك، ولكن طالما أنك أثرت هذا الإيضاح، فقد قلتُ لك وأكرِّر القول وسأظلُّ مصرًّا على أن ماري ليست مذنبة ... كلا، إنَّ المذنبين ... المذنبة، هي هذه الفرنسية.»

قال الأمير العجوز بصوتٍ هادئ كانت تظهر فيه بادرة بلبلة: «آه! إنك تحكُم عليَّ! ... إنك تحكُم عليَّ! ...»

لكنه قفز فجأةً وهتف: «اخرج من هنا! اخرج من هنا! لا تطأ بعد الآن هذا المكان! ...»

أراد آندريه أن يذهب لفوره، لكن ماري توسَّلت إليه أن يُطيل بقاءه أربعًا وعشرين ساعة أخرى. لم يرَ طيلة ذلك اليوم أباه الذي لم يخرج قطُّ من جناحه، ولم يتقبَّل فيه إلا الآنسة بوريين وتيخون، والذي سأل مرات عديدة عما إذا كان ابنه قد رحل. وفي اليوم التالي، قبل سفره، ذهب آندريه لرؤية نيكولا الصغير. جاء الغلام قوي البنية الذي كان شعره العَكِف يذكِّر الناظر بشعر أمه، وجلس على ركبتيه، فراح آندريه يقص عليه حكاية

بارب بلو[٢] (ذي اللحية الزرقاء)، لكنه لم يُكمل قصته، بل راح يفكِّر. نسي هذا المخلوقَ اللطيفَ الصغيرَ الذي كان يُجلسه على ركبتَيْه، وراح يفكِّر في نفسه. لقد أغضب أباه، وها هو يغادر بعد أن اختصم معه للمرة الأولى في حياته دون أن يشعر بندمٍ أو بأسف، بل إنه راح يبحث في أعماقه عن ذلك الحنان الذي طالما أحسَّ به حيال ابنه، والذي كان يأمل أن ينمِّيه بملاطفة الصغير وحمله على ركبتيه، ولكن — وهذا أخطر من الأمر الأول — دون أن يجد له أثرًا.



عائلة روستوف في دار الأوبرا.

قال الفتى: «حسنًا، أَنْهِ قصتك، أَنْهِهَا.»

[٢] بارب بلو: أي اللحية الزرقاء. اسم للشخصية الرئيسية في قصة «لبيرو»، ولقد سُمِّي هذا الرجل بهذا الاسم بسبب لون لحيته، وكان قد ذَبَح ست زوجات وبات على وشك إلحاق الزوجة السابعة بهنَّ عندما أُنقذت هذه من قِبل إخوتها الذين قتلوا الزوج الدموي.

فرفعه عن ركبتيه دون أن يجيبه وخرج.

ما كان الأمير آندريه يهجر مشاغله اليومية ويعود إلى شروطه الحياتية التي كان يعيش فيها عندما كان سعيدًا حتَّى يستحوز عليه الاشمئزاز من الحياة بأكثر قوة من ذي قبل، فكان يتعجَّل الإفلات بأسرع ما يمكن من تلك الذكريات لينغمس في فاعلية ما.

قالت له أخته: «هل تذهب يا آندريه ولا بدَّ؟»

فأجابها: «إنني أشكر الله على أنني أستطيع الذهاب، وأرثي لكِ؛ لأنك لا تستطيعين أن تحذين حذوي.»

هتفت ماري: «ماذا أنت قائل؟ لا تنسَ أنك ذاهب إلى هذه الحرب الرهيبة، وأنه عجوز هَرِم! لقد سأل عما إذا كنت لا تزال هنا. لقد أخبرتني الآنسة بوريين بذلك.»

ما كادت تطرق هذا الموضوع حتَّى ارتعدت شفتاها من التأثُّر، في حين انبعثت الدموع من عينيها، فأشاح آندريه بوجهه وراح يذرع الغرفة.

قال بسَوْرة أذهلت أخته: «آه! ربَّاه! ربَّاه! عندما يفكِّر المرء في أنَّ مخلوقات على هذا الدرك من الحقارة تستطيع أن تسبِّب تعاسة الآخرين!»

حدست أنه بحديثه عن المخلوقات الحقيرة لم يعنِ الآنسة بوريين وحدها التي سبَّبت شقاءها هي، بل كذلك الرجل الذي دمَّر سعادته هو.

قالت له وهي تلمس مرفقه وترفع إليه عينَيْها اللتين كانتا تلتمعان خلال دموعها: «آندريه، إنني أفهمك، ولكن لا تعتقد أنَّ الألم من صنع البشر. إنَّ البشر ليس إلا أدوات للألم.»

وتجاوزت نظرتها رأس آندريه، إحدى تلك النظرات الواثقة من إيجاد صورة ممجدة في مكانها المألوف: «إنه هو وليس البشر الذي يرسل إلينا الألم، إنَّ الرجال أدوات وهم ليسوا مذنبين، فإذا كنت تظن أن بعضهم أساء إليك، فانسَ واصفح؛ إذ ليس من حقنا أن نعاقِب، وحينئذٍ ستتذوَّق بهجة الصفح.»

– «لو كنتُ امرأة يا ماري لكان هذا ما أفعله. إنَّ الصفح فضيلة النساء، أمَّا الرجل فلا يجب، بل ولا يستطيع، أن ينسى وأن يصفح.»

وعلى الرغم من أنه لم يكن حتَّى ذلك الحين قد فكَّر في كوراجين، فإن كل غضبه الذي لم يشبع استيقظ فجأةً في قلبه. حدَّث نفسه: «إذا كانت ماري أصبحت تجرؤ على أن تسألني الصفح عنه، فما ذلك إلا لأنه كان يجب أن أعاقبه منذ زمن طويل.» ودون أن يستمرَّ في الرد على أخته، راح يفكِّر بفرح حقود في اللحظة التي سيقابل فيها كوراجين الذي يعرف أنه في الجيش.

توسَّلت ماري إلى أخيها مرةً أخرى أن يمكث يومًا آخر، ونبَّهته إلى مبلغِ ما سيكون أبوه تعيسًا إذا ذهب آندريه دون أن يتصالح معه، فردَّ آندريه بأنه يستطيع أن يعود قريبًا من الجيش، وأنه لن يتخلَّف عن الكتابة إلى أبيه، بينما لن تكون إطالته مدة إقامته إلا تعقيدًا للأمور.

– «وداعًا يا آندريه، تذكَّر أن الآلام تأتي من الله، وأن بني البشر ليسوا أبدًا مذنبين.» تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالتها له أخته في لحظات الوداع.

فكَّر آندريه وهو يغادر ممشى ليسيا جوري: «لا بدَّ وأنَّ الأمر يجب أن يكون كذلك! إن هذه المخلوقة المسكينة البريئة ستبقى فريسة هذا العجوز الذي لم يعد مالكًا رشده. إنه يشعر تمامًا بأنه مذنب، لكنه لا يستطيع أن يصحِّح أخطاءه. إنَّ فتاي الصغير يكبر ويبتسم للحياة وسيكون ككلِّ الآخرين؛ إمَّا خادعًا وإما مخدوعًا. إنني ذاهب إلى الجيش. لماذا؟ لست أدري. ثم إنني أرغب في لقاء هذا الرجل الذي أحتقره؛ لكي أمنحه فرصة قتلي أو الاستهزاء بي!» ظلَّت العوامل التي تؤلِّف حياته هي نفسها لكنها فقدت كل تناسق، فلم تَعُد تمرُّ في رأسه إلا أخيلة متباعدة ليس بينها أي رباط.

الفصل التاسع

حالة الجيش

وصل الأمير آندريه إلى القيادة العامة في نهاية حزيران، وكان الجيش الأول الذي يقوده الإمبراطور يحتلُّ معسكر دريسا المحصَّن، والجيش الثاني يتراجع محاوِلًا أن يلحق بالأول الذي كانت تفصله عنه — على ما قيل — قواتٌ فرنسية هائلة، وكان الناس كلهم غير راضين عن سَيْر العمليات العام، ولكن ما من أحد كان يتوقَّع غزوًا للأقاليم الروسية الحقيقية، كما أنَّ ما من أحد كان يستطيع الافتراض أنَّ الحرب ستنتقل إلى ما وراء الأقاليم البولونية.

وكان باركلي دوتوللي الذي أرسل إليه كوتوزوف الأمير آندريه يقيم في مشارف دريسا. ولمَّا لم تكن هناك قرى صغيرة أو كبيرة قريبة، فإنَّ الجنرالات العديدين الكُثُر من البطانة الذين كانوا في الجيش، كانوا يحتلُّون، على قُطْر ثلاث مراحل دائريًّا، أفضلَ المساكن في الضياع الواقعة على كلا شاطئَي النهر. وكان باركلي دوتوللي يقطن على بُعد مرحلة من الإمبراطور. استقبل بولكونسكي ببرود، وقال له بلهجته الأجنبية إنه قبل أن يعهد إليه بأي عمل سيعود إلى استشارة جلالته، ولكنه بانتظار ذلك يلحقه بهيئة أركانه. أمَّا آناتول كوراجين الذي كان آندريه يفكِّر في إيجاده في الجيش، فكان قد عاد إلى بيترسبورج. ولقد وجد هذا النبأ وقْعًا حسنًا في نفسه أكثر مما كان ينتظر أن يزعجه؛ لأنه عندما وصل إلى مركز العمليات التي كانت سعتها لا متناهية، شعر بمصلحته تستيقظ في أعماقه، فلم يسخط قطُّ؛ لأنه تحرَّر لوقتٍ ما من الانفعال الذي كان يثيره فيه التفكير في كوراجين.

طاف خلال الأربعة الأيام الأولى التي لم يلجأ أحدٌ فيها إلى الانتفاع بخدماته بالمعسكر المحصَّن، وحاول أن يكوِّن لنفسه فكرةً صحيحة عنه بفضل معلوماته ومداولاته مع أشخاص ذوي نفوذ. كان يتساءل عما إذا كان لهذا المعسكر سبب لوجوده دون أن يصل

قط إلى إيجاد الجواب، ولقد علَّمته تجاربه في الحرب، وخصوصًا معركة أوسترليتز، أنَّ أكثر الخطط إحاطةً وأعمقها دراسةً ليس لها إلا أهمية جد ضئيلة، وأن كل شيء يتوقَّف على الطريقة التي يُردُّ بها على الضربات الفجائية غير المتكهَّن بها، التي يوجِّهها العدو، وعلى الأسلوب الذي تدار به العمليات وقيمة الرؤساء. ولكي يعرف كيف يرتكز حول هذه النقطة الأخيرة فقد اجتهد بفضل مركزه ومعارفه أن يتوغَّل في عقلية القيادة العليا والأشخاص والجماعات الذين يساهمون فيها، وتوصَّل أخيرًا إلى تحضير اللوحة التالية من هذه المجموعة.

عندما كان الإمبراطور لا يزال في فيلنا، كانت قواتنا مقسَّمة إلى ثلاثة جيوش؛ يقود الأول باركلي دوتوللي، والثاني باجراسيون، والثالث تورماسوف. وكان الإمبراطور مع الجيش الأول، ولكن دون أن يشغل منصب القائد الأعلى. ولقد كانت البيانات الملكية تنص على أنه سيكون موجودًا وليس على أنه سيكون قائدًا. ولم تكن حوله أيَّة هيئة أركان لقيادة عليا، ولكن هيئة أركانه العامة الشخصية التي كان يرأسها الجنرال الأول فولكونسكي،[1] وكان هناك جنرالات ومساعدون عسكريون ودبلوماسيون وطائفة من الغرباء، ولكن ليس من هيئة قيادة للجيش. وكان يرى كذلك إلى جانب الإمبراطور دون مهمة خاصة، وزير الحربية آراكتشييف والكونت بينيجسن أقدم الجنرالات رتبةً وقريب القيصر كونستانتان بافلوفيتش والمستشار الكونت روميانتسيف والوزير البروسي السابق ستين والجنرال السويدي آرمفيلت وبفويل واضع مخطط الحملة الرئيسي واللاجئ السرديني (من سردينيا) «بولوكشي» والمساعد العسكري الجنرال فولزوجن وكثيرون آخرون، وعلى الرغم من انعدام المهمات الرسمية لهؤلاء الأشخاص، فإنهم كانوا يمارسون على أيَّة حال سلطة ما. فكان غالبًا ما لا يعرف قائد فوج أو حتَّى قائد عام بأية سلطة يسأله بينيجسن أو الغراندوق أو آراكتشييف أو الأمير فولكونسكي عن هذا أو ذاك من الأمور، وينصحه بتنفيذه، ويجهل ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك يُنقل إليه من عندياتهم أم مستمدًّا من الإمبراطور ومنقولًا إليه على شكل نصيحة، وما إذا كان عليه تنفيذه أم لا. بيد أنَّ كل هذا لم يكن أكثر من مجرَّد مظهر، فكلٌّ كان يعرف ما معنى بطانة — ومن ذا الذي ما كان يصبح مشايعًا للإمبراطور في حضرته؟ — ومعنى وجود ألكسندر في

[1] نلفت نظر القارئ إلى أنَّ فولكونسكي هذا غير الأمير آندريه بولكونسكي؛ حتَّى لا يتخبَّط في تتبُّع سياق القصة لما بين الاسمين من تشابه كبير.

الجيش، ووجود كل هذه الشخصيات. وإذا كان الإمبراطور لم يتخذ بالفعل لقب القائد الأعلى، فإن الجيوش كلها ما كانت أقل ائتمارًا بأمره، أمَّا كل من حوله فمساعدون له؛ فآراكتشييف هو الحارس الأمين للنظام والمرافق لجلالته، وبينيجسن — رغم كل تظاهره بالاكتفاء بحفاوات البلاد بوصفه مالكًا كبيرًا لإقطاعية مجاورة — جنرالٌ ممتاز يُصغَى إلى رأيه بكل ارتياح ويحتفظ رهن الإشارة ليحلَّ محل باركلي. وإذا كان الغراندوق هناك فلأن تلك كانت رغبته. أمَّا الوزير السابق ستين، فكان بوصفه خيرُ مشيرٍ ولأن الإمبراطور يتذوَّق صفاته الشخصية البارزة. بينما آرمفيلت أسوأ أعداء نابليون وجنرال معتدٌّ بنفسه، الأمر الذي كان له أثرٌ قويٌّ في نفس الإمبراطور، ووجود بولوكشي مردُّه إلى جرأة أحاديثه وأثرها، في حين أنَّ المساعدين العسكريين الجنرالات ملزَمون على مواكبة الإمبراطور دائمًا. وأخيرًا، وهذه نقطة جوهرية، كان بفويل هناك؛ لأنه واضع مخطَّط حملةٍ استطاع بفنِّه أن يجعل ألكسندر يوافق عليه، فكان في واقع الحال هو الذي يدير كل العمليات. وإلى جانب بفويل، وقف فولزوجن يُترجم بشكل عملي أفكار هذا الرجل، العالم النظري الغضوب شديد الافتتان بنفسه، حتَّى ليظهر حيال كل شيء اشمئزازًا مترفِّعًا، وفيما عدا هؤلاء الأشخاص الروسيين والغرباء، وخصوصًا الغرباء الذين كانوا يقترحون كل يوم خططًا جديدة بالجرأة الطبيعية لكل شخص يمارس نشاطًا في وسط غير وسَطه، فيما عدا هؤلاء، كان كثيرون آخرون يتبعون في المرتبة التالية نجاح أسيادهم في الجيش.

لم يلبث آندريه أن ميَّز بين كلِّ هذه الآراء المشرقة في هذا «العالم» الصاخب الزاهي المترفع، تياراتٍ عديدة واضحة المعالم.

فالفريق الأول كان يتألَّف من بفويل ونظريين آخرين آمنوا بوجود علم للحرب، علم يرتكز على قوانين ثابتة أشبه بالحركة الزوراء والالتفاف حول العدو … إلخ، فكان بفويل ومشايعوه يطالبون بانسحاب إلى داخل البلاد نزولًا عند القواعد الدقيقة التي وضعتها نظرية الحرب المزعومة، ويعتبرون كلَّ مخالفة لهذه النظرية دلالة على البربرية والجهل وقِصر النظر. وكان الأمراء الألمان وفولزوجن ووينتزنجيرود وكثيرون معظمهم من الألمان يشايعون هذا الفريق.

والفريق الثاني يعارض الفريق الأول على طول الخط، ضدٌّ كلما استُدعي سواه. وكان أتباع هذا الفريق يطالبون منذ «فيلنا» بهجوم في بولونيا وإغفال كل خطة مسبقة. وهم يمثِّلون الجرأة في العمل، ويجسِّدون العقلية القومية؛ ومن ثم يظهرون أكثر كمالًا من كل أخصامهم. كان هؤلاء روسيين؛ منهم باجراسيون وإيكروولوف الذي بدأ في

التقدُّم، والذي تكلَّلت إحدى هجماته بنجاح كبير، فقال للإمبراطور الذي ترك له أمر اختيار المكافأة: «أريد أن أُرفع إلى مرتبة «ألماني».» كان أعضاء هذا الفريق يستعرضون ذكرى سوفوروف، ويردِّدون حيثما كانوا أنَّ من العبث بناء نظريات وغرس دبابيس على الخرائط، وأنه يجب القتال وهَزْم العدو ومَنْعه من دخول روسيا، وعدم ترك المجال لقوَّاتنا لتفقِد معنوياتها.

والفريق الثالث، ذلك الذي يوحي إلى الإمبراطور بأكبر ثقة، كان يضم المشايعين من البطانة؛ ومن بينهم آراكتشييف. وكان هؤلاء ينادون بالتوفيق بين الجانبين المتنابذين، يُفكِّرون ويقولون ما يقوله عادةً أولئك الذين لا معتقدات لهم، بل يرغبون في الحصول على بعضها. كانوا يؤكِّدون أنَّ الحرب، وخصوصًا مع خصم عبقري كبونابرت — ذلك أنهم عادوا إلى تسميته ببونابرت من جديد — تتطلَّب ولا شكَّ علمًا تامًّا وأكثر التدابير براعةً؛ لذلك فإن بفويل عبقريٌّ حقًّا في هذا الصدد. ولَمَّا كان لا يمكن الإنكار بحال أن النظريين غالبًا ما يكونون مانعين، فإنه لا بدَّ — وهم الذين لا يمنحونهم ثقة تامة — من الإصغاء بنفس الوقت إلى خصم بفويل، وهم الرجال العمليُّون المجرَّبون، واتخاذ حلٍّ وسط بينهم. وتبعًا لذلك، فإنهم وهم يعترفون بضرورة إبقاء معسكر دريسا استجابةً لخطة بفويل، يتطلَّعون إلى تعديل سَير الجيشين الآخرين. وعلى الرغم من أنه بهذه الطريقة لا يمكن بلوغ أيٍّ من الأهداف المقترحة، فإنَّ أعضاء هذا الفريق كانوا يزعمون أنَّ ذلك أفضل الحلول.

أمَّا تيار الآراء الرابع، فكان يرأسه التسيزاريفيتش، كان هذا لا يزال محتفظًا في ذاكرته خيبتَهُ في أوسترليتز؛ حيث تقدَّم، وكأنه في عرض، بخوذته وسُترته القصيرة على رأس الحرس وهو قانع بأنه سيسحق الفرنسيين بكل بسالة، ولكنه أُخِذ على حين غِرَّة في الخط الأمامي، فأحاطت به الفوضى، ولم يتخلَّص إلا بشكلٍ محزن. لقد كان لرجال هذا الفريق فضيلة الإخلاص وخطيئته. كانوا يخافون نابليون ويعرفون قوته وضعفهم، ثم لا يجدون غضاضة في التصريح بذلك. كانوا يردِّدون: «لن يُلحِق هذا كله إلا الضرَّ والهزيمة والعار بنا، لقد تخلَّينا حتَّى الآن عن فيلنا ثم عن فيتيبسك، وسوف نتخلَّى كذلك عن دريسا. إنَّ الحلَّ المعقول الوحيد الذي بقي علينا أن نأخذ به هو التوصُّل إلى صلح بأسرع ما يمكن إذا كنا لا نريد أن نُطرَد من بيترسبورج!»

كان لهذا الرأي المنتشر في المقامات العالية من الجيش صدًى في بيترسبورج، بل وحتى في نفس المستشار روميانتسيف، الذي كان ينشد الصلح ولكن لأسباب أخرى.

وكان هناك معسكر خامس يساند باركلي دوتوللي بسبب مركزه كوزير للحربية وقائد أعلى أكثر ممَّا كان يسانده لقيمته الشخصية. وكان رجال هذا الفريق يقولون: «مهما بلغت أخطاؤه — وكانوا أبدًا يبدءون بهذه العبارة — فإنه رجل نشيط ونبيل، وليس لدينا أفضل منه. أعطوه سلطة حقيقية؛ لأنَّ وحدة القيادة في الحرب هي شرط النجاح، وسيُرِيكم ما يستطيع صنعه كما أظهره من قبل في فنلندا، فإذا استطاع جيشنا أن ينسحب دون عوائق حتَّى دريسا، وإذا كان الآن قويًّا ومنظَّمًا، فإننا مدينون بذلك إلى باركلي وحده. فإذا استبدلناه ببينيجسن ضاع كل شيء. لقد برهن بينيجسن أكثر مما يجب عن عجزه عام ١٨٠٧م.»

والفريق السادس، أنصار بينيجسن، كانوا على العكس يؤكِّدون أنَّ ما من أحدٍ أكثر نشاطًا وأكثر خبرةً من هذا الرجل، وأنه لا بدَّ من الرجوع إليه إن عاجلًا أو آجلًا، وإن تراجُعَنا إلى دريسا ليس في الواقع إلا هزيمة مخزية سبَّبتها سلسلة من الأخطاء، «وكلما اجتمعت أخطاء متشابهة كان ذلك أفضل؛ إذ يُفهم بأكثر سرعة أن الأمر لا يمكن أن يسير على هذا النحو. إن ما يلزمنا ليس باركلي ما، بل رجلٌ مثل بينيجسن الذي قدَّم براهينه من قبل عام ١٨٠٧م، والذي اعترف له نابليون بالذات بجدارته، إنه الوحيد الذي سينحني كل الناس أمامه.»

أما التابعون للفريق السابع، فكانوا من الأشخاص الذين لا يعدم المرء مقابلة أمثالهم في محيط الأمراء والعظماء الشبان، والذين كانوا كُثُرًا بصورة خاصة حول الإمبراطور ألكسندر، تعدادهم جنرالات ومساعدون عسكريون مخلصون أشد الإخلاص للرجل أكثر من إخلاصهم للعاهل، كانوا يعبدونه بتجرُّد نزيه كما كان يعبده روستوف عام ١٨٠٥م، ويعزون إليه ليست الفضائل كلها فحسب، بل وكل الصفات الإنسانية. كان هؤلاء يُمجِّدون ويذمُّون بالوقت نفسه تواضعَ مولاهم الذي رفض القيادة العليا، ويرغبون في أن يعلن مليكهم مسكه زمام قيادة الجيش نابذًا قلة ثقته المفرطة في نفسه، وأن ينظِّم هيئة أركان كبرى. وبعد أن يستشير — عند الاقتضاء — رجال النظريات كما يستشير الرجال العمليين الأكثر خبرةً، يقود بنفسه جيوشه إلى القتال؛ إذ إن وجوده وحده يملأ الرجال بحماسة جنونية.

بيد أنَّ المعسكر الثامن والأهم، الذي تبلغ نسبته إلى السابقين تسعة وتسعين إلى واحد، فقد كان يضمُّ الأشخاص الذين لا يريدون الحرب ولا السلم ولا المعسكر المحصَّن على دريسا أو في مكان آخر، ولا براكلي ولا الإمبراطور ولا بفويل ولا بينيجسن؛ لأن

مصالحهم ومسرَّاتهم كانت أكثر أهميةً في نظرهم كما كانت الهدف الأوحد للذين يسيرون وراءه. وكان المستحيل يصبح ممكنًا في هذه البلبلة من الدسائس التي تتقارع وتتشابك في المعسكر الإمبراطوري. فهذا أحدهم يشارك اليوم بفويل في الرأي خشية أن يفقد مركزًا رابحًا، وغدًا يشارك خصومه ويؤكِّد بعد غدٍ أنه لا رأي له حول نقطة الخلاف؛ كل ذلك دفعًا للتعرض للخطر وحرصًا على البقاء حول مليكه. وذاك راغبٌ في بلوغ مركز مكين، يستلفت انتباه الإمبراطور بالمناداة برأي كان هذا قد ألمح به بالأمس، ويناقش ويصيح في المجلس ويكيل لنفسه ضربات قوية على صدره، ويطلب المعارضين له إلى المبارزة؛ ليثبت بذلك أنه على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل الصالح العام. وثالثٌ بين مجلسين وفي غياب أعدائه يلتمس دون خجل عونًا ماديًّا لقاء خدماته المخلصة وهو عارف أنه لن يكون هناك متَّسع من الوقت لرفض طلبه. ورابعٌ مرهق دائمًا بالعمل، وكأنه بفعل متعمد كلما أراد سيده رؤيته. وخامسٌ، بغية الحصول على بطاقة دعوة إلى المائدة الإمبراطورية طالما تاقت نفسه إليها، يبرهن بكثير من الحجج المتفاوتة بالقوة صحَّة نظرية شائعة رائجة أو بطلانها.

كان هذا الثَّوْل من الزنانير لا يُفكِّر في امتصاص المال والأوسمة والمناصب، همُّه أن يسترشد باتجاه ميل الرعاية الإمبراطورية. فما إن تتجه إلى وِجهةٍ ما حتَّى ينفخ في ذلك الاتجاه بالذات بشكل يتعذَّر معه على الإمبراطور تحويل رعايته إلى ناحية أخرى. وكان هذا الفريق الثامن، وسط قلق الساعة والبلبال الذي أحدثه الخطر الماثل، وبين كلِّ هذا الإعصار من الدسائس والأنانيات والخصومات بين الاتجاهات المختلفة المتعارضة، بين كلِّ هؤلاء الناس من مختلف الجنسيات، كان هذا الفريق الأكثر عددًا، المنصرف إلى مصالحه الشخصية، يعقِّد سَيْر الأمور بصورة خاصة. وأيًّا كان الموضوع المثار، كان هذا الثَّوْل من الزنانير الذي لم يفرغ بعدُ من التبويق في الموضوع الذي كان يشغله من قبله، يطير سبَّاقًا إلى الموضوع التالي فيكتم بطنينه الأصوات المخلصة التي تساهم في النقاش.

وفي اللحظة التي وصل فيها الأمير آندريه إلى المعسكر، بدأ فريق تاسع يرى النور. إنه فريق الأشخاص المسنِّين العاقلين الذين حطَّمتهم الأعمال، والذين ما كانوا يشاطرون أحدًا بالآراء القائمة، بل يفحصون بتجرُّد ما يدور في البلاط الإمبراطوري، ويبحثون عن الوسيلة التي يضعون بها حدًّا للقلق والتردُّد والغموض والضعف.

كان هؤلاء يقولون ويفكِّرون في أنَّ الضرر ناجم قبل كل شيء عن وجود الإمبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش، وأنَّ الجو الاتفاقي والتقلُّب السائدَين في البلاط يضرَّان

أبلغ الضرر بالجيش، وأنَّ دور الملك هو أن يحكم وليس أن يقود الجيوش، وأنه ليس هناك غير مَخرجٍ واحدٍ للمأزق؛ ألا وهو رحيل الإمبراطور الذي يشلُّ وجوده خمسمائة ألف جندي ضروريين لتأمين أمنه. وإنَّ جنرالًا قائدًا أعلى رديئًا ولكن مستقلًّا، أفضل من رئيس من المرتبة الأولى مرتبط بحضرة الإمبراطور ورغبته السامية.

وبينما الأمير آندريه يقيم في المعسكر دون أن يضطلع بأيَّة أعباء، رفع أحد أعضاء هذا الفريق الأكثر نفوذًا — وهو سكرتير الدولة شيخكوف — رسالةً إلى الإمبراطور موقَّعة من بالاشيف وآراكتشييف. ولقد استغل الإذنَ الممنوح له بالحكم على سير الأمور، فألمح بعبارات محترمة إلى العاهل أنَّ وجوده في العاصمة ضرورة لإثارة حماس الجماهير الحربي.

ولقد فهم ألكسندر ضرورة استفزاز الشعب للدفاع عن الوطن، فاتخذها حُجَّة ليغادر الجيش، فكان الحماس القومي الذي ظلَّ مستعرًا طيلة وجوده في موسكو العامل الرئيسي في انتصارنا.

الفصل العاشر

الجنرال بفويل[1]

لم تكن تلك الرسالة قد سُلِّمت إلى الإمبراطور بعدُ حينما أخطر باركلي ذات يومٍ، وقت الغداء، بولكونسكي أنَّ جلالته يرغب في رؤيته ليستفسره عن تركيا، وأنَّ على الأمير آندريه أن يمثُلَ ذلك المساء في الساعة السادسة بين يديه في مسكن بينيجسن.

وكانت القيادة الإمبراطورية ذلك اليوم قد أُخطِرت بحركة جديدة لنابليون يمكن أن تُصبح خطيرة على الجيش. بَيْد أنَّ النبأ دُحض فيما بعد، ولقد طاف الزعيم ميشو صبيحة ذلك اليوم مع ألكسندر بحصون دريسا، ودلَّل له على أن هذا المعسكر المحصَّن العتيد، إنتاج بفويل — هذه الطرفة في فن «التكتيك» — ليس في الحقيقة إلا شيئًا تافهًا محضًا، وأنه لن يسبِّب ضياع نابليون، بل ضياع الجيش الروسي.

عندما وصل الأمير آندريه إلى المسكن الأميري الصغير القائم على شاطئ النهر مباشرةً، الذي كان بينيجسن يُقيم فيه، لم يجد فيه لا هذا الجنرال ولا الإمبراطور. لكن أحد المساعدين العسكريين الجنرالات، واسمه تشيرنيشيف، استقبله وأنهى إليه أنَّ جلالته يتفقَّد للمرة الثانية ذلك اليوم تحصينات المعسكر الذي بات الشك في جدواه يتسرَّب إلى النفوس، يرافقه بينيجسن والمركيز بولوكشي.

كان تشيرنيشيف جالسًا إلى نافذة في الحجرة الأولى يقرأ رواية فرنسية، ولا بدَّ أنَّ تلك الحجرة كانت في الماضي قاعة رقص؛ لأن الأرغن كان لا يزال هناك، وقد رُصفت فوقه النجاد. وفي إحدى الزوايا كان مساعد بينيجسن العسكري مرتميًا فوق سريره القابل للانطواء يغطُّ في النوم إثر غداء فاخر ولا ريب أو وفرة عمل. كان للقاعة بابان: الباب

---

[1] PFUEL.

المقابل يقود إلى البهو القديم، والباب الأيمن إلى مكتب عمل. ومن وراء الباب الأول كانت أصوات ترتفع باللغة الألمانية وبالفرنسية بين حين وآخر. لم يكن هناك مجلس حربي مجتمع؛ لأنَّ الإمبراطور ما كان يحب التعاريف الدقيقة، بل اجتماع بعض الشخصيات. كان يريد الاستئناس برأيهم في هذا الموقف العصيب. وبالاختصار؛ مجلس سرِّي على نحوٍ ما. وكان بين المستدعَيْن الجنرال السويدي آرمفيلت وفولزوجن ووينتزنجيرود — هذا الفرنسي المشايع للعدو على حدِّ تعبير نابليون — وميشو وتول والكونت ستين الذي لم يكن قط عسكريًّا، وأخيرًا بفويل «نقطة جمع» المسألة كلها كما قيل للأمير آندريه. تسنَّى لهذا متسع من الوقت ليتفحَّص هذا الرجل؛ لأن بفويل وصل بعده مباشرةً وتحادث بعض الوقت مع تشيرنيشيف قبل أن يدخل البهو.

ومنذ النظرة الأولى — رغم أنه لم يكن قد رآه من قبل — بدا بفويل للأمير آندريه في زي جنرال روسي سيئ الحياكة، كان يعطيه شكل المتنكِّر كأنه يعرفه من قبل. كان بفويل يذكِّر المرء بشكل غامض بالجنرالات ويروذر وماك وشميت وطائفة أخرى من أمثالهم من النظريين الذين صادفهم عام ١٨٠٥م، لكنه كان أكثرهم نموذجًا كاملًا. لم يرَ بولكونسكي قط من قبلُ ألمانيًّا يجمع إلى هذا الحدِّ تقاسيم كل هؤلاء الألمانيين النظريين البارزة.

كان رجلًا قصيرًا شديد النحول، ولكن متين التركيب قوي البنيان ذا حوضٍ عريض وراسلَيْن بارزَي العظام وغضون تخدد وجهه وعينين غائرتَيْن بعمقٍ في محجريهما، أمَّا شعره المصقول من الأمام وعلى الصدغين بعجلة بالفرشاة، فقد كان منتصبًا من الوراء في خصلات هوجاء. دخل وهو يُلقي نظرات قلِقة ذات اليمين وذات الشمال وكأن كلَّ شيء في تلك القاعة الفسيحة يخيفه، سأل تشيرنيشيف بالألمانية وهو يُمسك سيفه بشكلٍ أخرق عن مكان وجود الإمبراطور. لا بدَّ وأنه كان متعجِّلًا اجتياز الحجرات وإرسال التحيات والتمنيات المناسِبة الشكلية ليتمركز وراء خريطة ويعود إلى طبيعته. ولَمَّا أبلغه تشيرنيشيف أنَّ جلالته يتفقَّد التحصينات التي أمر هو، بويفل، ببنائها تبعًا لنظرياته الشخصية؛ هزَّ رأسه هزَّات عنيفة وطافت على شفتيه ابتسامة ساخرة. غمغم في سرِّه بذلك الصوت الخفيض الذي امتاز به الألمان الواثقون من أنفسهم: «غباء … أو سينهار كل شيء … أو يُمكن توقُّع أشياء جميلة …» ولم يميِّز الأمير آندريه تمامًا ما كان يقوله، فأراد أن يمرَّ، لكن تشيرنيشيف قدَّمه لبفويل مشيرًا إلى أنَّ الأمير قادم من تركيا؛ حيث انتهت الحرب هناك نهاية سعيدة. وبالكاد تنازل بفويل أن يمنحه نظرة وغمغم وهو

يضحك: «لا بدَّ وأنها كانت حملة تكتيكية رائعة.» ثم ازداد تهافتًا وهو يتجه صوب الحجرة التي ترتفع منها الأصوات.

ومما لا ريب فيه أن واقع التجرؤ على فحص وانتقاد معسكره دون وجوده، أثار غضبة بفويل المألوفة إلى أقصى حدٍّ، واستعداده الطبيعي للاستهزاء. ولقد أتاحت هذه المقابلة القصيرة للأمير آندريه أن يكوِّن لنفسه — اعتمادًا على ذكرياته عن أوسترليتز — فكرةً واضحة عن الرجل. كان بفويل واحدًا من أولئك الذين يمكن أن تقود الثقة اليائسة بأفكارهم إلى حدِّ الاستشهاد، والذين لا يُرى مثيلٌ لهم إلا في ألمانيا؛ لأنَّ الألمان وحدهم يركِّزون اطمئنانهم على فكرة مجرَّدة على العلم؛ وأعني المعرفة المزعومة بالحقيقة المطلقة. إنَّ الفرنسي واثق من نفسه؛ لأنه يتصوَّر أنه يمارس — سواء أكان بفكره أو بجسمه — فتنةً لا تُقاوَم على النساء كما على الرجال. والإنجليزي يثق بنفسه؛ لأنه يعتقد أنه مواطن في أفضل بلدان العالم مدنية؛ فهو بوصفه إنجليزيًّا يعرف دائمًا ما يجب أن يعمل، وبوصفه إنجليزيًّا يعرف أنَّ كل ما يعمله إنما هو خير ما يُعمل دون نقاش. والإيطالي يثق بنفسه؛ لأن طبيعته الاهتزازية تجعله ينسى نفسه والآخرين معه. أمَّا الروسي، فإنه يثق بنفسه؛ لأنه لا يعرف شيئًا ولا يريد أن يعرف شيئًا، ولأنه لا يؤمن بأنه يمكن معرفة أي شيءٍ كان. إنَّ ادعاء الألماني أكثرها عنادًا وبشاعةً؛ لأنه يتصوَّر أنه يعرف الحقيقة. وبعبارة أخرى: العلم الذي صنعه هو نفسه والذي يعتبره بمثابة الحقيقة المطلَقة.

كذلك كانت — دون ريب — عقلية بفويل. كان يملك علمًا؛ أعني نظرية الحركة المنحرفة، تلك التي استلهمها من دراسته لحروب فريدريك[٢] الأكبر. وتبعًا لذلك فإنَّ الحملات التي جاءت بعدها ليست في نظره إلا سلسلةً من الالتحامات السخيفة البربرية الفارغة، ارتكبت أخطاء كثيرة من جانب ومن آخر حتَّى أصبحت تلك الحروب لا تستحق اسم الحروب. ولَمَّا كانت لا تتفق مع نظريته فإنه لم يكن يعتبرها جديرة بأن تُدرس.

[٢] فريدريك الثاني — الكبير: ابن فريدريك الأول، ملك بروسيا. وُلد في برلين عام ١٧١٢م، واعتلى العرش عام ١٧٤٠م، فكان محاربًا شهيرًا وإداريًّا بارعًا، أسَّس عظمة بروسيا واستولى على سيليزيا في معركة مولوتيز عام ١٧٤١م، وقاوم بنجاح بعد أن تحالف مع إنجلترا، خلال حرب السبع سنوات، مجهودات فرنسا والنمسا وروسيا المشتركة، ثم أعاد تنظيم ولاياته المنهَكة بسبب الحرب بدراية ممتازة فائقة. وكان سياسيًّا متشكِّكًا وواقعيًّا، ساهم عام ١٧٧٢م في أول تقسيم لبولونيا الذي كبَّر رقعة ولاياته. وكان صديقًا للأدباء، كاتبًا ممتازًا يهوى الفلسفة، وقد كتب مذكرات بالفرنسية واجتذب حوله الشاعر فولتير وعددًا كبيرًا من رجال الفكر. تُوفِّي عام ١٧٨٦م.

لقد كان عام ١٨٠٦م واحدًا من واضعي الخطة التي أفضَت إلى إيينا وأويرستات، لكن هذه الهزائم لم تُبرهن له قطُّ على خطأ نظريته. على العكس، فإن المخالفات التي حدثت لهذه النظرية كانت في نظره الأسباب الوحيدة للهزيمة، ولقد قرَّر بلهجة التهكُّم الخاصة به قائلًا: «لقد تنبَّأتُ تمامًا من قبل أنَّ كل شيء سيذهب إلى الشيطان!» كان بفويل واحدًا من هؤلاء النظريين شديدي الولع بنظرياتهم لدرجة ينسون معها الغاية وبالتالي التطبيق العملي. كان يحتقر كل ما هو تطبيقي لشدة حبه بالنظرية، بل إنه كان يبتهج للفشل؛ لأن الفشل الناجم عن خرق للنظرية في تطبيقها لا يبرهن له إلا على صحة أفكاره.

ولقد نطق بالكلمات القليلة التي تبادلها مع تشيرنيشيف والأمير آندريه حول الحملة الحاضرة بلهجة الرجل الذي يعرف سلفًا أنَّ كل شيء سيكون سيئًا، وأنه على أيَّة حال لا يشعر بأي أسف تجاه ذلك. ولقد كانت الخُصْلات المتمردة في مؤخرة رأسه، وصدغاه المصقولان بعجلة، تدل ببلاغة على هذه الطريقة بالنظر إلى الأمور.

ولم يكد يدخل الحجرة الأخرى حتَّى تعالت صيحات صوته الخفيض الجهم.

الفصل الحادي عشر

مجلس حربي

لم يكد الأمير آندريه يغادر بنظره بفويل حتَّى دخل الكونت بينيجسن مندفعًا، ومضى إلى المكتب بعد أن حيًّا بولكونسكي بإشارةٍ من رأسه، وأعطى بإيجاز تعليماته إلى مساعده العسكري. وكان الإمبراطور يتبعه ملازمًا إذا كان متعجِّلًا اتخاذ بعض الاستعدادات قبل أن يستقبله. خرج تشيرنيشيف والأمير آندريه على المرقاة. ترجَّل الإمبراطور عن حصانه ظاهر الإعياء، وأمال رأسه إلى اليسار، وأصغى بأذن ساهمة إلى المواضيع الحادَّة التي كان المركيز بولوكشي يبحثها. تقدَّم الإمبراطور بضع خطوات إلى الأمام ظاهر الرغبة في قطع الحديث، لكن الإيطالي متضرِّج الوجه شديد الانفعال، اجتاز وراءه المرقاة متناسيًا آداب اللياقة. وبينما كان الإمبراطور يحدِّق في بولكونسكي الذي ظلَّ في وقفة الاحترام، تابع بولوكشي بشدة تقرُب من الجنون: «أما فيما يختص بذلك الذي أشار بمعسكر دريسا، فإنني يا مولاي لا أجد له أفضل من الاختيار بين البيت الأصفر — وهو الاسم الذي يُطلَق في روسيا على مآوي العجزة التي كانت تُطلى من قبلُ بهذا اللون — أو المشنقة.»

قال الإمبراطور لبولكونسكي برفق، وقد عرفه أخيرًا دون أن يبدو عليه أنه مصغٍ إلى منظوم قول الإيطالي: «مفتتن برؤيتك. امضِ إلى الغرفة التي يجتمع فيها هؤلاء السادة وانتظرني هناك.»

دخل ألكسندر إلى المكتب فتبعه الأمير بيير ميخائيلوفيتش فولكونسكي والبارون ستين ثم أغلق الباب. دخل الأمير آندريه مع بولوكشي — الذي عرفه من قبل في تركيا — إلى البهو الذي عُقد فيه الاجتماع تبعًا لإذن الإمبراطور.

كان الأمير فولكونسكي حينذاك يشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب لدى الإمبراطور بصورة غير رسمية. خرج من المكتب مزوَّدًا بخرائط نشرها على الطاولة في البهو، وعرض على المجتمعين المسائل التي يرغب في أخْذ رأيهم حولها. لقد تلقَّوا خلال

الليل النبأ الذي ثبت فيما بعد أنه غير صحيح، والذي يقول إنَّ الفرنسيين عازمون على الالتفاف بعيدًا عن معسكر دريسا.

استهلَّ الجنرال آرمفيلت الكلام، وتقدَّم بغية تجنُّب متاعب الساعة بعرضٍ ما كان قطُّ منتظرًا، لا يبرِّره إلا رغبته في أن يظهر أنه هو الآخر قادر على إبداء الرأي فحسب. وتبعًا لقوله، كان على الجيش أن يحتلَّ مركزًا جديدًا متنحيًا عن طرق بيترسبورج وموسكو، وأن ينتظر هجوم العدو. وكان يرى أنَّ آرمفيلت قد أعدَّ هذه الخطة منذ أمدٍ طويل، وأنها على أية حال ما كانت تجيب على المسائل المطروحة، وأنه انتهز هذه الفرصة ليتعرَّف على خطته فحسب. ولقد كانت الخطة واحدة من تلك الوساوس التي لا تُحصى التي يمكن أن تكون نافعةً كأية فكرة أخرى بالنسبة إلى أيٍّ ما كان على أي علمٍ بالطابع الذي كانت تلك الحرب تتخذه. ولقد حاربها بعضهم ودافع عنها البعضُ الآخر. ولقد انتقد الزعيم الشاب تول بضراوةٍ خاصةً مشروع الجنرال السويدي، وأخرج من جيبه مخطوطًا وسأل الإذن له بتلاوته. كان تول يعرض في مذكرته، شديدة الإسهاب تلك، خطة جديدة للحرب تُناقض على طول الخط المشروع الذي تقدَّم به آرمفيلت، كما تناقِض خطة بفويل. فاستبعدها بولوكشي بدوره وأوصى بالهجوم الذي يمكنه وحده إخراجنا من التردُّد ومن هذا الشَّرَك الذي هو معسكر دريسا على حدِّ زعمه. وفي تلك الأثناء كان بفويل وتُرجمانه لدى البلاط فولزوجن لا ينبسان بكلمة. استدار بفويل الذي كان ينخر باشمئزاز مُعرِبًا بذلك عن ترفُّعه عن مناقشة مثل هذه الأضغاث. ولمَّا دعاه الأمير فولكونسكي الذي كان يدير المناقشات إلى إبداء وجهة نظره، اكتفى بالقول: «ولماذا أُسأل؟ إن الجنرال آرمفيلت يشير عليكم بوضعية رائعة مع مؤخرات عارية، ثم لديكم الاختيار بين الهجوم الذي يقدِّمه هذا السيد الإيطالي، وهو جيد، أو الانسحاب، وهذا رائع أيضًا. لماذا تسألني رأيي؟ إنك تعرف كلَّ شيء أفضل مني.»

نبَّهه بولكونسكي وهو متجهِّم أنه إنما يسأله باسم الإمبراطور، وحينئذٍ نهض بفويل وأعلن وهو يثور فجأةً: «لقد أفسد كل شيء، لقد خُلط كل شيء. كانوا جميعًا يريدون معرفةً أكثر مما أعرف، والآن يسألونني رأيي! كيف نُصلح الأخطاء؟ ليس هناك ما يصلح. يجب تطبيق المبادئ التي حدَّدتُها بكلِّ دقة.»

وختم كلامه — وهو يضرب الطاولة بأصابعه بارزة العظام: «صعوبة الموقف؟ عبث أطفال، تُرَّهات.»

وجذب الخريطة إليه وأكَّد وهو يربِّت عليها بيده الضامرة أنَّ أي عارض لا يمكن أن يضعف قوة معسكر دريسا. لقد دُرس كلُّ شيء، فإذا شرع العدو كما يزعمون بحركة التفاف، فإنه سيُباد دون أدنى ريب.

طرح عليه بولوكشي الذي كان يجهل الألمانية بضعة أسئلة بالفرنسية، فهبَّ فولزوجن لنجدة سيده الذي يتكلَّم الفرنسية بعسر وترجم تفسيراته. ولقد كان يجد صعوبةً كليَّة في متابعته؛ لأن بفويل كان يؤيد بطلاقة أن خطته محيطة بكل شيء إطلاقًا؛ بما وقع بمثل الإحاطة بما سيقع. فإذا كانوا الآن يصطدمون بأشياء لم تكن في الحسبان، فإنَّ الخطأ في ذلك يقع على الفجوات التي وقعت في تنفيذ الخطة المذكورة. وكان يشفع بيانه هذا بضحكة ساخرة، واستخف بالاستمرار فيه حتَّى النهاية، مثله في ذلك مثل عالم الرياضيات الذي يكفُّ عن الإتيان ببراهين لدعم مسألة فرغ من حلِّها. فاستمرَّ فولزوجن يشرح بالفرنسية أفكار بفويل بدلًا عنه. وكان من حين إلى آخر يستنجد به بعبارة: «أليس كذلك يا صاحب السعادة؟» لكن بفويل كان يرد عليه بلهجة غاضبة أشبه بالرجل الذي يُطلِق في حُمَيَّا القتال النار على جماعته.

– «بالطبع نعم، أية فائدة من هذه الشروح؟»

وكان بولوكشي وميشو يدحضان معًا أقوال فولزوجن بالفرنسية، وآرمفيلت يخاطب بفويل بالألمانية، وتول يشرح كل شيء بالروسية لفولكونسكي. أمَّا الأمير آندريه فكان يُصغي ويلاحظ بصمت.

كان مَيْله منصرفًا كله إلى بفويل. كان هذا الرجل سريع الغضب ذو اللهجة الحاسمة، الواثق من نفسه لدرجة الجنون، الوحيد بين كل هؤلاء المستشارين الذي لا يرغب لنفسه شيئًا ولا يحمل على أحدٍ حقدًا. ما كان يريد إلا شيئًا واحدًا: تنفيذ خطته الموضوعة تبعًا للنظرية التي اقتضاه إنضاجها سنوات من الدراسة. ولا ريب أنه كان مضحكًا، وأنَّ ابتسامته المستهزئة منفِّرة، لكن تعلُّقه التعصبي بآرائه كان يوحي باحترام لا إرادي. أضِف إلى ذلك أنَّ كل الأبحاث — باستثناء أبحاثه — التي دارت خلال هذا الاجتماع، كان طابع مشترك لم يكن ظاهرًا إبَّان المجلس الحربي عام ١٨٠٥م: لقد كانت عبقرية نابليون تُحدِث في هؤلاء الفنيين رعبًا مخيفًا بلا ريب، ولكنه يؤثِّر على أتفه دليل. ذلك الرجل الذي لم يكن هناك شيء مستحيل في عُرفه، كانوا يتوقَّعون انبعاثه من كل الجهات معًا، ويستعملون اسمه المُهاب ليحاربوا بعضهم بعضًا، ما عدا بفويل الذي كان ينعته بالبربري لا أكثر ولا أقل من كل أعداء نظريته. وكان احترام الأمير آندريه يحمل في طياته على أيَّة

حال شيئًا من العطف. لقد كان من السهل تبعًا للهجة أفراد البطانة حيال بفويل، وتبعًا لما سمح بولوكشي لنفسه أن يقوله للإمبراطور، وبصورة خاصة تبعًا لاحتداد محاضراته الشخصية المكفهرَّة، أن يعرف المرء أنهم جميعًا عالمون بقرب سقوط اعتبار بفويل الذي لم يكن نفسه يشكُّ فيه. وعلى الرغم إذن من ثقته الرائعة وسخريته الكالحة كألماني، فإنَّ ذلك الرجل ذا الشعر الأملس على الصدغين والخُصلات الثائرة على مؤخِّرة الرأس كان يبدو جديرًا بالرأفة، ورغم إخفائه عواطفه وراء مظهره المنزعج المستخِف، فإنه كان يرى بوضوح أنه في يأس لرؤيته الفرصة الوحيدة التي تمكِّنه من اختبار نظريته على مدًى واسع وتفجير صحتها في وجه العالم كله.

استمرَّ النقاش طويلًا، وحمي الوطيس حتَّى تجاوز الحد إلى الصيحات والمساس بالأشخاص. ولكن كلَّما طالت المناقشات ضعف الأمل في الخروج بنتيجة عملية، ولَمَّا سمع الأمير آندريه بلغات مختلفة وبالالتجاء إلى الصياح، كلَّ هذا العدد من الآراء المتناقضة والمشاريع المعاكسة تدعم من قِبل أصحابها، لم يصدِّق أذنيه. لقد حدَّث نفسه مرارًا خلال سنوات خدمته وبحوثه الطويلة حول مهنة السلاح بأنه لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد عِلم للحرب، وأنَّ عبارة «عبقرية عسكرية» ليست بالتالي إلا عديمة المعنى، فإذا به الآن يجد في المناقشات الحالية تأييدًا لامعًا لوجهة نظره تلك. كيف يمكن التحدُّث عن نظرية وعِلم في الموضع الذي لا يمكن تحديد الشروط والاتفاقات فيها، والذي تكون القوات العاملة فيه أقل تحديدًا أيضًا؟ لم يستطع أحدٌ قط ولن يستطيعَ أبدًا معرفة الوضع الذي سيكون عليه جيشنا أو جيش العدو في غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة، وقيمة هذا الفوج أو ذاك، وأنه بدلًا من جبان رعديد في الصفوف الأولى يلوذ بالفرار إثر صيحة: «لقد قُطعنا!» يقف فتًى مرح وباسل يصيح: «هورا!» إنَّ فرقة قوامها خمسة آلاف رجل تعادل ثلاثين ألفًا كما وقع في شوينجرابن، وبالمقابل يمكن أن ينهزم خمسون ألف رجل أمام ثمانية آلاف كما وقع في أوسترليتز. هل هناك علم ممكن في مادة لا يمكن — ككل شيء في الحياة العامة — أن يتكهَّن بشيء مسبقًا، مادة يتوقف كل شيء فيها على ظروف لا تُحصى ولا تظهر قيمتها إلا في دقيقة واحدة لا يعرف أحدٌ متى تحين؟ إنَّ آرمفيلت يزعم أنَّ جيشنا قد شُطِر، وبولوكشي على العكس، يؤكد أننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين، وميشو يرى معسكر دريسا خطرًا؛ لأن النهر وراءه، وبفويل يرى خلافًا لذلك أنَّ النهر ضمانُهُ للأمان. إن تول يقترح خطة وآرمفيلت أخرى وكلها رديئة وجيدة معًا؛ لأن ميزات هذه أو تلك من الخطط لا يمكن أن تظهر إلا في الساعة التي يتمُّ فيها الحدث. فكيف

يتأتَّى أن يزعم كل هؤلاء بأرجحية العبقرية العسكرية؟ هل هناك من عبقرية في معرفة الوقت الملائم لتزويد الجيش «بالبقسماط» وإرسال هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار؟ كلا. لكنَّ العسكريين متشحون بالسنى والسلطة، والجمهور الجبان يمتدح المتنفِّذين الأقوياء عازيًا إليهم العبقرية خطأً. إنَّ أفضل الجنرالات الذين عرفتهم بدوا لي أبعد ما يكونون عن الرجال المتفوِّقين، قليلي الذكاء أو ساهمين، وأوَّلهم باجراسيون الذي يعتبره نابليون مع ذلك أكثر خصومه موهبةً. ونابليون نفسه! إنني أذكر هيئته الراضية المحدودة على ساحة القتال في أوسترليتز، ليس الرئيس الجيد بحاجة إلى عبقرية أو إلى صفات خاصة، بل على العكس، يجب أن يكون محرومًا من أسمى خصائل الطبيعة البشرية: الحب، الشعر، الحنان والشك الفلسفي. يجب أن يكون محدودًا، قانعًا بأهمية تصرفاته، وإلا فإنه سيفقد الصبر «ولن يكون قائد جيش باسلًا إلا لقاء الثمن، ولكن ليصُنْه الله من أن يتظاهر بالإنسانية أو أن يودَّ أحدًا أو يشفق على أحد، أن يفكِّر في ما هو عادل وما هو جائر. إنَّ من الواضح أنَّ نظرية العبقريات قد زُوِّرت في كل حين من قِبل هؤلاء الرجال؛ لأنهم يمثِّلون القوة. فكسْبُ معركة أو خسرانها يتوقَّف ليس عليهم، بل على الجندي الذي يصرخ في الصف: «لقد ضِعنا!» أو الذي يهتف: «هورا!» نعم، في الصف، وفي الصفِّ وحده يمكن أن يخدم المرء وهو قانع بأنه نافع.»

كذلك كان الأمير آندريه يفكِّر وهو يُصغي إلى النقاش بأُذن شاردة، وأخيرًا سمع بولوكشي يناديه والمجتمعون كلهم ينسحبون.

وفي اليوم التالي، خلال العرض، سأل الإمبراطور بولكونسكي أين يرغب في الخدمة، فضاع هذا إلى الأبد في نظر البلاط حينما لم يطلب إلى جلالته أن يُلحقه بخدمته، بل سأله الإذن بالخدمة في صفوف الجيش.

الفصل الثاني عشر

الرئيس روستوف

قبل أن تبدأ الحملة، تلقَّى روستوف من أسرته رسالةً أعلنوا له فيها باختصار مرض أخته وفَسْخ خطوبتها مع الأمير آندريه؛ مفسِّرين ذلك برفض ناتاشا الاستمرار، ويرجونه مرةً أخرى أن يقدِّم استقالته وأن يعود إليهم. ودون أن يفكِّر في الانسحاب من الجيش كتب نيكولا لذويه أنَّ مرض ناتاشا وزواجها الذي لم يتمَّ يحزنانه كثيرًا، وأنه سيعمل كلَّ ما في وسعه لينزل عند رغبتهم. وفي رسالة خاصة إلى سونيا فسَّر سلوكه كما يلي:

> صديقة روحي المعبودة، ليس إلا الشرف ما يمنعني من العودة إلى قربك، ففي اللحظة التي فتحت فيها الحملة، أعتقد أنني سأخسر شرفي ليس أمام زملائي فحسب، بل وكذلك حيال نفسي إذا فضَّلت سعادتي على واجبي، وغرامي على وطني. لكن هذه ستكون آخر فراق لنا. كوني على ثقة أنَّه ما إن تنتهي الحرب وأبقى أنا في هذا العالم وتبقين أنتِ على حبي حتَّى أترك كلَّ شيء وأطير إليكِ لأضمك إلى الأبد إلى قلبي المضطرم.

والحقيقة أنَّ الشروع في الحملة وحده هو الذي استوقف روستوف ومنعه من العودة للزواج بسونيا كما وعد. لقد كان خريف «أوترادنواي» ورحلات الصيد فيه والشتاء بأعياد الميلاد المرحة وغرام سونيا، كل هذه الأمور كانت قد فتحت له أفقًا جديدًا من المباهج الريفية الهادئة يجذبه بقوة لا تُقاوَم. كان يحدِّث نفسه: «نعم، زوجة ممتازة وأطفال، فصيلة جيدة من كلاب العَدْو، وعشرة أو اثنا عشر زوجًا من الكلاب السلوقية الباسلة، وتحسين مردود الأرض والزيارات بين الجيران ومركز ما يساعدني على انتقاء أقراني، هذا هو طراز الحياة الذي يروق لي.» لكنَّ الحرب وقد نشبت أرغمته على البقاء في الكتيبة،

وبفضل عقليته السهلة فإنه لم يكن أقل تقديرًا لهذا النوع من الحياة التي كان يعرف كيف يستخلص منها كل ما يمكن من مباهج.

عند عودته إلى الكتيبة استقبل روستوف استقبالًا وديًّا من قِبل زملائه، وكُلِّف بالذهاب إلى روسيا الصغيرة؛ حيث عاد منها بجياد ممتازة كانت مبعث بهجته وسببًا في تهنئة رؤسائه له. ولقد رُقِّي إلى رتبة رئيس أثناء غيابه، ولَمَّا أُعِدَّت الكتيبة للحرب وزيدت مرتباتها، ألحقوه بكوكبته السابقة.

نُقِلت الكتيبة في بدء الحرب إلى بولونيا؛ حيث التحق بها ضباط جُدد ورجال جُدد وجياد، وسادت فيها تلك الحيوية المرحة التي تسبق عادةً الشروع في حملة. ولقد استسلم روستوف بكليته، وهو العارف بالميزات التي يوفِّرها له مركزه، إلى ملاذه وواجبات الخدمة، وإن كان عارفًا أنَّ عليه أن يتخلَّى عنها إن آجلًا أو عاجلًا.

أخلت الوحدات فيلنا لأسباب مختلفة: سياسية وفنية، وكانت كل خطوة إلى الوراء تثير في هيئة الأركان العامة مجموعة معقَّدة من الأهواء والترتيبات والدسائس، ولكن بالنسبة إلى فرسان بافلوجراد، كان ذلك التقهقر في أفضل مواسم السنة مع الزاد الكافي مجرد رحلة مرح، فكان بمقدور القيادة العامة أن تفقد شجاعتها وتسيء استخدام العقل وتتآمر كما يحلو لها، أمَّا الجيش فما كان يسأل حتَّى إلى أين يُرسَل ولا سبب تراجعه! وإذا كان هناك من أسف للتقهقر فإنَّ مرده مقتصر فقط على وجوب التخلِّي عن فتاة بولونية جميلة وتوديع مسكن كان شاغله قد أَلِف العيش فيه، وإذا كان أحدهم يرتئي أنَّ الأمور تسير سيرًا سيئًا فإنه كان يجتهد للظهور بمظهر المرح، وينسى الموقف العام كله ليصرف انتباهه إلى خدمته المباشرة. كانوا في بادئ الأمر يعسكرون بمرح في ضواحي فيلنا، ويرتبطون بصداقات مع أثرياء ريفيين بولونيين، ويتأهَّبون للاستعراضات التي يشرِّفها الإمبراطور ورؤساء كبار آخرون. ثم جاء الأمر بالانسحاب نحو سوينسياني وإتلاف المؤن التي لا يستطيعون نقلها. ولقد احتفظ الفرسان بذكرى سوينسياني بوصفه: «معسكر الثمل»؛ إذ إن الجيش كله عمَّد هذا المعسكر بهذا الاسم، حيث كان للسكان كثير مما يشتكون منه من القطعات التي انتهزت فرصة الإذن لها بالتزوُّد محليًّا، فراحت تصادر، إلى جانب الأرزاق، الخيول والعربات، بل وحتى النجد من بيوت السادة البولونيين. وكان روستوف يذكر سوينسياني؛ لأنه يوم وصوله إلى ذلك المكان اضطرَّ أن يجهِّز الرقيب الأول، ولم ينجح في إعداد الكوكبة التي كان أفرادها سكارى كلهم بعد أن نهبوا خمسة براميل من الجعة المعتَّقة دون علمه، ثم تراجعوا من سوينسياني حتَّى دريسا، ثم إلى أبعد من ذلك، ودائمًا إلى الوراء باتجاه الحدود الروسية.

وفي الثالث عشر من تمُّوز أُتيح لكتيبة بافلوجراد عملٌ جدِّي لأول مرة.

نشط ليلة ١٢-١٣ إعصارٌ من تلك الأعاصير الهائلة الذي سخا بها صيف ١٨١٢م زاخرًا بالمطر والبرد.

كانت كوكبتان مخيِّمتين في حقل شَيْلَم داسته الجياد والماشية فأتلفته كله، وكان المطر يهطل مدرارًا، وروستوف يصحبه أحد مرءوسيه؛ إيلين الشاب الذي وضعه تحت حمايته، يأوي تحت كوخ صغير جدًّا بُني على عَجَل. ولقد داهمت الأمطار ضابطًا من الكتيبة كانت وجنتاه مدعومتين بشاربين لا نهاية لهما، فاحتمى بالكوخ. قال: «إنني خارج للتوِّ من الأركان يا كونت، هل علمتَ شيئًا عن مأثرة راييفسكي؟»

وقصَّ عليه بالتفصيل معركة سالتاتوفكا.

كان روستوف يشنِّج عنقه الذي سال المطر إليه، ويدخِّن غليونه وهو يُصغي بشرود إلى القصة، ويُلقي نظرة بين الحين والآخر على إيلين الشاب الرابض بالقرب منه. كان نيكولا بالنسبة إلى هذا الفتى البالغ من العمر ستة عشر عامًا، والذي وصل إلى الكتيبة منذ قليل، أشبه بما كان دينيسوف بالنسبة إليه قبل سبعة أعوام، وكان إيلين يجتهد في الاقتداء بروستوف ويحبُّه كما تُحَبُّ المرأة.

راح زدرجينسكي، الضابط ذو الشاربين الطويلين، يؤكد أن سدَّ سالتانوفكا أصبح بالنسبة إلى روسيا أشبه بتيرموبيل[١] بالنسبة إلى اليونان، وأنَّ الجنرال راييفسكي قام هناك بمأثرة جديرة بمساواتها بالمفاخر الغابرة؛ لقد تقدَّم على السدِّ مع ولديه تحت نار رهيبة وألجأ الرجال إلى الهجوم. لم يدعم روستوف رواية المتحدِّث بأية إشارة استحسان، بل إنه كان يبدو وكأنه خجِل مما يُروى له دون أن يسمح لنفسه على أيَّة حال بإبداء أي اعتراض. كان يعرف من تجاربه الخاصة في أوسترليتز وفي عام ١٨٠٧م أنَّ الروايات من هذا النوع كاذبة دائمًا، ويعرف كذلك بفضل عمله في الحرب أنَّه ما من شيء يحدث كما

[١] تيرموبيل أو الأبواب الحارَّة: ممرٌّ مشهور في تيساليا (اليونان) بين جبل آنوبية وخليج مالياك؛ حيث كَمَنَ ليونيداس مع ثلاثمائة أسبرطي، وحاول إيقاف جيش كسيركسيس الذي ما كان يتصوَّر أن هذه القبضة من الرجال يمكن أن تناوئه الممر؛ فكتب إلى ليونيداس هذه الكلمات: «سلِّم أسلحتك.» فكتب الأسبارطي تحتها: «تعالَ خذها.» لكنَّ خائنًا اسمه إيفيالت دلَّ الفُرس على ممرٍّ يسمح بالالتفاف حول جبل آنوبية؛ فلمَّا رأى ليونيداس أنْ لا بدَّ من الموت، دعا رفاقه إلى مائدة شحيحة وقال: «وسوف نتناول عشاءنا هذا المساء عند بلوتون — إله الأموات.»

يتخيَّله المرء أو كما يُرى بعد حدوثه. لذلك فقد نفرت نفسه من قصة زدرجينسكي بقدر ما نفرت من الراوية نفسه الذي كانت عادته الكريهة أن ينحني بشاربيه اللامتناهيين على وجه محدِّثه، أَضِف إلى ذلك أنه كان يحتلُّ فراغًا كبيرًا في ذلك الكوخ الصغير. نظر إليه روستوف دون أن ينطق بكلمة، حدَّث نفسه قائلًا: «أولًا، لا بدَّ وأنه حدث على هذا السدِّ العتيد بلبال عنيف، وحتى لو تقدَّم راييفسكي مع ولديه، فإن هذه الحركة لم تستطع التأثير إلا على العشرة أو الاثني عشر رجلًا الذين كانوا يحيطون بهم. أمَّا الآخرون، فإنهم لم يستطيعوا رؤيةَ مع من ذهب راييسفكي إلى الهجوم، بل حتَّى الذين شاهدوه لم يتأثَّروا ولا ريب كلَّ التأثُّر؛ لأنهم كانوا يفكِّرون في جلودهم أكثر من تفكيرهم في عواطف هذا الجنرال الأبوية. أَضِف إلى ذلك أن مصير البلاد لا يتوقَّف قط على هذا السد كما كان الحال بالنسبة إلى «تيرموبيل» إذا صدَّقنا رواية المؤرخين. فأية جدوى من هذه التضحية إذن؟ ثم أية فكرة هذه أن يقود ولديه إلى المعركة؟ إنني لن أعرض على هذا النحو لا أخي بيتيا ولا حتَّى إيلين الذي لا تربطه بي أيَّة صلة والذي أعتبره فتًى باسلًا صغيرًا فحسب، بل لا بدَّ لي وأن أضعه في منجاة من الخطر.» ولقد حرص روستوف على أيَّة حال على ألَّا يُفصح عن آرائه الشخصية: إنَّ هذه القصة تهدِف إلى تمجيد جيشنا، فيجب إذن التظاهر بتصديقها. كان يعرف هذه الحقيقة منذ أمدٍ طويل.

أخيرًا، قال إيلين الذي لم يغِب عنه استياء روستوف: «لا يمكننا الصمود أكثر من ذلك. إن جواربي وقميصي وكل ثيابي مبلَّلة. سوف أبحث عن ملجأ في مكانٍ آخر. أعتقد أنَّ المطر قد خفَّ.»

خرج إيلين بينما تابع زدرجينسكي طريقه.

وبعد خمس دقائق عاد إيلين راكضًا وهو يجري في الوحل.

– «هورا! روستوف، تعالَ بسرعة! لقد وجدتُ أن هناك نزلًا على بُعد مائتي خطوة من هنا، والرفاق فيه الآن، وكذلك ماري هنريخوفنا، إننا نستطيع على الأقل أن نُجفِّف ثيابنا.»

كانت ماري هنريخوفنا ألمانية جميلة شابَّة، تزوَّجها طبيب الكوكبة في بولونيا، وكان الطبيب يصحب زوجته أينما ذهب بسبب حالته المالية ولا ريب، أو لعله ما كان يريد الانفصال عن زوجته في الفترات الأولى التي تلت زواجهما. ولقد كانت غَيرة الماجور تتيح للفرسان مادةً غزيرة للمزاح.

اتَّشح روستوف بمعطفه، وهتف مُهيبًا بلافروشكا أن يتبعه مع بعض الأمتعة، ثم ذهب مع إيلين يروغ هنا من الطين ويقع هناك في بِرَك ماء تحت المطر الذي بدأ يسكن في ذلك الليل الحالك الذي كانت تخطِّطه ومضات برق بعيد. كانا يتحادثان بينهما:

«روستوف، أين أنت؟»

– «هنا. أرأيت هذا البرق؟»

الفصل الثالث عشر

في المنزل

كان أربعة أو خمسة ضباط جالسين في المنزل، التي كانت عربة الطبيب واقفة على بابه، وكانت ماري هنريخوفنا — وهي ألمانيَّة صغيرة شقراء وسمينة بصدار وقلنسوة نوم — جالسة في مكان الشرف على مقعد عريض وزوجها نائم وراءها. استقبلت روستوف وإيلين لدى دخولهما ضحكات وهتافات مرحة.

قال روستوف ضاحكًا: «آه! لا يبدو عليكم أنكم بَرِمون!»

– «ولماذا لم تأتِ قبل الآن؟»

– «كم أنتما مبتلَّان! ميازيب حقيقية! لا تغرقا بهونا على الأقل!»

– «وعلى الأخص، لا توسِّخا ألبسة ماري هنريخوفنا.»

حاول روستوف وإيلين أن يكتشفا ركنًا صغيرًا ليبدلا فيه ثيابهما دون أن يخدشا عذار السيدة. صحيح أنه كانت هناك خلوة صغيرة وراء الحاجز، لكن الضباط الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق فيها على ضوء شمعة وضعوها على صندوق فارغ ويشغلون الفراغ كله، رفضوا بأي ثمن التخلِّي عن أماكنهم. لحسن الحظِّ، وافقت ماري هنريخوفنا على أن تتنازل لهما عن ثوب من أثوابها أقاماه حاجزًا وراحا وراءه بمساعدة لافروشكا الذي حمل معه اللوازم الكاملة، يبدلان ثيابهما المبتلَّة بأخرى جافَّة.

أشعلوا النار في المدفأة نصف المدمَّرة، وركَّزوا لوحًا من الخشب على سرجين وغطوه بلباد، ثم استحضروا «سماورًا» صغيرًا ونصف زجاجة روم، وبعد أن رَجَوْا ماري هنريخوفنا أن تقوم بدور ربَّة البيت، التفُّوا حولها. قدَّم لها أحدُهم منديلًا نظيفًا لتمسح به يديها الصغيرتين الفاتنتين، وألقى آخرُ على قدمَيْها سُترة عسكرية ليقيهما من الرطوبة، وعلَّق هذا معطفه على النافذة؛ كيلا يشعر رفاقه بالريح، وراح ذاك يطرد الذباب عن وجه الزوج خشية أن يستفيق.

قالت ماري هنريخوفنا وهي تجود بابتسامة مرحة: «دعوه هادئًا. انظروا كيف ينام مستغرقًا بعد ليلة بيضاء؟»

فأجاب الضابط: «ولكن لا يا ماري هنريخوفنا، يجب عليَّ أن أُعنى بسيدي الطبيب. لعله بذلك سيُشفق عليَّ عندما يبترون لي ذراعًا أو ساقًا.»

لم يكن هناك إلا ثلاثة أقداح، وكان الماء الكَدِر يمنعهم من معرفة ما إذا كان الشاي قويًّا جدًّا أم خفيفًا جدًّا. ولم يكن السماور ليتسع لأكثر من ستة أقداح. مع ذلك، فقد كانت المتعة أعم أن يتلقَّى أحدهم كأسه دوريًّا وتبعًا للقِدَم من يدي ماري هنريخوفنا العبلاوين ذواتي الأظافر القصيرة غير الظاهرة. لقد كان الضباط كلهم ذلك المساء عاشقين المرأة الشابة دون أي ريب، ولقد ألقى أولئك الذين كانوا يلعبون الورق وراء الحاجز بأوراقهم وهُرعوا يلتفُّون حول السماور تدفعهم هم كذلك الرغبة في مغازلتها. وعلى الرغم من الذعر الذي كانت تشعر به لأتفه حركة من زوجها النائم وراءها، فإن ماري هنريخوفنا كانت مشرقة الوجه برضًى لم تُحسِن إخفاءه وهي ترى نفسها محاطة بهذه الشبيبة اللامعة الأنيسة.

وإن كان السكَّر متوفِّرًا فإنهم ما كانوا يتوصَّلون إلى إذابته بسرعة؛ لأنه لم يكن هناك إلا ملعقة واحدة؛ لذلك فقد تقرَّر أنْ تحرِّك بنفسها دوريًّا السُّكَّر في قدح كلٍّ منهم. ولمَّا استحوذ روستوف على قدحه، اكتفى بأن صبَّ فيه قليلًا من الروم وقدَّمه إلى ماري هنريخوفنا لتحرِّك الشراب.

قالت له دون أن تكفَّ عن الابتسام، وكأن كل ما كانت تقوله ويقوله الآخرون يبعث على التسلية، بل ويحمل معنًى مزدوجًا: «ولكن، أليس لديك سكر؟»

– «إنني لا أبالي بالسكر! إنَّ ما أريده هو أن أراكِ تحرِّكين الشاي في قدحي بيدكِ الجميلة.»

أذعنت ماري هنريخوفنا، وراحت تبحث عن الملعقة التي استحوذ عليها بعضهم.

قال روستوف: «حرِّكيه بإصبعك يا ماري هنريخوفنا. سيكون ذلك أفضل.»

قالت وهي تتضرَّج من الغِبطة: «كم هو ساخن!»

أخذ إيليا دلو الماء وصبَّ فيها قطرات من الروم، ثم اقترب من ماري هنريخوفنا وقال: «هذا قدحي، فاغمسي فيه إصبعكِ فقط وسأبتلعه كله.»

ولمَّا أفرغوا السماور، أخذ روستوف الورق واقترح لعبة «الملوك» مع ماري هنريخوفنا، فاقترعوا لمعرفة مَن سيكون في صفِّها، واقترح روستوف كقاعدة للَّعب أنَّ مَن يُصبح

«ملكًا» يصبح من حقه تقبيل يد ماري هنريخوفنا، أمَّا «الخادم» فعليه على العكس أنَّ يعدَّ «سماورًا» جديدًا للطبيب.

سأل إيلين: «وإذا خرجت ماري هنريخوفنا «ملك»؟»

– «إنها حتَّى الآن ملكة، وأوامرها قوانين.»

لم يكَد اللَّعب يبدأ حتَّى انتصب وراء ماري هنريخوفنا رأس الطبيب الأشعث. لم يكُد منذ بعض الوقت نائمًا، بل كان يصيخ السمع إلى هذه الأحاديث المرحة، وكان واضحًا على وجهه الشرِس أنه لا يراها وديعة ولا مرِحة، ودون أن يبادل أحدًا التحية سأل وهو يحكُّ رأسه أن يفسح له المجال للخروج. وما إن خرج حتَّى انطلق الجميع بضحكة صاخبة في حين كانت ماري متضرِّجة الوجه لدرجة أقرب إلى البكاء، الأمر الذي أعطاها جاذبية أقوى في نظر السادة الضباط. وعاد الماجور بعد قليل وأعلن لزوجته، التي غاضت ابتسامتها وباتت تنظر إليه بقلق وكأنها تنتظر صدور حكمٍ عليها، أنَّ المطر قد توقَّف، وأنه يجب أن تمضي إلى العربة لتنام وإلا فسوف ينهبون كل الأمتعة التي فيها.

قال روستوف: «لا تقلق يا دكتور، سوف أُرسِل تابعًا إلى العربة ... أو تابعَيْن إذا شئتَ.»

وقال إيلين: «سأقوم بحراستها بنفسي.»

غمغم الطبيب وهو يجلس بقُرب زوجته بانتظار نتيجة الشوط وهو متجهِّم الوجه: «ذلك أنكم كما ترون أيها السادة نمتم نومًا هنيئًا. أمَّا أنا فإنني لم أُغمِض جفني منذ ليلتين.»

ولقد حمل وجه الطبيب المكفهر الذي كان يُقبل باتجاه زوجته المرحَ العام إلى الأوج، حتَّى إنَّ بعضهم ما كانوا يستطيعون الإمساك عن القهقهة التي كانوا يتذرَّعون لإطلاقها بشتَّى المبررات المحتشمة. ولمَّا انسحب الزوجان وأقاما في العربة، استلقى الضباط على الأرض والتفُّوا بمعاطفهم المبللة، لكنهم لبثوا وقتًا طويلًا لا ينامون. كانوا حينما يذكرون وجه الطبيب الهَلِع ومرحَ زوجته، ويجرون حينًا آخر إلى العتبة، ويقصُّون على بعضهم ما يجري في العربة، حاول روستوف مرارًا — وقد سحب معطفه إلى ما فوق رأسه — أن ينام، لكنه كان ينصرف إلى احتداد ما، فيشترك من جديد في الحوار الذي كانت تقطعه أجمل الضحكات المرحة الطفولية التي لا سبب لها ولا مبرر.

الفصل الرابع عشر

الاشتباك الأول

ما كان أحدٌ ينام بعد حوالي الساعة الثالثة صباحًا، عندما جاء الرقيب يحمل الأمر بالانثناء إلى أوسترفنيا.

أعدَّ الضباط أمتعتهم وهم لا زالوا يضحكون ويثرثرون، وأشعلوا من جديد السماور ذا الماء العَكِر، لكن روستوف مضى يلتحق بكوكبته دون أن ينتظر إعداد الشاي. كان الصبح يبزغ والمطر منقطعًا والغيوم تتبدَّد، والبرد والرطوبة يتسلَّلان خلال الألبسة التي لم تجفَّ بعد. وبخروجهما من المنزل ألقى روستوف وإيلين في ضياء الفجر الباهت نظرةً على العربة التي يلتمع غطاؤها بالماء، فكانت ساقا الطبيب الطويلتان تبرزان من تحت المئزر الجلدي الذي في مقدِّمة العربة، وكانت تُرى في الداخل قلنسوة المرأة الشابة، ويُسمع تنفُّس بعضهم وهو نائم.

قال روستوف لإيلين: «إنها حقًّا لطيفة جدًّا.»

فأجاب إيلين بإيمان سنواته الست عشرة: «فتَّانة!»

وبعد نصف ساعة، كانت الكوكبة منتظمة على الطريق، وعند الإيعاز: «إلى السرج!» رسم الجنود شارة الصليب على صدورهم واعتلوا مطاياهم، واتخذ روستوف مكانه في المقدِّمة وصاح: «إلى الأمام سِرْ!» وعندئذٍ اهتزَّت صفوف الفرسان بين قرقعة السيوف ووقع الحوافر في الوحل وهَمْس المحادثات المكتومة، وراحت تتقدَّم أربعة فأربعة على طول الطريق المحاط من الجانبين بأشجار السندر، تتبع قلب فرقة مشاة و«بطارية» مدفعية.

وكانت الغيوم التي يصطبغ لونها البنفسجي الداكن بحمرة المشرق تتناثر بفعل دفعة الريح العنيفة، والضياء يزداد امتدادًا؛ فبدأت الأعشاب الصغيرة المجعَّدة التي تقوم

عادةً على طرق العبور والمطر لا يزال يبلِّلها، تتميَّز للعيان، وأشجار السندر ترتعش تحت النسمة، فتساقط من أغصانها المتدلِّية اللآلئ الفضية. وباتت وجوه الفرسان تميز بعضها عن بعض أكثر فأكثر. وكان روستوف يرافقه إيلينا الذي لا يتركه، يتبع الجانب المنخفض من الطريق بين صفين من السندر.

كان روستوف يسمح لنفسه في الريف أن يتمتَّع بركوب جواد ليس على الطريقة النظامية، بل على طريقة القوقاز. ولقد استحضر لنفسه حديثًا بوصفه هاويًا وخبيرًا، فرسًا أشقر من «الدون» ذا عُرف أبيض، فكان حيوانًا قويًّا ضخمًا لا يسمح للجياد الأخرى أن تسبقه، كان يمتطيه بمتعة حقيقية. وكان يفكِّر في حصانه وفي الصبح البازغ وزوجة الطبيب، لكنه لم يفكِّر مرة واحدة في الخطر القريب.

كان روستوف يحسُّ بالخوف قبل القتال من قبل، وإذا لم يَعُد الآن يشعر بأي ذعر فليس مردُّه إلى أنه تعوَّد القتال؛ لأنَّ المرء لا يمكن أن يألَف الخطر، ولكن لأنه بات يستطيع السيطرة على نفسه. لقد أَلِف في مثل هذه الحالات أن يثير مختلف الأفكار باستثناء الفكرة التي كان يجب أن تثير انتباهه قبل كلِّ شيء، وهي دنوُّ الخطر. وفي الأيام السالفة، رغم مجهوداته، رغم اتهامه نفسه بالنذالة والجبن، فإنه ما كان يستطيع السيطرة على نفسه، لكن هذه السيطرة باتت مع السنين طبيعية جدًّا.

كان إذن يسير إلى جانب إيلين بين خَطَّي السندر، يعرِّي الأغصان التي تقع تحت امتداد يده، ويمسُّ بطن جواده بمهارة، أو يمدُّ غليونه المطفأ دون أن يلتفت إلى الفارس الذي يتبعه، ووجهه هادئ القسَمات، خليُّ البال وكأنه في نزهة. لقد كان النظر إلى وجه إيلين المربدِّ الذي كان يُكثر الكلام؛ يؤلمه. كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار المؤسِّي للموت الذي يقلق الفتى، ويعرف أيضًا أنَّ الزمن وحده يستطيع علاجه.

ما كادت الشمس تظهر بين طائفتين من السحب حتَّى سكنت الريح وكأنها خجلت أن تفسد ذلك الصبح البديع الذي أعقب تلك الليلة العاصفة. وسقطت بعض قطرات المطر كذلك، ولكن عموديًّا، ثم هدأ كلُّ شيء. وكانت الشمس قد طلعت تمامًا، ظهرت عند الأفق لتختفي من فورها وراء عصابة طويلة من السحب التي كانت تحجبها. وبعد دقائق قليلة، عادت إلى الظهور فوق العصابة أكثر سطوعًا، فجوَّفت جانبها. وأضاء كل شيء، وراح كل شيء يلتمع. ولقد دوَّى المدفع فجأةً على البعد وكأنه يجيب على هذا السيل من الضياء.

لم يتسنَّ لروستوف بعدُ أن يقدِّر المسافة التي انطلقت منها المدافع عندما وصل من جانب فيتيبسك مساعدٌ عسكري يجري على جواده تابع للكونت أوسترمان تولستوي يحمل الأمر بالسير خببًا على الطريق.

تجاوزت الكوكبة قطعة المشاة وبطارية المدفعية اللتين غذَّتا مشيتهما بالمثل وانحدرت على سفح واجتازت قرية مهجورة، ثم صعدت سفحًا آخر، وبدأ الزبد يظهر على صدور الجياد، وأصبحت الوجوه شديدة الاحمرار.

أمر رئيس المفرزة من الأمام: «قفْ! انتظِمْ، نصف دائرة إلى اليمين، سيرًا عاديًّا، إلى الأمام سِرْ!»

سار الفرسان على جناح القطعات الأيسر، وتجمَّعوا وراء رمَّاحتنا المُقامين في الخطِّ الأول، وإلى اليمين كانت قطعة مزدحمة من المشاة تشكِّل احتياطينا، وعلى الهضبة التي تعلوها كانت مدافعنا تظهر على خطِّ الأفق في ذلك الهواء شديد النقاء، وتحت ضياء الصباح المشرق. وإلى الأمام في المنخفض، كانت قطعات العدو ومدافعه تُرى وقد اشتبكت معها طلائعنا وتبادلت معها الطلقات النارية بنشاط.

ابتهج روستوف من أزيز الرصاص الذي لم يسمعه منذ أمدٍ طويل وكأنه النغمات الأولى من موسيقى بهيجة: «تراب-تا-تا-تاب!» انفجرت الطلقات تارةً إفرادية وتارةً أخرى مجموعة، ثم يصمت كلُّ شيء ليُسمع بعد ذلك أشبه بانفجار سلسلة من المفرقعات وضع بعضهم قدمه عليها.

ظلَّ الفرسان في أمكنتهم ساعة كاملة، ثم ارتفع قصف المدافع بدورها، ومرَّ الكونت أوسترمان مع حاشيته وراء الكوكبة، وتوقَّف ليتبادل بضع كلمات مع الزعيم، ثم ابتعد باتجاه المدافع.

وبعد ذهابه بقليل، علا صوتٌ آمرٌ يهيب بالرمَّاحة: «بوضعية الهجوم! إلى الأمام!» وضاعفت فرق المشاة صفوفها لتسمح للخيَّالة بالمرور، وراحت ومضات الرماح تتماوج والرمَّاحة ينحدرون تاركين لجيادهم الأعنَّة باتجاه سفح التلِّ؛ حيث كان الفرسان الفرنسيُّون يظهرون إلى يساره.

وما إن بلغ الرمَّاحة نهاية المنحدر حتَّى تلقَّى الفرسان الأمر بالصعود إلى المرتفَع لتغطية بطارية المدفعية. وبينما هم ينفِّذون هذه الحركة راحت بعض الرصاصات الطائشة تُصفِّر حول آذانهم.

أثارت هذه الضجَّة روستوف أكثر مما حفَّزته الطلقات الأولى. انتصب على سرجه وراح يفحص ساحة المعركة التي كانت تتكشَّف ابتداءً من أول المرتفَع، وشاركت روحه

الرمَّاحة في هجومهم. انحدر هؤلاء على الفرسان الفرنسيين، وحصل خليط بين الدخان، ثم بعد خمس دقائق عاد الرمَّاحة فاحتلوا مركزًا إلى يسار مركزهم الأول. وبين الرمَّاحة ذوي الثياب برتقالية اللون والخيول الشهباء وراءهم، كان يُرى حشدٌ كثيف من الفرسان الفرنسيين الزُّرق على خيولهم الرمادية.

الفصل الخامس عشر

هجوم الفرسان

كان روستوف بعين الصيَّاد الثاقبة، من الأوائل الذين شاهدوا هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزُّرق يطاردون رمَّاحتنا، وكان التابعون والمتبوعون يقتربون أكثر فأكثر، فبات يمكن رؤية هؤلاء الرجال الذين يبدون من الأعلى صغار الحجم، يتصادمون ويتصاولون ويحرِّكون الأذرع والسيوف.

راح روستوف يتأمَّل هذا المنظر كما يتأمل رحلة صيد بالكلاب، وحدسه يقول له إنه إذا هبط في تلك اللحظة على الفرنسيين فإن هؤلاء لا يمكن أن يصمدوا، ولكن كان يجب العمل بسرعة في تلك اللحظة بالذات وإلا فسيفوت الوقت. ألقى نظرة حوله فرأى رئيس الكوكبة الذي وقف إلى جانبه لا يرفع عينيه عن المعركة. قال له: «يا آندريه سيفاستيانيتش، نستطيع أن نردَّهم.»

– «آه! لعمري هذا صحيح، وستكون الضربة جميلة!»

ودون أن يسمع المزيد همز روستوف حصانه وانبرى إلى مقدِّمة الكوكبة، ولم يكَد يأمر بالحركة حتَّى كان الرجال كلهم، وقد تأثروا بمثل شعوره، يندفعون وراءه. لقد تصرَّف كما يتصرَّف في الصيد دون تفكير ولا حساب. كان يرى الفرسان الفرنسيين يهدبون قريبًا منتشرين، فكان واثقًا من أنهم لن يستطيعوا الثبات، واثقًا من أنَّ الفرصة يتيمة لن تعود أبدًا. ولقد أثاره صفير الرصاص لدرجة، وكان حصانه شديد اللهفة إلى الجري، حتَّى إنه لم يستطع الصمود. أرخى العنان للجواد وصرخ بالأمر، ثم عندما سمع كوكبته تهتزُّ وراءه فورًا انحدر بأقصى سرعة على العدو. وما إن بلغوا سفح التلِّ حتَّى اندفعت الجياد دون عمد تعدو وتُضاعِف سرعتها كلما اقتربت من رمَّاحتنا، والفرسان الفرنسيون على آثارهم. وكان الفرنسيون قريبين جدًّا، فلمَّا رأوا الفرسان يصلون كرَّ الذين في المقدمة على أعقابهم، بينما توقَّف الذين في الوراء. وبمثل النشاط الذي استحوذ

عليه من قبلُ عندما قطع الطريق على الذئب؛ اندفع روستوف مُرخيًا الأعنَّة لجواده «الدوني» بين صفوف العدو المتضعضعة، وتوقَّف رمَّاح وتمدَّد آخر على وجهه وقد فقد جواده؛ ليتحاشى الدهس، وجاء حصان دون فارسه يصطدم بالفرسان. وكان فرسان العدوِّ كلهم تقريبًا قد أدبروا، فانتقى روستوف واحدًا منهم ممتطيًا صهوة جوادٍ رمادي، واندفع يطارده. ولَمَّا اعترضت سبيله دغلة، فقد تخطَّاها جواده الطيب واثبًا. وجد نفسه وهو لا يكاد يتملَّك نفسه على السرج، أنه بات قريبًا من خصمه، وكان هذا — وهو ضابط ولا ريب تبعًا لبزَّته — يفرُّ بأقصى سرعة وقد انحنى فوق مطيته وراح يمطر كشحها ضربًا بعرض سيفه. وبمثل لمح البصر جاء حصان روستوف يصدم بملء صدره مؤخرة حصان الضابط حتَّى كاد يطرحه أرضًا، بينما رفع روستوف سيفه دون وعيٍ منه وضرب به الفرنسي.

خبا حماسه على الفور، وسقط الضابط بفعل صدمة الجوادين والخوف أكثر مما أثَّرت فيه الضربة التي سبَّبت له قَطْعًا بسيطًا فوق مرفقه. وضبط روستوف جماح حصانه وراح يبحث بعينيه عن خصمه ليرى أي رجل على وجه الدقة ضرب. وكان ضابط الفرسان الفرنسي الذي عَلِقت إحدى ساقَيْه بالرِّكاب ينطُّ على ساقه الأخرى ويقطِّب حاجبَيْه وينظر من الأسفل إلى الأعلى إلى الفارس الروسي مروَّعًا وهو يترقَّب دون ريب أن تصيبه منه في أيَّة لحظة طعنة أخرى. وكان وجهه الشاحب الفتيُّ الملطَّخ بالوحل، وشعره الأشقر وعيناه الزرقاوان والغمَّازة التي وسط ذقنه، تتناسب مع مشهد عائلي وادع أكثر مما تنسجم مع ساحة قتال. وكان روستوف لا يزال يتساءل عما يجب أن يفعل حينما صاح الضابط: «إنني أستسلم!» وراح دون أن يستطيع أن يرفع عن روستوف نظرته المروِّعة، يحاول تخليص ساقه من الرِّكاب. أنقذه بعض الفرسان الذين هرعوا وساعدوه على امتطاء الجواد. وكان فرساننا في صراع مع العدو في مواقع مختلفة، وكان أحد هؤلاء جريحًا ملطَّخ الوجه بالدم، يرفض تسليم حصانه، وآخر يعانق أحد فرساننا وهو راكب وراءه على جواده، وثالث يمتطي جواده بمساعدة واحد من فرساننا. وهرع المشاة الفرنسيون وهم يطلقون النار لنجدة الفرسان، فبادر الفرسان إلى الارتداد مع أسرهم وتبعهم روستوف وهو فريسة انقباض غريب. لقد تبدَّى له شيء حالك معقَّد ما كان يستطيع فهمه بنتيجة أسْره هذا الضابط الفرنسي والضربة التي وجَّهها إليه.

تقدَّم الكونت أوسترمان تولستوي للقاء الفرسان، واستدعى روستوف وشكره، وقال له إنه سينقل تصرُّفه البطولي إلى مسامع الإمبراطور، ويطلب له وسام صليب سان جورج.

ولمَّا استدعى روستوف تذكَّر أنه هاجم دون أن يتلقَّى أي أمر، فتوقَّع زجرًا مُرًّا؛ لذلك فإنه كان بالمقابل يجب أن يبدو أكثر حساسيةً إزاء كلمات أوسترمان المُطْرية والمكافأة المنتظرة، لكن ذلك الإحساس الأليم الغامض نفسه ظلَّ يعتصر قلبه. تساءل وهو يغادر الجنرال: «هه! ما الذي يزعجني إذن؟ إيلين، كلا إنه صحيح معافى. هل أسأتُ التصرف؟ كلا، إن هذا ليس السبب.» لقد كان في قرارة نفسه شيء آخر يعذِّبه أشبه بتبكيت الضمير. «آه! نعم، إنه هذا الضابط الفرنسي ذو الغمَّازة وسط ذقنه، وذلك التردد الذي اعتراني عندما ارتفعت ذراعي لتضربه.»

ولمَّا رأى قافلة الأسرى تبعها روستوف ليرى فرنسيَّهُ ذا الغمازة وسط ذقنه من جديد. كان ممتطيًا حصان فارس روسي وهو في بزَّته الغريبة، يسرح حوله نظرات قلِقة، وكان جرحه في ذراعه عديم القيمة. ابتسم لروستوف ابتسامة مغتصبة، وحيَّاه بيده، وظلت وخزات ضمير روستوف وسوء حالته النفسية تلازمه.

ولقد لاحظ أصدقاؤه وزملاؤه ذلك اليوم واليوم التالي كذلك أنه يلبث صامتًا منطويًا على نفسه وإن لم يكن حزينًا أو غاضبًا. لم يعد يستطيب الشراب، بل راح يبحث عن الوحدة، ولا يني يقلِّب الأمر في ذهنه على كل وجوهه.

كان روستوف دائم التفكير في مأثرته العسكرية اللامعة التي — لدهشته البالغة — عادت عليه بصليب سان جورج، بل واكتسبت له صفة باسل، فكان فيها شيء لم يتوصَّل إلى فهمه. كان يحدِّث نفسه: «إنهم إذن أشد خوفًا مني! هل هذا إذن هو ما يسمُّونه بطولة؟ ثم هل حقيقةً أنني فعلته من أجل وطني؟ وهذا الآخر، بغمازته وعينيه الزرقاوين، ما هو ذنبه؟ كم كان خائفًا! كان يظن أنني سأقتله. لماذا كنت سأقتله؟ ثم هم يعطونني صليب سان جورج. كلا، لا ريب أنني لا أفهم شيئًا!»

ولكن، بينما كان روستوف يطرح على نفسه كلَّ هذه الأسئلة، دون أن يصل إلى تكوين فكرة واضحة عمَّا كان يمضُّه، دارت عُملة السعادة لصالحه كما يحدث غالبًا. لقد عيَّنوه رئيس كوكبة بعد عجلة أوستروفينا، وأصبحوا يعهدون إليه بالمهمَّات التي تتطلَّب بسالة.

الفصل السادس عشر

مرض ناتاشا

على الرغم من أن الكونتيس لم تكن بعدُ قد أبلَّت من مرضها، فإنها ما إن علمت بمرض ناتاشا حتَّى ارتحلت رغم ضعفها إلى موسكو مع بيتيا وكل من يتبعها، واستأذنت الأسرة من ماري دميترييفنا لتقيم نهائيًّا في نُزُلها.

ولقد اتخذ مرضها شكلًا جديًّا قويًّا، حتى إن سلوكها وفصم خطوبتها — وهما سبب مرضها — باتا، لحسن حظها وحظِّ الأسرة، في المرتبة الثانية. ما كانت حالتها تسمح بالتعمُّق حول أخطائها المسلكية؛ لم تعُد تأكل ولا تنام، وتزداد نحولًا بيِّنًا، وتسعل، وألمح الأطباء إلى أنها إنما تتعرَّض لخطر حقيقي. فلم يعد إذن بالإمكان التفكير إلا في معالجتها. وكان الرجال المختصون الذين يجيئون لزيارتها جماعات أو فرادى، يتناقشون كثيرًا بالفرنسية والألمانية، وأحيانًا باللاتينية، وينتقدون بعضهم بعضًا، ويصفون العلاجات المختلفة الخاصة بمداواة كل الأمراض التي يعرفونها، «ولكن ما من أحد منهم خطرت بباله الفكرة البسيطة بأن المرض الذي تشكو منه ناتاشا لم يكن بالنسبة إليهم سهل المعالجة كأيٍّ من الآلام التي ترهق الإنسانية. وفي الواقع، إنَّ كلًّا منا له بناؤه الخاص، يحمل في نفسه مرضًا خاصًّا جديدًا يستقلُّ به، معقَّدًا ومجهولًا من الطب، لا يدخل في إصابات الرئتين المبوَّبة أو الكبد أو الجلد أو القلب أو الأعصاب … إلخ، بل ينجم عن تأثيرات لا تُحصى أحدثَتْها عيوب هذه الأجهزة كلها. إنَّ هذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال الأطباء، كما لا يمكن أن تطرأ على بال السَّحَرة فكرة الكفِّ عن سحرهم؛ ذلك أنَّ المعالجة كانت مورد قوتهم وسر وجودهم ومهنةً كرَّسوا لها أفضل سنواتهم. وأخيرًا على الأخص، لقد كانوا واثقين من أنهم نافعون لشيء ما، والواقع أن وجودهم لدى آل روستوف لم يكن قليل الجدوى والأثر. وأيَّة أهمية لفرضهم على ناتاشا عقاقير معظمها ضارٌّ خَفَّف أثرها المؤذي بتخفيف الجرعات إلى أقل حدٍّ. لقد كان وجودهم

ضروريًّا، بل ولا بدَّ منه لمجرد أنهم كانوا يرضون حاجات ناتاشا الفكرية وحاجات مَنْ حولها. فلنقُل إذن — بين معترضتين — إنَّ هذا هو السبب الذي سيظل فيه معالجون مزيَّفون ومشعوذون، سواء من معالجي الداء بضده أو الذين يعالجونه بالتجانس. إنهم يرضون هذه الرغبة الأزلية عند الإنسان، رغبة الحصول على البرء ورؤية الناس يتدافعون حوله ويرثون لآلامه. إنهم يرضون هذه الحاجة الأزلية التي تلاحَظ عند الطفل على شكله البدائي، حاجة تلك الجهة التي نحس بالألم فيها. والطفل إذا ما أصاب نفسه بصدمةٍ ما يهرع بين ذراعَي أمه أو مرضعته لتقبِّله وتدلِّك له مكان الألم، فتمنحه تلك الملاطفة راحة حقيقية. إنه لا يلاحظ أنَّ أشخاصًا أكثر قوةً وحكمةً يمكن ألَّا يستطيعوا العمل على نجدته؛ لذلك فإن الأمل في نيل الراحة والإشفاق اللذين تُظهرهما الأم نحوه وهي تدلِّك له مكان الألم، يكفيانه للترفيه عنه، ولقد كان الأطباء إلى جانب ناتاشا يمثِّلون هذا الدور نفسه، دور «الماما» التي تعانق وتنفخ مكان «الواوا». كانوا يؤكِّدون لها أنَّ مرضها سيزول حالما يعود الحوذي من صيدلي «الآربات» ومعه بعض المساحيق المحفوظة في عُلبة جميلة قيمتها روبل واحد وسبعون كوبيكا، فتأخذ منها بانتظام كل ساعتين قدرًا مذابًا في ماء مغلي.»

تُرى ماذا كان سيقع لسونيا والكونت والكونتيس لو أنهم اضطروا إلى ضمِّ أذرعهم على صدورهم بدلًا من إعطاء ناتاشا تلك الحبَّات في الأوقات المعيَّنة، وتلك المشروبات الساخنة، ومغلي الأرز بالدجاج، والسهر على تنفيذ مئات الإرشادات الأخرى التي أوصى بها الأطبَّاء، والتي كانت تتيح لهم عملًا يُسرِّي عن نفوسهم؟ هل كان الكونت يستطيع احتمال مرض ابنته العزيزة لو لم يعرف أنَّ ذلك المرض كلَّفه حتَّى تلك اللحظة ألف روبل، وأنه لَيعطي راضيًا ألف روبل أخرى في سبيل شفائها، وإنَّ ذلك إذا لم يكن كافيًا فإنه سيُضحِّي بورقة ثالثة من ذات الألف روبل ليأخذ ابنته إلى الخارج ويعرضها هناك على مشاهير النِّطَاسِيِّين، ولو أنه لم يجد الفرصة سانحة له ليحدِّث كل وافد بأن ميتيفييه وفيللير لم يفقها شيئًا من مرضها، وأنَّ «فريز» كان أوسع خبرةً، وأنَّ مودروت استطاع أخيرًا أن يشخِّص حقيقة المرض؟

وماذا كانت الكونتيس لتعمل لو أنها لم تستطع التخاصم بين الحين والحين مع المريضة التي ما كانت تراعي بالدقَّة اللازمة تعليمات كلية الطب؟

كانت تقول بغضب كان ينسيها همَّها: «إذا كنتِ ستعصين الطبيب ولا تتناولين علاجاتك في حينها، فإنكِ لن تبرئي أبدًا! ابذلي قليلًا من الجد، وإلا فإنَّ المرض سينقلب إلى ذات رئة.»

كانت تضيف هذه الكلمات وهي تجد سلوانًا كبيرًا في نطق هذا الاسم الذي لم يكن متعذِّرًا فهمه عليها وحدها.

وماذا كانت سونيا لو أنها لم تجد القناعة في أن تُحدِّث نفسها بأنها لم تخلع ثيابها طيلة الليالي الثلاث الأولى كي تكون مستعدَّة دائمًا لتنفيذ إرشادات الطبيب بحذافيرها، وأنها الآن لا تكاد تتذوَّق طعم النوم؛ كيلا تسهو عن إعطائها الحبَّات البُرْئية الكامنة في العُلبة الجميلة المذهَّبة؟

لقد زعمت ناتاشا نفسها ما راق لها أنَّ ما من علاج يستطيع شفاءها، وأنَّ كل هذه الأشياء إن هي إلا سخافات. مع ذلك فإنها ما كانت لتشعر بأقل من متعة النظر إلى ما يُقدِّمون في سبيلها من تضحيات وتناوُل علاجاتها في ساعاتها المحدَّدة، بل والتظاهر عن طريق إغفال تعليمات الأطباء بأنها لا تؤمن بشفائها ولا تتمسك بالحياة.

كان الطبيب يأتي كلَّ يوم فيجسُّ نبضها وينظر إلى لسانها ويمازحها دون أن يُلقي بالًا إلى وجهها المفتقر إلى العناية. وبالمقابل، كان عندما يمضي إلى الحجرة الأخرى حيث تهرع الكونتيس إلى اللحاق به، يطبع على وجهه سيماء الجدِّ، ويهزُّ رأسه بشرود فِكْر، ويعلن أنه رغم الخطر الذي لا يمكن إنكاره فإنه يعتمد على تأثير العلاج الأخير الجيد، وأنه يجب الانتظار والمشاهدة، وأنَّ المرض نفسي على الغالب، ولكن ...

فكانت الكونتيس تدسُّ في يده خِفية قطعة ذهبية، وتعود إلى سرير المريضة وقلبها أكثر اطمئنانًا.

كانت دلائل المرض ترتكز على ضعفٍ في الشهية ونقصٍ في النوم ونوبات سُعال وبلادة عامَّة، وكان النَّطَاسيون يؤكدون أنه لا يمكن ترك ناتاشا دون معالجات طبية؛ لذلك كانوا يحتفظون بها في جوِّ المدينة الخانق، وعليه فقد أمضى آل روستوف صيف عام ١٨١٢م كله في موسكو.

وعلى الرغم من ابتلاع الحبَّات والقطرات والمساحيق الأكثر اختلافًا، المعبَّأة في عُلب أو في زجاجات، كانت مدام شوسَّى التي تبحث عن مثلها قد جمعت منها مجموعة كاملة، وعلى الرغم من حرمانها من هواء الحقول، فإنَّ الشباب تغلَّب. أخذت تأثيرات الحياة الجارية تخفِّف الغمَّ عن ناتاشا رويدًا رويدًا وتلقيه بلطف في أعماق الماضي، وبدأت قواها الجسدية تعود تدريجيًّا.

الفصل السابع عشر

الشفاء

أصبحت ناتاشا أكثر اطمئنانًا، ولكن ليس أكثر جذلًا، لم تعد تتجنَّب كل مناسبات الترفيه عن نفسها والحفلات الموسيقية والراقصة والنزهات والمسارح فحسب، بل كانت كذلك لا تضحك إلا والدموع من وراء ضحكتها. ولم تعُد تقدر على الغناء، وكلَّما حاولت أن تضحك أو أن تختبر صوتها في خلوة مع نفسها، كانت الدموع تخنقها؛ دموع الندم، دموع تَسفَحُ لذكرى ماضيها البريء الذي أُتلف إلى الأبد، دموعَ الغيظ؛ لأنها حطَّمت بحماقة وجودها الفتيَّ الذي كان يمكن أن يكون في أعمق مراتب السعادة. وكان الضحك، وبصورة خاصة الغناء، يبدوان لها تدنيسًا لألمها، ولقد أغفلت كل مظاهر الدلال دون أن تشعر بأي حرمان منها. كانت تقول وتشعر أنَّ كل الأشخاص باتوا في نظرها سواء أشبه بالمهرِّج ناستاسيا إيفانوفنا، وكان هاتف داخلي يُحرِّم عليها كل متعة. لقد فقدت كل موجِبات الحياة التي طالما زجرت من قبل وملأت شبابها الغافل بالآمال، وكان أكثر ما تذكره بأكثر أَسًى أشهُر الخريف تلك، والصيد والعم وأعياد الميلاد التي جرت في أوترادنواي برفقة نيكولا. ما كانت لتبخل بشيء تهبه في سبيل بعث يومٍ واحدٍ من تلك الأيام الرائعة! ولكن لا، لقد اختفت إلى الأبد. كان إحساس مسبق يقول لها إنها لن ترى بعدُ روحها المتحرِّرة السابقة المتفتحة لكل المباهج. مع ذلك فكان يجب أن تعيش.

كانت تفكِّر — ليس دون ارتياح — خلافًا لما كانت تظنُّه حتَّى ذلك الوقت من أنها خير من الأخريات، أنها أخبث كل المخلوقات في الوجود. وإنه لَعزاء كافٍ! وكانت تتساءل دون جدوى: «ماذا يخبِّئ لي المستقبل؟» ما كانت الحياة لتدَّخر لها أيَّة مسرَّة مع ذلك، فقد كانت الحياة تمر. لذلك فقد دأبت على ألَّا تكون عالةً على أحد، وألَّا تطالب بشيء من أجلها، وراحت تتجنَّب كل أقربائها باستثناء أخيها بيتيا الذي كانت صحبته تسرُّها، بل إنها أحيانًا كانت في خلوتها معه تستعيد مرحها. وكفَّت تقريبًا عن الخروج، ولم

تعُد تشعر بأية رغبة في مشاهدة الذين أَلِفوا زيارة البيت باستثناء بيير. والواقع أنه كان يستحيل إيداع حنان ولياقة، بل وُجد كذلك أكثر مما كان يودعه الكونت بيزوخوف في علاقاته مع ناتاشا، وكانت تشعر بذلك العطف بإبهام دون أن تعترف له بما يستحق من جميل. كان يُخيَّل إليها أنَّ هذا التصنُّع الدقيق من جانب بيير لا يكلِّفه مجهودًا كبير، وأنه بطبيعته شديد الطيبة مع كل الناس حتَّى لَيُصبح تصرفه حياله خاليًا من كل الميزات. وكانت ناتاشا أحيانًا تلاحظ اضطرابه وخُرْقه في حضرتها، خصوصًا عندما يخشى أن تذكِّرها المحادثة بذكريات أليمة، فكانت تعزو ذلك إلى طيبة قلبه وخجله؛ لأنه — على حدِّ زعمها — لا بدَّ وأن يكون خجولًا مع الناس كلهم كحاله معي. ومنذ ذلك اليوم الذي قال لها فيه دون وعي، إذ رآها شديدة الاضطراب، أنه لو كان حرًّا لسألها يدها وحبَّها وهو جاثٍ على ركبتَيْه، لم يعد بيير يحدِّثها عن عواطفه، تلك الكلمات التي كانت لها حينذاك عونًا كبيرًا، وكانت ناتاشا تقدِّر أنه لا يجب بعد الآن أن تُعلِّق أهميةً إلا على الأحاديث التافهة التي يُقصَد بها مواساة طفل، ليس لأن بيير متزوِّج، بل لشعور ناتاشا بقيام تلك الحواجز الفكرية التي انخفضت أمام كوراجين منتصبةً شديدةَ الارتفاع، فما كانت لتفكِّر قطُّ في أنَّ علاقاتهما الطيبة يمكن أن تتحوَّل إلى حبٍّ، أو حتَّى إلى تلك الصداقة الحنون الشاعرية التي يمكن أن تُتبادَل بين رجلٍ وامرأة، والتي عرفت أمثلة عنها.

بعد صوم القدِّيس بطرس، جاءت أجرافينا إيفانوفنا بييلوفا — وهي إحدى جارات آل روستوف في الريف — إلى العاصمة لتحجَّ، فعرضت على ناتاشا أن تنضمَّ إليها لتمجيد القديسين الموسكوفيين، فقبلت هذه العرض بسرور. وعلى الرغم من أن الأطباء حرَّموا عليها الخروج مبكرة، فقد صمَّمت على أن تُظهِر تعبُّدها، ليس على طريقة آل روستوف الذين يقيمون عادةً ثلاث صلوات خاصة، بل على طريقة أجرافينا إيفانوفنا التي ظلت طيلة أسبوع كامل تحضر كل القدَّاسات وصلوات السَّحَر والغروب والنوم.

ولقد راق للكونتيس حماس ابنتها الديني، فكانت تأمل في أعماق قلبها أنه بعد المعالجة قليلة الجدوى التي أجراها النَّطاسيون يمكن أن تكون للصلاة فضيلة أقوى من الأدوية. لذلك فقد استسلمت لرغبة ابنتها وسلَّمتها للسيدة بييلوفا وهي تختفي مروَّعة من لقاء الطبيب. وكانت أجرافينا إيفانوفنا تحضر ابتداءً من الساعة الثالثة صباحًا لتصحب ناتاشا التي كثيرًا ما وجدتها مستيقظة. وبعد أن تسوِّي شعرها بسرعة وترتدي على سبيل التواضع أبشع ثوب لديها ومعطفًا قديمًا، ثم تطوف بالشوارع القاحلة التي

يضيئها الفجر بإشعاعات شفَّافة وهي ترتعد، وكانت ناتاشا تبعًا لنصيحة رفيقتها لا تذهب إلى كنيستها الخورنية، بل إلى كنيسة كان الراهب فيها يعيش حياةً كلها تقشُّف وجدارة، على حدِّ مزاعم السيدة بييلوفا الورِعة. وكان المؤمنون في تلك الكنيسة قليلي العدد دائمًا، والمرأتان تتخذان عادةً مكانًا لهما في الجانب الأيسر أمام صورة للعذراء، فاستحوذ شعور مجهول، أوجده الخضوع والخشوع أمام ما لا يُطال، على الفتاة كلما راحت تتأمَّل وجه أمِّ الله المسودَّ المضاء بالشموع وبنور الفجر الذي كان في تلك الساعة الخارقة يسقط عليها من إحدى النوافذ، وكلما أصاخت السمع إلى القُدَّاس مجتهدة أن تتتبَّعه وتتفهَّمه. وعندما كانت تفهمه كانت عواطفها الشخصية بمختلف مقوِّماتها تختلط بصلاتها. أمَّا في الحالة العكسية فإنَّ التفكير في أنَّ رغبتها فَهْم كل شيء لونٌ من الكبرياء، وأنه لا يمكن فَهْم كلِّ شيء، بل يجب الإيمان فقط والاستسلام لربٍّ تشعر في تلك اللحظات أنه سيد روحها، كان أكثر عذوبةً في نفسها. وكانت ترسم الصليب على صدرها وتركع، وعندما يتعذَّر عليها الفهم تكتفي بالتوسُّل إلى المولى والخوف مستولٍ عليها إزاء بغيها أن يغفر لها كلَّ شيء وأن يرأف بحالها. وكانت أدعية الندم مفضَّلة عندها على كلِّ الصلوات، وفي أوبتها في ساعة لا زالت شديدة الإبكار، حين لا يكون في الشوارع إلا البنَّاءون الذاهبون إلى عملهم، والخادمات يكنسن أمام البيوت، ويكون الناس كلهم نيامًا، كانت ناتاشا تفاجئ نفسها متوقِّعة إمكانية نهضة وحياة جديدة نقية وسعيدة.

ظلَّ شعورها ذاك بالبعث يزداد نموًّا خلال الأسبوع الذي أمضته كله في هذه الممارسات الورِعة؛ فالمناولة أو المكالمة مع الله — كما كان يحلو لأجرافينا إيفانوفنا أن تُحوِّر الكلمة — كانت تبدو لها سعادة كبرى، حتى إنها كانت تخشى أن تموت قبل ذلك الأحد السعيد.

أخيرًا، جاء ذلك اليوم السعيد، وعندما جاءت ناتاشا من التناول — ذلك الأحد الذي لا يُنسى — مرتدية ثوبها القطني الأبيض، شعرت لأول مرة منذ أشهر طويلة أنها في حالة سلم مع نفسها؛ فلم تعُد الحياة التي تنتظرها تبدو لها عسيرة مرهقة.

وبعد أن فحص الطبيب، الذي كان ذلك اليوم موعد زيارته، ناتاشا، أمر أن تُكرِّر تناول المسحوق الذي أوصى لها به قبل خمسة عشر يومًا، وقال وهو يتظاهر بسعادة مخلصة لتَحسُّن حالتها: «صبحًا ومساءً دون خطأ وبكل دقة أرجوكِ.»

وبينما هو يقبض قطعته الذهبية في راحة يده، داعب الكونتيس قائلًا: «كوني مطمئنةً يا سيدتي الكونتيس، سوف ترَيْنها بعد قليل تُغنِّي وتمرح من جديد، لقد أفادها العلاج الأخير إفادة كليَّة. إنَّ مظهرها في تحسُّن.»

ولكي تطرد الكونتيس فأل السوء، فقد بصقت وهي تنظر إلى أظافرها، ثم مضت إلى البهو متهلِّلة الأسارير.

الفصل الثامن عشر

دعاء سينود

في مطلع تمُّوز، انتشرت في موسكو أنباء متفاقمة الخطورة: كانوا يتحدَّثون عن نداء يوجِّهه الإمبراطور إلى الشعب وعن أوبته القريبة، ولمَّا لم يتلقَّ أحدٌ حتَّى الحادي عشر أي بلاغ أو إيذان، فإنَّ أكثر الشائعات مبالغةً راجت حول هذا الموضوع كما حول الموقف العام. كانوا يزعمون أن ألكسندر يترك الجيش لأنَّ الجيش في خطر، وأن سمولنسك قد استسلمت، وأنَّ لدى نابليون مليون رجل، وأنَّ المعجزة وحدها يمكن أن تُنقذ روسيا.

ويوم السبت الحادي عشر تلقَّوا البيان، ولكن كان لا يزال يجب طبعه، ولقد وعد بيير الذي كان ذلك اليوم لدى آل روستوف، أن يعود غدًا الأحد لتناول الطعام، وأن يأتي بالبيان والغداء اللذين سيحصل عليهما عند الكونت روستوبتشين.

ذهب آل روستوف ذلك الأحد على جري عادتهم إلى كنيسة آل رازوموفسكي الخاصة لسماع القُدَّاس. ومنذ الساعة العاشرة، عندما ترجَّلوا من عربتهم أمام الكنيسة، كان الهواء شديد الحرِّ وصيحات الشيَّالين والجمهور في ثيابه الفاتحة وأشجار الشارع المغطَّاة بالغبار وضوضاء الموسيقى والسراويل التي كان يرتديها جنود كتيبة ذاهبة إلى العرض، وهدير العربات على بلاط الشارع، وحرارة الشمس التي تعمي الأبصار، كل ذلك كان يُضفي على الناس شعورًا بالإرهاق والانزعاج بارزًا خلال بهجة الحياة التي يلمسها المرء أبدًا في مدينة كبيرة ذات يوم مفرط الحرارة. وكان أشراف موسكو كلهم وكل معارف آل روستوف مجتمعين في الكنيسة؛ ذلك أنَّ كثيرًا من العائلات الغنية لم تذهب ذلك العام إلى أراضيها الريفية بانتظار الأحداث الجارية. سمعت ناتاشا وهي تتبَع مع أمها خادمًا في ثياب رسمية يُفسح لهما الطريق بين الجماهير، شابًّا يقول لآخر بصوتٍ أعلى من الطبقة الطبيعية: «هذه هي الآنسة روستوف، تلك التي ...»

– «كم نحلت! مع ذلك، إنها لا تزال جميلة.»

خُيِّل إليها أنها تبيَّنت في حديثهما اسمَي كوراجين وبولكونسكي. على أيَّة حال كان هذا يقع لها باستمرار، كانت تتصوَّر دائمًا أنَّ كل مَن يراها يفكِّر في مغامرتها. أخذت ناتاشا تتقدَّم منقبضة الصدر كعادتها كلما وجدت نفسها في حفل، وهي مرتدية ثوبًا حريريًّا ليلكي اللون موشًّى بالمخرم الأسود، متخذةً ذلك المظهر الذي تُحسِن النساء اتخاذه، فيه كثير من الهدوء والجلال بقدر ما كان في أعماق قلبها ألمٌ وخجل أكثر. كانت تعرف أنها جميلة بالفعل، لكن ذلك ما كان ليبهجها كسابق العهد، بل على العكس يُعذِّبها، خصوصًا في مثل ذلك الأحد المشرق القائظ. أخذت تحدِّث نفسها وهي تذكر أنها جاءت الأحد الفائت إلى هنا: «أحدٌ آخر، أسبوع آخر ينقضي بينما تستمرُّ الحياة هي هي، لا حياة في جوٍّ كان العيش فيه سابقًا متعة حقيقية. إنني شابَّة وجميلة ولقد أصبحت جيدة. نعم، لقد كنت رديئة فيما مضى، أمَّا الآن فأنا أعرف أنني طيبة رغم ذلك؛ فإنَّ أفضل سنواتي تمر ضياعَ هباءٍ دون فائدة لأحد.» أقامت إلى جانب أمِّها وتبادلت مع بعض معارفها إشارات برأسها. وبحكم عادتها المألوفة راحت تتفحَّص زينة النساء وتنتقد المظهر والأسلوب غير المحتشم الذي دأبت إحدى جاراتها ترسم به إشارات الصليب. وفكَّرت في غير قليل من السخط أنها ولا بدَّ مدار أحكام متهوِّرة، وأنها هي الأخرى تسمح لنفسها باتخاذ مثلها حيال الآخرين. وفجأةً، بينما بدأ القدَّاس، أحسَّت بخجل لانحطاطها، وفكَّرت من جديد في أنها أضاعت نقاءها القديم.

كان عجوزٌ قصير نبيل الأسارير يقدِّس بطلاقة جليلة تُحدِث في نفس المؤمنين أثرًا مهدِّئًا جدًّا، وفُتحت الأبواب الملكية وأُسدل ستار المحراب ببطء، وارتفع صوتٌ غامض جميل تسلَّل إلى الأسماع، وراحت الدموع التي لم تكن تدرك لها سببًا تنبجس في أعماقها، واستولى عليها ارتخاء سعيد.

راحت تُصلِّي: «علِّمني ما يجب أن أفعل، وكيف يجب أن أتصرف في الحياة وأتصرف مرة إلى الأبد، إلى الأبد!»

تقدَّم الشمَّاس إلى المنبر وحرَّر شعره الطويل العالق بثوبه الكهنوتي بحركة عريضة من إبهامه، وبعد أن ارتسم ردَّد بصوتٍ عالٍ جليلٍ الصلاةَ: «لنصلِّ إلى المولى بسلام.»

فكَّرت ناتاشا: «نعم، لنصلِّ كلنا معًا دون تباين في الطبقات، دون موجدة، يجمعنا حبٌّ أخويٌّ.»

– «لنبتهل إلى المولى من أجل السلام الأعلى والخلاص لأرواحنا.»

ففهمت ناتاشا أنه: «من أجل عالم الملائكة وكل الأرواح غير المتجسِّدة التي تعيش فوقنا.»[1]

وعندما صلُّوا من أجل الجيوش تذكَّرتْ أخاها ودينيسوف، ولَمَّا صلوا من أجل البحَّارة والمسافرين تذكَّرت الأمير آندريه وصلَّت من أجله، وتوسَّلت إلى المولى أن يغفر لها الأذى الذي سبَّبته لخطيبها. وعندما صلوا من أجل أولئك الذين يحبوننا، صلَّت من أجل أقاربها كلهم، من أجل أبيها وأمها وسونيا، وبانت لها للمرة الأولى خطورة الأخطاء التي وقعت فيها نحوهم، كما بانت لها قوة الحب الذي تكنُّه لهم. وعندما صلوا من أجل الذين يكرهوننا راحت تبحث عمن يمكن أن يكونوا أعداءها لتصلِّي من أجلهم؛ فلم تجد غير دائني أبيها وكل أولئك الذين لهم به صلات عمل. وفكَّرت في آناتول الذي سبَّب كثيرًا من الأذى، وعلى الرغم من أنه لم يُدرَج في عداد أولئك الذين يكرهونها، فقد صلَّت من أجله وكأنه عدو. كانت في تلك اللحظات فقط تجد من نفسها القدرة الكافية على استعراض ذكرى آندريه وآناتول دون أن تضطرب؛ لأن عواطفها التي تحسُّ بها حيالهما حينذاك كانت تختفي أمام خوفها من الله وحبِّها له، وعندما صلوا من أجل الأسرة والإمبراطور وسان سينود؛[2] رسمت إشارة الصليب من جديد، وانحنت بأكثر حميَّة وورع وهي تُحدِّث نفسها أنه بعدم فهمها حقيقة ما يراد بذلك، فإنها يجب على أية حال أن تُحبَّ سينود هذا وتصلي من أجله.

ولَمَّا انتهت الجبوة، شبك الشمَّاس «بطرشيله» على صدره وردَّد: «لنضع شخصنا وكل حياتنا بين يدي المسيح ربنا.»

فكرَّرت ناتاشا في سرِّها: «لنضع شخصنا بين يدي الله. رباه، إنني أُسْلم نفسي لمشيئتك، لستُ أريد شيئًا ولا أرغب شيئًا. علِّمني ما يجب أن أعمل وكيف أستعمل الإرادة ...» وراحت تكرِّر بنفاد صبر وانجذاب من أعماق قلبها: «ولكن خذني، خذني!» ودون أن ترتسم من جديد، أسبلت ذراعَيْها وبدت كأنها تنتظر قوة غير مرئية تأتي فتمسك بها وتنتزعها من نفسها، من تحسُّراتها ورغباتها ونداماتها وآمالها وأسوائها.

---

[1] أورد المترجم إلى الفرنسية الملاحظة التالية: «في اللغة الروسية كلمتا MIR: الأولى بمعنى السلام، والثانية بمعنى عالم. واللغة الكنائسية تستعمل المعنى الأول مترجَمًا عن اليونانية، لكن ناتاشا تعتقد أن المقصود هو المعنى الثاني؛ لأنه أكثر شيوعًا.»

[2] سينود: سان سينود تعبير قديم يقصد به اليوم المجمع المقدَّس.

وقد ألقت الكونتيس خلال القداس مرارًا نظراتٍ إلى وجه ابنتها المتأمِّل وعينيها اللامعتين، وابتهلت إلى الله أن يكون في عونها.

لاحظت ناتاشا عند منتصف القداس وقوع مخالفة للمألوف: لقد جاء قَيِّم الكنيسة بالمقعد الصغير الذي يقرءون الصلوات ركوعًا عليه يوم العنصرة، ووضعه قبالة الأبواب الملكية، وخرج القس وعلى رأسه قلنسوة من قطيفة بلون ليلكي من المحراب وسوَّى شعره ثم جثا بصعوبة، فحذا المصلون حذوه، ولكن ليس دون أن يتبادلوا نظرات قلقة. كان الموضوع متعلِّقًا بصلاة أرسلها سينود للتوسل إلى الله أن ينقذ روسيا من الغزو الأجنبي.

شرع القس بصوته الواضح العذب الخالي من التفخيم الذي ينفرد به الكهَّان السلافيون، والذي له أقوى الأثر في القلوب الروسية:

> أيها المولى القادر على كل شيء، رب خلاصنا تنازل برحمتك واخفض اليوم نظرتك إلى خُدَّامك المتواضعين. أصغِ إلى صلاتنا وارحِمنا وأشفِقْ علينا. إنَّ العدو الذي يقلب أرضك ويزمع أن يجعل من العالم كله صحراء قد نشط ضدنا، والزنادقة اجتمعوا ليدمِّروا مُلكك ويهدموا أورشليمك المخلصة، روسياك الحبيبة، ويدنِّسوا معابدك ويقلبوا مذابحك ويحقِّروا أشياءنا المقدَّسة. إلى متى أيها المولى ينتصر الخاطئون؟ إلى متى يستطيعون استعمال قوتهم المجرمة؟
>
> أيها المولى كليُّ القدرة، أصغِ إلى صلواتنا، أعِنْ بقوتك إمبراطورنا شديد التقوى مطلَق السلطان ألكسندر بافلوفيتش. تذكَّر استقامته وحِلمه، عامِلْه بمثل الرفق الذي يعاملنا به نحن، شعبك المحبوب، بارِكْ قراراته ومشاريعه ومكِّن مُلكه بيمينك الشديدة القوة، وهَبْ له النصر على العدو كما وهبته لموسى على آمالك AMALEK (العمالقة)، ولجدعون على مَدْين، ولداود على جليات. واحفَظْ جيوشه وضَعْ قوس الميديين في يد الذين يحاربون باسمك، وأحِطْ صدورهم بقوتك. خذ أسلحتك وترسك وتعالَ إلى نجدتنا، وليُصِب العار والبلبال أولئك الذين يريدون بنا الشر، وليكونوا أمام المخلصين لك أشبه بالغبار أمام الريح، وليلعنهم ملكك وليطاردهم، ليُحِط بهم شبكك دون أن يشعروا، وليقعوا في شباكهم نفسها، وليقعوا على أقدام خُدَّامك، ولتطأهم جيوشك أيها المولى! إليك مرجع سلام الكبار والصغار. أنت الله، ولا يستطيع الإنسان حيالك شيئًا.

يا ربَّ آبائنا، تذكَّر رحمتك وشهامتك اللتين هما أزليتان. لا تبعدنا عن وجهك ولا تحقد علينا لفحشائنا. انظر إلى جرائمنا وخطيئاتنا بكل سعة رحمتك، اخلق فينا قلبًا نقيًّا وجدِّد في صدرنا فكرة الحق. قوِّنا جميعنا في الإيمان، ومكِّن آمالنا وأوحِ إلينا حبًّا حقيقيًّا بعضنا لبعض. سلِّمنا بروح واحدة للدفاع المشروع عن الميراث الذي أعطيته لنا ولآبائنا، وليمتنع صولجان الكفرة عن الارتفاع على قسم المصطفين.

أيها المولى، ربنا الذي نؤمن به، والذي وضعنا فيه ثقتنا، لا تخيِّب انتظارنا، قُمْ بإشارة لصالحنا، ليبلى الذين يكرهوننا نحن وديننا الأورثوذوكسي المقدَّس بالبكم ولينفقوا، ولتعلم الأقوام كلها أن اسمك هو مولى وأننا أبناؤك. أيها المولى، أظهِرْ لنا شفاعتك وامنحنا خلاصك وأبهِجْ قلب خدَّامك واضرب أعداءنا واقلبهم بأسرع وقت تحت أقدام المؤمنين بك المخلصين؛ لأنك أنت السند والنجد والنصر لأولئك الذين يؤمنون بك. المجد للأب والابن والروح القدس الآن ودائمًا وفي قرون القرون.

كانت روح ناتاشا متفتِّحة لكل الأحاسيس حتَّى بات لهذه الصلاة أثر شديد عليها. والواقع أن انتصارات موسى على العمالقة هذه، وجدعون على مَدْين، وداود على جليات، وانهيار أورشليم أيضًا، كانت تدفعها إلى الصلاة بكل الحميَّة الحانية التي كانت تفعم قلبها. مع ذلك، فإنها ما كانت تدرك كل ما تطلبه من الله، ولقد اتحدت اتحادًا كليًّا مع البَهَلَة؛ للحصول على عقلية مستقيمة وقلب يقوِّيه الإيمان ويوقظه الأمل ويحييه الحب. ولكن كيف كانت تستطيع التماس إفناء أعدائها وهي التي كانت قبل دقائق ترغب في الحصول على عدد أكبر منهم لتصلِّي من أجلهم؟ مع ذلك، فإنها لم تكن لتضع الصلاة التي فرغوا من تلاوتها جاثين موضعَ الشك من حيث موضوعها. كانت تشعر في أعماقها بارتعاشة تقيَّة وذعر مقدَّس وهي تفكِّر في العقاب الذي ينزل بالخاطئين، وعلى الأخصِّ بذلك الذي بنفسها له. توسَّلت إلى الله أن تمنحهم الغفران جميعهم والراحة والسعادة في هذه الدار، وخُيِّل إليها أنَّ الله كان يصغي إلى صلاتها.

الفصل التاسع عشر

الروسي بيزوخوف

منذ ذلك اليوم الذي تأمَّل فيه بيير النجمَ المذنَّب حال عودته من لدن آل روستوف، وهو لا يزال تحت تأثير نظرة ناتاشا الشكور، وشعر بأفق جديد يفتح أمامه، كَفَتْ مسألة العدم والكبرياء بكل ما هو أرضي عن تعذيبه. والسؤال الأليم: «لماذا؟» الذي كان من قبل يتدخَّل في كل مشاغله، لم يترك مكانه لسؤال آخر ولا لأي حلٍّ كان، بل للصورة التي احتفظ بها «لها». فإذا تابع أو أثار هو نفسه مناقشة مبتذلة أو قرأ أو تعلَّم حماقة ما أو رذيلة ما، فإنه ما كان يسخط كسابق عهده، ولم يعد يتساءل عن سبب اضطراب البشر إلى هذا الحدِّ، في حين أنَّ كل شيء شديد القصر قبل القفزة إلى المجهول. ولكي تتبدَّد كل شكوكه كان يكفيه أن يتمثَّلها «هي» كما رآها آخر مرة، وعندئذٍ تختفي كل الشكوك، لا لأنها تجيب على الأسئلة التي تعرض له، ولكن لأن صورتها كانت تنقله فجأةً إلى منطقة مشرقة من الروح؛ حيث لا يستطيع أن يرى هناك محقًّا ولا مُذنِبًا، إلى منطقة الجمال والحب؛ هذين السببين الوحيدين للحياة. ومهما بلغت الأسواء الفكرية التي كانت الحياة تُوجِدها أمامه، فإنه كان يُحدِّث نفسه: «لا يهمني أن يكون ن. ن. قد سرق الدولة والقيصر، وأن يكون القيصر والدولة يُغدقان عليه الأمجاد مكافأةً له. لقد ابتسمت لي أمس ورجتني أن أعود لزيارتها. أحبُّها ولن يعرف أحد قط شيئًا.» وحينئذٍ تحتفظ نفسه بكل إشراقها.

استمرَّ بيير خلال ذلك على ارتياد المحافل، والإكثار من الشراب، والحياة في الفجور والعطالة؛ لأنه كان عليه — إضافةً إلى الساعات التي يقضيها لدى آل روستوف — أن يقتل البقية من الوقت. ثم إن معارفه كعاداته كانوا يجرُّونه دون أي رادع إلى مثل هذه الحياة، ولكن في الأوقات الأخيرة عندما باتت أنباء الحرب أكثر إخافةً، وعندما كفَّت ناتاشا — بعد أن أبلَّت قليلًا — عن الإيحاء إليه بمثل ذلك الإشفاق المرهف؛ استحوذت عليه كآبة

غامضة غير مفهومة أخذت تزداد قوةً يومًا بعد يوم. كان يشعر بأنَّ مصيبةً ما سوف تقلب حياته ظهرًا لبطن، فكان يترقَّب بنفاد صبر الإشارات المنذرة، أطلعه أحد إخوانه الماسونيين عن النبوءة التالية المتعلِّقة بنابليون.

في الإصحاح الثالث عشر من رؤيا القدِّيس يوحنا الإنجيلي الآية الثامنة عشرة، يقول: «ها هنا الحكمة ليحصي لديه ذكاء عدد الوحش؛ لأنه عدد إنسان، وهذا العدد هو ستمائة وستة وستون.»

وفي الإصحاح نفس الآية الخامسة: «ولقد أُعطي له فمٌ ينطق بكلمات متكبِّرة تجديفية، ولقد أُعطي له أن يعمل خلال اثنين وأربعين شهرًا.»

وإذا نقلت بالفرنسية الأعداد العِبرية؛ حيث الأحرف العشرة الأولى تمثِّل تتابع الآحاد، والتي تليها تتابع العشرات؛ يُحصل على الجدول التالي:

A	B	C	D	E	F	G	H	I	K	L	M	N
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠
*O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	
٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	١١٠	١٢٠	١٣٠	١٤٠	١٥٠	١٦٠	

* يتعذَّر إيجاد مرادفات لهذه الأحرف الأجنبية باللغة العربية؛ لذلك فقد أوردناها باللغة الفرنسية، وكذلك العبارتين: الإمبراطور نابليون واثنين وأربعين التي تختلف نحويًّا باللغة العربية على عكس ما هي عليه باللغة الفرنسية.

فإذا كُتبت الأرقام تبعًا لهذه الآية بجد الكلمات: «الإمبراطور نابليون I’empreur Napoléon»، فإنَّ مجموع هذه الأرقام يعطي بالتأكيد ٦٦٦، وتبعًا لذلك فإن نابليون هو الوحش الذي تنبَّأ به يوحنًّا! ومن جهةٍ أخرى، إذا كتبنا تبعًا لتلك الألفبائية كلمة اثنين وأربعين Sparante-deuz؛ أي الحدِّ المقرَّر للوحش لكي «ينطق بكلمات متكبِّرة تجديفية»، فإنَّ مجموع هذه الأرقام يكون ٦٦٦ من جديد! وإذن، فإن حدود سلطان نابليون سينتهي عام ١٨١٢م الذي سيبلغ خلال الثانية والأربعين.

ولقد أدهشت هذه النبوءة بيير كثيرًا، وراح يتساءل غالبًا عمَّن سيضع حدًّا لسلطة الوحش. أو بعبارة أخرى: لنابليون. وأخذ يحاول إيجاد جواب على هذا السؤال بواسطة التعداد نفسه. جرَّب أولًا عبارة: الإمبراطور ألكسندر، ثم الأمة الروسية، لكنَّ المجموع كان

إما أكثر أو أقل من رقم ٦٦٦. وذات يوم واتته فكرة إحصاء اسم الكونت بيير بيزوخوف، لكنه لم يتوصَّل إلى الرقم المنشود. وضع حرف Z بدلًا من حرف S في اسمه Bézouk'hoff، وأضاف إشارة de بدلًا من «ال» التعريف، ولكن دون نتيجة مُرضية، وحينئذٍ تبادر إلى ذهنه أنه إذا كان الجواب على السؤال كامنًا في اسمه فيجب عليه إضافة قوميته إليه. كتب حينئذٍ: الروسي بيزوخوف، فجاءت نتيجة الجمع ٦٧١؛ أي بزيادة o. ورقم o يمثل حسب هذا التعداد حرف e؛ أي الحرف نفسه المحذوف من «ال» التعريف l' التي تسبق كلمة إمبراطور.[١] وإذن فإن حذف هذا الحرف من اسمه — وهو حذف غير صحيح — يعطيه الرقم المنشود ٦٦٦ (أي l'russe Bésuhof بدلًا من le russe Besuh'of — الروسي بيزوخوف). قلبه هذا الاكتشاف ظهرًا لبطن. كيف، وبأي رباط يتصل هو بهذا الحدث الكبير الذي تعلنه رؤيا القدِّيس يوحنا؟ ما كان يدري، لكنه لم يَرتَب قط في صحَّته. كان حبُّه للآنسة روستوف والدجال وغزو نابليون والنجم المذنَّب وهذا الرقم ٦٦٦، الذي هو الإمبراطور نابليون والروسي بيزوخوف؛ كل هذه العوامل كان لا بدَّ وأن تختلط في نفسه لتنفجر ذات يوم وتجرُّه بعيدًا عن دائرة العادة الموسكوفية الفاسدة التي كان يشعر أنه حبيسٌ ضمنها لتأخذ بيده؛ كي يقوم بعمل بطولي ويبلغ بذلك سعادة قصوى.

كان بيير مساء ذلك الأحد الذي تُليت فيه تلك الصلاة قد وعد آل روستوف بأن يأتيهم بالبيان وبآخر أنباء الجيش التي كان على روستوبتشين أن ينهيها إليه. وفيما هو يدخل صباح اليوم التالي عند هذا وجد عنده حامل بريد حديث الوصول من الجيش، كان بيير يعرفه منذ أمدٍ طويل؛ إذ التقى به في حفلات موسكو الراقصة.

قال حامل البريد: «إنك لَتكون شديد اللطف لو ساعدتني قليلًا؛ إذ لديَّ ملء كيس من الرسائل إلى الأقارب.»

بين تلك الرسائل، وجد بيير واحدة من نيكولا روستوف إلى أبيه، فأخذها. أضف إلى ذلك أن الكونت روستوبتشين أعطاه نداء الإمبراطور إلى موسكو الذي فُرغ من طبعه حديثًا، والأوامر اليومية الجديدة الصادرة عن الجيش وآخر بيان عنه، وبينما بيير يمر ببصره على لائحة القتلى والجرحى والمكافآت الممنوحة، وجد اسم نيكولا روستوف حائزًا على صليب سان جورج من الدرجة الرابعة للبسالة التي أبداها في مسألة أوستروفينا، وكان الأمر اليومي نفسه يحمل نبأ تعيين آندريه بولكونسكي لقيادة فوج من القنَّاصة.

---

[١] باللغة الفرنسية. وتُحذف عادةً عند التقاء حرفين صوتيين كما هو معلوم.

ولَمَّا لم يكن يتعمَّد تذكير آل روستوف باسم بولكونسكي منذ ذلك الحين، فإنه لم يستطع الإمساك عن إبلاغهم بأسرع ما يمكن نبأ الامتياز الذي حصل عليه ابنهم، متحاشيًا حمل الأوامر اليومية والنداء وبيان الجيش إليهم وقت الطعام، مكتفيًا بإرسال النداء المطبوع والرسالة بأسرع ما يمكن.

ولقد ساهم حديثه مع الكونت روستوبتشين، وانشغال هذا وقلقه ولقاء حامل البريد الذي وصف له بلا مبالاة الحالة السيئة التي بلغت إليها أوضاعنا، والشائعة التي راجت باكتشاف جواسيس في موسكو كانوا يوزِّعون أوراقًا جاء فيها أنَّ نابليون يعد باحتلال العاصمتين قبل الخريف وانتظار وصول الإمبراطور في اليوم التالي، كل هذا ساهم في إنماء ذلك الاضطراب المحموم في نفس بيير الذي لم يفارقه منذ ظهور النجم المذنَّب، وبصورة خاصة منذ بدء الحرب.

كان بيير يغذِّي منذ أمدٍ طويل فكرة الانتساب إلى الجيش، لكن يمينه كانت تربطه بالمحفل الماسوني الذي يبشِّر بالسلم الأبدي وإبطال الحروب، ثم إن رؤية كل هذه الكثرة من الموسكوفيين الذين يرتدون اللباس العسكري وهم يعرضون وطنيتهم، ما كان يحفِّزه كثيرًا للقيام بمثل هذا، كان في أعماقه يخضع بشدة — دون أن يلتحق بالخدمة — لذلك الاعتقاد الغامض بأنه هو الروسي بيزوخوف الذي يمثِّل رقم الوحش ٦٦٦، وأن مساهمته في العمل الكبير الرامي إلى إبادة الوحش مقرَّرة منذ أبعد الأزل، فلم يكن عليه والحالة هذه أن يشرع بشيء من تلقاء نفسه، بل ينتظر ما سيقع دون أن يكون له مردٌّ.

الفصل العشرون

النداء الإمبراطوري

كان آل روستوف يستقبلون — كعادتهم كل يوم أحد — بعض المقرَّبين على مائدة الغداء، ولقد جاء بيير مبكِّرًا لينفرد بهم.

ولقد ازدادت سمنته ذلك العام لدرجة كادت أن تكون مشوَّهة، لولا أنَّ قامته المديدة وبنيانه المتين وتكوينه القوي كانت تساعده على احتمال وزن شخصه بيسر.

صعد السلَّم وهو يلهث ويدمدم بشيء بينه وبين نفسه، ولمَّا كان حوذي بيير يعرف أنَّ الكونت يتأخَّر عادةً لدى آل روستوف حتَّى منتصف الليل، فإنه لم يسأله عما إذا كان عليه أن ينتظره، ولقد هرع الخدم يتنافسون لتخليصه من معطفه، وليأخذوا منه عصاه وقبَّعته التي درجت عادته في النادي على تركها في الدهليز.

وكان الشخص الأول الذي رآه، أو بالأحرى الذي سمعه، منذ أن دخل الردهة هو ناتاشا. كانت تتدرَّب على الألحان في قاعة الرقص، ولمَّا كان يعرف أنها لم تغنِّ خلال مدة مرضها كلها، فقد أحدث صوتها في نفسه مفاجأة سارَّة. فتح الباب بلطف، كانت ناتاشا مرتدية ذلك الثوب الخبازي الذي بدت فيه بمناسبة القدَّاس، تروح وتجيء وهي تمرِّن صوتها. استدارت فجأةً على صوت الباب، فشاهدت وجه بيير الضخم المروِّع. تضرَّج وجهها وتقدَّمت نحوه.

قالت وكأنها تعتذر: «إنني أحاول أن أعود إلى الغناء. إنَّ ذلك يصرف الوقت.»

– «إنكِ على كل الحق.»

تابعت بتلك الحيوية القديمة التي لم يَرَها بيير عليها منذ أمدٍ طويل: «كم أنا مسرورة لمجيئك! إنني جد سعيدة اليوم! هل تعلم؟ لقد حصل نيكولا على صليب سان جورج. إنني فخورة به.»

– «بلى، إنني أنا الذي أرسلت الأمر اليومي إليكم ...»

وأضاف وهو يتجه نحو البهو: «هيَّا، لا أريد أن أزعجك.»

استوقفته ناتاشا وسألته ووجهها يتخضَّب بالحُمرة وهي تنظر في عينيه مباشرةً: «كونت هل أخطئ إذ أغنِّي؟»

– «كلا ... كلا ... على العكس. لمَ هذا السؤال؟»

أجابت بحميًّا: «لست أدري، لكنني لا أريد أن أعمل شيئًا تستقبحه. إنني أثق بك ثقة لا حدود لها.»

وأضافت بتلك اللهجة ذاتها دون أن تلاحظ أنَّ بيير قد غدا متضرِّج الوجه: «إنك تعرف أي دور تلعبه في حياتي، وكم من الأشياء فعلتها من أجلي ... آه! لقد وجدت في ذلك الأمر اليومي نفسه «أنه» في روسيا ...»

واستتلت بإصرار وهي تخفض صوتها: «نعم، هو، بولكونسكي ... وإنه عاد إلى الخدمة. هل تظن أنه سيغفر لي ذات يوم؟ هل تفكِّر في أنه سيحقد عليَّ دائمًا؟ قل لي، ماذا تفكِّر؟»

ألقت هذه الأسئلة بتلاحقٍ خشيةَ أن تخونها قواها، فقال بيير: «أظن ... أنْ لا شيء لديه يغفر لك. ولو أنني كنت مكانه ...»

حملت بيير دفعة من الذكريات فجأةً إلى الفترة التي قال لها محاولًا الترويح عن نفسها، أنه لو كان يملك حريته أو كان أفضل الرجال لسألها يدها وهو جاثٍ على ركبتَيْه. فلم تلبث تلك الأحاسيس من الإشفاق والحنان والحب أن ملأت قلبه واندفعت إلى شفتيه الكلمات نفسها التي فاه بها حينذاك، لكنها لم تمهله حتَّى يلفظها.

هتفت وهي تبرز كلمة «أنت» بشيء من العجب: «أوه! أنت ... أنت[1] ... إنَّه أمر جد مختلف! إنني لا أعرف رجلًا أفضل ولا أشدَّ كرمًا منك، ثم إنه لا يمكن أن يكون أفضل منك. ولو أنني لم أكن أعرفك حينذاك، ولو أنني لم أكن أعرفك حتَّى الآن، لما عرفت ماذا كان سيكون من أمري؛ لأن ...»

وتلألأت الدموع في مآقيها، وأشاحت عنه وأخفت وجهها وراء دفتر الموسيقى، ثم استأنفت في غنائها ومشيها.

[1] ورد في النص الفرنسي ضمير «أنتم» وهو الذي يُستعمل للمخاطب المفرد احترامًا، ويتعذَّر إيراده دون الإضرار بسلاسة القراءة.

وبنفس الوقت هرع بيتيا إلى البهو. كان قد أصبح فتًى جميلًا في الخامسة عشرة، متورِّد الوجنتين، ضخم الشفتين قانيتي اللون، يشبه ناتاشا. وعلى الرغم من أنه كان يستعد لدخول الجامعة، فإنه كان يتآمر مع رفيقه أوبولنسكي منذ بعض الوقت لينخرط في سلك الفرسان.

اندفع بيتيا نحو سميِّه وسأله أن يبحث له عما إذا كان سيُقبَل في سلاح الفرسان، لكن بيير كان يخطر في البهو دون أن يكون قد سمعه؛ فجذبه بيتيا من ذراعه ليلفت انتباهه.

– «حسنًا! أين أصبحت قضيتي يا بيير كيريللوفيتش بحق السماء؟ إنَّ كل أملي مركَّز عليك.»

– «آه! نعم، قضيتك، الفرسان؟ سوف أتحدَّث عنها. سأتحدث عنها اليوم دون إرجاء.»

– «حسنًا يا «عزيزي»، حسنًا! هل لديك النداء؟»

بذلك استقبله الكونت العجوز لأول وهلة، ثم أردف متمِّمًا: «لقد كانت كونتيستي الصغيرة في القُدَّاس مع آل رازوموفسكي، فسمعت هناك الصلاة الجديدة التي يروون أنها جميلة جدًّا.»

أجاب بيير: «نعم، لديَّ النداء. سيكون الإمبراطور هنا غدًا، وسيكون اجتماع فوق العادة للنبلاء. كذلك يتحدَّثون عن جباية عشرة على كل ألف. وبالمناسبة، تهانئي الحارَّة.»

– «نعم، نعم والحمد لله! ... أيَّة أنباء عن الجيش؟»

– «يبدو أننا تراجعنا من جديد حتَّى تحت سمولنسك.»

– «رباه! رباه! ... وأين البيان؟»

– «النداء؟ آه، نعم!»

فتَّش بيير عبثًا في جيوبه، واستمر في التفتيش وهو يقبِّل يد الكونتيس التي دخلت في تلك اللحظة وهي تلقي حولها نظرات كئيبة بانتظار ناتاشا التي كفَّت عن الغناء دون أن تدخل إلى البهو.

اعترف أخيرًا: «لعمري، ما عدتُ أعرف أين حشوته.»

قالت الكونتيس: «آه! إنه يضيِّع كل شيء دائمًا.»

وفي تلك اللحظة، دخلت ناتاشا متحنِّنة، وجلست على مقربة من بيير، وحطَّت بأنظارها عليه دون أن تنبس بكلمة. ولقد أزال دخولها الغضون من وجه بيزوخوف الذي

ظلَّ كئيبًا حتَّى تلك اللحظة؛ فراح يضاعف جهده في البحث ينظر مرَّات عديدة ناحية الفتاة.

– «لا ريب أنني نسيته في مسكني. أنا ماضٍ لإحضاره ...»

– «لكنك ستتأخر عن موعد الطعام!»

– «هه! صحيح، ثم إن حوذيَّ قد ذهب!»

لكن سونيا التي راحت تبحث عن أوراق حتَّى بلغت الردهة، وجدتها أخيرًا مطوية بعناية تحت بطانة قبعة بيير، فاستعدَّ هذا لتلاوتها.

قال الكونت العجوز الذي كان ولا ريب يَعِدُ نفسه ببهجة كبرى بتلك التلاوة: «كلا، بعد الطعام.»

وعلى المائدة؛ حيث شربوا الشمبانيا على شرف فارس سان جورج الجديد، روى شينشين أنباء المدينة: مرض الأميرة العجوز جيئورجيين، اختفاء ميتيفيه، قصة ألماني عجوز جيء به إلى روستوبتشين وهم ينعتونه بـ «فُطر»،[٢] وأن هذا أطلق سراحه مفسِّرًا للشعب أن فُطرًا من هذا النوع غير سام، هذا على الأقل ما كان روستوبتشين نفسه يقوله.

قال الكونت: «نعم، نعم. إنهم يُطبِقون عليهم، إنهم يُطبِقون عليهم. كم من مرة توسلت إلى الكونتيس ألَّا تتكلَّم الفرنسية بهذه الكثرة! لم يعد الآن وقت التكلُّم بالفرنسية.»

استأنف شينشين: «هل تعرفون أنَّ الأمير جوليتسين استخدم مربيًا روسيًّا؟ نعم، إنه يعطي دروسه بالروسية، لقد بدأ التحدُّث بالفرنسية في الشوارع يُصبح خطرًا.»

قال الكونت العجوز: «آه، لكن يا بيير كيريللوفيتش، عندما يشكِّلون فرق الميليشيا سيتحتم عليك الركوب على الجياد.»

نظر بيير، الذي كان حتَّى تلك اللحظة مدفونًا في أفكاره، إلى الكونت العجوز دون أن يبدو عليه أنه فهم.

– «آه، نعم، لقد أزف الوقت للذهاب إلى الحرب. سأكون وجهًا جميلًا فيها! على أية حال، إن كل شيء شديد الغرابة! إنني لم أعد أعرف نفسي، إنني لا أملك أي استعداد لاحتراف الجندية، ولكن في وقتنا اليوم لا يستطيع أحدٌ أن يجيب بشيء.»

---

[٢] أورد المترجم إلى الفرنسية أن كلمتي: جاسوس وفُطر الأجنبيتين على اللغة الروسية متشابهتان حتَّى ليخلط الشعب بينهما.

وبعد الطعام، تركَّز الكونت في أريكة مريحة، ورجا سونيا بوصفها قارئة مجيدة، أن تتلو النداء:

> إلى موسكو عاصمتنا الأولى.
>
> لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة. لقد جاء يدمِّر وطننا الحبيب …

كانت سونيا تقرأ بصوتها الرقيق واضعةً كل عنايتها في القراءة، وكان الكونت يُصغي مغمض العينين وهو ينطق بعض المقاطع بتنهُّدات عميقة. وكانت ناتاشا منتصبة الجذع تعاين بنظرة متفحِّصة تارةً أباها وتارةً بيير الذي كان يشعر بتلك النظرة تقع عليه فيتحاشى ملاقاتها، وكانت الكونتيس تهزُّ رأسها بعد كل عبارة قريب مفخَّمة في النداء دلالةً على عدم الموافقة، فالخطر الذي يتعرَّض له ابنها ليس الانتهاء، وهذا كل ما كانت تفهمه من تلك العبارات، أما شينشين فكان يَمرُز شفتَيْه في ضحكة ساخرة ويستعد للنقد لدى أول فرصة؛ سواء كان من حيث صوت سونيا أو حماس الكونت أو النداء نفسه إذا لم يجد شيئًا آخر يُنقد.

وبعد أن قرأت المقاطع المتعلِّقة بالأخطار التي تهدِّد روسيا والآمال التي يعلِّقها الإمبراطور على موسكو، وبصورة خاصة على مجموعة الأشراف الشهيرة فيها، انتهت سونيا التي كان صوتها يرتعد بنسبة الانتباه الذي يولونه لقراءتها إلى النتيجة:

> سوف لن نتأخر بأنفسنا عن الظهور بين شعبنا في هذه العاصمة وفي الأماكن الأخرى من مملكتنا للتشاور ولقيادة كل فرق متطوِّعينا، تلك التي تقطع الطريق الآن على العدو، والتي سوف تتشكَّل من جديد لنضرب العدو في كل مكان يظهر فيه؛ ليسقط البلاء الذي يتأهَّب لإلقائنا فيه على رأسه، ولتلهج أوروبا المحرَّرة من الرقِّ باسم روسيا!

هتف الكونت: «هذا نداء رائع!»

ثم باعد بين جفنَيْه المبللين ونخر مرات متكررة وكأنهم نشقوه أملاحًا، وأضاف: «ليس على الإمبراطور إلا أن يتكلَّم. لسوف نُضحِّي بكل شيء دون أي أسف.»

قفزت ناتاشا وهرعت إلى أبيها دون أن تترك لشينشين الوقت لصرف دعايته التي أعدَّها حول وطنية الكونت، ثم عانقته أو قالت: «كم أنت لطيف يا أبي!»

ثم أَرْخت نظرة باتجاه بيير مستسلمةً لذلك الدلال البريء الذي كان يعاودها مع مرحها.

قال شينشين: «مهلًا قليلًا أيتها المواطنة!»

فاحتجت ناتاشا ساخطة: «ولكن لا، ويلاه ... إنك تستهزئ دائمًا، لكنني لا أمزح.»

واستأنف الكونت: «ليس الأمر دعاية! ليقل كلمة فقط فنذهب كلنا ... إننا — ويحك! — لسنا ألمانًا!»

تدخَّل بيير قائلًا: «هل لاحظت أن النداء يقول: «للتشاور»؟»

– «آه، وأية أهمية؟! ...»

وفي تلك اللحظة، تقدَّم بيتيا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد نحو أبيه، وقال له بصوت متقطع خطير تارةً وحادٍّ تارةً أخرى: «حسنًا يا أبي، أُعلن لك الآن ... ولأمي أيضًا، ولتحمله على أي محمل تشاء ... أعلن لكم أنه يجب أن تَدَعاني أذهب إلى الخدمة ... لأنني ما عدت أستطيع التريُّث. هذا كل شيء ...»

رفعت الكونتيس عينَيْها مروَّعة وضمَّت يديها، والتفتت إلى زوجها تقول: «هذا مكان ما يريد بلوغه!»

لكن الكونت لم يحمل المسألة على محمل الأسى.

– «هيا، هيا! لا تنطق بالحماقات! انظر قليلًا إلى هذا المحارب الجميل، الأفضل أن تنهي دراستك.»

– «إنها ليست حماقات يا أبي، إن فيديا أوبولنسكي أصغر مني سنًّا، وهو سيذهب بالمثل ... على أية حال، لا أستطيع أن أدرس الآن وقد ...»

وهنا توقَّف واندفعت الدماء إلى وجهه حتَّى احمرَّ بياض عينيه، ثم أنهى جملته مع ذلك: «... الآن وقد أصبح الوطن في خطر.»

– «كفى، كفى، ويلاه! إنْ هي إلا حماقات ...»

– «لكنك قلت بنفسك منذ حين أننا سنضحِّي بكل شيء.»

صرخ الكونت وهو ينظر إلى زوجته التي امتقع لونها وحدقت بأبصارها في وجه ابنها الأصغر: «بيتيا، هلا صمتَّ!»

– «دعوني أقُل لكم، وسيؤيد بيير كيريللوفيتش قولي ...»

– «اصمت، قلت لك! هذه حماقات. لا تزال نقطة الحليب في أنفه ثم يريد أن يجعل من نفسه جنديًّا. كفى، كفى، أليس كذلك؟ ...»

ثم أضاف وهو يأخذ النداء الذي كان يُزمِع إعادة قراءته ولا ريب في مكتبه قبل قيلولة الظهر: «يا بيير كيريللوفيتش، تعالَ ندخِّن غليونًا.»

وكان بيير أشد اضطرابًا من أي وقت مضى، لقد كانت عينا ناتاشا منذ بعض الوقت شاخصتين إليه بإلحاح مربك، وهما أشد التماعًا وأكثر ممالقةً من المألوف.

– «اعذروني، سأعود إلى مسكني ...»

فقال الكونت بسلامة طوية وهو يشير إلى ناتاشا: «كيف؟! إلى مسكنك وأنتَ الذي كنتَ ستقضي السهرة هنا! ... إنك في الآونة الأخيرة أصبحتَ قليل الظهور في حين أن صغيرتي ناتاشا لا تكون مرحة إلا في حضرتك.»

فأسرع بيير يقول: «نعم، لكنني نسيت ... يجب أن أعود بأي ثمن ... إنها الأعمال ...»

قال الكونت وهو ينسحب: «حسنًا، إذن إلى اللقاء.»

سألت ناتاشا وهي تتفحَّص وجه بيير بنظرة جريئة: «لماذا تذهب؟ لماذا أنت مضطرب؟ لماذا؟»

ودَّ بيير أن يجيب: «ذلك لأنني أحبك!» لكنه لم يقدر. تضرَّج وجهه وأخفض عينيه وتمتم: «ذلك أنه من الأفضل أن أقلِّل من زياراتي ... كلا، كل ما في الأمر أنها الأعمال ...»

– «لماذا؟ هيا، قُلْ لي السبب.»

ألحَّت ناتاشا، لكنها ما لبثت أن صمتت فجأةً.

تبادلا النظر بذعر، وحاول هو أن يبتسم، لكنه لم يطلع إلا بإشارة تدل على الألم. قبَّل يد ناتاشا دون أن يقول كلمة واختفى.

ولقد اتخذ بيير قرارًا حازمًا ألَّا يعود إلى بيت آل روستوف أبدًا.

الفصل الحادي والعشرون

الإمبراطور في موسكو

بعد الرفض المطلَق الذي مُني به بيتيا، حبس نفسه في غرفته ليبكي بدموع حارَّة، ولمَّا عاد إلى الظهور ساعة الشاي، كئيبًا متجهِّمًا أحمر العينين، تظاهر كلُّ مَن في البيت بأنهم لم يروا من هذه البوادر شيئًا.

وصل الإمبراطور صباح اليوم التالي، فسأل كثيرٌ من خدم آل روستوف أن يسمح لهم بحضور دخوله إلى المدينة، ذلك الصباح، أطال بيتيا في ترجيل شعره وارتداء ثيابه ووضع الياقة على طريقة الأشخاص الكبار. راح يُقطِّب حاجبَيْه أمام المرآة ويقوم بحركات تخص مَن هم أكبر منه سنًّا ويدير كتفَيْه. وأخيرًا، وضع قبعته الوحيدة الجافَّة وخرج عن طريق مدخل الخدم دون أن يكلِّم أحدًا محاولًا أن يُخفي خروجه عن الأنظار. قرَّر أن يذهب مباشرةً إلى مستقرِّ الإمبراطور، وأن يخاطب مباشرةً واحدًا من الحُجَّاب الكثيرين بكل جرأة وهم على ما يظن كثيرون يحيطون دائمًا بجلالته. سوف يشرح له أنه الكونت روستوف، وأنه رغم صغر سنِّه يرغب في الاضطلاع بخدمة وطنه، وأنَّ السن لا يمكن أن تؤجِّل التفاني، وأنه مستعد ... وبالاختصار، كان قد أعدَّ أقوالًا جميلة كثيرة اعتزم قولها للحاجب الإمبراطوري.

قدَّر بيتيا أن صِغر سنِّه سيدهش الجميع، وأنهم — لهذا السبب بالذات — لن يتأخروا عن تقديمه إلى الإمبراطور. خلال ذلك، فإنه راح يحاول إضفاء سيماء الرجل الناضج على نفسه عن طريق تسوية ياقته وطريقة ترجيل شعره ومشيته البطيئة المتزنة، لكنه كلَّما أوغل في التقدُّم، كلما ترك لنفسه أن تتلهَّى بالجماهير التي كانت تفد من كل صوب فيبتعد عن ذلك الاتزان الخطير الذي انتهجه. ولمَّا اقترب من الكريملين، اضطرَّ أن يحترز كيلا يدفعه الناس، وراح يستعمل مرفقَيْه ليشقَّ لنفسه الطريق بأسلوب تهديدي. وتحت باب «الثالوث»، رغم كل الجهود التي بذلها، فإن أشخاصًا جاهلين — ولا ريب —

نواياه الوطنية، دفعوه بشدة إلى الجدار الضخم حتَّى اضطر — مرغم أخاك لا بطل — أن يتوقَّف ليدع رتلًا طويلًا من العربات يمر في ضجيج زاد العقد في نشره. وكان إلى جانبه امرأة من الشعب وخادم واثنان من التجار وجندي متقاعد. أراد بيتيا أن يتابع طريقه دون أن ينتظر نهاية الرتل، فراح من جديد يعيد حركة مرفقَيْه النشيطة، لكنَّ المرأة التي كانت أول من تعرَّض لحملاته أنَّبته بقوة: «هيه! يا أيها السيد الصغير، هلا كففت عن الدفع؟ لا بدَّ وأنك ترى أنهم لا يتحرَّكون، فالزم الهدوء إذن.»

وأضاف الخادم مؤيِّدًا: «دون ريب، وإذا رحت تدفع فإن الناس كلهم سينهجون نهجك.»

وقرن القول بالفعل فدفع بيتيا حتَّى زاوية الباب كريهة الرائحة.

جفَّف بيتيا العرق الذي انثال على وجهه، وسوَّى على قدر ما يستطيع ياقته المبلَّلة، تلك الياقة الجميلة التي ثبَّتها في البيت على طريقة الأشخاص الكبار.

بات يرى الآن أنه لم يعُد ذا مظهر لائق، وأنه إذا تقدَّم على هذا الشكل إلى الحُجَّاب فإنهم لن يدعوه يصل إلى الإمبراطور، لكن الازدحام الذي منعه عن إصلاح زينته، كان كذلك يمنعه من الخروج من ذلك المأزق. شاهَد بين الجنرالات الذين كانوا يمرُّون واحدًا ممَّن يعرفهم ذووه فكاد أن يطلب إليه العون، لكنه قدَّر أن ذلك غير جدير برجل مثله. ولمَّا مرَّت العربات كلها جرَّه الحشدُ في اندفاعه إلى الساحة التي أصبحت سوداء من الخلائق كما كان حال المرتفعات والسطوح المجاورة. فما كاد بيتيا يصل إلى هناك حتَّى سمع بوضوح قرع الأجراس المتناسق وهمهمة الجمهور المَرِح.

وفجأةً ران فراغ على الساحة، وحُسِرت الرءوس كلها، وعمَّت اندفاعة جديدة إلى الأمام، فكان بيتيا محصورًا بشدة حتَّى لقد تعذَّر عليه التنفس. وهتف الناس كلُّهم: «هورا! هورا! هورا!» ورغم أن بيتيا تطاوَل على أطراف قدميه ودفع جيرانه وتعلَّق بهم؛ فإنه لم يرَ إلا الجمهور المحيط به.

كانت الوجوه كلها تعكس تحنانًا واحدًا وحماسًا موحَّدًا، وكانت بائعة إلى جوار بيتيا تنتحب وتبكي بدموع سخية وتقول في شبه ترتيل وهي تجفِّف عينيها: «أبانا، ملكنا، أبانا!»

وتعالى الهتاف من كل حدب: «هورا!»

واندفعت الجماهير إلى الأمام بعد هذا التوقف القصير.

اندفع بيتيا في أوج الانفعال، شادًّا على أنيابه وعيناه خارج محجريهما، وهو يعمل مرفقيه بنشاط ويصيح: «هورا!» وكان يبدو أشبه بمن على استعداد لإفناء نفسه والآخرين.

ومن حوله كل الوجوه على مثل وحشية مظهر وجهه تندفع إلى الأمام وتُزمجر هي الأخرى: «هورا!»

حدَّث بيتيا نفسه: «إذن هذا هو الإمبراطور! يستحيل في مثل هذه الظروف أن أرفع إليه ملتمسي، سيكون تجاوزًا في الاجتراء!» مع ذلك، فقد استمر يدفع بيأس، وبات يرى وراء الأكتاف التي أمامه رقعة فارغة رسم عليها طريق من النجد الحمراء، ولكن في اللحظة نفسها تقهقر الجمهور؛ لأن رجال الشرطة صدُّوا في ذلك الوقت أولئك الذين تجاوزوا في الاقتراب. كان الإمبراطور ينتقل من القصر إلى كاتدرائية أسومسيون (انتقال العذراء) وحينذاك تلقَّى بيتيا في جنبه ضربة بلغت من الشدَّة حدًّا دارت له عيناه وفقد الوعي، ولمَّا استفاق وجد رجل كنيسة بجبة خلقة وذيل صغير من الشعر الأشيب على القذال، شمَّاسًا ولا ريب، يرفعه بإحدى يديه من تحت إبطه بينما يدفع عنه باليد الأخرى غائلة الضغط.

كان الشمَّاس يقول: «لقد سحقوا السيد الصغير! ترفَّقوا، هه، ترفَّقوا! ... لقد سحقوه، المسكين! ...»

وكان الإمبراطور قد دخل الكاتدرائية وكفَّ اللجب، فاستطاع الشمَّاس أن يقود بيتيا المتقع الذي كان يتنفَّس بصعوبة نحو «ملك المدافع» (مدفع أقيم قرب باب القدِّيس نيكولا وقد صُنع في القرن السادس عشر، وزِنته ١٩٦٠٠٥ كيلوجرامات، وهذا سبب التسمية). ولقد تحنَّن بعض الأشخاص على مصيره، فاندفع الجمهور نحوه. هرع الأقرب إليه يفكُّون أزراره ويُجلسونه على قاعدة المدفع، وكلهم يقذفون أقذع السباب بحق «الدهَّاسين» المجهولين.

– «ذلك أنه كان يستطيع المرور بكل راحة. هل يتصور العقل هذا؟ قتل حقيقي! إنه أبيض كقطعة قماش، الظريف الصغير!»

لم يلبث بيتيا أن استعاد قواه وعادت الألوان إلى وجهه وزال الألم، ولقد حصل على مكان جيد فوق المدفع بفضل هذا الطارئ. ومن موضعه راح يأمل أن يرى الإمبراطور عند عودته. أما عن الملتمس فلم يعد البحث يتعلق به، لقد باتت رؤية الإمبراطور وحدها كافية لإسعاده!

وبينما كان يقام في الكاتدرائية قدَّاس شكر لعودة الإمبراطور كما لإجراء الصلح مع الأتراك، فإن الجماهير أخذت تتفرَّق. وشوهد منادون على شراب «كفاس»[1] والحلوى

---

[1] كفاس: شراب روسي مخمَّر شائع بين القرويين، يُستخرج من صبِّ الماء المغلي على الشعير.

والقنبز (حب الخشخاش) التي يُعتبر بيتيا من كبار هواتها، يظهرون. وتُبودلت حوله أحاديث مبتذلة. كانت بائعة تُري شالها الممزَّق وتزعم أنه كلَّفها عينَي رأسها، وأخرى تؤكد أن الأقمشة الحريرية باتت لا تُحصر بثمن. والشمَّاس الذي أنقذ بيتيا يقدِّم لأحد الموظفين معلومات ضافية عن الشخصيات التي تشارك عظمته في القدَّاس، ويلفظ عدة مرات كلمة «حبريٌّ» الذي استغلق معناها على بيتيا؛ واثنان من أصحاب الحرف الشبَّان يمجنان مع خادمتين تقضمان بندقًا. ولقد كانت كل هذه الأحاديث، وبصورة خاصة دعابات الشابَّيْن التي كان لا بدَّ وأن تلفت انتباه من هو في سنِّه، أمرًا لا يؤبه له، فكان وهو في جثومه على المدفع يذوب غرامًا وهو يُفكِّر في الإمبراطور، وكانت ذكرى إغمائه ومخاوفه أثناء الازدحام ترفع من معنوياته وتجعل هذه اللحظة الرهيبة خالدة إلى الأبد في ذهنه.

وفجأةً دوَّت طلقات المدافع على طول رصيف الميناء؛ حيث كانوا يُطلِقون المدافع احتفالًا بالسلم مع تركيا. اندفعت الجماهير نحو ذلك الاتجاه، وهمَّ بيتيا أن يحذوَ حذوها، لكن الشمَّاس الذي وضعه تحت حمايته منعه، وكانت الطلقات لا تزال تدوِّي حينما شوهد الجنرالات والضباط والحُجَّاب يخرجون من الكاتدرائية على عَجَل، وأعقبهم أشخاص آخرون أقل تعجُّلًا، وانحسرت الرءوس من جديد، وارتدَّ الفضوليون الذين اندفعوا نحو الرصيف إلى الساحة مرةً أخرى. أخيرًا ظهر أربعة من كبار الشخصيات بالأشرطة الطويلة والبزَّة الرسمية في فناء الكنيسة، فصاحت الجماهير مرةً جديدة: «هورا!»

سأل بيتيا جيرانه بصوتٍ منتحب: «أيهم هو؟ أيهم؟»

فلم يُجِبه أحد. كان الناس جميعهم في أوج الانشغال، انتخب واحد من الأربعة اعتباطًا ما كان يستطيع تمييز تقاطيعه بعينيه اللتين تبلِّلهما الدموع، وركَّز كل حماسته فيه رغم أنه لم يكن الإمبراطور. أطلق صيحة «هورَّا» مجنونة، وقرَّر فيما بينه وبين نفسه أن ينخرط منذ الغد في سلك الجندية مهما كلَّف الأمر.

وبعد أن جَرَت الجماهير حتَّى القصر وراء الإمبراطور، راحت تتفرَّق، وأصبح الوقت متأخِّرًا وبيتيا لم يذُق بعدُ طعامًا، فكان العرق ينثال على جبينه، مع ذلك فإنه لم يفكِّر في العودة. انضمَّ إلى المتسكِّعين الذين كانوا عددًا وفيرًا مجتمعين أمام القصر، ولبث هناك طيلة الوقت الذي استغرقه جلالته في تناول الطعام؛ منتظرًا — الله يعلم — أي حدث وهو يحسد المدعوين إلى المائدة كما يحسد الخدم الذين كان يراهم من النوافذ.

قال فالوئييف أثناء الطعام وهو يلقي نظرة إلى الخارج: «لا زال الشعب يأمل رؤية جلالته.»

وعند النهوض عن المائدة، مضى الإمبراطور إلى الشرفة وهو لا يزال يمضغ قطعةً من البسكويت؛ فهرع الحشد وبيتيا بينه إلى ناحيته.

راح الشعب يصيح وبيتيا معه: «يا ملكنا! يا أبانا! هورًّا! يا أبانا! ...»

ومن جديد، راحت النسوة كما راح الرجال الذين يستبدُّ بهم الحنان سريعًا — وبيتيا من هؤلاء — يذرفون دموع الفرح.

سقط جانب غير صغير من قطعة البسكويت التي كان الإمبراطور ممسكًا بها من يده على حاجز الشرفة، وقفز منه إلى الأرض؛ فاندفع حوذيٌّ ذو معطف عريض كان أقرب الناس إلى مكان سقوط القطعة والتقطها بشدَّة، وارتمى البعض من جواره عليه، وحينئذٍ استقدم الإمبراطور طَبَقًا من البسكويت، وراح يلقي محتوياته من أعلى الشرفة. احتقنت عينا بيتيا بالدم وقد أثارته جاذبية الخطر، فاندفع إلى الأمام. كان يريد — دون أن يعرف السبب — أن يحصل بأي ثمن على واحدة من قطع البسكويت تلك التي سقطت من يد القيصر، ولقد طرح في اندفاعه امرأةً كهلة كانت على وشك التقاط قطعة. وعلى الرغم من سقوط هذه على الأرض فإنها لم تنهزم، لكن ذراعها كانت أقصر من أن تصل. دفعها بيتيا بضربة من ركبته وتناول القطعة، ثم أطلق هورًّا جديدة خشية أن يكون قد اقتصد في إظهار حقيقة مشاعره بدونها، لكنها جاءت بصوت أبحَّ قليلًا.

احتجب الإمبراطور فتفرَّق الناس كلهم تقريبًا هذه المرة، وكانت أصوات مبتهجة تقول من كل صوب: «كنت متأكدًا أنه يجب الانتظار ولم أخطئ في ظني.»

ولقد أفسد مزاج بيتيا البهيج فكرة انتهاء متعة النهار، ولمَّا لم يكن مُزمعًا أن يعود بعد، فقد مرَّ على صديقه أوبولنسكي — وهو في مثل سنِّه — الذي كان يتأهَّب للالتحاق بالفوج، ولمَّا عاد إلى المنزل أعلن بعزم على أنهم إذا لم يَدَعوه يتصرَّف كما يريد، فسيفرُّ من البيت. ومنذ صبيحة اليوم التالي، ذهب الكونت العجوز — وإن كان ضد مشيئته — يستعلم عن الوسائل التي تمكِّنه من إلحاق بيتيا بالخدمة دون أن يعرِّضه كثيرًا للخطر.

الفصل الثاني والعشرون

مناقشات النبلاء

في اليوم التالي، الخامس عشر من تموز، وقف عدد كبير من العربات أمام قصر سلوبودسكي.

كان جمْعٌ غفير يملأ القاعات وقد اجتمع النبلاء في الأولى في أزيائهم الرسمية، وفي الثانية التجار ذوو اللحى الطويلة «وميدالياتهم» تتدلَّى فوق «قفاطينهم» الطويلة الزرقاء، وكانت قاعة النبلاء تعجُّ بحيوية جيَّاشة. ولقد كان أكثر الشخصيات أهميةً يجلسون بجلال حول مائدة كبيرة، والآخرون يَرُوحون ويجيئون.

كان هؤلاء النبلاء كلهم الذين كان بيير يختلط بهم كل يوم سواء في النادي أم في منازلهم، يرتدُون بزَّات بعضها ترجع إلى أيام كاتيرين وبول وألكسندر أو البزَّة البسيطة المألوفة عند النبلاء، فكان هذا الطابع «الرسمي» يُضفي شيئًا غريبًا خياليًّا على تلك الوجوه المسِنَّة أو الفَتيَّة المختلفة والمألوفة. ولقد كان الكهول، وهم بين قصير بصر وأصلع وأدرد منتفخ بالدهن الأصفر أو نحيل مهزول، يثيرون الفضول بصورة خاصة. ما كانوا ينطقون بكلمة ولا يتحرَّكون من أمكنتهم، وإذا نهضوا من أماكنهم فليحدِّثوا مَن هم أصغر سنًّا. وهنا، كما على الساحة حيث كان بيتيا، كانت الوجوه تنطق، إضافةً إلى ترقُّبِ حدثٍ جلل، بمشاغل شديدة الإسفاف كلعبة «الباصرة» ومواهب الطاهي بيتروشكا وصحة زينائيد دميترييفنا ... إلخ.

كان بيير الذي ارتدى منذ الصباح الباكر بزَّة النبلاء التي أصبحت ضيِّقة عليه، قائمًا في القاعة فريسةَ تأثُّر شديد جدًّا. لقد كان الاجتماع الخارق ليس للنبلاء بل للتجار كذلك، تلك الدعوة لطبقات مختلفة، وبالاختصار، تلك «الطبقات العامة» توقظ في نفسه كتلة من الأفكار أغفت منذ أمدٍ طويلٍ، ولكنها ظلَّت ملقية مرساتها في ذهنه أفكارًا تدور

حول «العقد الاجتماعي»[١] والثورة الفرنسية، وكان المقطع الذي جاء في النداء، والذي قال الإمبراطور فيه إنه آتٍ إلى عاصمته «للتداول» مع شعبه، يُحدِث في نفسه أثرًا قويًّا. ولَّما كان تبعًا لهذا التسلسل من الأفكار يفترض جدلًا أن هناك أمرًا مهمًّا في طور الإعداد، ينتظر صدوره عنه منذ أمدٍ بعيد، فقد راح يتجوَّل بين الجماعات وينظر حوله ويصيخ السمع إلى المحادثات دون أن يكتشف فيها على أيَّة حال ما يستجيب لتخيُّلاته.

قُرئ النداء الذي استفز الحماس، ثم استؤنفت المحادثات. ولقد سمع بيير، إضافةً إلى المواضيع الاعتيادية، مناقشات حول الأمكنة التي سيحتلها رؤساء الأشراف لدى دخول جلالته، وحول تاريخ الحفلة الراقصة التي ستقام على شرفه والطريقة المفضَّلة للاجتماع: كل مقاطعة أو إقليم ... إلخ، ولكن ما إن يعود البحث إلى الحرب وموضوع الاجتماع نفسه حتَّى يدخلوا حدود الغموض والاستغلاق، فكانوا يفضِّلون الإصغاء على التكلُّم.

كان سيد في سنٍّ متأخرة، عسكري المظهر، جميل الصورة، في بزَّة البحَّار المتقاعد، يغطُّ وسط جمع، فاقترب بيير ليصغي إليه، وكان الكونت إيليا آندريئيفيتش في «قفطان» حاكم مدينة يرجع زيُّه إلى عصر كاتيرين، يخطر والابتسامة على شفتيه بين هذه الوجوه من معارفه، فأصاخ هو الآخر السمع وعلى وجهه طابع العطف المألوف عنده في تلك المناسبات، وراح يشجِّع المحاضر بهزَّات رأسه المؤيِّدة. وكان يبدو أن البحَّار يتطرَّق إلى بحوث بالغة الجرأة، إذا حكمنا على الأقل على مظاهر التبدُّل التي كانت تطرأ على وجوه مستمعيه وواقع مناقضة بعضهم له، ممن يعرف بيير مزاجهم السلمي، بل وابتعادهم عنه استنكارًا لأقواله، شقَّ بيير لنفسه طريقًا إلى وسط الجماعة، واستطاع أن يقنع نفسه أنَّ المتحدِّث الجميل متحزِّب حقًّا للحرية المدنية والدينية، ولكن باتجاه يختلف كل الاختلاف عن اتجاهه. كان للبحَّار صوت خفيض رخيم، يلثغ بملاحة و«يبتلع» الأحرف الساكنة من تلك الأصوات الخاصة بالنبلاء الذين أَلِفوا الصراخ: «يا غلام، إليَّ بغليوني!» أو أي شيء آخر من هذا النوع: صوت مترف أَلِف إصدار الأوامر.

[١] العقد الاجتماعي: كتاب شهير للفيلسوف جان جاك روسو ظهر عام ١٧٦٢م، يخلص فيه إلى أن الحياة الاجتماعية ترتكز على عقد، وكل متعاقد يؤجِّر حريته للصالح العام متعهِّدًا احتمال بادرة الإرادة العامة. ولقد كان لهذا الكتاب صدًى كبير أوحى بمعظم سياسات الثورة الفرنسية وإن اختلفت معايير فهمه. وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر في مجلدين طبع دار المعارف بمصر.

– «لقد عرض نبلاء سمولنسك متطوِّعين على الإمبراطور! وماذا بعد؟ هل هم الذين يسنُّون لنا القانون؟ إذا وجدت طبقة النبلاء المبجَّلة في موسكو ضرورة لإظهار تفانيها لجلالته، فإنها تستطيع إظهارها على لونٍ آخر. هل نسينا المتطوِّعين عام ٨٠٧؟ لم يربح بينهم إلا أبناء القساوسة والمحتالون والمداجون ...»

وكان الكونت إيليا آندريئيفيتش يؤيِّد أقواله برأسه وعلى شفتيه ابتسامته الدمثة.

«هل كان متطوِّعونا ذوي فائدة للبلاد؟ كلَّا على ما أعلم. لقد نكبونا بكل بساطة، بل إن التجنيد أفضل ... وإلا فإنهم لن يعودوا إلينا جنودًا ولا فلَّاحين، بل فاسقين ليس إلا، إنَّ النبلاء لا يساومون على حياتهم. سوف نذهب جميعنا وسنعود بمجنَّدين.»

ثم أعقب باندفاع حماسي متمِّمًا: «ليوجِّه الإمبراطور إلينا النداء فقط، فنموت كلنا من أجله.»

كان إيليا آندريئيفيتش يبتلع لعابه من الرضى ويلكز بيير بمرفقه، لكن هذا كان يريد بدوره أن يقول كلمته. تقدَّم إلى الأمام مستسلمًا لاندفاع غامض دون أن يعرف على الضبط ما يريد أن يقول. ما كاد يفتح فمه حتَّى قاطعه عضو في مجلس الشيوخ، أدرد ذو وجهٍ غاضب عليه مخايل الذكاء، كان واقفًا قُرب الخطيب. قال بلهجة واضحة هادئة، لهجة رجل خبير بالمناقشات: «افترض يا سيدي العزيز أننا لم نُستدعَ إلى هنا لمناقشة الميراث التي يمكن أن تعطيها في الظروف الحاضرة طريقتا التطوع أو التجنيد. يجب أن نجيب على النداء الذي شرَّفنا به جلالته، أمَّا الاختيار والتقرير بين التطوع والتجنيد فأمر يجب أن نتركه للسلطة العليا ...»

لم يلبث بيير أن وجد مخرجًا للغليان الداخلي. كيف؟! إنَّ هذا الشيخ يُزمِع فرض وجهات نظره الضيقة المتطرفة في الانسجام مع التشريع على مداولات النبلاء! تقدَّم خطوة إلى الأمام وراح يحاضر بحُمَيًّا وقد قطع عليه الكلام، رغم أنه استعمل لغة روسية مدرسية محشوَّة بتعابير فرنسية.

شرع يقول: «اعذرني يا صاحب السعادة ...»

ذلك أنه رغم العلاقات الطيبة التي تجمعه بهذا الشيخ، فقد ارتأى أن من الأفضل منحه لقبه الرسمي.

– «على الرغم من أنني لا أشارك رأي السيد ...»

وهمَّ أن يضيف قوله: «المشرع كُلِّي الاحترام»، لكنه أمسك وأضاف: «الذي لم يحصل لي شرف معرفته، فإنني أفترض أن طبقة النبلاء قد استُدعيتْ إلى هذا المكان ليس لتعبر

عن عواطفها وحماسها فحسب، بل لتناقش كذلك الوسائل التي يمكن أن تلجأ إليها لنجدة الوطن.»

ثم أردف وهو يزداد اندفاعًا: «إنني أعتقد أن الإمبراطور نفسه سيكون مستاءً إذا لم يجد فينا إلا مالكي قرويين ... للمدفع ... إذا لم يجد فينا ... مجلسًا استشاريًّا.»

ولقد حفَّزت هذه اللغة الشديدة التحرُّر وابتسامة الشيخ المزدرية أناسًا كثيرين على الابتعاد، فلم يؤيِّد خطاب بيير غير إيليا آندريئيفيتش، كما أيَّد من قبلُ خطاب البحَّار والشيخ، وكما كان على استعداد لتأييد كل شخص يكون آخر من يتكلَّم.

استرسل بيير: «أقدِّر أنه قبل مناقشة هذه المسائل، يجب علينا أن نسأل الإمبراطور. نعم، أن نسأل بكل احترام جلالته أن يُعلِمنا بعدد قواتنا ومركز جيوشنا، وعندئذٍ ...»

لم يستطع بيير أن يتمِّم؛ لأنهم هاجموه من ثلاث جهات معًا. وكان أكثر خصومِهِ قسوةً من أقدم زملائه في لعبة «الباصرة» الذي لم يكن قط إلا مكنًّا كل استعداد لخدمته، ستيبان ستيبانوفيتش إدراكسين كان هذا السيد الآن يرتدي البزَّة الرسمية، وسواء كان لهذا السبب أو لسبب آخر، فإن بيير وجد أمامه رجلًا آخر مختلفًا كل الاختلاف. صرخ ستيبان ستيبانوفيتش وقد تقلَّصت تقاسيم وجهه بغضب الشيخوخة: «أولًا، لا حقَّ لنا بطرح هذا السؤال على الإمبراطور، وفي المرحلة الثانية لو أن للأشراف الروسيين هذا الحق فإن الإمبراطور لا يستطيع أن يجيبنا. إن سَيْر جيوشنا تابع لسَيْر العدو، أمَّا العدد فهو تارةً منخفض وتارةً مرتفع ...»

وارتفع صوتٌ آخر، صوت رجل متوسط القامة في حوالي الأربعين من عمره، كان بيير قد عرفه من قبل عند البوهيميين، وكان غشَّاشًا في اللعب. تحوَّل هو الآخر في البزَّة، فتقدَّم من بيير وقاطع إدراكسين وهتف: «على أية حال، إنَّ الوقت الآن ليس وقت النقاش، بل العمل. إنَّ الحرب في بلدنا. إنَّ العدو يقترب ليمحو روسيا؛ ليدنِّس أضرحة أبنائنا، ليحمل نساءنا وأولادنا. سوف ننهض جميعنا وسنعطي كل شيء من أنفسنا إلى أبينا القيصر!»

كان يصرخ ويضرب صدره ويدير عينَيْه المعكَّرتين بالدم، ولقد ارتفعت بضع كلمات مؤيِّدة بين الصفوف: «إننا روسيون، ولن ندخر دماءنا لندافع عن الدين وعن العرش والوطن. لِندَعْ جانبًا كل هذه السخافات إذا كنا بالفعل أولادًا حقيقيين لهذا الوطن. سوف نُري أوروبا كيف تنهض روسيا من أجل روسيا.»

أراد بيير أن يجيب، لكنه اعترف بعجزه، كان يرى بوضوح أن كلماته، لولا المعنى الذي تحمله، أقل صدًى من أقوال هؤلاء السادة الممجَّدين.

وكان إيليا آندريئيفيتش يؤيد وراء الجمع، ولقد جاء بعض السامعين يَشدُّون أزر الخطيب ببسالة، وهم يؤيدون أقواله بـ: «عظيم جدًّا! عظيم جدًّا! كامل! هو كذلك!»

وكان بيير يريد أن يقول إنه هو الآخر على استعداد لكل التضحيات بالرجال والمال، وأن يضحِّي بنفسه إذا اقتضى الأمر، ولكن لكي يمكن علاج الموقف يجب قبل كل شيء معرفته، لكنه لم يستطع. كانوا جميعًا يصرخون ويتحدَّثون معًا، لدرجة أن إيليا آندريئيفيتش كان لا يكفُّ عن هزِّ رأسه مؤيِّدًا، وكان الجمع المتحمِّس ينمو عدديًّا تارةً، وتارةً يتفرَّق شمله ليعود إلى التشكُّل من جديد، ويتجه نحو المائدة الكبيرة عبر القاعة. لم يكن بيير عاجزًا عن إبداء كلمة واحدة فحسب، بل كانوا كذلك يقاطعونه بغلظة ويصدُّونه أو يُشيحون بوجوههم عنه، وكأنه العدو المشترك. غير أنَّ خطابه لم يكن ذا أثر في هذا النبذ؛ إذ سرعان ما نسوه تمامًا بعد الخطابات التي تلته، لكن لا بدَّ لذلك الجمهور المثار أن يُعبِّر عن موجدته كما يعبِّر عن غرامه وحبِّه، فكان بيير كبش الفداء.

ولقد تحدَّث كل النبلاء الذين تعاقبوا بعد النبيل المستفز على تلك الوتيرة، فأجاد بعضهم، ولم يخرج البعض الآخر عن الطريقة المبتذلة. ولقد قال صاحب «الرسول الروسي» الذي استقبلوه بهتافات: «الكاتب! الكاتب!» وكان اسمه سيرج جلينكا: «يجب أن يصدَّ الجحيم بالجحيم.» وأنه «رأى غلامًا يبتسم على ضوء البروق وقصف الرعود»، ولكن «لن نكون نحن ذلك الغلام.»

وكرَّروا في الصفوف الخلفية دون أن يفهموا: «نعم، نعم، على قصف الرعد!»

اقترب الحشد من المائدة الكبيرة التي جلس وراءها كبار ذوي المقام متَّشحين بأوسمتهم، وكانوا كلهم سبعينيين؛ بعضهم أصلع وبعضهم عديم الشعر، كان بيير يعرفهم سواء في بيوتهم بين مهرِّجيهم أو في النادي حوالي موائد «الباصرة». مع ذلك فإن المحادثات لم تتوقَّف. راح الخطباء — واحد أثر الآخر، وأحيانًا اثنان معًا — يتكلمون، يضغطهم الجمهور فيلصقهم بمساند الكراسي العالية، وكان أولئك الذين في المؤخرة يسجِّلون ما لم يقُله الخطباء ليقولوه بدورهم، وبعضهم يعصر دماغه وسط ذلك الازدحام وتلك الحرارة محاولين اكتشاف فكرة ما، لم يسبقهم أحدٌ إلى إعلانها؛ علَّهم يذيعونها على الآخرين. وكان ذوو المقام جامدين في مقاعدهم، يُلقون حولهم نظرات وجِلة ووجوههم لا تعبِّر إلا عن شيء واحد؛ هو أنهم يشعرون بحرارة شديدة. وكان بيير خلال هذه الفترة يشعر بالتأثر، تلك الرغبة في البرهنة بأي ثمن على إخلاصه للوطن، التي كان يقرؤها على كل الوجوه، والتي كانت الأصوات تعبِّر عنها خيرًا مما تعبِّر الخطابات نفسها،

بدأت تغزو مخيِّلته. شعر شعورًا غامضًا بأنه مذنب دون أن ينكر جانبًا من آرائه التي يؤمن بها، فأراد أن يبرِّر سلوكه.

صرخ محاوِلًا أن يطغى على الأصوات كلها: «كل ما قلتُه هو أن تضحياتنا ستكون أكثر سهولةً لو أَننا عرفنا على الضبط الحاجات الداعية إليها.»

أدار عجوز — وهو أقرب الجوار إليه — نظره نحوه، لكنه لم يلبث أن مال به إلى الجانب الآخر من المائدة، حيث كان بعضهم يقول: «نعم، سوف تنقذ موسكو! سوف تكون منقذتنا!»

وصاح صوت آخر: «إنه عدو الجنس البشري! ... دعوني أتكلَّم ... أيها السادة، إنكم تخنقونني! ...»

الفصل الثالث والعشرون

قرار نبلاء موسكو

في تلك الأثناء، دخل القاعة الكونت روستوبتشين مرتديًا بزَّة جنرال ومتقلِّدًا الوشاح الأكبر، بارز الذقن متَّقد العينين، يسير بخطوات سريعة، فأفسحت له جمهرة النبلاء الطريق.

قال: «سوف يصل جلالته. لقد جئت لتوِّي من القصر. أظن أن في الموقف الذي نحن فيه، لا مجال للنقاش طويلًا. لقد تفضَّل الإمبراطور فجَمعَنَا كما جمع رجال التجارة.»

ثم أضاف وهو يشير إلى قاعة التجار: «سوف تأتي الملايين من هنا. إن دورنا نحن يقتصر على إعطاء المتطوِّعين وعدم توفير أنفسنا ... وهذا أقل ما نستطيع عمله.»

ولقد دارت مشاوَرة بصوت أكثر خفوتًا بين السادة الجالسين وراء المائدة وحدهم، ولقد أحدث سماع تلك الأصوات المحطَّمة، بعد ذلك الصخب الأخير وهي تعطي برأيها الواحدة تلو الأخرى، لونًا من الحزن. كان هذا يقول: «إنني أوافق!» وذلك ليبدل العبارة: «إنني من الرأي نفسه.»

تلقَّى أمين السر الأمر بتسجيل القرار التالي من النبلاء الروسيين: «إن نبلاء موسكو، أسوة بأمثالهم في سمولنسك، يعطون عشرة رجال على كل ألف رجل مع تجهيزاتهم الكاملة.» ثم نهض المرموقون براحةٍ ظاهرة فدفعوا كراسيهم بجلبة وانتشروا في القاعة مُمسكين بمعارفهم من سواعدهم، ومثرثرين معهم في شتى المواضيع وكأنهم بانتشارهم أرادوا أن يحرِّكوا أطرافهم الساكنة.

صاح بعضهم فجأةً: «الإمبراطور! الإمبراطور!»

ثم اندفع الجميع نحو المدخل.

على طول طريق عريض يحفُّه من الجانبين سياج مزدوج من النبلاء تقدَّم ألكسندر إلى القاعة. كانت الوجوه كلها معبِّرة عن فضول خاشع وَجِلٍ معًا. لم يميِّز بيير وهو في مكانه البعيد الكلمات التي فاه بها جلالته، لكنه فهم فقط أنه يتكلَّم عن الخطر الذي

تتعرَّض البلاد له، وعن الآمال التي يبنيها على نبلاء موسكو. وأجاب صوت ينهي إلى جلالته القرار الذي اتُّخذ.

شرع الإمبراطور يقول بصوتٍ متهدِّج: «أيها السادة!»

وسادت الجموع رعشة، ثم ران صمتٌ عميق فسمع بيير بجلاء صوت ألكسندر العذب المتأثِّر يقول: «إنني لم أرتَبْ قط في غيرة الأشراف الروسيين، لكن هذه الغيرة اليوم فاقت ما كنت أنتظر. أشكركم باسم الوطن. لنعمل أيها السادة؛ فالوقت ثمين.»

صمت الإمبراطور فتألَّبت الجموع حوله، وراحت أصوات التعجُّب المجنونة تنطلق من كل مكان، وكان إيليا آندريئيفيتش يقول في الصفوف الخلفية وهو ينتحب، رغم أنه لم يسمع شيئًا، بل كان يفهم كل شيء على طريقته: «نعم، إنَّ أثمن ما في الأمر هو كلمة القيصر.»

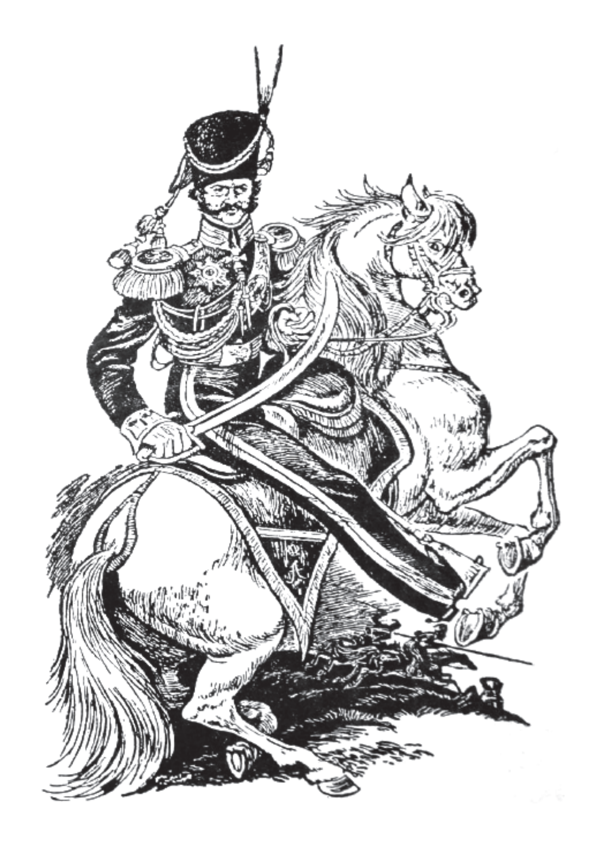
مضى الإمبراطور من قاعة الأشراف إلى قاعة التجار؛ حيث لبث قرابة عشر دقائق. ولقد رآه بيير ككثير غيره، وفي عينيه دموع التحنُّن. وكما نما إليهم فيما بعد، لم يكَد ألكسندر يشرع في خطابه إلى رجال التجارة حتَّى انبثقت الدموع من عينَيْه، فلم يفرغ من أقواله إلا بصوت لاهث، وكان اثنان من الحاضرين يرافقانه: أحدهما — وكان بيير يعرفه — تاجر مشروبات رُوحية كبير، والآخر، ذو وجه أصفر هزيل ولحية ضعيفة، كان نقيب التجار. وكان كلاهما يبكيان، وكانت عينا الهزيل مبلَّلة بالدموع، أما الآخر فكان ينتحب كالطفل ويكرِّر دون كلل: «خذ حياتي وثروتي يا صاحب الجلالة!»

باتت رغبة بيير الوحيدة الآن أن يُظهِر على الملأ أنه لا يأسف على أية تضحية، وأن يسخر من كل شيء آخر. كان يأسف لميوله التأسيسية التي أبداها في خطابه، وراح ينتهز الفرصة لإصلاح خطئه، ولمَّا علم أن الكونت مامونوف يقدِّم فوجًا كاملًا، أعلن من فوره للكونت روستوبتشين أنه يقدِّم ألف رجل ويتحمَّل مسئولياتهم.

لم يستطع روستوف العجوز أن يُمسك دموعه وهو يروي لزوجته كل ما حدث، وأذعن من فوره لإلحاح بيتيا، فذهب بنفسه يسجِّله في عداد المتطوِّعين.

وفي اليوم التالي، ذهب الإمبراطور وخلع كل أعضاء الجمعية أزياءهم الرسمية وعادوا إلى مألوف عاداتهم في بيوتهم وفي النادي، وراحوا يوعِزون إلى مديري أعمالهم بالأوامر المتعلِّقة بالتطوع في شيء من الهمهمة وهم في دهشة من أنفسهم لما بذلوه وعملوه.

الجزء الثاني



مورات (ملك نابولي).

الفصل الأول

تدابير مزعومة

لقد حارب نابليون روسيا؛ لأنه لم يستطع إلا أن يجيء إلى دريسد، ولأنه لم يتجنَّب الاستسلام لثمل المجد والعز وارتداء بزَّة بولونية، والإذعان لمفاتن صباح جميل من حزيران المثير، وكذلك لأنه لم يعرف قط كيف يخمد لحظات غضب في حضرة كوراكين ثم بالاشيف.

ولقد رفض ألكسندر كل مفاوضات؛ لأنه كان يظن أنه أُهين شخصيًّا، وكان باركلي دوتوللي يجتهد ليقود الجيش أفضل قيادة حتَّى يقوم بواجبه ويحصل على شهرة رئيس كبير. واندفع روستوف يهاجم الفرنسيين؛ لأنه لم يستطِع الصمود لرغبة الجري على الحصان في الأرض البراح. وهكذا كان يتصرَّف الأشخاص الذين لا يُحصر عددهم ممن ساهموا في الحرب؛ تبعًا لاستعداداتهم الشخصية وعاداتهم وشروط حياتهم أو مقدَّراتهم. كانوا يشعرون بالخوف، ويتباهون ويبتهجون ويسخطون ويناقشون ويعتقدون أنهم عارفون ما هم فاعلون، وأنهم إنما يفعلونه لحسابهم الخاص، في حين كانوا الأدوات الصمَّاء في يد التاريخ، يقومون بعمل يستغلق معناه عليهم؛ عمل نفهمه نحن الآن. كذلك هو مصير كل رجال العمل الذي لا يتبدَّل: إنهم أقل حرية كلما شغلوا منصبًا أكبر في التسلسل الاجتماعي.

اختفى صانعو أحداث ١٨١٢م منذ أمدٍ طويل، ولم تَعُد للمصالح التي جعلتهم ينشطون أي أثر، فلم تبقَ إلا النتائج التاريخية لتلك الحقبة من الزمن.

لكننا لو اعتبرنا أن سكان أوروبا كان عليهم أن يوغِلوا على عهد نابليون في قلب روسيا ليهلكوا فيها، فإن سلوك المساهمين في الحرب كلهم، ذلك السلوك المعاكس الجامد الوحشي، يصبح غير مفهوم لدينا.

كان القدر يُلجئ كل واحدٍ من أولئك الرجال إلى المساهمة بنفس الوقت الذي يتتبع فيه أهدافًا شخصية، في نتيجة واحدة هائلة، لم يكن لأحدهما، سواء كان نابليون أو ألكسندر — بل لم يكن لأيٍّ كان من الفاعلين — أية فكرة عنها.

إننا نرى اليوم بوضوح السبب الذي أدَّى إلى هلاك الجيش الفرنسي عام ١٨١٢م. ما من أحدٍ يناقض القول إن ذلك البلاء العظيم كان أولًا بسبب الدخول المتأخِّر إلى قلب روسيا دون استعدادات كافية لحملة شتوية؛ ومن ثم بسبب العقلية المتأثرة بالحرب التي دلَّت عليها حرائق المدن والمَوْجَدة المثارة في نفوس الشعب الروسي إزاء الغازي، ولكن ما من أحدٍ كان يستطيع حينذاك أن يتنبَّأ بما يبدو لنا اليوم بديهيًّا، خصوصًا إذا علمنا أنَّ هذه الأسباب وحدها كانت السبب في انهيار جيش قوامه ثمانمائة ألف رجل، وأنه كان أفضل جيش في العالم يقوده أعظم القُوَّاد، في وجه جيش أضعف مرتين منه، محروم من كل خبرة، يقوده جنرالات غير مجرَّبين كذلك. ليس فقط أنه ما من أحدٍ كان يستطيع تخمين ذلك، بل كذلك أنه بينما كانوا من الجانب الروسي يُحبِطون تلك التدابير الآيلة إلى إنقاذ روسيا بجهد وكأنهم يجدون متعة فيه، كانوا من الجانب الفرنسي كذلك رغم خبرة نابليون وعبقريته المزعومة، يبذلون أقصى الجهد للوصول إلى موسكو حوالي نهاية الصيف، أو بعبارة أخرى: يعملون ذاك الذي كان عليه أن يُسبِّب هلاكهم.

ففي المؤلَّفات التاريخية عن عام ١٨١٢م، يلحُّ الفرنسيون بمجاملة حول واقع نابليون، كان يشعر بخطر إطالة خَطِّه الحربي، وأنه كان يسعى إلى المعركة، وأن ماريشالاته كانوا يشيرون عليه بالتوقف في سمولنسك، وبالإيجاز، حول عدد من الحجج الرامية إلى الدلالة على أنهم كانوا يشعرون بالخطر. ومن جهةٍ ثانية، يؤكد المؤرخون الروسيون بأكثر مجاملة أيضًا وجود خطة «حرب يأجوجية» منذ البداية، غايتها استدراج نابليون إلى قلب روسيا، ويعزون هذه الخطة إلى بفويل تارة، وإلى تول تارةً أخرى؛ بعضهم يعزوها إلى فرنسي والبعض الآخر إلى ألكسندر نفسه، مستندين في ذلك إلى المذكِّرات والمشاريع والرسائل التي ورد فيها بالفعل تنويهات عن هذا النوع من التصرُّف. ولكن كل هذه التلميحات إلى استقراء ما كان سيقع سواء من الجانب الروسي أو من الجانب الفرنسي، لم تُستعرَض إلا في هذا الوقت؛ لأن الحدث نفسه قد أيَّدها. فلو أن ما وقع كان العكس، لنسيت هي الأخرى اليوم كما نسيت ألوف الفرضيات التي درجت حينذاك، والتي ثبت بطلانها. إن نتيجة كل حدث تبيح كثيرًا من الافتراضات، حتَّى إنك لن تعدم أشخاصًا يقولون مؤكدين: «لقد قلتُ هذا من قبلُ!» متناسين أنَّ بين هذه الافتراضات التي لا تُحصى وَقَعَ عدد آخر مما يناقض هذه كل التناقض.

لذلك فإن شعور نابليون بالخطر لتوسيع خَطِّه الحربي والخُطَّة المدروسة الرامية إلى استدراج العدو إلى قلب روسيا، إنما هما من هذا النوع من الفرضيات، ولا بدَّ وأن المؤرخين قد تجاوزوا الواقع كثيرًا ليستطيعوا أن يعزوا وجهة النظر تلك إلى نابليون، وتلك الخطة إلى الرؤساء الروسيين؛ لأن الوقائع كلها تعطي تكذيبًا واضحًا لهذه الافتراضات المجانية. لقد عمل الروسيون كل ما في وسعهم — بعيدًا عن فكرة استدراج الفرنسيين إلى جوف بلادهم — لتأخير العدو منذ أن شرع في التقدم. ونابليون، بعيدًا عن التخوُّف من امتداد خط القتال، كان يبتهج ابتهاجه بنصرٍ مبين بعد كل خطوة إلى الأمام، ولا يبحث عن المعركة إلا بتراخٍ خلافًا لحملاته السابقة.

لقد شُطِرت جيوشنا منذ بدء الحرب، فلم يكن همُّنا إلا جمعها، في حين أنَّ التقهقر واجتذاب العدوِّ إلى داخل البلاد لم يكن حلًّا يبشِّر بأية أهمية، وإذا كان الإمبراطور موجودًا حينذاك في صفوف الجيش فإنما كانت غايته لتشجيع قطعاته على الدفاع عن كل «بوصة» من الأرض، وليس ليرأس التقهقر، ولقد نظَّموا معسكر دريسا الهائل وفقًا لخطة بفويل، ليس للتقهقر، بل للصمود فيه. ولقد وجَّه ألكسندر اللوم إلى القائد الأعلى على كل خطوة إلى الوراء، ولم يكن حرق موسكو ولا هجر سمولنسك من الأشياء المقبولة، ولمَّا قامت الجيوش بحركة انضمام إلى بعضها سخط لرؤية هذه المدينة الأخيرة تسقط في أيدي العدو دون أن تدور تحت جدرانها معركة عامة.

والقُوَّاد العسكريون والشعب الروسي كله كانوا كالإمبراطور نفسه؛ محزونين حزنًا أليمًا لتقدُّم العدو.

ونابليون بعد أن شطر جيوشنا راح يتوغَّل إلى الأمام وهو يتحاشى مناسبات كثيرة للالتحام في معركة؛ ففي شهر آب كان في سمولنسك، فلم يفكر إلا في استمراره في الهجوم الذي، كما نراه الآن، أصبح قاضيًا عليه قضاءً مبرمًا.

إن الوقائع تثبت بشكل جازم أن نابليون ما كان يتوقَّع أي خطر في سيره باتجاه موسكو، وأن ألكسندر — بعيدًا عن تسهيل مثل هذه الحركة — راح مع جنرالاته يفكِّرون في وضع عائق لها، فالحادثة إذن وقعت ليست تبعًا لخطة ما؛ لأنه ما من أحد كان حتَّى يتوقَّع هذا الاحتمال، بل بفعل سلسلة شديدة التعقيد من الدسائس والأهواء والرغبات، كانت الخلاص الأوحد لروسيا، ولو أن صانعي الحرب لم يحدسوا ما كان سيقع تبعًا لها، لقد وقع كلٌّ على حين غِرَّة. كانت جيوشنا مشطورة منذ بدء الحملة، فحاولنا جهدنا أن نجمعها ونحن نرمي من وراء ذلك بديهيًّا إلى الدخول في معركة وإيقاف العدو. وفي

سياق هذه المحاولة، وبينما نحن نتحاشى لقاء قوات أوفر منا عددًا، قدنا الفرنسيين إلى سمولنسك ونحن نتراجع رغمًا عنا على زاوية حادة، ولكن لا يكفي القول إننا نتراجع مشكِّلين زاوية حادَّة؛ لأن الفرنسيين شكَّلوا زاوية بين الجيشين؛ فأصبحت الزاوية أكثر ضيقًا، ونشطنا في التقهقر؛ لأن باركلي دوتوللي، ذلك الغريب معدوم الشعبية، كان مكروهًا من باجراسيون قائد الجيش الثاني الذي يجب أن يكون مرءوسًا له، والذي يؤخِّر الالتقاء مع جيشه بقدر ما يستطيع كيلا يكون تحت أمره. وإذا كان باجراسيون قد رفض طويلًا القيام بتلك الحركة وهي الغاية الرئيسية ككل قواد الجيوش، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى تعريض جيشه للخطر ولا ريب؛ ولأنه يفضِّل أن يتراجع أكثر فأكثر إلى اليسار وإلى الجنوب، مشكِّلًا خطرًا على جناح جيش العدو ليتمِّم جيشه في أوكرانيا، ولكن يبدو كذلك أنه عمد إلى هذا التدبير؛ كي يتجنَّب مرءوسيته لباركلي الغريب الذي يعتبر هو أقدم منه في الرتبة، وهو الأمر الذي ما كان يحتمله.

والإمبراطور موجود في الجيش ليُذكي الحماس بوجوده، لكن ذلك الوجود نفسه وذلك التردد في اتخاذ القرارات وعدد المستشارين والخطط الكبيرة، عكست قصد القوة الهجومية الكامنة في الجيش الأول وأرغمتها على التراجع.

لقد عزموا على التوقف في معسكر دريسا، لكن بولوكشي الذي كان يهدف إلى القيادة العليا استعمل نفوذه على ألكسندر، فأُهملت خطة بفويل كلها، وعُهد بكل شيء إلى باركلي. ولما كان هذا لا يوحي بثقة، فقد حدُّوا رغم ذلك من صلاحياته. إنَّ الجيوش قد جُزِّئت إذن، فلا وحدة قيادة ولا شعبية لباركلي. ومن هذه الفوضى، ومن هذا التجزؤ، ومن عدم شعبية القائد الأعلى الأجنبي هذه، نجم التردُّد من جهة، والامتناع عن خوض معركة ما كان يمكن الامتناع عنها لو أنَّ الجيوش كانت موحَّدة ولم يكن باجراسيون يقود جيشًا منها، ومن جهة ثانية، السخط المتزايد ضد الغرباء ويقظة الشعور الوطني.

وأخيرًا ترك الإمبراطور الجيش فلا يُرى لهذا الرحيل إلا تفسير واحد مقبول: ضرورة إثارة حماس العاصمتين لاحتمال خوض حرب قومية، فضاعف هذا الرحيل إلى موسكو قوات الجيش الروسي إلى ثلاثة أمثالها.

ترك الإمبراطور الجيش ليترك كل الحرية للقائد الأعلى، فليتوقَّع حينذاك صدور قرارات أكثر حزمًا، في حين أن العكس كان، لقد تعقَّد موقف القائد وازداد ضعفًا. لقد ظل بينيجسن والغراندوق وثَوْل كبير من المساعدين العسكريين في الجيش بقصد المراقبة والتعريض بالقائد الأعلى، فيضاعِف باركلي تعقُّله ويتحاشى المعركة وهو يشعر بحريته في العمل آخذةً بالتناقص تحت مراقبة كل هذا العدد من «عيون الإمبراطور».

وبينما باركلي متخذًا حذره، يتحدَّث التسيزاريفيتش عن خيانة ويطالب بمعركة عامة، وينضم لوبوميرسكي وبروَّنيكي وولوكي وعدد آخر إلى صفِّه، ويجسِّمون هذه الشائعة حتى إن باركلي — متذرِّعًا بحجَّة إرسال وثائق إلى الإمبراطور — اضطر إلى ترحيل المساعدين العسكريين البولونيين إلى بيترسبورج والدخول في نضالٍ سافر ضد بينيجسن والغراندوق.

وأخيرًا في سمولنسك، رغم عدم تعجُّل باجراسيون، تقوم الجيوش بحركة الالتقاء.

يصل باجراسيون إلى مسكن باركلي في عربة، فيندفع هذا للقائد متدثرًا بوشاحه، ويقدِّم إليه تقريره كما يفعل مع من أقدم منه رتبة. ويُظهر باجراسيون شهامة عالية بتقبُّله رئاسة باركلي، لكنه بذلك يزداد في الاختلاف معه. إنه يوجِّه تقاريره مباشرة إلى الإمبراطور كما أمره هذا أن يفعل ويكتب إلى آراكتشييف قائلًا: «إنني رغم رغبة جلالته، يستحيل عليَّ الاتفاق مع «الوزير» (باركلي). أرسِلني بحق السماء إلى مكان ما، حتَّى ولو لقيادة فوج، لكنني لا أستطيع البقاء هنا … إن القيادة العليا كلها مملوءة بالألمان، لدرجة أن الروسي لا يمكنه أن يعيش فيها وأنها فوضى حقيقية، كنت أظن أنني أخدم الإمبراطور والوطن، لكنني في الواقع إنما أخدم باركلي؛ لذلك أعترف لك أنني أرفض هذه الخدمة.» وينشط ثول برونيكي ووينتزبخيرود وآخرين في تسميم العلاقات بين الجنرالين أكثر فأكثر، فتصبح وحدة القيادة مجرد مظهر، وتقوم الاستعدادات لمهاجمة الفرنسيين أمام سمولنسك، فيُرسَل جنرالٌ لدراسة الموقف، ولما كان هذا الجنرال من الحاقدين على باركلي، فإنه يمضي لزيارة قائد من جناح أصدقائه، فيمضي النهار عنده. وعند أوبته يندفع في نقد ساحة معركة لم يرَها قط.

وبينما هم يدسون ويناقشون حول ساحة المعركة المقبلة هذه، وبينما هم يبحثون عن الفرنسيين ويخطئون في تحديد مواقعهم على الضبط، يصطدم العدو بجيش نيفييروفسكي ويقترب من جدران سمولنسك نفسها.

ولقد اضطررنا إلى خوض المعركة في سمولنسك لنمحي خطوط اتصالنا؛ فسقط من الجانبين ألوف من الرجال.

وهُجرت سمولنسك برغبة الإمبراطور والشعب أجمع، لكن المدينة أُحرقت من قِبل السكان أنفسهم الذين خدعهم حاكم مدينتهم، وذهب هؤلاء المنكوبون إلى موسكو، فأضحوا مثالًا للروسيين الآخرين وهم لا يفكِّرون إلا في الخسائر التي لحقت بهم، وفي إذكاء الموجدة على العدو. ويتابع هذا تقدُّمه فنتابع تقهقرنا، وهكذا دارت الأمور دورتها القاضية على نابليون.

الفصل الثاني

صفح الأمير العجوز

استدعى الأميرُ نيكولا آندريئيفيتش الأميرةَ ماري غداةَ يوم رحيل ابنه. قال لها: «حسنًا! أنتِ سعيدة الآن. لقد خاصمتِني مع ولدي! هذا ما كنتِ تريدينه تمامًا. ها أنتِ سعيدة الآن! ... بينما ذلك يؤلمني، ذلك يؤلمني كثيرًا. إنني عجوز وضعيف ... أما أنتِ، فقد نلتِ ما كنت تشتهين ... هيا، قَرِّي عينًا، قَرِّي عينًا ...»

ثم لم ترَ ماري أباها طيلة الأسبوع؛ إذ كان مريضًا لا يخرج من مكتبه. ولدهشة ماري العظيمة، لم يكن يستقبل الآنسة بوريين ولا يتقبَّل خدمات تيخون.

وفي غضون ثمانية أيام، عاد إلى مألوف عاداته تستفزُّه حمَّى الإنشاء والغرس، لكنه لم يستعِد علاقاته مع الآنسة بوريين. وكانت أماراته ولهجته الباردة التي يخاطب ابنته بها أشبه بالقول: «هل ترين؟ لقد رويتِ لأخيك الأكاذيب حول علاقاتي مع هذه الفرنسية وخاصمتِني معه مع أنكِ ترين أنني لست في حاجة إليكِ ولا إلى الفرنسية.»

كانت ماري تقضي نصف يومها قرب نيكولا الصغير تُراقب تثقيفه وتعطيه بنفسها دروسًا بالروسية والموسيقى، وتتباحث مع ديسال. أما بقية وقتها، فكانت تمضيه بالقراءة أو بمحادثات مع المربية العجوز و«رجال الله» الذين كانوا أحيانًا يغامرون بالمجيء إلى مدخل الخدم لرؤيتها.

كانت تفكر في الحرب ما يدور في تفكير النساء، وكانت تخشاها من أجل أخيها الذي يساهم فيها، وتلعن، دون أن تتوصل إلى فهمها، قسوةَ الرجال التي تجرُّهم إلى التذابح. لكنها ما كانت تعرف أهمية الحملة التي لم تكن تبدو في نظرها مختلفة عن الحملات الأخرى. مع ذلك، فإن ديسال، محدثها المألوف، الذي كان يتابع سير العمليات باهتمام كبير، كان يحاول أن يفتح عينيها، وكذلك «رجال الله» كانوا — كلٌّ وعلى طريقته — يفسرون في حضرتها الشائعات الرائجة بين الشعب حول مجيء المسيح الدجَّال، وأخيرًا

جولي، التي استعادت اتصالها الخطي معها منذ زواجها، كانت ترسل إليها من موسكو مراسلات مطبوعة بوطنية مضطرمة. كانت تنبئها:

> إنني أكتب إليك يا صديقتي الطيبة بالروسية؛ لأنني بدأت أحقد على كل الفرنسيين حقدي على لغتهم التي ما عدتُ أطيق سماعها … إننا جميعًا في موسكو شعلة حماس في سبيل إمبراطورنا المعبود.
>
> إن زوجي المسكين يحتمل الجوع وكل أنواع المزعجات في مختلف الخانات اليهودية القذرة، لكن الأنباء التي أملكها لا تعمل إلا على زيادة حماسنا.
>
> لا بدَّ وأنك علمت بصنيع راييفسكي البطولي الذي عانق ولديه وقال لهما: «سأموت معهم، لكننا لن نتراجع!» وهكذا كان. فعلى الرغم من أن العدو كان ضعفَي قوتنا، فإننا لن ننثني، إننا نقضي الوقت كما نستطيع، ولكن في الحرب نمضيه كما تتطلَّب الحرب! إنَّ الأميرة آلين وصوفي تكرِّسان من أجلي أيامًا بطولها. إننا ونحن أرامل أزواج أحياء، نتحادث في موضوعات جميلة ونحن نشتغل بالنسيل ولا ينقصنا إلا أنتِ يا صديقتي …

وإذا كانت أهمية هذه الحرب تغيب عن ماري، فما ذلك إلا لأن الأمير العجوز ما كان يتحدث عنها أبدًا، متظاهرًا بأنه يجهلها، مستهزئًا بديسال كلما أدار هذا الحديث نحو هذا الموضوع على المائدة، وكانت لهجته بالغة الهدوء والثقة، حتى إن ماري ما كانت تحاول التعمق في الأمور.

بدا الأمير شديد النشاط خلال شهر تموز كله، بل وجم المشاغل، أَمَرَ بتخطيط حديقة جديدة وجناح إضافي مخصص للخدم، بَيد أن ماري لاحظت بقلق أنه ينام قليلًا، وأنه خلافًا لعاداته كان يبدِّل كل ليلة الغرفة التي يأوي إليها. كان حينًا يأمر بنصب سرير الميدان الذي ينام عليه في الرواق، وينام حينًا آخر بثيابه كاملة على أريكة البهو أو على مقعد من طراز فولتير، ولم تعد الآنسة بوريين هي التي تقرأ له، بل الخادم الصغير بيتروشكا الذي يقوم بهذه المهمة، وكان أحيانًا يقضي الليل في قاعة الطعام.

وصلت في الأول من آب رسالة ثانية من الأمير آندريه، كان في الأولى التي وصلت بعد ذهابه بوقتٍ قصير، يطلب بخشوعٍ صفحَ أبيه عما سمح لنفسه بقوله له، ويرجوه أن يرضى عنه؛ فأجابه الأمير العجوز بتودُّد، ولم يلبث أن تباعد عن الفرنسية. أمَّا الرسالة الثانية التي كُتبت في ضواحي فيتيبسك بعد احتلال تلك المدينة، فقد كانت تحوي على

وصف قصير للمعركة مع مخطط بياني وبعض الآراء حول توسيع العمليات المقبلة. كان آندريه يلفت أنظار أبيه إلى ما في مستقره الحالي من موانع، بوصفه واقعًا على مقربة من مسرح الحرب، وعلى خط مسير الجيوش، ويشير عليه بالذهاب إلى موسكو.

وفي ذلك اليوم بالذات، أخطره ديسال خلال وقت الطعام أنه تبعًا للشائعات الرائجة؛ أصبحت فيتيبسك يحتلها الفرنسيون، وحينئذٍ تذكَّر الأمير رسالة ابنه. قال لماري: «لقد تلقَّيت منذ حين رسالة من الأمير آندريه. ألم تقرأيها؟»

أجابت وهي شديدة الجزع: «كلا يا أبي.»

وفي الواقع كيف يتسنَّى لها قراءة هذه الرسالة وهي التي لم تعلم بوصولها؟

قال الأمير بتلك الابتسامة المحتقرة التي باتت مألوفة لديه كلما تكلَّم حول هذا الموضوع: «إنه يتكلَّم عن هذه الحرب.»

فقال ديسال: «لا ريب أنها شديدة الأهمية، لا بدَّ وأن الأمير قادر على معرفة الحقيقة وهو في مركزه ...»

وأعقبت الآنسة بوريين مؤيدة: «نعم، نعم، شديدة الأهمية.»

قال الأمير لهذه: «اذهبي وجيئيني بها، إنكِ تعرفين، على النضد تحت المثقلة.»

كادت الآنسة بوريين أن تندفع لتنفيذ رغبته وقد استخفَّها الفرح، لكن الأمير اكفهرَّ وجهه فجأةً وهتف: «كلا، كلا. اذهب أنت يا ميخائيل إيفانوفيتش.»

نهض ميخائيل إيفانوفيتش وذهب إلى المكتب، فلم يكَد يدخله حتَّى كان الأمير العجوز يدير حوله نظرات قلقة، ثم يلقي بمنشفته ويتبعه.

– «إن هؤلاء الناس لا يعرفون عمل شيء. لسوف يفسد كل شيء.»

وبينما هو يخرج راح ديسال والأمير والآنسة بوريين ونيكولا الصغير يتبادلون النظر دون أن ينطقوا بكلمة. عاد بخُطى متلاحقة يصحبه نيكولا إيفانوفيتش ومعه الرسالة والمخطَّط، فوضعها جانبًا ولم يسلِّمها إلى أحد قبل الانتهاء من الطعام.

ولَّما انتقلوا إلى البهو قدَّم الرسالة إلى ماري، ورجاها أن تقرأها بصوتٍ عالٍ، في حين راح ينشر أمامه مخطَّط بنائه الجديد. وبعد أن قرأت ماري الرسالة سألت أباها بنظرة: كانت عينا الأمير العجوز شاخصتين إلى المخطط أمامه وكأنه مستغرق في تأمُّلاته.

سمح ديسال لنفسه بالسؤال: «ما رأيك في كل هذا يا أمير؟»

أجاب دون أن يرفع عينيه وكأنه يستفيق من حلم: «أنا، أنا؟»

– «من الجائز أن يقترب ميدان المعركة منا ...»

فقال الأمير: «ها! ها! مسرح الحرب! لقد قلت وأكرِّر إن مسرح الحرب هو بولونيا، وإن العدو لن يتوغَّل أبدًا إلى الأمام أكثر من النييمن.»

نظر إليه ديسال بذهول؛ إنه يتكلَّم عن النييمن في حين أن العدو بلغ الدنيبر، لكن ماري التي نسيت موقع هذا النهر الجغرافي الصحيح أيَّدت أقوال أبيها مؤمِّنة.

أضاف وهو يفكر بلا ريب في حملة عام ١٨٠٧م التي كانت في نظره قريبة جدًّا: «عند ذوبان الثلوج سوف يغرقون كلهم في مستنقعات بولونيا. إن ما لا يستطيعون رؤيته هو أن بينيجسن كان عليه أن يدخل إلى بروسيا بسرعة، وحينئذٍ كانت الأمور ستأخذ شكلًا آخر.»

اعترض ديسال بفزع: «ولكن يا أمير، إن الرسالة تتحدث عن فيتيبسك ...»

زمجر: «الرسالة؟ ... آه! نعم ... نعم ... نعم ...»

وفجأة اربدَّ وجهه ثم أعلن بعد فترة صمت: «نعم، إنه يقول إن الفرنسيين قد هُزموا، قرب أي نهر كان؟»

خفض ديسال عينيه وقال بلطف: «لم يكتب الأمير شيئًا من هذا القبيل.»

– «كيف لم يكتب شيئًا من هذا القبيل؟ هل ابتكرته أنا؟»

صمتوا جميعًا فترة طويلة، وفجأة استأنف الأمير مشيرًا إلى المخطَّط وقد رفع رأسه: «نعم ... نعم ... هيا يا ميخائيل إيفانوفيتش، قل لي كيف تريد أن تشرع في التجديد ...»

اقترب ميخائيل إيفانوفيتش، وبعد أن تحادث الأمير معه حول البناء، ألقى نظرة غاضبة على ماري وديسال ثم انسحب.

لاحظت الأميرة ماري صمت ديسال المرتبك والطريقة التي نظر بها إلى أبيها، ولقد ذُهلت؛ إذ رأت أن هذا قد نسي على المائدة رسالة الأمير آندريه، لكنها لم تجرؤ على سؤال المدرس عن أسباب سكوته وتشوُّشه؛ لأنها كانت تخشى التفكير في هذه الأمور.

وحوالي المساء، جاء ميخائيل إيفانوفيتش يسأله عن الرسالة موفَدًا من قِبل الأمير، فأعطتها له ماري وسألته رغم ارتباكها عما كان يعمله أبوها.

أجاب المهندس بابتسامة شَحَبَ وجه ماري للسخرية الكامنة فيها وراء مظاهر الاحترام: «إنه كعادته يزعج نفسه كثيرًا، إنَّ البناء الجديد يسبِّب له متاعب جديدة.»

وأضاف ميخائيل إيفانوفيتش وهو يخافت من صوته: «لقد قرأ فترة، وهو الآن وراء مكتبه يعمل في وصيته بلا ريب.»

سألت ماري: «يبدو أنه يرسل ألباتيتش إلى سمولنسك.»

– «نعم. وألباتيتش ينتظر أوامر الأمير منذ وقت طويل.»

الفصل الثالث

ذكريات كاتيرين

عندما عاد ميخائيل إيفانوفيتش بالرسالة، وجد الأمير جالسًا أمام مكتبه المفتوح ونظارتاه فوق أنفه، وعلى جبينه عاكس نور، كان يقرأ أوراقًا في يده على ضوء الشموع بوضع مسرحي تقريبًا، وقد جعلها بعيدة عن عينيه بمسافة ما، وكانت تلك الأوراق هي «ملاحظاته» — كما كان يدعوها — التي يجب تسليمها إلى الإمبراطور بعد موته، وكانت عيناه تنديان بالدموع لذكرى الوقت الذي كتب فيه ما يقرؤه الآن.

أخذ الأمير بالرسالة فوضعها في جيبه، ونظَّم أوراقه، ثم استدعى ألباتيتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل.

كان قد دوَّن على وُريقة الأشياءَ التي يجب شراؤها من سمولنسك؛ فراح وهو يذرع الغرفة يلقي بأوامره إلى ألباتيتش المسمَّر على العتبة.

– «أولًا ورقًا للرسائل، هل تسمع؟ مئتي ورقة وإليك نوعها: مذهَّبة عند أطرافها، مماثلة للأنموذج تمامًا. ثم طلاءً وشمعًا للختم حسب ملاحظة ميخائيل إيفانوفيتش.»

استشار المذكرة وهو في تسياره: «ثم تقدِّم بنفسك إلى الحاكم الرسالةَ المتعلقة بمذكراتي.»

كان يجب كذلك أن يُحضِر مزاليج لأبواب البناء الجديد مطابقة للنموذج الذي ابتكره الأمير تمامًا، ثم محفظة خاصة ليضع فيها وصيَّته.

استمرت المقابلة أكثر من ساعتين دون أن يترك الأمير ألباتيتش يرحل، وأخيرًا جلس واستغرق في أفكاره وأغمض عينيه واستسلم للنُّعاس، وحينئذٍ قام ألباتيتش بحركة.

– «هيا، يمكنك أن تذهب، وإذا كنت لا أزال أحتاج إلى شيء أبلغك ما أريد.»

خرج ألباتيتش فعاد الأمير إلى مكتبه ليلقي عليه نظرة أخيرة، ثم أغلقه وجلس إلى طاولته حيث راح يكتب إلى الحاكم.

كان الوقت متأخِّرًا عندما نهض بعد أن ختم رسالته. كان يتوق إلى النوم، لكنه كان يعرف أنه لن يستطيع النوم، وأن الأفكار الأشد سوادًا تحاصره وهو في السرير. استدعى تيخون، وتجوَّل معه في حجرات كثيرة بحثًا عن مكان ينصب فيه سريره، فكان يأخذ قياس كل زاوية.

لم يعجبه مكان. كان يشعر بفتور شديد من فِراشه القديم بسبب نوبات الأرق القاسية التي أصيب بها وهو راقد عليه، قرَّر أخيرًا قبول ركن من مخدع وراء المعزف، وهو مكان لم ينَم فيه من قبل.

جاء تيخون بالسرير يساعده خادم المائدة؛ فأقاماه هناك. صرخ الأمير وهو يبعد سريره بضعة أصابع ليعيده من فوره إلى حيث كان.

– «ليس هكذا، ليس هكذا!»

حدَّث نفسه وهو يترك أمر نزع ثيابه لتيخون: «هيا، لقد سُوِّي كل شيء الآن، لسوف أستطيع أن أنام.»

اقتضاه المجهود الذي أبداه لخلع «قفطانه» وسراويله أن يعجو وجهه، وأخيرًا تهالك بتثاقل على السرير وألقى على ساقَيْه الهزيلتين الصغراوين نظرة احتقار. بدا كأنه يفكر، لكنه كان في الحقيقة يتردَّد في رفع ساقَيْه والاستلقاء على سريره فحسب، كان يحدِّث نفسه: «أوه! كم هذا منصب! أوه! لو أن كل هذه المنغِّصات تنتهي بسرعة! لو «أنكم» تستطيعون أن تتركوني أذهب!» وللمرة العشرين ألفًا في حياته تقريبًا قام بالمجهود المطلوب وهو يصرف على أسنانه. لكنه ما كاد يستلقي حتَّى راح سريره يتماوج ويتأرجح. كذلك كان الحال كل ليلة تقريبًا. عاد ففتح عينيه نصف المغمضتين.

زمجر يخاطب مضطهديه الوهميين: «ألن تتركوني أنام أيها الملاعين؟! ... ولكن ماذا؟ لقد احتفظت بشيء ما مهم لأفكر فيه في السرير، شيء مهم جدًّا، المزاليج؟ كلا، لقد فكرت فيها ... إن الموضوع يتعلق بشيء وقع في البهو ... هل هو هذيان ماري؟ أم هو هذر هذا التافه ديسال؟ شيء ما في جيبي؟ لم أعد أتذكَّر ... تيخون، عن أي شيء تكلموا على المائدة؟»

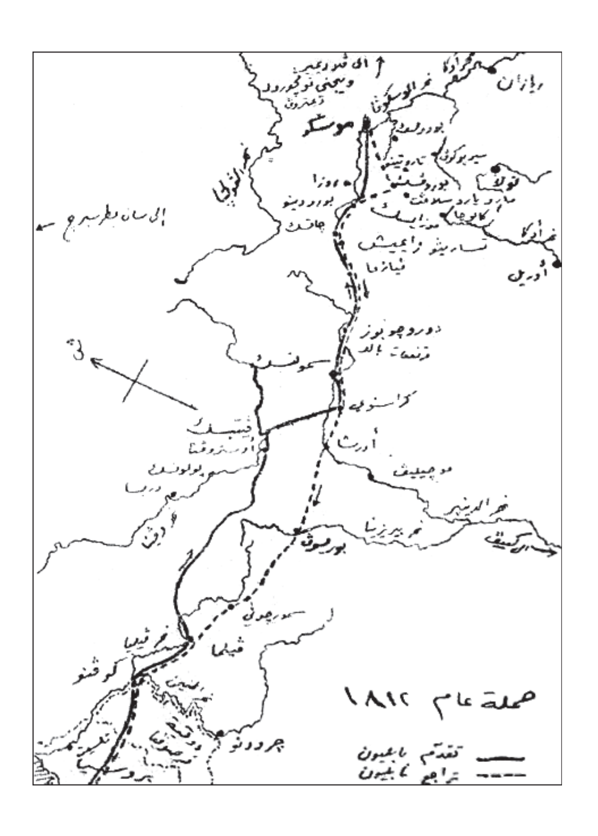
– «عن الأمير ميخائيل ...»

صرخ الأمير وهو يضرب المائدة بكفِّ يده: «اصمت، اصمت. لقد وجدتها! رسالة الأمير آندريه، لقد قرأتها ماري علينا، وروى ديسال ما لست أدري عن فيتيبسك. يجب أن أقرأها الآن.»

أَمَرَ أن تُعطى إليه الرسالة، وقرَّب النضد الذي كان كأس الليمون عليه إلى جانب شمعة على هدب حلزوني، ثم أحكم نظارتَيْه وشرع يقرأ، وحينئذٍ فقط، في هدأة الليل وتحت النور الضعيف الذي كان يعكسه عاكس أخضر، أدرك فجأةً أهمية الأنباء التي تحملها الرسالة.

– «إن الفرنسيين في فيتيبسك وهم يستطيعون أن يكونوا في سمولنسك في أربع مراحل، بل ولعلهم هناك الآن! تيخون!»

وانتصب تيخون منتفضًا: «كلا، لا جدوى ...»



دسَّ الأمير الرسالة تحت الشمعدان، وأغلق عينيه. شاهد أمامه الدانوب ظُهر يوم مشعٍّ والقصب والمعسكر الروسي ونفسه، وهو جنرال شاب حينذاك، دون غضن، متيقِّظ

بهيج النفس نضر، يدخل في خيمة باتيومكين[1] المرقَّشة، وفجأةً استبدَّ به شعور بالغيرة من ذلك المفضَّل كاوٍ ومحتدم كما كان حينذاك. تذكَّر الكلمات التي تبادلاها أثناء تلك المقابلة، وفجأة، انبعثت في ذاكراته، امرأة قصيرة القامة قوية ممتلئة الوجنتين صفراء اللون، هي أمنا الإمبراطورة، ومثلت أمام عينيه: إنه يراها من جديد وهي تبتسم له، ويسمعها من جديد توجِّه إليه كلمات ترحيب لطيفة، ثم راح يتذكَّر ذلك الوجه نفسه على النعش المزيَّن والجدال الذي وقع بينه وبين زوبوف[2] حول حق تقبيل يد الإمبراطورة.

– «آه! ليتني أستطيع العودة إلى ذلك الوقت، ليت الحاضر يمكن اختفاؤه بأقصى سرعة، ولَيْتهم فقط يدعونني بسلام!»

---

[1] جريجوار ألكسندروفيتش باتيومكين: فيلد ماريشال روسي، وُلد عام ١٧٣٦م قرب سمولنسك، وتُوفِّي عام ١٧٩١م، وكان واحدًا من المقربين المفضلين لدى كاتيرين الثانية إمبراطورة روسيا.

[2] الأمير زوبوف: آخر المفضَّلين لدى كاتيرين الثانية، وُلد عام ١٧٦٧م، وتُوفي عام ١٨٢٢م، وساهم في الانقلاب وفي موت بول الأول إمبراطور روسيا حينذاك.

الفصل الرابع

استسلام سمولنسك

كانت ليسيا جوري واقعة على مسافة خمسة عشر ميلًا وراء سمولنسك وثلاثة أرباع الميل عن طريق موسكو.

مساء ذلك اليوم الذي أعطى فيه الأمير تعليماته إلى ألباتيتش سأل ديسال الأميرة ماري أن تمنحه مقابلةً عرض عليها خلالها أنَّ صحة الأميرة لا تسمح له بأن يتخذ التدابير لأمنهم، كما وأن رسالة الأمير آندريه من جهة ثانية تلمِّح إلى أن البقاء في ليسيا جوري يشكِّل خطرًا ما. وطلب إليها باحترام أن يستفسر لدى حاكم المقاطعة عن الموقف الحقيقي وعن الخطر الذي يتعرَّضون له ببقائهم في الريف. ولقد كتب ديسال الرسالة التي وقَّعتها ماري وأعطيت إلى ألباتيتش مشفوعة بأمر تسليمها إلى الحاكم بالذات، والعودة بأسرع ما يمكن إذا اقتضت الضرورة الإسراع.

راح ألباتيتش وعلى رأسه قبعة من جلد كلب الماء كانت هدية من سيدة، وبيده عصا، على غرار الأمير كلما أراد الخروج، يستعد مع نفر من العاملين في البيت لركوب عربة صغيرة ذات غطاء من الجلد يجرُّها ثلاثة جياد أقوياء.

ولقد ربطوا الجريس ولفُّوا الجلاجل بالورق؛ لأن الأمير ما كان يسمح لأحدٍ باستعمالها في أراضيه، وكان ألباتيتش يحب سماع أصواتها كلما ذهب برحلة طويلة، وكان مقرَّبوه: المحاسب والكاتب والطاهية ومساعدها وامرأتان عجوزان والقوقازي الصغير وسائقو العربة وبعض الخدم الآخرين، يرافقونه.

ووضعت ابنته على مقعدها ومسنده وسائدَ مختلفة ودسَّت أخت زوجه العجوز بينها رزمة خلسة، بينما ساعدها أحد السائقين على الصعود وهو يرفعها من تحت إبطها.

زمجر ألباتيتش وهو يقلِّد لهجة سيده: «آه! آه من استعدادات النساء! آه! النساء، النساء!»

ثم اتخذ مكانه في العربة وهو ينفخ ويزمجر.

وبعد أن أرشد رئيس المكتب كما يجب إلى موضوع الأعمال الدارجة، نزع ألباتيتش قبعته عن رأسه الأصلع، ودون أن يقلِّد سيده هذه المرة رسم على صدره إشارة الصليب ثلاثًا.

هتفت به زوجته وهي قلقة من الشائعات الرائجة حول اقتراب العدو: «إذا وقع شيءٌ ما ... ستعودون فورًا، أليس كذلك يا أياكوف ألباتيتش؟ ... بحق السماء أشفق علينا.»

غمغم ألباتيتش بينما راحت العربة تدرج: «آه! النساء! إن المرء لا ينتهي أبدًا معهن.»

أخذ طوال الطريق يمنع الطرف تارة بالشيلم الآخذ بالنضوج، وطورًا بالخرطال الأخضر الكثيف، وبالحقول التي لا زالت سوداء لم تفلح إلا للمرة الثانية تارةً أخرى. كان يتأمَّل موسم حنطة الربيع المقبل، ويمعن النظر في خطوط الشيلم الذي حصد بعضه هنا وهناك، ويبدي ملاحظاته حول البذار والمواسم المقبلة، ويتساءل عما إذا لم ينسَ مطلبًا لسيده.

وبعد أن علف خيوله مرتين في الطريق، وصل إلى المدينة مساء الرابع من آب.

كان قد تجاوز في طريقه بعض القوافل والقطعات، فلما اقترب من سمولنسك سمع طلقات بعيدة، لكنه لم يلقِ إليها بالًا. بيد أن ما أدهشه أكثر فأكثر كان رؤيته حقلًا بديعًا من الخرطال كان الجنود يعسكرون فيه ويحصدون زروعه لإطعام خيولهم ولا ريب. على أية حال لقد كانت مهمته تشغل جلَّ تفكيره؛ مما لم يجعله يتوقف عند هذه البادرة متأمِّلًا. كان ألباتيتش منذ ثلاثين عامًا لا يعرف إلا إرادة الأمير، فلم يكن أُفقه ليمتدَّ إلى أبعد من تلك الإرادة، فكان كل ما ليس له علاقة بتنفيذ أوامر سيده لا يثير اهتمامه، بل إنه ما كان موجودًا أصلًا بالنسبة إليه.

ذهب ألباتيتش تبعًا لعادة أصبحت ثلاثينية، ينام في ضاحية جاتشا على الجانب الآخر من الدنيبر في خان يديره من يُدعى فيرابونتوف. قبل ثلاثين عامًا مضت اشترى فيرابونتوف هذا — تبعًا لمشورة ألباتيتش — أخشابًا من الأمير راح يتَّجر بها، فأصبح يمتلك الآن بيتًا وخانًا ومخزنًا لبيع الدقيق، وكان رجلًا ضخم الجسم أحمر الوجه في نحو الخمسين من عمره ذا شعر أسود وشفتين غليظتين وأنف كأنه قطعة من البطاطا وحدبتين فوق حاجبَيْه الكثيفين الأشعثين وبطن عظيم.

كان ذلك المساء في دكانه يرتدي صدرة فوق ذراعَيْه من قماش هندي؛ فلمَّا شاهد ألباتيتش تقدَّم لاستقباله وقال له: «أهلًا وسهلًا بأياكوف ألباتيتش. إن الناس يغادرون المدينة بينما أنت تدخلها.»

– «يغادرونها؟ لماذا؟»

– «لسخفهم، ماذا؟! إنهم جميعًا خائفون من الفرنسيين.»

– «تُرَّهات نساء مسنَّات!»

– «وهذا ما أظنه يا أياكوف ألباتيتش، طالما أن الأمر ينص على عدم السماح لهم بالدخول، فليس هناك ما يخيف، أليس كذلك؟ ... وها إن جماعتنا يندفعون في طلب ثلاثة روبلات لقاء العربة العادية، هؤلاء الملحدين، إنهم لا يخجلون!»

كان أياكوف ألباتيتش يصغي إليه بأُذنٍ ساهمة. طلب سماورًا وعلفًا لخيوله، وبعد أن شرب الشاي أوى إلى سريره.

ظلَّت قطعاتٌ تمر أمام الخان طيلة الليل. وفي الصباح، ارتدى ألباتيتش ثياب المدينة ومضى إلى أعماله، وكان الصباح مشمسًا والحرارة مرتفعة في الثامنة صباحًا. حدَّث ألباتيتش نفسه: «طقس جميل جدًّا للحصاد.»

تناهت إلى الأسماع طلقات بنادق كثيرة اتَّحد معها منذ الساعة الثامنة قصف المدفعية، وكانت الشوارع مليئة بالجنود والناس في حمى العجلة، لكن العربات كانت كعادتها تسير في الشوارع والدكاكين مفتوحة والقُدَّاس يُقام في الكنائس، دخل ألباتيتش إلى بعض الدكاكين والمكاتب، ومضى إلى إدارة البريد فكانوا يتحدثون عن الحرب وعن العدو الذي يهاجم المدينة، والناس كلهم يتساءلون عما يجب عمله، وكلٌّ يحاول بعث الطمأنينة في نفس جاره.

اصطدم ألباتيتش أمام مقر الحاكم بعدد كبير من الناس، وكانت فرقة من القوقازيين تحيط بعربة سفر ذلك الموظف الكبير. وعلى المرقاة التقى باثنين من أثرياء الريف؛ كان أحدهما — وقد عرف فيه ألباتيتش رئيس بوليس منطقتهم سابقًا — يتكلم بحرارة.

– «لم يعد الموضوع يحتمل المزاح يا رجل! إن الأمر أكثر يسرًا بالنسبة إلى من ليس لديه إلا نفسه ينقذها؛ فلو حطَّ البلاء عليه لَمَا تألَّم أحدٌ غيره، ولكن عندما يكون لدى المرء ثلاثة عشر شخصًا هم أعضاء أسرته، ويتوجب عليه كذلك أن ينقذ ما يستطيع إنقاذه! ... هل سمع الناس برؤساء مماثلين؟ لقد اتخذوا احتياطاتهم بكل دقة، حتَّى إننا قُضي علينا جميعًا ... كان يجب شنقهم هؤلاء الآثمين!»

وكان الآخر يقول: «هيا، هيا، استكن!»

– «إيه! ليسمعني من يشاء، لست أبالي! إننا لسنا كلابًا على أية حال!»

كان رئيس الشرطة السابق يتفوَّه بهذه الكلمات مستغرِبًا، وبينما هو يلتفت شاهد ألباتيتش فهتف: «آه ياه! أياكوف ألباتيتش! ماذا تفعل هنا؟»

أجاب ألباتيتش وهو منتفخ الأوداج وإحدى يديه في فتحة ثوبه الخارجي، وهي وضعية يلجأ إليها كلما كان الكلام يدور حول سيده: «لقد جئت بناءً على أمر سموه لرؤية سيدي الحاكم ... لقد تفضَّل سموه فأرسلني لأستفسر عن الوضع.»

صرخ الثري الريفي: «الوضع؟ إنه جميل! لقد تصرَّفوا بشكل لم يبقَ معه عربات ولا أي شيء.»

ثم استرسل وهو يشير إلى الاتجاه الذي تنبعث منه طلقات البنادق: «خُذْ، ها هم أولاء، هل تسمع؟ وبفضل هؤلاء السادة الرائعين سوف نذهب كلنا إلى الجحيم! ...»

وكرَّر وهو يهبط المرقاة: «عصابة سفَّاكين!»

هزَّ ألباتيتش رأسه وصعد السلم. كان في الردهة جماعة من التجار والنساء والموظفين يتبادلون النظر صامتين، وفُتح باب المكتب فنهض الموجودون كلهم وتقدَّموا. خرج موظف متعجِّلًا وتبادل كلمات مع تاجر، ثم استدعى مستخدِمًا ضخمًا كان يحمل وسامًا حول عنقه، وزاغ من فوره من دائرة نيران الأبصار المتقاطعة والأسئلة. دفع ألباتيتش نفسه إلى الصف الأول، ولَمَّا بدا الموظف مرةً أخرى، مدَّ له يدًا بالرسالتين وهو يدفع بالثانية في شقِّ ثوبه الخارجي، وقال بصوت بلغ من جلاله وتسلُّطه حدًّا لم يرَ الموظف بدًّا من أن يأخذ منه رسالتَيْه: «إلى سيدي البارون آسش، مِن قِبل الجنرال الأعلى الأمير بولكونسكي.»

وفي غضون بضع دقائق، استقبل الحاكم ألباتيتش، وأعلن وهو يدندن: «قُلْ للأمير والأميرة إنني لم أكن على علم بشيء، وإنني تصرَّفت حسب أوامر عليا ...»

وأضاف وهو يمدُّ إليه ورقة: «خُذْ هذا، على أية حال، إنني أشير على الأمير أن يمضي إلى موسكو طالما أنه مريض. إنني ذاهب بنفسي في هذه اللحظة. قُلْ له ...»

ولم يستطِع الحاكم أن يُتمَّ جملته. دخل ضابط غارق في عرقه يغطِّيه الغبار، واندفع إلى الحجرة معلِنًا له بالفرنسية نبأً جعله يشحب من الفزع. قال لألباتيتش وهو يصرفه بإشارة من رأسه: «اذهب.»

وراح يستجوب الضابط.

راحت نظرات متعطِّشة إلى الأنباء يُقلقها الفزع والعجز تستفسر ألباتيتش عند خروجه من المكتب. اندفع الرجل إلى الخان مسرعًا وهو يصيخ السمع رغمًا عنه إلى

طلقات الرصاص القريبة الآخذة بازدياد. كانت الورقة التي يحملها من الحاكم تحوي على الأسطر التالية:

> أستطيع أن أؤكد أن مدينة سمولنسك لا تتعرَّض لأي خطر، وإن من المشكوك فيه أن تُهدَّد أبدًا. إن الأمير باجراسيون من جهة وأنا من الجهة الأخرى نمشي لنربط قواتنا ببعضها أمام سمولنسك، وسيقوم الاتصال في الثاني والعشرين من الشهر الحالي، وسيدافع الجيشان بعد ضمِّ مجموع قواهما عن مواطنيهما في الإقليم الموكَّل إليك حتَّى تبعد جهودُهما العدو عن الوطن، أو تبيد صفوفه وفيرة العدد إلى آخر جندي، فأنت إذن كما ترى مطلَق الحق في طمأنة سكان سمولنسك؛ لأنهم عندما يكونون محميين من قِبل جيشين على هذا الجانب من البسالة، فإنهم يستطيعون أن يكونوا واثقين من النصر.
>
> أمر يومي من باركلي دوتوللي
> إلى حامل سمولنسك المدني
> البارون آسش ١٨١٢م

كان الشعب يتزاحم في الشوارع وهو فريسة القلق.

وكانت عربات محمَّلة بالآنية والكراسي والصناديق تخرج في كل لحظة من أروقة المنازل، وأمام البيت الذي بالقرب من مسكن فيرابونتوف، وقفت عربات تحمل أثاثًا ونساءً يتوجَّعن وعبارات الوداع ترتفع مزمجرة، بينما راح كلبٌ ينبح بين قوائم الخيول.

دخل ألباتيتش بخطوات أسرع من المألوف إلى المرآب الذي أودع فيه عربته وجياده، وكان الحوذيُّ نائمًا فأيقظه وأمره بأن يجهِّز عربته، ثم مضى إلى البيت. تناهت إلى أسماعه من غرفة المدير أصوات بكاء أطفال ونحيب نساء يفتِّت الأكباد، وصوت فيرابونتوف الغاضب الأبح، وعندما دخل ألباتيتش كانت الطاهية تجري في الدهليز كالدجاجة المذعورة.

– «لقد ضربها، السيدة، لقد ضربها حتَّى الموت! ... آه! المسكينة، كم ضربها وكم جرَّها!»

استفسرها ألباتيتش: «ولماذا؟»

– «لأنها سألته الذهاب. إنها امرأة وهذا يفهم تمامًا. «خذني، لا تدعني أموت مع أطفالي؛ لأن كل الناس يذهبون، فماذا تنتظر؟» هذا كل ما قالته له، فراح يضربها. آه! كم ضربها وكم جرَّها!»

هزَّ ألباتيتش رأسه بحركة نصف مؤيدة وتوجَّه نحو الغرفة المقابلة لغرفة المدير وهو قليل الرغبة في الاستزادة من المعلومات، وكان قد أودع مشترياته تلك الغرفة.

وفي اللحظة نفسها، أفلتت من الغرفة امرأة شاحبة ممتقعة تحمل طفلًا على يديها وقد تمزَّق شالها، واندفعت نحو السلم المؤدي إلى الفناء وهي تصيح: «سفَّاك! قاتل!»

وخرج فيرابونتوف بدوره، فلمَّا رأى ألباتيتش أعاد النظام إلى صدرته وشعره وتثاءب ثم راح يقفو أثره. سأله: «هل عزمت على الرحيل؟»

استفسره ألباتيتش دون أن يجيبه أو حتى أن ينظر إليه، عن المبلغ الذي يدين به إليه، واستمر يجمع مشترياته.

– «لن نختلف ... ولكن قُلْ لي: هل رأيت الحاكم؟ ماذا قرَّروا؟»

أجاب ألباتيتش أن الحاكم لم يُجِبه إجابة صريحة.

– «هل يمكن نقل أشياء كأشيائي أنا؟ إنهم يسألون سبعة روبلات على كل عربة إلى دوروجوبوج فقط، يا للكفرة! لقد كان سيليفانوف مجدودًا، لقد باع منذ يوم الخميس دقيقه إلى الجيش لقاء تسعة روبلات للكيس الواحد ... سوف تتناول الشاي على أية حال.»

وبينما كانوا يقطرون الخيول راح الصديقان يشربان الشاي وهما يحاضران عن أسعار الحنطة والحاصلات الزراعية والوقت المناسب للحصاد.

قال فيرابونتوف وقد نهض بعد أن احتسى أقداحه الثلاثة: «يعتقد أن الهدوء قد خيَّم، يظن أن الغلبة لرجالنا، لقد صَدَقونا القول عندما أكدوا أنهم لن يدعوهم يدخلون. إننا الأكثر قوَّةً، أليس كذلك؟ ... يبدو لي أن ماتفي إيفانوفيتش بلاتوف قد ألقى بهم ذلك اليوم إلى مارينا، ولقد غرق على ما رووا ثمانية عشر ألفًا في يومٍ واحد.»

جمع ألباتيتش مشترياته وأعطاها إلى الحوذيِّ الذي دخل في تلك اللحظة، ثم سوَّى حسابه مع صاحب الخان، وأمام الباب الخارجي سمعت أصوات العجلات ووقْع الحوافر ودندنة الجلاجل؛ إذ كانت العربة حينذاك تخرج من الفناء.

كان بعد الظهر قد أوغل في التقدُّم والظل يغمر نصف الشارع، وبينما النصف الآخر تضيئه الشمس بقوة، ألقى ألباتيتش نظرةً من النافذة وخرج، وفجأةً سُمع على البعد صفيرٌ غريب لم يلبث بعده أن دوَّت زمجرة المدافع متطاولة حتَّى اهتزَّ لها الزجاج.

وبينما كان ألباتيتش يصل إلى الشارع مرَّ رجلان يركضان باتجاه الجسر، وراح الصفير ينبعث من نواحٍ مختلفة وصوت القذائف المكتوم وانفجار القنابل. بَيد أن هذا

الضجيج ما كان يجتذب انتباه السكان بمثل ما يجتذبه قصف المدافع الذي بات مستشريًا حول المدينة. لقد شرعت مائة وثلاثون قطعة مدفعية بقصف مدينة سمولنسك بناءً على أمر نابليون منذ الساعة الخامسة، إلا أن سكان المدينة لم يدركوا للوهلة الأولى مدى الخطر.

أيقظ سقوط القنابل والقذائف بادئ الأمر فضول السكان، صمتت زوجة فيرابونتوف فجأةً وهي التي ظلَّت حتَّى تلك اللحظة تتوجَّع في المرآب، ومضت إلى الباب الخارجي وطفلها على ذراعَيْها، ووقفت هناك لا تحير ولا تنظر إلى الجمهور بعينين شاخصتين، وتصيخ السمع إلى الضجيج.

وجاء مستخدم الدكان والطاهية يلحقان بها، وراحوا جميعًا يحاولون رؤية المقذوفات التي كانت تمر فوق رءوسهم بفضول مفرِط، وعند زاوية الشارع ظهر بعض الأشخاص يتداولون بحميا. كان أحدهم يقول: «كم هو قوي! فالسطح والسقف كلٌّ منهما أصبح حطامًا.»

وكان الثاني يقول وهو يضحك: «إنه يحرث الأرض كالخنزير بخطمه، إنه عمل جميل يجعل القلب يهبط إلى البطن، لو أنك لم تقفز جانبًا لسوَّى أمرك!»

راح هؤلاء يروون لأشخاص استوقفوهم كيف أن القنابل سقطت على دُورهم قريبةً منهم. وفي تلك الأثناء استمرت المقذوفات بوشوشة مقتضبة محزنة والقذائف بصفير مقبول تطير فوق الرءوس دون أن تسقط إحداها في الأمكنة المجاورة. صعد ألباتيتش إلى عربته يشيِّعه مضيفه.

صرخ هذا بالطاهية ذات «التنورة» الحمراء التي ذهبت إلى زاوية الشارع لتصغي إلى ما يقولون، وقد شمَّرت عن ساعدَيْها، وأثبتت قبضتَيْها على وركيها: «ألم تفرغي من «البصبصة»؟ ألم ترَي بعدُ شيئًا؟»

وكانت هذه تقول: «هل مثلُ هذه الأشياء ممكنة بالله؟»

لكنها عندما سمعت صوت سيدها عادت وهي تجرُّ «تنورتها» المشمرة.

ومن جديد، سُمع صفير قريب هذه المرة، ثم كالعصفور الذي يهوي فجأةً انبعث بريق وسط الشارع أعقبه زمجرة انفجار وزوبعة دخان حجبت كل ما يجاورها.

وصرخ صاحب الخان وهو يهرع لنجدة الطاهية: «ألن تنتهي؟! يا للإجرام!»

وبنفس اللحظة، ارتفعت صيحات نساء معولة من جهات مختلفة، وراح الطفل الصغير يبكي مروَّعًا، واجتمع حشدٌ من الناس الصامتين ممتقعي الوجوه حول الطاهية

التي كانت زمجراتها وصيحاتها تطغى على كل ضجيج: «أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين، يا حماماتي لدى الرب الكريم! لا تدعوني أموت! أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين! ...»

وفي غضون خمس دقائق، لم يبقَ أحدٌ في الشارع، ونقلت الطاهية التي حطَّمت شظيةُ القنبلة أحد أضلاعها إلى المطبخ، أما ألباتيتش وسائقه وزوجة فيرابونتوف وأولادها وخادم الإصطبل، فقد لجئوا إلى القبو وراحوا يصيخون السمع. وكانت صيحات الطاهية تطغى على دويِّ المدافع وصفير القنابل اللذين لم يتوقَّفا قط. وكانت زوجة صاحب المنزل تهدهد طفلها وتهدِّئه تارةً، وطورًا تسأل كل وافد بصوتِ مَن اعتاد الأنين، أنباءً عن زوجها الذي بقي في الخارج؛ فأبلغها مستخدم الدكان أن زوجها اتَّبع الجمهور الذي ذهب إلى الكاتدرائية؛ حيث عمدوا إلى رفع عذراء سمولنسك صاحبة المعجزات.

صمتت المدافع عند الغسَق، فخرج ألباتيتش من القبو ووقف على العتبة، كانت السماء المضيئة منذ حين قد أظلمت بفعل الدخان الكثيف الذي راح هلال القمر الجديد المرتفع عند الأفق يُلقي خلاله ضياءً غريبًا. أعقب صمت حزين ورعود فوَّهات النار، لم تعكِّره إلا أصوات خُطى مكتومة وزمجرات وصيحات بعيدة، والطقطقة التي تنجم عن الحرائق، وكفَّت الطاهية عن إرسال أنَّاتها، وراحت أعمدة من الدخان الأسود تعصف ذات اليمين وذات الشمال، والجنود التابعون لمختلف الأسلحة يفرُّون في مختلف الاتجاهات، حتَّى لَيُقال إنهم مملكة نمل مدمَّرة. دخل بعضهم فناء بيت فيرابونتوف في حين مضى ألباتيتش إلى الباب الخارجي، فإذا بفوجٍ كاملٍ يتقهقر في فوضى شاملة.

صاح به ضابط لَمَحَ شبحه وهو في طريقه: «اذهب، اذهب بأكثر سرعة؛ فالمدينة تستسلم.»

وأضاف مخاطبًا رجاله: «وأنتم، سأعلِّمكم كيف تدخلون الأفنية!»

عاد ألباتيتش إلى النُّزل وصرخ بحوذيِّه أن يتأهب للرحيل. ولقد غامر عدد من آل فيرابونتوف ومستخدميه فخرجوا في أعقاب الرجلين، ولَمَّا رأت النساء الدخان وألسنة اللهب التي باتت أكثر ظهورًا في الليل، رُحنَ يُطلقن شكاواهنَّ بعد أن لبثن صامتات حتَّى ذلك الحين، فردَّت نساء أخريات بالمثل من طرفَي الشارع. وكان ألباتيتش وحوذيِّه يحاولان تحت الطنف أن يخلِّصا بأيديهما المرتعدة الصروع والمجار المتشابكة.

ولَمَّا خرجت العربة إلى الشارع، شاهد ألباتيتش في دكان فيرابونتوف المفتوحة حوالي عشرة جنود يتنادَوْن بصوت مرتفع، ويملئون أكياسهم بالدقيق وحَب دوَّار القمر. وفي

تلك اللحظة بالذات عاد فيرابونتوف من الخارج، ولَمَّا شاهد الجنود كاد أن يُطلق صرخات، لولا أنه فجأةً أمسك بشعره بقبضتَيْه وراح يُطلق ضحكة مشفوعة بالنحيب.

زمجر وهو يمسك بنفسه الأكياس ليلقي بها إلى الشارع: «خذوا كل شيء أيها الفتيان! لا تتركوا شيئًا لهؤلاء الشياطين!»

لاذَ بعض الجنود المذعورين بالفرار، بينما استمرَّ الآخرون يملئون أكياسهم، ولَمَّا شاهد ألباتيتش صاح فيرابونتوف: «ضاعت روسيا، ضاعت! ... سأُضرم النار في كل مكان ...»

وأخذ يُردِّد وهو يندفع في الفناء: «ضاعت روسيا! ...»

سَدَّت موجات الجنود المستمرة الشارع في وجه ألباتيتش، فلم يستطِع التقدُّم، وكانت زوجة فيرابونتوف محمولة فوق عربة مع أطفالها تنتظر أن يتسنَّى لها المرور.

كان الظلام قد خيَّم تمامًا، وهلال القمر يُرى في السماء ذات النجوم خلال سِتر من الدخان، وفي المنحدر إلى الدنيبير اضطرت العربتان اللتان كانتا تتبعان رتل العربات والجنود بمشية بطيئة؛ إلى التوقف من جديد. كانوا في ضاحية اشتعلت النيران في بيت ودكاكين غير بعيدة وراحت تحترق، وكان اللهب يخبو تارةً ويضيع في سحابة سوداء من الدخان، وطورًا يلمع من جديد فيضيء وجوه الأشخاص المتدافعين عند الناصية بوضوح خيالي. وراحت أشباح سوداء تمر أمام المحرق وصيحات وخطى وأصوات ترتفع خلال طقطقة الحريق المتواصلة. ترجَّل ألباتيتش، ولَمَّا رأى أنَّ الطريق لن يخلو في برهة وجيزة؛ تسلَّل إلى الشارع ليتأمَّل الكارثة عن قرب. وكان الجنود يغدون ويروحون أمام المحرق، فشاهد اثنين منهم يساعدهم رجل ذو معطف من نسيج خشن، يجرُّون أعمدةً محترقة إلى فناء مجاور، في حين راح آخرون يأتون «بأغمار» من القش.

اقترب ألباتيتش من جمهرة كبيرة وقفت أمام مستودع ضخم كانت النار فيه على أشدِّها، والجدران كلها تحترق، في حين أخذ الجدار الخلفي ينهار، وتهاوى السقف ذو الألواح الخشبية الرقيقة، وراحت الأخشاب تلتهب، بينما بدت الجماهير كأنها تنتظر أن يشمل الانهيار كل شيء، فانضم ألباتيتش إليها.

صاح به فجأةً صوتٌ معروف: «ألباتيتش!»

أجاب وقد عرف فجأةً صوت سيده الشاب: «يا صاحب السعادة!»

كان الأمير آندريه متَّشحًا بمعطف ممتطيًا صهوة جواد أدهم، ينظر إليه من فوق رءوس الجماهير.

سأله: «ماذا تعمل هنا؟»

– «صاحب ... صاحب ... السعادة ...»

وانخرط ألباتيتش في البكاء: «يا صاحب ... يا صاحب ... هل ضعنا حقًّا؟ آه! أبانا ...»

كرَّر الأمير آندريه: «ماذا تفعل هنا؟!»

كشف التماع مفاجئ من اللهب لعينَي ألباتيتش وجه الأمير الشاب الشاحب المتقلِّص. روى له كيف أُرسل إلى سمولنسك والعقبات التي صادفها في طريق العودة، ثم سأله مرةً أخرى: «قل لي يا صاحب السعادة، هل ضعنا حقًّا؟»

ودون أن يجيبه أخرج الأمير آندريه دُفيتره، فانتزع منه صفحة، وكتب مستندًا إلى ركبته الكلماتِ التاليةَ بالقلم الرصاص موجَّهة إلى أخته:

> إن سمولنسك تستسلم، سوف يحتلُّ العدوُّ ليسيا جوري قبل ثمانية أيام. اذهبوا من فوركم إلى موسكو. أعلِميني عن تاريخ رحيلكم بإرسال رسول سريع إلى «أوسفياج» فور استلامك هذه الأسطر.

وبعد أن سلَّم الرقعة إلى ألباتيتش أنهى إليه تعليماته شفهيًّا حول سفر الأمير وأخته وابنه والمدرِّس والطريقة التي ينهون إليه فيها جوابًا سريعًا. ولم يكد يفرغ من حديثه حتَّى اندفع نحوه ضابط من الأركان تصحبه حاشية، هتف القادم الذي عرفه آندريه من لهجته الألمانية: «أنت زعيم؟! إنهم يشعلون الحرائق بحضورك وتدعهم يفعلون! ما معنى هذا؟ سوف تُسأل عن هذا ...»

كان ذاك هو بيرج، نائب القائد الأعلى للجناح الأيسر لمدفعية الجيش الأول، وهو «مركز مستحب جدًّا ومرموق» كما كان يقول.

نظر إليه الأمير، ودون أن يتنازل بالرد عليه، أنهى حديثه إلى ألباتيتش: «وهكذا إذن ستقول إنني أنتظر ردًّا حتَّى غاية العاشر من هذا الشهر، فإذا لم أتلقَّ حتَّى ذلك التاريخ جوابًا يُشعِر بأن كلَّ مَن في ليسيا جوري قد ارتحلوا؛ فإنني سأترك كل شيء وأحضر بنفسي إلى هناك.»

قال بيرج، الذي عرفه حينذاك: «إذا كنت أحدِّثك على هذا النحو يا أمير، فما ذلك إلا لأن عليَّ أن أنفِّذ الأوامر، وأنا أنفِّذها دائمًا بكل دقة ... اعذرني أرجوك.»

ارتفع صوت أشياء تتحطَّم بين اللهب الذي بدا وكأنه خبا، وراحت عواصف من الدخان الأسود من السقف، وبعد دويٍّ فظيع انهار جانب كبير من البناء.

زمجر الجماهير مستقبلة انهيار سقف المخزن: «بو ... وم! ...»

وانتشرت رائحة خبز محروق، ثم انبعث اللهب فأضاء وجوه النظارة المنهكة ولكن القريرة.

هتف الرجل ذو المعطف الخشن وهو يرفع ذراعَيْه في الهواء: «مرحى، إنه يزداد اشتعالًا. مرحى أيها الفتيان!»

وقالت الأصوات: «إنه المالك نفسه.»

سأل الأمير آندريه ألباتيتش: «إذن، مفهوم؟ كرِّر لهم هذا القول كما رويته لك ...»

ودون أن يُعير بيرج الواقف إلى جانبه صامتًا، التفاتًا، دفع حصانه واختفى في الشارع الضيق.

الفصل الخامس

رسالة باجراسيون

بعد سمولنسك، ظلَّت قواتنا تتراجع تحت ضغط العدو. وفي العاشر من آب كان الفوج الذي يقوده الأمير آندريه يمر بالطريق الكبير قُرب الممشى المؤدِّي إلى ليسيا جوري، وكان الجفاف والحرارة مستمرَّان منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، والغيوم الكبيرة البيضاء تجري على أديم السماء نهارًا أشبه بقطيع الخِراف لتتبدَّد قبل المساء، وتختفي الشمس بين أبخرة سمراء تشوبها الحمرة، فكان ندى الليل السخي وحده يرطِّب الأرض، أما القمح الذي لا زال فوق سوقه، فكان يحترق وتنفرط سنابله، والمستنقعات تجفُّ والقطعان تجأر من الجوع ولا تجد في المروج المتفحِّمة شيئًا تأكله، وكانت الرطوبة تهبط ليلًا في الغابة وتستمر ما استمرَّ الندى. أمَّا على الطريق الذي كان الجيش العَرِم يسلكه، فإن تلك الرطوبة لم يكن لها وجود حتَّى أثناء اجتياز الغابات؛ لأن الندى كان يختفي هناك وسط الغبار الذي تنشره الخطى عاصفًا إلى ارتفاع أكثر من نصف قدم. كانوا يبدءون السير منذ الصباح الباكر والقوافل والمدفعية المتقدِّمة دون جلبة تغوص حتَّى محاور العجلات، والرجال حتَّى الكعاب في ذلك الغبار الرخو الخانق الذي ما كان يبرد حتَّى في الليل، والذي يرتفع ما لم يخف منه بالأقدام والعجلات على شكل سحابة كثيفة فوق القطعات، فيتخلَّل العيون والشعر والآذان والأنوف، وبصورة خاصة رئات الرجال والجياد. وكلَّما ازداد ارتفاع الشمس عن الأفق، ازداد هذا الستار كثافةً حتَّى ليسمح للعين المجردة أن تحدق في الشمس التي تبدو خلاله أشبه بكتلة كبيرة قانية، ولم تكن نأمة ريح لتهبَّ على ذلك الجوِّ الساكن الذي يكاد الرجال أن يختنقوا فيه، فكان يتوجَّب السير والمنديل فوق الأنف والفم. وعندما يجتازون قرًى كانوا يتهافتون إلى الآبار ويتدافعون للحصول على الماء الذي يمضون في نضحه حتَّى يخلفوا الطين وحده.

وكان الأمير آندريه مستغرقًا بكُليَّته في قيادة فَوْجه ومشاغل راحة رجاله وضرورة تلقِّي الأوامر وإصدارها، ولقد وسم حريق سمولنسك والانسحاب منها تلك الحقبة من حياته بميسم لا يبلى، وأخذ شعور جديد بالحقد على العدوِّ يعتلج في نفسه وينسيه همَّه، كان يستسلم إلى مشاغله بكُليته، ويَظهر حيال ضباطه وجنوده مفعم النفس بالأنس والترفق، فكانوا يسمونه «أميرنا»، ويحبونه ويفخرون به، وكان عطفه وحسن التفاتته مقتصرين على رجال فَوْجه ورجال تيموخين وغيرهم ممن هم جديدون كل الجدَّة عليه، تابعون لوسط آخر لا يقدرون على معرفته ولا فهم ماضيه، لكنه ما إن يلتقي بمن هم من وسط القديم أو بواحدٍ من السادة التابعين للأركان، حتَّى ينفر فجأةً ويصيح سريع الغضب مستهزئًا متعاليًا، كان كل ما يُذكِّره بحياته السابقة ينفره. مع ذلك، فقد كان في علاقاته مع أشخاص عالَمه يتحرَّى حدود الواجب والعدالة الأكثر دقَّةً وتمحيصًا.

والحق يقال، إن كل شيء بات يمثل لعينيه تحت أكثر الألوان حلكةً، وبصورة خاصة منذ السادس من آب، يوم مغادرة سمولنسك التي — بحسب رأيه — كان يمكن ويجب الدفاع عنها، ومنذ أن اضطر أبوه المريض إلى الفرار إلى موسكو تاركًا ليسيا جوري العزيزة عُرضة للسلب والنهب، بعد أن نظمها وعني بها وأقام فيها الأبنية على أفضل وجه، لكن فَوْجه كان هذه المرة أيضًا بمثابة محوِّل لانشغالاته الكئيبة. وفي العاشر من آب وصل الرتل الذي كان فيه حذاء ليسيا جوري، وقد تلقَّى قبل يومين نبأً مفاده أنَّ أباه وأخته وابنه غادروها إلى موسكو، وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه ما يفعله هناك، فقد قرَّر أن يمرَّ بالمكان؛ لأنه كان من أولئك الذين لا يتركون فرصة بعث أحزانهم وإذكائها تمرُّ دون انتهازها.

أمر أن يسرج جواده، ومضى من نقطة الحلول إلى الأرض القديمة التي وُلد فيها وأمضى صباه، وبينما هو يسير على طول المستنقع الذي درجت العادة على أن يجتمع حوله ثَول من النساء بين غاسلات وضاربات بالمخياط ألبستهنَّ وهنَّ يثرثرن، لاحظ أن رمث الغسلات المفصول عن الشاطئ ونصف الغائص في الماء، عائمٌ وسط المستنقع، وعندما وصل إلى بيت الحارس قُرب المدخل الكبير لم يرَ أحدًا، لكنه وجد البوَّابة مفتوحة، وكانت الأعشاب نابتة في مماشي الحديقة، والعجول والخيول تطوف بالحديقة الإنجليزية، وعدد من زجاج بستان البرتقال محطَّمًا، وبعض الشجيرات المغروسة في صناديق خاصة منقلبًا، والبعض الآخر يابسًا، نادى آندريه البستاني تاراس، لكنه لم يتلقَّ ردًّا. دار حول حديقة البرتقال فبلغ الشرفة، ورأى أنَّ دائرة الألواح الخشبية الرقيقة التي يعمل

فيها كل يومٍ كانت محطَّمة، وأنهم كسروا أغصان أشجار الخوخ للحصول على الفاكهة. وكان كهلٌ — تذكَّر آندريه أنه رآه في طفولته — قرب الباب الكبير، يضفر «قلشينًا» وهو جالس فوق المقعد الأخضر الذي كان الأمير يفضِّله وكبب لحاء القنب معلَّقة إلى أغصان شجرة مانولية محطَّمة وجافَّة. كان العجوز أصمًّا فلم يشعر قط باقتراب سيده.

أخيرًا وصل الأمير آندريه إلى البيت. كانوا قد قطعوا بعض أشجار الزيزفون من الحديقة القديمة، وراحت فرس بلقاء ومهرها يطآن بقوائمهما مجموعة أشجار الورد، وكانوا قد أغلقوا النوافذ بتثبيت المصاريع، إلا واحدة في الدور الأسفل كانت مفتوحة، ولدى رؤية الأمير اندفع غلام إلى داخل البيت ليُخطِر ألباتيتش الذي ظل وحده في ليسيا جوري بعد أن رحَّل أسرته، وكان هذا جالسًا يقرأ حياة القدِّيسين، فلمَّا علم بقدوم الأمير آندريه خرج من البيت وهو يزرُّ سترته، واقترب من الأمير مسرعًا ونظارتاه على أنفه، وانخرط باكيًا وهو يُقبِّل ركبتيه دون أن ينطق بكلمة.

ثم أشاح وهو شديد الندم على إظهار ضعفه، وراح ينهي إليه تقريره عن الوضع. لقد حُملت كل الأشياء الثمينة إلى بوجوتشاروفو التي نقلوا إليها كذلك القمح حوالي مائتي كنتال،[1] أمَّا العلف وقمح الربيع — وهو محصول رائع كما راح يؤكد ألباتيتش — فقد أُخِذ — وهو لا يزال غير ناضج — واحتشَّته القطعات، أما الفلاحون فقد نُكبوا، ولقد نزح بعضهم إلى بوجوتشاروفو، أمَّا العدد الأكبر فقد ظلَّ في مكانه.

سأله آندريه دون أن يدعه يسترسل: «متى ذهب أبي وأختي؟»

وكان يعني بسؤاله: إلى موسكو، إلا أن ألباتيتش اعتبر أنه إنما يعني بوجوتشاروفو، فأجاب بأنهم ذهبوا يوم ٧ آب، وراح من جديد يشرح مسائل الأرض ويسأله التعليمات.

– «هل تأمر بأن أسلِّم القطعات لقاء إيصال العلف الذي بقي لدينا؟ لا يزال عندنا ألف ومائتا كنتال.»

تساءل آندريه: «ماذا يجب أن أقول له؟» وكان يتأمَّل جمجمة الكهل الأصلع وهي تلتمع تحت الشمس، ويقرأ على وجهه أنه رغم إدراكه عدم لياقة مثل هذه الأسئلة إنما يطرحها ليكبت ألمه.

– «نعم، سلِّمهم.»

---

[1] الكنتال: مائة كيلوجرام.

استرسل ألباتيتش: «لا بدَّ وأنك لاحظت الفوضى الشاملة في الحديقة، لا سبيل إلى منعها، لقد أمضى الليل هنا جنودُ ثلاثة أفواج، ومعظمهم من الفرسان الفرنسيين، ولقد سجَّلت اسم قائدهم ورتبته لأتقدَّم بالشكوى.»

سأله الأمير آندريه: «وماذا أنت عازم عمله؟ هل ستبقى إذا جاء العدو؟»

التفت ألباتيتش إلى سيده ونظر إليه في عينيه، وفجأةً رفع يده إلى السماء بحركة جليلة وقال: «إنه هو الذي يحميني، فلتكن مشيئته!»

أخذ فريق من الفلاحين والخدم حاسري الرءوس يتقدَّمون فوق الأرض المعشوشبة باتجاه الأمير آندريه. قال هذا وهو ينحني نحو ألباتيتش: «هيا، الوداع! اذهب أنت الآخر واحمل ما تستطيع حمله، وقل للقرويين أن يلجئوا إما في أرضنا في ريازان، وإما في البيت الريفي قرب موسكو.»

ضم ألباتيتش نفسه وهو ينتحب إلى ساق سيده، فأزاحه آندريه بلطف، وهمز حصانه وانحدر جاريًا فوق الممشى.

وعلى فسحة حديقة البرتقال، وبمثل لا مبالاة الميِّت بذبابة سقطت فوق وجهه، استمرَّ الكهل يربت على «قلشينه» المثبت فوق القالب. والتقت فتاتان صغيرتان شمَّرتا عن أذيال ثوبَيْهما اللذين ملأتاهما بالخوخ الذي جَنَتاه من أشجار بستان البرتقال وجهًا إلى وجهه مع سيدهما الصغير، فلمَّا وقعت أبصارهما عليه أمسكت كبراهما سنًّا بيد رفيقتها وقد استبدَّ بها الرعب، وجرتا تختبآن وراء شجرة سندر وقد تركتا الخوخ الفجَّ يسقط منهما.

أسرع الأمير آندريه فأشاح بوجهه كيلا يُشعِرهما بأنه رآهما. كان يحسُّ بالإشفاق على تلك البنية الصغيرة الجميلة ذات الأمارات المروعة، التي ما كان يجرؤ على النظر إليها رغم رغبته الملحَّة. استحوذ عليه شعور جديد مَرِح ومسكِّن لدى رؤيته تينك الطفلتين؛ ذلك أنه أدرك وجود مصالح في الحياة تختلف عن مصالحه، مصالح طبيعية جدًّا. لم يكن لهاتين الطفلتين إلا رغبة واحدة: حَمْل خوخهما الفج دون أن يمسكهما أحدٌ والتهامه باطمئنان، فلم يكن الأمير آندريه أقل منهما رغبة في نجاح مشروعهما. لم يستطِع أخيرًا أن يتمالك نفسه، فنظر إليهما مرة أخرى. كانتا تعتبران أنهما خرجتا عن نطاق الخطر، فرفعتا ذيول ثوبيهما من جديد بعد أن خرجتا من مخبأيهما وراحتا تَثِبان فوق أَسْوُقهما الدقيقة، وتظهران فوق الأرض المخضرة تزقزقان بصوتيهما العذبين.

كان آندريه قد ترطَّب قليلًا بخروجه من غبار الطريق العام، لكنه عاد إلى طريق غير بعيد عن ليسيا جوري، ولحق بفوجه الذي كان قد توقَّف عند مستنقع صغير. وكانت

الساعة الثانية بعد الظهر، والشمس دائرة حمراء خلال الغبار، تشوي الظَّهر بشكل لا يُحتمَل خلال قماش البزَّات الأسود والغبار، وهو أبدًا — على كثافته المعروفة — يحوم فوق القطعات المتوقفة على شكل طبقة ساكنة تضم دويَّ الأحاديث المتبادلة والريح ساكنة لا تتحرك. وبينما الفوج يمرُّ فوق السد أذكت الرطوبة ورائحة الوحل المترسِّب المتصاعدتان من المستنقع في نفس الأمير آندريه؛ الرغبةَ في الارتماء في المياه مهما كانت قذرة، وانبعثت من المستنقع ضحكات وصرخات. لقد بدا ذلك المستنقع المخضوضر وكأن مياهه ارتفعت ثلاثين سنتيمترًا وكادت أن تغرق السد؛ لكثرة الأجساد البيضاء العارية التي امتلأ بها، والتي كانت الأعناق والأيدي والوجوه الحمراء بلون القرميد تظهر فوقها بوضوح لتنافر الألوان. وكانت هذه الأجساد كلها تتخبط بين الضحكات والأصوات، وسط تلك الحفرة الموحلة، أشبه بقبضة من السُّميكات احتُجزت في مسقاة، وكان ذلك الحمَّام البهيج في تلك السعة يثير في النفوس أفكارًا تمتاز بكآبتها.

تراجع جنديٌّ شابٌّ أشقر كانت ربلته محاطة بإسار عَرَف فيه آندريه جنديًّا من الفصيلة الثالثة، ورسم على صدره إشارة الصليب ثم غطس، وراح صف ضابط شديد السُّمرة أَزَبُّ غارق في الماء حتَّى وسطه، يدير جذعه العاضل ويغتسل مستعينًا بذراعَيْه السوداوين حتَّى الرسغ في سفح الماء على رأسه. كان كل هؤلاء يصرخون ويتراشقون بالماء ويتبادلون الأقوال اللاذعة.

وعلى الشطآن وفوق السد وفي المستنقع وفي كل مكان، كانت الأجساد البيضاء السليمة العاضلة منتشرة، وكان تيموخين، الضابط ذو الأنف الصغير الأحمر، يجفِّف جسده بمنشفة رغم ارتباكه لدى رؤية الأمير ويقول له: «إن هذا ينشط يا صاحب السعادة. كان يجب أن تنتهز الفرصة.»

قال الأمير آندريه وهو يُصعِّر خده: «إن الماء بالغ القذارة.»

فعرض تيموخين قائلًا: «سوف ينظِّفون لك ركنًا.»

وراح وهو في عُريه الطبيعي يجري لإعطاء الأوامر للمستحمِّين: «إن الأمير يريد ...»

هتفت أصوات كثيرة: «أيُّ أمير؟ أميرنا؟»

واندفعوا جميعهم متزاحمين، حتَّى إن آندريه وجد صعوبة كبيرة في تهدئتهم واستحضار ماء نظيف إلى المكادس؛ حيث يستطيع الاغتسال بأكثر راحة.

حدَّث نفسه وهو ينظر إلى جسمه العاري ويرتعد من البرد أقل من ارتعاده تحت وطأة شعور غامض بالاشمئزاز والهول، أثارته في نفسه رؤية تلك الأجساد المتخبِّطة في الماء الضحل: «هذا الجسد لحم للمدفع!»

في السابع من آب، كتب الأمير باجراسيون من مخيَّمه في ميخائيلوفكا إلى آراكتشييف رسالة كان متأكِّدًا من أن الإمبراطور سيقرؤها؛ لذلك فقد وزن العبارات بالقدر الذي استطاعه على الأقل:

سيدي الكونت ألكسيس آندرييفيتش العزيز

أظن أن الوزير قد رفع إليك تقريره حول إخلاء سمولنسك وتَرْكها للعدو. إنه حدثٌ مؤلم شاقٌّ يأسف الجيش كله له أيَّما أسف؛ لأن أكثر مدننا أهميةً قد سُلِّمت دون أي مبرر. إنني من جانبي توسَّلت إليه بإلحاح شديد سواء عن طريق القلم أو الشفه، ولكن ما من شيء استطاع إقناعه. إنني أصرف لك كلمتي على أن نابليون كان محصورًا وكأنه في كيس، وأنه كان سيضيع نصف جيشه دون أن يستطيع احتلال سمولنسك، ولقد قاتلتْ قواتنا ولا زالت تقاتل ببسالة نادرة. إنني شخصيًّا أوقفتهم بخمسة عشر ألف رجل أكثر من خمس وثلاثين ساعة ثم هزمتهم، أما هو، فإنه لم يشأ الصمود حتَّى ولا أربع عشرة ساعة. إنها وصمة وعار بالنسبة إلى جيشنا يخيَّل إلى بعد، وإذا أعلمكم بأن خسائرنا جسيمة فقوله ليس صحيحًا؛ إنها تبلغ أربعة آلاف رجل على الأكثر، بل إنَّها ولو كانت عشرة آلاف، فأية أهمية؟ إنها الحرب. إنَّ خسائر العدو بالمقابل جسيمة.

ماذا كان يكلِّف إلقاء يومين آخرين؟ كانوا سيتقهقرون على أقل تقدير؛ لأنه لم يكن ليتبقى لديهم ماء لهم ولا لخيولهم، لقد وعدني بأنه لن يتراجع به، فجأةً يُرسل إليَّ قرارًا يقول فيه إنه راحل خلال الليل! إنَّ الحرب لا تُخاض على هذا النحو، إننا بهذا الشكل لن نلبث حتَّى نستقدم العدوَّ إلى موسكو.

إن الإشاعات تروج حول تفكيركم في الصلح. ألا ليجنِّبكم الله هذا التفكير! أنْ نعقد الصلح بعد كل هذه التضحيات والتراجع السخيف! إنكم بذلك تتعرضون لروسيا كلها، وسيخجل كلٌّ منا أن يرتدي البزَّة، إننا في الوضع الذي نحن فيه يجب أن نقاتل ما استطاعت روسيا القتال وما بقي رجلٌ على قيد الحياة.

يجب أن يقود رجل واحد وليس اثنان، لعل وزيركم ممتاز في وزارته، أمَّا بوصفه جنرالًا، فإنه غير ناجح أبدًا. ولقد أُودِع مصير وطننا بين يدي رجل من هذا النوع ... إنني أثور وأكاد أُجنُّ، فأرجو أن تغفروا لي جرأة هذه الكلمات، إن ذلك الذي يشير بالصلح ويريد أن يقود الوزيرُ الجيشَ، رجلٌ لا يحب

إمبراطوره ويرغب في خسراننا … إنني أقول لك الحق: سلِّح المتطوعين بسرعة؛ لأن الوزير سوف يصحب ضيفه إلى العاصمة بشكل يناسب المقام … إنَّ السيد المساعد العسكري الجنرال فولزوجن يوحي بالشك في كل أوساط الجيش. إنه على ما يزعمون رجل نابليون أكثر من أن يكون رجلنا، وهو المستشار الأكبر للوزير. أمَّا أنا، فإنني لا أكتفي بأن أكون مهذَّبًا معه فقط، بل وأطيعه كذلك كما يطيع أي عرِّيف رئيسه، رغم أنني أقدَم منه. إنَّ هذا مؤلم، لكنني أخضع حبًّا بمليكي والمحسن إليَّ، إلا أنني مشفق؛ إذ سلَّم الإمبراطور جيشنا الممجَّد إلى أشخاص من هذا النوع. تصوَّروا أن أكثر من خمسة عشر ألف رجل قد ماتوا من التعب أو في المستشفيات خلال تقهقرنا! فلو أننا سرنا إلى الأمام لما كان يمكن أن نقع في مثل هذه الخسائر. بحق السماء، ماذا ستقول روسيا، أمُّنا، عندما تعلم بأننا نخاف وأننا نسلِّم وطننا الباسل الطيب إلى أسافل، وأننا نثير في قلب كل مواطن الضغينة والسخط؟! هل هي خطيئتي إذا كان الوزير قلِقًا بطيئًا غبيًّا ضعيف النفس، وإذا كان يجمع في نفسه كل الخطيئات الممكنة؟ إنَّ الجيش كله لا عمل له إلا البكاء وإرهاقه بالشتائم.

الفصل السادس

كوتوزوف يتسلَّم القيادة

بين وسائل الحياة التي لا تُحصى، يمكن أن نميز الوسائل التي ينتصر فيها الكنه على الصيغة، وتلك التي على العكس تنتصر فيها الصيغة وتسيطر. وفي هذه الزمرة الأخيرة يمكن أن نضع مقابل حياة الريف والمراكز، حتَّى وموسكو، الحياة في بيترسبورج، وبصورة خاصة الحياة في مجتمعاتها. إنها حياة ثابتة لا تتغير، إننا منذ عام ١٨٠٥م ما فتئنا نتصالح ثم نتخاصم مع بونابرت، ونُقيم الأنظمة ونُسقطها، مع ذلك فإن «صالونَي» آنَّا بافلوفنا وهيلين ظلَّا كما كانا عليه: الأول منذ سبع سنين، والثاني منذ خمس. كانوا لدى آنَّا بافلوفنا يتحدثون دائمًا بذهول عن نجاح بونابرت، ويجدون في ذلك النجاح المتعاقب وفي مجاراة أمراء أوروبا له مؤامرة بشعة ضد أنس هذه الدائرة من البلاط التي تنتسب إليها ربَّة الدار وصفائها، أما لدى هيلين؛ حيث كان رومیانتسيف نفسه يشرِّفها بزياراته ويعتبرها امرأة على جانب نادر من الذكاء، فقد كانوا مستمرِّين عام ١٨١٢م كما كانوا عام ١٨٠٨م، في التحمُّس للرجل الكبير والأمة العظيمة، ويستنكرون قطع العلاقات مع فرنسا التي يجب أن تنتهي حسب مزاعمهم بصلح قريب: وعندما جاء الإمبراطور إلى بيترسبورج قامت حركة معينة في هذين الوسطين المعاكسين، ودارت فيهما بعض المشاهد العدائية من جانبٍ نحو الجانب الآخر دون أن يتبدَّل في الواقع ميل أحد الجانبين بالمقابل. ظلت دائرة آنَّا بافلوفنا لا تستقبل من الفرنسيين إلا المدافعين عن حق الملك الشرعي المدعوين رسميًّا، وتُعرب عن وطنيتها بالتعريض بالمسرحي الفرنسي الذي كانوا يزعمون أن تكاليفه تبلغ تكاليف تجهيز جناح من الجيش، وكانوا يتابعون في تلك الدائرة بحميا الأحداث العسكرية، وينشرون أفضل الشائعات حول موقف جيوشنا. أما في دائرة هيلين التي كانت دائرة روميانتسيف وأنصار فرنسا، فقد كانوا يُنكرون وحشية العدو، ويحاضرون حول محاولات نابليون العديدة في سبيل الصلح، ويغدقون الذمَّ على أولئك

الذين نصحوا بسرعة نقل البلاط ومؤسسات التعليم التابعة للإمبراطورة الأم إلى كازان. وكانت العمليات العسكرية تعتبرها مجرد مظاهر بسيطة يجب أن تنتهي بالصلح. ولقد غدا بيليبين من رواد هذا الوسط الاعتياديين الذين كان كل رجلٍ فكرٍ يلجأ إلى الانتساب إليه، وأصبح رأيه فيه قانونًا، وهو أنَّ المسألة لن تُحسَم بالبارود، بل عن طريق أولئك الذين خلقوها. وكانوا يسخرون بأقوال طريفة، ولكن بشيء من التحفُّظ، من حماس أهل موسكو؛ ذلك الحماس الذي بلغت أصداؤه بيترسبورج إبَّان عودة ألكسندر.

بيد أن العكس كان لدى آنَّا بافلوفنا؛ كانوا يمجِّدون هذه التظاهرات، ويتحدَّثون عنها حديث بلوتارك[1] عن القدماء. وكان الأمير بازيل الذي لا زال يحتل مراكزه المرموقة السابقة، يقوم بدور همزة الوصل بين الدائرتين، فكان يرود دوريًّا «صديقتي الطيبة» آنَّا بافلوفنا و«صالون ابنتي الدبلوماسي»، وهذه الحركة الانتقالية الدائمة كانت غالبًا ما تعرِّضه للأخطاء، فيقع له مثلًا أن يتحدَّث لدى هيلين ما كان عليه أن يقوله لدى آنَّا بافلوفنا، والعكس بالعكس.

بعد عودة ألكسندر بقليل، راح الأمير بازيل — وهو يتحدَّث لدى آنَّا بافلوفنا عن الموقف — يحكم على باركلي دوتوللي بقسوة، وتساءل عمَّن يمكن أن يحلَّ محله، وروى واحد من أكثر الناس ارتيادًا للوسط — ذلك الذي أُطلِق عليه اسم «الرجل ذي الميزات الكثيرة» — أنه رأى ذلك اليوم بالذات رئيسَ متطوِّعي بيترسبورج، كوتوزوف، يرأس في ديوان الخزينة استقبال المتطوِّعين، ثم أعرب بحكمه أن كوتوزوف هذا يمكن أن يكون على الضبط الرجل المطلوب.

فأظهرت آنَّا بافلوفنا بابتسامة سويداوية أن كوتوزوف لم يسبِّب للإمبراطور إلا المكاره.

أكَّد الأمير بازيل قائلًا: «لقد قُلت وكرَّرت ذلك في جمعية النبلاء، لكنهم لم يُصغوا إليَّ. لقد قلت إن تعيينه رئيسًا لا يسرُّ الإمبراطور، لكنهم لم يُصغوا إلى قولي. إنها دائمًا عادة التراشق وتبادُل اللوم، وأمام من؟ كل ذلك لأننا نريد الموافقة على حميات الموسكوفيين الرعناء.»

[1] بلوتارك: مؤرخ يوناني وُلد في شيرونيه حوالي عام ٤٥ أو ٥٠ للميلاد، وتُوفِّي عام ١٢٥م. درس في أثينا، سافر إلى آسيا ومصر، وهو مؤلف حياة ومشاهير رجال اليونان وروما.

وشعر الأمير بازيل أنه خلط بين الأمور؛ ذلك أن حميات الموسكوفيين التي هي موضوع سخرية دائرة هيلين، يجب أن تُحمَل لدى آنَّا بافلوفنا على محمل الإطراء، فأصلح خرقه بسرعة.

– «هل من المناسب أن يقيم الكونت كوتوزوف أقدم جنرالات روسيا هناك، وذلك إضافةً إلى ما فيه من إيلام له؟! هل يُعقل أن يُعيَّن قائدًا أعلى رجلٌ لا يستطيع امتطاء صهوة جواد، ينام في المجلس الاستشاري، رجلٌ متهتِّك فوق كل هذا؟! لقد خلق لنفسه سمعة رائعة في بخارست! إنني أترك جانبًا ميزاته كجنرال، ولكن هل يمكن حقًّا في هذه اللحظة الحرجة أن نضع على رأس جيشنا رجلًا عاجزًا وأعمى؟! نعم أعمى بكل معنى الكلمة. سيكون ذلك جميلًا؛ جنرال أعمى! إنه لا يرى شيئًا مطلقًا أبدًا ... ليذهب ويلعب «التغماية»!»

ولم يعترض على قوله أحد.

كان هذا الاتهام في الرابع والعشرين من تموز قائمًا على أساس، لكن كوتوزوف تلقَّى في التاسع والعشرين من الشهر ذاته لقب أمير. لعلَّ مَنْح هذه الرتبة لم يكن إلا كفَّ يد بشكلٍ مشرِّف، مع ذلك فإن الأمير بازيل، رغم اعتباره وجهة نظر مشروعة، أصبح أكثر تحفُّظًا. وفي الثامن من آب، اجتمعت لجنة مؤلَّفة من الماريشال سالتيكوف، آراكتشييف، فيازميتينوف لوبوجين، وكوتشوبيي؛ للتداول في سير الحرب العام. عزَت هذه اللجنة خسراننا إلى التناحر على القيادة، وعرضت — رغم ما تعرفه عن نفور الإمبراطور من كوتوزوف — أن يعيَّن هذا قائدًا أعلى بعد نقاش قصير. وفي ذلك اليوم بالذات عُيِّن كوتوزوف قائدًا أعلى للجيوش وللمناطق التي نحتلها كلها.

وفي التاسع من آب، التقى الأمير بازيل من جديد لدى آنَّا بافلوفنا بالرجل ذي المواهب الجمَّة، وكان هذا يشغل منصبَ قيِّمٍ في مؤسسة للفتيات، ويتملَّق آنَّا بافلوفنا دون كلال. دخل الأمير بازيل بأمارات الرجل المنتصر الذي تحقَّقت رغباته أخيرًا.

– «حسنًا! هل تعرفين النبأ العظيم؟ إن الأمير كوتوزوف الآن ماريشال، لقد انتهت الخلافات كلها الآن. إنني مسرور بذلك، شديد السرور! أخيرًا، ها هو ذا رجل!»

كذلك كان يعلن وهو يدير بالموجودين نظرة ملؤها الصرامة والأهمية.

وعلى الرغم من أن الرجل ذا المواهب الجمَّة كان يرغب رغبةً عنيفة في الهول على مركزٍ ما، فإنه لم يستطع إلا أن يلفت انتباه الأمير بازيل إلى أنه لم يتحدَّث دائمًا على هذا النحو، وكان ذلك صدمة موجَّهة إلى الأمير بازيل في بهو آنَّا بافلوفنا بقدر ما هي موجَّهة

إلى المضيفة نفسها التي تلقَّت النبأ بسرور، لكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه. قال وهو يذكِّر الأمير بتأكيد الحديث: «لكنهم يقولون يا أميري إنه أعمى!»

فأجاب الأمير بازيل بشدة بصوته الخفيض الخاص وهو يسعل سعالًا خفيفًا — وتلك وسيلته في استجماع أعصابه عندما يكون مرتبكًا: «هيا، إنه يرى كفاية.»

ثم كرَّر: «هيا، إنه يرى كفاية، إن ما يسرني أكثر هو أنَّ الإمبراطور أعطاه مطلق السلطة ليس على الجيوش فقط، بل وكذلك على الأراضي التي تحتلها. وهي سلطة لم يحصل على مثلها قطُّ أيُّ قائد أعلى.»

وأعقب مستنتجًا وهو يبتسم ابتسامة المنتصر: «إنه حاكم ثانٍ مطلق الصلاحية.»

وقالت آنَّا بافلوفنا: «ليساعدنا الله!»

فظنَّ الرجل ذو المواهب الجمَّة، وهو الحديث في حياة البلاط، أنَّ جملة آنَّا بافلوفنا تلك ليست إلا صدًى لرأيها السابق، فاستأنف رغبةً منه في امتداحها: «يزعمون أن الإمبراطور لم يمنحه هذه السلطة عن طيب خاطر، ولقد قالوا إنَّ وجهه تضرَّج كوجه آنسة تُليت عليها «جو كوندا» عندما قيل له: إن المليك والوطن يحيطانك بهذا الشرف.»

فقالت آنَّا بافلوفنا: «لعل القلب لم يكن له دور في المسألة.»

هتف الأمير بازيل الذي جعل من كوتوزوف رجله فأصبح لا يُطيق ألَّا يحبه أحد: «مطلقًا، أبدًا! هذا مستحيل؛ لأن الإمبراطور عرف دائمًا كيف يقدِّر مواهبه.»

ألمحت آنَّا بافلوفنا موحية برفق: «عسى أن يتسلَّم الأمير كوتوزوف السلطة حقًّا، وألَّا يسمح «لأحد» أن يضع له العصي في العجلات.»

ولقد أدرك الأمير بازيل من فوره ما أرادت آنَّا بافلوفنا أن تقوله، فقال بصوتٍ خافتٍ: «إنني أعرف من مصدر موثوق أن كوتوزوف تقدَّم بشرط أساسي، هو استدعاء التسيزايفيتش، هل تعلمين ماذا قال للإمبراطور؟ «لا أستطيع أن أعاقبه إذا أساء التصرف، ولا أن أكافئه إذا أحسن العمل.» أوه! إنه رجل حاذق جدًّا هذا الأمير كوتوزوف، إنني أعرفه منذ أمدٍ طويل.»

فأضاف الرجل ذو المواهب الجمَّة الذي كان أسلوب البلاط ينقصه ولا ريب: «بل إنهم يقولون أيضًا إن شديد الرفعة تطلب من الإمبراطور ألَّا يلحق بالجيش شخصيًّا.»

وما كاد ينطق بهذه الجملة حتَّى أشاح الأمير بازيل وآنَّا بافلوفنا بحركة واحدة عنه ليتبادلا نظرة آسفة، وليعيبا على تلك السذاجة المنفِّرة بتنهُّدة حارَّة.

الفصل السابع

لافروشكا وبونابرت

بينما كانت هذه الأشياء تقع في بيترسبورج كان الفرنسيون يتجاوزون سمولنسك ويزدادون قربًا من موسكو، ولقد عمد تيير، ككل مؤرخي سيرة نابليون على أية حال، إلى تبرير سلوك بطله، زاعمًا أنه اجتُذب إلى جدران تلك المدينة رغمًا عنه. إنه محقٌّ ككل أولئك الذين يبحثون في إرادة رجل واحد تفسيرًا للأحداث. إنه على حق لمثل الأسباب التي دفعت بعضًا من كُتَّابنا إلى الزعم أن نابليون اجتُذب إلى الأمام ببراعة الجنرالات الروسيين. إن قانون الحكم على الماضي يُظهر لهم الماضي كله على اعتباره تحضيرًا لحادث وقع. أضِف إلى ذلك أن توافقًا ما بين الأحداث يزيد كذلك في تعقيد الأمور؛ فإذا خسر لاعب ماهر شوطَ شطرنج اعتقد بإخلاص أنه أضاعها بنتيجة خطأ من جانبه، فيعود إلى الشوط يعيد حركاته حتَّى البداية؛ ليُظهر موطن الخطأ، متناسيًا أنه ارتكب أخطاءً أخرى، وأنَّ ما من حركة من حركاته كاملة. فالخطيئة التي يلاحظها ما كانت لتلفت انتباهه لولا أن خصمه أفاد منها. فكم هي أكثر تعقيدًا لعبة الحرب التي تدور خلال ظروف زمنية معينة، والتي لا علاقة لإرادة واحدة في إدارة الآلات الجامدة فيها، بل هي نتيجة التقاء عدد لا يُحصى من الإرادات الخاصة.

بحث نابليون عن الاشتباك في معركة وراء دوروجوبوج قرب فيازما بعد سمولنسك، ثم في تساريفو-زائيميختشيه، ولكن لم يتقبَّل الروسيون خوض المعركة إلا في بوروذينو على بُعْد حوالي ثلاثين كيلومترًا من موسكو بنتيجة ملابسات عديدة.

ولقد كانت موسكو، العاصمة الآسيوية لهذه المملكة الشاسعة، المدينة المقدَّسة لشعوب ألكسندر، موسكو بكنائسها الكثيرة التي تشبه في بنائها هياكل الصينيين تثير خيال نابليون دون هوادة، كان خلال المرحلة من فيازما إلى تساريفو-زائيميختشيه ممتطيًا صهوة حصانه الأبيض المموَّه الإنجليزي يصحبه كوكبة الحرس وموكب من

الغلمان والأتباع والمساعدين العسكريين. ولقد تخلَّف رئيس الأركان بيرتييه لاضطراره إلى استجواب روسي أَسَرَتْه الخيَّالة، فلم يلبث أن لحق بالإمبراطور هدبًا يصحبه المترجم ليلورم ديدفيل، ثم أوقف حصانه مشرق الأسارير، سأله نابليون: «حسنًا؟»

– «إنه قوقازي من بلاتوف، يقول إن أفواج بلاتوف سوف تجتمع مع مجموعة الجيش، وأن كوتوزوف قد عُيِّن قائدًا أعلى. إنه شديد الذكاء وثرثار.»

ابتسم نابليون وأمر أن يُعطى حصان إلى ذلك القوقازي، وأن يَمثُل بين يديه. لقد كان يرغب في استجوابه شخصيًّا. هدب عدد من المساعدين العسكريين خيولهم، وبعد ساعة اقترب المملوك لافروشكا الذي تخلَّى عنه دينيسوف لروستوف من نابليون مرتديًا سترة، معتليًا سرجًا فرنسيًّا، بوجهه المرح الكيِّس الثمل. سمح له الإمبراطور أن يسير على قدميه بجانبه، وطرح عليه بعض الأسئلة.

– «هل أنت قوقازي؟»

– «قوقازي يا صاحب النبالة.»

قال تيير وهو يروي هذه الحادثة: «لم يكن القوقازي يعرف الشخصية التي كان يسير إلى رِكابها؛ لأن بساطة نابليون لم يكن فيها ما يوقظ في خيال شرقيٍّ وجود مليك؛ لذلك فقد تحادث معه عن مشاكل الحرب الحاضرة بأقصى ما تبلغ إليه الأُلفة.»

والحقيقة أنَّ لافروشكا الذي سَكِر بالأمس فترك سيده دون طعام، تعرَّض للضرب بالعصيِّ، ثم أُرسِل بعد ذلك إلى إحدى القرى للبحث عن بعض الدجاج، فاستمرَّ يتلكَّأ ويحوم حتَّى سقط بين يدَي الفرنسيين، وكان واحدًا من أولئك الخدم السفهاء الغلظاء الذين لا يستطيعون رغم ما رأوه من كل الألوان خلال حياتهم، أن يتصرَّفوا دون دناءة ومكر، والذين هم على استعداد دائم للقيام بكل الخدمات الممكنة لأسيادهم الذين يحدسون لأول نظرة آراءهم السيئة، وخصوصًا تلك التي يوحي بها إليهم الزهو والحقارة.

ولمَّا استقدم أمام نابليون الذي لم يلبث حتَّى أدرك حقيقته، لم يتأثَّر لافروشكا كما ينبغي، لكنه اجتهد ليجعل أسياده الجدد يستقبلونه أفضل استقبال.

كان يعرف تمامًا أن هذا هو نابليون، لكن وجود الإمبراطور ما كان يمكن أن يبعث في نفسه باضطراب أكثر من وجود روستوف أو الرقيب الأول المكلَّف بضربه بالعصي، ولمَّا كان لا يملك شيئًا، فإن نابليون ولا هذا الصف الضابط، يمكن أن يأخذوا منه شيئًا.

روى إذن كل القصص التي تدور بين التابعين، والتي كان الجانب الأكبر منها صحيحًا، ولكن عندما سأله نابليون عما إذا كان الروسيون يفكِّرون في التغلب على

بونابرت أم لا، قطَّب لافروشكا حاجبَيْه وراح يفكِّر، خُيِّل إليه أن السؤال يُخفي شَرَكًا؛ لأن الأشخاص من نوعه يشمُّون رائحة الفخاخ في كل مكان.

قال بلهجة من يُفكِّر: «أعني إذا وقعت المعركة على الفور كان الفوز بجانبكم، وهذا مؤكَّد، ولكن إذا مضت أيام ثلاثة فإن هذه المعركة نفسها يمكن أن تستطيل.»

أمَّا ما ترجمه ليلورم ديدفيل باسمًا لنابليون فهو كما يلي: «إذا نشبت المعركة قبل ثلاثة أيام فإن الفرنسيين سيكسبونها، أمَّا إذا نشبت فيما بعد فإن الله وحده يعرف ما سيحدث.» وعلى الرغم من حُسن مزاجه، فإن نابليون لم يبتسم، بل أمر أن تُعاد الجملة على مسامعه، فلاحظ لافروشكا ذلك، ولكي يبهجه تابع وهو يتظاهر بجهله حقيقة الشخص الذي يُحدِّثه: «نعم، إننا نعرف أنَّ لديكم من يُدعى بونابرت، لقد هزم كلَّ الناس في هذا العالم، لكن الأمر سيختلف بالنسبة إلينا ...»

ولقد أفلت منه هذا التبجُّح الوطني دون أن يدرك السبب.

وقام المترجم بالترجمة، فعُني خلال ذلك بإخفاء الكلمات الأخيرة، وكتب تيير يقول: «لقد أضحك القوقازي الشاب محدِّثه العظيم.» وبعد أن خطا بضع خطوات في صمت قال نابليون لبرتييه إنه يرغب في معرفة الأثر الذي سيحدث في نفس «غلام الدون هذا» إذا أطلعوه على أن الشخص الذي تحدَّث معه ليس إلا الإمبراطور، ذلك الإمبراطور الذي كتب على الأهرام اسمه المظفَّر الخالد.

وأُزجي النبأ إلى لافروشكا.

أدرك هذا أنهم يريدون أن يشوِّشوه، وأن نابليون يعتقد أنه سيخفيه؛ لذلك فقد تصنَّع الدهشة إرضاءً لأسياده الجدد، وتظاهر بذهول عميق؛ أدار حوله عينَيْن متسعتين، وانطبع وجهه بالأمارات التي تظهر عليه كلما أُخِذ ليُجلَد، وكتب تيير: «لم يكد مترجم نابليون يتكلَّم حتَّى استبدَّ بالقوقازي لون من الذهول، فلم يعُد يحرِ جوابًا، وظلَّ يمشي وعيناه شاخصتان إلى ذلك الغازي الذي بلغ اسمه مسامعه عبر أقفار الشرق. لقد توقَّفت ثرثرته فجأة ليحلَّ محلها شعور بالإعجاب الصامت الساذج، وبعد أن كافأه نابليون منحه الحرية كما يحرَّر العصفور الذي يعاد إلى الحقول التي شاهدت مولده.»

تابع نابليون طريقه وهو يحلم بموسكو، تلك التي كانت تحتلُّ حيِّزًا كبيرًا من تفكيره، أمَّا العصفور الذي أُعيد إلى الحقول التي شاهدت مولده، فقد حثَّ جواده حتَّى بلغ الخطوط الأمامية وهو يعدُّ في خياله قصة مغامرات وهمية يرويها على زملائه؛ ذلك

لأن ما وقع له بالذات لم يكن في نظره يستأهل عناء روايته. ولَمَّا لحق بالقوقازيين استعلم عن المكان الذي ينزل فيه فَوْجُه الذي كان تابعًا لجيش بلاتوف. وحوالي المساء وجد سيده نيكولا روستوف قرب أيانكوفو وهو يمتطي صهوة جواده مع إيلين؛ للقيام بنزهة في القرى المجاورة. وحينئذٍ أمر روستوف أن يُعطى لافروشكا جوادًا آخر، ثم صحبه معه.

الفصل الثامن

موت الأمير بولكونسكي

لم تكن الأميرة ماري في موسكو ولا خارج منطقة الخطر كما كان يظن آندريه.

عندما عاد ألباتيتش من سمولنسك، بدا الأمير العجوز كأنه استفاق من حلم فجأة. أصدر الأمر بتجنيد متطوِّعين في قراه وبتسليحهم، ثم أنبأ الجنرال القائد الأعلى بأنه قرَّر البقاء في ليسيا جوري، وأن يدافع عن نفسه فيها حتَّى النَّفَس الأخير، وأنه يرجع إليه أمر اتخاذ التدابير الآيلة إلى حماية إقطاعية يتعرض فيها واحد من أقدم الجنرالات الروسيين إلى الأسر أو القتل أو إغفال مثل هذه التدابير، ثم أعلن للمقربين إليه أخيرًا أنه لن يتحرَّك من مقاطعته.

ولكن رغم رفضه ترك منازله عجَّل في ترحيل ماري والأمير الصغير وديسال إلى بوجوتشاروفو، ومن هناك إلى موسكو، ولقد رُوِّعت الأميرة كثيرًا لذلك النشاط المحموم الذي أعقب فترة من الجمود: لم تستطِع أن توافق على ترك والدها وحده؛ لذلك فقد سمحت لنفسها لأول مرة في حياتها بعصيانه. رفضت الذهاب، فانهالت عليها العاصفة التي كثَّفها غضب الأمير، ألقى عليها كل الأسواء التي تجعلها مسئولة دون وجه حق: لقد جعلت حياته لا تُطاق، وخاصمته مع ولده، واتخذت آراءً على حسابه بشعة ولا تكير إلا في تسميم حياته. وأخيرًا طردها من مكتبه وأعلن أنه سيَّان عنده أذهبت أم لم تذهب؛ إنه يعتبرها ميتة ويمنعها إلى الأبد من الظهور أمامه. ولقد هدأ حزن ماري حينما علمت أنه لم يأمر بترحيلها بالقوة كما كانت تتوقَّع، لقد أدركت أن العجوز في أعماق نفسه سعيد لبقائها إلى جانبه.

وفي اليوم التالي لذهاب نيكولا الصغير؛ ارتدى الأمير العجوز منذ الصباح الباكر بزَّته الكبرى واعتزم الذهاب لرؤية القائد الأعلى. وكانت العربة قد أُعِدَّت فرأته ماري يخرج من مكتبه متحلِّيًا بكل أوسمته، ويأخذ طريق الحديقة ليستعرض فلاحِيه وخدَمه وهم تحت

السلاح. جلستْ إلى نافذة وراحت تصيخ السمع إلى نبرات صوت أبيها التي كانت تصل إليها منذ أن بلغ البستان، وفجأةً هرع بعض الرجال عن طريق الممشى الرئيسي تنطق وجوههم بالارتياع.

اندفعت ماري إلى المرقاة، وبلغت الممشى الرئيسي جريًا مخترقة بستان الخضار. رأت جماعة من الخدم المتطوعين يهرعون للقائها، وفي وسط هذه الجماعة بعض الرجال يجرُّون العجوز القصير في بزَّته المغطَّاة بالأوسمة من تحت إبطيه. لم يسمح لها الضوء الخفيف الذي كان يتسلَّل عبر أغصان الزيزفون الكثيفة أن تتبيَّن للوهلة الأولى انقلاب تقاطيع وجهه. لاحظت فقط أن وجهه الذي كان من قبل صارمًا وحازمًا قد اتخذ طابعًا من الخضوع والفزع. ولمَّا رأى ابنته بعث من شفتيه العاجزتين بضعة أصوات غامضة مبحوحة، فلم يستطع أحدٌ معرفة ما كان يريد قوله. نقلوه حملًا إلى مكتبه؛ حيث أسجوه على تلك الأريكة التي باتت منذ بعض الوقت توحي إليه بخوفٍ هائل.

وصل الطبيب الذي أرسلوا يستدعونه في الليل، فقصد الأمير وأعلن أنه أصيب بشلل في جنبه الأيمن. ولمَّا بات البقاء في ليسيا جوري يزداد خطرًا، فقد نقلوه إلى بوجوتشاروفو منذ صباح اليوم التالي حيث صحبه الطبيب، فلمَّا وصلوا إلى هناك كان ديسال ونيكولا الصغير قد سافرا إلى موسكو.

ظل الأمير العجوز ثلاثة أسابيع على حالته تلك. لقد نقلوه إلى البيت الجديد الذي ابتناه آندريه لنفسه، فظلَّ مُسجى هناك فاقدًا رشده أشبه بالجثة المشوَّهة، كان يدمدم باستمرار ويحرِّك شفتيه وحاجبَيْه، ولكن كان يستحيل معرفة ما إذا كان شاعرًا بما يدور حوله. وكل ما أمكن معرفته هو أنه يتألم ويشعر بحاجة إلى التعبير عن شيء ما. ولكنْ أيُّ شيء؟ لم يستطع أحدٌ معرفته. هل كانت نزعته مجرد هوًى أو هذيان مريض أم كان لذلك علاقة بالأحداث أم بشئون الأسرة؟

كان الطبيب يعزو هذا الاضطراب إلى أسباب جسدية خالصة، بينما كانت ماري على العكس تظن أن أباها يريد أن يكلِّمها، الأمر الذي يؤيده اكتئاب المريض المتزايد دائمًا في حضرتها.

كان ولا ريب يتألَّم جسديًّا وفكريًّا، لم يكن هناك أمل في شفائه كما لم يكن مستطاعًا التفكير في نقله؛ إذ ماذا كان بمقدورهم أن يعملوا لو أنه مات أثناء الطريق؟ وكانت ماري تتساءل أحيانًا: «ألا تكون النهاية أفضل؟» كانت تراقبه ليل نهار دون أن تنام تقريبًا، فكان — وهذا ما يؤلم قوله — يكتشف أحيانًا على وجهها ليس أمارات التحسُّن، بل على العكس، بوادر ما يسبق النهاية.

اضطرت ماري، سواء برضائها أو رغمًا عنها، أن تعترف بهذا الشعور الذي هو أسوأ ما في الأمر؛ وهو أنه منذ مرض أبيها، بل وقبل ذلك بقليل، عندما ظلَّت وحيدة معه تنتظر حدوث شيء ما، عادت الرغبات والآمال المنسية الغافية في أعماق نفسها إلى التيقظ بتجبُّر، عادت فكرة استطاعتها الحياة مستقلة متحرِّرة من رهبة أبيها، بل والتعرف على الحب والسعادة الزوجية، تلك الفكرة التي لم تعد تخطر لها منذ سنوات، عادت اليوم تراود مخيِّلتها، ولقد عملت ما تستطيع لطرد هذه الفكرة، لكنها ظلت تتساءل كيف ستنظِّم حياتها بعد وقوع حدث معيَّن؟ فكانت هذه الآراء ولا ريب إغراءات الشيطان، لا تستطيع دفعها إلى الصلاة؛ لذلك كانت تتخذ وضع الصلاة وتنظر إلى الصور المقدَّسة وتتلفَّظ بالعبارات المألوفة، لكنها ما كانت تصلِّي إلا بشفتيها. كانت ترى نفسها مُساقة إلى عالم جديد، عالم من الحركة والعمل والحرية معاكس تمامًا للعالم الفكريِّ الذي ظلَّت سجينته حتَّى ذلك الحين، والذي كانت الصلاة وحدها سلوتها فيه، فلم تعد تستطيع الصلاة ولا البكاء؛ لقد استبدَّت بها الحياة.

بات التأخر في بوجوتشاروفو خطرًا، فالفرنسيون ما زالوا يتقدَّمون، ولقد نُهِبت مُقاطَعة على بعد أربعة أميال من هناك من قِبل رجالهم السلَّابين.

أخذ الطبيب يُلحُّ على ماري بنقل المريض، وأرسل نقيب الأشراف إلى الأميرة ماري موظفًا يطلب إليها الذهاب في أسرع ما يمكن. وجاء النقيب نفسه ينبِّئها بأن الفرنسيين باتوا على بُعْد ثمانية أميال من هنا. إنَّ نداءاتهم باتت الآن تتناقل في القرى، فإذا لم ترتحل حتَّى الخامس عشر فإنه لن يكون مسئولًا عن شيء.

قرَّرت ماري أن تذهب ذلك اليوم، فانشغلت في الاستعدادات وإصدار الأوامر طيلة يومها؛ لأن الجميع باتوا الآن يوجِّهون الكلام إليها، وأمضت ليلة ١٤-١٥ كعادتها دون أن تخلع ثيابها في الحجرة المجاورة لغرفة الأمير. سمعت مرات عديدة خلال نومها أنَّات أبيها بصوته الأجشِّ وطقطقة سريره وخطوات الطبيب وتيخون اللذين كانا يبدِّلان من وضعيته في الفراش. وجاءت مرات عديدة تصيخ السمع وراء الباب. خُيِّل إليها أن المريض ليلتئذ يتألَّم ويتخبَّط أكثر من المعتاد، فلم تستطِع أن تعود إلى سريرها، واقتربت مرات عديدة إلى ذلك الباب الذي ما كانت تجد الجرأة على اجتيازه. وعلى الرغم من عجزه عن الكلام فإن ماري كانت تشعر أنَّ كل تظاهر بالعطف يُسخِط أباها؛ ألم يكن يتهرَّب باستمرار من نظرتها كلما رأى أنها شاخصة إليه؟ لذلك كانت تعرف أن زيارتها له في الليل في ساعة غير مألوفة ستثير غضبه.

مع ذلك، فإنها لم تشعر قط بأكثر من ذلك الحزن وأعظم من ذلك الرعب، اللذين أثارهما خوفها من فقده. كانت تستعرض مراحل الحياة التي أمضياها واحدهما بجانب الآخر، فكانت تكتشف في كل كلمة وفي كل حركة من كلمات الشيخ وحركاته محبَّة لها، ومن حين إلى آخر كان الشيطان يعود إلى مهاجمتها، فيُدخِل في ذكرياتها المناظر المُغرية لمستقبل أكثر استقلالًا، لكنها سرعان ما كانت تطرده بشدة … وحوالي الصباح هدأ الأمير فاستطاعت ماري أن تنام.

استيقظت متأخرة، وفجأةً أطلعتها الصراحة الوحشية في الإحساس الذي يرافق اليقظة على ما كان يشغل بالها أكثر من أي شيء في مرض أبيها، مضت إلى الباب تُصغي، ولمَّا تناهى إليها تنفُّس المريض الأجش؛ حدَّثت نفسها وهي تتنهَّد أن الأمر لا زال على ما كان. وفجأةً، هتفت وقد استبدَّ بها تقزُّز من نفسها: «ولكن، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ ماذا أريد إذن؟ موته!»

ارتدت ثيابها واعتنت بشعرها، ثم تلت بعض الصلوات ومضت إلى المرقاة؛ حيث وقفت العربات دون أن تقطر إليها الخيول وهم يملئونها بالأمتعة. كان الصبح بديعًا يتخلَّله غيم خفيف، لبثت ماري هناك فترة طويلة وهي يذهلها الهول إزاء دناءتها، تحاول استعادة هدوئها قبل أن تعود المريض، وهبط الطبيب السُّلَّم وجاء إليها يقول: «إنه أحسن حالًا قليلًا اليوم. كنت أبحث عنكِ، لقد بدأنا نفهم ما يقول. تعالَي، إنه يطلبكِ!»

خفق قلب ماري لهذا النبأ بشدة، حتَّى إنَّ وجهها امتقع واضطرت أن تعمد إلى الباب فتستند إليه خشية أن تسقط، أن ترى أباها وتخاطبه وتقابل نظرته وهي التي كانت منذ حين فريسة مثل تلك الأفكار المجرمة، كان مدعاة لقلقها العنيف رغم ما يخالط ذلك العذاب من فرح.

عاد الطبيب يقول: «تعالَي.»

دخلت حجرة أبيها واقتربت من السرير. كان قد أُقعد في سريره بينما راحت يداه الصغيرتان العظيمتان اللتان ظهرت فيهما العروق الزرقاء تدعك الغطاء، وكانت عينه اليسرى شاخصة إلى نقطة أمامه، أما اليمنى فتشوص، بينما ظلَّ حاجباه وشفتاه جامدة، وكانت لشخصيته الجافَّة الصغيرة كلها منظر يثير الإشفاق، وباتت تقاسيمه قد رقَّت، وبدا وجهه كأنه مذاب. قبَّلت ماري يده، ومن الطريقة التي ضغط بها الكهل بيده اليسرى على يدها، أدركت أنه ينتظرها منذ زمن طويل، بل إنه هزَّها أيضًا بينما تقلَّصت شفتاه وحاجباه بحركة غاضبة.

نظرت إليه في شيء من الروع وهي تحاول أن تُخمِّن ما كان يريد منها، ولمَّا أبدلت مكانها لتسمح لعين العجوز اليسرى أن ترى وجهها، هدأ بضع لحظات ثم تحرَّكت شفتاه ولسانه وخرجت أصوات من فمه، وراح يتكلَّم وهو يتوسَّل إليها بنظرة واجفة، وبه خشية واضحة من أن لا تفقه قوله.

راحت ماري تتأمَّله وهي تركِّز كل انتباهها فيه، لكنه كان يحرك لسانه بمجهودات مضحكة، حتى إنها ما استطاعت إلا أن تكفَّ الطرف وأن تدفع بمجهود جبَّار الحشرات التي راحت تتصاعد إلى حنجرتها. غمغم بشيء ما، وكرَّر كلماته مرارًا، فلم تقدر الأميرة ماري على فهمها. مع ذلك، فقد كانت تجهد نفسها لتخمِّن المعنى، وتعيد ما يُخيَّل إليها فَهْمه من كلمات بلهجة مستفهِمة.

أخيرًا، اعتقد الطبيب أن المريض يسأل عما إذا كانت الأميرة خائفة، لكن العجوز سفَّه هذا الظن بإشارة من رأسه، وعاد من جديد إلى الأصوات نفسها يخرجها.

أكَّدت ماري فجأة: «آه! لقد عرفت! إنه يقول إن روحه تتألَّم.»

فأجاب «بنعم» غير واضحة، وأمسك بيد ابنته وأثبتها على عدة مواضع من صدره وكأنه يبحث عن أفضلها.

نطق بشكل أكثر وضوحًا هذه المرة: «كل أفكاري نحوكِ، كلها ...»

وأصبح صوته وقد تأكَّد مِن أنه استطاع إفهامها قصده؛ أكثر ثباتًا.

كبتت ماري دموعها، وأحنَتْ رأسها على يد أبيها، فمرَّ هذا بيده على شعرها. دمدم: «لقد ناديتُكِ مرات عديدة خلال الليل.»

فأجابت خلال دموعها: «نعم، لقد عرفت، وكنت أخاف الدخول عليك.»

ضغط على يدها وقال: «ألم تنامي؟»

– «كلا.»

وأيَّدت هذا الجواب بإشارة نفي من رأسها، ثم راحت مثله تتحدَّث بالإشارات وكأنها باتت تحت تأثير أبيها، وخُيِّل إليها أن لسانها يدور بجهد.

– «يا روحي[1] العزيزة ... يا صديقتي العزيزة — ولم تفهم التعبير الصحيح، ولكنها أدركت من نظرته أنه يوجِّه إليها لأول مرة كلمة حانية — لماذا لم تأتي؟»

[1] الروح بالفرنسية «آم» والصديقة «آمي»، ومن هنا نجَم الالتباس في إدراك قصده الصحيح.

فكَّرت ماري في نفسها: «وأنا التي كنت أتمنى له الموت!»

استأنف بعد صمت: «شكرًا، شكرًا يا صديقتي، يا ابنتي ... على كل شيء، على كل شيء ... صفحًا ... شكرًا ... صفحًا ... شكرًا!»

وسالت دموعٌ من مآقيه، ثم سأل وقد اتخذ وجهه سيماء الطفل الذي يخاف مجابهة سؤاله بالرفض: «استدعي آندريه.»

بدا كأنه أدرك شخصيًّا صبيانيَّةَ هذا الطلب، أو أن هذا على الأقل ما خُيِّل إلى ماري. أجابت: «لقد تلقَّيت رسالة منه.»

نظر إليها بدهشة ووجل: «وأين هو إذن؟»

– «إنه في الجيش يا أبي، في سمولنسك.»

أغمض عينيه، وظل طويلًا صامتًا، ثم وكأنه أراد أن يبدِّد شكوكها وأن يثبت بنفس الوقت أنه استعاد ذاكرته وأحاسيسه، عاد وفتحهما ثم أشار برأسه إشارة إيجابية.

قال بصوتٍ خافتٍ ولكن واضح: «نعم، لقد ضاعت روسيا، لقد أضاعوها.»

وانفجر منتحبًا من جديد، وسالت دموع على خدَّيه، فلم تستطِع ماري الصمود أكثر من ذلك، فاستسلمت لدموعها هي الأخرى وهي تنظر إلى وجهه.

أغمض عينيه ولم يلبث أن هدأ، وأشار إلى عينيه فأدرك تيخون قصده فجفَّفها.

عاد ففتح عينيه، ثم فاه ببضع كلمات لم يتوصَّل أحدٌ إلى فهمها باستثناء تيخون وحده، وكانت ماري تحمل معناها على مختلف الأفكار التي واتتها حتَّى ذلك الحين: روسيا، آندريه، هي نفسها، حفيده أم موته. لكن الأمر كان متعلِّقًا بشيء آخر؛ لقد قال: «اذهبي وارتدي ثوبكِ الأبيض، إنه يعجبني.»

ولَمَّا نقل إليها تيخون هذا التمنِّي تضاعف إجهاش ماري، وحينئذٍ أمسك الطبيب بيدها وأخذها إلى الشرفة؛ حيث عُني بتهدئة ثائرتها، ولفت نظرها إلى ضرورة الإسراع باستعدادات الرحيل تكلَّم الأمير مرةً أخرى عن ولده أثناء غياب ماري، وعن الحرب والإمبراطور، وقطَّب حاجبَيْه بشكل يدل على الغضب، وراح صوته الأجش يزداد ارتفاعًا، وفجأةً أصيب بصدمة ثانية كانت الأخيرة.

كانت ماري خلال ذلك واقفة على الشرفة، وقد أخذ الطقس يجمل والحرارة تثقل. ما كانت ماري قادرة على فهم شيء، كانت مستسلمة بكُلِّيتها إلى محبَّتها والتي تكنُّها لأبيها، تلك المحبة التي خُيِّل إليها أنها ظلَّت تجهل غورها حتَّى ذلك اليوم. هرعت إلى

الحديقة وهي تنشج، ونزلت حتَّى بلغت المستنقع على طول الممشى الحديث الذي تحفُّه من الجانبين أشجار الزيزفون الفتيَّة التي غرسها الأمير آندريه.

أخذت تُكرِّر في نفسها وهي تسير بخطًى واسعة وتضغط على صدرها بيدها، ذلك الصدر الذي كانت تنبعث منه زفرات تشنُّجية: «وأنا ... وأنا ... التي تمنَّيت موته! نعم، لقد تمنَّيت أن ينتهي كل هذا بسرعة ... كنت توَّاقة إلى أن أتذوَّق الراحة أخيرًا ... ثم ماذا سيحلُّ بي الآن؟ أية فائدة تعود بالراحة عليَّ إذا لم يعد هو في الوجود؟»

قادها طوافُها في الحديقة إلى التوجه نحو البيت؛ فإذا بها ترى الآنسة بوريين التي كانت ترفض مغادرة بوجوتشاروفو، آتيةً لاستقبالها ومعها مجهول. كان هذا نقيب الأشراف في المقاطعة، وقد جاء بنفسه يحث الأميرة على الرحيل. وبعد أن لبثت ترافقه فترة، اعتذرت له وأرادت أن تدخل غرفة أبيها، لكن الطبيب الذي كان خارجًا منها منقلب الأسارير منعها من الدخول.

– «يستحيل يا أميرة، يستحيل!»

عادت ماري إلى الحديقة، إلى أسفل المنحدر المؤدِّي إلى المستنقع، إلى مكان لا يمكن لأحد أن يراها فيه، وجلست على العشب. ما كانت تستطيع معرفة الوقت الذي أمضته في مكانها ذاك خائرة القوى حتَّى جعلتها خطواتٌ نسائية مندفعة تعود إلى تمالك نفسها. نهضت فشاهدت وصيفتها دونياشا التي كانت تفتِّش عنها، لكنها ما إن رأت سيدتها، حتَّى توقَّفت وكأنها صُعِقت. قالت بصوت متقطِّع: «هل تريدين الحضور يا أميرة؟ إن الأمير ...»

قالت ماري دون أن تترك لها وقت إتمام جملتها: «إنني ماضية، إنني ماضية.»

وجرَت إلى البيت وهي تتحاشى نظرة دونياشا.

قال لها النقيب الذي كان ينتظرها عند المدخل: «أيتها الأميرة، إن مشيئة الله على وشك أن تتمَّ، فكُوني مستعدة لكل شيء.»

صرخت بصوتٍ شرس: «دعني، هذا غير صحيح.»

وحاول الطبيب أن يمنعها، فدفعته جانبًا واندفعت إلى الباب: «لماذا يستوقفني هؤلاء الناس؟ ماذا تعبِّر عنه وجوههم المروَّعة؟ لست في حاجة إلى أحد. ماذا يفعلون هنا جميعهم؟» فتحت الباب وأحسَّت بالخوف وهي ترى تلك الحجرة التي ظلت حتَّى ذلك الحين غارقة في عتمة الظل، تسطع فيها أنوار النهار القوية. كانت مربِّيتها العجوز ونسوة

آخرون هناك، فابتعدن عن السرير ليُتِحن لها مجال المرور ... كان الأمير لا يزال مستلقيًا، لكن وجهه كان مطبوعًا بخطورة مشرقة جعلت ماري تتوقف لحظة على عتبة الباب.

حدَّثت نفسها وهي تقترب: «كلا، إنه ليس بميت! هذا مستحيل!» تغلَّبت على روعها ولمست بشفتيها وجْنَة أبيها، لكنها لم تلبث أن تراجعت إلى الوراء. لقد أفسح الحنان كله الذي كانت تحس به حياله المكانَ فجأةً لعاطفة من الهول: «إذن، إنه لم يعد على قيد الحياة! إنه لم يعد في المكان الذي كان فيه. لم يعد الآن إلا ما لست أدري من مجهول ومخيف؛ سِرٌّ رهيب يجعلني أرتعد من الهول!» ثم أخفت رأسها بين يديها وانهارت بين ذراعَي الطبيب الذي أسندها.

شرعت النساء بحضور تيخون والطبيب يعنِين بزينة مَن كان الأمير بولكونسكي. غسلن الجسد وأبقين الفم مطبقًا مستعينات بمنديل، ثم أوثقن الساقين اللتين انفرجتا بمنديل آخر، ثم بعد أن ألبسنه بزَّته الموشاة بالأوسمة، مددن تلك الجثة الصغيرة المهزولة فوق المائدة. الله وحده يعرف من أعطى الأوامر ومنذ متى أُعطيَت، لكن كل شيء كان يسير بنظام تلقائي. وحوالي المساء، أضيئت الشموع حول النعش المغطَّى بستار رقيق، وكانت الأرض قد فُرشت بأغصان العرعر، وأودعت صلاة مطبوعة تحت رأس الميت، بينما راح المرتِّل يترنَّم في صلواته في إحدى الزوايا.

وكما تُرى الخيول عندما تجتمع وتتنافر وتحتدُّ حول حصان ميت، كذلك شوهدت في البهو حول النعش جماعةٌ من الناس تحتشد بين أقرباء وغرباء: نقيب الأشراف والحاكم ونساء القرية، وكلهم شاخصة أبصارهم مفعمة بالذعر، يرسمون إشارة الصليب وينحنون ويقلِّبون يد الأمير العجوز الباردة المتصلِّبة.

الفصل التاسع

فطنة ألباتيتش

قبل أن يقيم الأمير آندريه في ذلك الملك، ظلَّ فلَّاحو بوجوتشاروفو بعيدين عن عينَي سيدهم. كانوا يختلفون كل الاختلاف عن فلَّاحي ليسيا جوري الذين امتازوا عنهم باللغة والألبسة والعادات. كانوا يسمُّونهم «جماعة القفار»، وعندما كانوا يذهبون إلى ليسيا جوري لمساعدتهم في الحصاد أو لتنظيف المستنقعات والحفر، كان الأمير يمتدح كفاءتهم في العمل، لكنَّ وحشيتهم كانت تُنفِّره.

ولقد عملت إقامة الأمير آندريه الأخيرة بينهم وتجديداته التي أدخلها — مستشفيات، مدارس، تخفيف قيود حصة المالك — بعيدًا عن تلطيف عاداتهم، على إبراز هذه البادرة الظاهرة من عقليتهم التي كان الأمير العجوز يسمِّيها وحشية. كانت الشائعات المبهجة تروج بينهم دائمًا؛ فحينًا كانوا سيسجِّلونهم في عِداد القوقازيين، وحينًا آخر سيُدخلونهم في دينٍ جديد، وكانوا تارةً يتبادلون ما يزعمون أنه رسائل من القيصر، ويزعمون حينًا آخر أنَّ السادة عندما أقسموا يمين الولاء للإمبراطور بول، وعدوا بتحرير رقيق الأرض، لكنهم لم ينفِّذوا ما وعدوا به، بل إنهم تناقلوا مرةً مؤكِّدين أن «بول الثالث» سيعود ويحكم في غضون سبع سنين، وسيصبح كل الرقيق حرًّا على عهده، وسيجري كل شيء ببساطة زائدة، حتَّى إنه لن يكون ثمة حاجة إلى أية قوانين بهذا المعنى. وكان ما يروونه عن الحرب ونابليون والغزو يختلط عندهم بمبادئ غامضة عن المسيح الدجَّال ونهاية العالم والحرية العامة.

وكان إلى جوار بوجوتشاروفو قرًى كبيرة تعود إلى التاج أو إلى أشخاص خصوصيين، ولكنها جميعها آهلة بقرويين تابعين لنظام الإتاوة، وكان عدد قليل جدًّا من السادة يقيم بينهم؛ لذلك فإن عدد الملمِّين بقواعد القراءة بين الرقيق والخدم قليل جدًّا. وعلى ذلك فإن التيارات الخفيَّة في الحياة الشعبية بين سكان تلك القرى التي ظلت أسبابها ومرماها سرًّا

مستغلقًا على المعاصرين، كانت أكثر قوةً منها في الأمكنة الأخرى. وكذلك على سبيل المثال، وقعت بينهم منذ عشرين عامًا خلت حركة هجرة إلى بعض الأنهار ذات المياه الساخنة، وباعت مئات الأسر فجأةً ماشيتها، ومن بينها عدد من عائلات بوجوتشاروفو، ونزحت إلى مكان ما في الجنوب الشرقي، فكانوا يتوجَّهون إلى تلك المناطق التي لم تطأها من قبل قدمُ أحدهم مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم أشبه بالعصافير المهاجرة التي تعبر البحار. وكان بعضهم يشتري حريته والبعض الآخر يفرُّ، ويذهبون جميعهم على أقدامهم أو في عربات قوافل إلى المياه الحارَّة. ولقد لحق ببعضهم فعُوقبوا وأُرسلوا إلى سيبريا، ونفق البعض الآخر خلال الطريق من البرد والجوع، وعاد الباقون طواعيةً إلى أمكنتهم الأولى، ثم انتهت الحركة من تلقاء نفسها كما بدأت دون سبب ظاهر. لكن التيارات العميقة استمرت تجري بين هذا الشعب الذي أخذ يستمدُّ منها قوة جديدة كانت ستظهر يومًا ما على شكل غاية في الغرابة وعدم التوقع، وبنفس الوقت غاية في البساطة الطبيعية. وكان كل من عاش خلال تلك الفترة من عام ١٨١٢م مع هذا الشعب، يشعر بأنه إنما يُعَدُّ من قِبل هذه القوى البطيئة التي لا بدَّ وأن تظهر إلى الوجود ذات يوم.

لاحظ ألباتيتش الذي وصل إلى بوجوتشاروفو قبل موت الأمير ببعض الوقت، حركةً ما بين الفلاحين؛ ذلك أن «رجال القفر»، على عكس ما كان يجري في منطقة ليسيا جوري أو في دائرة قطرها خمسة عشر ميلًا؛ حيث السكان يهجرون قراهم لينهبها القوقازيون؛ كانوا يعقدون الصلات مع الفرنسيين، ويتلقَّون منهم بعض الأوراق، ولا يفكرون قط في الرحيل. وعلم ألباتيتش عن طريق بعض الخدم الموالين له، أن المدعو «كارب» — وهو شخص قوي النفوذ في المنطقة، الذي عاد مؤخَّرًا من تسيير قافلة من العلف لحساب التاج — كان ينشر إشاعة مفادها أن القوقازيين ينهبون القرى التي يهجرها سكانها، في حين أن الفرنسيين يحترمون السكان. وأخبروه كذلك أن قرويًّا آخر حمل أمس من ضيعة فيسلوؤتخوفو التي يحتلها العدو نداءً يُخطِر فيه الجنرالُ الفرنسي السكانَ بأنه لن يقع لهم أي مكروه، وأنهم إذا ظلُّوا في أماكنهم فإنهم سيدفعون لهم عدًّا ونقدًا ثمن كل شيء يأخذونه منهم. وتأييدًا لهذا المزعم كان ذلك الفلاح الخشن يريهم ورقة مالية من ذات المائة روبل — ما كان يَعرف أنها زائفة — أُعطيت له عربونًا على علف اتفق معهم على تسليمه لهم.

بل هناك ما هو أكثر خطرًا؛ لقد علم ألباتيتش أنه في ذلك الصباح بالذات الذي أصدر فيه الأمر إلى شيخ الضيعة بإعداد العربات لنقل الأميرة، عُقِد اجتماع في القرية قرَّروا فيه

عدم الذهاب وانتظار ما تأتي به الأحداث. مع ذلك، فقد كان الوقت مدركًا، وفي ١٥ آب، يوم وفاة الأمير، ألحَّ نقيب الأشراف على الأميرة ماري أن تذهب من فورها؛ لأن الموقف بات يثير القلق، وأنه إذا انقضى يوم ١٦ آب، فإنه لن يكون مسئولًا. ولقد ذهب ذلك المساء بالذات واعدًا أن يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن، لكنه لم يفِ بوعده؛ لأن تقدُّمًا مفاجئًا من جانب العدو اضطره إلى ترحيل أسرته وما يملكه من ثمين، بأسرع ما يمكن.

كانت بوجوتشاروفو منذ حوالي ثلاثين عامًا تدار من قِبل المدعو درون؛ وهو واحد من أولئك القرويين المتينين جسديًّا وأخلاقيًّا، الذين تزداد كثافة لحاهم كلما تقدَّموا في السن، ولكنهم يبلغون الستين وأكثر دون أن يتبدَّل فيهم شيء آخر، أو أن تغزو شعرة بيضاء مفارقهم، أو أن تسقط واحدة من أسنانهم، بل يظلون منتصبي القامة في مثل قوة أبناء الثلاثين.

ولقد عيِّن درون بعد حركة الهجرة إلى المياه الحارَّة بقليل — تلك الهجرة التي اشترك فيها — شيخَ بلد في بوجوتشاروفو؛ وهو مركز ظلَّ يشغله منذ ثلاثة وعشرين عامًا بشكل لا يتطرَّق إليه النقد، وكان الفلاحون يخافونه أكثر مما يخافون أسيادهم، أما سيادة الأمير العجوز والشاب، وكذلك الوكيل، فقد كانوا يحترمونه ويسمُّونه على سبيل الدعابة: الوزير. لم يُرَ طيلة مدة خدمته ثملًا أو مريضًا مرة واحدة، ولم يُظهِر قط، حتَّى في أعقاب ليالٍ بيضاء أو بعد أعمال شديدة الإعنات، أية بادرة من التعب، ولم يُخطئ قط رغم جهله القراءة والكتابة لا في حساباته النقدية ولا عدد مكاييل الدقيق الذي كان يبيع منه عربات ضخمة، ولا في عدد حزم الحشيش الذي تنتجه كل قصبة مربَّعة من مساحة الحقل.

وكان درون هذا، هو الذي استقدمه ألباتيتش الذي جاء من الأرض المخرَّبة المنهوبة: ليسيا جوري، يوم الدفن، وكلَّفه باستحضار حوالي اثني عشر جوادًا لعربات الأميرة، وثماني عشرة عربة صغيرة للأمتعة التي كان يجب نقلها. وعلى الرغم من أن القرويين كانوا خاضعين لنظام الحصة، فإن تنفيذ مثل هذا الأمر في نظر ألباتيتش ما كان يجب أن يلقى أية صعوبة؛ لأن بوجوتشاروفو كانت تعد مائتين وثلاثين بيتًا وسكانها كلها في يسر. مع ذلك، فإن شيخ القرية درون خفض عينيه لدى تلقِّيه الأمر دون أن ينبس ببنت شفة، ولقد عيَّن له ألباتيتش بعض القرويين من معارفه الذين يمكن أن يقوموا بعملية النقل، فقال درون إن خيول أولئك القرويين غير موجودة، فعيَّن له ألباتيتش غيرهم. غير أن درون زعم أن هؤلاء بالمثل لا يملكون جيادًا؛ فالبعض صودر لمصلحة التاج والبعض

الآخر أُنهك، بل إن قسمًا من خيولهم نفقت من قلة الغذاء. ولقد اشتطَّ في مزاعمه إلى حدِّ تعذُّر إيجاد خيول للعربات.

تأمَّله ألباتيتش بانتباه وقطَّب حاجبَيْه. وإذا كان درون يُعتبر شيخ بلد مثاليًّا، فإن ألباتيتش الذي ظلَّ عشرين عامًا يدير أملاك الأمير، كان كذلك مسجِّلًا مثاليًّا بالمثل، ولقد كان يمتاز بحاسة خارقة تساعده على تفهُّم حاجات ومشاعر الأشخاص الذين يتعامل معهم تفهُّمًا رائعًا؛ لذلك فإن نظرة واحدة إلى درون كشفت له على الفور أن أجوبة درون لم تكن تعكس إمكانياته واستعداداته الشخصية، بل إمكانيات بوجوتشاروفو الذي كان متأثرًا بنفوذ أهلها. ولم يكن جاهلًا أن درون الفلاح الذي أَثْرى، والذي يكرهه القرويون الآخرون، لا بدَّ وأن يتردَّد بين اختيار واحد من المعسكرين: معسكر السادة، ومعسكر القرويين. ولقد قرأ ألباتيتش كل هذا على وجه الرجل البسيط؛ لذلك فقد مشى إليه مقطَّب الحاجبَيْن، وقال له: «اسمع يا درون، لا ترو لي ترَّهات، لقد أعطاني صاحب السعادة الأمير آندريه نيكولايفيتش نفسُه الأمرَ بإجلاء كل الناس وعدم ترك أحد على اتصال مع العدو، وهناك أمرٌ من القيصر متعلِّق بهذا الموضوع، وكل مَن يبقى يُعتبر خائنًا. هل تسمعني؟»

أجاب درون دون أن يرفع إليه عينيه: «أسمع.»

لكن هذا الجواب لم يُرضِ ألباتيتش، فقال وهو يهزُّ رأسه: «آه! درون، سوف يفسد الأمر!»

فقال درون حزينًا: «كما تشاء!»

استرسل ألباتيتش، الذي أخرج يده من شق «قفطانه» وأشار إلى الأرض يلفت نظر درون بحركة مفخَّمة إلى مواطئ قدميه: «كفى، لا تتظاهر بالمكر! إنني لا أرى بوضوح ما في نفسك فحسب، بل كذلك أرى ما تحت قدميك إلى عمق ثلاثة أقدام.»

ألقى درون المضطرب نظرة مختلسة إلى ألباتيتش، لكنه ما لبث أن خفض عينيه على الفور.

– «دعك من هذه الحماقات واذهب إليهم وقُلْ لهم أن يستعدوا للرحيل غدًا إلى موسكو، وأن يأتوا منذ صباح الغد بالعربات لنقل أمتعة الأميرة، وعلى الأخص لا تظهر في الاجتماع. هل سمعتني؟»

تهالَك درون عند قدمي المسجِّل: «يا أياكوف ألباتيتش، اعزلني من مناصبي! استعِدْ مني المفاتيح بحقِّ السماء!»

فقال ألباتيتش بصرامة: «كفى!»

وأعاد قوله: «إنني أرى ما تحت قدميك إلى عمق ثلاثة أقدام.»

وكان يعرف أن براعته في العناية بالنحل وخبرته في مسائل البذار، وواقع أنه استطاع طيلة عشرين عامًا وأكثر أن يُرضي الأمير العجوز؛ كل ذلك أعطاه لقب ساحر، وإن السحرة يستطيعون رؤية ما تحت قدمَي رجل إلى عمق ثلاثة أقدام.

نهض درون وأراد أن يتكلَّم، لكن ألباتيتش قطع حديثه: «ما الذي يطوف برأسك، هن؟ هيا، ماذا دهاك؟»

– «ماذا أستطيع أن أعمل مع هؤلاء الناس؟ إنهم كلهم منقلبون رأسًا على عقب … لطالما قلت لهم …»

– «قلت لهم! قلت لهم! … إنهم سكارى، أهو هذا؟»

– «لم يعودوا مالكي أعصابهم يا أياكوف ألباتيتش، هذا هو البرميل الثاني الذي يأتون عليه.»

– «حسنًا، أصغِ إذن. سأُخطِر الحاكم، وأنت اذهب وقل لهم أن يتركوا كل هذه الأشياء، وأن يقدِّموا العربات.»

– «رهن أوامرك.»

لم يُلِحَّ أياكوف ألباتيتش أكثر من ذلك، كان يعرف أن أفضل طريقة لجعل الناس يطيعونك هي ألَّا تضع طاعتهم موضع الشك، فلمَّا حصل من درون على جملة «رهن أوامرك» الخاضعة، فقد اكتفى بها رغم أنه تأكَّد أكثر من أي وقت أن العربات لن تقدُم دون تدخل القوات المسلحة.

والواقع أن المساء أقبل دون أن تصل عربة واحدة، ولقد تشكَّل اجتماع جديد أمام المشرب قرَّروا فيه طرد الخيول إلى الغابة وعدم تقديم شيء. ودون أن يقول شيئًا للأميرة أمر أن تحلَّ الخيول المقطورة إلى عرباته الشخصية التي جاء بها من ليسيا جوري، وأن تقطر تلك الخيول التي تصبح شاغرة بحكم إبقائه عرباته في مكانها، إلى عربات الأميرة، ثم مضى يستنجد بالسلطات.

الفصل العاشر

الأميرة ودرون

بعد أن شَيَّعت ماري والدها إلى مثواه الأخير؛ اعتكفت في حجرتها ورفضت استقبال أيٍّ كان. وجاءت خادم تقرع بابها قائلةً إن ألباتيتش ينتظر تعليماتها من أجل الرحيل، وكان ذلك قبل حديثه مع درون، فنهضت الأميرة عن الأريكة التي كانت مستلقية عليها وقالت من وراء الباب إنها لا تفكر قط في الرحيل، وسألت أن يتركوها بسلام.

كانت نوافذ غرفتها تطلُّ على المغرب، وكانت — هي — مستلقية على الأريكة ووجهها إلى الجدار تعبث بزرٍّ وسادة من الجلد بين أصابعها، فلا ترى إلا تلك الوسادة؛ إذ تركَّزت أفكارها المبهمة حول موضوع وحيد: كانت تفكِّر في طبيعة الموت المحتوم، وفي إسفافها الخلقي التي ما كانت تلمسه حتَّى ذلك الحين، والذي تجلَّى لها خلال مرض أبيها، وكانت تريد من أعماق نفسها أن تصلِّي، ولكن في الحالة الفكرية التي وجدت نفسها فيها ما كانت تجرؤ على الالتفات إلى الله، وهكذا ظلت في وضعها ذاك ممدَّدة فترة طويلة جدًّا.

كانت الشمس تغيب في الجانب الآخر من البيت، فراحت إشعاعاتها المنحرفة تغمر غرفتها خلال النافذة المفتوحة وتضيء جانبًا من الوسادة الجلدية التي شخصت ماري إليها بأبصارها، وفجأةً انقطع مجرى أفكارها، فانتصبت بحركة آلية وسوَّت شعرها، ثم اقتربت من النافذة وراحت رغمًا عنها تستنشق هواء تلك الأمسية الرائعة العليل.

حدَّثت نفسها وهي تتهاوى على كرسيٍّ وتتكئ برأسها على حافَّة النافذة: «نعم، تستطيعين الآن أن تتأملي جمال المساء بهدوء، لم يَعُد هناك من يزعجك بعد الآن، كما وأنه لن يأتي أحدٌ لهذه الغاية.»

ناداها صوت رقيق عطوف من الحديقة، وأحسَّت أن أحدهم يقبِّل رأسها، فالتفتت وإذا بالآنسة بوريين في ثوب حِداد مزيَّن بأكمام عريضة خاصة بمناسبات الحِداد على

فقيد عظيم، قد اقتربت برفق وعانقت ماري وهي تتنهَّد، ثم غرقت في الدموع. تذكَّرت ماري حينذاك خلافاتها ومدى إحساسها بالغيرة من هذه الفرنسية، لكنها تذكَّرت كذلك أن الأمير في الأيام الأخيرة أبدل سلوكه حيالها، وأنه لم يَعُد يرغب في رؤيتها، فاستنتجت من ذلك أن الشكوك التي أقامتها في أعماق نفسها لم تكن محقَّة، وقالت لنفسها: «ثم، هل لي أنا، أنا التي تمنَّيت موت أبي، أن أحكم على الغير؟»

رسمت ماري لنفسها بسرعة موقف الآنسة بوريين التي أرغمتها الظروف على العيش عند الآخرين رهن مشيئة شخص استبعدها منذ فترة من الوقت، فأشفقت على هذه المرأة. نظرت إليها بحنان كئيب، ومدَّت إليها يدها، فقبَّلت الآنسة بوريين تلك اليد، وراحت خلال دموعها تحدِّثها عن البلاء الذي أصابها، والذي تحمِل هي نصيبًا منه. قالت إنها لن تجد عزاءً لألمها الشخصي إلا في عطف الأميرة، وأن الخلافات السابقة كلها يجب أن تتبدَّد أمام هذا الألم العظيم، وأنه فيما يتعلَّق بها، فإن ضميرها نقيٌّ، وإن «هو» من الأعلى كان يرى حبها وعرفانها بالجميل. أصغت إليها الأميرة ماري دون أن تدرك معنى كلماتها وراحت من حين إلى آخر ترفع عينيها إليها مستسلمة للهجة حديثها. استأنفت الآنسة بوريين بعد فترة صمت: «إن موقفك رهيب بشكل مضاعف يا أميرتي العزيزة، إنني أفقه ألَّا تكوني قد استطعتِ التفكير في نفسك كما لا تفكرين فيها الآن. لكن محبَّتي التي أكنُّها لكِ ترغمني على أن أقوم مقامكِ في ذلك ... هل جاء ألباتيتش لرؤيتك؟ هل حدَّثك عن الرحيل؟»

لم تُجِب ماري. ما كانت تدرك عن أي رحيل تتحدَّث. «هل أستطيع الآن أن أشرع في أي شيء كان؟ هل أستطيع حتَّى التفكير في أي شيء؟ أليس العالم كله في نظري عديم القيمة؟» لم تُجِب، فألحَّت الآنسة بوريين: «هل تعرفين يا ماري العزيزة أننا في خطر؟ إننا محاطون بالفرنسيين، حتَّى بات الرحيل الآن خطيرًا، فإذا رحلنا تعرَّضنا لخطر الوقوع في الأَسْر والله يعلم.»

راحت ماري تنظر إلى رفيقتها دون أن تفهم قصدها. أخيرًا قالت: «آه! ليتهم يعرفون أنَّ كل شيء في نظري أصبح تافهًا! لا ريب أنني أفضِّل ألَّا أبتعد «عنه» ... ولقد ألمح ألباتيتش إلى هذا الرحيل ... اتفقي معه، أما أنا فلست أريد ولا أقدر على شيء ...»

– «لقد تكلَّمت إليه. إنه يأمل أن نستطيع الرحيل غدًا، لكنني أظن أن من الأفضل بقاءنا هنا. وافقي على ذلك يا عزيزتي ماري. سيكون مريعًا أن نقع خلال الطريق بين يدَي الجنود أو القرويين الثائرين.»

وأخرجت الآنسة بوريين من حقيبة يدها بيانًا يختلف ورقه عن ورق الوثائق الروسية، صادرًا عن الجنرال رامو، يدعو فيه السكان إلى عدم مغادرة مساكنهم، وأن السلطات الفرنسية سوف تمنحهم الحماية اللازمة لهم.

قالت الآنسة بوريين وهي تمدُّ يدها بالبيان إلى أميرة: «أظن أن من الأفضل أن تتصلي بهذا الجنرال. إنني قانعة من أنه سيظهر حيالنا ما نستحق من رعاية.»

قرأت ماري البيان فتقلَّصت أساريرها وسألت: «من أين لكِ هذا؟»

أجابت الآنسة بوريين ووجهها يتضرَّج: «لا ريب أنهم عرفوا من اسمي أنني فرنسية.»

اغبرَّ وجه ماري، فنهضت والورقة في يدها ومضت إلى المكتب الذي كان الأمير آندريه يجلس فيه، وهناك أمرت: «دونياشا، ادعي ألباتيتش أو درون أو من تشائين!»

ثم أردفت عندما سمعت صوت الآنسة بوريين: «وقولي لأميلي كارلوفنا ألَّا تَدَع أحدًا يدخل عليَّ.»

قرَّرت وقد رُوِّعت لفكرة إمكان وقوعها بين أيدي الفرنسيين: «يجب الذهاب، أو الذهاب بأسرع ما يمكن!»

«لو أن آندريه عرف أنها رهن مشيئتهم، لو عرف أن ابنة الأمير نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي قد التمست حماية السيد الجنرال «رامو» وأفادت من حسن التفاتاته!» أخذت هذه الفكرة تدفع الدماء إلى وجهها وتجعلها ترتعد ثم تغلي من الاعتداد والغضب، وكانت تتصوَّر ما في مثل هذا الموقف من إيلام وخنوع. «سوف يتمركز هؤلاء الفرنسيون هنا، لكن الجنرال رامو سيحتل مكتب أخي، وسوف يتلهَّى بقراءة أوراقه ورسائله، وستقدِّم لهم الآنسة بوريين تحيات بوجوتشاروفو، وسيتركون لي غرفة صغيرة على سبيل الإحسان، وسيدنِّس الجنود ضريح أبي الذي لمَّا يجف بعد؛ لكي ينتزعوا منه صليبه وأوسمته، وسيروون لي انتصاراتهم على الروسيين، وسيُظهرون حِيالي عطفًا منافقًا ...» والحق يقال، إن هذه الأفكار لم تكن تعبِّر عن إحساسات الأميرة ماري وحدها، بل كذلك إحساسات أبيها وأخيها التي وجدت أنها مرغمة على تبنِّيها بحكم الظروف الحاضرة. ما كان يهمها أين ستكون ولا ماذا سيحصل لها، لكنها كانت تتصوَّر وجود أبيها المرحوم وأخيها الغائب، فكانت تشعر وتحس مثلهما رغمًا عنها، وكانت تقدِّر أن من واجبها أن تعمل وتقول ما كانا سيعملانه ويقولانه. ولمَّا كانت معتكفة في مكتب الأمير آندريه، فقد راحت تحاول أن تستعرض الموقف وهي تفكِّر مثل تفكيره.

وفجأةً فرضت ضرورات الحياة اليومية — التي ظنَّت أنها اختفت منذ وفاة والدها — وجودها فرضًا عليها، وبأشدِّ قوة كما لم تثقل كاهلها قط من قبل.

أخذت تروح وتجيء في الحجرة وهي مضطربة متضرِّجة الوجه، تطلب ألباتيتش تارةً، وميخائيل إيفانوفيتش تارةً أخرى، تيخون حينًا ودرون حينًا آخر، ولم تكن دونياشا ولا المربية ولا أية واحدة من الخادمات لتستطيع أن تحدِّثها بشيء واضح حول مزاعم الآنسة بوريين. لقد كان ألباتيتش غائبًا ساعيًا وراء الاستعانة بالسلطات، ولم يستطِع المهندس ميخائيل إيفانوفيتش الذي مَثَل أمامها وعيناه منتفختان من النوم، أن يحدِّثها بشيء. لقد أجاب على أسئلة الأميرة بمثل تلك الابتسامة المؤيدة التي سمحت له خلال خمسة عشر عامًا أن يجيب على أسئلة الأمير العجوز دون أن يعبر عن رأيه في محادثاته معه، فكانت كلماته لا تتيح للمرء أن يستنتج منها شيئًا. ولَّما سألت الوصيف العجوز تيخون الذي كان وجهه المنقلب يحمل طابع حزن لا يشفى، أجاب بعبارته الخالدة: «رهن أوامرك.» وكلما رفع عينيه إلى ماري وجد صعوبة عظيمة في كبت إجهاشه.

أخيرًا، جاء شيخ البلد درون، وبعد أن حيَّا سيدته بمزيد الاحترام، جمد في مكانه بجانب إطار الباب.

اجتازت ماري الحجرة ووقفت أمامه، وقالت له وهي تظن واثقةً أنها واجدة صديقًا أمينًا في درون ذاك الذي كان يأتيها بالحلوى من الأنواع التي تحبها كلما ذهب في رحلته السنوية إلى معرض فيازما: «يا دروني الطيب، يا دروني الطيب، انظر بعد مصيبتنا ...»

وأمسكت وقد خانها النطق على الاسترسال. فأجاب وهو يتنهَّد: «إننا جميعًا في يد الله.»

وران صمت. أخيرًا استطاعت ماري أن تقول: «يا دروني الطيب، لقد ذهب ألباتيتش ولم يبقَ لديَّ مَن أتوجه إليه بالحديث. إنهم يزعمون أنني لا أستطيع الذهاب. فهل هذا صحيح؟»

– «ولماذا لا تستطيعين الذهاب يا صاحبة السعادة؟»

– «إنهم يؤكِّدون لي أن الرحيل يمثِّل خطرًا بسبب جوار العدو. يا صديقي الباسل، إنني لا أستطيع شيئًا ولا أفهم شيئًا، وليس لديَّ من يشير عليَّ بشيء. أريد مهما كلَّف الأمر أن أرحل هذه الليلة أو غدًا صباحًا على أعظم حدٍّ.»

لم ينبس درون بكلمة، أخذ يختلس النظر إلى سيدته، ثم قال أخيرًا: «لا توجد خيول. ولقد قلت هذا القول من قبل لأياكوف ألباتيتش.»

– «ولماذا لا توجد خيول؟»

– «إن عقاب الله مسلَّط علينا. إن الخيول التي كانت موجودة صودر بعضها من قِبل الجيوش ونفق الباقي، يا لها من سنة شقاء! إن أمر الحيوانات بسيط لولا أن الناس

أنفسهم لا يجدون ما يأكلونه ... هناك من منذ ثلاثة أيام لم يضعوا شيئًا تحت أسنانهم ... لقد نُكِبنا كما ترين، نُكبنا تمامًا.»

أصغت إليه ماري بانتباه ثم سألت: «الفلَّاحون منكوبون؟ ألم يعد لديهم شيء من القمح؟»

– «إنهم يموتون جوعًا ... كيف تريدين أن يقدِّموا عربات؟! ...»

– «ولماذا لم تقُل شيئًا يا دروني الطيب؟ ألا يمكن تقديم المساعدة إليهم؟ سوف أعمل كل ما أستطيع ...»

في تلك اللحظة التي كانت متأثرة بحزن عميق يحرقها؛ وجدت الأميرة ماري أن من الغرابة وجود أغنياء وفقراء، وألَّا يفكر الأغنياء في نجدة الفقراء، ولقد سمعت بشيء من الغموض عن قمح مخصَّص «للسيد» كانوا أحيانًا يوزِّعونه على القرويين، وكانت تعرف أن أباها أو أخاها ما كانا يرفضان تقديم المساعدة لهم، لكنها كانت تخاف ألَّا تستطيع التعبير عن رغبتها، كانت سعيدة ألَّا تستطيع بسبب غاية نبيلة طرد ألمها لفترة ما؛ لذلك فقد سألت درون عن تفاصيل حاجات القرويين واحتياطي بوجوتشاروفو.

– «ولكن يجب أن يكون لدينا قمح ... حصة أخي!»

أجاب درون باعتداد: «إن حنطة الأمير سليمة لم تُمس، لقد رفض أميرنا أن تباع.»

– «وزِّعها على القرويين، أعطِهم كل ما يحتاجون إليه، إنني أجيزك باسم أخي.»

اقتصَر جواب درون على تنهُّدة عميقة.

– «أعطِهم ذاك القمح إذا كانت كميته تكفيهم، أعطِه لهم كله، آمُرك باسم أخي، قُلْ لهم إن ما لنا نحن لهم كذلك، وإننا لا ندخر شيئًا في سبيل مساعدتهم. قل لهم كل ذلك.»

ظلَّت عينا درون شاخصتين إلى الأميرة خلال حديثهما، فقال: «بحق السماء يا أميرة، اعزليني من منصبي، مُريني أن أعيد مفاتيحي، لقد خدمت طيلة ثلاثة وعشرين عامًا دون أن آتي سوءًا، فاعزليني بحق السماء.»

ولَّما لم تدرك ماري شيئًا من دوافع هذا الطلب، أجابته بأنها لم تشك قط في وفائه، وأنها ستعمل المستحيل من أجله ومن أجل القرويين.

الفصل الحادي عشر

قرار الفلاحين

وبعد ساعة، دخلت دونياشا معلنة للأميرة أن درون قد عاد، وأن القرويين المجتمعين بناءً على أمرها قرب المكدس يرغبون في التحدث إليها.

قالت ماري: «إنني لم أستدعِهم. لقد قلت لدرون فقط أن يعطيهم قمحًا.»

فقالت دونياشا: «إذن يا أميرتي الطيبة، مُرِي بهم أن يُطرَدوا، وخصوصًا لا تذهبي إليهم بحق السماء، إن كل هذه ليست إلا خدعة، سوف نذهب عندما يعود أياكوف ألباتيتش ... ولكن لا تحتملي عناءً.»

سألت ماري بدهشة: «عن أية خدعة تتحدَّثين؟»

– «إنني أعرف ما أقول ... اتَّبعي نصائحي بحق السماء، سَلِي المربية إذا شئتِ، إنهم يرفضون الذهاب حسب أمرك.»

– «لا بدَّ وأنكِ مخطئة. إنني لم آمرهم قط بالرحيل ... ادعي درون.»

أيَّد درون أقوال دونياشا: «لقد جاء القرويون للقاء الأميرة بناءً على أمرها.»

قالت ماري: «لكنني لم أستدعِهم أبدًا! لعلك أخطأت. لقد قلتُ لك ببساطة أن توزِّع عليهم القمح.»

أطلق درون تنهُّدة وقال: «سوف يرجعون إذا كنتِ تأمرين.»

– «كلا، كلا، أريد أن أذهب لرؤيتهم.»

وعلى الرغم من توسُّلات دونياشا والمربية، فقد مضت إلى المرقاة، فتبعها الامرأتان ودرون وميخائيل إيفانوفيتش.

حدَّثت نفسها: «لا ريب أنهم يعتقدون أنني أمنحهم القمح شريطة أن يبقوا في أماكنهم فأهجرهم بذلك ليصبحوا رهن أوامر الفرنسيين، سوف أعِدُهم بجراية شهرية

وبمأوًى في عقارنا القريب من موسكو، إنني واثقة من أن آندريه كان سيفعل أكثر من ذلك لو كان في مكاني.»

وعندما وصلت إلى المرعى قرب المكدس؛ حيث ينتظرها القرويون، كان الليل قد أقبل. ولقد حصلت حركة بين الجماعة المحتشدة ثم حُسرت الرءوس فجأةً، فاقتربت ماري منهم مُطرقة الرأس وهي تتعثَّر بردائها، ولكثرة الوجوه الفتيَّة والهرِمة والأبصار التي كانت متجهة نحوها، لم تستطِع أن تميِّز أحدًا، ولَمَّا كانت واثقة من أنها تخاطبهم جميعًا فقد ارتُجَّ عليها، ولكن إيمانها بأنها إنما تمثِّل أباها وأخاها، أعطاها من جديد هِمَّة ونشاطًا، فراحت تتكلَّم بجرأة رغم أن قلبها كان يخفق بشدة.

قالت دون أن ترفع عينيها إليهم: «إنني مسرورة لمجيئكم، لقد قال لي درون إن الحرب قد نكبتكم. إنها بلاؤنا المشترك؛ لذلك فإنني لن أدخر وسعًا في سبيل مساعدتكم ... يجب عليَّ أن أذهب؛ لأن العدو قريب، ولأن ... ولأنني مُعرَّضة للخطر ببقائي هنا ... لكنني أعطيكم كل شيء يا أصدقائي، أسألكم أن تأخذوا كل قمحنا كيلا تصبحوا معوزين، وإذا قالوا لكم إنني أقدِّم لكم هذه المنحة كي تمكثوا هنا، فهو خطأ، إنه على العكس، إنني أرجوكم أن تذهبوا حاملين كل ما تملكونه، وأن تقيموا في أملاكنا قرب موسكو، وأَعِدُكم بتقديم المأوى والطعام.»

توقَّفت ماري ولم يُجِبها الجمع إلا بالتنهدات. استرسلت: «إنني لا أتقدَّم بهذا التعهد باسمي وحدي، بل إنني أتصرف باسم المرحوم أبي الذي كان سيدًا طيبًا لكم، وباسم أخي وابنه.»

توقَّفت مرة أخرى ولم يقطع أحدٌ الصمت. أردفت وهي تفحص الوجوه بأنظارها: «إن البلاء يشملنا جميعًا؛ لذلك فإننا سنوزِّع كل شيء مناصفة، إن كل ما يخصني يخصكم.»

كانت العيون كلها شاخصة إليها وفيها تعبير عام متشابه، ولكن ماذا كان يعني ذلك التعبير: الفضول، التفاني، العرفان، أم على العكس: الذعر والتحفُّظ؟ هذا ما لم تستطع تبيانه.

قال صوت من الوراء: «إننا نشكرك على أفضالك، لكننا لا نستطيع أخذ حنطة السيد.»

– «ولماذا إذن؟»

لم تحظَ بجواب، ولاحظت ماري أنَّ النظرات التي أخذت تلتقي الآن بنظراتها راحت تروغ منها من فورها. ألحَّت في السؤال: «لماذا لا تريدون؟»

ولكن دون أن يجيب أحد.

أحسَّت ماري بالانزعاج، فحاولت أن تستوقف إحدى تلك النظرات. سألت عجوزًا واقفًا قبالتها مباشرة متكئًا على عصاه، استطاعت أن تضبط نظرته.

– «لماذا لا تقولون شيئًا؟ تكلَّمْ، هيا، إذا كنتم في حاجة إلى شيء آخر فإنني سأعمل كل ما يجب.»

لكن العجوز زاد من إطراق رأسه، وكأن الأمر زاد في إغضابه، وأعلن: «لماذا نوافق؟ لسنا في حاجة إلى القمح.»

وقالت أصوات كثيرة انبعثت من الحشد: «ولماذا يجب أن نتخلى عن كل شيء؟ إننا لن نوافق ... إننا لن نوافق. لن نعطي موافقتنا ... اذهبي وحدكِ ...»

ومن جديد عادت الوجوه تنطبع بذلك الطابع، ولكن بات بالإمكان قراءة المعنى بكل وضوح الآن؛ إنه ليس طابع الفضول أو العرفان، بل إنه أمارات العزم الوحشي.

قالت ماري بابتسامة حزينة: «لا ريب أنكم أسأتم فهمي. لماذا ترفضون الذهاب؟ إنني أعدكم بإيوائكم وإطعامكم في حين أن العدو سينكبكم هنا ...»

بَيْدَ أن أصوات الجماعة خنقت صوتها: «سيَّان! لينكبنا! إننا لا نريد قمحكِ، ولن نعطي موافقتنا.»

حاولت ماري أن تضبط نظرة في ذلك الجمع، ولكن ما كانت إحداها متجهة نحوها، كانت العيون كلها تتحاشاها، فازداد انزعاجها.

– «كم هو جميل هذا الذي تعرضه علينا! أن نذهب هكذا معها ونترك بيوتنا تُهدم، أن نضع الحبل حول أعناقنا! وكيف لا؟! إنني أعطيكم قمحًا!»

هذا ما راحوا يقولونه بينهم، فعادت ماري إلى البيت منكَّسة الرأس، وبعد أن كرَّرت لدرون أنها تريد خيولًا لصباح اليوم التالي، انسحبت إلى غرفتها؛ حيث انفردت مع أفكارها.

الفصل الثاني عشر

ذكريات ماري

ظلَّت ماري ليلتئذ واقفة فترة طويلة أمام نافذتها المفتوحة، لا مبالية بجلبة الأصوات التي كانت تتصاعد من القرية: ماذا يهمها من هؤلاء الناس الذين لا تستطيع أن تفهم قط؟ لم تعُد تفكِّر إلا في ألمها، ذلك الألم الذي أخذ يدخل في حنايا الماضي بعد هذا الإلهاء الذي خلقته هموم الحاضر. إنها تستطيع الآن أن تذكر وتبكي وأن تصلي. هدأت الريح بغروب الشمس، وجاء الليل ساكنًا رطيبًا، وصمتت الأصوات تدريجيًّا حوالي منتصف الليل، وصاح ديك وظهر البدر من وراء الزيزفون، ونشر الندى أبخرته البيضاء، وران السكون فوق القرية والبيت.

تمثَّلت أمامها صور ماضٍ قريب، الواحدة تلو الأخرى: المرض ولحظات أبيها الأخيرة. ولقد توقفت عندها بتلذذ ضجر لا تدفع عنها منها بهول إلا واحدة، تلك التي تمثل الموت التي كانت تشعر أنها لا تملك القوة على استعراضها في تلك الساعة الصافية الغامضة من الليل. ولقد بدت لها تلك المشاهد بوضوح شديد وتفصيل دقيق، حتى إنه كان يُخيَّل إليها أنها ملك الحاضر تارةً، وتارةً الماضي والمستقبل، مرةً أخرى.

عادت ترى تلك الدقيقة التي أصيب فيها أبوها بالنوبة القلبية في حديقة ليسيا جوري: كانوا عائدين به وهم يحملونه من تحت إبطيه، وكان يغمغم شيئًا بلسانه العاجز، ويقطِّب حاجبَيْه الأبيضين وينظر إليها بحزن وخجل.

فكَّرت: «كان يريد منذ ذلك الحين أن يقول لي ما قاله يوم موته. لقد كان ذلك هو مستقر تفكيره دائمًا.» وفجأةً تذكَّرتِ الليلة التي سبقت النوبة في أدقِّ تفاصيلها، حينما توقَّعتْ أن يحلَّ مكروه فرفضت أن تتركه وحيدًا. لقد نزلت على أطراف قدميها وقد جفاها النوم، فلما وصلت إلى باب الحديقة الشتوية، حيث كان أبوها يُمضي ليلته تلك، سمعته يتحدَّث مع تيخون بصوتٍ منهك محطَّم عن القرم والليالي الحارَّة وعن الإمبراطورة. كان

بلا ريب يشعر بحاجة إلى الكلام. ولقد حدَّثت ماري نفسها وهي تتصوَّر موقفه الآن: «ولماذا لم يأمر باستدعائي؟ لماذا لم يسمح لي بأن أحلَّ محل تيخون بالقرب منه؟ آه! إنه لن يقول لأحد أبدًا ما كان يعتلج في قلبه حينذاك. إن تلك اللحظة التي كان يمكن أن يقول خلالها ما يريد أن يقوله، والتي لو كنتُ هناك عوضًا عن تيخون أُصغي إليه وأفهمه، لن تعود أبدًا بالنسبة إليه ولا بالنسبة إليَّ. آه! لماذا لم أدخل ليلتئذ؟! كان سيحدِّثني ولا ريب كما حدَّثني وهو على فراش الموت. إنني أذكر أنه بينما راح يتحدَّث مع تيخون استفسر مرتين عني. كان يتوق إلى رؤيتي بينما كنت أنا وراء الباب. كان يتألَّم من أن لا يسمعه أحد غير تيخون الذي ما كان يستطيع فهمه. لقد حدَّثه عن «ليز» وكأنها لا تزال على قيد الحياة؛ لأنه نسي ولا ريب أنها ماتت؛ فلما لفت تيخون انتباهه إلى أنها لم تُعد في هذه الدنيا، نعته بالأحمق. لقد كان يتألم، لقد سمعت خلال الباب كيف زمجر وهو يستلقي على السرير، وكيف صاح: «رباه!» لماذا لم أدخل حينذاك؟ ماذا كان عمل لي؟ أي خطر كان يهددني؟ لعل زيارتي كانت ستحمل له الراحة، ولعله كان سيقول لي هذه الكلمة.» وبصوتٍ مرتفعٍ لفظت ماري تلك الكلمة المالقة التي قالها لها يوم موته: «يا روحي العزيزة!» وراحت تردِّدها وهي تذرف الدموع المسكنة. باتت ترى الآن أمامها وجه أبيها، ليس ذلك الوجه النافر الذي عرفته دائمًا، بل ذلك الوجه الجزِع الضعيف الذي تأمَّلته لأول مرة في أدقِّ تقاطيعه عندما مالت عليه لتقترب من شفتيه بغية سماع ما سيقول.

كرَّرت: «يا روحي العزيزة ...»

وتساءلت فجأةً: «ماذا كان يفكر عندما قال لي هذه الكلمة؟ بأي شيء كان يفكر الآن؟» وجوابًا على هذا السؤال تصوَّرت التعبير الذي انطبع على وجهه وهو في نعشه وحول ذقنه العصابة البيضاء، وعاد ذلك الرعب الذي استحوذ عليها عندما لمسته، فأحسَّت بأنه لم يعد هو نفسه فحسب، بل أصبح شيئًا غامضًا ومنفِّرًا، استحوذ عليها ذلك الرعب نفسه في تلك اللحظة. أرادت أن تفكر في شيء آخر؛ في الصلاة، لكنها لم تقدر على ذلك. راحت تتأمَّل ضياء القمر والأطياف بعينين جاحظتين وهي تتوقَّع في كل لحظة أن يظهر أمامها وجه الميت، وشعرت كأن الصمت العميق الذي يخيِّم على البيت وما حوله يشلُّ حركتها، فغمغمت ثم صرخت بصوت غريب: «دونياشا! ... دونياشا!»

وانتزعت نفسها من الصمت، فاندفعت إلى حجرة الوصيفات؛ حيث هرعت المربية ونساء أخريات إلى لقائها استجابةً لندائها.

الفصل الثالث عشر

تدخُّل روستوف

في السابع عشر من آب، ذهب روستوف وإيلين وتابعٌ لهما، ومعهم لافروشكا الذي عاد من أسره القصير، في نزهة من معسكرهم في أيانكوفو، على بُعد أربعة أميال من بوجوتشاروفو؛ بغية تجريب حصان جديد اشتراه إيلين، والبحث عن إمكان وجود علف في القرى المجاورة.

كانت بوجوتشاروفو منذ ثلاثة أيام بين الجيشين العدوَّيْن مُعرَّضة في كل لحظة لأن تحتلها مؤخرة الجيوش الروسية أو طلائع الجيوش الفرنسية؛ لذلك فقد كان روستوف بوصفه رئيس كوكبة نابه يريد أن يحصل قبل العدوِّ على ما قد تبقَّى من الأرزاق.

ولقد كان الشابان ذلك اليوم على خير مزاج، فكانا وهما في طريقهما إلى ذلك الملك الأميري، بوجوتشاروفو، الذي توقَّعا أن يريا فيه خدمًا كثيرين وبينهم فتيات جميلات كثيرات، يتسلَّيان بالسؤال من لافروشكا عن نابليون، أو باختبار الحصان الذي اشتراه إيلين متبارزَيْن في الجري.

ما كان روستوف يشك في أنَّ القطاع الذي يذهب إليه مِلْك لبولكونسكي ذاك الذي كان خطيب أخته.

وللمرة الأخيرة، أطلق وإيلين مطيتيهما عند المنحدر قبل بوجوتشاروفو، فكان روستوف الذي سبق صديقه أول من جرى في شارع القرية.

قال له إيلين وقد تورَّد وجهه: «لقد سبقني!»

فأجاب روستوف وهو يربِّت بيده على جواده «الدوني» الذي أبيض من الزبد: «لي السبق في كل الميادين.»

وقال لافروشكا من الوراء: «أتدري يا صاحب السعادة أنني كنت قادرًا على اللحاق بك على ظهر فرسي — وكان يدعو كديشة الجر التي كان يمتطيها بهذا الاسم — لكنني ما أردت أن أُخجلك.»

اقتربا من رُواقٍ وقف تحته عدد كبير من القرويين، فنزع بعضهم قلانسهم، واكتفى الآخرون بالنظر إلى الوافدين الجدد، وخرج عجوزان عملاقان متغضِّنا الوجه ذوا لحيتين غير ناميتين، من المشرب وهما يبتسمان ويتمايلان ويدمدمان في غير انسجام، واقتربا من الضباط.

قال روستوف وهو يضحك: «يا لهما من فتيين! قولي، هل لديكم علف؟»

وقال إيلين ملاحظًا: «إن كليهما زوج نادر ...»

ونطق أحد العجوزين بضحكة بلهاء: «سُررنا با ... للق ... اء ...»

واقترب واحد من الجماعة من روستوف وسأل: «من أنتم؟»

فأجاب إيلين بانشراح جزيل: «فرنسيون.»

وأضاف وهو يشير إلى لافروشكا: «بل إن هذا هو نابليون بالذات.»

استأنف القروي: «استنادًا إلى هذا، فأنتم روسيُّون؟»

واستفسر آخر قصير القامة وقد اقترب بدوره: «هل معكم خلق كثير؟»

أجاب روستوف: «كثير كثير ... ماذا تفعلون هنا؟ هل اتفق أن اليوم يوم عيد؟»

فقال الرجل وهو يبتعد: «لقد اجتمع شيوخنا للتداول في شئوننا.»

وفي تلك اللحظة نفسها، ظهر على الطريق المؤدي إلى البيت الكبير امرأتان ورجل يضع على رأسه قبَّعة بيضاء، فتوجَّهوا نحو الضابطين.

قال إيلين وهو يشير إلى دونياشا التي راحت تتجه نحوه بخطًى مصمِّمة: «إنني أحتفظ بذات الثوب الوردي فحذارِ أن «يلطشها» مني أحد!»

وقال لافروشكا وهو يغمز بعينيه بقحة: «سوف ننالها!»

سألها إيلين وهو يبتسم: «ماذا يلزمك يا جميلتي؟»

– «إن الأميرة أرسلتني لأسألكم عن الفوج الذي تنتمون إليه، وعن اسمكم!»

– «إنَّ السيد هو الكونت روستوف قائد الكوكبة، وأنا خادمكِ المتواضع.»

ودمدم العجوز الثمل ذو الضحكة البلهاء وهو يتأمَّل هذا المنظر: «سُررنا با ... للق ... اء ...»

وصل ألباتيتش على إثر دونياشا، وقد كشف عن رأسه باحترام قبل أن يصل، وقال بامتثال يظهر فيه بعض المقت لشباب روستوف، محتفظًا بيده في شقِّ ثوبه: «هل أجرؤ

على إزعاجكم يا صاحب النبالة، إن سيدتي، ابنة الجنرال القائد الأعلى الأمير نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي المتوفَّ في الخامس عشر من هذا الشهر، في موقف صعب بسبب غلظة هؤلاء الناس — وأشار بيده إلى القرويين — وهي تسألكم أن تذهبوا لرؤيتها ... هل تريدون أن تتنحوا قليلًا؟ إننا لا نستطيع أن نتفاهم بحضور هؤلاء — وأشار بابتسامة ضجرة إلى الثملَيْن اللذين كانا يدوران حوله متأخرين قليلًا كما يدور الذباب حول الخيل.»

وقال الرفيقان الثملان وهما يكشفان له عن أجمل ابتساماتهما: «هي! ألباتيتش! ... أياكوف ألباتيتش! ... إنك تتكلَّم جيدًا ... اعذرنا بحق المسيح.»

فلم يستطع روستوف حيال هذا المشهد إلا أن يبتسم هو الآخر، فقال أياكوف ألباتيتش بأشد لهجاته اتزانًا: «إلا إذا كان ذلك يبعث التسلية في نفس سعادتك.»

فقال روستوف: «كلا، لا يوجد ما يدعو إلى التسلية.»

ثم سأل بعد أن ابتعد قليلًا: «هيا، ما هو الموضوع؟»

– «يجب أن أُخطر سعادتك بأن هؤلاء القضامين لا يريدون أن يسمحوا لسيدتي بمغادرة المكان، مهدِّدين بحلِّ الخيول من العربات، حتَّى إن كل شيء معَدٌّ منذ هذا الصباح دون أن تستطيع الأميرة الذهاب.»

هتف روستوف: «مستحيل!»

– «لي الشرف بأن أروي لك الحقيقة النقية.»

ترجَّل روستوف وسلَّم حصانه إلى التابع، ثم اتجه نحو البيت برفقة ألباتيتش الذي شرح له تفاصيل المسألة، ولقد أفسد عرضُ توزيع القمح على القرويين وتفاهُم الأميرة مع درون ومندوبي المقاطعة؛ الأمرَ، حتى إن شيخ القرية أعاد مفاتيحه نهائيًّا ليلحق بمرءوسيه، فلم يستجِب لدعوة ألباتيتش. وعندما أصدرت الأميرة منذ الصباح الباكر الأمر بقطر الخيول إلى العربات استعدادًا للرحيل، اجتمع القرويون بعدد كبير أمام المكدس، وأرسلوا من يقول إنهم بدلًا من أن يَدَعوها تذهب سيحلُّون الخيول. ولـمَّا حاول ألباتيتش أن يعيدهم إلى صوابهم، أجابه السيد كارب — لأن درون كان يتحاشى الظهور — أن الأميرة بذهابها إنما تخالف التعليمات التي أصدرتها السلطات، وأن واجبها يحتِّم عليها البقاء، وأنهم سيستمرون على خدمتها كسابق عهدهم، ويطيعونها في كل شيء إن هي بقيت. وعندما كان روستوف وإيلين يصلان هدبًا إلى الطريق العام، كانت الأميرة متصاممة عن سماع لوم ألباتيتش والمربية والخادمات، تتأهَّب للذهاب مهما كلَّف الأمر، لكنها عندما

لمحت الفرسان الذين ظنَّت أنهم من الفرنسيين، كان الحوذيون قد فرُّوا بينما راحت النساء يملأن البيت توجُّعًا وأنينًا.

تعالت صرخات متوسِّلة بينما كان روستوف يجتاز الدهليز: «أنقِذنا أيها السيد العزيز. إن الله الكريم هو الذي أرسلك!»

وكانت الأميرة ماري ساهمة منهوكة القوى في البهو عندما أُدخِل عليها روستوف، فلم يسمح لها قلقُها البالغ أن تدرك للوهلة الأولى مَن هو ذلك الرجل وماذا جاء يفعل هناك، ولكنها عندما تبيَّنت مِن تصرُّف الضابط الشاب وكلماته الأولى التي فاه بها أنه روسي، وأنه رجل من طبقتها، حتَّى شخصت إليه بنظرتها العميقة المشرقة، وأجابته بصوت متهدِّج يقطعه الانفعال. ولا شك أن روستوف اكتشف لأول وهلة الجانب الروائي في المغامرة. فكَّر وهو يتأمَّل ماري ويصغي إلى قصتها وهي ترويها بصوتها الحي: «هذه الفتاة العزلاء المحطَّمة من الألم، واقعة تحت رحمة القرويين المتمرِّدين! يا لدعابة القدَر الذي ساقني إلى هنا في الوقت المناسب! ... ويا للرقة! يا للنُّبل في تقاسيمها وفي أمارات وجهها!»

وعندما بلغت في قولها إن كل هذا وقع غداةَ يوم دفن أبيها، ازداد صوتها اضطرابًا، فأدارت رأسها خشية أن يعتقد روستوف أنها تحاول أن تثير شفقته على مصيرها، ثم ألقت نظرة مستفسِرة وَجِلة على وجه الشاب. رأت أن الدموع كانت تتلألأ في مقلتيه. لاحظت الأميرة ماري ذلك، فشكرته بتلك النظرة المشرقة التي تُذهِب دَمامة تقاسيمها.

أعلن روستوف وهو ينهض واقفًا: «لا أستطيع يا أميرة أن أُعرب عن مدى سعادتي لوجودي هنا صدفة، ولاستطاعتي أن أضع نفسي تحت تصرفك الكلي. اذهبي، وإنني أكفل بشرفي أنكِ إذا سمحتِ لي بمرافقتكِ فلن يستطيع أحدٌ أن يسبِّب لكِ أيَّ إزعاج.»

واتجه نحو الباب وهو ينحني أمامها باحترام وكأنها أميرة من البيت المالك. لقد كانت تلك التصرفات الاحتفالية تقول إنه رغم رغبته الشديدة في أن يربط معها أواصر معرفة أوسع، إلا أنه لا يريد استغلال شقاء ماري ليتابع الحديث معها، ولقد فهمت الفتاة هذا المعنى وقدَّرت تلك الفطنة.

قالت له بالفرنسية: «إنني شاكرة لك صنيعك جدًّا جدًّا. آمل ألَّا يكون هذا كله أكثر من سوء تفاهم، وألَّا تجد فيه مذنبًا ...»

ثم أضافت وهي تشعر بالدموع تفرُّ من عينيها: «اعذرني ...»

قطَّب روستوف حاجبَيْه وانحنى مرةً أخرى وخرج.

الفصل الرابع عشر

إخماد الفتنة

حسنًا! إنها جميلة! إن فتاتي فاتنة يا عزيزي واسمها دونياشا ...

لكنَّ نظرة واحدة ألقاها على روستوف أصمتت إيلين على الفور. حدس أن رئيسه — بطلبه — لا يفكِّر الآن في الترَّهات.

والواقع أن روستوف لم يجِبه إلا بنظرة ثائرة، واتجه نحو القرية يحثُّ الخطى. كان يدمدم في سرِّه: «سوف أريهم، سوف أعطيهم ما يستحقونه هؤلاء الأنذال!»

ووجد ألباتيتش صعوبة في اللحاق به رغم أنه راح يوسع خطاه، ولَّما لحق به سأله: «أيُّ قرار اتخذتم يا صاحب السعادة؟»

توقَّف روستوف، وفجأةً تقدَّم نحو ألباتيتش مهدِّدًا بقبضتيه وصاح: «قرار! أيُّ قرار؟ أين كانت عيونك أيها الأبله العجوز؟ يتمرد القرويون فلا تعرف كيف تعيدهم إلى الطاعة! لست إلا خائنًا أنت الآخر! آه! إنني أعرفكم جيدًا، سوف أسلخ جلودكم جميعًا! ...»

ولَّما كان يخشى أن يبدِّد عبثًا الغضب الذي تجمَّع في نفسه، فقد ترك المسجِّل ليعود إلى مشيته السريعة، أما ألباتيتش، فقد راح بإلحاح يلحق بروستوف جريًا ليعرض عليه أفكاره، وقد فرض الصمت على كرامته المهانة؛ فالقرويون، إذا آمنَّا بكلامه، مدعومون كل الدعم، وإنَّ من غير الحكمة أن يناوئهم دون اللجوء إلى القوة المسلَّحة، فمن الأفضل إذن استدعاء الجنود قبل كلٍّ.

قال نيكولا وهو يجيب دون تروٍّ بعد أن استبدَّت به ضرورة فثء غضبه المخالف للصواب، الحيواني، الذي كان يخنقه: «استدعاء الجنود! ... مناوءتهم! ... سوف نرى هذا! ...»

مشى بخطوات حازمة إلى الجموع المحتشدة دون أن يفكِّر فيما سيعمل. وكلما ازداد قربًا من المحتشدين، ازداد اعتقاد ألباتيتش بأن هذه الحركة غير الحكيمة قد تؤدي بالفلاحين الثائرين إلى الندم، خصوصًا وأن مشية روستوف النشيطة ووجهه المتقلِّص أخذا على ما يبدو يُحدِثان على وجوههم مثل ذلك الأثر.

لم يكَد الفرسان يدخلون القرية، ولم يكَد روستوف يمضي إلى زيارة الأميرة، حتَّى عمَّ الخلاف والتباين في آراء الجماعة المحتشدة. صرخ بعضهم بأن الوافدين الجدد من الروسيين، وأنهم يستاءون من استبقائهم الأميرة. وكان درون من أنصار أصحاب هذا الرأي، لكنه ما كاد يفتح فمه حتَّى هاجم كارب وعدد آخر شيخَ البلد السابق هجومًا عنيفًا. صرخ كارب: «سيَّان عندك هذا، هن؟ منذ كم عام وأنت تجتزُّ الصوف من على ظهورنا؟ ثم تستخرج كنزك الدفين ثم الوداع، لقد رأيتك. سيَّان عندك أن يخربوا بيوتنا!»

وصرخ صوتٌ آخر: «إن ما قيل قد قيل، لا ليتحرك أحدٌ منكم ولا ليحمل أحدٌ ذرة! لا يمكن التراجع عن هذا القرار.»

وألقى عجوز صغير فجأةً مخاطبًا درون: «كان دور ابنك في الذهاب إلى الجيش، لكنك خشيت على ذلك المنتفخ الضخم، فكان أن أحللت ولدي محله! ... سوف نموت كلنا، هه، إذ يجب أن تكفِّر أنت الآخر عنها، عن خطاياك!»

– «نعم، بالطبع، يجب ذلك!»

فأعلن درون: «لن أنفصل عن البلد.»

– «كلام ... وبطنك العظيم هذا، من أين اكتسبته على هذا النحو؟ ...»

كذلك كانت ثرثرة العملاقين العجوزين.

لم يكَد روستوف، وبصحبته إيلين ولافروشكا وألباتيتش، يصل قريبًا من الجماعة حتَّى انبرى كارب إلى الأمام وأصابعه في حزامه والابتسامة الخفيفة على شفتيه، أما درون فقد راح على العكس يختفي في الصفوف الخلفية، واقترب الحشد المكتظ.

صاح روستوف وهو يمشي إليهم: «هو لا! من هو شيخ البلد؟»

فسأل كارب: «شيخ البلد؟ وماذا تريد منه؟»

لكنه لم يكَد يُتم جملته حتَّى كانت قلنسوته تطوح في الهواء، ورأسه يتأرجح تحت وطأة الضربة القوية.

زمجر روستوف: «ارفعوا القلانس! أيها الخونة!»

وكرَّر بصوتٍ رهيب: «أين شيخ البلد؟»

هرعت بعض الأصوات تقول وقد خضعت، بينما انحسرت الرءوس: «شيخ البلد! شيخ البلد! ... يا درون زاخاريتش، إنه يدعوك!»

أعلن كارب: «إننا لم نتمرَّد، لكننا نسهر فقط على التدابير المتخذة ...»

وبادرت أصوات من الوراء إلى نجدته: «لقد تمسَّكنا بقرار شيوخنا ... أما سلطات مثلكم فكثيرة الوجود ...»

هدر روستوف بصوت لم يكن فيه شيء من الإنسانية: «هن؟ ... تناقشون؟ ... عصيان! ... عصبة الأشرار! عصبة الخونة!»

وأمسك كارب من ياقته وقال آمرًا: «ليشدَّ وثاقه، ليشدَّ وثاقه!»

رغم أنه لم يكن هناك لتنفيذ هذا الأمر غير لافروشكا وألباتيتش، مع ذلك فقد هرع لافروشكا وأمسك يدَي الرجل من الخلف، وقال: «إن الرفاق عند أسفل المنحدر، فهل يجب استدعاؤهم؟»

وانتخب ألباتيتش اثنين من القرويين خرجا بوداعة من بين الصفوف وشرعا يحلَّان نطاقَيْهما، بينما صرخ روستوف من جديد: «أين شيخ البلد؟»

خرج درون من بين الجمع شاحب الوجه مكتئبًا، فهتف روستوف آمرًا وكأن تنفيذ أمره لا يجب أن يصطدم بأي عائق: «هذا أنت شيخ البلد؟ اشدد وثاقه يا لافروشكا!»

وبالفعل، فقد حلَّ اثنان آخران من القرويين حزامَيْهما وراحا يوثقان يدَي درون الذي سهَّل المهمة من جانبه بتقديمه نطاقه الذي حُلَّ من حول وسطه.

استأنف روستوف يقول مخاطبًا القرويين: «أما أنتم، فأصغوا إليَّ جيدًا. منذ هذه اللحظة، إلى الأمام سر! ليمضِ كلٌّ منكم إلى داره، وليتحاشَ التفوُّه بكلمة!»

قالت بعض الأصوات، راح أصحابها يتبادلون الاتهام: «لم نرتكب إثمًا ... لقد تصرَّفنا هكذا بغباء ... لقد قلتَ إن هذا لن يؤدِّي بنا إلى أي شيء ...»

وقال ألباتيتش الذي استعاد سلطته من فوره: «لقد أخطرتكم من قبل، إن العمل ليس حميدًا أيها الفتيان!»

فأجابته أصوات: «ماذا تريد يا أياكوف ألباتيتش؟! لسنا ماكرين.»

وتفرَّقت الجماعة على الفور، بينما تأثَّر الثملان خطوات السجينين اللذين اقتيدا إلى البيت.

قال أحدهم لكارب: «يا لشكلك الجميل!»

وأيَّد الآخر: «ماذا دعاك إلى التحدث هكذا إلى الأسياد؟ إنك أبله يا فتاي، أبله شديد البأس!»

وبعد ساعتين، وقفت العربات في الفناء وراح القرويون يرصفون فيها أمتعة سادتهم بحماس، بينما راح درون الذي أُخرِج من الحجرة الصغيرة التي سُجن فيها بناءً على طلب الأميرة، يُلقي الأوامر إلى القرويين.

قال أحد الفلاحين، وهو فتًى مديد القامة ذو وجه مستدير باسِم، وهو يتلقَّى صندوقه من يدَي خادمة: «ضع هذا في مكان جيد. إن مثل هذا الشيء ثمين، فلا يجب حشره كيفما اتفق، ولا ربطه بقطة حبل؛ لأن ذلك سيفسده. إن مثل هذه الأساليب الشريفة ... هكذا، احزم لي هذا كما يجب في القش، وغطِّه بقطعة حصير ... هكذا، «مشِّي الحال».»

وقال آخر وهو يفرغ مكتبة الأمير آندريه: «يا لكثرة ما فيها من كتب! ... لا تعترني، هن! آه! كم هي ثقيلة يا فتيان! إنَّ كتبًا كهذه عمل رائع ...»

وقال الفلاح العملاق ذو الوجه المستدير وهو يُلقي نظرة الخبير على المعاجم الضخمة: «بالطبع، إن الذين كتبوا هذه الكتب لم يدَّخروا وسعًا ...»

لم يشأ روستوف أن يفرض نفسه على الأميرة؛ لذلك فإنه لم يعُد لرؤيتها، بل لبث في القرية حتَّى لحظة الرحيل، وعندما تحرَّك الموكب امتطى جواده ورافق الأميرة حتَّى أبلغها الطريق الذي تحتله قواتنا على مسافة ثلاثة أميال من بوجوتشاروفو. وفي نُزُل أيانكوفو، سأل باحترام أن تأذن له بالانصراف، وسمح لنفسه للمرة الأولى أن يقبِّل يدها.

قال لماري التي راحت تشكره على إنقاذه حياتها ووجهه متورِّد: «إنكِ تُخجلينني. كان باستطاعة أي دركي أن يعمل ما عملتِ ... لو أننا ما كنا نحارب إلا القرويين لما تركنا العدوَّ يتقدَّم إلى مثل هذه المسافة.»

ثم أضاف في شيء من الارتباك محاوِلًا أن يقف بالحديث عند ذلك الحد: «على أنني أبارك هذا الحادث الذي سمح لي بالتعرف عليكِ. وداعًا يا أميرة، أتمنى لكِ كل سعادة ممكنة. عسى أن نلتقي في ظروف أقل حزنًا من هذه. كلا، أتوسَّل إليكِ، لا تخجليني ولا تشكريني.»

لكن الأميرة إذا كفَّت عن شكره بالكلمات، فإنها ظلت تشكره بتعابير وجهها المشرق بالعرفان والحنان. كانت ترفض أن تصدِّق أنها غير مدينة إليه بآيات الشكر، وتقول لنفسها: «لو أنه لم يكن هناك، لكنت ضحية القرويين الثائرين والفرنسيين، ولقد تعرَّض لأخطار رهيبة بديهية بقصد إنقاذي، ليس في ذلك أدنى شك. ثم إنه بلا ريب روح نبيلة؛ لقد عرف كيف يرثي لألمي، فقد امتلأت عيناه الشديدتا الطيبة والنُّبل بالدموع في اللحظة

التي كنت أبكي فيها عندما حدَّثته عن أبي المتوفَّى.» ولقد رست هذه الذكرى بعمق في قلب الأميرة ماري.

ولمَّا ودَّعته وأصبحت وحيدة شعرت فجأةً باستعدادها للبكاء. تساءلت، وإن لم تكن تلك الفكرة الغريبة قد غزت رأسها لأول مرة: «تُرى، هل أحبُّه؟»

ولقد لاحظت دونياشا التي رافقت سيدتها خلال الرحلة إلى موسكو، أن الأميرة قد أخرجت رأسها مرارًا خلال باب العربة، وابتسمت ابتسامةً حزينةً وسعيدةً معًا رغم أن الرحلة لم تكن إلا قليلة المرح.

وعلى الرغم من الخجل الذي شعرت به وهي تعترف بأنها تحب أول رجل لا يبادلها ولا ريب عاطفتها بمثلها، فقد كان عزاؤها أن ما من أحد سيعلم عن الموضوع شيئًا، وأنها لا ترتكب أي خطأ إذا أحبَّت بصمت وإلى آخر عمرها ذلك الذي سيكون غرامها الأول والوحيد.

وكانت أحيانًا تستعرض بعض التفاتات روستوف ونظراته وكلماته، فيُخيَّل إليها حينذاك أن السعادة ليست مستحيلة. وكانت دونياشا تلاحظ في مثل تلك اللحظات الابتسامة على شفتَي سيدتها وهي تطلُّ من باب المركبة.

راحت ماري تحدِّث نفسها وهي ترى في كل ذلك إصبع القدرة: «كان يجب أن يأتي إلى بوجوتشاروفو، وفي تلك الدقيقة بالذات! كان يجب أن ترفض أخته خطوبة الأمير آندريه!»

أما روستوف، فقد حمل من الأميرة ماري أروع ذكرى، ولمَّا قال له رفاقه الذين اطَّلعوا على مغامرته في بوجوتشاروفو أنه بينما ذهب للبحث عن العلف اكتشف واحدة من أغنى وارثات روسيا، لم ترُق له الدعابة؛ ذلك لأن فكرة الزواج من تلك الفتاة الرقيقة المحبوبة المالكة ثروة ضخمة قد راودتْ رأسه في الواقع أكثر من مرة، ما كان يستطيع أن يتمنَّى أفضل منها زوجة. إن هذا الزواج لا ريب قادرٌ على إقرار أوضاع أبيه المالية وإغداق السعادة على قلب والدته وقلب ماري نفسها ولا شك. إنه يحس بذلك. نعم، ولكن سونيا، ولكن الوعد الذي صرفه! وكانت هذه النقطة الأخيرة هي التي تُفسد مزاجه وتزعجه في موضوع الأميرة بولكونسكي.

الفصل الخامس عشر

كوتوزوف وآندريه

ما إن تسلَّم كوتوزوف قيادة الجيوش حتَّى تذكَّر الأمير آندريه، فأرسل يستدعيه إلى القيادة العامة.

ووصل آندريه إلى تساريفو-زائيميختشيه في اليوم نفسه، وفي اللحظة التي كان كوتوزوف يقوم فيها باستعراضه الأول. توقَّف أمام منزل كاهن القرية؛ حيث وقفت عربة «عظيم الرفعة» — وهو اللقب الذي راح الناس كلهم يُطلقونه على كوتوزوف — وجلس ينتظره على المقعد الذي يدعم البوابة، وكانت أصوات موسيقى عسكرية تتناوب في الحقول مع هتافات مدوِّية: «هورا»، وعلى قيد عشر خطوات من آندريه أخذ تابعان وحاجب وخادم يتنزَّهان في الهواء الطلق في غياب سيدهم، وأوقف نائب زعيم من الفرسان حصانه أمام بولكونسكي، وكان قصير القامة أسمر اللون ذا شاربين وسالفين طويلين، وسأله عما إذا كان هذا هو بيت «عظيم الرفعة»، وما إذا كان يمكن رؤيته بعد حين.

ولَمَّا أنبأه آندريه بأنه ليس من أعضاء أركان حرب كوتوزوف، وأنه مثله وصل منذ حين، خاطب الفارس واحدًا من التابعين، فأجاب المتظرِّف بتلك اللهجة الطلقة التي يتصنَّعها حيال الضباط تابعي الجنرالات: «عن ماذا؟ عظيم الرفعة؟ نعم، يعتقد أنه سيكون هنا قريبًا. ماذا تريد منه؟»

ابتسم نائب الزعيم في شاربيه وترجَّل، وبعد أن أسلم حصانه إلى تابع، اقترب من بولكونسكي يحييه تحية خفيفة، فأفسح له هذا مكانًا على المقعد.

سأله وهو يجلس بجانبه: «هل تنتظر القائد الأعلى أيضًا؟ إنهم يقولون إنه يستقبل كل الناس وهذا مضجر. لقد كان هذا الأمر مختلفًا مع أكلة النقانق. إن إيرمولوف لم يطلب عبثًا تعيينه «ألمانيًّا». لنأمل أن يستطيع الروسيون بعد الآن قول كلمتهم. ما كان

الآخرون يعرفون إلا التقهقر. كفانا تقهقرًا على هذا النوع يالألف شيطان! ... هل اشتركت في الحرب؟»

أجاب آندريه: «لقد حصل لي السرور، ليس بالمساهمة في التراجع فحسب، بل كذلك بفقد وإضاعة أثمن ما كان عندي إضافة إلى أملاكي ... وهو أبي الذي مات من الحزن. إنني من مقاطعة سمولنسك.»

– «آه! أنت الأمير بولكونسكي؟ يفتنني أن أتعرَّف عليك. إنني نائب الزعيم دينيسوف، اشتُهرت باسم فاسكا.»

قال ذلك وهو يشدُّ على يد آندريه وينظر إليه باهتمام ودِّي. أعقب بعد فترة صمت: «الحقيقة أني علمت ... ها هي ذي إذن حرب يأجوج. إنها جميلة جدًّا إذا أُريد لها ذلك، ولكن ليس بالنسبة إلى الذين يقدِّمون تكاليفها! ... إذن، أنت الأمير آندريه بولكونسكي؟ إنني سعيد يا أمير، سعيد بمعرفتك.»

وراح يهزُّ رأسه بابتسامة حزينة وهو يردِّد هذا القول، ومن جديد عاد يشد على يده.

كان الأمير آندريه يعرف دينيسوف تبعًا لما روته له ناتاشا عن المتقدِّم الأول لطلب يدها، فأيقظت هذه الذكرى الرفيقة الشاقَّة معًا في نفسه المشاعرَ الأليمة التي كانت هاجعة في أعماق قلبه، حتى إنه لم يفكِّر فيها منذ بعض الوقت. لقد أصابته في الأيام الأخيرة صدمات نفسية أخرى: مغادرة سمولنسك، زيارته لليسيا جوري، الخبر الجديد الذي تلقَّاه عن وفاة والده، حتَّى باتت تلك الذكريات معدومة، أو على الأقل لم تعُد تهاجمه بمثل تلك القسوة. أما بالنسبة إلى دينيسوف، فإن اسم بولكونسكي بعث في ذاكرته ذلك الماضي الشاعري البعيد؛ عاد يرى ذلك المساء الذي تقدَّم بعد العشاء وأغنية ناتاشا، يعلن حبه لتلك الصبية البالغة من العمر ١٥ عامًا دون أن يدرك ما يفعل، لكنه بعد أن أقطع هذه الرواية السالفة ابتسامة، عاد من فوره إلى مشاغله الحاضرة الوحيدة. لقد ابتكر وهو يحمي بفرسانه تراجع الجيوش، خُطةً حربية عَرَضها على باركلي دوتوللي، وأراد الآن أن يعرضها على كوتوزوف. بدا له خط عمليات الفرنسيين شديد الامتداد، فكان يجب العمل ضد خطوط مواصلاتهم بدلًا من العمل في الجبهة، وقطع الطريق عليهم، أو حتَّى تنفيذ الخطتين معًا. وراح يشرح أفكاره للأمير آندريه: «إنهم لن يستطيعوا الصمود على طول هذا الخط، بل إنني أؤكد إمكان قطعه. أعطِني خمسمائة رجل وإنني أقسم بشرفي على أنني سأخترق هذا الخط! إن حرب الأنصار هي الأسلوب الجيد والأوحد!»

وبينما راح دينيسوف وهو واقف يشرح خطته العتيدة ويدعمها بإشارات كبيرة من ذراعَيْه؛ ارتفعت من ساحة العرض هتافات أكثر تباينًا واتساعًا راحت تختلط بأصوات الموسيقى والغناء، فبلغت مسامعهم. ولم تلبث أن ملأت الجلبة المصحوبة بوطء قوائم الخيل القريةَ كلها.

هتف القوقازي القائم بالحراسة عند باب الفناء: «ها هو ذا يصل! هذا هو!»

وفي تلك الأثناء، وقفت مفرزة من الجنود بالباب. إنها حرس الشرف. واقترب بولكونسكي ودينيسوف فرأيا كوتوزوف يتقدَّم ممتطيًا صهوة جواد كُمَيت صغير، تواكبه حاشية كبيرة من الجنرالات، وكان باركلي يسير على جواده بمحاذاته تقريبًا، بينما راحت طائفة من الضباط تجري إلى جانب الموكب وهم يهتفون: «هورَّا.»

تقدَّم المساعدون العسكريون ودخلوا إلى الفناء، وراح كوتوزوف يستحثُّ بنفاد صبر جواده الذي كان يُهَمْلِج منحنيًا تحت وزن فارسه، وهو لا يَنِي يحني رأسه ويرفع يده إلى عَمْرته البيضاء الخاصة بالحرس الراكب، وهي عَمْرة بيضاء ذات حاشية حمراء لا طرف لها. ولمَّا وصل إلى حذاء حرس الشرف المؤلَّف من نخبة من الجنود البواسل يحمل معظمهم الأوسمة؛ شَخَص إليهم فترة طويلة وهم يحيُّونه بالسلاح بنظرته النافذة كرئيس، ثم التفت إلى الضباط الذين كانوا يحيطون به، وفجأةً اتخذ وجهه طابع الازدراء، وهزَّ كتفيه بحركة تدل على الدهشة، ثم قال: «ومع مثل هؤلاء الفتيان لا نكفُّ عن التقهقر!»

ثم أضاف وهو يدفع حصانه نحو البوابة ويمر منها مارًّا بالأمير آندريه ودينيسوف: «هيا يا جنرال، إلى اللقاء.»

وارتفعت الأصوات من الوراء: «هورَّا! هورَّا! هورَّا!»

رأى آندريه أن كوتوزوف أضخم وأثقل وزنًا وأكثر ترهُّلًا مما كان عليه وقت أن قابله آخر مرة، بينما بالمقابل لم تتبدَّل عنه البيضاء وذلك الجرح الملتئم وتلك المظاهر المنهَكة التي كان يعرفها حق المعرفة. وكان يتمنطق بسوطه فوق بزَّته وقد تدلَّى إلى سير جلدي رقيق. وكان متهاويًا على ظهر جواده الصغير الباسل يتأرجح بتثاقل ويصفِّر صفيرًا خافتًا خلال أسنانه. أما وجهه، فكان يعكس الرضى عن إمكانية التنعُّم بقسط من الراحة بعد سخرة تقليدية. سحب ساقه اليسرى من الركاب ومرَّرها فوق السرج بحركة دائرية من كل جسمه، وقد قطَّب حاجبَيْه استجابة للمجهود، وانطوى على ركبته ثم تهاوى وهو يزمجر بين أذرع القوقازيين والمساعدين العسكريين الذين أخذوا يسندونه.

انتصب من جديد وسرح حوله الطرف بعينيه نصف المغمضتين، وتصفَّح وجه الأمير آندريه دون أن يعرفه، ثم اتجه نحو المرقاة بمشيته النازلة، وعاد من جديد إلى الصفير

وهو ينظر إلى الأمير آندريه. وكما يقع عادةً للشيوخ، اقتضاه بضع ثوانٍ حتَّى استطاع أن يضع اسمًا لذلك الوجه. قال بنصب: «آه! مرحبًا يا أمير، مرحبًا يا عزيزي. هيا بنا ...»

وبخطواته الثقيلة، اجتاز درجات المرقاة التي تطقطق تحت ثقله.

حلَّ أزراره وجلس على مقعد عند أعلى المرقاة.

– «حسنًا! وأبوك؟»

قال آندريه بإيجاز: «لقد تلقَّيت أمس نبأ وفاته.»

تأمَّله كوتوزوف بعينين مروَّعتين، ثم رفع عَمْرته ورسم شارة الصليب.

– «ليتغمَّد الله روحه! لتكن مشيئته نافذة فينا جميعًا!»

ثم أطلق زفرة عميقة واستأنف بعد فترة صمت: «كنت أحبه وأقدِّره، وإنني أرثي من كل نفسي لمصابك.»

وفتح ذراعَيْه للأمير آندريه وضمَّه إلى صدره السمين حيث أبقاه طويلًا، ولمَّا تركه أخيرًا، رأى آندريه أن شفتيه المنتفختين ترتعدان، وأن عينيه مبلَّلتان بالدموع، وبعد زفرة جديدة، أسند كلتا يديه إلى المقعد لينهض وقال: «ادخل، سوف نتحدَّث ...»

إلا أن دينيسوف في تلك اللحظة، وهو قليل الرهبة أمام رؤسائه كما هو حاله أمام أعدائه، أبعدَ عنه المساعدين العسكريين الذين كانوا يحاولون بصوت خافت غاضب استبقاءه عند أسفل المرقاة، وارتقى الدرجات يرن بمهازيه، فنظر إليه كوتوزوف باستياء ويداه لا زالتا متكئتين إلى المقعد. أعلن كوتوزوف عن اسمه وقال إنه يريد أن يحدِّث سموه حديثًا على جانب عظيم من الأهمية يتعلَّق بسلامة الوطن، فعقد كوتوزوف يديه على بطنه بحركة منقادة وهو لا يزال يتصفَّح وجهه بعينيه المنهكتين، وقال مكرِّرًا: «لسلامة الوطن؟ هيا، ما هو الموضوع؟ تكلَّمْ.» احمرَّ وجه كوتوزوف وكأنه فتاة — وكان من الغريب أن يحمرَّ هذا الوجه العجوز، وجه مدمن ذو شاربين — ثم عرض بجرأة خطة قطع خطوط اتصال العدوِّ بين سمولنسك وفيازما، وهي المنطقة التي يعرفها جيدًا لأنه سكن فيها، وكانت تلك الخطة ممتازة إذا حكمنا على الأقل على قوة الإيمان التي أَفعم بها كلماته، وكان كوتوزوف حينذاك قد أصبح يحدِّق في قدميه وينقل نظرته من حين إلى آخر إلى الكوخ الخشبي المجاور، وكأنه يتوقَّع أن يبرز منه شيء ما مزعج، والواقع أن جنرالًا خرج من الكوخ المجاور يحمل تحت إبطه محفظة عندما بلغ دينيسوف أفضل نقطة من الموضوع الذي كان يشرحه.

قال كوتوزوف: «كيف؟ هل أصبحتَ مستعدًّا؟»

فأجاب الجنرال: «نعم يا صاحب السمو.»

هزَّ كوتوزوف رأسه وكأنه يقول: «كيف توصَّل رجل واحد إلى صنع كل هذا؟» ثم أصغى من جديد إلى شرح الضابط الروسي. أنهى هذا حديثه بقوله: «سوف أدمِّر مواصلات نابليون، وإنني أقسم على ذلك بشرفي كضابط روسي.»

سأله كوتوزوف: «هل سيريل آندريئييفيتش دينيسوف، الأمين العام، قريبك؟»

– «إنه عمي يا صاحب السمو.»

أجاب الجنرال القائد الأعلى ببشاشة: «آه! لقد كنا أصدقاء، حسنًا يا عزيزي، البث هنا في الأركان وسوف نتحدَّث غدًا عن كل هذا.»

وصرفه بإشارة من رأسه، ثم مدَّ يده إلى الأوراق التي حملها له كونوفنيتسين الجنرال المنوب.

قال هذا بلهجة استياء: «هل تتفضَّلون سموكم بالدخول؟ هناك مخططات قيد الدرس وأوراق قيد التوقيع.»

ظهر مساعد عسكري من ناحية البيت وقال إن كلَّ شيء معدٌّ، لكن كوتوزوف ولا ريب ما كان يريد الدخول إلا بعد أن يتخلَّص من كل عمل. قطَّب حاجبَيْه: «كلا يا عزيزي، مُرْ بإحضار طاولة، سوف أفحص هذه الأوراق هنا ...»

ثم أردف مخاطبًا الأمير آندريه: «لا تذهب.»

فظلَّ هذا على المرقاة يصيخ السمع إلى تقرير الجنرال المنوب، لكنه لم يلبث أن اجتذبه همس صوت مؤنث وحفيف ثوب من الحرير، وبعد أن التفت مرات عديدة إلى الناحية التي صدر عنها الصوت، انتهى به الأمر إلى رؤية امرأة جميلة متينة البُنيان بثوب ورديٍّ ودثار خبازي اللون، تبدو خلال الباب الموارب حاملةً طَبَقًا في يدها وكأنها تنتظر القائد الأعلى. ولقد فسَّر المساعد العسكري للأمير آندريه أنها ربة البيت، زوجة القس، التي كانت تستعد لتقديم الخبز والملح لسعادته، ولقد استقبل الزوج عظيم الرفعة في الكنيسة والصليب في يده، أما الآن فإن المرأة تريد استقباله في البيت. وأضاف باسمًا: «إنها ليست رديئة أبدًا.» وعند هذه الكلمات أدار كوتوزوف رأسه. كان يصغي إلى الجنرال الذي أخذ يشرح له بصورة خاصة النقاط الضعيفة في مركز تساريفو-زائيميختشيه، كما أصغى إلى دينيسوف وكما أصغى منذ سبع سنين خلت إلى النقاش في المجلس الاستشاري العسكري في أوسترليتز، وكان يُرى أنه ليس مصغيًا إلا لأنه كان يملك أذنين لا تستطيعان رغم صِماد المشاقة الذي كان يسد إحداهما — وهو علاج شعبي لآلام الأسنان — إلا أن

تسمعا، وما كان هناك شيء مما يعرضه عليه ذلك الجنرال قادر على إثارة دهشته أو إثارة اهتمامه. كان يعرف مسبقًا كل ما يمكن أن يقولوه له، فكان يُصغي إلى أقوالهم بحُكم الواجب كما يُصغي المرء إلى قُدَّاس ربَّاني حتَّى النهاية. كانت خطة دينيسوف بارعة ورصينة، وكذلك كان تقرير الجنرال أكثر رصانةً، لكن كوتوزوف ولا ريب كان يمقت المعرفة والذكاء، ويعرف أن المسألة ستُحسَم بشيء آخر، لا علاقة له بالعلم ولا بالذكاء، وكان الأمير آندريه يتفحَّص بعناية وجه القائد الأعلى، فكان التعبير الوحيد الذي استطاع أن يقرأه عليه هو الملل، ثم الفضول الذي أيقظه الهمس النسوي وراء الباب الذي ضبطته الرغبة بالتقيُّد بالمجاملات. وإذا كان كوتوزوف يزدري العلم والذكاء، حتَّى الشعور الوطني الذي برهن عليه دينيسوف منذ حين، فليس مردَّ ذلك ذكاؤه هو أو علمه أو وطنيته التي ما كان يحاول حتَّى التظاهر بها، بل سنُّه وتجاربه، وكان التدبير الوحيد الذي اتخذه إثر ذلك التقرير يتعلَّق بعادة السلب لدى القطعات. ولمَّا قدَّم له الجنرال أمرًا إداريًّا ينص على اعتبار قوَّاد القطعات مسئولين عن الأضرار التي يسبِّبها رجالهم للتوقيع عليه، وكان ذلك بناءً على طلب أحد المالكين الذي احتصدوا زرعه وهو لا يزال أخضر، هزَّ كوتوزوف رأسه وقال وهو يسطع بلسانه: «إلى النار! إلى الموقد! أقول لك للمرة الأخيرة يا عزيزي: كل هذه الأمور إلى النار! ليحصدوا قمحًا وليحرقوا خشبًا ما شاءوا! إنني لا آمُر به ولا أجيزه، لكنني كذلك لا أغرِّم أحدًا، إنه أمر لا يمكن تجنُّبه، لا يستطيع المرء أن يحضِّر العِجَّة دون أن يكسر البيض ...»

ثم اختتم قوله بعد أن ألقى نظرة أخيرة إلى الورقة وهزَّ رأسه من جديد: «ها هي ذي دقتهم الألمانية!»

الفصل السادس عشر

طريقة كوتوزوف

قال كوتوزوف عندما وقَّع آخر ورقة: «هيا، انتهينا!»

ونهض في شيء من الجد وهو يبسط تجعدات عنقه الأبيض المنتفخ، وسار نحو الباب بوجه جذل.

تضرَّج وجه زوجة القس من الانفعال، وأمسكت بالطبق بعجلة، لكنها رغم استعداداتها الطويلة لم تتمكَّن من تقديمه في الوقت المناسب. انحنت انحناءة عميقة وقدَّمته إلى كوتوزوف، فأغمض هذا عينيه نصف إغماضة، وابتسم، ثم قال وهو يُمسك ذقنها: «كم هي جميلة! شكرًا يا فاتنتي.»

وأخرج من جيب سرواله بعض القطع الذهبية، وضعها على الطبق، ثم سألها وهو يتجه إلى الحجرة المعدة له: «آمل أن تكون الصحة جيدة؟»

فتبعته امرأة القس وهي تبسم حتى ظهرت كل غمَّازاتها. وجاء المساعد العسكري إلى المرقاة يدعو الأمير آندريه إلى الطعام. وبعد نصف ساعة، استُدعي مرة أخرى للمثول لدى القائد العام. كان كوتوزوف ممددًا على أريكة في بزَّته تلك محلولة الأزرار، وكان يُمسك بيده كتابًا فرنسيًّا أغلقه لدى مجيء الأمير بعد أن أشار إلى الصفحة بسكين المكتب. كان الكتاب لمدام دوجنليس[1] بعنوان فرسان الأردف les Chevaliers Cygne على حسب ما استطاع أن يلمح على الغلاف.

قال كوتوزوف: «هيا، اجلس، اجلس هنا ولنتحدَّث. آه! هذا محزن، محزن جدًّا! ولكن لا تنسَ يا صديقي أنني لك أب، أب ثانٍ.»

---

[1] مدام ستيفائي فيليسيتيه دوجنليس: مربية أولاد الدوق دورليان وفيليب إيجاليتيه، وُلدت عام ١٧٤٦م، وتُوفِّيت عام ١٨٣٠م، ولها تآليف حول التربية.

قصَّ عليه آندريه كل ما كان يعرفه عن لحظات أبيه الأخيرة، وكل ما رآه عند مروره بليسيا جوري، وفجأةً قال كوتوزوف — الذي أبرزت له قصة الأمير آفاقًا شديدة الوضوح عن موقف روسيا — بصوتٍ متأثر: «هذا هو الدرك الذي قادوني إليه!»

ثم أضاف بلهجة ثائرة: «ولكن صبرًا! صبرًا!»

وقال وهو راغب عن الاستمرار في محادثة تُقلق راحته: «لقد استدعيتك لأستبقيك بالقرب مني.»

فأجاب الأمير آندريه باسمًا: «أشكر سموَّك، لكنني أخاف ألَّا أكون قادرًا على إملاء مركز في الأركان.»

استفسره كوتوزوف بنظره حين لم تخْفَ عليه ابتسامته؛ فاستأنف آندريه قائلًا: «ثم إنني أَلِفت فَوْجي وأحبُّ ضباطي، وأعتقد أن رجالي يحبونني بالمثل، حتَّى إنني أجد صعوبة بالافتراق عنهم، وإذا كنت أرفض شرف البقاء بقربك، فأرجو أن تصدِّق …»

أضاءت وجه كوتوزوف المنتفخ ومضةٌ من الرفق مشوبة بالسخرية، وقال مقاطعًا بولكونسكي: «إنني آسف. كنت ستكون ذا نفع لي، لكنك على حق، إنك على حق، إننا لسنا بحاجة إلى الرجال هنا. إن الناصحين كُثُر في كل وقت، لكن الرجال الحقيقيين ينقصوننا. ما كانت الأفواج لتكون على ما هي عليه لو أن كلَّ الناصحين خدموا فيها كما تخدم. إنني أذكر أوسترليتز، ولا زلت أراكَ والعلم في يدك.»

ولقد تخضَّب وجه الأمير آندريه بحمرة الفرح لهذه الذكرى. جذبه كوتوزوف من ذراعه وقدَّم له وجنته، فرأى الأمير آندريه أن عينيه قد اخضلَّتا من جديد. كان يعرف أن دمع العجوز مطواع، وأنه يتظاهر بهذا التودد الخاص؛ لأنه يريد أن يبرهن له عن مشاركته له في حزنه. مع ذلك، فإن تذكيره لسلوكه في أوسترليتز سَرَّه وأرضاه. استأنف كوتوزوف القول: «اتبع الطريق التي رسمها لك الله. إنني أعرف أنها طريق الشرف.»

ثم أضاف بعد فترة صمت: «لقد افتقدتك كثيرًا في بخارست؛ إذ لم يكن لديَّ أحد أعهد إليه بمهامي.»

ثم أبدل الحديث وراح يتكلَّم عن حملة تركيا: «كم من اللوم وجَّهوه إليَّ على سير الحرب وعقد الصلح! مع ذلك، فإن المشكلة قد انتهت نهاية طيبة، وفي الوقت المناسب. إن كل شيء يتم على ما يرام بالنسبة إلى مَن يحسن الانتظار.»

واسترسل ملحًّا على موضوع بدا يُثقل قلبه: «هل تعلم أنَّ الناصحين هناك ما كانوا أقل عددًا مما هم عليه هنا؟ آه من الناصحين! الناصحين! ولو أصغينا إليهم جميعًا لما

وضعنا حدًّا للحرب، ولما عقدنا الصلح! تبعًا لأقوالهم، كان يجب العمل بسرعة، لكنَّ العمل بسرعة يعني غالبًا الإطالة. ولو أن كامنسكي لم يمُت لضاع، ما في ذلك ريب. كان في حاجة إلى ثلاثين ألف رجل ليحتلَّ الحصون. يا له من عمل مجيد، احتلال حصن! إن الصعب هو ربح المعركة. ومن أجل ذلك، لا حاجة قط إلى الهجوم ولا احتلال ما يحاصر، بل إنَّ الصبر والوقت هما كل ما يلزم. لقد أطلق كامنسكي جنوده على روستشرك، أما أنا، فقد احتللت أكثر مما احتلَّ كامنسكي من معاقل باللجوء إلى الصبر والوقت، وجعلت الأتراك يأكلون لحم الجياد.»

وأردف وهو يهزُّ رأسه ويقرع صدره باحتداد: «وصدِّقني، إنني سأطعم الفرنسيين مثل ذلك.»

ثم تلألأت عيناه بالدموع من جديد، فقال آندريه: «مع ذلك، يجب الالتحام في معركة.»

– «بلا ريب، إذا كانوا جميعًا يرغبون في ذلك ... ولكن، صدِّقني يا عزيزي، إن ما من شيء يساوي هذين الجنديين: الصبر والوقت. إنهما اثنان يستطيعان أن يعملا كل شيء، لكن الناصحين لا يتقبَّلون هذا الرأي، وهذا هو السوء. إنَّ بعضهم يريد وبعضهم لا يريد، وإذن، ماذا يجب أن نعمل؟»

وتوقف منتظرًا جوابًا، ثم قال بإلحاح وقد التمعت عيناه ببريق من الذكاء عميق: «قُلْ لي ماذا كنت تعمل أنت؟ هيا.»

ولمَّا رأى آندريه لا يجيب استرسل يقول: «حسنًا، سأقول لك ما يجب أن تفعل، سأقول لك ماذا يجب عمله وما أعمله أنا.»

ثم قال وهو يتمهَّل بين كل كلمة: «عند الشكِّ يا عزيزي تريَّث. هيا يا صديقي، الوداع. تذكَّر أنني أشاطرك حزنك من كل قلبي، وأنني لست بالنسبة إليك لا عظيم الرفعة ولا أميرًا ولا جنرالًا قائدًا أعلى. اعتبرني كأبٍ، وإذا كنتَ في حاجة إلى شيء ما فاتصل بي مباشرةً. الوداع يا عزيزي.»

عانقه مرةً أخرى، لكن الأمير آندريه لم يكن قد تجاوز الباب بعدُ عندما أطلق كوتوزوف زفرة راحة واستعاد كتابه فرسان الأردف يقرأ فيه.

ودون أن يدرك السبب تمامًا، عاد آندريه إلى فَوْجه بعد تلك المقابلة وهو شديد الاطمئنان على سير الأمور العام، واثق بالذي يديرها. كان يمكن القول إن هذا العجوز لا يحتفظ إلا بعادات عاطفية، وأن الذكاء الذي يميل إلى جمع الحوادث لاستخلاص النتائج

منها مستعاضٌ عنه لديه بالقدرة البسيطة على تأمُّل الأحداث بكل إشراق فكري، وكلما ازداد آندريه في ملاحظة غياب الشخصية عنده، ازداد اطمئنانًا إلى أن كل شيء سيسير على أفضل وجه. كان يحدِّث نفسه قائلًا: «إنه لن يبتكر شيئًا، ولن يشرع في شيء، لكنه سوف يُصغي وسيذكر وسيضع كل شيء في مكانه، فلن يمنع شيئًا مفيدًا، ولن يسمح بشيء ضار. إنه يدرك أن هناك شيئًا أكثر قوةً وأبعد أثرًا من إرادته الشخصية؛ وهو سَيْر الأحداث الذي لا يُقاوَم. إنه له موهبة رؤيتها وإدراك أهميتها، ويعرف بالتالي كيف يتجرَّد عن إرادته الشخصية ليوجِّهها نحو هدفٍ آخر كيلا يدعها تتدخَّل في الأمور، لكنه يوحي بالاطمئنان؛ لأن المرء يشعر بأنه روسيٌّ حقًّا رغم قراءاته مؤلفات مدام جنليس واستعماله الأمثلة الفرنسية؛ لأن صوته كان يرتعد وهو يقول: «هذا هو الدرك الذي قادونا إليه!» ولأنه كان يجهش وهو يؤكِّد أنه سوف يطعمهم لحم الجياد.»

ولقد كان هذا الشعور، الذي أحسَّ به الجميع بشكل يختلف في الوضوح والإبهام، هو الذي قاد إلى الموافقة العامة الإجماعية التي أعقبت الانتقاء القومي لكوتوزوف كقائد أعلى، وهو الانتقاء الذي جعل دسائس البلاط تُمنى بالإخفاق.

الفصل السابع عشر

رياء موسكو

بعد مغادرة الإمبراطور موسكو، عادت الحياة إلى سياقها المألوف، بل المألوف جدًّا، حتى إنه بات من المتعذَّر إدراك حماس الأيام الأخيرة، والاعتقاد بأن روسيا معرَّضة حقًّا للخطر، وأن أعضاء النادي الإنجليزي يمكن أن يكونوا هم كذلك وطنيين مستعدِّين لكل التضحيات. وكان الشيء الوحيد الذي يذكِّر بذلك التحمُّس القريب هو تغطية الهبات بالرجال والمال، تلك الهبات التي لم تلبث بعد إقرارها أن اتخذت صفةً مشروعة يتعذَّر معها تبديلها.

لم يجعل اقتراب العدو الموسكوفيين أكثر جديةً، بل على العكس، لقد ارتفع صوتان في أعماق النفوس متماثلان بالقوة، كما يحدث عادةً أمام مصيبة فادحة؛ الصوت الأول يوصي بحكمة أن ينتبه إلى الخطر القريب، وأن يُصار إلى البحث عن الوسائل التي تُنجي منه، والصوت الثاني يقول بأكثر حكمة إنَّ من التألم جدًّا التفكير في الخطر، وأن الإنسان لا يمكن أن يعرف الخطر قبل وقوعه، ولا أن يفلت من سير الأحداث، وأنَّ من الأفضل إبعاد كل تفكير منغِّص أمام الأمر الواقع. والرجل في حالة الوحدة يطيع الصوت الأول بوجه عام، لكنه في المجتمع على العكس، يخضع للثاني. وهذا هو السبب الذي جعل أهل موسكو ينعمون تلك السنة بمتعة التسلية أكثر من أي وقت مضى.

كانت إعلانات روستوبتشين تحمل في صدرها صورة متجر للمشروبات وخمار وسيد من أهالي موسكو هو كاربوشكا تشيجيرين (الذي كان قد تطوَّع في إعداد المجنَّدين، فسمع، إثر إفراطه قليلًا في الشراب، أن بونابرت يريد الذهاب إلى موسكو، فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الأسماء ثم خرج من متجره ووجَّه إلى الشعب — تحت الأعلام — خطابًا)، فكانوا يقرءون هذه الإعلانات ويشرحونها على طريقة آخر تسجيع لفاسيلي لفوفيتش بوشكين.

بل إنهم كانوا يقرءونها في النادي، في الحجرة المنزوية، فكان بعضهم يجد طريقة كاربوشكا في السخرية بالفرنسيين مسلِّية، فهم — على حدِّ قوله — «سيَنْفُقون لأنهم أكلوا كثيرًا من البرغل، وسيختنقون من سوء هضمٍ ناجم عن حساء الملفوف، وأن أية قروية روسية تستطيع بضربة منجل واحدة أن تقطع ثلاثة منهم دفعة واحدة؛ نظرًا إلى صغر حجمهم المضحك.» والبعض الآخر كانوا على العكس، ينتقدون هذا الأسلوب الذي يجدونه عاميًّا وسخيفًا. وكان يُروى أن روستوبتشين نفى الفرنسيين من موسكو، وكذلك الأجانب كلهم الذين كان بينهم عدد من الجواسيس ومن رجال نابليون، وأن الحاكم بهذه المناسبة قد وجَّه كلمة طيبة إلى هؤلاء التعساء الذين كانوا ينقلونهم عن طريق النهر إلى نيجني، إذ قال: «فكِّروا وادخلوا القارب ولا تجعلوه كارون.»[١] وكانوا يروون أن الإدارات كلها قد غادرت المدينة، ويضيفون بالمناسبة كلمة شينشين، الذي زعم أنَّ هذه الواقعة نفسها تستحق أن تَشكر عليها موسكو كلُّها نابليون، ويروون أن فَوْج مامونوف وحده يكلِّفه أكثر من ثمانمائة ألف روبل، وأن بيزوخوف أنفق أكثر من هذا المبلغ على فَوْجه، وأن بيزوخوف هذا — وهذا أمر يستلفت الانتباه أكثر من سواه — يقيم على رأس رجاله في البَزَّة الرسمية، يعرِض نفسه مجَّانًا على كل الراغبين في رؤيته.

راحت جولي دروبتسكوي تقول حول هذا الموضوع وهي تضغط بين أصابعها النحيفة المغطَّاة بالخواتم رزمة من النسيل في الحفلة الوداعية التي أقامتها بسبب سفرها إلى نيجني في اليوم التالي: «لا تصفح عن أحد، إن بيزوخوف مضحك، لكنه شديد الطيبة واللطف. أيَّة متعة في أن تكون هجَّاءً لاذعًا إلى هذا الحدِّ؟»

وقال شاب في بَزَّة المتطوعين، كانت جولي تدعوه «فارسي»، وكان سيصحبها إلى نيجني: «غرامة!»

قرَّروا في بهو جولي كما كان في كثير من الأبهاء الأخرى، أن يقتصروا في الحديث على اللغة الروسية، وأن كل من يخالف هذا التعهد يتعرَّض لدفع غرامة لصالح لجنة الإنقاذ.

وقال رجل أديب كان هناك أيضًا: «وغرامة ثانية للاصطلاح. «أية متعة في أن تكون ...» ليس تعبيرًا روسيًّا.»

---

[١] كارون: هو ربَّان الجحيم، كان يجوب على زورقه نهر ستيكس (نهر الجحيم الذي يدور سبع مرات حول جهنم) ليوصل إليه أرواح الموتى لقاء فلس؛ ومن هنا جاءت عادة إيداع فلس في فم الميت قبل دفنه، ومن هنا جاءت عبارة: زورق كارون واجتياز الاستيكس.

عادت جولي تقول مخاطِبة المتطوِّع: «إنك لا توقِّر أحدًا. سوف أدفع من أجل كلمة «هجاء»، وإنني مستعدة كذلك للدفع رغبة مني في أن أقول لك الحقيقة.»

وأضافت وهي تلتفت إلى الأديب: «أما عن الاصطلاحات، فإنني لست مسئولة، وليس لديَّ الوقت ولا المال لاتخاذ مدرس كالأمير بوليتسين لأتقن الروسية ... هه، هذا هو، عندما ...» (وتوقَّفت مستدركة؛ لأنها كادت أن تذكر المثل الفرنسي: عندما يتحدثون عن الذئب يجدون ذيله على الفور.)

وقالت للمتطوِّع: «كلا، كلا. لن تضبطني مرةً أخرى، عندما يتحدثون عن الشمس يرون إشعاعاتها.»

ووجَّهت إلى بيير، الذي كان يدخل في تلك اللحظة، ابتسامة رقيقة وقالت مؤكِّدة بالسهولة التي برع النساء فيها عند الكذب: «كنا نتحدَّث عنك منذ لحظات، وكنا نقول إن فَوْجك سيتفوَّق على فَوْج مامونوف.»

قال بيير، الذي بعد أن قبَّل يد ربَّة البيت جلس إلى جوارها: «آه! لا تحدِّثيني عن فَوْجي! ليتكِ تعلمين مبلغ نَصَبِي منه!»

قالت جولي وهي ترسل إلى المتطوع ابتسامة ماكرة: «لا بدَّ وأنك ستقود فوجك بنفسك؟»

إلا أن المتطوع، الذي كفَّ منذ قدوم بيير عن أن يكون «هجَّاءً لاذعًا»، لم يبادر إلى نجدتها؛ ذلك أن شخصية بيزوخوف رغم براءة مظهره وسهومه، كانت تقضي بحزم على كل محاولة استهزاء في حضرته.

قال بيير ضاحكًا وهو يحيط شخصه الثقيل بنظرة ساخرة: «أوه! كلا! سوف أكون هدفًا رائعًا للفرنسيين. ثم إنني أخشى ألَّا أستطيع امتطاء صهوة جواد.»

وبعد أن تحدَّث المدعوون عن هؤلاء وأولئك من الناس دارت أحاديثهم حول آل روستوف. قالت جولي: «يبدو أن أوضاعهم في حالة سيئة جدًّا. ثم إن الكونت قليل الرويَّة؛ لقد أراد آل رازوموفسكي شراءَ نُزُلهم وبيتهم الريفي، ولا زالت القضية في أخذٍ وردٍّ. إنه يطلب ثمنًا باهظًا.»

وتدخَّل أحدهم: «مع أنني سمعت أن البيع سيتم في هذه الأيام الأخيرة. أليس من الجنون شراء شيء ما في موسكو الآن؟»

قالت جولي: «ولماذا؟ هل تفكر أن موسكو في خطر حقًّا؟»

– «لولا ذلك، لماذا ترحلين؟»

– «أنا؟ يا له من سؤال مضحك! إنني أرحل لأن ... ولكن لأن الناس كلهم يرحلون، وكذلك لأنني لست جان دارك ولا أمازونية[٢] ...»

– «نعم، بالطبع ... أعطِني قطعة خرقة أخرى.»

وقال المتطوع الذي لا زال يتحدَّث عن آل روستوف: «لو أنه عرف كيف يتصرف، فإنه سيسدِّد ديونه كلها.»

– «نعم، إنه رجل باسل، ولكنه سيد فقير جدًّا. ثم ما الذي يبعثهم هنا كل هذا الوقت؟ منذ زمن طويل وهم يريدون العودة إلى الريف. لقد استعادت ناتالي صحتها على ما أظن. أليس كذلك؟»

كان هذا السؤال موجَّهًا إلى بيير، ومشفوعًا بابتسامة ساخرة. فقال هذا: «إنهم ينتظرون ابنهم الأصغر الذي تطوَّع في مفرزةِ قوقازيين أوبولنسكي، وأرسل إلى بييلاييياتسيركوف حيث يتم تشكيل الفوج، فنقله ذووه إلى فَوْجي وهم ينتظرون أوبته من يومٍ إلى آخر. إن الكونت راغب في الذهاب منذ أمدٍ طويل، لكن الكونتيس ترفض بأي ثمن مغادرة العاصمة قبل رؤية ابنها.»

– «لقد قابلتهم أول أمس لدى آل أرخاروف، لقد ازدادت ناتالي جمالًا، وصفا مزاجها، ولقد غنَّت قصيدة مؤثرة. كم يُنسَى كل شيء بسرعة لدى بعض الناس!»

سأل بيير بلهجة خشنة: «ما الذي يُنسى بسرعة؟»

فطافت على شفتَي جولي ابتسامة: «هل تعرف يا كونت أن فرسانًا مثلك لا يرى الإنسان مثلهم في هذه الأيام إلا في روايات مدام دوسوزا؟»

سأل بيير وقد تضرَّج وجهه: «أي فرسان؟ ماذا تريدين أن تقولي؟»

– «هيا أيها الكونت العزيز، لا تتظاهر بالدهشة. «إنها أقصوصة موسكو كلها. إنني معجَبة بك، وأقسم بشرفي».»

فقال المتطوع: «غرامة! غرامة!»

– «ليكن! ... ما عدنا نستطيع التكلم، وهذا ينتهي بنا إلى التضجُّر!»

كان بيير قد نهض، فقال في غير لطف: «ما هو الذي أقصوصة موسكو كلها؟!»

---

[٢] الأمازون: شعب خرافي من النساء المحارِبات سكن في «بون» في آسيا الصغرى، ولقد جاء في الأساطير أن الأمازونية كانت تحرق ثديها الأيمن؛ ليتسنَّى لها استعمال القوس بأكثر سهولة. ولقد هاجمت إحدى ملكات هذا الشعب — واسمها «هيبوليت» — هرقل الجبَّار، فهزمها إلخ ...

– «ولكن يا كونت، لكأنك لا تعرف!»

– «لست أعرف شيئًا مطلقًا.»

– «وأنا أعرف أنك مع ناتالي على أتمِّ وفاق؛ ومن ثمَّ ... إنني فيما يتعلق بي كنت دائمًا على أوثق ألفة مع فيرا، فيرا العزيزة تلك ...»

استرسل بيير وهو لا يزال محنقًا: «كلا يا سيدتي، إنني لست قط الفارس التابع للآنسة روستوف، وإنني منذ أكثر من شهر لم أطأ بقدمي بيتهم، لكنني لا أفهم هذه الفظاظة ...»

قاطعته جولي وهي تبتسم وتحرِّك نسيلها: «من يعتذر يعترف بخطئه.»

ثم بادرت إلى تحويل دفَّة الحديث بغية الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة لنفسها، فقالت: «هل تعلم ماذا بلغني منذ حين؟ لقد وصلت ماري بولكونسكي المسكينة أمس. هل تعلم أنها فقدت أباها؟»

قال بيير: «صحيح؟ وأين هي؟ كم أتوق إلى رؤيتها!»

– «لقد أمضيت السهرة معها. لسوف تذهب اليوم أو غدًا مع ابن أخيها إلى أملاكهم في الضاحية.»

– «آه! وكيف حالها؟»

– «بين بين، بل إنها أميل إلى الحزن، ولكن هل تعلم لمن تدين بحياتها؟ إنها رواية كاملة لنيكولا روستوف، كانوا محيطين بها يريدون قتلها، بل إنهم أصابوا رجالها بجراح ... لكنه هرع هو وأنقذها ...»

قال المتطوِّع: «رواية جديدة! لا ريب أن هذا الفرار العام لمن يستطيع الفرار قد ابتكر على ما يبدو بغية تزويج العانسات. كاتيش أولًا، ثم ها هي ذي الأميرة بولكونسكي.»

– «أتدري؟ أظنها «مغرمة قليلًا بالفتى».»

– «غرامة! غرامة! غرامة!»

– «ولكن كيف أقول هذا بالروسية؟»

الفصل الثامن عشر

قرار بيير الأخير

عندما رجع بيير إلى داره، قدَّموا إليه إعلانَيْن لروستوبتشين، وصلا مؤخرًا، يؤكِّد الحاكم في الأول أنه خلافًا لما أشيع من أنه منع مغادرة المدينة، سيكون سعيدًا إذا شاهد نساءَ الأشرافِ وطبقةِ التجار يغادرن موسكو، وكان يزعم «أنهنَّ بذلك سيتعرَّضن لخوف أقل، وسيثرثرن أقل. بَيد أن الأثيم لن يأتي إلى موسكو، وإنني أراهن برأسي على ذلك.» فلمَّا قرأ هذه الكلمات، رأى بيير بوضوح لأول مرة أن الفرنسيين سيدخلون موسكو. أما الإعلان الثاني فكان يقول إن قيادتنا العامة موجودة في فيازما، وأن الكونت ويتجنشتاين قد هزم الفرنسيين. مع ذلك، ولمَّا كان عدد كبير من السكان يرغبون في التسلُّح، فإنهم واجدون بسعر مناسب سيوفًا وبنادقَ ومسدسات في مستودع الذخائر. لم تعُد لهجة الإعلانَيْن هزلية كتلك التي عُزيت إلى تشجيرين في أقواله؛ مما دعا بيير إلى التفكير. أدرك أنَّ كل هذه الجحافل الرهيبة من العاصفة التي كان يدعوها من كل جوارحه، والتي كانت تسبِّب له فزعًا غير إرادي بنفس الوقت، ناشطة في سيرها.

راح يتساءل للمرة المائة: «هل يجب أن ألتحق بالجيش المحارب أم على العكس؛ أن أنتظر الأحداث؟» أمسك بورق لعبٍ كان متروكًا على الطاولة، وراح ينجِّم. حدَّث نفسه بعد أن خلط الورق ورفع عينيه إلى السماء: «إذا «فتح الفال» كان معنى ذلك ... ماذا سيكون معنى ذلك؟ ...»

وقبل أن يجد الجواب، ارتفع صوت لدى الباب يسأل عما إذا كان يمكن الدخول.

قرَّر بيير: «سيكون معنى ذلك أنه يجب أن ألتحق بالجندية!» ثم صاح: «ادخل، ادخل.»

كانت الداخلة هي كبرى الأميرات، تلك التي كانت مديدة القامة جامدة الوجه، الوحيدة التي ظلت تقطن نُزُل بيزوخوف؛ لأن الاثنتين الأخريين كانتا قد تزوَّجتا.

قالت بصوت مضطرب وبلهجة فيها لوم: «اعذرني يا ابن عمي لمجيئي إليك. ولكن، لقد أزِف الوقت لاتخاذ قرار. إن الناس جميعهم غادروا موسكو، والشعب أخذ يتمرَّد ... فما ننتظر إذن؟»

أجاب بيير هازلًا: «ولكن على العكس يا ابنة عمي، إن كل شيء يبدو لي على أفضل وجه.»

ولقد كانت تلك طريقته في إخفاء الارتباك الذي يوقعه فيه دائمًا دوره كمحسن.

– «جميل جدًّا! من أين جئت بهذا الخبر؟ لقد روت لي فرفارا إيفانوفنا منذ حين بسالات جنودنا. إن ذلك يشرِّفهم شرفًا عظيمًّا حقًّا! ... ثم إن الشعب يتصرَّف على هواه. ما من أحدٍ بات يقتل إلا طاعة، حتى إن خادمتي نفسها تحدِّثني بالغلاظات. سوف يضربوننا بعد حين. لم يعُد المرء يستطيع وضع قدمه خارج بيته ... لكن أخطر ما في الأمر هو أن الفرنسيين سيكونون هنا اليوم أو غدًا ... ماذا ننتظر بالله؟ أرجوك يا ابن عمي، أصدِر أمرًا بنقلي إلى بيترسبورج، لن أستطيع، مهما بلغتُ من تفاهة القيمة، أن أعيش تحت نير بونابرت.»

– «ما هذا الذي تقولين يا ابنة عمي؟ من أين تستقين معلوماتك؟ على العكس ...»

– «إنني لن أخضع لنابليونك. أما الآخرون، فهذا شأنهم ... وإذا كنت لا تريد الموافقة على ما أسأله منك ...»

– «ولكن بكل تأكيد، سوف أعطي أوامري على الفور.»

تهاوت الأميرة على كرسي وقد أغاظها أنْ لم تعد تجد مَن تعاتبه، وراحت تهمهم بينما استرسل بيير: «إنهم ينقلون إليك معلومات خاطئة، إن كل شيء هادئ في المدينة، ولسنا نتعرَّض لأي خطر. انظري ماذا كنت أقرأ — وأظهرها على الإعلانَيْن — إن الكونت يقول إن العدو لن يدخل موسكو ويقدِّم حياته ضمانةً لذلك.»

ردَّت الأميرة ساخطة: «آه! كونتك هذا! إنه منافق، إنه أثيم دفع الشعب بنفسه إلى التمرُّد! ألم يوعز في إعلاناته المنافية هذه أن يمسك بالناس من شعورهم دون استثناء وأن يؤخذوا إلى المخفر؟ هذا شديد الغباء! ثم إنه يَعِد بالمجد والشرف كلَّ من يتصرَّف على هذا النحو. هل تريد معرفة نتائج هذه المالقات؟ لقد قالت فرفارا إيفانوفنا إنهم كادوا أن يقتلوها في الشارع؛ لأنها كانت تتكلم بالفرنسية ...»

قال بيير وهو يفتح «فاله»: «هيا، هيا، إنك تحملين كل شيء على محمل الجدِّ.»

على الرغم من أن «الفال» قد «فُتح»، فإن بيير لم يلتحق بالجيش، بل ظلَّ في موسكو التي راحت تخلو من السكان وهو فريسة ذلك الشك المحموم، ينتظر بقلق ممزوج بالسرور وقوع حدَث رهيب ما.

وفي مساء اليوم التالي، رحلت الأميرة وجاء المسجِّل العام يعلن لبيير أنه يتعذَّر تغطية نفقات تجهيز الفوج الضرورية اللازمة إلا إذا عمد إلى بيع أحد الأملاك، وألمح إلى أنَّ كل هذه الأهواء سوف تؤدِّي به إلى الدمار. فأصغى إليه بيير بابتسامة لم يحسن في إخفائها، ثم قال: «بِعْ رغم ذلك. ما العمل؟ لا أستطيع الرجوع عن وعدٍ قطعته!»

راحت أعماله الشخصية تسوء، وأخذ الموقف العام يكفهرُّ، وبيير يتلقَّى هذه الأنباء ببهجة متزايدة؛ لأنها كانت تؤكِّد له قرب النكبة التي ينتظرها. ولقد غادر كل معارفه موسكو تقريبًا، وذهبت جولي والأميرة ماري كذلك، ولم يبقَ إلا آل روستوف الذين لم يعد بيير يزورهم.

ذهب ذلك اليوم على سبيل التسلية إلى ضاحية فورونتسوفو لرؤية المنطاد الذي ابتكره المهندس ليبيخ لتدمير العدو ومنطاد التجربة الذي سيطلقونه غدًا. لم تكن الاستعدادات قد انتهت بعد، لكنهم أطلعوا بيير على أن الإمبراطور يؤيد هذا المشروع بقوة، بل إنه كتب إلى روستوبتشين الرسالة التالية:

> حالما يصبح ليبيخ جاهزًا شكِّلوا له فريقًا لسلة المنطاد مؤلَّفًا من رجال أذكياء موثوقين، وأرسِلوا رسولًا إلى الجنرال كوتوزوف لإعلامه، ولقد أطلعتُه على الأمر.
>
> نبِّهوا على ليبيخ أرجوكم، أن يكون منتبهًا إلى المكان الذي سينزل فيه أول مرة؛ كيلا يخطئ ويقع بين يدَي العدو. يتحتَّم عليه أن يوفق حركاته مع الجنرال القائد الأعلى.

وعند عودته من فورونتسوفو وبمروره من ساحة بولوتنايا، شاهد بيير جماعة من الناس حول وتد العقاب، فأعطى الأمر بالوقوف ونزل من العربة. كانوا قد فرغوا من جَلْد طاهٍ فرنسيٍّ متهم بالجاسوسية، وراح الجلَّاد يفك عن الوتد رجلًا ضخم الجثَّة ذا شعر أشقر على العارضين كان يزمجر معوِّلًا. وكان متهم آخر شاحب وشديد النحول ينتظر دوره، ولقد كان وجهاهما يدلَّان على أنهما فرنسيان دون ريب. شقَّ بيير الزحام بوجهٍ منقلب كوجه المتهم الثاني، وسأل: «ما هذا؟ من هم هؤلاء؟ ماذا فعلوا؟»

لكن انتباه المتسكِّعين بين موظفين وصنَّاع ورجال أعمال وقرويين ونساء في معاطف طويلة ذات ثنيات أو مبطَّنة بالفرو، كان منصرفًا إلى المشهد، حتى إن أحدًا لم يجِبه.

نهض الرجل الضخم وهو يقطِّب حاجبَيْه ويهزُّ كتفَيْه، وراح رغبةً منه في إظهار تجلُّده، يرتدي سترته دون أن يخفض عينيه عن المحتشدين، لكن شفتَيْه ارتعدتا فجأةً وانخرط في البكاء وهو يلعن ضعفه، كما يبكي الرجال ذوو الدم الوفير. وراح المجتمعون يتحدَّثون بصوت مرتفع ليكتموا شعورهم بالإشفاق كما خُيِّل إلى بيير.

– «يبدو أنه طاهٍ لدى أحد الأمراء ...»

– «إيه! «موسيو»،[١] إن المرق الروسي حامض قليلًا بالنسبة إلى حنك فرنسي ... إنه تضرس أسنانك هن؟»

تلك كانت العبارة التي فاه بها جاربيير، وهو موظف صغير أعجف، عندما رأى الفرنسي يبكي. ثم ألقى الموظف الصغير نظرة حوله باحثًا عن موافقة الجمهور. ولقد انفجر بعض الأشخاص ضاحكين بالفعل، لكن الآخرين ما كانوا يستطيعون انتزاع أنظارهم عن الجلَّاد الذي شرع ينزع ثياب المحكوم الثاني.

نخر بيير بقوة من أنفه وقطَّب حاجبَيْه، ثم دار على أعقابه وعاد إلى عربته فاستقلَّها وهو لا يزال يدمدم، وظلت التشنُّجات تحرِّكه طيلة الطريق وهو يهتف بصوت مرتفع متعجِّبًا، حتى إن حوذيَّه انتهى إلى سؤاله: «ماذا تأمرني؟»

صرخ بيير وهو يراه متجهًا إلى لوبيانكا: «إلى أين تذهب؟»

– «لدى الجنرال الحاكم. ألم تقل لي أن أحملك إلى هناك؟»

ولقد بلغ من حنق بيير أن شتم هذا الرجل، وهو الأمر الذي قلَّ أن يقع له.

– «يا غبي! يا حيوان! لقد قلت لك أن تعود إلى البيت وبأسرع من هذا ... أيها الغبي المثلث! ... «يجب الرحيل اليوم بالذات»،»

لقد قرَّر بيير بحزم أكيد لدى رؤية تنفيذ الحكم والجماعة المحتشدة، أن يلحق بالجيش فورًا، دون زيادة في التأخر في موسكو، حتى إنه خُيِّل إليه أنه أطلع الحوذي على رغبته، أو أن هذا على الأقل كان يجب أن يعلم قراره.

ولم يكَد يدخل إلى البيت حتَّى استدعى حوذيَّه إيفستافييفيتش، وهو رجل يقدر على صنع كل شيء، يعرف كل الناس وتعرفه موسكو كلها، أخطره بأنه يرغب في أن يرحل تلك الليلة بالذات إلى موجائيسك، ويريد أن ترسَل جياد الركوب إلى هناك، ولَمَّا كان هذا

[١] Moussiou، كلمة سيد Monsieur بالفرنسية، لفظها الرجل على هذا الشكل تهكُّمًا على نحو «سيدو» بالعربية.

الأمر لا يمكن أن ينفذ في يوم واحد، فقد اضطر بيير بناءً على نصيحة إيفستافييفيتش أن يرجئ رحيله إلى الغد حتَّى يتسنَّى إعداد خيول البدل.

وفي الرابع والعشرين وقد اعتدل الطقس، غادر بيير موسكو بعد الغداء، وفي الليل، بينما كان يبدِّل خيوله في بيرخوشكوفو، علم أن معركة هائلة دارت أول المساء، وأن قصف المدافع هزَّ الأرض، حتَّى في تلك الضيعة الصغيرة، فاستفسر عن الظافر، لكن ما من أحد استطاع أن ينبِّئه. لقد كانت تلك معركة شيفاردينو.

وصل إلى موجائيسك عند الفجر، كانت البيوت كلها محتلَّة من قِبل الجنود، ولقد انتظره خادمه المُرافق وسائق عربته في النُّزل، لكنهم لم يستطيعوا إعطاءه أية غرفة؛ لأنها كانت تعجُّ بالضباط.

كانت المنطقة كلها غاصَّة بالجنود بين مستريحين، وفي طريق السير، ولم يكن يرى من كل صوب إلا قوقازيين ومشاة وخيَّالة وعربات نقل وصناديق صغيرة وقطع المدفعية، ولقد كان بيير متعجِّلًا في التوغُّل إلى الأمام، وكلما ازداد توغُّلًا في ذلك الخضمِّ من الجنود، ازداد قلقه شدة، وشابه شعور بالرضى الضمني جديد كل الجدَّة. ولقد كان ذلك الإحساس يُذكِّره بذاك الذي أحسَّ به في قصر سلوبودسكي إبان إقامة الإمبراطور. كان يجب اتخاذ قرار ما والتضحية بالذات. أخذ بيير يدرك الآن بسرور أن كل ما يسبِّب سعادة الإنسان من ثراء ولذة الحياة، بل والحياة نفسها، كل ذلك لم يكن إلا ترَّهات يسهل القذف بها ثمنًا لشيء ما … وهذا الشيء ما كان بيير يتوصَّل إلى تصوُّره، بل إنه ما كان يحاول حتى أن يشرح لنفسه لماذا ومن أجل مَن، يجد متعة خاصة بالتضحية بنفسه بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ما كان يهمُّه سبب تضحيته، لكن التضحية في حد ذاتها كانت تحمل إليه شعورًا جديدًا بالسعادة.

الفصل التاسع عشر

معركة شيفاردينو وبورودينو

دارت معركة شيفاردينو في الرابع والعشرين من آب، وفي الخامس والعشرين لم تنطلق رصاصة واحدة من هذا الجانب أو من ذاك، وفي السادس والعشرين نشبت معركة بورودينو.

لماذا دارت هذه المعارك، وكيف وقعت، وبصورة خاصة معركة بورودينو؟ لم يكن الفرنسيون ولا الروسيون مدفوعين بأي سبب لخوضها، لقد كانت نتيجتها الأكثر مباشرةً بالنسبة إلى الروسيين — كما وجب أن تكون — خطوة إضافية في طريق ضياع موسكو، الأمر الذي كنا نخشاه أكثر من أي شيء في الوجود. أما بالنسبة إلى الفرنسيين، فكانت خطوة إضافية نحو ضياع كل جيشهم، الأمر الذي كانوا هم كذلك يخشونه أكثر من كل شيء في الوجود، ولم تكن هذه النتيجة خافية قط، مع ذلك فإنها لم تمنع نابليون من أن يعرض القتال، وكوتوزوف من أن يقبل المعركة.

فلو أن الرؤساء الكبار تركوا للعقل أن يقودهم لرأي نابليون بجلاء أنه وقد تقدَّم مسافة خمسمائة ميل بعيدًا عن قواعده، وقد التحم في معركة كان يتعرض لفقد ربع عدد جيشه، فإنه إنما يمضي إلى خسران مبين، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى كوتوزوف الذي قَبِل الدخول في المعركة؛ فهو بقبوله القتال وتعرُّضه هو الآخر لفقد ربع جيشه تقريبًا، إنما يتوجَّب عليه أن يُخلي موسكو دون أي ريب، ولقد كانت النتيجة واجبة الظهور لكوتوزوف بصورة خاصة ببداهة العملية الحسابية، فلو أن لديَّ بلعبة «الضاما» بيدقًا أقل مما لدى خصمي، وإذا كان كل حركة تخسر مبادلة، فإنني خاسر للشوط ولا ريب، والعقل يحتِّم عليَّ إذن أن أمتنع. وفي الواقع أنه لو كان لدى خصمي ستة عشر بيدقًا ولديَّ أربعة عشر، فإنني أضعفُ منه بمعدَّل واحد إلى ثمانية، ولكن بعد أن يكون كلٌّ منا قد فقد ثلاثة عشر بيدقًا، فإنه حينئذٍ سيصبح أقوى مني بثلاثة أضعاف.

لقد كانت قواتنا قبل معركة بورودينو بالنسبة إلى قوات الفرنسيين بنسبة خمسة إلى ستة: مائة ألف رجل ضد مائة وعشرين ألفًا، وبعد المعركة لم تعُد هذه النسبة إلا بمعدل واحد إلى اثنين: خمسين ألفًا ضد مائة ألف. ومع ذلك، فإن كوتوزوف، ذلك العسكري المجرِّب، قد قبِل المعركة، ونابليون، ذلك الرئيس العبقري — كما يسمونه — خاض معركة كلَّفته ربع جيشه، وأطال خطه أكثر فأكثر. ولقد زعم بعضهم أنه كان يفكر في إنهاء الحرب بعد احتلاله موسكو كما وقع في فيينا، لكن هناك أدلة كثيرة تبرهن على العكس. إن مؤرِّخي نابليون أنفسهم يعترفون بأنه كان يريد التوقف منذ سمولنسك: كان يدرك خطر امتداد خطِّه، ويعرف أن احتلال موسكو لا ينهي الحملة؛ لأنه كان يرى منذ ذلك الحين بأية حال كانوا يتركون له المدن، وأنه لم يكن يتلقَّى أية أجوبة على محاولاته الكثيرة للدخول في مفاوضات.

وهكذا، فإن كوتوزوف ونابليون — الأول بعرضه والثاني بقبوله المعركة — لم يخضعا لا لعقلهما ولا لحكمهما الحر. في حين أن المؤرخين بعد أن وقعت الواقعة، استنتجوا منها أدلة مموَّهة عن بُعْد نظر رئيسَي الجيشين هذين وعبقريتيهما، ذينك اللذين كانا بين كل الأدوات الصمَّاء في أحداث هذا العالم، أكثرها خضوعًا لا إراديًّا وأكثرها استرقاقًا.

لقد ترك لنا الأقدمون نماذجَ من القصائد الخرافية التي ترتكز الأهمية فيها كلها على الأبطال، ولَمَّا كانت هذه القصائد تراثًا عزيزًا، فإننا نمتنع عن رؤية ما في مثل هذه المدارك التاريخية في عصرنا هذا من بطلان.

وهناك حول النقطة الثانية، أي كيف دارت معركة بورودينو ومن قبلها معركة شيفاردينو التي سبقتها، هناك وجهة نظر شديدة الدقَّة ومقبولة بصورة عامة بقوة بقدر ما هي خاطئة كذلك، وفيما يلي كيف يصف المؤرخون واقع هذه المعركة المزدوجة:

> إن الجيش الروسي بانطوائه بعد سمولنسك كان لا بدَّ وأن يبحث عن أفضل مركز ليلتحم فيه بمعركة عامة، ووجد ذلك المركز في بورودينو.
>
> ولا ريب أن الروسيين حصَّنوا سلفًا هذا المركز إلى يسار الطريق من موسكو إلى سمولنسك، وبشكل عمودي على هذا الطريق تقريبًا من بورودينو إلى أوتيتسا في المكان نفسه الذي نشبت فيه المعركة.
>
> ولا ريب كذلك أن الروسيين أقاموا أمام هذا الموقع طليعة على مرتفع شيفاردينو لمراقبة العدو، فهاجمهم نابليون في الرابع والعشرين واحتلَّ ذلك

المركز الأمامي، ثم هاجم كلَّ الجيش الروسي في موقعه المحصَّن على سهل بورودينو في السادس والعشرين.

تلك هي رواية المؤرخين، وهي رواية غير مضبوطة من أولها إلى آخرها، كما لا بدَّ سيقتنع بذلك بسهولة كلُّ مَن يضطلع بعناء دراسة المسألة قليلًا.

فالروسيون — بعيدًا عن انتقاء الموقع الأفضل — أهملوا في سياق تقهقرهم عددًا كبيرًا من خيرة المواقع التي ترجح على بورودينو؛ وذلك لأسباب عديدة؛ لأن كوتوزوف ما كان يريد تقبُّل نقطة لا ينتقيها بنفسه، ولأن ضرورة خوض معركة قومية لم تكن ملحَّة بكل هذه القوة، ولأن ميلورادوفيتش لم يكن بعدُ قد وصل مع فرق المتطوعين وإلخ … إلخ … وإنه مما لا يمكن إنكاره أن المواقع الأخرى أكثر مناعةً من ذلك الذي دارت عليه رُحى المعركة؛ لأن بورودينو لم تكن أفضل «كموقع» من أي موقع عابر يُشار إليه على خريطة المملكة الروسية بدبوس صغير.

وليس أن الروسيين لم يحصِّنوا موقع بورودينو إلى اليسار وعموديًّا على الطريق فحسب؛ أي في المكان الذي دارت فيه المعركة، بل إنهم كذلك لم يفكِّروا قبل الخامس والعشرين من آب ١٨١٢م أنَّ معركةً يمكن أن تقع في هذا المكان، وسأقدِّم على سبيل التدليل على صحة هذا الزعم مذكِّرًا في المرحلة الأولى بعدم وجود تحصينات ما قبل الخامس والعشرين من آب، وأن التي شرع في بنائها في ذلك التاريخ لم تنتهِ في السادس والعشرين وفي المرحلة الثانية أذكِّر بموقع حصن شيفاردينو نفسه الذي لم يكن له أي معنًى رغم وقوعه أمام النقطة التي نشبت المعركة فيها. فلماذا إذن حصَّنوه أكثر من أية نقطة أخرى؟ لماذا بذلوا كل هذه الجهود الكبيرة للدفاع عنه يوم الرابع والعشرين إلى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل، في حين كان يكفي لمراقبة العدو تسيير دورية من القوقازيين؟ وأخيرًا الدليل الثالث والأخير: لقد كان باركلي دوتوللي وباجراسيون مقتنعَيْن حتَّى اليوم الرابع والعشرين بأن حصن شيفاردينو يشكِّل الجناح الأيسر للموقع، بل إن كوتوزوف نفسه في تقريره الذي دبَّجه تحت تأثير المعركة الذي كان لا يزال حاميًا، أطلق عليه هذا الاسم. ثم إن كثيرًا فيما بعد في تقاريرهم التي كتبوها بتؤدة أظهروا — قصد تبرير أخطاء الجنرال القائد الأعلى الذي كان لا بدَّ من إظهاره بمظهر المعصوم عن الخطأ — الزعمَ الخاطئ الغريب القائل بأن حصن شيفاردينو كان نقطة أمامية — وهو الذي لم يكن أكثر من نقطة محصَّنة في الجناح الأيسر — وأننا

قبِلنا المعركة في موقع محصَّن انتخبناه سلفًا، في حين أنها دارت في مكان لم يكن منتظرًا وقوعها، كما لم يكن محصَّنًا قط تقريبًا.

وإليكم كيف دارت الأمور بكل وضوح: انتخبوا نقطةً على نهر كولوتشا تقطع الطريق العام ليس على شكل زاوية قائمة، بل على زاوية حادَّة، بشكل جعل الجناح الأيسر في شيفاردينو، والأيمن قرب ضيعة نوفواي، والوسط في بورودينو عند التقاء نهري كولوتشا وفوئينا. ولا بد لجيش يهدِف إلى إيقاف العدو المتقدِّم على طول طريق سمولنسك–موسكو، أن يحتلَّ هذا الموقع الذي يحميه نهر كولوتشا. وكلُّ من يفحص ساحة المعركة متناسيًا كيف وقعت الأمور حقيقةً لا بدَّ مقتنع من فوره.

ولم يرَ نابليون — كما يؤكد المؤرخون — في تقدُّمه يوم الرابع والعشرين نحو فالوييفو موقع الروسيين من أوتيتسا إلى بورودينو، وما كان يمكن أن يراه؛ لأنه كان غير موجودٍ أصلًا. ولم يرَ كذلك النقطة الأمامية للجيش، فلم يصطدم بجناح الروسيين الأيسر إلا وهو يطارد المؤخرة؛ أي في حصن شيفاردينو، وبعد أن اجتاز بقواته النهر (كولوتشا). ولقد طوى الروسيون جناحهم الأيسر من النقطة التي أرادوا احتلالها إلى موقع جديد غير مدروس ولا محصَّن؛ لأن حركة نابليون تلك فوَّتت عليهم فرصة الدخول في معركة عامة. وبمرور نابليون أو باجتيازه ضفَّة كولوتشا اليسرى؛ وبالتالي بوصوله إلى يسار الطريق، نقل المعركة المقبلة من جناح الروسيين الأيمن إلى جناحهم الأيسر في السهل الواقع بين أوتيتسا وسيميونوفسكوي وبورودينو، وهو السهل الذي لم يكن يمتاز كموقع عن أي موقع آخر. وهنا دارت معركة السادس والعشرين. وفيما يلي الخطوط العامة للمعركة المخمَّنة كما كان يمكن أن تقع وخطوط المعركة الحقيقية:

مخطَّط معركة بورودينو

(١) موقع الفرنسيين المفترض.
(٢) موقع الروسيين المفترض.
(٣) موقع الفرنسيين الحقيقي خلال المعركة.
(٤) موقع الروسيين الحقيقي خلال المعركة.

(وفق مخطط وضعه بنفسه تولستوي.)

فلو أن نابليون لم يعبر نهر كولوتشا في الرابع والعشرين مساءً، ولو أنه بدلًا من أن يقع فورًا على الحصن أجَّل الهجوم إلى اليوم التالي؛ لَرَأى العالم أجمع أن هذا الحصن

كان يشكِّل الجناح الأيسر في موقعنا، وأن المعركة كانت ستدور حسبما توقَّعناه. وحسب كل احتمال كنا سندافع عن شيفاردينو، جناحنا الأيسر، بحماس أقوى، ونهاجم نابليون في الوسط وفي اليمين، وكانت المعركة العامة ستقع في الرابع والعشرين على الموقع الذي كان معدًّا ومحصَّنًا، ولكن لمَّا وقع الهجوم على جناحنا الأيسر مساءً عقب انثناء مؤخرتنا؛ أي بعد معركة جريدنييفو مباشرةً، ولمَّا لم يستطِع رؤساؤنا أو لم يريدوا خوض المعركة العامة مساء الرابع والعشرين، فقد ضاع الجزء الأول الرئيسي من معركة بورودينو منذ الرابع والعشرين، الأمر الذي أدَّى إلى هزيمة السادس والعشرين.

بعد خسارة شيفاردينو، وجدنا أنفسنا صباح الخامس والعشرين محرومين من نقطة ارتكاز في الجناح الأيسر، فاضطررنا إلى ثني جناحنا الأيسر وتحصينه بأسرع وقت وفي أي موقع كان.

وهكذا إذن، لم تكن الوحدات الروسية محصَّنة يوم السادس والعشرين إلا في خنادق غير مستكملة، بل وأخطر من ذلك أن جنرالاتنا لم يدركوا تمامًا الأمر الواقع؛ لم يروا أن خسران الجناح الأيسر سيجرُّ تبديلًا من اليمين إلى اليسار في اتجاه المعركة؛ لذلك فقد تركوا خطوطهم تتطاول كالسابق من نوفواي إلى أوتيتسا، الأمر الذي أرغمهم على الشروع في تحريك قطعاتهم في إبان احتدام المعركة من اليمين إلى اليسار. وبذلك لم يستطِع الروسيون أن يقابلوا الفرنسيين إلا بجناحهم الأيسر؛ أي بقوات أضعف مرتين. أمَّا هجمات بونياتووسكي ضد أوتيتسا وأوفاروف ضد الجناح الفرنسي الأيمن، فإنها كانت حوادث عرَضية مستقلة عن سير المعركة العام.

وعلى هذا، فإن معركة بورودينو وقعت على شكل مخالف تمامًا للأسلوب الذي رُويت به بُغية إخفاء خطيئات جنرالاتنا، الأمر الذي لم يعمل إلا على الإقلال من مجد جيشنا وشعبنا. إنها لم تقع في موقع مختار ومحصَّن سلفًا، ولكن بقوات أقل قليلًا من جانبنا من قوات العدو، بل إنها دارت أثر خسارة شيفاردينو وعلى أرض فضاء أو تافهة التحصين، وبقوات أضعف مرتين من قوات الفرنسيين؛ أي في شروط ما كان يمكن التفكير في مثلها، ولا أقول لخوض معركة طيلة عشر ساعات كاملة بشكل غير مقرَّر، بل للصمود ثلاث ساعات فقط دون التعرض لهزيمة كاملة.

الفصل العشرون

رحلة بيير

غادر بيير موجائيسك صباح الخامس والعشرين، ولكي ينحدر على طول الشارع المائل المتعرِّج الذي يخرج من المدينة تاركًا على اليمين الكنيسة التي كان يُقام فيها قدَّاسٌ وسط قرع أجراس، ترجَّل بيير من عربته وقطع المسافة على قدميه، ومن ورائه كانت فرقة من الفرسان يسبقها مُنشِدوها، بينما راحت قافلة من الجرحى في معركة الأمس تصعد المنحدر في الاتجاه المعاكس، والقرويون الذي يسوقونها يهرعون من جانب إلى آخر من الشارع، وهم يملئون الجو صراخًا وقرعًا بالسياط. وكانت العربات التي تُقلُّ كلُّ واحدةٍ منها ثلاثة أو أربعة جرحى جالسين أو مستقلين، تقفز فوق الحجارة الملقاة هنا وهناك بمثابة رصف للطريق، والجرحى، بوجوههم الشاحبة، ملتفُّون في أسمال، وقد كظموا شاههم وقطَّبوا حواجبهم، يتشبَّثون بجوانب العربة وينضنضون ويصطدم بعضهم ببعض. وكانوا كلهم تقريبًا يتأمَّلون قبعة بيير البيضاء وثوبه الأخضر في فضول صبياني.

ولقد صاح حوذي بيير بسائقي العربات أن يتنحَّوا جانبًا، لكنَّ فرقة الفرسان الذين كانوا ينحدرون على الطريق يسبقهم صدَّاحوهم، قطعت عليه كلَّ تقدم، وتوقَّف بيير وقد انتبذ سفح التل الذي بلغ من انحداره أنَّ الشمس ما كانت تستطيع التوغُّل في الطريق العميق الوعر، فكان المرء يشعر بالبرد والرطوبة، وفوق رأس بيير أضاء صبح جميل من أيام آب، بينما راح قرْع الأجراس يتبدَّد بوداعه. توقَّفت إحدى العربات على جانب الطريق بالقرب منه، فهرع السائق ذو «القلشين» المصنوع من القنب وهو مبهور الأنفاس، فوضع حجرًا تحت العجلات الخلفية غير المرطومة، وأصلح عدة حصانه.

وكان أحد الجرحى، وهو جندي مسنٌّ يحمل ذراعه إلى عنقه، يتبع العربة مشيًا على قدمَيْه، فتشبَّث بها بيده السليمة والتفت إلى بيير يسأله: «قل لي أيها المواطن، هل تعلم ما إذا كانوا سيتركوننا هنا أم سيحملوننا إلى موسكو؟»

وكان بيير مستغرقًا في أفكاره، حتى إنه لم يفهم السؤال. كان يتأمَّل فرقة الخيَّالة التي بلغت الآن مكان القافلة تارةً، وطورًا العربة القريبة منه، حيث جلس فيها جريحان واستلقى ثالث. وكان يخيَّل إليه أنَّ هؤلاء الحقيرين سيعطونه حلَّ المسألة التي تشغله. كان أحد الاثنين الجالسَيْن معصوب الرأس كله بالخرق، وفمه وأنفه معوجَّان، وقد أصبح أحد خدَّيْه، المنتفخ ولا شك من أثر جرح، في حجم رأس طفل صغير، وكان يرسم على صدره إشارة الصليب وهو شاخص بإبصاره إلى الكنيسة. أما الثاني، وهو مستنفَر، شاب ممتقع الوجه أشقر الشعر، يبدو وكأنَّه فَقَدَ آخر قطرة من الدم في وجهه الدقيق، فقد راح يتأمَّل بيير وعلى شفتَيْه ابتسامة رقيقة مطبوعة، بينما كان الثالث مستلقيًا على بطنه لا يمكن تمييز معالم وجهه. وبلغ المغنُّون الفرسان مكان تلك العربة بالذات وهم يضجُّون بأغنية راقصة يستسيغها الجنود، كانت بعض عباراتها واضحة: «آه! آه! أيتها الكتلة الشائكة[١] … تدحرجي، تدحرجي وتدحرجي عبر الجبال والسهول.»

بينما راح قرع الأجراس، وكأنَّه يريد أن يرجع الصدى ولكن على نمط بهيج آخر، يبعثِر في السماء أنغامه المعدنية، وجاءت الشمس تضيف عاملًا ثالثًا من البهجة إلى المشهد بأن راحت تصبُّ إشعاعاتها الدافئة على المرتفع الآخر على جانب الطريق، ولكن الجوَّ في الجانب الذي وقف فيه بيير قرب عربة الجرحى والحصان المنهوك، كان معتمًا رطبًا وحزينًا.

ألقى الجندي ذو الوجنة المنتفخة على المغنِّين نظرة غاضبة، وغمغم: «يا لطغمة خالقي البلبال!»

وقال الجندي المسنُّ الواقف وراء العربة وعلى شفتيه ابتسامة نادبة: «في هذه الساعة لا يكفي الجنود، بل إنَّهم يأخذون كذلك أبناء الأرض. لا تمييز في الوقت الحاضر. يجب أن يشترك كلُّ الناس في الأمر. ماذا؟! إن موسكو كلها تمرُّ. يجب الفراغ من هذا الأمر.»

وعلى الرغم من قلة الوضوح في هذه الكلمات، فإنَّ بيير فهمها كلها وأيَّدها بإشارة من رأسه.

ثم أصبح الطريق حرًّا، فلما وصل بيير إلى أسفل المنحدر، عاد إلى عربته يستقلُّها، وتابع الطريق. كان يدير بصره فيما حوله باحثًا عن وجوه يعرفها، لكنَّه ما كان يرى

---

[١] كنية تُطلَق على الجنود الذين تختلف رءوسهم الحليقة عن رءوس القرويين التي يتراوح الشعر عليها في الطول.

غير عسكريين من مختلف الأسلحة لا يعرفهم، وكلهم يبدي دهشته لقبعته البيضاء وثوبه الأخضر.

وبعد أن اجتاز ميلًا، وجد أخيرًا شخصًا يعرفه، فهتف يناديه بابتهاج. كان أحد رؤساء الأطباء في الجيش يرافقه طبيب شاب، وكانت عربته الصغيرة آتية في الاتجاه المضادِّ لوجهةِ عربة بيير. ولمَّا عرف بيير أشار إلى القوقازي الذي يقوم بدور الحوذيِّ أن يقف.

– «كيف؟ هذا أنت يا كونت! ماذا تعمل سعادتك هنا؟»

– «لقد استبدَّت بي رغبة معاينة ...»

– «آه! نعم، سيكون هناك ما يُرى ...»

نزل بيير من عربته وعبَّر له عن رغبته في حضور المعركة، فأشار عليه الطبيب أن يتصل بعظيم الرفعة مباشرة. قال وهو يتبادل نظرة مع زميله الشاب: «الله يعلم أين يمكنك أن تجد لنفسك مكانًا خلال المعركة إذا كنت غير معروف. إنَّ عظيم الرفعة على الأقل يعرفك وسيستقبلك بحسن التفات. نعم يا عزيزي، هذا ما يجب أن تفعل.»

كان الطبيب بادي التعب مستعجلًا. سأله بيير: «آه! أتظن ... ولكن قل لي، أين موقعنا؟»

– «الموقع؟ هذا ليس من اختصاصي. عندما تجتاز تاتارينوفو سترى أنهم يحفرون هناك مساحة كبيرة من الأرض. اصعد على التل، ومن هناك يمكنك أن تَرى ...»

– «آه! حقًّا ... لو أنَّك ...»

لكنَّ الطبيب كان قد عاد إلى عربته. قال وهو يشير إلى حنجرته: «كنت سأرافقك عن طيب خاطر، لكنَّني كما ترى ملآن إلى هنا. إنَّني ذاهب لدى قائد الوحدة. أتدري كيف تسير الأمور يا كونت؟ غدًا سندخل في معركة، ويجب أن نحصي أقليًّا عشرين ألف جريح على مائة محارب، وليس لدينا نقَّالات ولا أَسِرَّة ميدان ولا ممرِّضون ولا أطباء حتى لستة آلاف شخص. صحيح أنَّ لدينا عشرة آلاف عربة، لكنَّنا في حاجة إلى أشياء أخرى، ويجب أن نتدبَّر الأمر!»

لم تلبث أن طافت بذهن بيير فكرة غريبة: بين هذه الألوف من الرجال الأحياء الأصحَّاء الشبَّان والكهول الذين يمرون أمامه الآن ويتأمَّلون قبعته البيضاء باستغراب فيه تسلية، عشرون ألفًا نذروا لاحتمال الآلام والموت، لعلهم هؤلاء أنفسهم الذين يشاهدهم الآن.

«قد يموتون غدًا، فكيف يمكنهم التفكير في شيء آخر غير الموت؟» وفجأةً تمثَّل بنتيجة اتحاد غامض بين الأفكار، منحدرُ موجائيسك والعربات المُحمَّلة بالجرحى وصوت الأجراس وإشعاعات الشمس المنحرفة وأنشودة الفرسان، فراح يحدِّث نفسه وهو يتابع طريقه نحو تاتارينوفو: «إنَّ هؤلاء الفرسان الذين يمشون إلى المعركة يقابلون الجرحى ويتبادلون معهم غمزات بعيونهم دون أن يفكِّروا لحظة واحدة فيما ينتظرهم، وبين كل هؤلاء الناس عشرون ألفًا قُدِّر أن يتعرَّضوا للموت. مع ذلك فإن قبعتي تسلِّيهم! هذا غريب!»

وبالقرب من منزل أحد السادة على يسار الطريق، وقفت عربات نقل وعربات ركَّاب وجماعة من الخفراء والأتباع. إنَّه مقام عظيم الرفعة، لكن هذا كان متغيبًا في الساعة التي وصل فيها بيير، كما كان معظم أفراد هيئة الأركان متغيبين. لقد كانوا جميعهم في القداس الديني المُقام لذلك، فقد استمرَّ بيير باتجاه جوركي.

وعندما دخلت عربته شارع القرية الصغير، بعد أن صعدت مرتفعات، شاهد لأول مرة قرويين متطوعين في ستراتهم البيضاء يحملون صليبًا على قلانسهم وهم يضحكون ويتكلمون بأصوات مرتفعة في حُميًّا تنضح أجسادهم بالعرق، ويشتغلون على تلٍّ كبير إلى يمين الطريق اكتسحته الأعشاب الطفيلية.

ولمَّا رأى بيير هؤلاء القرويين منكبِّين على أداء عمل غير مألوف لديهم، تذكَّر جرحى موجائيسك، فأدرك معنى كلمات الجندي المسنِّ العميقة: «يجب أن يتدخَّل كلُّ الناس في الأمر.» لقد أوحى هؤلاء الرجال الملتحون كلهم، الذين يشتغلون في ساحة المعركة، ويلفتون الأنظار بأحذيتهم الغريبة وأقذلتهم السابحة في العرق وستراتهم تلك المفتوحة من الجانب، التي تترك للعين فرصة مشاهدة تراق عظيمة ملوحة، أوحى إلى بيير أكثر من أية مرة سبقت بأنَّه استطاع مراقبة وسماع خطورة الساعة الحاضرة وجلالها.

الفصل الحادي والعشرون

عذراء سمولنسك

نزل بيير من العربة ومرَّ بين المتطوعين الدائبين على العمل، وارتقى التلَّ الذي يمكن للمرء من أعلاه مشاهدة ساحة المعركة حسب أقوال الطبيب الرئيس.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، والشمس التي كانت وراء بيير إلى يساره قليلًا، تضيء في جو نقيٍّ نادرٍ المشهدَ الهائل الذي تبدَّى أمام عينيه على شكل حلبة.

كان طريق سمولنسك الكبير يقطع هذه الحلبة إلى اليسار متعرِّجًا، وهو يرتفع عبر ضيعة صغيرة ذات كنيسة بيضاء واقعة على بُعْد خمسمائة خطوة إلى الأمام في مستوى أدنى من التلِّ؛ هي قرية بورودينو، وكان الطريق يمرُّ هناك عبر جسر وفي سلسلة من المرتفعات والمنخفضات باتجاه مركز فالوييفو الذي يحتله نابليون، والذي يراه الناظر على بُعد ميل ونصف من هناك. وبعد ذلك يختفي الطريق في غابة مصفرة، وفي تلك الغابة من أشجار السندر والصنوبر، إلى يمين الاتجاه الذي يسير الطريق فيه، كانت الشمس تلتمع فوق قبة جرس دير كولوتشا وصليبه، وإلى أبعد من ذلك على يمين الغابة والطريق ويسارهم، في البعد الضارب إلى الزُّرْقة، ظهرت هنا وهناك نيران المعسكرات ثم الكتل غير الواضحة لقطعاتنا وقطعات العدو. وإلى اليمين على طول كولوتشا وموسكوفا كانت الوديان تحتل الأرض وبينها علائم قريتَي بيزوبوفو وزاخارينو، أمَّا إلى اليسار فكانت الأرض أكثر استواءً، فكانت تظهر للعيان حقول القمح وبقايا قرية سيميونوفسكوي المحترقة.

لقد كان كلُّ ما يراه بيير من الإبهام، حتَّى إن ما من شيء في اليمين أو اليسار كان يجيب تمامًا على ما كان يتوقَّع. فبدلًا من ساحة المعركة التي كان يتوقَّع أن يرى، لم يجد غير البراري والمزارع والقطعات والغابات ونيران المعسكرات والقرى والتلال والأنهار. وعلى الرغم من الانتباه الشديد الذي صرفه، فإنَّه لم يتوصَّل إلى معرفة الموقع، ولا حتى أن يميز قطعاتنا من قطعات العدو.

حدَّث نفسه قائلًا: «يجب السؤال من شخص مختصٍّ.» ثمَّ اتجه نحو ضابط كان يتأمَّل بفضول جسمه الضخم قليل الشبه بالأجسام العسكرية، وقال له: «هل أستطيع أن أسألك عن اسم هذه القرية هناك، قبالتنا؟»

أجاب الضابط وهو يلتفت نحو زميله: «بوردينو. أليس كذلك؟»

فصحَّح الزميل: «بل بورودينو.»

اقترب الضابط الذي بدا شديد الاغتباط بالثرثرة. فسأله بيير: «هل هم رجالنا، هناك؟»

– «نعم، وهناك، إلى الوراء، الفرنسيون. هناك، هل ترى؟»

– «أين؟»

– «ولكن يمكن رؤيتهم بسهولة بالعين المجردة. هنا، انظر.»

أشار الضابط إلى الأدخنة المتصاعدة على اليسار عبر النهر، وقد اتَّسم وجهه بذلك المَيْسم القلق الصارم الذي لاحظه بيير على وجوه الآخرين كلهم.

سأل بيير وهو يشير إلى تلٍّ إلى اليسار كانت تُرى حوله قطعات من الجنود: «آه! هؤلاء هم الفرنسيون! وهنا؟»

– «إنَّهم جماعتنا.»

– «آه! جماعتنا! وهنا؟»

وأشار إلى هضبة أبعد تتوِّجها شجرة كبيرة، غير بعيدة عن قرية منزوية في منحدر من الأرض، كان الناظر يرى إلى جانب نيران المعسكر المدخنة شيئًا ما أسود اللون؛ ذلك هو حصن شيفاردينو.

– «هناك؟ إنَّه «هو» أيضًا. لقد كنا أمس هناك، واليوم أصبحت له «هو».»

– «وإذن، أينَ موقعنا؟»

فقال الضابط بابتسامة راضية: «موقعنا؟ إنَّني أستطيع أن أَصِفها لك وصف العارف؛ لأنَّني أنا الذي أشرفت على تحضير كل الخنادق والمتاريس. إنَّ وسطنا كما ترى في بورودينو هنا — وأشار إلى القرية ذات الكنيسة البيضاء الماثلة أمامهم مباشرة — وهنا يقوم ممر كولوتشا. انظر إلى هناك، حيث تقوم صفوف من الحشيش المرزوم، إنَّ الجسر قريب من هناك، إنَّه وسطنا، وجناحنا الأيمن هاكه — وأشار إلى أخدود متعرِّج منحدر عند أقصى اليمين — إنَّه الموسكوفا يسيل هناك، ولقد أقمنا ثلاثة حصون منيعة قوية جدًّا، أمَّا جناحنا الأيسر … لعمري، إنَّ من الصعب تفسيره … لقد كان بالأمس هنا،

في شيفاردينو؛ حيث ترى شجرة البلوط، هناك ... لكنَّنا سحبنا الجناح الأيسر إلى الوراء. والآن، انظر هنا، إلى القرية والدخان، إنَّها سيميونوفسكوي ... ثمَّ هنا — وأشار إلى هضبة رايفسكي ... مع ذلك إنَّ من المشكوك فيه أن تدور المعركة هنا. لقد مرَّر «هو» قواته من هنا، لكنَّها خدعة. سوف يقوم ولا ريب بحركة التفاف إلى يمين موسكوفا ... على أيَّة حال فإنَّ عددًا كبيرًا لن يحضر نداء التفقُّد غدًا!»

قاطعه صف ضابط عجوز كان قد اقترب أثناء الحديث وراح يُصغي بصمت وقد ساءته ولا ريب ملاحظة رئيسية حول ذلك الموضوع. قال له بلهجة خشنة: «ينبغي لنا بعض القفف.»

بدا الضابط مضطربًا وكأنَّه أدرك أنَّ من الممكن للجنود التفكير في أنَّ كثيرًا من الزملاء لن يحضروا نداء الغد، ولكن ليس من اللائق التحدُّث عن هذا الأمر، فأجاب متعجِّلًا: «حسنًا، أرسِل السَّرِية الثالثة أيضًا.»

ثمَّ التفت إلى بيير فقال: «ولكن أنت، من أنت؟ طبيب بلا ريب؟»

– «كلا، إنَّني هنا هكذا ...»

ولَّما نزل بيير مرَّ من جديد وسط المتطوعين، وكان الطبيب يتبعه بخطوات واسعة. قال هذا وهو يسدُّ منخريه: «آه! يا للأقذار!»

وقالت أصوات كثيرة: «ها هم أولاء! ... إنَّهم يحملونها، إنهم آتون ... ها هم أولاء ...»

ولم يلبث أن اندفع الضباط والجنود والمتطوِّعون إلى الطريق.

كان موكب يصعد الهضبة خارجًا من بورودينو، وعلى رأسه يتقدَّم لواء من المشاة حاسر الرأس مخفوض السلاح فوق الطريق الغبراء، ومن وراء الجنود ارتفعت أناشيد كنائسية.

وهرع الجنود والمتطوِّعون وقد رفعوا قبَّعاتهم وتخطَّوا بيير لاستقبال القادمين.

– «لقد جاءوا بها، بالأم الطيبة! حاميتنا! ... عذراء أيبيريا «نوتردام ديبري».»

فصحَّح آخر: «كلا، بل عذراء سمولنسك.»

وألقى المتطوِّعون — الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في إعداد «بطارية» المدفعية — المَعاول من أيديهم، ومضوا لاستقبال الموكب الديني، وكانت الهيئة الدينية في حُلَل القدَّاس تتقدَّم وراء لواء المشاة: كاهن عجوز وعلى رأسه كمَّة وحوله فريق من الشمامسة والمرتِّلين، وفي أعقاب هؤلاء كان عدد من الضباط والجنود يحملون أيقونة كبيرة

ذات وجه مسودٍّ في زينتها المعدنية الخاصة، وكانت هذه الأيقونة هي التي حملوها من سمولنسك، وظلَّت منذ ذلك الحين تتبع الجيش في تنقُّله، ومن الوراء والأمام وعلى الجانبين راح عدد كبير من العسكريين يمشي أو يجري، والرجال حاسرو الرءوس يخشعون.

توقَّفت الأيقونة عند قمة التل، وتناوب الأشخاص الذين كانوا يحملونها بقطع من القماش، وأعاد حاملو المباخر إشعال مباخرهم، وبدأ القدَّاس. كانت إشعاعات الشمس تسقط عمودية، ونسمة خفيفة تتلاعب بشعر الأيقونة والأشرطة التي تزيِّنها، والترانيم تتصاعد وتضيع في السماء. وتكأكأ حشدٌ هائلٌ من الضباط والجنود والمتطوِّعين حول المكان، وشغل الضباط الكبار فراغًا خُصِّص لهم وراء رجال الدين.

كان جنرال أصلع يطوِّق عنقه بربطة القدِّيس جورج واقفًا وراء الراهب مباشرةً، ينتظر بفارغ صبر دون أن يرسم شارة الصليب على صدره — ولا بدَّ أنَّه ألماني — انتهاء الصلوات التي كان يعتقد أنَّه مُرغَمٌ على حضورها؛ لأنَّها تغذي الحمية الوطنية في نفوس الشعب الروسي، وجنرال آخر وقف بتجبُّر وقفة عسكرية كان لا يفتأ يرسم على صدره إشارات الصليب، وهو يجيل عينيه يمنةً ويسرةً، ولقد عرف بيير الذي اختلط بالقرويين عددًا من معارفه بين أولئك الشخصيات الكبيرة، لكنَّه لم ينظر إليها؛ لأنَّ انتباهه كله كان مُحتكَرًا في معاينة وجوه الجنود الصارمة الذين كانت عيونهم تلتهم الأيقونة بلهفة وكَلَف. ولمَّا شرع المرتِّلون الذين بلغوا فرضهم العشرين في ترديد الضراعة: «أيَّتُها القدِّيسة، أم الله، أنقذي خدَّامك من البلاء!» بصوت متعب كامد، واستأنف الراهب والشمَّاس: «لأنَّه تبعًا للتعاليم السماوية، نلجأ كلنا إلى شفاعتك، ونعتمد عليك كما نعتمد على جدار لا يتزعزع.» لاحظ بيير على كل الوجوه ذلك الإحساس برهبة الساعة الذي لاحظه عند منحدر موجائيسك، وفي مناسبات كثيرة خلال رحلته، انحنت الرءوس بخشوع، وتناهت الزفرات إلى الأسماع وإيقاع الأصابع وهي ترسم إشارات الصليب على الصدور.

تقهقر الحشد الذي كان متكاتفًا حول الأيقونة فجأةً، فاندفع بيير إلى الوراء مع الحركة. ولقد دلَّت هذه العجلة في الانتظام في صفوف على قدوم شخصية رفيعة المقام ولا ريب.

كان كوتوزوف هو القادم ليتفقَّد الموقع ويعود إلى تاتارينوفو، ولقد عرفه بيير من شكله البارز.

كان جسمه الضخم ملفوفًا في قميص طويل يظهر منه ظهره المحدودب، وقد بدا رأسُه الأبيضُ الحاسرُ وعينه المطفأة الفارقة في وجه رهلٍ. تقدَّم بمشيته الغاطسة

المتأرجحة، وتوقَّف وراء الرهب مباشرة، ثمَّ رسم إشارة الصليب بحركة آلية، ولمس الأرض بيده، وبعد أن أطلق زفرة عميقة أحنى رأسه المجرد من الشعر، وكان بينيجسن وحاشيته يتقدَّمون من ورائه. لم يلبث حضور القائد الأعلى أن احتكر عناية كبار الضباط، بيد أنَّ المتطوِّعين والجنود لبثوا مستغرقين في صلاتهم دون أن يعيروه التفاتة.

ولمَّا انتهى القدَّاس، اقترب كوتوزوف من الأيقونة، وتهاوى على ركبتيه، ثمَّ سجد حتَّى بلغ الأرض، وظل طويلًا دون أن يستطيع النهوض بسبب ثِقَل وزنه وضعفه حتَّى تقلَّص وجهه من الجهد. أخيرًا نهض وقرَّب شفتيه بصورة ساذج طفولي، وطبع قُبلة على الصورة، ثمَّ انحنى من جديد ولمس الأرض بيده، فاقتدى به الجنرالات كلهم ثمَّ الضباط، ومن بعدهم الجنود، فالمتطوعون، وهم يتدافعون ويتناحرون لاهثي الأنفاس يعلو التأثر وجوههم.

الفصل الثاني والعشرون

وجوه قديمة

وبينما راحت الجماهير تسوقه من جانب إلى آخر، راح بيير يلقي نظرات حوله. قال صوت: «يا كونت بيير كيريللوفيتش، أنت هنا؟!»

التفت بيير فإذا ببوريس دروبتسكوي يتقدَّم نحوه باسمًا وهو ينفض الغبار عن ركبتيه اللتين اتَّسختا، ولا ريب، بسبب ركوعه على الأرض أمام الأيقونة. كان يبدو في أناقة مدققة، مرتديًا مثل بيزوخوف سترةً طويلة ويتقلَّد سوطًا.

وفي تلك الأثناء كان الجنرال القائد الأعلى قد بلغ القرية، وجلس في ظلال أقرب بيت على مقعد جاء به قوقازي راكضًا، وغطَّاه آخر بنجد، وكانت حاشية مرموقة كثيرة العدد تحيط به.

عاد الموكب الديني إلى المسير، بينما توقَّف بيير على بُعْد ثلاثين خطوة من كوتوزوف يتحدَّث مع بوريس شارحًا له رغبته في حضور المعركة وفحص الموقع، فقال له هذا: «حسنًا! هذا ما سوف تفعله؛ سوف أقدِّم لك حفاوات المعسكر، لا ريب أنَّ أفضل مكان لمعاينة المعركة هو حيث يقف الآن بينيجسن. إنَّني ملحق بشخصه وسوف أُخطره، وإذا كنتَ ترغب في تفقُّد الموقع فما عليك إلا أن تتبعنا؛ لأنَّنا ذاهبون الآن لتفقُّد الجناح الأيسر، وعند عودتنا سوف تسمح لي بأن أستضيفك هذه الليلة، وسوف نُمضي سهرة طيبة. إنَّك تعرف ولا ريب دميتري سيرجييتش. ها هو ذا مسكنه.»

وأشار إلى البيت الثالث من جوركي. قال بيير: «لكنَّني كنت أُفضِّل زيارة الجناح الأيمن الذي يزعمون أنَّه حصين جدًّا. ولكَم أودُّ الطواف بالموقع اعتبارًا من موسكوفا.»

– «يمكنك أن تقوم بذلك فيما بعد، بيدَ أنَّ النقطة الرئيسية هي الجناح الأيسر.»

– «نعم، نعم. ثمَّ أَلَا تستطيع أن تدلَّني على الفيلق الذي فيه الأمير بولكونسكي؟»

– «فيلق آندريه نيكولايفيتش؟ سوف نمرُّ أمامه وسأقودك إليه.»

– «حسنًا. وماذا كنت تريد أن تقول عن الجناح الأيسر؟»

استطرد بوريس وهو يخفت صوته بلهجةِ مَن يُودع سرًّا: «في الحقيقة — وهذا بيننا — إن هذا الجناح الأيسر في حالة وقتية أكثر منها ثابتةً، الأمر الذي لم يكن الكونت بينيجسن يرغب فيه مطلقًا. كان يريد أن يحصِّن هذا التل هناك على شكل آخر مختلف.» وأضاف وهو يهزُّ كتفيه: «غير أنَّ عظيم الرفعة لم يرضَ أو أنَّهم أثرَّوا عليه؛ ذلك لأنَّ ...»

لكنَّ بوريس لم يتمم سرد فكرته؛ لأنَّ كائيساروف، أحد مساعدي كوتوزوف العسكريين، اقترب من بيير في تلك اللحظة، فاستطرد بوريس بضحكة مرحة وجَّهها إلى القادم الجديد.

– «آه! يا بائيسي سيرجيبيتش، إنَّني كما ترى أحاول أن أشرح الموقف للكونت. يا لبراعة عظيم الرفعة في تخمين نوايا الفرنسيين! إنَّه لأمرٌ رائع!»

سأل كائيساروف: «إنَّك تتحدث عن الجناح الأيسر؟»

– «نعم، بالضبط. إنَّ جناحنا الأيسر الآن قوي جدًّا جدًّا.»

على الرغم من أنَّ كوتوزوف صرف من الأركان العامة كلَّ الذين لا نفع فيهم، فإنَّ بوريس استطاع أن يحتفظ بمركزه في المقر الرئيسي، بالالتحاق إلى حاشية الكونت بينيجسن. وكان هذا كالآخرين، يعتقد أنَّ له في دروبتسكوي الشاب مساعدًا ثمينًا.

كانت القيادة العليا تنقسم إلى قسمين بيِّنَين: جانب كوتوزوف، وجانب بينيجسن رئيس الأركان. وكان بوريس منتميًا إلى هذا الجانب الأخير، يوحي إلى سامعيه، رغم إبدائه احترام الخادم للمخدوم لكوتوزوف، بأنَّ العجوز لا يساوي شيئًا، وأنَّ بينيجسن هو الذي يسيِّر دفَّة كل شيء. وكانت اللحظة الحاسمة تقترب، فإذا ضاعت المعركة نُحِّي كوتوزوف، ووجب تسليم منصبه إلى بينيجسن، أمَّا إذا رُبحت المعركة، فإنَّهم سوف يتدبَّرون الأمر على العكس؛ ليجعلوا شرف النصر راجعًا إلى بينيجسن. على أيَّة حال فإنَّ نهار غدٍ سيؤدي إلى توزيع المكافآت على نطاق واسع، كما سيؤدي في المرحلة الأولى إلى مجيء رجال جدد. ذلك كان السبب الذي جعل بوريس ذلك اليوم في هرج ومرج شديدَين.

جاء بعد كائيساروف عددٌ آخر من معارف بيير، فأحاطوا به، حتى إنه بات يجد صعوبة في الإجابة على كلِّ الأسئلة التي راحوا يوجِّهونها إليه عن موسكو، وفي تتبُّع كل الأقاصيص التي شرَعوا يروونها على مسامعه. وكانت الوجوه كلها متأثرة وبالغة ذروة الانفعال، ولكن خُيِّل إلى بيير أنَّ كلَّ ذلك التهيُّج إنَّما يرتكز على أسسٍ أقامتها المصلحة الشخصية، فلم يستطع إلَّا أن يقارنه بذلك الذي قرأه على وجوه أخرى، والذي نجم

عن مسألة كلية مختلفة؛ مسألة الحياة أو الموت. ولاحظ كوتوزوف شخص بيير الضخم والزمرة التي تحيط به، فقال آمرًا: «قولوا له أن يأتي إليَّ!»

وحمل مساعد عسكري رغبةَ عظيم الرفعة إلى بيير، فتوجَّه هذا نحو مقعد الجنرال، لكنَّ جنديًّا من المتطوعين سبقه، وكان ذلك الجندي هو دولوخوف. سأل بيير: «كيف جاء هذا إلى هنا؟»

فأجابه بعضهم: «أوه! إنَّه شاطر يعرف كيف يتسلَّل في كل مكان. لقد كُسِرت رتبته من جديد، وهو يرغب الآن في أن يستردَّ مركزه، ولقد قدَّم عددًا من المشاريع المختلفة، وقام بغارة ليلية على خطوط العدو ... لا مجال للنقض، إنَّه فتًى صنديد.»

رفع بيير قبعته وانحنى باحترام أمام كوتوزوف، وكان دولوخوف في تلك اللحظة يقول: «ولقد فكَّرت أنَّني إذا خاطبتُ سموَّكم، فإنَّ أسوأ ما يمكن أن يقع لي هو أن ترفضوا الإصغاء إليَّ، أو أن تقولوا إنَّكم عارفون كل هذا مثل ما أعرفه ...»

– «حسنًا، حسنًا ...»

– «وإذا كنتم سموكم في حاجة إلى رجل لا يخشى قط تعريض نفسه للخطر، فلتتفضَّلوا بتذكُّر اسمي ... علَّني أكون نافعًا لسموكم ...»

فكرَّر كوتوزوف وقد وقعت عينه الضحَّاكة على بيير: «حسنًا ...»

خلال ذلك كان بوريس، ببراعته ولباقته، قد استطاع أن يجعل نفسه ملازمًا لبيير، إلى جوار الرئيس الأكبر مباشرةً، فقال بلهجة طبيعية جدًّا لا يتطرق إليها الشك، يخاطب بيزوخوف وكأنَّه ينهي حديثًا بدأ بينهما: «لقد ارتدى المتطوِّعون قمصانًا جديدة بيضاء ليستعدُّوا للموت. يا لها من بطولة يا كونت!»

وكان يشكُّ في ألَّا توقظ هذه الكلمات انتباه كوتوزوف. والواقع أنَّ هذا لم يلبث أن سأله: «ماذا تقول عن المتطوعين؟»

– «لقد ارتدوا يا صاحب السمو قمصانًا بيضاء استعدادًا ليوم غدٍ، للموت.»

فقال كوتوزوف: «آه! يا له من شعب رائع! يا له من شعب لا يُبارى!»

وأغمض عينيه وهزَّ رأسه وأطلق زفرة وردَّد: «نعم، يا له من شعب لا يُبارى!»

ثمَّ خاطب بيير سائلًا: «وإذن، إنَّك تريد أن تستنشق رائحة البارود؟ نعم، إنَّها رائحة جميلة. لي الشرف أن أكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك. كيف حالها؟ إنَّ معسكري رهن أمرك.»

وكما يحدث عادةً للأشخاص المسنِّين، أدار كوتوزوف حوله نظرة ساهمة، وكأنَّه لم يعُد يذكر ما كان يريد أن يقول أو أن يعمل، ثمَّ استدعى بإشارة سيرجيتش كائيساروف،

أخا مساعده العسكري، وقال له وكأنَّه استعاد حبل تفكيره: «ذكِّرني بأبيات مارين، إنَّك تعرف ماذا كتب عن جيراكوف: «سوف تلقِّن سرايا الجدد دروسًا ...» هيا، هيا ...»

وكان إلحاحه يُظهر استعداده الواضح لإدخال بعض المرح على نفسه، فراح كائيساروف يتلو الأبيات عليه، وهو — كوتوزوف — يضبط الإيقاع بهزَّات رأسه.

وبينما شرع بيير ينسحب، استوقفه دولوخوف من ذراعه، وقال له بصوت مرتفع يحمل طابع تمجيد خاص، غير مبالٍ قط وجود غرباء: «يفتنني أن ألقاك هنا، عشية يومٍ لا يعلم إلا الله الذين سوف يبقون على قيد الحياة بيننا. وإنَّني سعيد إذ أقول لك إنَّني آسف لسوء التفاهم القديم، وإنَّني أرغب في ألَّا يكون في نفسك شيء من الضغينة ضدي. تفضَّل بالصفح عني.»

نظر إليه بيير وراح يبتسم دون أن يعرف كيف يجيب، بينما ضمَّه دولوخوف إلى قلبه والدموع تتلألأ في عينيه.

والتفت الكونت بينيجسن نحو بيير بعد أن حدَّثه بوريس ببضع كلمات، ودعاه إلى مرافقته في جولته التفتيشية. قال له: «سوف يثير ذلك اهتمامك.»

فأجاب بيير: «نعم ولا ريب.»

وفي غضون نصف ساعة، عاد كوتوزوف إلى تاتارينوفو، بينما توجَّه بينيجسن وحاشيته، ومعهم بيير، نحو خطوط القتال.

الفصل الثالث والعشرون

تصرُّف بينيجسن

نزل بينيجسن من جوركي على الطريق الرئيسية، حتَّى بلغ الجسر الذي دلَّ الضابط بيير عليه من فوق التل، مشيرًا إلى أنَّه «وسط» الموقع، والذي انتشرت بقربه رزمة من الحشيش العطِ. وبعد أن اجتازوا الجسر وضَيعة بورودينو، استداروا إلى اليسار ومرُّوا بحشد كبير من الجنود والمدافع، فعَرضت لأبصارهم ربوة كان المتطوِّعون يقلبون أرضها؛ تلك كانت الحصن الذي عُرِف فيما بعد باسم «حصن راييفسكي»، أو «بطارية التل».

لم يعلِّق بيير عليها إلا اهتمامًا عابرًا؛ لأنَّه ما كان يعتقد قط أنَّ ذلك الحصن سيصبح بالنسبة إليه المكان الذي يستحق الذكر أكثر من أي موقع آخر من ساحة المعركة. وبعد أن عبروا خورًا، بلغوا قرية سيميونوفسكوي؛ حيث كان الجنود يحملون آخر أخشاب الأكواخ والمكادس. وأخيرًا، وبعد سلسلة من المرتفعات والمنخفضات، عبر حقول من الشيلم الذي حطَّمه البرد، وصلوا إلى طريق فتحته المدفعية بين أخاديد حقل محروث، ومنه بلغوا الخنادق التي كانوا يقومون بحفرها.

ولَّما وصلوا إلى هناك رفع بينيجسن أبصاره قبالته نحو حصن شيفاردينو الذي كان حتَّى الأمس في أيدينا، والذي كان يُرى حوله بعض الفرسان، ولقد زعم بعض الضباط أنَّ واحدًا من أولئك الفرسان كان ولا ريب نابليون أو مورا، فراح الجميع ينظرون إلى تلك الناحية بتعطُّش، وراح بيير يسعى لمعرفة مَنْ أولئك الفرسان يمكن أن يكون نابليون، لكنَّ الجماعة ما لبثت أن تركت التل وضاعت عن متابعة الأبصار.

شرح بينيجسن لجنرال كان يقترب في تلك اللحظة موقع قطعاتنا بالتفصيل، وراح بيير يُصغي إليه جاهدًا أن يتفهَّم موضوع المعركة المقبلة، لكن لعظيم نكده لمس أنَّ ذكاءه لا يبلغ هذا الحد؛ لأنَّه لم يكن يفهم من الشرح شيئًا. وبينما بينيجسن يُنهي درسه، لاحظ

ما اعترى وجه بيير من أمارات وهو يصغي إليه، فسأله فجأةً: «لن يثير هذا اهتمامك ولا ريب؟»

فاحتجَّ بيير بقليل من الإخلاص: «بل على العكس؟»

مالوا إلى اليسار أيضًا بعد موقع الاستحكامات عبر طريق متعرِّج يخترق غابة من أشجار السندر الصغيرة، وفي وسط تلك الغابة، انبعث أمامهم أرنب برِّي أشهب ذو قوائم بيضاء، ولقد روَّعه اقتراب كل هذا العدد من الخيول، ففقد صوابه وراح يعرقص طويلًا على الطريق مثيرًا الضحك العام، حتى إنه لم يعتزم أخيرًا الدخول إلى الدغل، إلا بعد أن صرخت عدة حناجر تفزعه. وبعد نصف ساعة انتهوا إلى فسحة جرداء تشغلها وحدة توتشكوف التي عُهِد إليها بالدفاع عن أقصى الجناح الأيسر …

وهنا تحدَّث بينيجسن طويلًا وبحماس، ثمَّ اتخذ إجراءً خُيِّل إلى بيير أنَّه ذو أهمية أولية. لقد كان قبالةَ وحدة توتشكوف تلٌّ أهملوا احتلاله، فانتقد بينيجسن هذه الخطيئة بصوت مرتفع، قائلًا إنَّ من الجنون ترك نقطة تتحكَّم بالمنطقة دون حماية، وأنَّه يجب إقامة وحدات عند أسفل التل. ولقد أعرب بعض الجنرالات عن الرأي نفسه، بل إنَّ أحدهم أعرب بصراحة عسكرية صميمة أنَّهم أرسلوهم إلى المسلخ. فأمر بينيجسن من تلقاء نفسه باحتلال التل، وغيَّر مراكز القطعات.

ولقد أقنع هذا التصرف بيير بعجزه عن تفهُّم الفن الحربي. تساءل وهو يشاطر بينيجسن وجنرالاته الرأي، كيف استطاع الذي أقام وحدة توتشكوف هنا أن يرتكب مثل هذه الخطيئة الفاحشة؟!

كان يجهل أنَّ تلك الوحدة لم تكن مهمتها حماية الموقع كما تصوَّر بينيجسن، بل إنَّهم أخفوها هناك استعدادًا لشَرَكٍ أُعِدَّ سلفًا بقصد مهاجمة العدو على غِرَّة وهو في سيره. ولقد خضع بينيجسن وهوَ يبدِّل ذلك الموقع لوجهات نظر خاصة، حاذر أن يطَّلع القائد الأعلى عليها.

الفصل الرابع والعشرون

إحساس آندريه

كان الأمير آندريه ليلة الخامس والعشرين تلك يستريح في مكدس خَرِب بقرية كنياز كوفو، عند الطرف الأقصى من الجبهة التي يدافع لواؤه عنها. كان متكئًا على مرفقه ينظر خلال الحواجز المفكَّكة إلى خط من السندر الثلاثيني ذي الأغصان المنخفضة المشذَّبة، الذي يمتدُّ على طول الحاجز، وإلى حقل تناثرت فيه جرز العلف غيضة يتصاعد منها دخان المطابخ.

وعلى الرغم من أنَّه كان يعتقد بأنَّه شخص عديم النفع، وأنه لا يليق بالحياة، فإنَّه كان يشعر بالانفعال وشدَّة التأثُّر كشعوره عشيَّة معركة قبل سبعة أعوام.

لقد تلقَّى الأوامر المتعلقة بمعركة الغد ونقلها، فلم يتبقَّ له ما يعمله، لكنَّ أكثر الأفكار بساطةً ووضوحًا؛ وبالتالي أكثر إيلامًا، ما فتئت تهاجمه. كان يعرف أن تلك المعركة ستكون أشدَّ هولًا من كل المعارك التي خاضها؛ لذلك فقد تمثَّلت له لأول مرة إمكانية الموت بكل وضوح، وعلى شكلها المريع، بحدَّة بل وبالتأكيد. لم يعد يتساءل عن التأثير الذي يمكن أن يُحدِثه هذا العارض على الآخرين، بل أصبح يتصوَّره على زاوية شخصية بحتة، كما لم يعد يفكِّر إلا في نفسه. ومن السماك الذي بلغته أفكاره استضاء كلُّ ما كان يعذِّبه من قبل عذابًا مبرحًا بنور أبيض بارد دون ظلال ولا توقُّع ولا خطوط محيطية واضحة. أدرك أنَّه لم يتأمل حياته حتَّى ذلك الحين إلا على ضوء مصباح سحري وتحت إضاءة اصطناعية. بات يرى فجأةً تلك اللوحات الملوَّنة بغلظة دون واسطة عدسة، بل على ضوء النهار الباهر. راح يحدِّث نفسه وهو يستعيد في ذاكرته لوحات ذلك المصباح السحري الرئيسية التي راح ينظر إليها الآن على ضوء ذلك النور الأبيض البارد الذي تُلقيه فكرة الموت المشرقة: «نعم، نعم. ها هو ذا ذلك السراب الخادع الذي طالما هزَّني وأثارني وآلمني. ها هي ذي، هذه الصور الملوَّنة بغلظة التي تبدو لي رائعة جدًّا وشديدة الغموض.

المجد، الصالح العام، الحب، بل الوطن نفسه. كم كانت كلُّ هذه الأشياء تبدو لي كبيرة ومليئة وذات معنًى عميق! مع أنَّها كلها شديدة الشحوب، غليظة على الضوء الفاضح الذي يلقيه هذا الضَّجَر الذي أشعُر أنَّه يشرق عليَّ!» ولقد كانت آلامه الثلاثة الكبرى تستنفد كلَّ اهتمامه: غرامه، موت أبيه وغزو الفرنسيين الذين باتوا يحتلُّون نصف روسيا، وفجأةً هتف بمرارة ساخرة: «الحب! ... تلك البُنَيَّة التي كانت تبدو لي زاخرة بكثير من القوى المبهمة! وماذا؟! كنت أحبها، وأقيم أحلام غرام شاعرية وأحلام سعادة ... يا للطفل الصغير! أي نعم! كنت تؤمن بلست أدري أي حب مثالي كان عليه أن يبقيَها مخلصة لك طيلة عام كامل من الغياب، كان عليها أن تُضني نفسها بانتظارٍ كحمامة القصة الحانية ... لكنَّ كل شيء كان — وللأسف — أكثر بساطةً! ... إنَّ كلَّ هذا بسيط بشكل مريع ومنفِّر!

كان أبي يبني في ليسيا جوري ويظن أنَّ ذلك الركن يخصُّه، وأن فيه أرضًا وهواءً وقرويين له، لكن نابليون جاء فُجاءةً ودون أن يعرف أن أبي موجود، كنسه وكأنه حطام قش، هو وليسيا جوري. وماري تزعم أنَّ اختبارًا آتٍ من الأعلى! فلماذا هذا الاختبار إذن طالما أنَّه لم يعد حيًّا ولن يحيا أبدًا؟ كلا، إنَّه لن يعود بعد اليوم أبدًا. وإذن، لمن هذا الاختبار؟ ... الوطن، خسارة موسكو! لكنَّهم غدًا سيقتلونني، ولن يكون الفاعل فرنسيًّا، بل سيكون واحدًا من رجالنا، مثل ذلك الجندي الذي أطلق سلاحه أمس قرب أذني ... سيأتي الفرنسيون وسيحملونني من قدمي ورأسي، ويلقونني في حفرة كيلا تؤذيهم رائحتي النتنة ... وستقوم شروط حياتية جديدة، وستصبح طبيعية تمامًا بالنسبة إلى آخرين كالنظم السابقة ... ولن أعرفها. إذن لن أكون على قيد الحياة.»

أخذ يتأمَّل خط السندر وأوراقها الصفراء الجامدة وقلافتها البيضاء التي تلتمع تحت الشمس. «الموت ... نعم، يمكن أن أُقتَل غدًا ... ألَّا أصبح من أهل الحياة ... وأنَّ كلَّ هذا موجود ولكنَّه بالنسبة إليَّ انتهى، انتهى كلُّ شيء.» تمثَّل مشهد الحياة في سياقها الطبيعي بوضوح دون أن يساهم فيها، وأشجار السندر تلك بألوانها وظلالها، وتلك الغيوم الكثيفة ودخان المعسكرات ذاك، كلُّ ذلك انقلب فجأةً واتخذ أمام ناظرَيْه شكلًا مريعًا مهدِّدًا، فاقشعرَّ بدنُه، نهض فجأة وخرج وراح يذرع الأرض.

وفجأةً دوَّت أصوات وراء الصفة، فسأل الأمير آندريه: «مَنْ هناك؟»

دخل تيموخين — الضابط ذو الأنف الأحمر، القائد السابق لسرية دولوخوف الذي عُيِّن بسبب نقص الضباط قائدَ لواء — إلى المكدس خجلًا، وكان ضابط تابع والضابط المحاسب يتبعانه.

نهض آندريه متلهفًا وأصغى إلى تقرير مرءوسيه، ثمَّ أنهى إليهم أوامره الأخيرة. كاد يصرفهم عندما تناهت إليه من الخارج نغمة صوت مألوف لديه. زمجر أحدهم وقد اصطدم ولا ريب بحاجز ما: «يا للشيطان!»

فألقى آندريه نظرة إلى الخارج فعرف بيير. كان هذا يشتم خشبة اشتبكت قدمه بها، وكان آندريه لا يتوقَّع رؤية أشخاص من بيئته، وعلى الأخص بيير الذي يذكِّره بفترات إقامته الأخيرة في موسكو الأليمة. قال: «آه! هذا أنت، أيَّة مصادفة جاءت بك؟ ما كنت أتوقَّع رؤيتك.»

كان في صوته وعينيه وفي كل أماراته برودٌ وعداء شديدَا الظهور، حتى إن مزاج بيير المرح لم يستطِع مقاومة هذا الاستقبال، فشعر بشيءٍ من الانزعاج.

غمغم بيير الذي استعمل خلال ذلك النهار كلمة «هام» عديمة المعنى مرات كثيرة: «لقد جئت ... هكذا ... إنَّه شديد الأهمية. أردت مشاهدة المعركة.»

سأله بيير ساخرًا: «آه، حقًّا! والإخوان الماسونيون، ماذا يقولون عن الحرب؟ هل استطاعوا منعها؟»

ثمَّ أضاف بلهجة أكثر جديَّةً: «وماذا يقولون في موسكو؟ هل وصل ذووي؟»

– «نعم، لقد قالت لي جولي دروبتسكوي ذلك، ولقد ذهبت لرؤيتهم، لكنَّني لم أجدهم؛ إذ كانوا قد ارتحلوا إلى بيتكم الريفي.»

الفصل الخامس والعشرون

آراء جديدة

أراد الضابط أن ينسحبوا، لكنَّ آندريه الذي ما كان يرغب في الانفراد مع صديقه استبقاهم. جيء بمقاعد وقُدِّم الشاي. أخذ الضباط يتأمَّلون جسم بيير الضخم في شيء من الدهشة، ويُصغون إلى ما يرويه عن موسكو والمواقع التي طاف بها، ولقد ظلَّ آندريه متخذًا مظهرًا فيه كثير من العناد، حتى إن بيير أخذ يفضِّل مخاطبة تيموخين الفاضل، وفجأةً قاطعه آندريه: «وإذن، لقد فهمت تنظيم القطعات جيدًا؟»

– «نعم ... أو على الأصحِّ، لمَّا كنت غير مختصٍّ، فإنَّني لا أستطيع القول بأنَّني فهمته تمامًا، لكنَّني استوعبت الخطوط العامة.»

– «إذن، إنَّك أكثر تقدُّمًا من أيٍّ كان.»

قال بيير وهو ينظر إليه خلال نظارتيه مذهولًا: «كيف؟! إذن، ماذا تقول عن تعيين كوتوزوف؟»

– «لقد سرَّني تعيينه. هذا كلُّ ما أستطيع قوله.»

– «وماذا تفكِّر في باركلي دوتوللي؟ الله يعلم ماذا قالوا عنه في موسكو. هيا، ما هو رأيك عنه؟»

قال آندريه وهو يشير إلى الضباط: «سَلْ هؤلاء السادة.»

وبمثل تلك الابتسامة الرحيمة التي تطوف على شفاه كلِّ مَن ينظر إلى تيموخين، نظر بيير إلى هذا فأجاب تيموخين بشيءٍ من التردُّد وهو شاخص بأبصاره إلى زعيم فَوْجِه: «كما ترى سعادتك، لقد شاهدنا النور عندما اضطلع عظيم الرفعة بأعباء القيادة.»

فسأله بيير: «وكيف ذلك؟»

– «حسنًا. لنأخذ مثلًا الحطب والعلف؛ عندما تراجعنا أمام سوينسياني، كان محظورًا لمس غمر من العلف أو قشَّة تبن. مع ذلك، لقد كان «هو» الذي سيستفيد منها طالما كنا سنرحل. أليس كذلك يا صاحب السعادة؟»

كانت العبارة الأخيرة موجَّهة إلى أميره. أردف: «ولقد مَثُلَ ضابطان من فيلقنا أمام المحكمة لأسباب من هذا النوع. أمَّا مع عظيم الرفعة، فقد غدا كلُّ شيء أكثر بساطةً. لقد شهدنا النور.»

– «وإذن، لماذا حظر باركلي دوتوللي هذا العمل؟»

أخذ تيموخين يدير عينيه مرتبكًا بهذا السؤال دون أن يجيب، فبادر الأمير آندريه إلى نجدته، فقال بلهجة ساخرة مريرة: «ولكن، لكي لا نُتلف الأرض التي نسلِّمها للعدو. وأي شيء أكثر عدالةً؟ لا يمكن السماح للجنود بنهب البلاد أو بالقيام بأعمال السلب، ولقد فكَّر تفكيرًا صحيحًا في سمولنسك أيضًا عندما زعم أنَّ العدو يمكن أن يلتفَّ حولنا، وأن قواته أكثر من قواتنا.»

وفجأةً صاح بصوته الثاقب: «مع ذلك، فإنَّ ما لم يستطِع فهمه، نعم، ما لم يستطِع فهمه، هو أنَّنا كنا في سمولنسك ندافع لأول مرة عن أرضٍ روسية، وأنَّنا صدَدْنا يومين متعاقبين هجمات الفرنسيين، وأنَّ مقاومتنا ضاعفت قوانا إلى عشرة أمثال. مع ذلك، فقد أمر بالانسحاب، فباتت مجهوداتنا كلها وخسائرنا كلها عديمة الجدوى. لا ريب أنَّه لم يكن يفكِّر في الخيانة، بل كان يعمل جاهدًا لبلوغ أفضل النتائج، ويزيِّن كلَّ الأشياء، لكنَّه من أجل ذلك بالذات لا يساوي شيئًا. إنَّه لا يساوي شيئًا، نعم؛ لأنَّه ككلِّ ألماني جيد، يهتم كثيرًا بكل الأمور. كيف أفسِّر لك؟ ... لنفرض أنَّ لأبيك خادمًا ألمانيًّا، إنَّه تابع ممتاز يخمِّن رغبات أبيك وينفِّذها أفضل مما تستطيع أنت صنعه، فتترك له الحرية التامَّة في خدمته، ولكن إذا كان أبوك مشرفًا على الموت، فإنَّك حينئذ ستنحِّي ذلك الرجل، وستُعنى بأبيك بيديك العديمتي المهارة والحذق، وسترفِّه عنه أفضل مما يفعل غريب مهما بلغ شأنه، وهكذا تصرَّفوا مع باركلي دوتوللي. طالما كانت روسيا على ما يُرام، كان يستطيع الأجنبي أن يخدمها، وأن يقوم بدور وزير ممتاز، ولكن منذ أن أصبحت في خطر، بات من الضروري أن يكون فيها رجل من دمها ... لقد زعموا في ناديك أنَّه خائن! ولسوف يخجلون ذات يوم من هذه المسبَّة، وسيجعلون منه بطلًا أو عبقريًّا، الأمر الذي سيكون أكثر إجحافًا. إنَّه ليس أكثر من ألماني شريف ومدقِّق ...»

اعترض بيير: «إنَّهم يقولون إنَّه رجل حرب ماهر.»

فردَّ آندريه بابتسامة ساخرة: «إنني أجهل معنى هذا القول.»

– «إنَّ رجل حرب ماهر هو الذي يرى سلفًا كل العرضيات ... الذي يخمِّن نوايا العدو.»

فأجاب آندريه وكأن المسألة قد حُسِمت منذ زمنٍ بعيد: «لكن هذا مستحيل!»

نظر إليه بيير بدهشة وقال: «مع ذلك، فإنَّهم يزعمون أنَّ الحرب تشبه شوط شطرنج.»

فقال آندريه: «نعم. مع ذلك، الفارق الصغير التافه أنَّ في الشطرنج يستطيع المرء أن يفكِّر بعد كل حركة كما يشتهي؛ إذ إنَّ الوقت لا يلعب فيه أي دور. ومع ذلك، الفارق أنَّ «الفرس» أقوى دائمًا من «البيدق»، وأنَّ «بيدَقَين» أقوى دائمًا من بيدق واحد. بينما في الحرب يكون اللواء أحيانًا أقوى من فيلق كامل، وأحيانًا أضعف من سرية، ما من أحدٍ يستطيع قط معرفة قوى القطعات النسبية. صدقًا إنَّه لو كانت النتائج تتوقَّف على الإجراءات المتخذة في قيادات الأركان، لظللت في القيادة العامة لإعطاء الأوامر، في حين أنَّ لي شرف الخدمة هنا، في هذا الفوج، مع هؤلاء السادة، وأقدِّر أنَّ نتيجة يوم غدٍ تتوقَّف علينا ... إنَّ النجاح لم يتوقَّف قط ولن يتوقَّف أبدًا على الموقع ولا التسلُّح، ولا حتَّى على العدد، على أيَّة حال ليس على الموقع!»

– «وإذن، على أي شيء؟»

– «على الشعور الذي في نفسي وفي نفسه — وأشار إلى تيموخين — وفي نفس كل جندي.»

نظر الأمير آندريه إلى تيموخين الذي كان يحدِّق في رئيسه بعينَين مروَّعتين قلقتين. لقد بدا الأمير آندريه الآن مضطربًا، وهو الذي كان صموتًا متحفِّظًا من قبل، وكان واضحًا أنَّه عاجز عن كبْت الأفكار التي هاجمته فجأة.

– «إنَّ هذا يربح المعركة التي صمَّم بعزم أن يربحها. لماذا خسرنا معركة أوسترليتز؟ لم تكن خسائرنا تفوق على خسائر الفرنسيين، لكنَّنا حدَّثنا نفسنا في وقت مبكر بأنَّنا هُزِمنا فَكُنَّا كذلك. ولقد قلنا لأنفسنا ذلك؛ لأنَّنا ما كنا نرغب في القتال. كنا نريد مغادرة ساحة المعركة بأسرع ما يمكن. «لقد ضاعت المعركة فلم يبقَ إلا الفرار!» ثمَّ فررنا، ولو أنَّنا لم نعمَد إلى هذه اللغة لكان الله يعلم بما كان سيقع. أمَّا غدًا فسيكون الأمر مختلفًا. إنَّك تتنبَّأ بأنَّ جناحنا الأيسر ضعيف وأنَّ جناحنا الأيمن طويل الامتداد. ترَّهات كل هذه! سوف تقع غدًا ملايين وملايين من الحوادث العرضية تجعل رجالهم ورجالنا في وقتٍ ما

يفرُّون، وتَسبَّبُ في مقتل فلان أو فلان، ولكن بانتظار ذلك، كل ما صُنع وأُقيم ليس إلا لعبة. إنَّ أولئك الذين زرت معهم الموقع أبعد من أن يساعدوا على سير العمليات، يعملون على عرقلتها. إنَّهم لا يفكِّرون إلا في مصالحهم الشخصية التافهة.»

قال بيير ساخطًا: «في مثل هذه اللحظة؟»

فاستأنف الأمير آندريه: «نعم، في مثل هذه اللحظة. إنَّ هذه اللحظة في نظرهم ليست إلا اللحظة المناسبة لنسف مركز خصم، والحصول على صليب أو وشاح آخر. إليك — حسبما أرى — الموقف كما هو: سيتقاتل غدًا جيش مُؤلَّف من مائة ألف روسي ضد مائة ألف فرنسي، والجيش الذي سيكون أشدَّ ضراوة وأقلَّ اقتصادًا لمجهوداته هو الذي سيربح المعركة. وإنَّني لأقول لك إنَّه مهما حدث، وعلى الرغم من مؤامرات الرؤساء، فإنَّنا نحن الذين سننتصر. نعم، «غدًا» سنربح المعركة رغم وضد كل شيء.»

تدخَّل تيموخين قائلًا: «إنَّها الحقيقة الحقة يا صاحب السعادة، هل هذا وقت التحفظ؟ هل تصدِّق؟ لقد رفض جنود لوائي شرب قطرة واحدة من الشراب. إنَّهم يقولون: «ليس الوقت مناسبًا».»

ران صمتٌ فنهض الضابط وتبعهم الأمير آندريه ليزوِّدهم بآخر تعليماته، وعندما انصرفوا، أراد بيير أن يستأنف البحث، لكنَّ وَقْع حوافر جياد ثلاثة سُمِع على الطريق على مقربة من الضفة. نظر آندريه إلى تلك الجهة، فإذا القادمون فولزوجن وكلوزويتز يرافقهما قوقازي. ولقد مرُّوا قريبًا جدًّا، حتى إن الصديقَيْن استطاعا التقاط نُتَف من حديثهما. كان أحدهما يقول بالألمانية: «يجب أن تمتدَّ رقعة الحرب، هذا رأي لا أستطيع إلا أن أؤيده.»

والآخر يجيبه مؤيدًا: «صحيح، إنَّ الغاية هي إضعاف العدو، بينما لا تدخل خسائر الأفراد الخصوصيين في ميزان التقدير.»

فيؤكِّد الأول: «بديهيًّا.»

وعندما مرَّ الرجلان ردَّد الأمير آندريه في غضب متفجِّر: «حقًّا، يجب أن تمدَّد الرقعة! إنَّ أبي وابني وأختي ظلُّوا ضمن هذا الامتداد، بينما لا يهتم هذان السيدان بالموضوع. هذا ما كنت أقوله لك: ليس هؤلاء الألمان الذين سيربحون المعركة غدًا، إنَّهم سيفسدون كلَّ شيء بقدر طاقتهم؛ لأنَّ رأسهم الضخم لا يستوعب إلا آراءً لا أدفع دبوسًا ثمنًا لها، وليس في قلبهم شيء مما يجب من أجل الغد، شيء مما في قلب تيموخين، بعد أن «أعطوه» أوروبا كلها، أخذوا الآن يتدخَّلون لتلقيننا الدروس.»

وأعقب بصوت حادٍّ: «آه! يا للأساتذة الفاتنين الذين لدينا هنا!»

سأل بيير: «إنك تظن إذن أننا سنربح المعركة؟»

فأجاب آندريه ساهمًا: «نعم، نعم. على أية حال، لو أنَّ الأمر لم يكن متوقِّفًا إلا عليَّ، فإننا لن نأخذ أسرى. أسرى؟ إنه عمل من الفروسية. لقد نهب الفرنسيون بيتي وهم مصمِّمون على نهب موسكو. لقد أهانوني ولم يفتئوا يهينونني كل لحظة، إنهم أعدائي، أرى فيهم جميعًا مجرمين يجب قتلهم. وطالما أنهم أعدائي فإنهم لا يمكن أن يكونوا أصدقائي رغم كل محاضراتهم الجميلة في تيلسيت.»

قال بيير مؤيِّدًا وقد التمعت عيناه: «بالتأكيد. إنني من رأيك تمامًا.»

بدت المشكلة التي ما فتئت تشغل بال بيير منذ منحدر موجائيسك، واضحةً الآن وقد حُلَّت نهائيًّا، بات يفهم معنى هذه الحرب والمعركة المقبلة كاملًا، ولقد اتخذ كل ما رآه ذلك اليوم وما شاهده من وجوه صارمة متَّزنة أثناء مروره، ضوءًا جديدًا أمام عينيه، فهم الحرارة «الكامنة» كما يقولون في الفيزياء، الوطنية أولئك الناس كلهم وباتت تشرح له الآن لماذا يستعدُّون جميعهم للموت بهدوء قريب من اللاشعور.

استأنف الأمير آندريه: «إن عدم أخذ أسرى معناه تحويل الحرب كلها وجعلها أقل قسوةً، وبدلًا من ذلك، فإننا — للأسف — نلعب لعبة الحرب! إننا نُظهر كرمنا، وهذا الكرم، وهذا الإحساس يذكرانني بإحساس ربَّة بيت صغيرة تشعر بالانزعاج أمام منظر عِجل يُذبح؛ لأن قلبها الرقيق لا يسمح لها برؤية الدماء تسيل، لكنها تشبع معدتها راضية من لحم ذلك العِجل بالذات المعد مع المرق الجيد. إنهم يبرزون قوانين الحرب، الإنسانية، الفروسية، احترام المفاوضين، إلخ … ترَّهات كل هذه! لقد شهدت كل هذه الأشياء الجميلة عام ١٨٠٥، لقد خدعونا وخُدعنا، إنهم يسلِّمون بيوتنا للسلب ويضعون قيد التداول أوراقًا نقدية زائفة، ثم — وهو الأسوأ — يقتلون أبي وأولادي، ثم يأتون إليَّ بعد ذلك ليحدِّثوني عن قوانين الحرب والكرم حيال العدو! كلا، لا يجب أخذ أسرى، بل يجب قتلهم جميعًا والسير كذلك إلى الموت! إن ذلك الذي بلغ مثلي هذا الاعتقاد مارًّا بما مرَّ بي من آلام …»

أراد الأمير آندريه أن يقول إنه سيَّان عنده احتلَّت موسكو أم لم تُحتَل كما وقع لسمولنسك، لكن غُصَّة اعتصرت حنجرته، فخطا بضع خطوات صامتًا، ثم عاد إلى بحثه محموم العينين مرتعد الشفتين: «لولا هذا الكرم المزيَّف لما كنا لنمشي إلا عندما يجب الذهاب إلى موتٍ محقَّق كاليوم، ولن تكون هناك حروب بحجة أن بافل إيفانيتش قد أهان

ميخائيل إيفانيتش، وعندما تنشب حرب كحرب اليوم فستكون حينئذٍ حربًا حقيقية، ولا ريب أن عدد القطعات وتأثيرها سيكون أقل كثيرًا مما هو عليه اليوم؛ لأن كل هؤلاء الهيسيين[1] والويستفاليين الذين يجرُّهم نابليون وراءه ما كانوا ليتبعوه إلى روسيا، ولَمَا ذهبنا نحن لنقاتل في بروسيا والنمسا دون أن نعرف السبب. أي محل للظرافة في الحرب؟ أليست الحرب أكثر ما في الوجود خزيًا؟ يجب أن يتذكَّرها المرء فحسب لا أن يجعل منها تسلية. إن هذه الضرورة المريعة يجب أن تُتقبَّل بالرغبة الجدية، لنبعد كل كذبة: الحرب. إيه، إنها الحرب وليست ألعوبة، لا يجب أن يُجعل منها تسريةً برسم العاطلين وذوي الأفكار الطائشة، أليست المهنة العسكرية معتَبَرة أنبل كل المهن؟

مع ذلك، ما هي هذه المهنة؟ وكيف يحصل المرء فيها على النجاح؟ وأيَّة عادات يألفها أولئك الذين يمتهنونها؟ إن غايتها هي القتل، ووسائلها التجسُّس والخيانة والتشجيع على الخيانة ودمار السكان والنهب والسرقات التي تقع لتزويد الجيش، والخداع والكذب المزيَّنَين باسم خداع الحرب، وعاداتها الاسترقاق المعمَّد باسم الطاعة والبطالة والغِلظة والقسوة والفجور والسُّكْر. مع ذلك، فإن الطائفة العسكرية تترأس الطوائف الأخرى والناس كلهم يمجِّدونها، إن الملوك كلهم — باستثناء إمبراطور الصين — يرتدون البَزَّة العسكرية ويعطون أسخى المكافآت وأرفعها للذي قتل عددًا أكبر من الناس.

أن يلتقي عشرات الألوف من الرجال — كما سيكون الحال غدًا — لِيجرح بعضهم بعضًا وليتقاتلوا ويشوِّهوا بعضهم البعض، فإن قُدَّاسات ستقام؛ قدَّاسات غفران؛ لأنهم قتلوا كذا وكذا عددًا من الرجال الذي يزيدونه تباعًا على أيَّة حال، مقدِّرين أنه كلما ازداد عدد القتلى، كلما كان النصر أكثر روعةً.»

وصاح آندريه بصوته النبَّاح: «كيف يرى الله من عليائه هذا الأمر ويتقبَّل تلك الصلوات؟! آه يا عزيزي، لقد برمت بالحياة كثيرًا في الآونة الأخيرة! لا ريب أنني بدأت أفهم أشياء كثيرة، إنه ليس من المناسب للرجل أن يتذوَّق ثمار شجرة الخير والشر ... ثم إنه لن يتذوَّقها طويلًا على أية حال ... لكنني أراك نائمًا! لا ريب أن الوقت قد أزِف لأغفو قليلًا. عُد إلى جوركي.»

أجاب بيير وهو يُلقي على آندريه نظرة مطبوعة بميل أليم: «آه، كلا!»

– «بل نعم، امضِ. لكي يقاتل المرء جيدًا يجب أن ينام جيدًا.»

[1] هيسيين: نسبة إلى هيس. اسم لولايات ثلاث في الاتحاد الجرماني.

اقترب فجأةً من بيير وعانقه بشدة وهتف: «هيا، اذهب. الوداع، تُرى هل نرى بعضنا أبدًا؟ ...»

واستدار بسرعة ودخل المكدس، ولمَّا كان الظلام قد حلَّ فإن بيير لم يستطِع أن يميز وجه صديقه خلال فترة الوداع، وهل كان حانيًا أم صارمًا. تردَّد بعض الوقت في اتخاذ قرار اللحاق به، لكنه قال لنفسه مصمِّمًا: «كلا، إنه ليس في حاجة إليَّ، ثم إنني أعرف أن هذا آخر لقاء لنا.» وأطلق زفرة عميقة وعاد إلى جوركي.

بعد أن دخل مكدسه، تمدَّد آندريه على «بطانية»، لكن النوم لم يجد إليه سبيلًا، لقد كانت الصور فوق الصور تحاصره، فتوقَّف عند إحداها هاشًّا. كان يرى سهرة في بيترسبورج، وناتاشا تروي له باندفاع كيف ضاعت في الصيف الماضي في غابة كبيرة، بينما كانت تسعى وراء الفطر. كانت تصف له بحماسٍ الغابةَ العميقة والإحساسات التي اعتلجت في فؤادها والحديث الذي دار بينها وبين أحد مربِّي النحل، وتبتر حديثها في كل لحظة لتقول له: «كلا، لا أُحسِن الرواية، فلا تستطيع إذن أن تفهمني.» لكنه كان يطمئنها زاعمًا أنه يفهمها فهمًا كاملًا؛ لأنه في واقع الحال كان يعرف ما ستقوله، وكانت ناتاشا تتحسَّر لأنها لا تستطيع الإعراب عن الانفعال الشاعري الذي استحوذ عليها ذلك اليوم، وتقول بحُميًّا ووجهها متضرِّج: «كان ذلك الهرم فتَّانًا جدًّا، والظلام كثيف جدًّا في الغابة، وله عدد طيب جدًّا ... كلا، لا أُحسِن الرواية.» وراح آندريه يبتسم تلك الابتسامة السعيدة التي كانت تطوف على شفتيه كلما نظر في عينيها. «آه! كنت أفهمها جيدًا. نعم، كنت أفهمها وكنت أحب فيها روحها الجيَّاشة الخالصة المتهوِّرة التي كانت أشبه بالسجينة في جسدها ... نعم، تلك كانت الروح التي كنت أحبُّها حبًّا عنيفًا جدًّا كان يبعث في نفسي سعادةً غامرة ...» وفجأةً تذكَّر الخاتمة الحزينة لذلك الحب. «ما كان ذلك الرجل ليأبه بكل هذا. ما كان يرى فيها إلا قَذاة فتاة جميلة لا يجد أنها جديرة بأن يشركها في مصيره، أما أنا! ... ثم القول بأن هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة!»

قفز آندريه عند هذه الذكرى وكأن بعضهم أحرقه بحديد محمي، وعاد يذرع أرض المكدس جيئةً وذهابًا.

الفصل السادس والعشرون

ملك روما

في الخامس والعشرين من آب، عشية معركة بورودينو، جاء السيد دوبوسيه المشرف على القصر، والزعيم فابييه — الأول من باريز والثاني من مدريد — إلى معسكر نابليون في فالوييفو.

وبعد أن ارتدى بزَّة البلاط، حمل السيد دوبوسيه رزمة بحضوره كان عليه أن يسلِّمها إلى الإمبراطور، ودخل المقصورة الأولى من الخيمة الإمبراطورية حيث راح يفكُّ الرزمة وهو يثرثر مع المساعدين العسكريين الذين حاصروه بالأسئلة. وفي تلك الأثناء، كان فابييه الذي أوقف أمام الخيمة يتحدَّث مع معارفه من الجنرالات.

وكان الإمبراطور ينهي زينته في حجرة النوم، فكان يمدُّ ظهره العريض تارةً وهو ينخر، وتارةً صدره الثمين الأزب، للفرشاة التي كان أحد الخدم يدلِّكه بها، بينما راح خادم آخر، وإصبعه فوق فتحة زجاجة، يبلِّل جسد سيده المرفَّه بماء الكولونيا ووجهه ينطق بأنه وحده الذي يعرف أين وبأيَّة كمية يجب أن يسفح العطر على الجسد. وكان شعر نابليون القصير مبلَّلًا ومشعثًا فوق جبينه، ووجهه رغم صفرته وانتفاخه يعبِّر عن الراحة والرضى. قال وهو ينكمش تحت عملية التدليك: «هيا، استمر بحزم ...» وكان مساعدٌ عسكري ينتظر الأمر بالانصراف بعد أن أنهى إليه عدد الأسرى الذين وقعوا في معركة الأمس، فألقى نابليون نظرةً نحوه وهو يصرُّ على أسنانه. قال معقِّبًا على تقريره: «ليس من أسرى! إنهم يهدمون أنفسهم. خسارة على الجيش الروسي ...»

استأنف وهو يحدب ظهره تحت الفرشاة: «استمِرَّ، استمِرَّ بحزم ... حسنًا، أدخِلوا السيد دوبوسيه، وكذلك السيد فابييه.»

وبعد أن أصدر هذا الأمر إلى المساعد العسكري صَرَفه بإشارة من رأسه، فقال هذا: «نعم يا صاحب الجلالة.»

انسحب المساعد وراح الخادمان يُلبسان جلالته بحذاقة، وبعد أن ارتدى زيَّ الحرس الأزرق، مضى إلى حجرة الاستقبال بخُطًى متلاحقة ثابتة.

وكان السيد دوبوسيه في ذلك الحين يقيِّم هدية الإمبراطورة التي جاء بها على كرسيَّيْن قبالة المكان الذي وجب أن يأتي الإمبراطور منه، لكنَّ هذا دخل بشكل مفاجئ، حتى إن هذا لم يجد الوقت الكافي لإنهاء إعداداته.

لقد خمَّن نابليون أنهم بصدد إعداد مفاجأة له، فلم يشأ حرمان السيد دوبوسيه من تلك المتعة؛ لذلك تظاهَر بأنه لم يرَه. استدعى إليه السيد فابييه وراح يُصغي إليه في صمتٍ عبوس ما كان يروي له عن بسالة جنود جلالته وتفانيهم في قتالهم في سالامانك[1] في الجانب الأقصى الآخر من أوروبا، وأنهم لا يرغبون إلا في أن يكونوا جديرين بإمبراطورهم ويخشون أمرًا واحدًا؛ وهو ألَّا يوفَّقوا في إرضائه. ولقد كانت نتائج القتال مؤسِّية؛ لذلك فقد ألمح إليه نابليون ببضع ملاحظات ساخرة، أن الأمور لا يمكن في غيابه أن تسير على نحوٍ آخر. قال: «يجب أن أصحِّح هذا في موسكو. إلى بعد حين ...»

خلال ذلك، استطاع السيد دوبوسيه أن يفرغ من تهييء مفاجأته التي كانت ترتكز على بعض الكراسي مغطَّاةً بعناية بسِتر. ولمَّا التفت نابليون نحوه حيَّاه هذا تحية عميقة على الطريقة الفرنسية لا يتقنها إلا خُدَّام آل بوربون القدماء. واقترب منه وقدَّم له غلافًا.

استقبله الإمبراطور ببشاشة، وقرز له طرف أذنه. سأله بلهجة انقلبت فجأةً إلى حليمة مؤنسة: «لقد أسرعت، وإنني مسرور. ماذا يقولون في باريز؟»

أجاب السيد دوبوسيه بحكمة: «إن باريز كلها تأسف لغيابك يا صاحب الجلالة!»

وعلى الرغم من أن نابليون كان يتوقَّع جوابًا من هذا النوع، وأنه في لحظات تيقُّظه كان يعرف كيف يتصرَّف إزاء هذه الإطراءات، فإنه تقبَّل هذا الإطراء بسرور، وشرَّف السيد دوبوسيه بقرزة جديدة لأذنه، وقال: «إنني مستاء إذ أراك تقطع كل هذه المسافة الطويلة.»

– «يا صاحب الجلالة، ما كنت أتوقَّع قط أن أراك إلا على أبواب موسكو.»

ابتسم نابليون. ألقى على اليمين نظرة ساهمة، فاقترب مساعد عسكري بخطوات متسلِّلة ومدَّ له عُلبة سعوط ذهبية.

[1] سالامانك أو سالامانكا: مدينة إسبانية على نهر تورم، سكانها: ٤٦٠٠٠ نسمة، فيها جامعة شهيرة.

استأنف الإمبراطور وهو يُدني من أنفه المسعطة المفتوحة: «نعم، إنك مجدود. أنت الذي تحب السفر، سترى موسكو في غضون ثلاثة أيام. ما كنتَ ولا ريب تتوقَّع زيارة العاصمة الآسيوية، وبذلك تكون قد قمتَ بسفر طيب.»

وعلى الرغم من أن عاهله افترض فيه ذوقًا لم يكن هو يعرف لوجوده ظلًّا، فإن السيد دوبوسيه شكره وانحنى لهذه الالتفاتة الرقيقة.

سأل الإمبراطور وهو يرى أن أنظار حاشيته كلها مستديرة نحو الشيء الذي غُطِّي بالسِّتر: «ولكن ما هذا؟»

تراجع السيد دوبوسيه خطوتين بحذقِ رجلِ البطانة المجرِّب دون أن يدير ظهره، ثم رفع الستر وهو يعلن: «هدية لجلالتكم من قِبل جلالة الإمبراطورة.»

كانت الهدية لوحة رسمها جيرار[٢] بألوان صارخة للطفل الصغير المولود من نابليون وأرشيدوقة النمسا، الذي كان الناس جميعهم يدعونه — دون معرفة السبب — ملك روما. وكان ذلك الطفل الفتَّان ذو الشعر العكف والنظرة التي تشبه نظرة يسوع في صورة المادونا لسان سيكست، مرسومًا وهو يلعب بكرة خشبية مثقوبة، وكانت الكرة تمثِّل الكرة الأرضية، أما المقبض الذي كان ممسكًا به في يده الأخرى فيشبه الصولجان.

وعلى الرغم من أن غاية الرسام لم تكُن واضحة تمامًا؛ إذ ما الذي يدعو ملك روما في الواقع إلى أن يثقب الكرة بعصًا؟ فإن الاستعارة كانت مفهومة ومقدَّرة من قِبل كل الذين شاهدوا اللوحة في باريز، وكذلك بدا حال نابليون.

قال وهو يشير إلى اللوحة بحركة ظريفة: «ملك روما، رائع!»

اتخذ ميزة الإيطاليين التي تجعلهم قادرين على تبديل أمارات وجوههم وفق هواهم، وهو يتقدَّم من اللوحة مُظهر مُفكِّر ألماني معًا. كان يعرف أن كل ما سيقوله ويفعله سيصبح ملكًا للتاريخ، ولقد بدا له أن الحنان الأبوي الأكثر صفاءً هو المظهر الأكثر ملاءمة، بوصفه مباينة لعظمته التي بفضلها يستطيع ابنه الصغير أن يلعب بالعالم بدلًا من الكرة الخشبية المثقوبة، وابتلَّت عيناه بالدموع، فراح يبحث بنظره عن كرسيٍّ «طار» للقائه، ثم جلس أمام اللوحة، وأخيرًا صدرت عنه إشارة فانسحب الجميع على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم في خَلوة مع أفكاره.

[٢] جيرار (البارون فرانسوا): رسَّام التاريخ الفرنسي، وُلد في روما عام ١٧٧٠م، وتُوفِّي عام ١٨٣٧م. مؤلِّف معركة أوسترليتز.

وبعد أن تأمَّل الصورة بضع لحظات ومرَّ بيده على حرشة الألوان بحركة آلية، نهض نابليون واستدعى السيد دوبوسيه من جديد، كما استدعى الضابط المنوب، وأصدر الأمر بأن توضع الصورة أمام خيمته حتى يتسنَّى للشعب الخاص أن يرى ملك روما، ابن إمبراطورهم المعبود ووريثه.

ولم يخذل انتظاره؛ إذ بينما كان يتناول طعامه مع السيد دوبوسيه الذي حظي بهذا الشرف العظيم، هرع الضابط ورجال الحرس جماعات جماعات إلى أمام الخيمة، وراحوا يحيُّون الصورة بهتافات حماسية: «يحيا الإمبراطور! يحيا ملك روما! يحيا الإمبراطور!»

وبعد الطعام، وبحضور السيد دوبوسيه، أملى نابليون أمرًا يوميًّا للجيش، ثم قال وهو يقرأ بيانه الذي كتبه دفعة واحدة دون أن يُدخِل عليه أي تصحيح: «بيان قصير وقوي!»

وهذا نص البيان:

> أيها الجنود! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها. إن النصر منذ الآن يتوقَّف عليكم، وهو ضروري لنا؛ لأنه سيعطينا الوفرة والمراكز الشتوية الجيدة وعودة سريعة إلى الوطن! تصرَّفوا كما تصرفتم في أوسترليتز وفريدلاند وفيتيبسك وسمولنسك، ولتتحدث الأجيال الصاعدة عن سلوككم في هذا اليوم، ليقولوا عنكم: لقد كانوا في المعركة الكبرى عند جدران موسكو.

ردَّد نابليون: «جدران موسكوفا!»

وبعد أن دعا السيد دوبوسيه المولَع بالأسفار إلى مرافقته في نزهته، خرج من خيمته واتجه نحو الخيل المسرجة. هَمَّ السيد دوبوسيه أن يعترض وهو الذي كان في حاجة إلى النوم، أضِف إلى ذلك جهله التام بركوب الخيل: «إن جلالتكم تغمرونني بعطفكم.»

لكنَّ إشارةً من رأس نابليون أرغمت الرحَّالة على اللحاق به. ولمَّا ظهر الإمبراطور تضاعفت هتافات جنود الحرس، فقطَّب نابليون حاجبَيْه. قال وهو يدل بإشارة عريضة من يده على صورة ابنه: «ارفعوها. لا يزال صغيرًا جدًّا حتى يرى ساحة المعركة.»

فأغمض السيد دوبوسيه عينيه وأحنى رأسه وأطلق زفرة عميقة مدلِّلًا بذلك على أنه يدرك تمامًا وساوس جلالته.

الفصل السابع والعشرون

خُطَّة نابليون

يقول مؤرِّخو نابليون إنه أمضى سحابة يوم الخامس والعشرين من آب على جواده يفحص الأرض ويناقش الخطط التي يعرضها عليه ماريشالاته، ويُعطي بنفسه الأوامر إلى جنرالاته.

كان خط الروسيين الأول على طول نهر كولوتشا قد تصدَّع، وقد سُحب جزء من هذا الخط، وهو الجناح الأيسر، إلى الوراء بسبب سقوط حصن شيفاردينو يوم الرابع والعشرين من آب، فلم يعد هذا الجزء محصَّنًا أو محميًّا بالنهر، ولم يعد أمامه إلا قطعة أرض مكشوفة مستوية. وكان الفرنسيون — ولا ريب — سيهاجمون من هناك؛ لأن ذلك كان يقفز لعينَي كل ناظر حتى ولو لم يكن عسكريًّا. ولم يكن إعداد ذلك الهجوم — على ما يبدو — يحتاج إلى كثير من الترتيبات، ولا إلى كل تلك الرَّوحات والغدوات من جانب الإمبراطور وماريشالاته، حتى ولا إلى تلك القدرة الرفيعة الخاصة التي يسمونها بالعبقرية، والتي يحبون كثيرًا أن ينسبوها لنابليون. لكن المؤرخين الذين رووا الحادث فيما بعد والرجال المحيطين به والإمبراطور نفسه كانوا يفكِّرون تفكيرًا مختلفًا.

إذن، لقد كان يجوب على جواده دارسًا طوبوغرافية الأرض دراسةَ المتأمِّل، مؤيِّدًا أو رافضًا بإشارة من رأسه الأفكار التي تطوف برأسه، مُطلِعًا معاونيه — دون إظهارهم على سير أفكاره السري — على النتيجة بشكلِ أوامر يوجِّهها إليهم. عَرَضَ دافو — الذي باتوا الآن يدعونه الأمير ديكموهل — أن يُعمَد إلى الالتفاف حول جناح الروسيين الأيسر، لكن نابليون اعترض على ذلك دون بيان أسباب الرفض، وبالمقابل فإن الجنرال كومبان الذي عُهد إليه بمهاجمة المتاريس، عرض فكرة إخفاء فَوْجه في الغابة، فوافق الإمبراطور عليها رغم أن الدون ديلشجن المزعوم — أي الماريشال ناي — سمح لنفسه بالاعتراض على هذا الإجراء؛ لأنه خطير يمكن أن يُحِلَّ الفوضى بين الصفوف.

وبينما هو يتفحَّص الأرض قبالة حصن شيفاردينو، ظل بضع لحظات صامتًا، ثم أشار إلى المواضع التي يجب أن تُقام فيها «البطاريتان» المنتدبتان للعمل ضد التحصينات الروسية، في حين تُركَّز مدفعية الميدان حولهما.

وبعد أن أصدر هذا الأمر، وأوامر أخرى أيضًا، عاد إلى مقره العام وأملى نصوص المعركة. ولقد كانت تلك النصوص التي يتحدَّث المؤرخون الفرنسيون عنها بحماسة، بينما يتحدَّث الآخرون عنها بكثير من الاعتبار، كما يلي:

> عند بزوغ النهار تبدأ «بطاريتان» جديدتان تقامان خلال الليل على هضبة الأمير ديكموهل، بإطلاق نيرانهما على «البطاريتين» المناوئتين.
>
> في اللحظة نفسها، يبدأ الجنرال بيرنيتي، قائد مدفعية الفَوْج الأول، بإطلاق النار من مدافعه الثلاثين التي ستكون في جيش كومبان، وكذلك من كل قاذفات القنابل التابعة للفَوْجين ديسيكس وفريان، التي ستتقدَّم إلى الأمام، على «بطارية» العدو التي سيكون أمامها على هذا الشكل مدافع فرقة الحرس الأربعة والعشرون، وثلاثون مدفعًا من فوج كومبان وثمانية من فوجَي ديسيكس وفريان. المجموع اثنان وستون مدفعًا.
>
> على الجنرال فوشيه، قائد مدفعية الفوج الثالث، أن يتمركز مع كل قاذفات القنابل من الفَوْجين الثالث والثامن، وعددها ست عشرة، حول «البطارية» التي تشرب الحصن الأيسر، وبذلك يصبح عدد المدافع ضد هذه «البطارية» أربعين مدفعًا.
>
> على الجنرال سوربيه أن يكون مستعدًّا عند أول أمر، على الانفصال مع كل قاذفات القنابل التابعة لسلاح الحرس؛ للمبادرة إلى هذا الحصن أو ذاك.
>
> خلال هذا القصف، يَمضي الأمير بونياتوفسكي من القرية نحو الغابة، ويدور حول موقع العدو. أما الجنرال كومبان، فإنه يسير بحذاء الغابة للاستيلاء على الحصن الأول.
>
> وبعد أن تنشب المعركة على هذا النحو ستُعطى الأوامر تبعًا لأوضاع العدو.
>
> يبدأ قصف المدفعية على الجناح الأيسر منذ أن يُسمع القصف من الجناح الأيمن، وستنظَّم سلسلة قوية من هجمات رماة البنادق من قِبل قنَّاصةِ فيلق موران وفيالق نائب الملك حالما يرون أن الهجوم من الأيمن قد بدأ. وعلى نائب الملك أن يحتلَّ القرية (بورودينو) وأن يَبلغ عن طريق جسورها الثلاثة المرتفعَ،

في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وجيرار تحت أوامر نائب الملك؛ لاحتلال حصن العدو وتشكيل خط الجيش.

يجب أن تُنفَّذ كل هذه التعليمات بنظام وبصورة منهاجية، مع مراعاة الاحتفاظ باحتياطي كبير.

في المعسكر، على بُعْد ميلين من موجائيسك،
٦ أيلول ١٨١٢م

كان أمر المعركة هذا، الذي صِيغ بعبارات غامضة تمامًا — إذا أمكن التعبير على هذا النحو دون الكفر بعبقرية نابليون — يضم أربع نقاط، أربعة تدابير ... ولكن ما من واحدٍ منها كان يمكن أن يُنفَّذ أو نُفِّذ بالفعل.

كان يأمر أولًا أن تَعمَد «البطاريات» المقامة في المكان الذي انتقاه الإمبراطور، وكذلك قِطع بيرنيتي وفوشيه التي كان يجب أن تنتظم إلى جانبيها والتي يبلغ مجموعها مائة مدفع ومدفعان؛ إلى إطلاق النار وغَمْر التحصينات الروسية والحصن بالقذائف، في حين أن القذائف ما كانت لتصل إلى التحصينات الروسية من تلك المواقع؛ أي إن مائة مدفع ومدفعين كانت تطلق النار دون جدوى حتى عمد الرؤساء الذين تتبع تلك المدافع وحداتهم إلى تقديمها مخالفين بذلك أوامر نابليون.

أما الترتيب الثاني، فكان يفرض على بونياتوفسكي أن ينتقل نحو الغابة ليدور حول جناح الروسيين الأيسر. وهذا لم يكن يمكن التنفيذ، كما أنه لم يُنفَّذ قط؛ لأن بونياتوفسكي اصطدم خلال سيره هذا بتوتشكوف الذي قطع عليه الطريق ومنعه من الالتفاف حول الموقع.

والترتيب الثالث يأمر كومبان بالسير بمحاذاة الغابة ليحتلَّ الحصن، في حين أن جيش كومبان لم يتمكَّن من احتلال ذلك الحصن، بل صُدَّ؛ لأنه اضطر عند خروجه من الغابة أن يصطفَّ تحت نار بنادق حامية لم يتوقَّعها نابليون.

بينما كان على نائب الملك عملًا بالترتيب الرابع أن يحتلَّ قرية بورودينو، وأن يبلغ المرتفَع عن طريق جسورها الثلاثة في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وفريان (اللذان لم يُشَر إلى تحركاتهما في الأمر قط) تحت أوامره لاحتلال الحصن وتشكيل خط الجيش.

وكما يُفهَم من أمر المعركة هذا، ليس تبعًا لأسلوبه الغامض، بل وفقًا لمحاولات نائب الملك لتنفيذه، كان على هذا أن يهاجم الحصن من اليسار مخترِقًا بورودينو في حين تهاجمه فيالق موران وفريان من اليمين.

إنَّ هذا الأمر، كالأوامر التي سبقته، ما كان يمكن أن يُنفَّذ ولم يُنفَّذ؛ لأن نائب الملك بعد أن اخترق بورودينو أُوقِف على نهر كولوتشا، فلم يستطع التقدُّم أكثر من ذلك، أما فيالق موران وفريان فقد صُدَّت ولم تحتَلَّ — والحالة هذه — الحصن. ولقد احتُلَّ هذا الحصن آخر الأمر من قِبل سلاح الفرسان، وهو واقع غريب لا ريب أن نابليون لم يتوقَّعه قط.

وينص أمر المعركة كذلك على أنه «بعد أن تنشب المعركة على هذا النحو، ستُعطى الأوامر تبعًا لأوضاع العدو.» فيمكن الاستدلال إذن على أن الإمبراطور سيعطي خلال المعركة كل الأوامر اللازمة، في حين أن شيئًا من هذا لم يحدث، لسبب بسيط ووجيه؛ وهو أنه ظل بعيدًا عن ساحة المعركة طيلة الوقت؛ ففاته سير العمليات، ولم يمكن تنفيذ واحد من الأوامر التي أصدرها.

الفصل الثامن والعشرون

آراء المؤرِّخين

يؤكِّد كثير من المؤرخين أن معركة بورودينو لم ينتصر فيها الفرنسيون؛ لأن نابليون كان في ذلك اليوم قد أُصيب بزكام، ولولا ذلك لكانت ترتيباته قبل المعركة وأثناءها أكثر عبقريَّةً، ولانهارت روسيا كلها ولتغيَّر وجه العالم. إنَّ هذا التحليل بالنسبة إلى المؤرخين الذين يؤكدون أن روسيا تشكَّلت بإرادة رجل واحد هو بطرس الأكبر، وأن فرنسا قد انقلبت من جمهورية إلى مملكة، وأن الجيوش الفرنسية دخلت روسيا تبعًا لرغبة رجل واحد هو نابليون، إنَّ هذا التحليل الذي يؤكد أن بقاء روسيا قوية يرجع إلى إصابة نابليون يوم السادس والعشرين من آب بزكام عنيف؛ منطقي تمامًا بالنسبة إلى هؤلاء.

فلو أن الأمر كان يرجع إليه بالدخول في معركة بورودينو أو عدم خوضها، وباتخاذ هذا التدبير أو ذاك، فإن زكامًا قويًّا يؤثِّر على مظاهر إرادته كان يمكن أن يُسبِّب بالطبع خلاص روسيا، ولكان مخلِّصنا هو ذلك الخادم الذي نسي أن يقدِّم إلى نابليون يوم الرابع والعشرين من آب حذاءه الواقي. إن مثل ذلك التحليل يقود حتمًا إلى مثل هذه النتيجة؛ وهي نتيجة لا تقبل الجدل أشبه بدعابة فولتير — وأية سخرية كانت؟ — حول سان بارتيلمي[١] التي وقعت بسبب تلبُّك أصاب معدة شارل التاسع، ولكن بالنسبة إلى

[١] سان بارتيلمي: اسم لمذبحة البروتستانت على عهد شارل التاسع، وقعت بتحريض كاتيرين دوميديسيس وجماعة الدوق دوجيز ليلة ٢٣ / ٨ / ١٥٧٢م، وكانت أعياد زواج هنري دونافار (هنري الرابع فيما بعد) على مارجريت أخت شارل التاسع ستقام غداة ذلك اليوم. ولقد قال الملك الذي أرهقته أمه — على ما يزعمون: «تريدين ذلك؟ حسنًا، ليذبحوهم، ولكن ليذبحوهم كلهم!» فأُعطي الأمر إذن ليلة الثالث والعشرين، ولقد زعم فولتير ساخرًا متهكِّمًا أن تلك المذبحة ما كانت لتقع لولا إصابة الملك شارل التاسع بتلبُّك في معدته جعله يقول ما قال.

الأشخاص الذين لا يتقبَّلون أن روسيا تشكَّلت تبعًا لإرادة رجل هو بطرس الأكبر، ولا أن المملكة الفرنسية أقيمت وأن الحرب مع روسيا أُعلنت وفق إرادة رجل واحد هو نابليون، يُعتبر هذا التحليل ليس خاطئًا ومخالفًا للصواب، بل ومخالفًا كذلك لجوهر الإنسانية نفسه. إن من يبحث عن أسباب الأحداث التاريخية يجد سببًا آخر؛ هو أنَّ سير الأمور في هذا العالم مقرَّر سلفًا، وأنه متوقِّف على تدخُّل كل أحكام الأشخاص الحرة الذين يساهمون فيها، وأن جماعة نابليون ليس لهم عليها إلا الأثر الظاهر الخارجي فحسب.

إن من الغريب أن يؤكِّد المرء للوهلة الأولى أنَّ مذبحة سان بارتيلمي، رغم أن شارل التاسع أمر بها، لم تكن — مهما كان تفكيره الشخصي — نتيجة لإرادته، وكذلك يبدو غريبًا الزعم بأن مجزرة بورودينو التي كلفت ثمانين ألف رجل، لم تنجم عن رأي نابليون الشخصي، رغم أنه أعطى الإشارة ورتَّب سير المعركة، بَيد أن الكرامة الإنسانية التي تؤكد أن كلًّا منا رجل يماثل في العظمة نابليون الكبير، إن لم يكن يتفوَّق عليه، تبيح هذا الزعم، والتحريات التاريخية تؤيده بوفرة.

لم يُطلِق نابليون في بورودينو رصاصة واحدة، ولم يقتل رجلًا واحدًا. لقد كان ذلك من صُنع جنوده؛ وبالتالي فإنه ليس بالذي قَتَل.

لقد قاتل جنود الإمبراطور لا لينفِّذوا أوامره، ولكن عن طيبة خواطرهم. لقد كان الجيش كله، أولئك الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبولونيون المتعطِّشون المتعبون ذوو الثياب الخلقة، يشعرون تمامًا أمام ذلك الجيش الآخر الذي يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، أن النبيذ قد صُفِّي فحان أن يشربوه، ولو أن نابليون منعهم عن مقاتلة الروسيين حينذاك لقتلوه ومشوا بعد ذلك إلى المعركة؛ لأنهم ما كانوا يستطيعون إلا أن يعملوا كذلك.

عندما قُرئ عليهم أمر نابليون اليومي الذي وعدهم فيه، مكافأةً على الجراح والموت، بأن تتحدَّث الأجيال الصاعدة عنهم قائلةً إنهم كانوا في المعركة الكبرى قرب جدران موسكو، هتفوا: «يحيا الإمبراطور! يحيا الإمبراطور!» عندما شاهدوا ذلك الغلام يخرق الكرة الأرضية بمقبض لُعبته الخشبية، وكما كانوا سيهتفون لأي حماقة يقولونها لهم. لم يعد لديهم شيء آخر يفعلونه إلا أن يهتفوا: «يحيا الإمبراطور!» وأن يذهبوا للقتال وينتصروا؛ كي يجدوا في موسكو الغذاء والراحة. وبناءً عليه لم يقتلوا أمثالهم استجابةً لأوامر سيدهم.

ونابليون نفسه لم يكن ذا أهمية في سياق المعركة؛ لأن أية نقطة من ترتيباته لم تنفَّذ؛ ولأنه نفسه ظل يجهل خلال المعركة ماذا دار فيها؛ وبالتالي فإن واقع قَتْل هؤلاء

الناس أمثالَهم حدث دون تدخُّل من جانبه، ليس نتيجة لإرادة نابليون، بل بإرادة مئات الألوف من الرجال الذين ساهموا في الأمر، وكل ما كان لنابليون اقتصر على توهُّمه بأنَّ كل شيء يسير وفق إرادته؛ لذلك فإن مسألة معرفة ما إذا كان الإمبراطور قد أصيب بزكام أم لا، لا تشكِّل لمصلحة التاريخ أكثر من مدلول الزكام الذي يصيب أي جندي عادي.

ثم إن أولئك الذين يعتقدون أن نابليون لم يتخذ ذلك اليوم ترتيبات طيبة كعادته، وأن أوامره خلال المعركة كانت أقل حزمًا بسبب ذلك الزكام العتيد، يُخطئون كل الخطأ.

لقد كان نَص المعركة الذي نقلناه مماثلًا، إن لم يكن أفضل، لكثير من النصوص الأخرى التي رُبِحت كثير من المعارك بموجبها. والأوامر المعطاة خلال المعركة لم تختلف بكثير عن تلك التي تصدر عادةً ودائمًا. وإذن فإن هذا النص وتلك الأوامر لم تصبح خاضعة للنقد إلا لأن معركة بورودينو كانت المعركة الأولى التي لم يربحها نابليون. والعادة أن أجمل الترتيبات وأفضلها وأعمقها تبدو — إذا لم تجرَّ النصر — سيئة يأخذ علماء فن الحركات العسكرية بنقدها بلهجة مسموعة. والعكس صحيح، فما إن ينجم نصر ما فإن أسوأ الترتيبات وأكثرها خضوعًا للنقد تصبح ممتازة، ويشرع الكتَّاب الأعم شهرةً في تمجيدها وتعداد محاسنها في مجلَّدات عديدة.

ولقد كان ترتيب ويروزر في أوسترليتز مثالًا من هذا النوع؛ لقد انتقدوه وعارضوه بسبب كماله — ولا ريب — ودقة تفاصيله.

ففي بورودينو، قام نابليون بدوره بوصفه ممثل السلطة، كما أدَّاه في المعارك الأخرى، إن لم يكن أفضل من ذلك الأداء. إنه لم يأتِ أمرًا سيئًا بالنسبة إلى سير المعركة، ولقد انحاز إلى جانب أكثر الآراء حكمةً، فلم يفقد أعصابه، ولم يناقض أقواله، وظلَّ محتفظًا بهدوئه فلم يغادر ساحة المعركة، وقد أمكنته لباقته الكاملة وخبرته الكبيرة في شئون الحرب أن يلعب بهدوء دوره الشكلي كرئيس أعلى.

الفصل التاسع والعشرون

الطلقات الأولى

قال نابليون إثر عودته من تفتيش ثانٍ دقيق للخطوط: «إن القِطَع مصفوفة فوق الرقعة، واللعب يبدأ غدًا.»

أمر لنفسه بمزيج من الشاي والكحول والليمون والسكر (بونش)، واستدعى السيد دوبوسيه وراح يحدِّثه عن باريز والتبديلات التي يريد إدخالها على بيت الإمبراطورة، فكانت الذكرى التي يحملها لأتفه أشياء البلاط مدعاةَ دهشة القيِّم الشديدة.

راح يهتمُّ بتفاهات ويمازح السيد دوبوسيه حول حبِّه للأسفار. وبالإيجاز، راح يثرثر بلا مبالاةِ جرَّاحٍ كبيرٍ متأكِّد من نفسه متعمِّق في مهنته، وهو يشمِّر عن أكمامه ويضع مئزره، بينما يُسجون المريض على طاولة العمليات. «إن المسألة واضحة تمامًا، والخيوط كلها في رأسي وفي يدي، فإذا وجب الشروع بالعمل سأعمل أفضل من أيٍّ كان. أما الآن، فإنني أستطيع أن أسمح لنفسي بالمزاح. إنني كلما كنت هادئًا طروب المزاح، وجب عليكم من جانبكم أن تثقوا بي أكثر، وأن تُعجَبوا بعبقريتي.»

وبعد أن ارتشف قدحه الثاني، ذهب نابليون لنَيْل قسطٍ من الراحة قبل المسألة الخطيرة التي يدَّخرها للغد، لكنه كان جمَّ الانشغال، فتعذَّر عليه النوم. وعلى الرغم من زكامه القوي الذي كانت رطوبة المساء تزيد في خطورته، ذهب في الساعة الثالثة صباحًا إلى حجرة الدخول في خيمته وهو يتمخَّط بصوتٍ مدوٍّ. استفسر عما إذا لم يكن الروسيون قد انسحبوا عرضًا، فأكدوا له أن نيران العدو لا تزال ظاهرة في المواقع نفسها، وحينئذٍ أظهر رضاه بحركة من رأسه. ولمَّا كان المساعد العسكري المنوب يدخل الخيمة في تلك اللحظة، فقد سأله: «حسنًا يا راب، هل تظن أننا سنعمل اليوم أعمالًا مجيدة؟»

– «دون أي ريب يا صاحب الجلالة.»

ظل الإمبراطور يستفسره بنظره، فاسترسل راب قائلًا: «هل تذكر يا صاحب الجلالة ما شرَّفتني بقوله لي في سمولنسك؟ لقد صُفِّي فيجب شُربه.»

عبس نابليون وجعل رأسه بين يدَيْه وصمت، وفجأةً قال: «هذا الجيش المسكين، لقد قلَّ عدده كثيرًا منذ سمولنسك. إنَّ السعادة يا راب مماَلَقة صريحة. لقد قلت ذلك دائمًا وبدأت أشعر به الآن، ولكنَّ الحرس يا راب. هل الحرس سليم؟»

– «نعم يا صاحب الجلالة.»

أخذ نابليون حبَّة ورفعها إلى فمه، ثم نظر إلى ساعته، ما كان يريد أن ينام، وكان الصباح بعيدًا، ولم يكن لديه ما يقتل الوقت به؛ فالأوامر قد أُعطيَت وهي في طريق التنفيذ. سأل بلهجة صارمة: «هل وزَّعوا البسكويت والأرز على أفواج الحرس؟»

– «نعم يا صاحب الجلالة.»

– «لكن الأرز؟»

أجاب راب بأنه نقل بنفسه الأوامر بهذا الصدد، لكن الإمبراطور أظهر ارتيابه بحركة من رأسه. جاء خادم بشراب البونش، وبعد أن أمر بإعداد قدح آخر لراب، راح نابليون يمتص قدحه بجرعات صغيرة. قال وهو يشمُّ قدحه: «لم أعُد مسيطرًا على حاستَي الشم والذوق. إن هذا الزكام لا يُحتمل. إنهم يتحدثون إليَّ دائمًا عن الطب، فما هو هذا العلم المزعوم الذي لا يستطيع شفاء الزكام؟! لقد أعطاني «كورفيزار» هذه الحبوب، لكنها لا تصلح لشيء. ماذا يعرفون شفاءه؟ إنهم على أية حال لا يقدرون على شفاء شيء. إن جسمنا عبارة عن آلة الحياة، إنه مركَّب لهذا الغرض، وهذه طبيعته، فدعوا الحياة على هواها، ولتدافع عن نفسها بنفسها. إنها ستعمل أفضل من عملها إذا أثقلتموها بالأدوية. إن جسمنا مثل ساعة كاملة عليها أن تدوم وقتًا ما، وليس من صلاحية الساعاتي أن يفتحها، بل أن يعالجها باللمس وعيناه معصوبتان ... إن جسمنا آلة حياة؛ هذا كل ما في الأمر.»

وكأنما حلا له السير في طريق التعاريف، وهي طريقة مألوفة لديه، لم يلبث أن خرج بتعريف جديد. سأل راب: «أتعرف يا راب ما هو فنُّ الحرب؟ إنه فنٌّ يقتصر على أن يكون المرء في فترة ما أقوى من عدوه. هذا كل شيء.»

فلم يُجِب راب.

– «غدًا سيكون لنا ما نعمله مع كوتوزوف. سوف نرى. تذكَّر أنه هو الذي كان يقود في برونو، وأنه طيلة ثلاثة أسابيع لم يعتلِ صهوة جواده مرةً واحدة ليفتِّش نقاط دفاعه. سوف نرى!»

ومن جديد استشار ساعته، فكانت لم تتجاوز الرابعة بعد. لم يكن ميَّالًا إلى أن ينام، وشراب البونش كان قد شُرب ولا زال دون عمل يعمله. نهض وراح يذرع المكان، ثم ارتدى سترته الرسمية «رودنجوت»، ووضع قبَّعته وخرج. كان الليل حالكًا رطبًا، والضباب الذي لا يكاد يُرى بوضوح في طور الانتشار. وكانت نيران أفواج الحرس القريبة تشتعل ضعيفة. وعلى البُعد، خلال الضباب، كانت نيران الخطوط الروسية ظاهرة، وكان كلُّ شيء هادئًا، فكانت خطوات الوحدات الفرنسية الذاهبة لاحتلال مواقعها المقرَّرة، تُسمَع بجلاء.

عاين الإمبراطور النيران، وأصاخ السمع إلى وقْع أقدام الجنود، ولمَّا مرَّ بأحد جنود الحرس القائم بالحراسة أمام الخيمة وهو في وضعية الاستعداد، وكأنه دعامة سوداء، وقف أمامه. سأله بتلك الخشونة الودودة التي كان يستعملها دائمًا في مخاطبة جنوده: «كم أمضيت في الخدمة؟»

فأجابه الجندي: «آه! واحد من القدماء! ...»

– «والأرز، هل وُزِّع عليكم في الفيلق؟»

– «نعم يا صاحب الجلالة.»

أشار إليه نابليون برأسه إشارةً ودِّية وابتعد.

وفي الخامسة والنصف، امتطى الإمبراطور جواده واتجه إلى قرية شيفاردينو.

أخذ الفجر ينبثق، والسماء بدأت تصفو، فلم يبقَ من الغيوم إلا سحابة في الشرق، واستمرَّت النيران المهجورة تتآكل في ضياء الشفق الضعيف.

وفجأةً دوَّت طلقةُ مدفع مكتومة وحيدة على اليمين، انتشرت ثم غابت في الصمت الشامل. وبعد بضع دقائق، ثار دويٌّ ثانٍ ثم ثالث هزَّا الفضاء، أعقبهما رابع وخامس أكثر جلالًا، وكلها على اليمين. ولم تلبث الانفجارات أن تضاعفت واختلطت في هدير دائم.

بلغ نابليون مع حاشيته حصن شيفاردينو، وترجَّل عن جواده. لقد نشبت المعركة.

الفصل الثلاثون

بدء المعركة

بعد أن غادر الأمير آندريه وعاد إلى جوركي، أصدر بيير أمره إلى مرافِقه أن يجعل الخيول جاهزة، وأن يوقظه باكرًا، ثم نام من فوره وراء الحاجز، في الركن الصغير الذي تخلَّى له بوريس عنه.

ولَمَّا استيقظ في اليوم التالي، لم يجد أحدًا في الكوخ. كانت ألواح النوافذ الزجاجية الصغيرة تهتزُّ وخادمه المرافق يهزُّه. كان المرافق يكرِّر بإصرار وهو يجذبه من كتفه دون أن ينظر إليه، واليأس من بلوغ غايته واضح على معالمه: «يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة! ...»

أخيرًا سأل بيير: «ماذا؟ هل نشبت؟ هل هي الساعة المقرَّرة؟»

قال الخادم المرافق، وهو جنديٌّ سابق: «ألا تسمع سعادتك إذن قصف المدافع؟ لقد ذهب كل هؤلاء السادة وعظيم الرفعة نفسه منذ أمدٍ طويل.»

ارتدى بيير ثيابه على عجَل وخرج. كان الصبح مشرقًا وبهيجًا وقد رطَّبه الندى، وراحت الشمس تمزِّق السحاب وترسل إشعاعاتها التي ما زالت السطوح المقابلة تحجز نصفها، على غبار الطريق الرطب وجدران المساكن وفتحات الحصون وعلى خيول بيير التي كانت واقفة أمام الكوخ. وبدا دويُّ المدافع أكثر وضوحًا. مَرَّ مساعد عسكري يتبعه قوقازي على حصانيهما خببًا، فهتف الأول: «لقد أزف الوقت يا كونت، أزِف الوقت!»

سار بيير على الدرب الذي يصعد إلى التل الذي عاين منه بالأمس ساحة المعركة، وأمر أن تتبعه الخيول. وجد هناك عددًا كبيرًا من العسكريين مجتمعين، وكان هؤلاء السادة أعضاء هيئة الأركان يتحدَّثون بالفرنسية، وقد ظهر كوتوزوف بينهم برأسه الأشيب المتقلنس بقبَّعته البيضاء ذات الشريط الأحمر وقذاله الضائع في كتفيه العريضتين، كان الجنرال القائد الأعلى ينظر خلال منظار أمامه باتجاه الطريق العام.

عندما تخطَّى بيير الدرجات التي تقود إلى التلِّ، ذهل إعجابًا بالمشهد الذي ظهر لعينيه. كان المشهد إياه الذي تأمَّله بالأمس، ولكن الجنود الآن كانوا قد غزوه وعمَّ فيه دخان البارود، وكانت الإشعاعات المائلة للشمس المشرقة تنشر في فضاء الصباح ضوءًا ورديًّا مذهبًا تخطِّطه طائفة من الظلال. والغابات البعيدة التي يُطبِق عليها الأفق، تبدو كأنها منقوشة في حجر كريم بلونٍ أخضر مائل إلى الصُّفرة، وذراها تقاطع فيه خطوطًا غير واضحة، يقطعها وراء فالوييفو، طريق سمولنسك العام المغطَّى كله بالجنود. وإلى مسافة أقرب كانت الحقول المذهبة وباقات من الشجر تلتمع، والجنود في كل مكان؛ إلى اليمين وإلى اليسار وفي المقدِّمة. ولقد كان مجموع المشهد مفعمًا بالجلال والمفاجأة، لكن انتباه بيير توقَّف عند ساحة المعركة نفسها، عند بورودينو ووادي كولوتشا.

فوق كولوتشا على جانبَي بورودينو، وبصورة خاصة إلى اليسار حيث يصبُّ نهر «فوئينا» عند شواطئه المليئة بالمستنقعات في نهر كولوتشا، امتدَّ ضباب من ذلك النوع الذي يتبخَّر ويبدَّد بتأثير حرارة الشمس المشرقة، فيعطي لونًا وظلالًا سحرية على كل ما يبدو خلاله للعيون. وكان دخان الطلقات النارية يختلط بالضباب، بينما أضواء نور الصباح المتسلِّلة عبر تلك المجموعة من الغيوم تتلاعب على صفحة الماء وفوق الندى وعلى رءوس الحراب. كان الناظر يميز الكنيسة البيضاء، ثم سطوح بورودينو، ثم كتل الجنود المتراصَّة والصناديق المدهونة بالأخضر والمدافع، وكل ذلك يتحرَّك، أو يبدو كأنه يتحرك، في ذلك الفضاء الذي يكتسحه الضباب والدخان. وكما هي الحالة في الأغوار الفارقة في الضباب التي تحيط بورودينو، كانت دوَّامات من الدخان ترتفع تارةً منعزلة وتارةً مجتمعة، متباعدةً تارة ومتقاربةً تارةً أخرى، في المناطق المجاورة وبصورة خاصة إلى أقصى اليسار فوق كل الغابات والحقول والمنخفضات وفوق المرتفعات، وكأنها تُخلَق من لا شيء، فتنتفخ وتخمد وتتشابك إلى غير نهاية في ذلك الفضاء الرهيب.

وكانت تلك الدواخن والانفجارات التي تصحبها تشكِّل — وهو أمر غريب — العنصر الرئيسي في جمال المشهد.

بوف! بوف! وتشابك دخانان واختلطا، ثم بم! بم! وجاءت الطلقتان يؤيدان ما شاهدته العين.

كان بيير قد استدار ليرى الدخان الأول المستدير الكثيف كأنه كرة حينما تمطَّت في المكان نفسه ثلاث كرات من الدخان. بوف … وبعد فترة: بوف، بوف! وارتفعت ثلاثة أو أربعة دواخن أخرى لم تلبث أن أجابتها في فترات متساوية بالترتيب أصوات خطيرة

قوية جليلة: بم ... بم، بم! وكانت تلك الدواخن تبدو تارةً منهزمة، وتظلُّ معلَّقة تارةً أخرى، فيحين دور الغابات والحقول والحراب اللامعة بالفرار. وإلى اليسار على طول الحقول والأدغال كانت كتل أخرى ضخمة الدخان يتبعها صداها الرهيب تنبعث، في حين تنفجر في الأغوار والغابات القريبة طلقات بنادق مخلِّفةً دخانًا صغيرًا لا يجد الوقت الكافي ليشكِّل كتلًا، لكنه مع ذلك يصطحب هو الآخر صداه على شكل ضربات جافَّة. وكانت البنادق تقول: «تا-را، تا، تا، تا ...» بفترات متقاربة ولكن منتظمة، وبأقل اتساع بكثير من دويِّ المدافع.

ولَكَم ودَّ بيير أن يكون في وسط هذه الدواخن والحراب وهذه الحركة وهذا الضجيج. ألقى نظرة على كوتوزوف وحاشيته؛ ليقارن بين مشاعره ومشاعر الآخرين، فوجد أنهم جميعهم مثله يتأملون ساحة المعركة، تعتلج في صدورهم المشاعر ذاتها. ومن كل الوجوه، كانت الحرارة الكامنة التي لمسها أمس، والتي عرَّفه حديثه مع الأمير آندريه بكنهها، تبدو وكأنها تشعُّ من كل الوجوه.

قال كوتوزوف في تلك اللحظة لواحدٍ من الجنرالات الذين في حاشيته دون أن تبرح عيناه ساحة المعركة: «اذهب يا عزيزي، اذهب، وليباركك الله!»

فتأهَّب الجنرال الذي تلقَّى هذا الأمر لنزول التلِّ، وبينما هو يمرُّ بجانب بيير سأله أحد ضباط الأركان عن المكان الذي يذهب إليه، فأجاب الجنرال بصوت باردٍ قاسٍ: «إلى معبر النهر!»

فحدَّث بيير نفسه وهو يتبع خطاه: «وأنا كذلك أذهب إلى هناك.»

امتطى الجنرال حصانًا جاءه به قوقازي، بينما راح بيير يعتلي صهوة جواده بدوره بعد أن تأكَّد من تابِعه المرافِق أنه أهدأ من كل الخيول، وتشبَّث بعرف الجواد، بينما ضغط بكعبيه على جانبَي بطنه. ولقد أضاع نظارتيه، لكنه كان يشعر بعجزه عن ترك عرف الجواد والمقودين؛ لذلك فقد ترك نفسه يُقاد في أعقاب الجنرال، مثيرًا بذلك ابتسامات الضباط الذين كانوا ينظرون إليه من أعلى التل.

الفصل الحادي والثلاثون

في جحيم المعركة

استدار الجنرال، الذي راح جواد بيير يجري وراءه، إلى اليسار فجأةً، بعد أن انحدر على التل، فضاع عن أنظار بيير، وأخذ هذا دون عمد بين صفوف المشاة الذين كانوا يمشون أمامه. حاول أن يتخلَّص سواء من الأمام أو من اليسار أو من اليمين، لكن وجوه الجنود المطبوعة بقلق مماثل، الذين اتجهت أفكارهم نحو شيء ما غير منظور وخطير، راحت تطالعه من كل مكان. كانوا جميعهم يستفسرون بعيونهم مستائين من هذا الشخص الضخم ذي القبَّعة البيضاء، الذي جاء يدفعهم بحصانه لسبب لا يعلمه إلا الله.

صرخ أحدهم: «ماذا جاء هذا يعمل وسط المواء؟»

وضرب آخرُ الحصانَ بعقب بندقيته، فأطبق هذا فكَّيْه على الشكيمة، فلم يهدِّئه بيير إلا بصعوبة وهو متشبِّث بقربوس السرج، واستطاع أخيرًا أن يبلغ الطريق الخالية.

كان أمامه جسر راح جنود آخرون يطلقون النار بالقرب منه. لقد وصل دون أن يعرف إلى جسر كولوتشا القائم بين جوركي وبورودينو، وهو الجسر الذي كان على الفرنسيين أن يهاجموه في المرحلة الأولى من المعركة بعد أن يحتلوا القرية الأخيرة. شاهد بيير على جانبَي النهر وبين رزم الهشيم — التي لم يلاحظها أمس بسبب الدخان — جنودًا في شغلٍ شاغل. مع ذلك، وعلى الرغم من طلقات البنادقة المتلاحقة، فإنه لم يشعر أنه أصبح في صميم المعركة. ما كان يسمع أزيز الرصاص من كل الجهات ولا القذائف التي تمرُّ فوق رأسه. ما كان يرى العدو على الجانب الآخر من النهر، بل إنه ظل طويلًا قبل أن يشعر بالقتلى والجرحى الذين يتساقطون حوله. لقد كان يتأمل المشهد وقد ارتسمت على زاوية شفتَيْه ابتسامة.

قال صوت من جديد: «ماذا يعمل هذا بانتصابه هكذا أمام الخطوط؟»

وقالت أصوات أخرى: «خُذِ اليسار … كلا، اليمين …»

اتجه بيير إلى اليمين فصادف فجأةً مساعدًا عسكريًّا للجنرال رايفسكي كان يعرفه، ولقد ألقى هذا الضابط عليه نظرة غاضبة كاد أن يعقبها بالسباب عندما عرفه فجأةً، فحيَّاه بإيماءة من رأسه. قال له وهو يتابع سيره: «كيف! أنت، هنا؟»

شعر بيير أنه في غير مكانه المناسب، فخشي أن يكون مبعث إزعاج؛ لذلك فقد مضى يتابع المساعد العسكري هدبًا. سأله: «هل أستطيع مرافقتك؟ ماذا يدور هنا على الضبط؟»

أجابه المساعد العسكري: «لحظة، لحظة!»

وجرى إلى زعيم ضخم واقف وسط البرية، فنقل إليه أمرًا ثم عاد إلى بيير وقال له باسمًا: «ماذا جئتَ تفعل هنا يا كونت؟ إنك هنا لمجرد الفضول؟!»

– «نعم، نعم …»

وكان المساعد العسكري قد قفل راجعًا. قال: «إن الحالة هنا محمولة والحمد لله، ولكن على الجناح الأيسر، من جانب باجراسيون، الحالة حرجة.»

قال بيير: «حقًّا؟! وأين هذا المكان؟»

– «اتبعني فوق المرتفع. يمكن أن يرى المرء من هنا بوضوح. إن الحالة عندنا في موقع «البطارية» محمولة نوعًا.»

أجاب بيير وهو يبحث بعينيه عن مرافقه: «إنني أتبعك.»

حينئذٍ شاهد بيير للمرة الأولى أن الجرحى منتشرون حوله على الأرض، في حين كانوا ينقلون بعضهم على محفَّات. وفي ذلك المرج الأخضر الذي اجتازه بالأمس، كان جندي لا حراك به ملقًى على الهشيم وقد مال رأسه بشكل خرق، بينما انزلقت عمرته على الأرض. كاد بيير أن يقول: «وهذا! ألا يرفعونه من هنا؟!»

لكنه إزاء وجه المساعد العسكري الصارم الذي كان ينظر في الاتجاه عينه، صمت.

لم يستطِع اكتشاف خادمه المرافق، وبات الآن يسير على طول المنخفض الذي يؤدِّي إلى تل رانيفسكي. وكان حصانه الذي يهزُّه هزات وتيرية يجد صعوبة في اللحاق بالمساعد العسكري. سأله رفيقه: «إنك — ولا ريب — لم تألَف ركوب الخيل يا كونت؟!»

أجاب بيير بارتباك: «بلى، لكنَّ جَرْي هذا شديد القسوة.»

– «إيه! ولكن … إنه جريح في الناحية الوحشية من قائمته اليمنى فوق الركبة … رصاصة ولا ريب … تهانئي يا كونت؛ ها هو ذا عماد النار.»

تجاوزا خلال الدخان الفوج السادس وراء المدفعية التي كان قَصْفها يصم آذانهما، وبلغا غابة صغيرة هادئة رطبة تفوح منها رائحة الخريف، وهناك ترجَّلا ليتسلَّقا التل.

سأل المساعد العسكري: «هل الجنرال هنا؟»

فأجابوه وهم يشيرون إلى الجهة اليمنى: «كان هنا منذ حين، لكنه ذهب من هنا.»

استدار المساعد العسكري صوب بيير، وبدا كأنه يتساءل عما سيعمله بهذا الرفيق غير المنتظر. فقال بيير: «لا تقلق، إذا كنت لا ترى مانعًا فسأبقى هنا على التلِّ.»

– «وهو كذلك. من هنا يمكن رؤية كل شيء دون كبير خطر، وسآتي لآخذك.»

توجَّه بيير نحو «البطارية»، في حين تابع الضابط سيره. ولقد قُدِّر ألَّا يلتفتا بعد ذلك اليوم.

اشتهر المرتفَع الذي تسلَّقه بيير منذ حين بين الروسيين فيما بعد باسم «بطارية التل» أو «بطارية» راييفسكي، وبين الفرنسيين باسم «الحصن الكبير» أو «الحصن المشئوم» أو «حصن الوسط». ولقد سقط حول هذه النقطة التي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع عشرات الألوف من الرجال.

كان ذلك الحصن مشكَّلًا من خنادق محفورة على جوانب المرتفع الثلاثة، كانت عشر قطع مدفعية تبصق قذائفها خلال فتحاتها. وعلى جانبي التل، على صفٍّ واحد، ما فتئت قطعات مدفعية أخرى تدعم هذه، بينما تكتلت قطعات المشاة إلى الوراء.

عندما وصل بيير إلى هناك لم يفكِّر قط في أن هذه الخنادق القليلة، التي تنطلق منها قنابل هذه المدافع القليلة، تشكِّل أهم نقطة في ساحة المعركة، بل على العكس، وبسبب وجوده هناك حتمًا كان يظن أنه موقع من أقل المواقع أهميةً.

جلس على حافة الخندق المحيط بمجموعة المدافع، وراح يتأمل ما يدور حوله بابتسامة المرح الغافل، ومن حين إلى آخر كان ينهض والابتسامة مطبوعة على شفتيه، فيتجوَّل بين قطعات المدفعية وهو يعمل جاهدًا ألَّا يزعج الجنود المكلَّفين بخدمتها، الذين كانوا يحملون الأكياس وعتاد المدافع، ويروحون ويجيئون أمامه بلا انقطاع. وكانت المدافع تنطلق بعضها في أثر بعض مصحوبة بدويٍّ يصمُّ الآذان وهي تغطِّي ما حولها بالدخان.

وبدلًا من القلق الذي يشاهَد عادةً عند المشاة من فرق التغطية، كان يشعر هنا في «البطارية»، بين هذا الفريق الصغير من الرجال المنهمكين الذين يفصلهم عن الآخرين خندق، بحيوية مماثلة لدى كلِّ فردٍ منهم وكأنها أليفُهُ.

ولقد أزعجهم بادئ الأمر أن يظهر بينهم بيير بثوبه المدني وقبعته البيضاء، فكانوا ينظرون إليه وهم يمرون به نظرات جانبيه ملؤها الدهشة والذهول. ولقد اقترب منه رئيس «البطارية» بحجة فحص حركة القطعة القصية، وكان رجلًا مديد القامة ذا وجه منقوش بالجدري وساقين طويلتين، وراح يتأمله مليًّا بفضول.

وقال ضابط آخر، فتًى صغير ذو وجنتين موردتين، تخرَّج لتوِّه من قطعات التدريب، كان يُشرِف على مدفعين عُهِد إليه بقيادتهما؛ قال لبيزوخوف بلهجة صارمة: «هلا ابتعدت يا سيدي! إنك تزعجنا هنا.»

وراح الجنود يهزُّون رءوسهم إشارة الامتعاض، ولكن، لَمَّا تبيَّن لهم أن هذا الشخص ذا القبعة البيضاء لا يقوم بأي عمل مؤذٍ، بل يظل هادئًا في مجلسه على التلِّ أو يتنزَّه في المكان وعلى شفتيه ابتسامة متهيِّبة، ويفسح لهم المجال بأدب وهو رابط الجأش ساكن تحت وابل النار سكونه في شارع عام، خلف امتعاضهم تدريجيًّا مكانه للون من الميل المرِح يشبه ذاك الذي يشعر به الجنود نحو الحيوانات الأليفة التي تتبعهم في الحملة؛ كالكلاب والديَكة والماعز، إلخ ... تبنوه، كلٌّ في سره، بل وأعطوه لقبًا. لقد عمَّدوه باسم «سيدنا»، وراحوا يمزحون بلطف بينهم حول موضوعه.

جاءت قذيفة تحرث الأرض على بُعد خطوتين من بيير، فأخذ هذا يجيل حوله عينيه الباسمتين وهو ينفض التراب الذي أصاب ثوبه.

قال له فتًى عملاق عريض المنكبين مورد الوجه وهو يُظهر أسنانه البيضاء القوية: «ألستَ خائفًا إذن يا سيدي؟»

– «وأنت، هل أنت خائف؟»

فاعترف الجندي: «بالطبع ... إن هذه القذيفة لا ترحم، إذا ما سقطت على إنسان طارت أحشاؤه في الفضاء ... فالمرء مجبر على الإحساس بالخوف ...»

ولقد أضاف جملته الأخيرة ضاحكًا.

توقَّف بعض الجنود قرب بيير، وأبدوا حيرة مستطابة وهم يرونه يتحدَّث ككلِّ الناس.

– «هذه مهنتنا نحن، أما هو، السيد، فإنه مدهش. ها هو ذا سيد!»

صاح بهم الضابط الشاب: «إلى قطعكم!»

ولا ريب أنها كانت المرة الأولى أو الثانية التي يقوم خلالها بأعباء رتبته إذا حكمنا على تمسُّكه المفرط بالشكليات حيال رجاله وحيال رؤسائه.

راحت نيران المدافع والبنادق المتلاحقة تنتشر على عموم مساحة ساحة المعركة، وبصورة خاصة على اليسار، صوب تحصينات باجراسيون، لكن الدخان كان يمنع رؤية أي شيء من المكان الذي وقف فيه بيير. أضِف إلى ذلك أن العالم المستقل الذي قوامه رجال «البطارية» كان يحتكر كل انتباهه. ولقد قامت في نفسه — بعد الهيجان والتفكُّه اللذين أحدثهما المشهد وما يصحبه من ضوضاء المعركة في نفسه — عواطف جديدة

مختلفة كل الاختلاف، وخصوصًا بعد أن رأى ذلك الجندي الملقى وحيدًا على المرح. راح يراقب الرجال من حوله بشَرَهٍ وهو جالس على المنحدر.

وحوالي الساعة العاشرة، كانوا قد حملوا من «البطارية» قرابة عشرين رجلًا، وأُتلِف قطعتان، وراحت القذائف تزداد وفرة في تساقطها، وباتت الرصاصات الطائشة أكثر تواترًا على الأسماع، لكنَّ المدفعيين ظلوا يتابعون أحاديثهم المرحة وكأن شيئًا ما لم يحدث.

هتف أحدهم لدى وصول قنبلة مرت وهي تصفِّر: «هذه «نانَّا» — حلوى بلغة الأطفال.»

فردَّ آخر وهو يرى أن القنبلة سقطت بين قطعات التغطية: «إنها ليست لنا، إنها «للبيادة».»

وسأل ثالثٌ أحدَ المتطوعين وهو ينحني تحت لفحة ريح قذيفة: «أراك تحيِّي أحد معارفك!»

واجتمع بعض الجنود عند الحاجز ليروا ما يدور أمامهم.

قالوا: «خذ. لقد أرجعوا الخطوط إلى الوراء. إنهم يتقهقرون.»

فصاح بهم صف ضابط عجوز: «هيه، أنتم هناك! اهتموا بعملكم. إذا كان الفتيان يتراجعون فمعنى ذلك أنهم في حاجة إليهم في مكان آخر.»

وجذب أحدهم من كتفه وركَّز له ضربة من ركبته، فارتفعت الضحكات وارتفع صوتٌ آمر: «القطعة الخامسة! أعيدوها!»

فصرخ أولئك الذين كانوا يعيدون المدفع إلى مكانه بمرح: «هو، هيس! ... هو، هيس! ... لنرفع بإيقاع كالذين يسحبون المراكب!»

وراح المزَّاح ذو الوجه المتورِّد الذي يشهد بإدمان صاحبه يقول: «آه ياه! كادت القذيفة أن تنزع قبعة سيدنا.»

وصرخ بلهجة محنقة موجِّهًا حديثه إلى قذيفة أخرى أطارت عجلةَ مدفع وساقَ رجل دفعة واحدة: «هيه لا! ألا تستطيعين الانتباه؟»

وداعب آخر وهو يرى المتطوعين يَحْنون ظهورهم ويتسلَّلون عبر «البطارية» لالتقاط الجريح: «هه! يا من هناك! عصابة ثعالب!»

صاحوا بأولئك القرويين الذين كانوا يتردَّدون في نقل الجندي ذي الساق المبتورة: «تُرى هل الحساء مخالِف لمزاجكم؟ إن هؤلاء الكسالى ينفرون دائمًا من العمل.»

وقالوا وهم يشاكسونهم: «رباه! للأسف! هذا ممكن تمامًا. لا بدَّ وأن المهنة لا تروق لهم ...»

لاحظ بيير أنه كلما ازدادت المقذوفات كثرةً وقوةً، ازداد معها الهيجان العام ونما. لقد كانت نفوس هؤلاء البواسل كلهم تكنُّ نارًا، راحت انعكاساتها تظهر على وجوههم بازدياد أشبه بالبروق التي تخطِّط أديم سماء متجهِّم بالغيوم الدكناء، حتَّى لكأنه تحدٍّ موجَّه إلى ما لا بدَّ منه. أية أهمية لساحة المعركة إن ظلت في نفسه؟ لقد استبدت به هو الآخر تلك الشعلة المضطرمة التي راح يشعر أنها تكاد تلتهمه هو نفسه.

في الساعة العاشرة، تراجع المشاة الذين كانوا يقاتلون مشكِّلين سياجًا واقيًا أمام «البطارية» وعلى طول كامنكا. ولقد شوهدوا يفرُّون حاملين جرحاهم على البنادق، وظهر على التل جنرال مع حاشيته، فقال بضع كلمات للزعيم ثم ألقى على بيير نظرة مغضبة، وانحدر بعد أن أصدر أوامره إلى وحدات التغطية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرُّضًا للنيران. وبعد لحظات، دوَّى قرع الطبول في صفوف المشاة المقامين إلى يمين «البطارية»، وتناهت إلى الأسماع أوامر صدرت، ثم شوهدت الصفوف تتحرَّك إلى الأمام.

ألقى بيير نظرةً من فوق الحاجز، فاستلفت انتباهه بصورة خاصة ضابط المؤخرة، وكان شابًّا ذا وجه ممتقع ممسكًا بسيفه منخفضًا، يجيل حوله نظرات قلقة.

غاب المشاة في الدخان، وارتفع ضجيج متواصل وصوت طلقات بنادق سخية، ولم يلبث الجرحى أن أعيدوا والقتلى على المحفات. وراحت القذائف تتساقط على «البطارية» بغزارة لم يسبق لها مثيل، وسقط رجلان ظلَّا مهمَلَيْن في مكانهما، وازداد نشاط الجنود المكلَّفين بشئون المدافع. لم يعد أحدٌ يفكر في بيير، ولقد رَجَوْه مرتين أو ثلاث مرات في غير لطف أن يتنحَّى جانبًا، وراح قائد «البطارية» يتنقل بين مدفع وآخر وهو مقطِّب الحاجبَيْن، بينما أخذ الضابط الشاب يبدي غيرة متزايدة ووجهه يزداد تورُّدًا. وكان الجنود يحملون القذائف ويعبِّئون المدافع وينجزون مهمتهم بتفاخر صميم، فبدوا في غدواتهم ورواحهم وكأنهم يتحركون بقوة نوابض.

وكانت العاصفة تقترب، فأصبحت الوجوه كلها الآن تستعِرُ بذلك اللهيب الذي كان بيير يترقَّب ظهوره، وكان واقفًا على جانب قائد المدفعية حينما هرع إلى هذا الضابط المناوب وقال ويده إلى عمرته: «لي الشرف بأن أُخطرك يا زعيمي أنه لم يبقَ لدينا أكثر من ثمانية مقذوفات. هل يجب الاستمرار بإطلاق النار؟»

صاح الزعيم — دون أن يجيب مباشرة — وهو منحنٍ فوق الحاجز: «احشوا المدافع بقطع من الحديد!»

لكن الضابط الصغير أطلق فجأةً زمجرة، ودار حول نفسه ثم انهار وكأنه عصفور أصيب وهو في أقصى طيرانه، فبدا كل شيء غريبًا غامضًا ومظلمًا أمام ناظرَي بيير.

راحت القذائف الواحدة تلو الأخرى تمزِّق الحاجز والرجال والمدافع، فلم يعد بيير يعير شيئًا آخر التفاتة غير هذا الدويِّ الذي لم يشعر به حتَّى ذلك الحين. وعلى يمين «البطارية» بدت له القطعات عند صيحة «هورا» تتراجع إلى الوراء بدلًا من أن تندفع إلى الأمام.

ضرب مقذوف حافة الحاجز فغطاه بالتراب، ومرَّت كتلة سوداء أمام عينيه أعقبتها صدمة لينة، فدار بعض المتطوِّعين الذين كانوا على وشك الدخول إلى «البطارية» على أعقابهم فارِّين.

صاح الزعيم: «كل القطع، احشوها بقطع من الحديد!»

وهرع إليه صف ضابط مروَّع وهمس في أذنه أن الذخيرة قد نفدت، فكان أشبه برئيس خدم يبلِّغ صاحب الدعوة في أدقِّ اللحظات بنفاد الخمر.

صرخ الزعيم ووجهه متضرِّج بالحمرة طافح بالعرَق، وعيناه اللامعتان تكادان أن تخرجا من محجريهما: «ماذا يفعل أولئك الآثمون؟ اجرِ إلى الاحتياط واحمل الصناديق!»

واختتم قوله بنظرة حانقة وجَّهها إلى بيير، فقال هذا: «سوف أذهب كذلك.»

ابتعد الزعيم بخطوات واسعة دون أن يجيبه، وهتف آمرًا: «ممنوع القصف ... انتظروا.»

اصطدم المدفعي الذي تلقَّى الأمر بحمل الذخيرة ببيير، فهتف به وهو يتدحرج على المنحدر: «هه! يا سيدي، ليس هنا مكانك.»

لكن بيير تبعه وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الشاب.

مرَّت قذيفة فثانية فثالثة فوق رأسه، وسقطت إلى الأمام والجانب وإلى الوراء، وبينما هو قرب الصناديق الصغيرة المطلية بالأخضر، سأل نفسه: «إلى أين أذهب؟» توقَّف حائرًا وهو لا يدري ما إذا كان عليه أن يتقدَّم إلى الأمام أو أن ينكص على أعقابه. وفجأةً ألقته صدمة هائلة على الأرض، وفي اللحظة نفسها أحاطت به شعلة من نار، بينما دوَّى انفجار كالرعد صحبه صفيرٌ صمَّ أذنيه.

ولمَّا ثاب إلى رشده، وجد نفسه جالسًا على الأرض ويداه مستندتان إلى الأرض. لم يبقَ من الصناديق التي كان قريبًا منها غير بضعة ألواح خشبية خضراء متفحِّمة، وبعض الخِرَق المبعثرة فوق العشب الأمغر، وكان حصان يجرُّ وراءه حطام نقالات، يجري مبتعدًا، وثانٍ ممدَّد على الأرض مثل بيير يُطلِق زمجرات طويلة.

الفصل الثاني والثلاثون

استعدادة التل

استبدَّ الذعر ببيير تمامًا، فقفز على قدميه وفرَّ باتجاه «البطارية» وكأنها الملاذ الوحيد من كل هذه الأهوال المحيطة به.

وبينما هو يدخل الخندق، وجد أنهم كفُّوا عن إطلاق النار، وأن أشخاصًا آخرين يحتلون المكان. من كان هؤلاء؟ وماذا يعملون هنا؟ لم ينتبه لأول وهلة. شاهد الزعيم مستلقيًا على بطنه فوق الحاجز؛ حيث كان يبدو من هناك وكأنه ينظر إلى الأسفل، وجنديًّا كان قد لاحظ وجوده من قبل يتخبَّط، وآخر أمسكوا به من ذراعه وهو يصيح: «إليَّ أيها الأخ!» كما شاهد أشياء أخرى تماثلها في غرابتها.

لم يكن قد أدرك بعدُ أن الزعيم قد مات، وأن الجنديَّ المستغيث أسير، حينما طعن جنديٌّ آخر تحت أبصاره بحربة في ظهره. لم يكن قد وضع قدمه في الخندق بعدُ حينما هرع نحوه شخص في بزَّة زرقاء، نحيل أصفر يسبح في العرق وسيفه بيده وهو يصرخ، وبالغريزة، بغية تفادي الصدمة الشديدة، مدَّ بيير ذراعَيْه فأمسك بإحدى يديه ذلك الرجل (وكان ضابطًا فرنسيًّا) من كتفه، وبالأخرى من عنقه، فأسقط الضابط حسامه وأطبق عليه هو الآخر من ياقته.

ظلَّا طيلة لحظات يتأمل أحدهما وجه الآخر الغريب عنه في ذعر وحيرة، وكلٌّ منهما يتساءل: «تُرى، هل أنا الذي أَسَرتُه أم هو الذي يأسرني؟» وبدا الضابط الفرنسي ميَّالًا إلى هذا الرأي الأخير؛ لأن يد بيير القوية التي راح الرعب الغريزي يحرِّكها، أخذت تضغط بشدة متزايدة على حنجرته. كاد أن يقول شيئًا عندما مرَّت قذيفة فوق رأسَيْهما تمامًا، حتَّى كادت أن تمسَّهما، مصحوبة بصفير مريع، فظنَّ بيير أن رأس الفرنسي قد اجتُثَّت؛ نظرًا إلى السرعة التي خفض رأسه بها، فخفض هو الآخر رأسه وأفلت الرجل.

ودون أن يأبه الضابط كثيرًا لأيهما وقع في أسر الآخر، فرَّ مسرعًا إلى «البطارية»، بينما انحدر بيير على التل وهو يتعثَّر بالقتلى والجرحى الذين خُيِّل إليه أنهم إنما يتشبَّثون بساقَيْه. ولم يكَد يبلغ السفح حتَّى اصطدم بحشدٍ كبير من الروسيين يزمجرون ويسقطون ويتدافعون ويركضون كالإعصار نحو «البطارية». ذلك كان الهجوم الذي عزاه «إيرمولوف» فيما بعد إلى حُسن خطته وشجاعته، بل وإلى دهائه؛ لأنه — إذا آمن المرء بأقواله — نثر فوق التل صلبان القدِّيس جورج (أوسمة) التي كان يملأ بها جيوبه نثرًا.

ولقد فرَّ الفرنسيون رغم سيطرتهم على «البطارية»، وظل رجالنا يتبعونهم وهم يصيحون: «هورا» مسافة بعيدة، حتَّى كاد أن يتعذَّر إيقافهم.

جاءوا بأسرى من «البطارية»، ومن بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط به ضباطنا. وكانت طائفة من الجرحى من روسيين وفرنسيين، عَرف بينهم بيير وجوهًا رآها من قبلُ أصبحت الآن مقلوبة من الألم، تجرُّ نفسها جرًّا أو تُنقَل على المحفات. عاد يصعد التل حيث ظل أكثر من ساعة دون أن يجد واحدًا من أعضاء ذلك العالم المغلق الذي تبنَّاه. مع ذلك، فقد تعرَّف بين العديد من القتلى المجهولين منه، على بعضٍ من أولئك. فالضابط الصغير ما زال هناك قرب الحاجز غارقًا في بِركةٍ من الدم، والمدفعي ذو الوجه المتورِّد ما زال عُرضةً لحركات تشنُّجية، لكنهم أعرضوا عن نقله.

نزل بيير المنحدر جريًا.

حدَّث نفسه وهو يمشي على غير هُدًى تابعًا مجموعة المحفات العائدة من ساحة المعركة: «سوف يتوقف كل هذا. لا ريب أنهم رُوِّعوا من هول ما فعلوا!»

لكن الشمس المحجوبة بالدخان كانت لا تزال بعيدة فوق الأفق، فكان يُرى بغموض إلى الأمام، وبصورة خاصة إلى اليسار من جانب سيميونوفسكوي، حركة عنيفة أبعد ما تكون عن الخمود، بينما راح رعد الانفجارات يزداد عنفًا كما يفعل الرجل الذي يجمع كلَّ قواه وهو مبهور الأنفاس ليُودِعها صرخة أخيرة.

الفصل الثالث والثلاثون

المعركة الرئيسية

دارت حركة المعركة الرئيسية على مساحة قدرها نصف ميل بين بوروديينو وتحصينات باجراسيون. خلا ذلك فقد قامت أفواج فرسان «أوفاروف» بحركة أثبتت بها وجودها حوالي منتصف النهار، وقامت معركة من جهةٍ أخرى وراء أوتيتسا بين بونياتوفسكي وتوتشكوف. لكن هذه كلها لم تكن إلا عمليات تافهة بالنسبة إلى ما دار في الوسط. لقد نشبت المعركة الحقيقية على الساحة القائمة بين بوروديينو والتحصينات، قرب الغابة، على أرض خواء مكشوفة من الجانبين، وذلك بطريقة غاية في البساطة والبعد عن التعقيد.

اشتركت في القتال من الجانبين بضع مئات من القاذفات، ولمَّا لفَّ الدخان ساحة المعركة كلها، شرعت أفواج ديسيكس وكومبان تتقدَّم نحو التحصينات، بينما راح جيش نائب الملك إلى يسارها يتقدَّم نحو بوروديينو.

وكانت المسافة بين حصن شيفاردينو، حيث كان نابليون، وبين التحصينات، ربع ميل على الخط المستقيم، وأكثر من نصف ميل منه إلى بوروديينو، فكان الإمبراطور لا يستطيع أن يرى ما يحدث بوضوح، خصوصًا وأن الدخان المختلط بالضباب قد غطَّى المساحة كلها، ولم تُشاهد قطعات ديسيكس إلا عندما أخذت تنحدر إلى الوادي الذي يفصلها عن التحصينات. وما إن نزلت حتَّى بات الدخان من الكثافة فوق التحصينات لدرجة ملأت معها الجانب المقابل للوادي، فكان هذا الستار لا يترك المجال إلا لرؤية شيء ما أسود يشبه الجمهرة البشرية، ومن حين إلى آخر التماع الحراب، ولكن ما كان يمكن من شيفاردينو رؤية ما إذا كان الرجال ساكنين أم متحركين، وهل هم فرنسيون أم روسيون.

وكانت الشمس تصعد مشرقة في السماء، فتغمر إشعاعاتها المنحنية وجه نابليون الذي كان يفحص المواقع واقيًا عينيه بيديه. وكان الدخان يمتدُّ أحيانًا إلى الأمام، حتَّى

ليُخيَّل إلى الناظر أنه جيوش تتحرك. وفي الفترات بين طلقات المدفعية كانت تُسمع أصوات دون أن يُدرَك مدلولها.

وكان نابليون على الرابية ينظر خلال منظاره إلى ساحة المعركة الضيقة، فكانت العدسة تريه دخانًا وجنودًا؛ جنوده أحيانًا، وأحيانًا جنودًا روسيين، لكنه فيما بعد ما كان يستطيع بالعين المجردة أن يخمِّن مواقع ما رآه.

نزل من فوق التل، وراح يذرع السفح ويتوقَّف من حين إلى آخر ليصيخ السمع إلى دويِّ الانفجارات، وليلقي نظرة إلى ساحة المعركة. ولكن لا من هناك ولا من أعلى المرتفع — حيث ظل عدد من جنرالاته — ولا من التحصينات كذلك التي كان الفرنسيون يحتلونها تارةً ليسلموها إلى الروسيين تارةً أخرى تاركين قتلى وجرحى وأحياءً ومروَّعين أو مذهولين، ما كان يمكن أخذ فكرة صحيحة عما يجري في ذلك المكان. ولقد تعاقب طيلة ساعات بين قصف المدافع وأزيز الرصاص المتواصِلَين، فرنسيون وروسيون، مشاة وفرسان، دون هوادة ولا ملل. كانوا يَظهرون ويطلقون النار ويسقطون ويتدافعون دون أن يدري هؤلاء ماذا يفعلونه بأولئك، ويصرخون ويتقهقرون.

وكان المساعدون العسكريون الذين يوفدهم الإمبراطور بمهمات يعودون ويقدِّمون تقاريرهم، والضباط التابعون لماريشالاته يتصرفون مثلهم، لكن كل تلك التقارير لم تكن دقيقة؛ إذ لا يمكن في غمار المعركة أن يقول المرء على وجه الدقة ما يحدث في فترة ما، كما أنَّ كثيرًا من أولئك الضباط لم يستطيعوا بلوغ الأمكنة المعيَّنة لهم، فكانوا يكتفون بترديد ما سمعوه من أقوال. أضِف إلى ذلك أن الموقف كان يتبدَّل بينما هم يجتازون نصف الميل أو ثلاثة أرباع الميل التي تفصلهم عن سيدهم، فتصبح الأنباء التي يحملونها خاطئة. وعلى هذا النحو جاء مساعد عسكري تابع لنائب الملك يعلن أن بورودينو قد احتُلَّت، وأن الجسر القائم على نهر كولوتشا أصبح بين أيدي الفرنسيين، وسأل عما إذا كان يجب إمرار القطعات عبر النهر، فأوعز إليه نابليون أن ينظِّموهم على الشاطئ الآخر، وأن ينتظروا، ولكن في اللحظة التي أعطى فيها ذلك الأمر، بل وأكثر من ذلك، ما كاد المساعد العسكري يغادر بورودينو حتَّى استعاد الروسيون الجسر وأحرقوه، وكان ذلك أثناء الواقعة التي وجد بيير نفسه مشتركًا فيها عند بدء المعركة، وجاء مساعد عسكري آخر يجري من التحصينات بأقصى ما في طاقة الجواد، وقد امتقع وجهه من الذعر، فأعلن للإمبراطور أن الهجوم قد صُدَّ، وأن كومبان قد جُرح، ودافو قُتل، في حين أنه بينما كان ينقل تلك الأنباء احتلت قطعات أخرى التحصينات، أما دافو فإن «قتله» لم يتجاوز الرضَّ

الخفيف. وكان نابليون، تبعًا لهذه البيانات الخاطئة كرهًا، يتخذ تدابير اتُّخذت من قِبل آخرين قبله، أو يستحيل تنفيذها سلفًا.

وكان الماريشالات والجنرالات الذين أصبحوا أقرب إلى خطوط النار، والذين لم يدخلوها إلا نادرًا، يُصدِرون من أنفسهم الأوامر بصدد اشتباكات الرماة وتدخُّل الفرسان أو المشاة، ولكن تلك الأوامر — مثل أوامر الإمبراطور نفسها — ما كانت تنفَّذ إلا على نطاق ضيق ضعيف، ولقد كانت الواقعة غالبًا تخالف التدابير المتخذة، فكان الجنود الذين صدرت إليهم الأوامر بالتوجُّه إلى الأمام، يرون أنفسهم واقعين تحت نيران البنادق المتعاقبة، فيضطرون إلى الفرار، والجنود الذين يجب عليهم البقاء في أماكنهم يهجمون على العدو حينما يرونه انبعث أمامهم فجأةً، ويندفع الفرسان دون أن يصدر إليهم الأمر للحاق بالروسيين المشتَّتين. وعلى هذا النحو، اجتاز فَوْجان من الفرسان وادي سيميونوفسكوي، فلم يكادوا يصلون إلى الجانب الآخر حتَّى لووا أعنَّة خيولهم وانحدروا بأقصى سرعة. وعلى هذا النحو كذلك، اندفع أكثر من فوج من المشاة إلى أماكن لم يرسلهم إليها أحد. وعندما كان يجب استعمال المدافع أو تحريك المشاة أو الفرسان، كان ضباط الصف هم الذين يقومون بذلك بتصرُّفهم الذاتي دون الرجوع إلى ني أو دافو أو مورا، أو بالتالي إلى نابليون. ولم يكونوا خائفين من أن يوجَّه إليهم اللوم على مثل ذلك التصرف؛ لأن المرء في المعركة لا يفكر إلا في إنقاذ أثمن ما عنده؛ أي حياته. ويمكن تبعًا لذلك أن يكون الخلاص تارةً بالفرار وتارةً بالسير إلى الأمام؛ لذلك فقد كان هؤلاء الرجال في حميَّا المعركة، يتصرفون تبعًا لشعورهم الآني. وفي الواقع إن تلك التحركات إلى الأمام أو إلى الوراء ما كانت لتخفِّف أو لتعدِّل موقف القطعات؛ لأن تلك الهجمات والملاحم ما كانت لتُحدِث إلا أضرارًا قليلة إذا قورنت بأضرار القذائف والرصاص الذي كان يطير في منطقة القتال. كانت هذه هي التي تسبِّب الجراح والبتر والموت. ولا يكاد الجنود يجدون أنفسهم خارج مرمى المقذوفات حتَّى يبادر الرؤساء في المؤخرة بفضل الطاعة إلى إعادة تشكيلهم وإعادة إرسالهم إلى منطقة النار تلك؛ حيث يُودي الخوف من الموت بتلك الطاعة من جديد، ويترك الجنود تحت رحمة غريزة الجماعات العمياء.

الفصل الرابع والثلاثون

مخاوف نابليون

كانت مراكز قيادات جنرالات نابليون: دافو، ني، مورا، قرب منطقة النار، بل إنهم دخلوا تلك المنطقة أكثر من مرة وقادوا قطعات كثيرة العدد وطيِّعة، ولكن على عكس ما حدث دائمًا في المعارك السابقة، لم يتقدَّم أحد ليعلن فرار العدو، فكانت تلك القطعات المنظَّمة أفضل تنظيم تعود من «هناك» مشتَّتة مروَّعة فيعيدون تنظيمها. لكن أعدادها كانت تنقص نقصًا يظهر للعين. وحوالي الظهر أرسل مورا إلى الإمبراطور مساعدًا عسكريًّا في طلب المدد.

وكان نابليون جالسًا عند سفح التل يشرب «البونش» عندما وصل مساعد مورا العسكري يؤكد أن الروسيين سيُسحقون إذا تفضَّل جلالته بإرسال فوج آخر إلى المعركة.

قال نابليون بلهجة صارمة وكأنه لم يفهم ماذا يريد ذلك الشاب الفتيُّ الجميل الذي يشبه شعره الأسود الطويل العكف شعر سيده أن يقول: «إمدادات؟»

وكرَّر يخاطب نفسه: «إمدادات! كيف يحدث أن يطلبوا إمدادات وهم الذين بين أيديهم نصف الجيش ويقتصر هجومهم على جناح بالغ الضعف لا يكاد يكون محصَّنًا؟!»

ثم نطق بصوتٍ مرتفع وبجفاء: «قل لملك نابولي إنَّ الظهر لم يحِن بعدُ، وإنني لا أرى بوضوح بعد الوضع على رقعة الشطرنج. امض.»

فأطلق المساعد العسكري الفتَّان ذو الشعر الطويل العكف زفرة عميقة ويده إلى حافة عمرته، ومضى خببًا من جديد إلى المكان الذي كانوا يقتلون بعضهم البعض فيه.

ونهض نابليون واستدعى كولنكور وبيرتييه، وراح يتبادل معهم مواضيع غريبة تمامًا عن سياق المعركة.

وبدأ الحديث يلذُّ للإمبراطور حينما انتقلت عينا بيرتييه فجأةً إلى جنرال تتبعه حاشيته، جاء بأقصى سرعة الجواد قاصدًا التل، كان ذلك هو بيليار، فقفز من على جواده

المغطَّى بالزبد، وتقدَّم بخُطى سريعة إلى الإمبراطور، وراح يعرض عليه بصوت مرتفع جريء ضرورة إرسال الإمدادات. كان يُقسم بشرفه أن الروسيين ضائعون لا محالة إذا دخل فوج آخر المعركة.

هزَّ نابليون كتفيه واستمرَّ في تمشِّيه دون أن يجيب، فراح بيليار يتكلَّم بحميَّة إلى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به.

قال الإمبراطور وهو يعود إلى الجنرال: «إنك محتدٌّ كثيرًا يا بليار، إن من السهل أن يخطئ المرء في حميَّا الحركة، اذهب وافحص الموقف وعد إليَّ ...»

لم يكَد بيليار يختفي عن الأبصار حتَّى وصل رسولٌ آخر من نقطة أخرى من ساحة المعركة. قال نابليون ساخطًا بلهجة الرجل الذي يرى العوائق تنبعث في طريقه باستمرار: «حسنًا! ماذا هناك؟»

شرع المساعد العسكري يقول: «يا صاحب الجلالة، إن الأمير ...»

فأعقب الإمبراطور بحركة غاضبة: «يطلب المدد؟»

فأشار الضابط برأسه أنْ نعم، وراح يقدِّم تقريره. استدار الإمبراطور، لكنه لم يلبث أن عاد على أعقابه والتفت إلى بيرتييه وقال: «لذلك الفرخ الذي جعلته نسرًا.» كما أخذ يدعوه فيما بعد: «لا ريب أنه يجب إعطاؤهم إمدادات ... هيا، من سنرسل؟»

فأجاب بيرتييه الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الأفواج والفيالق والألوية: «لنرسل فوج كلاباريد يا صاحب الجلالة.»

فأيَّده نابليون بحركة من رأسه.

جرى المساعد العسكري نحو فوج كلاباريد، وبعد دقائق شرع فوج الحرس الفتي — الذي كان مقامًا احتياطًا وراء التل — يتحرَّك ونابليون ينظر بسكون في ذلك الاتجاه.

وفجأةً قال لبيرتييه: «كلا، لا أستطيع إرسال كلاباريد. أرسل فوج فريان.»

وعلى الرغم من أن إرسال فوج فريان بدلًا من فوج كلاباريد لم يكن له أية ميزة أو فائدة، وأن إبدال فوج بآخر سبَّب ضياعًا حقيقيًّا للوقت، فإن هذا الأمر نُفِّذ بكل دقة. لم يرَ نابليون أنه حينذاك كان يلعب حيال قطعاته دور الطبيب الذي تزيد أدويته من خطورة المرض، وهو الدور الذي كان بارعًا في تمييزه ونقده عند الآخرين.

اختفى فَوْج فريان في الدخان كالأفواج الأخرى. ومن نقاط مختلفة، ظل المساعدون العسكريون يهرعون ليقولوا — وكأنهم وحَّدوا كلمتهم — الشيء بعينه. كانوا جميعًا يطلبون الإمدادات ويؤكِّدون أن الروسيين أبعد من أن يفكِّروا في التراجع، يفتحون نيران جحيم تذوب فيه القطعات الفرنسية.

وظل نابليون متفكِّرًا على مقعده.

اقترب السيد دوبوسيه، هاوي الأسفار الذي لم يأكل شيئًا منذ الصباح من جلالته، وعرض عليه بكل احترام تناول الإفطار. قال: «آمل أنني أستطيع منذ الآن أن أقدِّم لجلالتكم تهانيَّ بالنصر ...»

فهزَّ نابليون رأسه نفيًا، واعتبر السيد دوبوسيه أن تلك الإشارة تعني النصر وليس الطعام؛ لذلك فقد سمح لنفسه أن يلاحظ بلهجة دعبة ومحترمة معًا أن ما من شيء في الدنيا يمكن أن يمنعنا عن تناول الطعام طالما نستطيع أن نتناوله.

قال الإمبراطور فجأةً بلهجة غاضبة: «امضِ عن ...»

وأدار له ظهره، فتهلَّل وجه السيد دوبوسيه بابتسامة ورِعة تجمع بين العطف وخيبة الأمل والإعجاب، ومضى بخطواته المنزلقة يلحق بالجنرالات الآخرين.

كان نابليون يشعر بإحساس اللاعب المجدود دائمًا، الذي يُلقي بجنون — معتمدًا على حظه — بكل ماله على المائدة وفجأةً يرى بمزيد الألم أنه على وشك أن يخسر؛ لأنه أفرط في حساب الشوط.

كانت قطعاته هي الأولى نفسها وجنرالاته أنفسهم والتدابير المتخذة ذاتها وأمرُ المعركة ذاته والنداء القصير الحازم إياه، ثم إنه نفسه لم يتبدَّل، وهو يعرف ذلك تمام المعرفة، وهو يزعم لنفسه أنه بات أكثر رويَّةً واختبارًا من ذي قبل، وأن العدوَّ لا زال نفسه الذي كان في أوسترليتز وفريدلاند. فلماذا إذن تصبح ضربته الرهيبة المفاجئة عاجزة وكأنها بسحر ساحر؟!

لقد كانت وسائله الفنية التي طالما نجحت معه بمألوف العادة: تركيز المدفعية في نقطة واحدة، اختراق الخطوط بواسطة الاحتياطي، هجوم هؤلاء الرجال الحديديين العتيد الذين يشكِّلون فرق فرسانه؛ كل هذه الوسائل استعملها دون أن يحصل على النصر، بينما الأنباء نفسها تتعاقب: جنرالات قتلى أو جرحى، سرعة إرسال الإمدادات، تشتُّت القطعات، استحالة هزم الروسيين.

من قبل، كان يكفي الاستيلاء على مركزين أو ثلاثة مراكز، والنطق بجملتين أو ثلاث جمل، حتَّى يرى الماريشالات والمساعدون العسكريون يفِدون مهلِّلِي الوجوه يعلنون النصر مع جيوش كاملة من الأسرى، وباقات من الأعلام والشعارات العدوَّة والمدافع والصناديق على شكل أسلاب. وما كان على مورا إلا أن يطلب إطلاق فرسانه حتَّى يغنم عربات النقل. هكذا جرت الأمور في «لودي» وما رانجو وآر كول وإيينا وأوسترليتز وواجرام، إلخ ... إلخ. فما الذي وقع لجنوده إذن؟

على الرغم من نبأ احتلال التحصينات، فإن نابليون كان يرى الأمور تسير على نهجٍ مخالف تمامًا لسير معاركه السابقة، وكان يرى أن مَن حوله من الرجال — وكلهم خبروا الحرب — يشعرون مثل شعوره. كانت الوجوه كلها حزينة والعيون تتحاشى لقاء نظراته باستثناء السيد دوبوسيه الذي بدا وحده غير مقدِّر لخطورة الموقف. وكان نابليون لا يجهل بحكم خبرته معنى قتالٍ يستنفد طيلة ثماني ساعات من الجهد دون أن ينتزع المهاجم النصر. لقد كان أشبه بالهزيمة بالنسبة إليه، فالميزان يميل بشكل يصبح معه أتفه حادثٍ قمينًا بضياعه هو وجيشه.

وعندما كان يستعرض هذه الحملة الغريبة التي لم يحصل خلالها طيلة شهرين كاملين على نصر واحد، ولم يغنَم عَلَمًا واحدًا أو مدفعًا واحدًا ولا فصيلة من الجند، ويتأمل هذه الوجوه المكتئبة في السر، ويسمع تلك التقارير عن مقاومة العدو العنيدة. كان يُخيَّل إليه أنه فريسة لحلم مريع. طافت برأسه كل الحوادث العرضية التي يمكن أن تسبِّب ضياعه: يهجم الروسيون على جناحه الأيسر ويخرقون خطَّ الوسط، فتأتي قذيفة تائهة تذهب به شخصيًّا. إن كل الأشياء ممكنة الوقوع. كان في معاركه السابقة لا يحسب إلا إمكانيات النجاح، أما الآن فقد بات ينتظر عددًا من الأحداث العارضة السيئة. نعم، لقد كان ذلك يشبه الحلم المفزع: يحلم المرء بأن آثمًا يهاجمه، فيشهر سلاحه ليضربه بكل قواه لكنه يشعر بأن يده تتدلَّى عاجزةً كالخرقة، فيعتصر قلبه خوفًا من موت لا مفرَّ منه.

ولقد أحدث نبأُ مهاجمة الروسيين لجناحه الأيسر مثل ذلك اللون من الرَّوع في نفس نابليون؛ فلبث متهالِكًا فوق كرسيِّ الميدان ورأسه بين يديه. اقترب بيرتييه منه وعرض عليه الطواف بالخطوط لتكوين رأي صحيح عن الموقف، فأجابه: «ماذا؟ ماذا تقول؟ … نعم، مُر لي بحصان.»

اعتلى صهوة جواده ومضى نحو سيميونوفسكوي.

على طول الطريق التي مرَّ بها، وسط الدخان الذي كان ينقشع ببطء، كانت جثث الرجال والخيول ملقاةً سابحة في بِرك الدم، منفردةً أو مجتمعة، حتى إن نابليون وملازميه لم يروا قط من قبل مثل ذلك الهول ولا ذلك العدد من الجثث المجتمعة على رقعة بمثل تلك المساحة الضيقة. وكان دويُّ المدافع الذي لم يتوقَّف منذ عشر ساعات كاملة ولم يفتأ يصفع صحناء الأذن، يزيد جلال المشهد كما تُبرز الموسيقى قيمة الصور الحيَّة.

ولَمَّا بلغ مستوى سيميونوفسكوي، شاهد نابليون خلال الدخان صفوفًا كاملة من الجنود مرتدين أزياءً لم تكن ألوانها أليفة لديه. إنهم الجنود الروس.

كان هؤلاء متركِّزين وراء القرية والمرتفَع، وقاذفاتهم تطلق النار دون تمهُّل وتملأ خطهم كله بالدخان. لم يعد هناك قتال بالمعنى المفهوم، والمجزرة الدائرة لا يمكن أن تعود بفائدة على الروسيين ولا على الفرنسيين، فأوقف الإمبراطور حصانه وعاد يستسلم إلى التفكير حتَّى أخرجه بيرتييه منه، وهو يبدو وكأنه من صنعه؛ لأنه مسئول عنه. فبدا له للمرة الأولى مريعًا عديم النفع؛ بسبب عدم نجاحه ولا ريب.

عرض عليه أحد الجنرالات الذين برفقته أن يأمر بإطلاق الحرس القديم، فتبادل «ني» وبيرتييه النظر، وطافت على شفاههما ابتسامةُ ازدراء لهذا العرض الأهوج.

وأطرق نابليون برأسه وظلَّ طويلًا لا يتكلَّم، وأخيرًا قال: «لن أهدم «حرسي» على بُعْد ثمانمائة ميل من فرنسا.»

ولوى عنان جواده وعاد إلى شيفاردينو.

الفصل الخامس والثلاثون

السيد العجوز

لم يبرح كوتوزوف المقعد المغطَّى بالنجد، الذي شاهده بيير جالسًا عليه صباحًا متهاويًا على نفسه بكل ثقل جسمه، مُحنِيًا رأسه الأشيب. لم يكن يتخذ تدبيرًا معينًا، بل يكتفي بإعطاء موافقته على ما يُعرض عليه أو حجبها عنه.

كان يجيب: «نعم، نعم، افعل هذا.» ويقول لهذا أو ذاك من خلصائه: «نعم، نعم، اذهب يا عزيزي، اذهب لنرى.» أو يعلن: «كلا، لا فائدة، الانتظار أفضل.» ويصغي إلى التقارير التي تُنقل إليه ويُعطي الأوامر متى طُلبت منه، لكنه كان يبدو أشد اهتمامًا بالانطباعات البادية على الوجوه واللهجات التي ينقل بها العسكريون تقاريرهم، من اهتمامه بمدلول الكلمات نفسها. وكانت خبرته الطويلة في الحروب وحكمته ككهل تعلِّمانه أن رجلًا واحدًا لا يمكنه إدارة مئات الألوف من الآخرين الذين يناضلون ضد الموت. وكان عارفًا أن ما يقرِّر مصير المعارك ليست التدابير المتخذة من قِبل الجنرال القائد الأعلى ولا الموقع الذي تحتله القطعات ولا عدد المدافع والقتلى، بل تلك القوة الخفية التي تسمَّى معنوية الجنود. لذلك، فقد راح يراقب تلك المعنوية ويحاول قدر طاقته أن يوجِّهها. كانت قسمات وجهه تنطق بانتباه دائم هادئ وجهد يتغلَّب على تعب جسمٍ هدَّه الكبَر.

في الساعة الحادية عشرة، جاءوا يُعلِمونه أن التحصينات التي احتلها الفرنسيون قد استُعيدت الآن، ولكن الأمير باجراسيون جُرِح، فندَّت عن كوتوزوف صيحة تعجُّب وهزَّ رأسه ثم أمر واحدًا من مساعديه العسكريين: «امضِ لزيارة الأمير بيوتر إيفانوفيتش، واستعلم تفصيلًا عن حاله.»

ثم استدار إلى الأمير دو وورتمبيرج الذي كان واقفًا وراءه، وقال له: «تفضَّل سموك بالاضطلاع بقيادة الجيش الثاني.»

ولم يمضِ وقت طويل على ذهاب الأمير، بل وقبل أن يبلغ سيميونوفسكوي عاد المساعد العسكري يعلن لعظيم الرفعة أنه يطلب إمدادات.

فقطَّب كوتوزوف حاجبَيْه وأرسل من فوره الأمر إلى دوختوروف أن يتولى قيادة الجيش الثاني، زاعمًا أنه بعد أن أمعن التفكير، وجد أنه لا يستطيع الاستغناء عن الأمير في مثل هذه المناسبات الخطيرة، وأمر أن ينقل إليه رجاء العودة إلى جانبه.

ولَمَّا أنهوا إليه أن مورا وقع في الأسر، طافت على شفتَيْه ابتسامة عندما راح أعضاء أركان حربه يقدِّمون إليه تهانيهم، وقال: «ليس بهذه السرعة أيها السادة، لا شيء خارق في أن نربح المعركة وأن يسقط مورا في الأسر، ولكن من الأفضل أن ننتظر قبل أن نبتهج.» مع ذلك، فقد أرسل مساعدًا عسكريًّا لينشر هذا النبأ بين الصفوف.

وعندما هرع شتشربينين من الجناح الأيسر يُعلِمه أن الفرنسيين احتلوا التحصينات وسيميونوفسكوي كذلك، خمَّن من أمارات وجهه ومن الضجيج الذي كان يتناهى من ساحة المعركة إلى أسماعه أنَّ الأمور لا تسير على ما يرام، فنهض وكأنه أراد أن يحرِّك ساقَيْه قليلًا، وأمسك بذراع الضابط ثم انتحى به جانبًا ليصغي إلى تقريره.

قال لإيرمولوف: «اذهب يا عزيزي، انظر ما إذا كان يمكن عمل شيء.»

كان كوتوزوف في جوركي، في وسط الموقع الروسي تمامًا، ولقد صدَّ الهجوم الذي قام به نابليون مرارًا على جناحنا الأيسر. أما في الوسط، فإن الفرنسيين لم يتجاوزوا بورودينو، بينما هزم فرسان أوفاروف العدو في الجناح الأيسر.

توقَّفت الهجمات الفرنسية حوالي الساعة الثالثة، واستطاع كوتوزوف أن يقرأ على وجوه الجنود العائدين من الميدان ووجوه الذين من حوله، هيجانًا يبلغ أقصى المراحل، وكان راضيًا عن نهارٍ جاء بنتائج فاقت ما كان يتوقَّع، لكن القوة الجسدية كانت تخون ذلك الكهل، ولقد سقط رأسه على صدره، بل ووقع له مرةً أن نام. قدَّموا له العشاء.

وبينما هو يأكل، شوهد فولزوجن، المساعد العسكري لجلالته، ذلك الذي أعلن بينما كان يمر بالقرب من آندريه، أن الحرب يجب أن تمتدَّ، وأن باجراسيون لا يمكنه الاحتمال، يصل من لدن باركلي ليرفع تقريره عن الموقف في الجناح الأيسر. لقد قدَّر باركلي دوتوللي الحصيف، إزاء تزايد عدد الجرحى وفوضى المؤخرة، بعد أن أمعن النظر في كل الاحتمالات، أنَّ المعركة قد خُسِرت، فأرسل تبعًا لذلك صفيَّه بسرعة يحمل النبأ إلى القائد العام.

حدَّق كوتوزوف بعينَيْه الصغيرتين الناريَّتين في وجه فولزوجن وهو يمضغ قطعة الدجاج المشوي بصعوبة، بينما اقترب بخُطى متكاسِلة وانحنى محيِّيًا وابتسامة مطاوعة تعلو شفتَيْه.

كان فولزوجن يعامِل القائد الأعلى بتكلُّف مشوب بقلة الحياء، وكأنه يقول: «للروسيين ملء الحرية في أن يجعلوا من الهَرِم الفاني معبودًا لهم، لكن عسكريًّا من طرازه هو، يعرف كيف يتصرف.» حدَّث نفسه وهو يلقي نظرة ساخرة على الأطباق الموضوعة أمام كوتوزوف: «إن السيد العجوز — وهكذا كان الألمان يسمُّونه فيما بينهم — يرفِّه نفسه.» وشرع يعرض على «السيد العجوز» الموقف في الجناح الأيسر كما قدَّره باركلي، وكما لمسه هو بنفسه.

– «إن كل نقاط مراكزنا باتت بين أيدي العدو دون أن نستطيع له صدًّا؛ نظرًا لحاجتنا إلى الجنود، وجنودنا يفرون ويستحيل علينا إيقافهم.»

توقَّف كوتوزوف عن المضغ، وراح يحملق في فولزوجن وكأنه لا يفقه ما يقول. ولدى رؤيته انفعال «السيد العجوز» قال له المساعد العسكري: «لقد اعتبرت أنه ليس من حقي أن أخفي على سموِّك ما رأيت. إن القطعات في فوضى عامة ...»

صاح كوتوزوف الذي نهض فجأةً ومشى نحو فولزوجن: «هل رأيت ذلك؟ هل رأيت ذلك؟ ...»

كان الغضب يكاد أن يخنقه وهو يهدِّده بيديه المرتعدتين: «أَلِي أنا، تبلغ بك الجرأة لتقول ما تقول؟! ... إنك لا تعرف شيئًا من شيء يا سيدي. قل للجنرال باركلي عن لساني إنَّ معلوماته خاطئة، وإنني بصفتي قائدًا أعلى، أعرف أفضل مما يعرف سير المعركة.»

همَّ فولزوجن أن يجيب، لكن كوتوزوف قاطعه: «لقد صُدَّ العدو على الجناح الأيسر وهُزِم على الجناح الأيمن، فإذا كنت أسأت النظر يا سيدي فإن هذا لا يجيز لك أن تروي ما أنت جاهله. تفضَّل بالذهاب إلى الجنرال باركلي وانقل له رغبتي في مهاجمة العدوِّ غدًا دون تغيير.»

لزم الجميع الصمت، فلم يُسمع إلا صوت تنفُّس الجنرال العجوز اللاهث.

استرسل كوتوزوف يقول وهو يرسم شارة الصليب على صدره، بينما طفرت الدموع من مقلتيه: «لقد أصدُّوا في كل النقاط شكر الله وجنودنا البواسل. لقد هُزم العدو، وغدًا سنطرده من أرض روسيا المقدَّسة.»

هزَّ فولزوجن كتفَيْه وابتعد وهو يدلُّ بسخريته على ما يراه في كفاءة الرجل العجوز.

قال كوتوزوف وهو يشير إلى فتًى جميل الطلعة متين البنيان ذي شعر فاحم وصل في تلك اللحظة فوق التل: «وانظر، ها هو بطلي.»

كان القادم هو الجنرال رايیفسكي الذي لم يغادر طيلة النهار النقطة الحساسة في المعركة، أعلن أن القطعات لا تزال صامدةً، وأن الفرنسيين لم تعُد لديهم الجرأة على مهاجمتهم.

ولَمَّا سمعه كوتوزوف يتحدَّث على هذا النحو قال له بالفرنسية: «ألا تظن كالآخرين إذن أنه يجب علينا أن ننسحب؟»

– «على العكس يا صاحب السمو، إن الأكثر عنادًا هو الذي ينتصر في المواقف المتأرجحة. ومن رأيي ...»

نادى كوتوزوف: «كائيساروف! اجلس هنا واكتب الأمر اليومي لنهار الغد. وأنت — وأشار إلى مساعد عسكري آخر — امضِ للطواف بالصفوف وأعلِن أننا سننتقل إلى الهجوم غدًا.»

وفي تلك الأثناء، أعلن فولزوجن الذي أرسله باركلي للمرة الثانية، أنَّ جنراله يرغب في الحصول على تأييد خَطِّي للأمر الذي أعطاه الماريشال.

ودون أن يشرِّفه كوتوزوف بنظره، أمر بكتابة ذلك الأمر؛ ليرفع المسئولية عن القائد الأعلى السابق الحصيف بناءً على إصراره.

وبفضل ذلك الرباط الغامض الذي لا يوصف، الذي يُبقي الجيش كله في حالة فكرية واحدة، تلك الحالة الفكرية التي يدعُونها معنويات الجيش، والتي تشكِّل عصب الحرب، فإن أقوال كوتوزوف وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي انتشرت لفورها من طرفٍ إلى آخر بين قطعاتنا.

ولا ريب أن عبارات أمره اليومي نفسها ليست هي التي بلغت الحلقات الأخيرة من تلك السلسلة، بل إنه لم يكن هناك شيء مما قال في الأقاصيص التي تنوقلت من واحدٍ إلى آخر، لكنَّ معاني كلماته كانت تنتقل من قريب إلى قريب؛ لأنها ما كانت تعكس ترتيبات خدَّاعة مموِّهة، بل المشاعر العميقة التي تعتلج في نفس الجنرال القائد الأعلى كما تعتلج في نفس كل روسي.

فلمَّا علموا أننا سنهاجمهم غدًا، وشعروا بتأييد ما كانوا يرغبونه من جانب القيادة العليا، استعاد أولئك الرجال المنهوكون المتردِّدون ثقتهم.

الفصل السادس والثلاثون

جرح الأمير آندريه

ظل فيلق الأمير آندريه تابعًا للاحتياطي الذي ظلَّ بعيدًا عن دائرة الحركة حتَّى الساعة الثانية وراء سيميونوفسكوي تحت نار حامية من المدفعية. وفي ذلك الحين سُيِّر الفيلق الذي فقد حوالي مائتي رجل، إلى الأمام عبر حقل من الخرطال وطأته الأقدام حتَّى الفراغ الذي يفصل بين قرية بوروديدنو و«بطارية» التل. وكان ذلك الفراغ من الأرض هو المكان الذي سقط فيه أثناء النهار ألوف من الرجال، والذي أصبح حوالي الساعة الثانية على الضبط نقطة التقاء لنار حامية أَخذتْ بضعُ مئات من مدافع العدو تصبُّها عليه.

فَقد الفيلق هنا — دون أن يغادر مكانه أو يُطلِق رصاصة واحدة — ثلث عدده! لقد كانت المدافع إلى الأمام، وبصورة خاصة على اليمين، تقصف وسط دخان كثيف، ومن منطقة الدخان الغامضة تلك، راحت القذائف والقنابل تصل دون انقطاع، يواكبها صفير قصير أو طويل. وكانت المقذوفات أحيانًا تتجاوز الهدف طيلة ربع ساعة، وكأنها تتيح فترة استراحة، ولكن أحيانًا كان عدد كبير من الرجال يُصاب في غضون دقيقة واحدة، ولا يكفُّ العاملون عن نقل الجرحى والجثث.

ولدى كلِّ صدمة جديدة كانت إمكانيات البقاء على قيد الحياة تتضاءل بالنسبة إلى الذين لم يُقتلوا بعد. ولقد انتشر الفيلق على شكل ألوية تفصل بين كل واحد منهما ثلاثمائة خطوة. لكن الصمت نفسه والفتور نفسه كانا يخيِّمان عليها كلها، وإذا تبودلت بعض الأحاديث النادرة فإنها سرعان ما كانت تتوقَّف كلما سقط مقذوف وعلَت بعده صيحة: «محفات!» ولقد لبث الجنود معظم الوقت تبعًا لأوامر الرؤساء جالسين على الأرض، فكان هذا يرفع عَمْرته ويحرِّك السير الجلدي المحيط بها برفق، وذاك ينظِّف حربته بالصلصال الجاف الذي يحيله دقيقًا بين يديه، وثالث يسوِّي تجهيزاته ويعيد شدَّها، ورابع يحلُّ الأشرطة الكتَّانية التي يستعملها بدلًا من الجوارب ثم يعيد لفَّها من جديد حول ساقَيْه،

ويضع حذاءه في قدميه بهدوء، وكان البعض يبنون بيوتًا صغيرة من الحصى التي يلتقطونها من الأخاديد، أو يضفِّرون الحصر مستعملين قشَّ اللقاط ويبدون جميعهم منهمكين في انشغالاتهم. وعندما يقع القتلى أو الجرحى في صفوفهم ويقوم رجال النقالات بعملهم، وعندما يتراجع رجالنا أو تُرى خلال سحب الدخان تشكيلات العدو المتراصَّة، ما كان أحد يعير ذلك التفاتًا. وبالمقابل، ما إن تشرع مدفعيتنا أو يبدأ فرساننا في التقدم أو مشاتنا في السير، حتَّى ترتفع صيحات التشجيع من كل مكان. لكن الانتباه العام كان عالقًا بصورة خاصة ببعض الحوادث العارضة التي لا علاقة لها قط بسياق المعركة، حتَّى ليقال إن انتباه هؤلاء الرجال الضعفاء معنويًّا يرتكز في أحداث الحياة اليومية المألوفة. جاءت «بطارية» فمرت أمام جبهة القطعات، ولمَّا مرَّت الصناديق شوهد أحد خيول النقل وقد اشتبكت قائمته بالمجرة. «إيه! هناك، أيها الحمَّال! ... سوِّ هذا وإلا فسيتعثَّر ... إيه! ماذا بهم، إنهم ولا شك عميان!» واجتاحت صيحات التعجب تلك كل الفيلق. ومرة ثانية اجتُذبت الأنظار كلها إلى كلب صغير يميل لونه إلى الاصفرار، خرج — والله يعلم من أين — مشرع الذيل، إلا أنه لم يلبث إثر سقوط قذيفة بالقرب منه أن أطلق نباحًا متوجِّعًا، ولاذ بالفرار وهو يضمُّ ذيله، فانفجر الفيلق كله ضاحكًا. لكن تلك الأُلْهيات ما كانت تدوم إلا لحظة، في حين أنه مضى أكثر من ثماني ساعات على هؤلاء الرجال الجياع وهم في أماكنهم تحت الرعب الدائم من الموت ووجوههم الممتقعة العابسة تزداد شحوبًا وانقباضًا.

وكان الأمير آندريه، ممتقع الوجه هو الآخر مقطَّب الحاجبَيْن، يروح ويجيء في مرج مجاور لحقل الخرطال مُطرِق الرأس ويداه وراء ظهره، عاطلًا ليس لديه ما يعمله أو يصدره من أوامر. لقد كان كل شيء يعمل من تلقاء نفسه، كانوا يحملون القتلى إلى المؤخرة وينقلون الجرحى والصفوف تعود إلى التشكُّل، وأولئك الذين همُّوا بالفرار لا يلبثون حتَّى يعودوا. ولقد قدَّر في البداية أن من واجبه بعث الشجاعة في نفوس رجاله بإعطائهم مثلًا حيًّا بمروره بين صفوفهم، لكنه ما لبث أن أدرك أنه عناء باطل؛ فلقد كانت كل قواه الروحية — كما كان حال كل واحد من جنوده — لا تميل لا شعوريًّا إلا إلى تجاهل هَوْل الموقف الذي همَّ فيه جميعًا، فكان إذن يروح ويجيء في المرج، يجرُّ قدميه، فيطأ العشب ويتأمَّل الحشائش التي تغطِّي حذاءَيْه. وكان تارةً يوسِّع خطاه محاوِلًا وضع قدميه فوق الآثار التي خلَّفها الحصَّادون، وطورًا يحصي خطواته ويحسب عدد المرات التي سينتقل فيها من أخدود إلى آخر حتَّى يقطع ربع ميل أو ينتزع نبات الأرطماسية الذي ينبت على التخوم، فيسحقه بين يديه ويستنشق رائحته القوية المُرَّة. أما فكره الذي كان شديد

الفاعلية بالأمس، فقد بدا أشبه بالمتخدر. كان يصيخ إلى تلك الضوضاء المتشابهة أبدًا بأُذن مكدودة: زمجرة المقذوفات عند اندفاعها، صفيرها عند وصولها، ويلقي بين الحين والآخر نظرةً إلى وجوه الرجال التي أَلِفها منذ بعيد؛ رجال اللواء الأول، وينتظر. حدَّث نفسه وهو يسمع صفيرًا مشئومًا في منطقة الدخان: «ها هي ذي واحدة … موجَّهة إلينا أيضًا! واحد … اثنان … لا ريب أن هذه لنا …» ثم يقاطع نفسه ليُلقي نظرة على الصفوف. «كلا، لقد تجاوزتْنَا … ولكن حذارِ من التالية …» ثم يعود إلى تسياره يطاول خطاه ليبلغ التخوم في ست عشرة خطوة. وفجأةً، ارتفع صفير وصدمة! وعلى قيد خمس خطوات منه، انغرزت قذيفة في الأرض الجافَّة فنثرت التراب في كل الاتجاهات. عاد نحو جنوده من جديد. لا ريب أن إصابات كثيرة حدثت بينهم؛ إذ شاهد غوغاء في اللواء الثاني.

هتف يأمر ضابطه التابع: «امنعهم من تشكيل جماعات.»

فنفَّذ هذا الأمر واقترب من الأمير آندريه، بينما جاء من الجانب الآخر قائد اللواء على صهوة جواده. صرخ صوت مروِّع: «حاذر!»

وكالعصفور الصغير الذي يرفرف وهو يردِّد صفيره، جاءت قنبلة فحطَّت على الأرض بهدوء على بُعد خطوتين من آندريه قرب قائد اللواء تمامًا. ولقد صهل الجواد دون أن يأبه بما إذا كان من المستحسن خوفه أو الاحتفاظ به، وانتصب على خلفيتيه وقفز جانبًا، فكاد أن يسقط الماجور، ولقد انتقل الرعب من الحيوان إلى الرجال.

قال صوت الضابط التابع الذي استلقى على الأرض: «ألقِ بنفسك على الأرض!»

لكن الأمير آندريه ظل واقفًا متردِّدًا، وكانت القنبلة التي لا زال الدخان يتصاعد منها تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحدِّ بين المرج والحقل، قُرب دغل من نبات الأرطماسية.

فكَّر وهو يعانق العشب وسوق الأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرات جديدة، نظرة مفعمة بالرغبة: «أهو الموت؟ لا أستطيع الموت ولا أريد أن أموت. إنني أحب الحياة، أحب هذا العشب وهذه الأرض والهواء الذي أستنشقه …» وبينما هو يحدِّث نفسه بذلك تذكَّر أنهم ينظرون إليه، فقال للضابط التابع: «ألا تخجل يا سيدي؟ أي …»

لكنه لم يستطع أن يعقب قوله. دوَّى الانفجار مصحوبًا بصوت قريب من انصفاق الزجاج المحطَّم ورائحة بارود كريهة. أُلقي الأمير جانبًا، فرفع ذراعًا في الهواء وهوى ووجهه إلى الأرض.

هرع بعض الضباط وانسابت على العشب من جنبه الأيمن بِركة عريضة من الدم.

توقَّف المتطوعون الذين استُدعوا بنقَّالتهم وراء الضباط، وكان الأمير الممدود على بطنه ووجهه مدفون في الأعشاب يفوق فواقًا قويًّا.

– «حسنًا! ماذا تنتظرون؟ اقتربوا.»

حمل القرويون الأمير آندريه من كتفيه وساقَيْه، ولكنهم عادوا فأسجوه على الأرض بعد أن تبادلوا نظرة إثر إطلاقه أنَّات أليمة. صاح صوت: «احملوه، ضعوه على المحفَّة!»

فحملوه من كتفيه وأسجوه على النقَّالة، وهتف عددٌ كبير من الضباط مروَّعين: «آه! يا رب، يا رب! هل هذا ممكن؟ في البطن! إنها الموت ... آه! يا ربي!»

وشرح الضابط التابع قائلًا: «لقد مسَّت أذني.»

حمل القرويون المحفَّة على أكتافهم وهرعوا متعجِّلين إلى عربة الإسعاف عن طريق ممشًى فتحوه بكثرة غدواتهم ورواحهم. ولمَّا كانت مشيتهم غير المنظَّمة تهزُّ المحفَّة، فقد استوقفهم ضابط من كتفهم وقال: «سيروا بخُطى عادية إذا أردتم! عصبة الغلاظ!»

وقال الذي في المقدمة: «اقتدِ بخطوتي يا فيدور، سمعت؟!»

فأجاب الذي في المؤخرة بدَعَة وهو يبدل خطوته: «هه، ها أنا ذا قد اقتديت.»

وقال تيموخين بصوت متهدِّج وهو يجري صوب المحفَّة: «يا صاحب السعادة! هي! يا أمير!»

فتح الأمير آندريه عينيه، ومن فوق المحفة، حيث كان رأسه يتأرجح، ألقى نظرة على المتكلِّم، ثم أغمض عينيه.

نقل المتطوِّعون الأمير آندريه إلى الغابة التي انتشرت فيها عربات النقل والمستشفى، وكان هذا مؤلَّفًا من ثلاث خيام منصوبة مفتوحة قليلًا على تخوم غابة من السندر، أما العربات والجياد فكانت في الغابة، وكانت الحيوانات تأكل علفها في أكياسها، والعصافير ترفرف حولها لتلتقط الحبوب الضائعة، والغربان التي شمَّت رائحة الدم تنعب بنفاد صبر. وحول الخيام على مساحة هكتارين ونصف من الأرض، جلس أو استلقى أو وقف رجال يغطيهم الدم في أزياء متباينة مختلفة، وبالقرب منهم وقفت جماعة من حاملي المحفَّات بوجوههم الكئيبة المتطلِّعة، كان ضباط النظام يبذلون ما في وسعهم لإبعادهم، فكان أولئك الجنود يصمِّمون على البقاء هناك متكئين على محفَّاتهم شاخصين بأبصارهم إلى المشهد الذي يدور تحت أنظارهم وكأنهم يحاولون جاهدين إدراك مدلوله الأليم. ومن الخيام كانت صيحاتٌ وحشية تتناوب مع أنَّات أليمة شاكية تتصاعد من هناك، ومن حين

إلى آخر يرى عدد من المرضين يخرجون راكضين ليحملوا الماء وليشيروا أثناء ذلك إلى الذين أزِف دورهم في الدخول. وعند المدخل كان الجرحى يُحشرجون ويصرخون ويبكون ويشتمون ويطلبون جرعات من العرق، وكان بعضهم في النَّزع. ولقد حمل الأمير آندريه بوصفه قائد فيلق بين صفوف من الجرحى الذين لم تضمَّد جراحهم بعد أن كانوا قرب إحدى الخيام، وهناك توقَّف حاملوه بانتظار الأوامر. فتح عينيه وظل فترة طويلة لا يدري ماذا وقع له. المرج، الأرطماسية، حقل الخرطال، الكتلة السوداء الدائرة، حبه العنيف المفاجئ للحياة؛ كل هذه الأشياء عادت فجأةً إلى ذاكرته. وعلى قيد خطوتين منه وقف صف ضابط جميل عملاق أسود الشعر مرتفع الصوت، مستندًا إلى لوح من الخشب. كان مصابًا برصاصات في رأسه وساقَيْه، وقد لُفَّ بالضمادات، وكان الجرحى وحملة المحفَّات يصغون إليه وهو يحاضر فيهم.

كان الضابط يصيح وعيناه الملتهبتان تُلقيان حوله نظرات متباهية: «عندما أجليناهم من هناك انسحبوا دون أية مقاومة بالطبع حتَّى ولو أننا أمسكنا بملكهم نفسه لما فعلوا. ولو أن فِرَق الاحتياطي أطبقت في اللحظة المناسبة، إذن يا فتياني، لما ظلَّ أحد منهم حيًّا. صدِّقوا ما أقول لكم.»

وككل أفراد الدائرة، راح الأمير آندريه يتأمَّل المتحدث وفي عينيه بريق وهو يشعر بالعزاء. قال لنفسه: «بعد كل شيء، ماذا يهمني ما سيحدث هناك وما حدث هنا؟ ومن أين لي كل هذا العناء في مغادرة هذه الحياة؟ هل في هذه الحياة شيء ما لم أفهمه؛ شيء لا زلت غير فاهم له؟»

الفصل السابع والثلاثون

لقاء الغريمَيْن

خرج واحد من الأطباء من الخيمة وهو ممسك بتصرف — بين الإبهام والخنصر — بسيجار كان يخشى أن يوسِّخه؛ لأن يديه الصغيرتين كانتا كمئزره متسختين بالدم. رفع رأسه وترك نظرته تتيه بين الجرحى. لا ريب أنه كان يريد استنشاق الهواء قليلًا، وبعد أن استدار يمينًا ويسارًا، أطلق زفرة وعاد ببصره إلى الأرض.

أجاب ممرِّض دلَّه على الأمير آندريه: «نعم، فورًا.»

وأصدر أمره بإدخاله، فارتفعت غمغمة بين الجرحى الذين كانوا ينتظرون. قال أحدهم: «يبدو أنه في العالم الآخر! كذلك لا توجد أمكنة إلا «للسادة» كذلك.»

مدَّدوا الأمير آندريه على مائدة كانت شاغرة وقد فرغ ممرِّض لتوِّه من تنظيفها، فلم يستطِع آندريه أن يميز بوضوح ما كان موجودًا داخل الخيمة؛ لأن الصيحات المعولة التي كانت ترتفع من كل مكان، والألم المحرق الذي كان يشعر به في جنبه وبطنه وظهره؛ تشغله تمامًا. ولقد اختلط المشهد الذي عرض لعينيه في شعور أوحد باللحم البشري العاري الدامي الذي يبدو كأنه يملأ تلك الخيمة المنخفضة، كما كان ذلك اللحم نفسه منذ أسابيع خلت يملأ البركة الموحلة في ذلك النهار القائظ من شهر آب على طريق سمولنسك. نعم، كان ذلك اللحم نفسه لحم المدفع، الذي أثارت رؤيته في نفسه الاشمئزاز وكأنه يرى سلفًا هذا اليوم.

تركوه وحيدًا بضع لحظات، فاستطاع برغمه أن يرى ماذا يدور على الطاولتين الأخريين. جلس على الطاولة الأقرب إليه تَتَريٌّ، لا ريب أنه قوقازي إذا حكمنا على البزَّة الملقاة بجانبه. وكان أربعة من الجنود يحاولون تثبيته في مكانه، بينما راح طبيب يُعمِل مبضعه في ظهره الأسمر العاضل.

غمغم التتري فجأةً: «أوه! أوه! أوه!»

ورفع وجهه القلزي ذا الأنف الأفطس والخدَّين البارزين وصرف بأسنانه البيضاء، وراح يتخبَّط ويُطلق صرخات طويلة.

وعلى الطاولة الثانية التي كان يحيط بها جمعٌ من الأشخاص، أُسجي رجل على ظهره، قوي طويل القامة مائل الرأس إلى الوراء، لكن مظهره العام، حتَّى لون شعره العكف، لم يكن مجهولًا من الأمير آندريه. وكان عدد من الممرضين يميلون بكل ثقلهم على صدر ذلك الرجل ويمسكون به، وكانت إحدى ساقَيْه بيضاء وسمينة تضطرب دون توقف بانتفاضات محمومة، والرجل يُطلِق شهقات تشنُّجية ويكاد يختنق، بينما انحنى على الساق الأخرى المصبوغة كلها بالدم طبيبان صامتان، أحدهما ممتقع الوجه مرتعد.

في تلك الأثناء، كانوا يغطُّون التتريَّ بمعطفه، فراح الطبيب ذو النظارتين يقترب من الأمير آندريه وهو يمسح يديه بعد أن فرغ من عمله. تفحَّصه بنظرة ثم التفت فجأةً وصاح بصوت ساخط يخاطب الممرِّضين: «اخلعوا ثيابه! ماذا تنتظرون؟»

وعندما شرع أحد هؤلاء يحلُّ أزرار آندريه وينزع عنه ثيابه بعجلة وقد شمَّر عن ساعديه، تذكَّر هذا أيام طفولته الأولى البعيدة. انحنى الماجور على الجرح فلمسه، وبعث زفرة عميقة ثم أشار إلى أحدهم. ولقد أفقد الألم الفظيع الذي شعر به آندريه في بطنه؛ أفقده الرشد، فلمَّا عاد إلى وعيه كانت شظايا عظم الفخذ المحطَّمة قد انتُزعت وقِطَع من اللحم قد قُطعت والجراح قد ضمِّدت. وضمَّخوا له وجهه، فلمَّا فتح عينيه انحنى الطبيب فوقه وقبَّله في شفتيه دون أن ينطق بكلمة، وابتعد مسرعًا.

شعر آندريه، بعد كل تلك الآلام، براحة لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل. ولقد خطرت بباله أفضل لحظات حياته، وبصورة خاصة طفولته الأولى، عندما كانوا يخلعون ثيابه ويسجونه في سريره الصغير، وتشرع مربيته في هدهدته بالأغنيات، فيغيب رأسه في الوسادة ويشعر بسعادة الإحساس بالحياة، هذه اللحظات خطرت بباله، ليس بوضعها من حنايا الماضي، بل كحقيقة واقعة.

كان الأطباء لا زالوا يحيطون بذلك الجريح الذي لم يكن مظهره غريبًا عن بولكونسكي. كانوا يرفعونه ويحاولون تهدئته.

كان يزمجر بصوت يقطعه الشهيق وكأن الآلام قد هدَّته: «أرونِيها ... أوه! أوه! أوه!»

ولقد خُيِّل إلى آندريه وهو يصغي إلى ذلك الأنين أنه على استعداد للبكاء أيضًا، فهل ترى السبب أنه يموت هكذا دون مجد؟ أم لأنه يأسف على الحياة؟ أم لأن ذكريات الطفولة تلك ترقِّق قلبه؟ هل السبب أنه يتألَّم وأن الآخرين يتألمون وأن ذلك التعس يئنُّ

بهذا الشكل الأليم؟ على أيَّة حال، كان يشعر بحنين إلى أن يذرف دموعًا سخية، دموع الطفولة، بل دموع الفرح تقريبًا.

عرضوا على أنظار الجريح ساقه المبتورة التي تجمَّد الدم عليها في الحذاء الذي ما زال يكسوها، فأجهش كامرأة: «أوه! أوه! أوه!»

ابتعد الطبيب فكشف بذلك عن وجه الجريح، فحدَّث الأمير آندريه نفسه: «أوه! ربَّاه! ماذا حدث؟ ماذا يعمل هنا؟»

ذلك أنه تعرَّف في شخص ذلك التاعس المنشج المنهوك الذي فرغوا للتوِّ من بتر ساقه على آناتول كوراجين. أسندوا آناتول وقدَّموا له قدح ماء. ما كان يستطيع الإطباق على حافته بشفتيه المتورِّمتين المرتعشتين، وكان ينتحب بشكل يمزِّق نياط القلوب. حدَّث الأمير آندريه نفسه دون أن يستوعب تمامًا ما يدور أمام عينيه: «نعم، هذا هو. نعم، إن هذا الرجل المتصل بي بشكل حميم أليم. ولكن ما هي الروابط التي تربط هذا الرجل بطفولتي؟» راح يتساءل ويسعى عبثًا لإيجاد الجواب. وفجأةً برز من ذلك العالم الطفولي المليء بالطُّهر والحب وجهٌ جديد انبعث في ذاكرته. عاد يرى ناتاشا كما بدت له للمرة الأولى في حفلة عام ١٨١٠ الراقصة، بعنقها وذراعَيْها النحيلتين ووجهها الفزع السعيد المتقبِّل للحماس، فانبعث حبه لها وحنانه بأعنف مما عرف وأقوى مما أحسَّ من قبل، واستيقظا في أعماقه، وحينئذٍ تذكر الرباط الذي يجمعه بهذا الرجل الذي يوجِّه إليه نظرته المحجوبة بالدموع. تذكَّر كل شيء، فملأ قلبه السعيد عطفٌ عميق وحبٌّ كَلِف.

لم يستطِع أن يتجلَّد أكثر مما فعل، فذرف دموع تحنان على الرجال وعلى نفسه، على غواياتهم وغواياته.

«نعم، الشفقة، الحب نحو إخواننا، نحو أولئك الذين يحبوننا، والحب نحو أولئك الذين يكرهوننا، حب أعدائنا، نعم، هذا الحب الذي جاء الله يبشِّر به على الأرض والذي سعت الأميرة ماري أن تلقِّنني إياه، والذي لم أكن أفهمه. هذا الحب هو الذي يجعلني آسَف للحياة. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان سيبقى لي لو قُدِّر لي أن أعيش. أما الآن، فقد فات الوقت وللأسف!»

الفصل الثامن والثلاثون

آراء نابليون

أحدثَ مظهرُ ساحة المعركة الرهيب المغطَّى بالجثث والمائِتِين، والتثاقل الذي أحسَّه في رأسه، ونبأُ قتل حوالي عشرين من جنرالاته أو جعلهم خارج المعركة، والاعتراف الذي توجَّب عليه الإسرار به لنفسه بعجز ذراعه التي كانت حتَّى اليوم لا تُقهر؛ كل هذه الأمور أحدثت في نابليون تأثيرًا غير منتظر. كان من عادته حب رؤية القتلى والجرحى، وهو المشهد الذي يزيد في قوة روحه كما كان يعتقد، لكن ذلك المشهد هزمَ ذلك اليومَ قوةَ الروح العتيدة هذه التي كان يبني عليها عظمته وأهليَّته. عاد مسرعًا إلى حصن شيفاردينو ولونه أصفر ووجهه منتفخ وعيناه كَدِرتان وأنفه أحمر وصوته صدئ، وظل جالسًا على مقعده مُطرِقًا بنظره مصغيًا رغم إرادته إلى ضجيج المعركة. كان ينتظر بصبر محموم نهاية تلك المسألة التي يظن أنه ساهم فيها، والتي ليس له سلطان على إيقافها. استولى عليه لبضع لحظات شعور إنساني شخصي تغلَّب على ذلك السراب الذي ضحَّى من أجله بتضحيات جمَّة، وعزا إلى نفسه الآلام ورؤية الأموات التي ظهرت له على ساحة المعركة، فذكَّره رأسه المثقل ورئتاه المتعبتان أنه كالآخرين يمكن أن يتألم وأن يموت. وفي تلك الدقيقة ما عاد يرغب في موسكو ولا في المجد والنصر. أية حاجة به إلى المجد؟! إنَّ كل ما يتمناه الآن إنْ هو إلا الراحة والهدوء والحرية. مع ذلك، فإنه عندما وقف على مرتفع سيميونوفسكوي، عرض عليه قائد المدفعية إقامة بضع «بطاريات» هناك؛ لدعم النار المسلَّطة على القوات الروسية المركَّزة أمام كنياز كوفو، فوافق نابليون وأمر أن يحاط علمًا بالنتائج الحاصلة. وعلى ذلك فقد جاء مساعد عسكري يعلن أنه تنفيذًا لأوامره فقد سدَّد مائتان من المدافع على الروسيين، ولكن هؤلاء لا زالوا صامدين.

قال المساعد العسكري: «لقد حصدت نارُنا صفوفًا كاملة، مع ذلك فهم ما زالوا صامدين.»

فقال نابليون بصوته الأجش: «إنهم يريدون زيادة!»

سأله الضابط الذي لم يسمع الجملة تمامًا: «يا صاحب الجلالة!»

فكرَّر نابليون بصوته الأبح نفسه: «إنهم يريدون زيادة.»

وأمر وهو يقطِّب حاجبَيْه: «أعطوهم ما يطلبون.»

لقد كان ما لم يرِده يتحقق دون أمره؛ لذلك فإنه لم يكن يتخذ من تدابير إلا لأنهم — على ما كان يظهر — ينتظرون منه أن يتخذها. ومن جديد استغرق في سراب العظمة، وكمثل الحصان الذي يحرِّك عجلة دافعة وهو يظن أنه إنما يقوم بعمل مفيد له شخصيًّا، كذلك هو، عاد يقوم بوداعة بالدور القاسي الأليم الشاق، الدور غير الإنساني الذي نُذر له.

لم تكن تلك الساعة وحدها من ذلك اليوم مجال اكفهرار ذهن ذلك الرجل المسئول أكثر من أيٍّ سواه عن الأحداث التي وقعت في ذلك العصر وضميره، إنه لم يتوصل حتَّى نهاية عزِّه إلى تفهُّم الخير والجمال والحق، فكانت أعماله معارِضة تمامًا للخير والحق، بعيدة جدًّا عن كل إحساس إنساني لدرجة لم يكن ممكنًا معها أن يدرك مداها. وما كان يستطيع أن يتنكَّر لمآثر تحمَّس لها نصف العالم، فكان عليه بالتالي أن يتنكَّر للحق والخير ولكل شعور إنساني.

لم يكن ذلك اليوم وحده، الذي بعد أن طاف فيه بساحة المعركة المفروشة بالجنود الميتين أو المشوَّهين — وفقًا لإرادته كما كان يظن — راح يحسب فيه — تخمينًا — عدد الروسيين بالنسبة إلى الفرنسيين؛ ليخدع نفسه وليجد أسبابًا لابتهاجه بزعم أن النسبة خمسة إلى واحد، ولم يكن ذلك اليوم الذي قال فيه كما كتب إلى باريز: «إنَّ ساحة المعركة رائعة»؛ لأنه كان ممدَّدًا عليها خمسون ألف جثة، بل إنه في سانت هيلين أيضًا في سكون الوحدة، حيث أراد أن يكرِّس أوقات فراغه لعرض الأمور الكبيرة التي جاء بها، كتب ما يلي:

> كانت الحرب الروسية أكثر الحروب قربًا إلى الأذهان الشعبية في العصر الحاضر؛ لقد كانت الحرب التي أمْلَتها المصالح الحقيقية والفكر، حرب راحة الجميع وأمنهم؛ لأنها سلمية ومحافِظة إلى أقصى حد.
>
> كانت الحرب الروسية في سبيل الغاية الكبرى وإنهاء الحوادث العرَضية وبدء الأمان. كان أفق جديد وأمور جليلة جديدة ستظهر مليئة كلها بالهناء وراحة الجميع؛ إذ كان النظام الأوروبي قد أقيم فلم يبقَ إلا تنظيمه.
>
> وكنت، بعد أن أطمئنَّ إلى هذه النقاط الجليلة وأستقر في كل مكان، سأشكِّل كذلك مجلسًا استشاريًّا حلفًا مقدَّسًا Sainte-Alliance[1] لي، إن هذه الأفكار

سرقوها مني؛ ففي اجتماع الملوك الكبار ذاك كنا سنتحدَّث عن مصالحنا كأسرة، وسنعالج شئون الشعوب كما تعالَج بين المستخدم وربِّ العمل.

بذلك كانت أوروبا لن تلبث حتَّى تصبح شعبًا واحدًا حقًّا، فيجد كل واحد نفسه وهو في سفره في كل مكان، إنه لا زال في وطنه المشترك. كنت سأجعل الأنهار القابلة للملاحة في خدمة الجميع، وسأقيم وحدة البحار، وسأقضي بأن تقتصر الجيوش الدائمة على حرس الملوك فحسب.

وكنت، فور عودتي إلى فرنسا، قلب الوطن العظيم القوي الرائع الهادئ المجيد، سأذيع حدوده الثابتة، وسأعلن أن كل حرب مقبلة ستكون دفاعية، وكل توسُّع جديد مضادًّا لمصالح الأمة، وكنت سأشرك ولدي في الملك، فتنتهي ديكتاتوريتي ويبدأ حكمه الدستوري ...

وكانت باريز ستكون عاصمة العالم، والفرنسيون قبلة أنظار الأمم! ...

وحينئذٍ، كنت سأكرِّس أوقات فراغي وأيام شيخوختي للطواف مع الإمبراطورة خلال فترة تمرين ابني على شئون الملك، بنواحي المملكة كزوجَيْن ريفيين حقيقيين على جيادي الخاصة؛ لتلقِّي الشكاوي وإصلاح الأخطاء وإقامة النصب والأعمال الصالحة في كل مكان.

لقد كان يحاول إقناع نفسه، وهو الذي نذرته القدرة الإلهية لدور جلَّاد الأمم الأليم العبودي، إن هدفه كان خير الشعوب، وإنه يستطيع ترأُّس مصير الملايين من المخلوقات وبناء سعادتهم باستبداد!

كتب في مكان آخر حول حملة روسيا يقول:

من الأربعمائة ألف رجل الذين اجتازوا الفيستول، كان نصفهم بين نمساوي وبروسي وسكسوني وبولوني وبافاري وَورتمبرجي وميكلمبرجي وإسباني وإيطالي ونابولي. وكان ثلث الجيش الإمبراطوري نفسه مؤلَّفًا من هولنديين

[1] الحلف المقدَّس Sainte-Alliance: حلف نُظِّم عام ١٨١٥م بمساعي المستشار النمساوي ميترنيخ بين روسيا والنمسا وبروسيا؛ بغية ضمان معاهدات عام ١٨١٥م ضد المحاولات التحرُّرية والقومية من جانب دول إيطاليا وألمانيا الصغيرة التي قمعتها الدول الكبرى. ولقد قصد نابليون في ذكر هذا الحلف أنه سيشكل حلفًا مماثلًا يضم كل الممالك الأوروبية للإبقاء على الوضع الراهن في أوروبا.

> وبلجيكيين وجنويين وتسكانيين ورومانيين، ومن سكان المنطقة الثانية والثلاثين العسكرية: بريم وهامبورج و... إلخ ... فلم يكن فيه إلا حوالي مائة وأربعين ألفًا من المتكلمين بالفرنسية. ولقد كلفت حملة روسيا فرنسا الحالية أقل من خمسين ألف رجل، ولقد أضاع الجيش الروسي في تقهقره من فيلنا إلى موسكو وفي مختلف المعارك أربعة أضعاف ما خسره الجيش الفرنسي، وخسروا في حريق موسكو حياة مائة ألف رجل ماتوا من البرد والجوع في الغابات، كما أصيب الجيش الروسي أثناء سيره من موسكو إلى الأودر بآفة الفلك، فلم يصلح إلى فيلنا إلا بخمسين ألف رجل لم يبقَ منهم عند كاليسش إلا أقل من ثمانية عشر ألفًا.

كان يتصور إذن أنَّ تلك الحرب لم تنشب إلا بإرادته، مع ذلك، فإن الهول الذي حصل بنتيجة الأمر الواقع لم ينَل منه، وكان يتحمَّل المسئولية الكاملة للأحداث في حين يرى عقله المغشَّى تبريرًا في واقع أن الفرنسيين كانوا في عداد مئات الألوف من الضحايا، أقل عددًا بكثير من الهيسيين أو البافاريين.

الفصل التاسع والثلاثون

نتائج المعركة

كذلك، فإن بضع عشرات الآلاف من الرجال في أزياء مختلفة كانوا مبعثرين قتلى في تلك الحقول والمروج التابعة للسادة دافيدوف أو لفلَّاحي التاج، والتي ظلَّ سكان بورودينو وجوكي وشيفاردينو وسيميونوفسكوي قرونًا كاملة يحرثونها ويرعون مواشيهم فيها. وفي المستشفيات على مساحة أكثر من هكتار، كانت أعشاب الأرض مبلَّلة بالدماء، وكانت جماعات من الجنود الجرحى أو الأصحَّاء يكرُّون راجعين مروَّعين، بعضهم إلى موجائيسك والبعض الآخر إلى فالوييفو، في حين استسلمت جماعات أخرى رغم النهك الذي نالها والجوع، إلى أوامر الرؤساء، فاندفعت إلى الأمام. وأخيرًا، لبثت جموع منهم صامدة في مكانها مستمرة في إطلاق النار.

وعلى امتداد ساحة المعركة الذي كان رائع الجمال والبهجة حتَّى ساعات خلت قبل بريق الحراب والدواخن في شمس الصباح، انتشر الآن ضباب رطب، وحلَّقت رائحة حادَّة غريبة من ملح البارود والدم. واجتمعت سحب وراح مطر دقيق يقطر على القتلى والجرحى والجنود المنهوكين، وعلى أولئك الذين يفقدون الإيمان في عزيمتهم وكأنه يهتف بهم قائلًا: «كفى، كفى أيها التعساء، كفُّوا، عودوا إلى صوابكم ... ماذا تعملون؟»

وشرع جنود هذا الجيش وذاك وقد ناءوا بالتعب والخور، يتساءلون عما إذا كان عليهم الاستمرار في تقتيل بعضهم البعض، فكان التردد يُقرأ واضحًا على وجوههم، بل إن كثيرًا منهم راحوا يطرحون على أنفسهم السؤال: «لماذا؟ لمن يجب أن أُقتل أو أن أَقتل؟ اقتلوا من شئتم واعملوا ما شئتم، أما أنا، فقد كفاني!» وحوالي المساء نبتت هذه الفكرة نفسها في كل النفوس، فكان يمكن في كل لحظة أن يستولي الهول على هؤلاء الناس؛ الهَوْل ممَّا يفعلون، فيتركون كل شيء ويلوذون بالفرار تائهين.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن كل المقاتلين شعروا عند انتهاء المعركة بخزي سلوكهم وأحسُّوا بالسرور لتوقُّفهم، فإن قوة غير مفهومة وغامضة ظلَّت تحرِّكهم. ظل المدفعيون السابحون بالعرق الملطَّخ بالدم المسودون بالغبار يحملون — وهم يتعثرون خائري القوى — ذخائر المدافع؛ فيحشونها ويسدِّدونها ويشلون الفتيل بمثل تلك السرعة وتلك القسوة رغم هبوط عددهم بنسبة واحد إلى ثلاثة، فيستمر ذلك العمل المريع على الوقوع، ذلك العمل الذي لا يقوم تبعًا لرغبة الإنسان، بل لإرادة ذلك الذي يدير الإنسان والعوالم.

ولو شاهد أيٌّ كان مؤخرة الجيش الروسي وما هي عليه من فوضى، لقال إن مجهودًا صغيرًا من الفرنسيين قادر على إفناء هذا الجيش، ولو شاهد أيٌّ كان مؤخرة الجيش الفرنسي لاعتقد أن مجهودًا ضعيفًا من جانب الروسيين يكفي للقضاء عليه، ولكن الفرنسيين لا الروسيين ما كانوا يبذلون ذلك المجهود، فراح أوار المعركة يخبو تدريجيًّا.

كان الروسيون ممتنعين؛ لأنهم لم يكونوا هم المهاجمين. لقد اقتصروا في البداية على قطع الطريق إلى موسكو، فظلُّوا يحتلون موقعهم حتَّى النهاية. مع ذلك، فإنهم كانوا عاجزين عن إبداء ذلك المجهود الأخير حتَّى ولو كانت غايتهم هزم الفرنسيين؛ وذلك لأن الفيالق كلها كانت في حالة من الفوضى، ولأنهم اكتووا جميعهم بنار المعركة وأضاعوا — دون أن يبارحوا مراكزهم — نصف عددهم.

أما الفرنسيون الذين تدعمهم ذكرى خمس عشرة سنة من النصر، وإيمانهم بعدم إمكان قهر نابليون، وثقتهم بأنهم سادة جانب من ساحة المعركة، وبأنهم لم يخسروا إلا ربع رجالهم، وأن العشرين ألف رجل الذين يشكِّلون فِرق الحرس لا زالوا سالمين، فإنهم كانوا يستطيعون بذل ذلك المجهود، بل إن واجبهم كان يُحتِّم عليهم بذله؛ لأنهم هاجموا الجيش الروسي بقصد إقصائه عن مواقعه؛ لأنه طالما ظل في أمكنته يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، فإن هدفهم لمَّا يبلغ بعد، وكل خسائرهم تصبح دون جدوى. مع ذلك، فإنهم لم يبذلوا ذلك المجهود. يؤكد بعض المؤرخين أن نابليون لو أمر بإنزال الحرس القديم لربحت المعركة. إن مثل هذا الافتراض يشبه البحث فيما كان سيحصل لو أن الخريف أصبح ربيعًا فجأةً، وإذا لم يُنزِل نابليون حرسه إلى الميدان فليس مردَّ ذلك عزوفُه عن إنزاله، بل استحالة إشراكه في المعركة؛ لأن الجنرالات والضباط والجنود كانوا يعرفون أنَّ معنويات الجيش لا تسمح بمثل هذا العمل.

لم يكن نابليون وحده الذي لمس برؤية أن ذراعه الرهيبة تسقط الآن عاجزة، بل إن الجنرالات الفرنسيين كلهم — المقاتلين وغير المقاتلين — بعد خبرة المعارك السابقة

التي كان العدو خلالها يتراجع أمام هجمات أقل عنفًا من هذه بعشرات المرات؛ أحسُّوا بذعر جماعي إزاء عدو ظلَّ يهددهم بقوة لم تتبدل في نهاية المعركة عن بدايتها، رغم أنه خسر نصف قواته. لقد هبطت معنويات الجيش المهاجم إزاء ذلك. إن الروسيين لم يربحوا في بورودينو أحد تلك الانتصارات التي تقاس بالأرض المكتسحة أو بتلك الخِرَق من الأقمشة التي تعلَّق على عصي، والتي يسمونها الأعلام، بل حصلوا على نجاح من ذلك النوع الذي يقنع الخصم بالتفوق المعنوي الذي يقاتل به وبعدم جدوى مجهوداته نفسها، ولقد بات الغازي يشعر أنه ماضٍ إلى حتفه أشبه بالوحش الغاضب الذي أصيب أثناء فراره بالإصابة القاتلة، ولكن دون أن يستطيع التوقف، تمامًا كما بات الجيش الروسي رغم ضعفه ونسبته واحد إلى اثنين مع جيش العدو، لا يستطيع أن يستسلم. لقد كان الفرنسيون قادرين بفعل السرعة المكتسبة على بلوغ موسكو، لكنهم هناك، دون أن يقوم الروسيون بتضحيات جديدة، كانوا سينفقون بتأثير الإصابة القاتلة التي أصيبوا بها في بورودينو. ولقد كان لهذه المعركة من نتائج مباشرة أن هجر نابليون موسكو فجأةً وتقهقر عن طريق سمولنسك القديم، وأضاع جيشًا قوامه خمسمائة ألف رجل، وهدم فرنسا النابليونية التي هبطت عليها لأول مرة في بورودينو ذراع خصم موهوب بقوة معنوية متفوِّقة.

الجزء الثالث



باركلي دوتوللي.

الفصل الأول

في قوانين التاريخ

إن الدوام المطلَق للحركة أمرٌ غامض على العقل البشري، والإنسان لا يدرك قوانين أية حركة ما إلا إذا عاين وحدات مقطَّعة بتحكُّم، ولكن من ذلك التقسيم التحكُّمي للحركة الدائمة يخلق مع ذلك الجزء الأكبر من الأخطاء الإنسانية.

إن كل إنسان يعرف مذهب السفسطة (انعدام الحركة) عند الأقدمين، الذي بموجبه لا يمكن «لآشيل» أن يلحق بالسلحفاة التي تسير أمامه، رغم أن اندفاعه يزيد عشرة أضعاف عن اندفاعها؛ لأن آشيل عندما يفرغ من اجتياز المسافة التي تفصله عن السلحفاة، تكون هذه قد اجتازت عُشر هذه المسافة في سبقها له. وبينما آشيل يتجاوز هذا العُشر تكون هي قد تجاوزته بواحد على مائة، وهكذا حتَّى اللانهاية. لقد كانت هذه المسألة تبدو في القديم متعذِّرة الحل. إن استحالة النتيجة (آشيل لن يلحق قط بالسلحفاة) ناجمة فقط عن واقع أنهم يأخذون تحكُّمًا وحدات متقطعة للحركة في أن حركة آشيل دائمة كحركة السلحفاة تمامًا.

فلو أخذنا وحدات للحركة صغيرة أكثر فأكثر، فإننا نصل فقط إلى الاقتراب من الحل، لكننا لا نبلغه قط. إننا لا نبلغ حل المسألة إلا إذا تقبَّلنا عددًا لا نهائيَّ الصفرِ ونموه التصاعدي حتَّى العشرة، ثم أن نحصي مجموع هذا التصاعد الهندسي. إن فرع الرياضيات الجديد الذي اكتشف فنَّ الحساب في الكمية الصغرى يعطينا اليوم أجوبة على مسائل اعتُبرت ممتنعة الحل حتَّى في المسائل الأكثر تعقيدًا في علم الحركة.

إن هذا الفرع الجديد في الرياضيات — المجهول عند الأقدمين — بإدخاله المتناهيات في الصفر في دراسة علم الحركة، أعاد الشرط الأساسي للحركة، وأعني دوامها المطلق، وقوَّم بذلك الخطأ الذي لا بدَّ منه، الذي يقول إن الذكاء لا يمكنه ألَّا يخطئ عندما يستبدل حركة دائمة بوحدات متقطعة من الحركة.

ففي البحث عن قوانين التاريخ، لا يختلف الحال في شيء.

إن سير الإنسانية المحدود بسلسلة لا تُحصى من الإرادات الشخصية عبارة عن حركة دائمة، ومعرفة قوانينه هي غاية التاريخ. ولكن لإقامة قوانين هذه الحركة الدائمة، مجموعة كل الإرادات البشرية، يتقبَّل العقل تحكُّمًا وحدات متقطعة. وأسلوب التاريخ الأول هو الانتخاب تحكمًا، سلسلة من الأحداث الدائمة وفحصها مستقلة عن السلاسل الأخرى، في حين أنه لم يكن ولا يمكن أن يكون لأي حدث بداية، بل إن واقعة معيَّنة تنشأ عن واقعة أخرى دون انقطاع. والأسلوب الثاني قائم على فحص أفعال رجل واحد — قيصر أو رئيس جيش — بوصفه مجموع إرادات الجميع، في حين أن ذلك المجموع لا يعبِّر عن نفسه قط بنشاط وشخصية تاريخية لوحدها.

إن علم التاريخ في تطوره يُخضِع لدراسته وحدات صغيرة أكثر فأكثر، وبهذه الوسيلة يحاول أن يقترب من الحقيقة، ولكن مهما بلغت هذه الوحدات من الصغر، فإننا نشعر بأنَّ تقبُّل وحدات مستقلة بعضها عن بعض إنْ هو إلا تقبُّل «بداية» لظاهرة ما، تقبُّل أنَّ إرادات الجميع تجد لها معبِّرًا في أفعال شخصية تاريخية واحدة، الأمر الذي نؤكد نحن أنه باطل في نفسه.

إن كل استنتاج تاريخي دون أي مجهود من الناقد يتحلَّل من تلقاء نفسه دون أن يخلِّف شيئًا وراءه لمجرد أن ذلك الناقد ينتقي كموضوع لدراسته وحدة مستقلة كبيرة أو صغيرة، وله الحق دائمًا في أن ينهار؛ نظرًا إلى أن هذه الوحدة التاريخية المنتقاة تحكُّمية أبدًا.

إننا لا نستطيع أن نطمع في بلوغ قوانين التاريخ إلا إذا عرضنا لفحصنا وحدة بالغة الصغَر، تفاضلية التاريخ؛ أي التيارات الإنسانية المتجانسة، وتحكَّمنا في فن دمجها؛ أي في إحصاء مجموع الوحدات الصغرى.

إن السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر تعطي مشهدًا خارقًا لحركة ملايين من الرجال تركوا مشاغلهم المألوفة واندفعوا من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ينهبون ويقتتلون منتصرين أو يائسين. إن سير الحياة كله يتبدَّل في بضع سنوات تحمله حركة متجبِّرة تبدأ في النشاط ثم تبطئ. فما هو سبب هذه الحركة؟ أو على الأقل ما هي قوانينها؟ هذا ما يتساءله العقل البشري.

يجيب المؤرخون على هذا السؤال عارضين علينا وقائع وحركات بضع عشرات من الرجال في واحد من أبنية باريز، مُطلِقين على هذه الوقائع والحركات اسم «الثورة»،

ثم يعطون ترجمةً مفصَّلة عن حياة نابليون وبعض الأشخاص من أتباعه وخصومه، ويروون أثر بعضٍ من هؤلاء الأشخاص، ويضيفون قائلين: هذا هو منشأ الحركة، وهذه هي قوانينها.

لكن العقل البشري لا يرفض فقط الاقتناع بهذا التفسير، بل يعلن كذلك بكل صراحة أن الأسلوب في التفسير خاطئ؛ لأن الظاهرة الأضعف معتبرة فيه السبب الأقوى. إن مجموع الإرادات البشرية الذي هو خَلَق الثورة ونابليون، وهو الذي أفناهما بعد أن احتملهما وقتًا طويلًا.

ويقول التاريخ: «مع ذلك، فإنه كلما كانت هناك فتوحات كان هناك فاتحون، وكلما وقعت انقلابات في دولة جاء معها رجال عظام.» فيجيب العقل البشري: صحيح أنه كلما ظهر فاتحون وقعت حروب، لكن هذا لا يبرهن على أن الفاتحين هم أسباب الحروب، ولا على أنه يمكن اكتشاف قوانين حرب ما في النشاط الشخصي لشخص واحد. إنني كلما أنظر إلى ساعتي أرى العقرب على الرقم ١٠، فأسمع الأجراس تُقرع من الكنيسة المجاورة، ولكن من هذه الواقعة، واقعة أنه كلما بلغت الساعة العاشرة بدأت الأجراس تُقرع، ليس من حقي أن أستنتج أن وضعية العقرب هي سبب قرع الأجراس.

إنني كلما أرى قاطرة تتحرك وأسمع صفيرها وأرى الصمام يُفتح والعجلات تدور لا يحق لي أن أقرِّر أن الصفَّارة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة.

يقول القرويون إن ريحًا باردة تبدأ في الهبوب حوالي نهاية الربيع؛ لأن براعم شجر البلوط تتفتَّح. وفي الواقع إن ريحًا باردة تهبُّ كل ربيع عندما تتفتح براعم البلوط. ولكن مهما كان سبب هبوب هذه الريح في تلك الفينة مجهولًا مني، فإنني لا أستطيع أن أقول مع القرويين إن هذا السبب هو تفتُّح البراعم؛ لأن قوة هذه الريح لا تتأثر بتلك البراعم. إنني لا أرى إلا توافق الشروط التي تلتقي في كل ظاهرة من ظواهر الحياة، وأرى أنني مهما استغرقت في مراقبة عقارب ساعتي بكل دقة، وصمام القاطرة وعجلاتها، وكذلك براعم شجرة البلوط، فإنني لن أكتشف قط سبب قرع الأجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية، ولكي أصِل إلى معرفة السبب يجب أن أبدِّل كليًّا نقطة ملاحظتِي، فأدرس قوانين الحركة والبخار والجرس والريح، وهذه هي عينها المهمة التي تتوجَّب على التاريخ، ولقد حاول التاريخ الاضطلاع بها.

لكي نجد قوانين التاريخ يجب علينا أن نبدِّل تمامًا عرض فحصنا، وأن نترك جانبًا الملوك والوزراء والجنرالات لندقق في الحركات المتجانسة المتناهية في الصغر التي تُحرِّك

الجماعات. ما من أحدٍ يمكنه أن يقول في أي ظرف يتاح للإنسان أن يبلغ عن هذا الطريق مبلغ إدراك قوانين التاريخ، لكن من البديهي أنَّ هذا هو الطريق الوحيد الذي يعطي إمكانية إدراكها، وأن العقل البشري لم يصرف بعدُ جزءًا من مليون جزء مما صرفه المؤرِّخون أنفسهم، سواء في وصف حركات الملوك المختلفين والجنرالات والوزراء، أو في عرض آرائهم حول تلك الأفعال.

الفصل الثاني

المغيب

انكفأت قوات اثني عشر شعبًا أوروبيًّا ضد روسيا، وراح الجيش والشعب الروسيان يتقهقران متحاشيَيْن الاصطدام في بدء الأمر حتَّى سمولنسك، ثم حتَّى بورودينو. ومضى الجيش الفرنسي نحو موسكو، غاية تقدُّمه، بقوة اندفاع آخذة في الازدياد. ولقد عظمت هذه القوة عند اقترابها من غايتها كما تتعاظم سرعة جسم ساقط كلما اقترب من الأرض. باتت ألوف الفراسخ من بلد جائع معادٍ وراءها، وبضعة عشر من الفراسخ أمامها قبل الهدف. هذا ما كان يفكر فيه كل جندي من الجيش النابليوني، وبذلك اندفع الاجتياح إلى الأمام بقوة دافعة موحَّدة.

وفي الجيش الروسي كلما أمعنوا في التقهقر زادت نار الحقد على العدو أوارًا. إنها تتركز وتكبر بسبب التقهقر، ولقد وقع الاصطدام الأخير في بورودينو، فلم يفنَ واحدٌ من الجيشين، لكن الجيش الروسي بعد الاصطدام مباشرة تراجع إلى الوراء بالقدر الذي يستلزمه انكفاء كرة إلى الوراء بعد أن تصطدم بكرة أخرى تحرِّكه قوة أعظم بأسًا، في حين أن الكرة الغازية رغم فقدانها كل قوتها في الاصطدام، لا بدَّ لزومًا وأن تدرج إلى مسافة ما بعد أن تستعيد قوة اندفاعها.

انسحب الروسيون إلى مائة وعشرين فرسخًا وراء موسكو، وبلغ الفرنسيون موسكو وتوقفوا فيها، ولم يقع أي قتال خلال الأسابيع الخمسة التي تلت ذلك. فالفرنسيون لا يتحركون أشبه بالوحش الذي جُرح جرحًا قاتلًا فراح يلعق جراحه رغم أنه فقد كل دمائه. ظلوا خمسة أسابيع في موسكو دون أي عمل، ثم — ودون أي سبب جديد — فرُّوا فجأةً. لقد اندفعوا في طريق كالوجا، وظلوا في فرارهم رغم انتصارهم — لأنهم ما زالوا سادةَ ساحة المعركة في مالور أياروسلافيتز في قطاع كالوجا على بُعْد مائة وعشرين فرسخًا من موسكو — دون أن يدخلوا في معركة جديدة. استمروا في فرارهم بسرعة متزايدة

باتجاه سمولنسك، ثم إلى ما وراء سمولنسك، وإلى ما وراء فيلنا، وإلى ما وراء بيريزينا، وهم لا يَنُوا يبتعدون.

في مساء السادس والعشرين من آب، اقتنع كوتوزوف ومعه الجيش الروسي كله، بأنهم ربحوا معركة بورودينو. ولقد كتب كوتوزوف الخبر بكل وضوح إلى الإمبراطور، وعمَّم الأمر بالاستعداد لصراع جديد لتوجيه الضربة القاضية إلى العدو وليس بقصد خداع أيٍّ كان، بل لأنه بات يعرف ككل واحد من المحاربين أن العدو قد هُزم.

لكن ذلك المساء وفي اليوم التالي، بدأت التقارير المعلَنة عن خسائر هائلة تترى — ضياع نصف الجيش — لدرجة بدت معها استحالة الالتحام في معركة جديدة من الناحية المادية.

كان يستحيل الاشتباك في معركة قبل أن يُعاد وضع ميزانية الموقف، وأن يُرفع الجرحى وتُستكمل الذخائر ويُحصى عدد القتلى ويُعيَّن الرؤساء الجدد مكان الذين قُتلوا منهم، وقبل أن يأكل الجنود وأن يناموا بقدر حاجتهم. وفي تلك الأثناء والمعركة لمَّا تكَد تنتهي، شرع الجيش الفرنسي منذ الصباح يهتزُّ من تلقاء نفسه ضد الجيش الروسي (بفعل قوة الاندفاع هذه التي تزداد عكسيًّا بمعدَّل مربع المسافة)، وكان كوتوزوف يريد أن يهاجم غداة اليوم التالي كما كان جيشه كله يريد، ولكن الرغبة في الهجوم وحدها لا تكفي؛ إذ يجب أن تتوفر استطاعة العمل، وهذه الاستطاعة لم تكن موجودة، فكان من المستحيل ألَّا يتراجع الروسيون مرحلة واحدة في أول الأمر ثم مرحلة ثانية إجبارية ثم ثالثة. وأخيرًا، في الأول من أيلول، عندما بلغ الجيش موسكو، أرغمته قوة الأمور على التراجع بعيدًا رغم الحماس العنيف الذي كان يعتلج في النفوس، فتراجع الجيش مرحلة جديدة هي الأخيرة، مخلِّفًا موسكو للعدو.

هناك أسئلة لا بدَّ من أن يطرحها أولئك الذين من عادتهم الاعتقاد بأن رؤساء الجيش يضعون خطط الحروب والمعارك بنفس الطريقة التي يعتمد عليها كل واحد منا وهو جالس في مكتبه أمام خريطة؛ ليرسم التدابير التي كان سيتخذها هو في هذه أو تلك من المعارك. لماذا لم يفعل كوتوزوف في تقهقره كذا وكذا؟ لماذا لم يتحصَّن أمام فيلي؟ لماذا لم يتراجع دفعة واحدة على طريق كالوجا بعد أن سلَّم موسكو؟ ... إلخ ... إلخ؟ إن الأشخاص الذين يألفون مثل هذه الأفكار ينسون الشروط التي لا يمكن دفعها، والتي يدور فيها نشاط جنرال قائد أعلى أو يتجاهلون تلك الشروط، إن ذلك النشاط لا ارتباط بينه وبين ذاك الذي نتخيَّله ونحن جالسين بهدوء في مكتب عندما ندرس حملة

على خريطة بعدد معلوم من الجنود في الجانبين، على أرض معروفة، جاعلين مداركنا الاستراتيجية تبدأ في لحظة محدودة. إنَّ قائدًا أعلى لا يجد نفسه قط في ظروف «البداية» التي نرى نحن أو يرى أصحاب النظريات أنفسهم فيها عند فحص حادث ما، إنه يجد نفسه دائمًا وسط سلسلة متحرِّكة من الظروف، لدرجة أنه لا يجد نفسه لحظة واحدة في حالة تمكِّنه من الإحاطة بكل الأحداث الدائرة دفعة واحدة. إن الحدث يقع ثم يتبلور معناه تدريجيًّا، وفي كل لحظة من لحظات التطور هذه التي تجعل الحدث يبرز للعيان، يكون القائد الأعلى وسط سلسلة معقَّدة من الدسائس والمشاغل وحق الاستخدام والأوامر المتسلِّطة والمشاريع والمجالس والتهديدات والخدع، ويكون كذلك مرغمًا بصورة دائمة على الإجابة على عدد لا يُحصى من الأسئلة المعاكسة دائمًا.



إطلاق النار على سمولنسك.

إن خبراء عسكريين يقولون لنا بجدٍّ لا يتزعزع إنه كان على كوتوزوف أن يتراجع قبل «فيلي» على طريق كالوجا كما أشير عليه أن يفعل، لكن قائدًا أعلى، في اللحظات الحرجة بصورة خاصة، لا يكون نُصب عينيه مشروع واحد فحسب، بل عشرات المشاريع، وكل مشروع من هذه المشاريع، رغم حُسن ارتكازه على الناحيتين الاستراتيجية والحركية، يكون منافيًا للمشاريع الأخرى. ويبدو أن القائد الأعلى ليس عليه إلا أن ينتقي واحدًا

منها في حين أن هذا نفسه يستحيل عليه؛ لأن الأحداث والوقت لا تنتظر. لنفرض أنهم اقترحوا على كوتوزوف في الثامن والعشرين أن يسير على طريق كالوجا العام، وأن مساعدًا عسكريًّا لميلوداروفيتش جاء في تلك اللحظة بالذات يسأل عما إذا كان يجب الالتحام فورًا في اشتباك مع الفرنسيين أم التراجع. فإن على كوتوزوف أن يعطي أوامره في اللحظة نفسها، فإذا أمر بالتراجع فإنه يتحتَّم عليه إجراء توريب لبلوغ طريق كالوجا، ولا يكاد المساعد يخرج حتَّى يأتي ضابط التموين ليسأل عن الجهة التي يجب أن تسير الأرزاق فيها، قائد المستشفيات يسأل عن المكان الذي سيحمل الجرحى إليه، ثم يأتي ساعٍ من بيترسبورج يحمل رسالة من الإمبراطور الذي لا يرضى بالجلاء عن موسكو، ثم يأتي خصم القائد الأعلى، ذلك الذي يعمل جاهدًا لكي ينال من تصرفاته — ويوجد دائمًا من أمثال هؤلاء عدد كبير وليس مجرد واحد فحسب — فيعرض مشروعًا جديدًا متعارضًا كل التعارض مع خطة التراجع عن طريق كالوجا. وفي تلك الأثناء، بينما يشعر القائد العام بأن قواه تتطلَّب الراحة والنوم، يأتي جنرال محترم فيشكو من نتائج استثناء غير قانوني مُنح لبعضهم، وبعده يدخل مدنيون ملتمسين الحماية، ثم ضابط أُرسل مستطلِعًا فجاء بمعلومات تناقض كل التناقض ما جاء به زميل قبله. وأخيرًا جاء دور جاسوس وسجين حرب، ثم الجنرال الذي ذهب يتفقَّد المواقع؛ وكلهم يصفون مواقع العدو على طريقتهم. والأشخاص الذين لا يتمثَّلون الشروط التي يتوجَّب على القائد العام أن يعمل فيها، يصوِّرون لنا مثلًا وضع الجيش أمام فيلي، ويفترضون أن كوتوزوف كان يستطيع في ذلك الوضع في اليوم الأول أن يحسم بكل حرية مسألة الدفاع عن موسكو أو التخلِّي عنها، في حين أن تلك المسألة على العكس لا يمكن أن تُطرَح والجيش على بُعْد خمس مراحل عن المدينة. فمتى إذن حلَّت هذه المسألة؟ لقد حلَّت في دريسا وسمولنسك، وأخيرًا ونهائيًّا في الرابع والعشرين من الشهر في شيفاردينو، ثم في السادس والعشرين في بورودينو، ومنذ ذلك الحين، ومن يوم إلى آخر، ومن ساعة إلى أخرى، ودقيقة إلى دقيقة، طيلة التقهقر من بورودينو إلى فيلي.

الفصل الثالث

حالة كوتوزوف

عندما جاء إيرمولوف الذي أرسله كوتوزوف مستطلِعًا، يقول للقائد الأعلى إنه لا يمكن الالتحام في معركة على مشارف موسكو، وأنه يجب الاستمرار في التراجع؛ نظر إليه كوتوزوف في صمت. قال له: «أعطني يدك.»

وبعد أن أدار تلك اليد بطريقة مكَّنته من حبس النبض، أضاف قائلًا: «إنك مريض يا صديقي. فكِّر فيما تقول.»

ما كان كوتوزوف حتَّى تلك اللحظة يستوعب بعدُ إمكانية التراجع إلى ما وراء موسكو دون قتال.

على مرتفَع باكلونَّايا على بُعد ست مراحل من حدود دوروجوميلوف، نزل من عربته وجلس على مقعد على جانب الطريق، فدار به رهط كبير من الجنرالات، انضم إليهم الكونت روستوبتشين الذي وصل قبل قليل من موسكو، وراح هذا الجمع من الأشخاص اللامعين المنقسمين إلى جماعات صغيرة يناقشون محاسن الموقف ومساوئه وحالة الجيش والمخططات المقترحة والحالة المعنوية في موسكو، وعددًا آخر من المواضيع ذات الطابع العسكري. وكان كلٌّ منهم يشعر دون أن يستدعيه أحد ودون أن يطلق على هذا الجمع اسم لجنة استشارية، أنه إنما يساهم في مجلس عسكري، كما كانت الأحاديث في كل جماعة تدور حول الاعتبارات العامة.

كانوا يتناقلون بصوتٍ خافت أنباءً شخصية، ثم يعودون لفورهم إلى الموضوعات ذات الطابع العام. لم يكن أحدٌ من الموجودين ليسمح بدعابة! بضحكة أو حتَّى بابتسامة. لقد كانوا جميعهم ولا ريب يحاولون الظهور بمظهر يتساوى مع خطورة الأحداث. وكانت كل جماعة تسعى وهي تتبادل الأحاديث ألَّا تبتعد عن العام الذي كان مقعده مركز الجاذبية بالنسبة إليهم، وأن تصل أحاديثها إلى أسماع كوتوزوف. وكان كوتوزوف يُصغي وأحيانًا

يستعلم عما يدور من حديث، ولكن دون أن يساهم في الحديث أو أن يتقدَّم برأي. وكان في معظم الوقت يشيح بوجهه متبرِّمًا بعد أن يصيخ السمع إلى حديث جماعة ما، وكأنه سمع شيئًا يختلف كل الاختلاف عما كان يرغب في معرفته، وكان البعض — خلال النقاش حول الموقع المختار — ينتقدون الموقع نفسه أقل من انتقادهم أهلية الأشخاص الذين قبِلوا به، ويزعم البعض الآخر أن الخطيئة آتية من وقتٍ مضى، وأنه كان يجب خوض المعركة قبل أول أمس، في حين تتحدث جماعة ثالثة عن معركة سالامانك التي جاء يصفها قادم جديد، فرنسي اسمه كروسَّار يرتدي زيًّا إسبانيًّا، وكان كروسار هذا يدرس حصار ساراجوس مع أمير ألماني عامل في الجيش الروسي بغية اللجوء إلى دفاع مماثل عن موسكو. وفي جماعة رابعة، كان الكونت روستوبتشين يعلن عن استعداده للموت مع المتطوعين الموسكوفيين تحت جدران المدينة، لكنه مع ذلك لا يستطيع إلا أن يشكو من التجاهل الذي أظهروه حياله؛ لأنه لو علم إلى أين بلغت الأمور، لسار كل شيء سيرًا مختلفًا ... وكان فريق خامس يُظهر عمق مداركه الاستراتيجية ويعيِّن الاتجاه الذي كان على القطعات أن تسير فيه، وسادس يتكلَّم دون أن يقول شيئًا، في حين كان كوتوزوف يتخذ طابعًا آخذًا في الكآبة والتشاغل. ما كان يرى في هذه الأحاديث غير شيء واحد: أنَّ الدفاع عن موسكو مستحيل عمليًّا، وذلك بكل ما لهذه العبارة من معنًى، وأن الاستحالة كانت تبلغ درجةً لو وجدوا معها قائدًا أعلى مجنونًا يأمر بالقتال، لنجم عن ذلك هزيمة دون معركة؛ لذلك فإن أية معركة ما كان يمكن أن تدور طالما أن القيادة العليا لم تكن تقدِّر أن الموقف متعذِّر الدعم فحسب، بل لا تفكِّر كذلك إلا فيما يعقب التخلِّي الإلزامي عنه. فكيف كان يمكن لهؤلاء القادة أن يقودوا جنودهم على ساحة معركة اعترف بأنها غير قابلة للدعم؟ إن الأتباع، بل والجنود الذين هم حكَّام كذلك، يعترفون بذلك؛ وبالتالي فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى معركة وهم على يقين بوقوع كارثة. ولو أن بينيجسن كان ينصِّب من نفسه مدافعًا عن هذا الموقع، أو أن آخرين استمروا على مناقشته، فإن ذلك لم يعد له أية أهمية، إن لم يعد إلا حجَّة للنقاش والدَّسِّ، وكان كوتوزوف مدركًا ذلك تمام الإدراك.

كان بينيجسن الذي انتَخب الموقع، يجأر في إظهار وطنيته الروسية، فلم يكن كوتوزوف قادرًا على الإصغاء إليه دون أن يقطِّب حاجبَيْه. وإذن، كان بينيجسن يصرُّ على أن يصارَّ إلى الدفاع عن موسكو، فكان كوتوزوف يرى خدعته كما يرى النور: سوف يتحمَّل كوتوزوف تبعة الإخفاق في حال الإخفاق؛ لأنه تقهقر بالجيش دون أن يدخل في معركة جدية حتَّى بلغ به «مون دي موانو» (جبل العصافير). وفي حال انتصار الروسيين،

فإن بينيجسن سيعزو لنفسه شرف النصر، بل إنهم حتَّى إذا رفضوا الإصغاء إليه، فإنه على الأقل قد غسل يديه من جريمة تسليم موسكو، لكن هذه الدسائس كلها ما كانت في تلك اللحظات لتشغل بال الكهل أكثر من غيرها. لقد كانت مسألة واحدة رهيبة تشغله، وما كان هناك من يقدِّم إليه حلَّها. أما المسألة فهي: «هل يمكن أن أكون أنا الذي جعلت نابليون يبلغ موسكو؟ ومتى فعلت هذا؟ متى تقرَّر هذا؟ هل كان البارحة عندما أرسلت الأمر إلى بلاتوف بالتراجع؟ أم أول أمس عندما كنت نصف نائم فتركت بينيجسن يضطلع بأعباء القيادة؟ أم ترى وقع ذلك قبل هذه الأوقات؟ ... ولكن متى؟ متى تقرَّر أمرٌ على مثل هذا الهول؟ يجب ترك موسكو، يجب أن يتقهقر الجيش، ويجب أن أُصدر الأمر.» وكان إصدار هذا الأمر البشِع يعادل في نظره تقديم استقالته من القيادة العامة. وهو لم يكن يحبُّ السلطة التي أَلِفها فحسب — إذ إن الالتفاتات التي لقيها الأمير بروزوروفسكي الذي كان مُلحقًا به في تركيا جرحت كرامته — بل إنه كان مقتنعًا بأنه هو المنذور لتخليص روسيا واجدًا الدليل على ذلك في واقع أنه يدين بلقبه كقائد عام إلى رغبة الشعب ضد رغبة الإمبراطور. كان قانعًا بأنه وحده في تلك الظروف العصيبة قادر على البقاء على رأس الجيش، وأنه الوحيد في العالم الذي يستطيع مجابهة خصم لا يُقهر مثل نابليون دون أن يروَّع؛ لذلك فقد كان يرتعد هولًا من مجرد التفكير في الأمر الذي سيصدره، ولكن كان يجب أن يتخذ قرارًا حاسمًا، وأن يضع حدًّا لهذه المناقشات التي بدأت تتخذ حوله طابعًا متماديًا في التحرر.

أمر باقتراب أرفع الجنرالات رتبةً، وقال وهو ينهض عن مقعده: «سواء أكان رأسي جيدًا أم رديئًا، فإن عليه أن يعين نفسه بنفسه.» واتجه نحو فيلي؛ حيث كانت عربته في انتظاره.

الفصل الرابع

المجلس العسكري

اجتمع المجلس العسكري في الساعة الثانية في كوخ القروي آندريه سافوستيانوف — ولقد ظل «كوخ كوتوزوف» قائمًا حتَّى عام ١٩١٧م — الرحيب المريح، وراح الرجال والنساء والأطفال وكل أعضاء هذه الأسرة الهامة مجتمعين في «السقيفة» في الجانب الآخر من الدهليز، فلم يبقَ في الغرفة إلا مالاشا حفيدة الفلاح آندريه البالغة من العمر ستة أعوام؛ إذ آنسها عظيم الرفعة بإعطائها قطعة سكر بينما كان يشرب شايه، فجثمت فوق موقد الحجرة الكبيرة وكانت الصغيرة تتأمل — جزِعة سعيدة — الوجوه من أعلى والألبسة والأوسمة التي على صدور الجنرالات الذين راحوا يدخلون الواحد أثر الآخر، ويجلسون على مقاعد عريضة في الركن الجميل — ركن الأيقونات إلى يمين المدخل — تحت الصورة المقدَّسة. وجلس الجد، كما راحت مالاشا تسمي كوتوزوف في سرها منفردًا في الزاوية المعتمة قرب الموقد. لقد تهاوى بتثاقل على مقعده القابل للثني، ولم يكفَّ عن الزفير وهو يسوِّي ياقة بزَّته التي ظلت تضايق عنقه رغم أنه حلَّ أزرارها. وكان الداخلون يتقدَّمون لتحيته، فكان يشدُّ على أيدي بعضهم ويومئ برأسه إلى البعض الآخر. وكانت قبالة كوتوزوف نافذةٌ أراد مساعده العسكري كائيساروف أن يجذب سترها فندَّت عن كوتوزوف حركة تدل على التبرُّم، أدرك كائيساروف منها أن عظيم الرفعة لا يريد أن يضيء النور وجهه.

وحول الطاولة الخشِنة المصنوعة من خشب الصنوبر التي انتشرت فوقها الخرائط والمخططات والأقلام والورق، دار عدد كبير من الأشخاص، حتى إن التابعين جاءوا بمقعد آخر جلس عليه آخر الداخلين: إيرمولوف، كائيساروف وتول. وتحت الصور المقدَّسة، في مكان الشرف، جلس باركلي دوتوللي وصليب القدِّيس جورج يتدلَّى من عنقه. كان ممتقع الوجه يزيد جبين عريض في إطالة صلعته، تعذِّبه الحمى منذ يومين اثنين، يشعر

في تلك الأثناء أيضًا بالارتعاش والانكماش. وكان أوفاروف الجالس إلى جانبه يروي له بحركات عنيفة شيئًا ما بصوت خافت، أسوةً بكل المتحدثين الذين كانوا يتكلمون بخفوت. أما دوختوروف، وهو رجل قصير القامة سمين، فقد كان يصغي بانتباه وهو يرفع حاجبَيْه مستبقيًا يديه متقاطعتين فوق بطنه. ومن الجانب الآخر جلس الكونت أوسترمان-تولستوي، وقد اتكأ على الطاولة وأسند رأسه الضخم ذا التقاطيع النشيطة والعينين البرَّاقتين إلى يده كأنه مستغرق في أفكاره، وكان راييفسكي يصرف نفاد صبره بفَتْل خصلة من شعره الأسود العكف على صدغه بحركة مألوفة، وبالنظر إلى كوتوزوف تارة وإلى باب الدخول تارةً أخرى. وكان وجه كونوفيتشين الجميل الحازم يضيء بابتسامة حانية ماكرة، لقد التقت نظرته بنظرة مالاشا، فغمز لها بعينه، الأمر الذي جعل الصغيرة تضحك.

كانوا جميعًا ينتظرون بينيجسن الذي كان متأخرًا في طعامه الشهي بحجة إعادة فحص الموقع من جديد، وظلوا ينتظرون من الساعة الرابعة حتَّى السادسة دون أن يفتحوا باب النقاش، فراح كلٌّ من جانبه يدور في أحاديث خاصة بصوت خافت خلال ذلك الوقت.

لم يتحرَّك كوتوزوف من ركنه ليقترب من المائدة إلا عندما دخل بينيجسن، لكنه اقترب بشكل لم يسمح للشموع الموقدة أن تضيء وجهه.

فتح بينيجسن الجلسة بالسؤال التالي: «هل ستترك عاصمة روسيا العريقة المقدَّسة دون قتال؟ أم هل سيُدافَع عنها؟» وأعقب السؤال صمت عميق. أصبحت الوجوه كلها مكتئبة، وسُمع كوتوزوف يسعل وهو يغمغم بين أسنانه، فشخصت العيون كلها إليه، ونظرت مالاشا بدورها إلى «الجد». لقد كانت أقرب إليه من كل الآخرين، فرأت وجهه يتقلَّص وكأنه على وشك البكاء، لكن ذلك لم يدُم أكثر من لحظة، وفجأةً هتف بغضب كلمات بينيجسن وهو يبرز النغمة الزائفة: «عاصمة روسيا العريقة المقدسة! اسمح لي أن أقول لك يا صاحب السعادة إن هذا السؤال ليس له أي معنى بالنسبة إلى روسي (وأحنَى جسمه الضخم إلى الأمام)، لا جدوى من طرح هذا السؤال؛ لأنه محروم من كل المعاني. إن المسألة التي رجوت هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجلها مسألة عسكرية، هي التالية: «إن خلاص روسيا في جيشها، فهل من الأفضل المغامَرة بإضاعة الجيش بما في ذلك خسارة موسكو بالتحام في معركة؟ أم أن تسلِّم موسكو دون قتال؟» هذا هو ما أريد أن أحصل على رأيكم بصدده.»

وعاد يلقي بظهره إلى مسند مقعده.

ودار النقاش. لم يعتقد بينيجسن أنه خسر معركته؛ لذلك فقد راح يؤيد رأي باركلي وآخرين حول استحالة الالتحام في معركة دفاعية في فيلي، ويعرض — وهو الذي يملأ حب موسكو الوطني قلبه كما كان يزعم — أن تمرَّر خلال الميل قطعات الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر، وأن يُهاجَم بها غداة اليوم التالي الجناح الأيمن الفرنسي. وانقسمت الآراء وراحوا يناقشون ما لها وما عليها. انحاز إيرمولوف ودوختوروف ورايبفسكي إلى جانب رأي بينيجسن. فهل تُرى كانوا مدفوعين بعاطفة وجوب تقديم تضحية لا مرد لها قبل ترك المدينة؟ أم كانوا يخضعون لاعتبارات شخصية؟ مهما كان الأمر، فإن هؤلاء السادة بدوا وكأنهم غير مدركين أن مجلسًا عسكريًّا لا يمكنه أن يغير سير الأمور الذي لا بدَّ منه، وأن موسكو قد سُلِّمت بالفعل. أما الجنرالات الآخرون، فقد كانوا مدركين ذلك، فتركوا جانبًا قضية تسليم موسكو، وراحوا يتناقشون حول الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الجيوش. أما مالاشا التي تنظر بعينين جاحظتين إلى كل ما يحدث أمامها، فقد فهمت معنى المجلس العسكري على لون آخر؛ خُيِّل إليها أنها عبارة فقط عن صراع شخصي بين «الجد» و«ذي الذيول الطويلة» كما سمَّت بينيجسن. كانت تراهما يغضبان عندما يتحدَّثان، فكانت في أعماق قلبها الصغير تنحاز إلى صفِّ الجد. وفي وسط النقاش لاحظت النظرة السريعة الماكرة التي ألقاها كوتوزوف على بينيجسن، فلم تلبث أن أدركت — لعظيم بهجتها — أنَّ الجدَّ قد قال شيئًا لذي الذيول الطويلة فأسقطه، وراح بينيجسن الذي تضرَّج وجهه فجأةً يذرع الحجرة جيئة وذهابًا. كانت الكلمات التي أحدثت فيه هذا الأثر القوي هي التي استعملها كوتوزوف، بصوت هادئ ساكن، ليعبِّر عن رأيه في الميزات والأخطار التي يقدِّمها مشروع بينيجسن حول تحرير الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن خلال الليل بغية مهاجمة الجناح الأيمن الفرنسي. قال كوتوزوف: «أيها السادة، إنني لا أستطيع إقرار خطة الكونت؛ لأن حركات الجنود على مقربة من العدو خطيرة دائمًا، والتاريخ العسكري يؤيد هذا الرأي؛ فعلى سبيل المثال … (واتخذ كوتوزوف أمارات التفكير ليبحث عن جملته وهو يُلقي نظرة ساذجة وواضحة على بينيجسن) فمثلًا معركة فردلاند التي آمل أن يكون سيدي الكونت قويَّ التذكُّر لها … إنها لم تنجح كلَّ النجاح؛ لأن قواتنا تجمَّعت على مقربة من العدو …»

ولقد بدا الصمت الذي أعقب هذا الكلام خلال دقيقة واحدة، طويلًا جدًّا في نظر الجميع.

وعادت المناقشة تُقاطَع بكثرة بفترات صمت؛ إذ كان كلٌّ من الموجودين يشعر بأنه لا يجد ما يضيفه إلى أقواله.

تنهَّد كوتوزوف تنهُّدة عميقة خلال إحدى تلك الفترات وكأنه يستعد للكلام، فاستدارت العيون كلها إليه. قال: «حسنًا أيها السادة! إنني أرى أنني وحدي من سيدفع الغرم.»

ثم نهض بجهد واقترب من المائدة: «أيها السادة، لقد أصغيت إلى آرائكم. إن بعضكم على غير وفاقٍ معي — وتريَّث بُرهةً — ولكن أنا، استنادًا إلى السلطة التي مُنحت إليَّ من قِبل مليكي ووطني، أنا، آمر بالانسحاب.»

لم يلبث الجنرالات بعد ذلك أن تفرَّقوا في صمت وعلى وجوههم تلك الأمارات الجليلة التي تنطبع على الوجوه عند الفراغ من حفلة مأتم.

تبادل بعضهم بصوت خافت وبلهجة تختلف كل الاختلاف عن لهجتهم خلال المؤتمر، بضع كلمات مع القائد العام.

أما مالاشا التي كان ذووها ينتظرونها منذ وقت طويل للعشاء، فقد انزلقت برفق على ظهرها فوق المنحنى، وقد تشبَّثت بقدميها العاريتين بنتوءات الموقد، وتسلَّلت عبر سيقان العسكريين، ثم اختفت وراء الباب.

وبعد أن استأذن كوتوزوف من الجنرالات، ظل طويلًا جالسًا ومرفقاه إلى الطاولة، يفكِّر في السؤال الملح نفسه: «ولكن متى؟ متى تقرَّر الجلاء عن موسكو؟ كيف حدث أن بلغوا هذا الحد وأن أصبح هو المسئول عنه؟»

قال لمساعده العسكري شنيدر، الذي جاء يلحق به بعد أن أوغل الليل: «كلا، كلا، ما كنت أتوقع هذا، ما كنت أتوقعه! بل إنني ما كنت لأصدقه.»

فقال شنيدر: «يجب أن تستريح يا صاحب السمو.»

لكن كوتوزوف بدلًا من أن يجيب مساعده العسكري صاح: «كلا، إن ذلك لن يسير على هواه بالنسبة إليهم، لسوف يأكلون لحم الحصان كالأتراك.»

وضرب المائدة بقبضته العريضة وكرَّر: «نعم، لسوف يأكلون هم كذلك، شريطة أن ...»

الفصل الخامس

إعداد حريق موسكو

في تلك الأثناء، كان حدثٌ ما في طور التكوين ذو أهمية تختلف عن أهمية انسحاب الجيش: ألا وهو هجر موسكو وإحراقها، وروستوبتشين الذي يبدو في هذا المضمار المسئول الأكبر، كان يعمل عكس اتجاه كوتوزوف.

كان هذا الحدث — هجر موسكو وإحراقها — يماثل تراجع الجيوش إلى ما وراء المدينة بعد معركة بورودينو من حيث استحالة تحاشي وقوعه.

وكل روسي كان مستطيعًا، ليس بالتحليل المنطقي، بل بذلك الإحساس الذي يكمن في صدورنا كما كان يكمن في صدور آبائنا، أن يتوقَّع ما سيحدث.

فاعتبارًا من سمولنسك، في كل المدن وكل قرى الأرض الروسية، في كل مكان كانت الظاهرة نفسها التي وقعت في موسكو تظهر هناك دون أن يكون للكونت روستوبتشين وبياناته أي دخل فيها. كان الشعب ينتظر العدو بهدوء دون أن يثور أو ينفعل أو يقتتل، ينتظر بصبر مصيره وهو يحس بقوة إيجاد ما يجب أن يعمله في اللحظة الحاسمة من تلقاء نفسه عندما يأزف الوقت. وكلما اقترب العدو، ابتعدت عناصر الشعب الغنية تاركةً ثرواتها، أما الفقراء الباقون في أماكنهم، فكانوا يحرقون ويدمِّرون كل ما كان يتعذَّر على الأغنياء نقله معهم.

وكان الإيمان بأنَّ هذا هو ما يجب عمله، وأنه يجب إلزامًا أن يكون كذلك، مستقرًّا كما لا زال مستقرًّا في النفس الروسية.

وهذا الإيمان الذي ضاعفه الشعور المسبق بأن موسكو سوف تسقط، انغرس في المجتمع الروسي المسكوفي عام ١٨١٢م، إن أولئك الذين ارتحلوا منذ تموز وفي أوائل آب، أكدوا برحيلهم أنهم يتوقعون هذا الحدث، والذين رحلوا حاملين معهم كل ما يستطيعون حمله، هاجرين بيوتهم ونصف ما كانوا يملكون، كانت تحرِّكهم تلك الوطنية العميقة

«الكامنة» التي لا تعبر عنها الكلمات ولا التضحية بالأبناء أو الأعمال الأخرى المناقضة للطبيعة، ولكن تترجم طبيعيًّا وببساطة دون تيه، وتُحدث دائمًا أعظم النتائج.

كانوا يقولون لهم: «إن من العار أن تهربوا من الخطر! يجب أن يكون المرء نذلًا ليغادر موسكو.» وكان روستوبتشين في منشوراته يلمِّح إلى أن فرارهم يحط من الشرف، فكانوا يحسون بالتجريح إذ يُنعتون بالجبناء، وتأخذ عليهم ضمائرهم ارتحالهم، لكنهم مع ذلك كانوا يرحلون وهم يشعرون بضرورة الرحيل. لماذا يغادرون المدينة؟ لا يمكن الافتراض أن روستوبتشين قد روَّعهم في وصفه للفظائع التي ارتكبها نابليون في البلاد المحتلة. كانوا يرحلون وفي المقدمة الأغنياء والمثقفون الذين يعلمون علم اليقين أن برلين وفيينا بقيتا سليمتين رغم احتلال نابليون، وأن السكان وجدوا متعة كبيرة أثناء الاحتلال مع أولئك الفرنسيين الفاتنين الذين كان الروسيون والنساء بصورة خاصة يحببنهم حبًّا جمًّا في ذلك الحين.

كانوا يرحلون لأن السؤال عما إذا كانوا سيعيشون عيشًا رضيًّا أو سيئًا في موسكو إبَّان الاحتلال لم يكن قائمًا بالنسبة إلى الروسيين. لقد كانت الحياة نفسها تحت ذلك النظام هي المستحيلة في نظرهم التي تعتبر بمثابة أقصى درجات البلاء. ولقد شرعوا بالرحيل قِبل بورودينو، وبعد بورودينو أخذوا يخرجون من موسكو بأكثر سرعة دون أن يعبئوا بالنداءات التي تدعوهم إلى الدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من مشيئة حاكم موسكو الذي كان يريد أن يشكِّل موكبًا دينيًّا يحمل فيه أيقونة أيبيريا — أشهر الأيقونات في موسكو — ويخرج إلى المعركة، فقد ذهبوا رغم المناطيد التي ستجرُّ الدمار على الفرنسيين، رغم كل السخافات التي حشا فيها روستوبتشين بياناته. كانوا يعرفون أن واجب الجيش هو أن يقاتل، وأنه إذا كان الجيش عاجزًا، فإنه ليس عليهم هم أن يذهبوا إلى الجبال الثلاثة — هو التل القائم شرقي موسكو — ليشتبكوا في معركة مع نابليون ببناتهم وخدمهم، بل إن عليهم أن يرحلوا مهما بلغ حزنهم على تخليفهم ممتلكاتهم التي لم يستطيعوا نقلها للدمار. كانوا يذهبون دون التفكير في المعنى العظيم الذي يتجسَّد في مغادرة هذه المدينة العظيمة الغنية التي ستُحرق حتمًا بعد مغادرة السكان لها؛ لأن الشعب الروسي يستوعب فكرة العزوف عن إحراق الدور الخالية وتدميرها. كانوا يذهبون منفردين، وبذلك تم العمل الجليل الذي ظل أكبر مجد للشعب الروسي. فالسيدة العظيمة فلانة التي غادرت موسكو منذ شهر حزيران مع زنوجها ومهرِّجيها؛ لتحتمي في مِلكٍ لها بإقليم ساراتوف، شعرت بإبهام أنها ليست خادمة بونابرت، فراحت ترتعد فَرَقًا من أن يثنيها أمر روستوبتشين. إن مثل هذه السيدة ساهمت ببساطة وبشكل طبيعي

في العمل العظيم العام الذي أنقذ روسيا. والكونت روستوبتشين الذي كان يعيب على الفارِّين، وتارةً يهتم بإجلاء الدوائر، يوزِّع أسلحة رديئة على خليط من السكارى تارةً، وينظِّم موكبًا دينيًّا رافعًا أيقونة تارةً أخرى، يمنع رئيس الأساقفة أوجوستين من إخراج الأيقونات وصناديق ذخائر القديسين طورًا، وطورًا يصادر العربات الخاصة في المدينة، يأمل بنقل منطاد ليبيخ على مائة وست وثلاثين عربة حينًا، ويلمِّح حينًا آخر إلى أنه سيحرق موسكو، روستوبتشين الذي كان يعيب على الفرنسيين تارةً في بيان وجهه إليهم بجلال أنهم خرَّبوا مأوى الأطفال، ويروي تارةً أخرى كيف أحرق بيته بالذات، تارةً يعترف بحريق موسكو ويأخذه على عاتقه، وطورًا ينكره، يأمر الشعب أن يقبض على كل الجواسيس، وأن يأتي بهم إليه حينًا، وحينًا يستنكر عملهم هذا، ينفي كل الفرنسيين من موسكو طورًا، وطورًا يترك فيها السيدة أوبير شالمية — التي كان متجرها ملتقى كل الجالية الفرنسية — ثم يأمر بالقبض على كيليوتشاريف العجوز المحترم — وهو مدير البرد — دون أي مبرر وينفيه، يستدعي السكان للذهاب إلى الجبال الثلاثة لمقاتلة الفرنسيين، ثم لكي يتخلص من الحشود يقدِّم لهم رجلًا يقتلونه، بينما يفر هو من باب خلفي. كان روستوبتشين هذا الذي يزعم تارةً أنه لن يعيش ليرى محنة موسكو ويكتب في مذكراته أبياتًا بالفرنسية حول الاتجاه الذي سيسلكه تارةً أخرى، لا يدرك شيئًا من الأحداث الدائرة، لكنه كان يريد أن يعمل شيئًا ما، وأن يدهش ويقوم بعمل فيه وطنية بطويلة، فكان يلعب كالطفل بذلك الحدث المشئوم المهول الذي يتمثَّل في هجر موسكو وإحراقها، ويجتهد مستعمِلًا يده الضعيفة سواء في إذكائه أم في إيقاف السيل الشعبي اللجب الذي كان يحمله مع تياره.

الفصل السادس

خطة هيلين

أصبحت هيلين إثر عودتها مع بلاط فيلنا إلى بيترسبورج، في موقف مربك.

كانت بيترسبورج مشمولة بعناية سيد كبير يحتل واحدًا من أرفع مراكز المملكة. وفي فيلنا ارتبطت مع أمير أجنبي شاب، فلمَّا عادت إلى بيترسبورج راح الأمير والسيد العظيم اللذان كانا هناك كلاهما، يطالبان بحقوقهما، فعرضت لها مشكلة جديدة كل الجدَّة في حياتها الخاصة؛ ألا وهي المحافظة على صداقة كلٍّ منهما المقرَّبة دون أن تجرح أحدًا منهما.

إن ما كان ليبدو صعبًا بل ومستحيلًا بالنسبة إلى امرأة أخرى، لم يُبرِز للكونتيس بيزوخوف أيَّة مادة للتفكير، وهي التي كانت بحق تظهر امرأة متفوِّقة. فلو أنها حاولت أن تخفي سلوكها وأن تعمد إلى الحيَل لتنقذ نفسها من الارتباك، لأفسدت بذلك كل شيء، ولكان عملها بمثابة الاعتراف بخطئها، لكن هيلين على العكس، كرجل عظيم حقيقي يقدِر على كل ما يريد، وضعت بجانبها الحق المكتسب الذي كانت تظن أنها تمشي بوحيه، وألقت التبِعة على الآخرين.

وأول مرة سمح الأمير الأجنبي لنفسه أن يوجِّه إليها اللوم، نصبت رأسها الجميل بكبرياء، والتفتت نصف التفاتة إليه وقالت له بلهجة مطمئنة: «ها هي أنانية الرجال وقسوتهم! ما كنت أتوقع شيئًا آخر، إن المرأة تضحِّي بنفسها من أجلكم فتتألم، وها هو ذا جزاؤها! أي حقٍّ لك يا صاحب السيادة في أن تسألني علمًا عن صداقاتي وأحبائي؟! إنه أبٌ كان أكثر من أبٍ بالنسبة إليَّ.»

وأراد الأمير أن يقول كلمة في هذا المضمار، لكن هيلين قاطعته قائلة: «حسنًا، نعم، يجوز أنه يشعر نحوي بعواطف غير عواطف الأب، لكن هذا ليس سببًا يوجب أن أغلق بابي دونه. إنني لست رجلًا لأكون جحودة. اعلم يا صاحب السيادة أنني لا أُسأل في كل ما له علاقة بعواطفي الشخصية إلا أمام ربي وضميري.»

ولقد أنهت حديثها بهذا القول وهي ترفع يدًا إلى صدرها الجميل الذي علا من الانفعال، وتشخص بأبصارها إلى السماء.

– «ولكن أصغِي إليَّ بحق السماء.»

– «تزوَّجني فأكون عبدتك.»

– «لكن هذا مستحيل.»

– «إنك لا تتنازل بالانحدار إلى مستواي، أنت ...»

وانفجرت باكية.

حاول الشخص رفيع المقام أن يهدِّئها، لكن هيلين قالت له خلال عباراتها دون أن تتظاهر بأنها تستعطفه إن ما من أحد يستطيع أن يمنعه من الزواج، وإن هناك أمثلة مماثلة للطلاق — ولم يكن الطلاق شائعًا حينذاك، لكنها أوردت على سبيل المثال نابليون وبعض الشخصيات الأخرى، وأنها لم تكن قط زوجة بعلها، بل كانت ضحية.

اعترض الأمير الشاب وقد كاد أن يستسلم: «لكن القوانين، الدين ...»

فقالت هيلين: «القوانين، الدين ... أية فائدة من وصفها إذا لم تكن مفيدة في مثل هذه الحالات؟!»

مضى الأمير الكبير الذي أذهله أن تكون مثل هذه الفكرة البسيطة لم تخطر على باله من قبل، يستشير الآباء المقدَّسين من صحبة يسوع الذي كانت تربطه بهم صلات وثيقة.

وبعد بضعة أيام، قدَّموا إليها في إحدى الحفلات اللامعة، التي كانت هيلين تحييها في دارة كاميني-أوستروف، رجلًا في سنٍّ ما، أبيض الشعر كالثلج، أسود العينين برَّاقهما، السيد دوجوبير البطر، يسوعي في ثوب قصير. ولقد تحدَّث في الحديقة على أنغام الموسيقى على ضوء المشاعل، فترة طويلة مع هيلين حول حب الله والمسيح وقلب مريم المقدَّس والسلوان الوحيد الذي يعد به في هذه الدنيا والدنيا الآخرة، الإيمان الوحيد الحقيقي الذي هو الدين الكاثوليكي، فتأثرت هيلين تأثُّرًا عميقًا، حتى إن الدموع انبجست مرارًا في عينَيْها وعينَي السيد دوجوبير، وارتعد صوتها من الانفعال أكثر من مرة. ولقد جاء راقص يدعوها فقطع حديثها مع مدير ضميرها المقبل. وفي اليوم التالي، جاء السيد دوجوبير وحده مساءً إلى دار هيلين، ومنذ ذلك الحين أصبح من المواظبين على زيارتها.

وذات يوم، قاد الكونتيس إلى كنيسة كاثوليكية، فركعت أمام المذبح؛ حيث قادها ذلك الفرنسي الفتَّان الذي تخطَّى سنَّ الشباب اللامع، ووضع يديه على رأسها، وحينئذٍ — وهذا ما روته فيما بعد — أحسَّت بشيء أشبه بالنفحة المنعشة يتغلغل في أعماقها، ففسَّروا لها أن ذلك الشيء هو «الغفران».

ثم جاءوها بقسيس ذي جبَّة طويلة، سمع اعترافها ومنحها الغفران. وفي اليوم التالي، جاءوها بعُلبة تحتوي على القربان المقدَّس، تركوها عندها رهن إشارتها. ولم تمضِ أيام حتَّى علمت هيلين بارتياح شديد أنها الآن باتت تنتسب إلى الكنيسة الحقيقية الكاثوليكية، وأن البابا سوف يحاط علمًا بذلك، وأنه سيرسل إليها وثيقة بهذا المعنى.

ولقد عاد عليها كل ما حدث حينذاك في نفسها وحولها وما حظيت به من عناية شخصيات مرموقة جدًّا كانت تظهر لها بوسائل رقيقة جدًّا ومقبولة، ونقاء الحمام الذي باتت عليه وهي التي اقتصرت في أرديتها على الأثواب البيضاء المزينة بأشرطة بيضاء. كل ذلك عاد عليها بكثير من الرضى، لكن ذلك الرضى ما كان يجعلها تُضيع دقيقة واحدة الهدفَ الذي وضعته نُصب عينيها، لكنها لم تلبث أن أدركت كما يحدث عادةً في عالم الخداع عندما يمكر أحمق دائمًا بالأكثر ذكاءً، أن كل هذه الكلمات والتصرفات كانت تهدف إلى غاية واحدة؛ وهي استخلاص المال منها لصالح اليسوعيين الذين أهدوها إلى الكثلكة؛ إذ ألمحوا إلى ذلك أمامها. وقبل أن تعتذر هيلين قدَّمت شروطها. أرادت أن ينهوا لمصلحتها الرسميات بطلاقها؛ فالأديان في نظرها — كل الأديان — ليست صالحة إلا لإنقاذ الآداب عندما تكون الأهواء البشرية موضع البحث. وعلى ذلك، فإنها خلال إحدى محادثاتها مع هاديها، سألته بحزم أن يقول لها إلى أي حدٍّ باتت روابط الزواج تربطها.

كانا جالسَين في البهو قرب النافذة المفتوحة التي كان عبير الزهور ينفذ إليهما عن طريقها. وكانت هيلين مرتدية ثوبًا أبيض شفافًا عند الصدر والكتفين، والقسيس — وهو رجل سمين ممتلئ الخدَّين حليق بأناقة — ذو فم شهواني بديع الخطوط، جالسًا بالقرب منها ويداه البيضاوان معقودتان بتواضع على ركبتيه، والابتسامة الرقيقة تتيه على شفتيه. كان يتأملها من حين إلى آخر بنظرة متأثرة بهدوء جمالها، وهو يفسر لها وجهة نظره حول الموضوع الذي يشغلهما. وكانت هيلين تبتسم في شيء من القلق وهي تنظر إلى هذا الرجل ذي الشعر العكف والخدَّين الممتلئين النظيفين، وتتوقَّع بين آونة وأخرى أن يحيد بهما الحديث عن الموضوع، لكن القسيس رغم وقوعه تحت سلطان فتنتها، كان مستسلمًا لسيطرته على أعصابه التي هي من صميم عمله.

كان مدير الضمير يحلِّل الأمر كالآتي: «لقد أقسمتِ يمين الإخلاص وأنتِ جاهلة الواجبات التي تتعهَّدين بها لرجل عقد من جانبه زواجًا دون أن يؤمن بأهميته الدينية؛ ومن هنا قد ارتكب هذا الرجل دنسًا حقيقيًّا. إن هذا الزواج لم يحمل طابعَ التبادل الذي وجب أن يحمله. مع ذلك، فإن يمينك قد ربطتك برغم ذلك وأنتِ تحنثين الآن بها.

فماذا أتيتِ تبعًا لذلك؟ هل هي خطيئة عرضية أم خطيئة مميتة؟ خطيئة عرضية؛ لأنكِ بارتكابها لم تكوني مدفوعة بنوايا سيئة، فإذا تزوَّجتِ الآن من جديد وأنتِ تهدفين إلى إنجاب الأطفال، فإن خطيئتكِ يمكن أن تُغتفر، لكنَّ للمسألة رغم ذلك وجهين: الأول ...»

قالت هيلين فجأةً وقد أزعجتها هذه المحاضرات، متسلِّحة بابتسامتها الساخرة: «لكنني أظن أنني ما عدت مرتبطة بتعهدات فرضتها عليَّ الديانة الخاطئة وأنا التي اعتنقت الدين الحقيقي.»

أُخِذ مدير الضمير؛ إذ رأى مسألة بيضة كولومبوس تعرِض أمامه بكل هذه البساطة، ولقد فتنه التقدم السريع غير المنتظَر من جانب تلميذته، لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتنكَّر لأسلوبه الحججي الذي بُني بمجهود كبير، فقال وهو يبتسم: «لنتفق يا كونتيس.» وراح ينقض حجج ابنته بالروح.

الفصل السابع

رسالة هيلين

كانت هيلين عارفة أن المسألة غاية في البساطة والسهولة من الوجهة الدينية، وأن أدلَّاءها لا يثيرون مثل هذه العقبات إلا خشيةً من الاستقبال الذي ستقيمه السلطة العلمانية لهذا النبأ.

وعلى ذلك، فقد قرَّرت أن تُعِد الرأيَ العام لتقبُّل طلاقها. أيقظت بادئ الأمر غيرة حاميها العجوز، ثم خاطبَتْه بمثل ما خاطبت به المدنف الآخر بالضبط، ملمِّحةً إلى أن الوسيلة الوحيدة التي تعطيه حق الإشراف عليها إنما هي زواجه بها. ولقد شُدِه الكبير العجوز لأول وهلة كما شُدِه من قبلُ الأمير الشاب إزاء عرض الزواج هذا تُقدِّمه امرأة زوجُها على قيد الحياة! لكن هيلين كانت تكرِّر بثقة ثابتة أن هذا الأمر على غاية السهولة، طبيعي مثل زواج فتاة عزباء. فانتهى به الأمر هو الآخر إلى الاقتناع. فلو أنها أظهرت خجلًا أو ترددًا أو رئاءً، لضاعت الصفقة بالنسبة إليها، لكن الأمر جرى على عكس ذلك؛ إذ راحت ببساطة وبراءة ومزاج صافٍ تروي لأصدقائها الخُلَّص (وهم كل بيترسبورج) أن الأمير والسيد الكبير عرضا عليها الزواج، وأنها تحب كل واحدٍ منهما، فلا تريد أن تسبِّب إزعاجًا لأحدهما.

ولقد راجت الشائعة في بيترسبورج كلها، ليس أن هيلين تريد الطلاق؛ لأن مثل هذه الإشاعة كانت قمينة باستفزاز أشخاص كثيرين ضد هذه المحاولة غير القانونية، بل إن هيلين التعيسة المغرية تتساءل في حيرة عن أي الاثنين تتزوَّج. فالمسألة إذن لم تعد قائمة على مدى إمكانية تحقيقها، بل فقط على أي الصفقتين أفضل، ورأي البلاط في الموضوع. صحيح أنه كان هنالك بعض الأشخاص المتأخرين العاجزين عن التسامي إلى مرتبة هذه المشكلة، ظلوا يرون في هذا المشروع تدنيسًا لقدسية الزواج، لكن هؤلاء كانوا قلة، وكانوا يلزمون الصمت، أما السواد الأعظم، فإنه ما كان ليهتم إلا بسعادة هيلين وبالانتقاء الذي

سيقَرُّ رأيها عليه. أما معرفة ما إذا كان الزواج على حياة الزوج خيرًا أم شرًّا، فإن ما من أحد بحث فيه؛ إذ لا بدَّ وأن يكون الأمر قد وُجد له مخرج سلفًا من قِبل أشخاص «أكثر علمًا واطلاعًا منك ومني»، فلم يكن الأمر إذن يستدعي الشك في شرعية هذا القرار؛ إذ ما من أحد كان يرغب في أن يظهر في المجتمع اللامع بمظهر الأحمق أو سيئ الاطلاع.

باستثناء ماري دميترييفنا آخر وسيموف القادمة حديثًا إلى بيترسبورج لزيارة أحد أبنائها، فإنها وحدها التي سمحت لنفسها بالتعبير عن رأيها بصراحة مضادَّة للرأي العام؛ إذ بينما قابلت هيلين في حفلة راقصة، استوقفتها وسط البهو أمام الناس كلهم وقالت لها بصوتها القاسي وسط السكون الذي ران: «ها إنهم هنا عندكِ يتزوَّجن وأزواجهنَّ على قيد الحياة، فهل تعتقدين أنكِ ابتكرتِ شيئًا جديدًا؟ إنك متأخرة يا عزيزتي، لقد وجدوا هذا منذ وقت طويل. إنه هو ما يعملون في كل الـ ...» وكانت ماري دميترييفنا تشمِّر عن أكمامها بحركة تهديدية مألوفة وهي تتابع حديثها، وبعد أن صعقت هيلين بنظرة محرقة، تابعت طريقها.

وكانت ماري دميترييفنا رغم المهابة التي توحيها إلى الناس، تعتبر في بيترسبورج على جانب من الجنون؛ لذلك فإن السامعين لم يحفظوا من كلماتها إلا فظاظة الكلمة الأخيرة، فكانوا يردِّدونه بينهم بصوت خافت، واجدين أنه يلخِّص جوهر ما كانت تريد أن تقوله كله.

وكان الأمير فاسيلي الذي أصبح ينسى ما قاله منذ حين ويكرِّر الشيء نفسه مائة مرة، وخصوصًا في الآونة الأخيرة، يقول لابنته كلما جاء لزيارتها: «هيلين، عندي كلمة أقولها لكِ.»

وينتحي بها جانبًا ثم يقول: «لقد تناهت إليَّ لمحات عن مشاريع معيَّنة تتعلق بـ... تعرفين، حسنًا يا ابنتي العزيزة، إنكِ تعرفين أن قلبي كأب يُسَرُّ إذ يعلم أنكِ ... لقد تألَّمت كثيرًا ... ولكن يا طفلتي العزيزة ... لا تستشيري إلا قلبكِ. هذا كل ما أقوله لكِ.»

ثم يدلِّك وجنته بوجنة ابنته وهو يُخفي حركة آمرة ويبتعد.

قال بيليبين الذي لم يفقد قط شهوته كنقَّاد لَبِق، والذي كان صديقًا مجرَّدًا لهيلين، صديقًا كالأصدقاء الذين يتخذنهم سيدات المجتمع الراقيات، صديق لا يقع أبدًا في دور العاشق؛ قال بيليبين هذا ذات يوم لصديقته هيلين رأيه حول الموضوع كله في مؤتمر صغير.

– «أصغِ يا بيليبين (وكانت هيلين دائمًا تدعو الأصدقاء من طراز بيليبين بأسماء عائلاتهم) — ووضعت يدها البيضاء المثقلة بالخواتم على كُمِّ ثوبه وهي تتكلَّم — قل لي كما تقول لأختٍ ماذا يجب عليَّ أن أعمل؟ أيُّ الاثنين؟»

فجعَّد بيليبين بشرة جبهته فوق حاجبَيْه، وراح يفكر والابتسامة على شفتيه. قال: «إنكِ لو علِمتِ لن تأخذيني على حين غِرَّة، لقد فكَّرت كصديق حقيقي وأعدتُّ التفكير في مسألتك، فأنتِ كما ترين لو تزوَّجتِ الأمير (وكان يعني الأمير الشاب) فقدتِ — وراح يعدِّد على أصابعه — إلى الأبد فرصة الزواج من الآخر، ثم أثرتِ سخط البلاط؛ لأنه كما تعلمين هناك رابطة نسب. لكنكِ إذا تزوَّجتِ الكونت العجوز أسعدتِ أيامه الأخيرة، ثم عندما تصبحين أرملة العظيم ... فإن الأمير لن يرتكب غلطة الارتباط مع أدنى إذا تزوَّجكِ.»

وهنا أسبل بيليبين بشرة جبهته، فقالت هيلين مشرقة الوجه وهي تضع من جديد يدها على كُمِّ بيليبين: «ها هو ذا صديق حقيقي، لكن المسألة أنني أحب هذا وذاك، ولا أريد إحزانهما. إنني أضحِّي بحياتي لسعادتهما كليهما.»

هزَّ بيليبين كتفيه معلنًا بذلك عجزه عن مواساة هذا الألم.

فكَّر بيليبين: «امرأة خليلة! هذا ما يسمَّى طرح السؤال بشكل سافر. إنها تود أن تتزوَّج الثلاثة معًا.» سألها وهو يأمل أن تكون شهرة من الاستقرار بحيث تسمح له بطرح سؤال على مثل هذه السذاجة: «ولكن قولي لي كيف سينظر زوجكِ إلى الموضوع؟ هل سيوافق؟»

هتفت هيلين وهي تظن كذلك — والله أعلم بالسبب — أن بيير يحبها أيضًا: «آه! إنه يحبني كثيرًا! إنه سيعمل كل شيء من أجلي.»

عاد بيليبين يجعِّد جبهته، الأمر الذي يعني أنه يعد كلمة مناسبة. قال: «حتَّى الطلاق.»

فانفجرت هيلين ضاحكة.

كانت الأميرة كوراجين والدة هيلين في عداد الذين سمحوا لأنفسهم بالارتياب في شرعية الزواج. لقد كانت تحسد ابنتها دائمًا، والآن وقد باتت أسباب الغيرة منها تحس قلبها على مدى أقرب، فإنها ما كانت تستطيع احتمال هذه الفكرة. ذهبت تستشير قسيسًا روسيًّا حول الحالات التي يمكن الطلاق فيها، وما إذا كان يحق للمرأة أن تتزوَّج وزوجها على قيد الحياة. فقال لها القسيس إن المسألة لا يمكن أن تجري، وأشار — لشديد بهجتها — إلى نص الإنجيل الذي ينفي بحزم كل إمكانية للزواج في مثل هذه الشروط.

وذات صباح، بكَّرت بالذهاب عند ابنتها بغية الانفراد بها، وهي مسلحة بهذه الحجج التي اعتبرت أنها لا تقبل النقض.

طافت ابتسامة رقيقة ساخرة على شفتَي هيلين إزاء اعتراضات أمها، وكرَّرت الأميرة العجوز: «نعم، لقد جاء فيه بصراحة: مَن يتزوج امرأة مطلَّقة ...»

فقالت هيلين وهي تنتقل من الروسية إلى الفرنسية؛ لأنه كان يُخيَّل إليها دائمًا أن في قضيتها بعض الغموض بالروسية: «آه! أماه، لا تتفوهي بحماقات، إنكِ لا تفقهين شيئًا، إن عليَّ واجبات وأنا في مركزي.»

– «ولكن يا عزيزتي ...»

– «آه! أماه، كيف لا تعرفين أن الأب المقدَّس له الحق في منح استثناءات؟ ...»

وفي تلك اللحظة، جاءت السيدة مرافِقة هيلين تعلن أن سعادته في البهو، وأنه يرغب في رؤيتها.

– «كلا، قولي له إنني لا أريد رؤيته، وإنني غاضبة عليه؛ لأنه حنث بكلمته معي.»

فقال شاب أشقر طويل الوجه طويل الأنف وهو يدخل: «أيتها الكونتيس، لكل خطيئة عفو.»

نهضت الأميرة العجوز باحترام، وانحنت انحناءة عميقة، فلم يتنازل القادم الجديد بإقطاعها نظرة. أشارت الأميرة برأسها إلى ابنتها وتسلَّلت نحو الباب.

حدَّثت الأميرة العجوز نفسها: «نعم، إنها على حق.» وتبخَّرت كل الموانع أمام ظهور سموِّه. «إنها على حق. كيف جرى أننا خلال شبابنا الذي ولَّى ولن يعود، لم نعرف كل هذه الأشياء؟ مع أنها كانت سهلة جدًّا.» تلك كانت أفكارها وهي تستقلُّ عربتها.

وفي بداية آب، تركَّزت مشاكل هيلين، فكتبت إلى زوجها الذي يحبها كثيرًا على ما كانت تظن، رسالةً أخطَرَتْه فيها بأنها اعتنقت الدين الحقيقي الوحيد، وأنها تفكر في الزواج ﺑ «ن. ن.» وترجوه بالتالي أن يقوم بالإجراءات اللازمة للطلاق، وهي الإجراءات التي سيعيِّنها له حامل الرسالة.

وعلى هذا، فإنني أرجو الله يا صديقي أن يأخذك بحمايته المقدَّسة القوية.

صديقتك: هيلين

ولقد حملت هذه الرسالة إلى مسكن بيير، في حين كان هذا في معسكر بورودينو.

الفصل الثامن

محنة بيير

للمرة الثانية، قُرب نهاية المعركة، غادر بيير «بطارية» راييفسكي، وفرَّ مع جماعة الجنود نحو كنياز كوفو عن طريق وادٍ، فوصل إلى مستشفًى، لكنه أمام مشهد الدم والصرخات والأنين، ابتعد عن المكان مسرعًا مختلطًا بالزحام.

وكان ما يرغب فيه الآن هو أن يخرج بأسرع ما يمكن من هذه المشاهد المريعة التي ملأت نهاره، وأن يعود إلى الحياة العادية فينام هادئًا في غرفته، في سريره. شعر بأنه لكي يرى بوضوح ما في أعماقه، لكي يفهم كل ما رأى ومرَّ به منذ حين، يجب قبل كل شيء أن يستعيد ظروفه الحياتية المألوفة، لكن تلك الظروف لم يعُد لها وجود.

لم تعُد القذائف والرصاص تصفِّر على الطريق الذي راح يسير فيه، مع ذلك فإنه كان من كل الجهات أشبه بساحة المعركة. في كل مكان، تلك الوجوه المتألمة القلِقة المطبوعة أحيانًا بلا مبالاة غريبة، وفي كل المكان الدم والجنود في معاطفهم، وفرقعة تبادل الرصاص، التي رغم الابتعاد عن مكانها قليلًا، ما كانت فاقدة شيئًا من هولها. وفوق كل ذلك، الحرارة والغبار الخانِقَان.

وبعد أن اجتاز حوالي ثلاثة فراسخ على طريق موجائيسك العام، توقَّف بيير عند جانب الطريق.

بدأ الغسَق ينسدل على الأرض، وصَمَت دويُّ المدافع. تمدَّد بيير وظل ممدَّدًا هكذا فترة طويلة متكئًا على مرفقَيْه، يراقب بعينيه الأطياف التي تمرُّ بجانبه في الظلام. كان يخيَّل إليه باستمرار أن قذيفة آتية نحوه ولها صفير، فينتفض وينتصب. لم يستطِع قط أن يتذكَّر الوقت الذي أمضاه في ذلك المكان. وعند منتصف الليل، جاء ثلاثة من الجنود يجرُّون أغصانًا وراءهم، فأوقدوا النار بالقرب منه.

أخذوا ينظرون إلى بيير بجانب أعينهم وهم منهمكون في إعداد موقدهم، ثم كسروا قطع «البقسماط» في قصعاتهم، وأضافوا إليها قليلًا من الدهن. ولم تلبث رائحة الطعام الطيبة أن امتزجت برائحة الدخان، فنهض بيير وأطلق زفرة، وكان الجنود الثلاثة يأكلون وهم يتحدَّثون فيما بينهم، غير آبهين له.

وفجأةً سأل أحد الجنود بيير: «وأنت، من أي فيلق أنت؟»

وبالطبع لم يكن معنى السؤال إلا: «إذا شئت أطعمناك، ولكن يجب أولًا أن تقول لنا ما إذا كنت شريفًا.»

هتف بيير وهو يشعر بضرورة الحطِّ من قيمته الاجتماعية؛ كي يصبح أقرب إلى نفوسهم فيفهمونه أكثر: «أنا؟ أنا؟ … أنا، ضابط في فِرق المتطوعين، لكن فرقتي لم تعُد هنا. لقد جئت إلى المعركة فأضعت رجالي.»

قال أحدُ الجنود: «تأمل هذا.»

وهزَّ جندي آخر رأسه، فقال الأول: «حسنًا، كُلْ إذا كان الطعام يعجبك!»

ومَدَّ إلى بيير الملعقة الخشبية بعد أن لعقها.

جلس بيير أمام النار وراح يأكل الطعام في القصعة نفسها، فلم يبدُ له طعامٌ قط أشهى من هذا. وبينما هو منحنٍ فوق القصعة يجمع الطعام ويلتهمه بملاعق مملوءة، الملعقة تلو الأخرى، راح الجنود يتأملون وجهه الذي تضيئه النار صامتين. سأل أحدهم من جديد: «حسنًا، والآن من أي طريق يجب أن تذهب؟»

– «إنني ذاهب إلى موجائيسك.»

– «ألست سيدًا؟»

– «بلى.»

– «وما هو اسمك؟»

– «بيوتر كيريلوفيتش.»

– «حسنًا يا بيوتر كيريلوفيتش، إلى الأمام وسندلُّك على الطريق.»

وتوجَّه الجنود وبيير نحو موجائيسك في ظلام دامس.

ولَمَّا بلغوا هضبة موجائيسك كان الديك يصيح، فشرعوا يرتقون السفح المنحدر الذي يؤدي إلى المدينة. كان بيير يتبع الجنود، وقد نسي تمامًا أن نُزُلَه قائم عند سفح التل. ولقد تجاوزه وما كاد ليذكر لشدة انشغاله، لولا أن اصطدم عند منتصف السفح بخادمه المرافق الذي كان عائدًا إلى النُّزل بعد أن ظل يبحث عنه في موجائيسك. تعرَّف الخادم في

الظلام على بيير من قبَّعته البيضاء، فقال: «يا صاحب السعادة، لقد كنا في أقصى حالات اليأس. كيف؟ أنت تمشي على قدميك؟ تعالَ أرجوك!»

فقال بيير: «آه! نعم.»

وتوقَّف الجنود. سأل أحدهم: «إذن، ها قد وجدتَ ذويك! الوداع إذن يا بيوتر كيريلوفيتش على ما أظن.»

وقال الآخرون: «الوداع يا بيوتر كيريلوفيتش.»

فكَّر بيير وهو يستعد لاتباع خادمه حتَّى النُّزل: «الوداع.»

فكَّر وهو يمدُّ يده إلى جيبه: «أن أعطيهم شيئًا!» لكن صوتًا داخليًّا أجابه: «كلا، لا يجب.»

لم يعد هناك مكان في غرف النُّزل؛ إذ شُغلت كلها، فمضى بيير إلى الفناء ونام في عربته وقد غطَّى رأسه بمعطفه.

الفصل التاسع

العودة إلى موسكو

لم يكَد بيير يضع رأسه على الوسادة حتَّى شعر بأنه ينام. مع ذلك، فقد سمع فجأةً وبوضوح الحقيقة نفسها دويَّ المدافع: بم، بم، بم، والأنين والصيحات وانفجارات القنابل وشمِّ رائحة الدم والبارود، فاستبدَّ به الذعر والهول من الموت. وفي وسط ذلك الرعب فتح عينيه ورفع رأسه من تحت المعطف، فإذا بكل شيء هادئ في الفناء، وأمام البيت الخارجي كان تابِع في طريقه يثرثر مع البوَّاب ويمشي في الطين، وفوق رأسه في ظل ألواح الرواق، راح الحمام يصفق بجناحيه وقد أخافته الحركة التي أتى بها وهو ينهض. كان الفناء كله يتضوَّع بتلك الرائحة القوية الهادئة التي تفوح من الخانات، والتي كانت في تلك الأثناء تنعش بيير: رائحة العلف والدم والقار. ومن خلال الفجوة التي بين الرواقين، كانت السماء الصافية تطلُّ بنجومها.

فكَّر بيير وهو يغطِّي رأسه من جديد: «شكرًا لله، لقد انقضى كل هذا. أوه! يا له من خوف رهيب! ويا للعار إذ استسلمت له! في حين أنهم ... هم ظلوا طيلة الوقت وحتى النهاية صامدين هادئين ...»

و«هم» في نظر بيير، هم الجنود، جنود «البطارية»، الجنود الذين أطعموه، أولئك الذين كانوا يصلُّون أمام الأيقونة. «هم»، هم أولئك الأشخاص غريبو الأطوار الذين ظلوا مجهولين منه حتَّى ذلك الحين، أولئك راحوا يبرزون في مخيِّلته بوضوح فيطغون على كل ما عداهم من الرجال.

أخذ بيير يفكِّر وهو يعاود النوم: «أن أكون جنديًّا، لا أكثر من جندي، أن أدخل بكل روحي في هذه الحياة الشائعة المشتركة، وأن تعتلج في نفسي تلك العواطف التي تجعلهم كما هم. ولكن كيف الخلاص من كل عبء الحياة الخارجية التافه الشيطاني؟ لقد مضى وقت كنت أستطيع خلاله أن أكون كذلك، كنت أقدر على الفرار من لدن أبي كما

كنت مقرِّرًا. كذلك كنت قادرًا بعد مبارزتي مع دولوخوف أن أُرسَل إلى الفيلق كجندي.» وراحت الصور في مخيلة بيير تتلاحق: ذلك العشاء في النادي أولًا حيث استفز دولوخوف، ثم المحسن إليه في تورجوك. تصوَّر بعدئذٍ اجتماعًا جليلًا في المحفل. لقد عقد ذلك الاجتماع في النادي الإنجليزي، وكان بعضهم أليف قريب عزيز يجلس إلى رأس المائدة، آه! إنه هو! إنه المحسن! وفكَّر بيير: «لكنه مات! نعم، لقد مات، وما أعرف أنه سيحيا من جديد. كم أَسِفت لموته! كم أنا مسرور أن يعود إلى الحياة!» كان آناتول ودولوخوف ونيسفيتسكي ودينيسوف وآخرون جالسين على جانب من المائدة، وكانت الزمرة التي ينتمي إليها هؤلاء الناس من الوضوح والدقة في نفس بيير بما يماثل الزمرة التي راح يدعوها «هم»، وكان هؤلاء الناس وآناتول ودولوخوف يصرخون ملء حناجرهم ويغنُّون، لكن صوت المحسن كان يطغى على أصواتهم. كان يتكلَّم دون ملل، فكانت لهجة ذلك الصوت رغم ما فيها من مستحَبٍّ ومسلٍّ، آمرة ومسترسلة، أشبه بدويٍّ ساحة المعركة، ما كان بيير يفهم ما يقوله المحسن، لكنه كان يعرف مع ذلك — لشدة ما تكون الأفكار من هذا النوع جلية في الأحلام — أنه يتكلَّم عما هو خير، وعن إمكانية الانقلاب إلى ما «هم» عليه، وكانوا «هم» يحيطون بالمحسن من كل الجهات بوجوههم الباسلة البسيطة الطيبة. ولكن رغم طيبتهم فإنهم ما كانوا ينظرون إلى بيير، وما كانوا يعرفونه، فأراد بيير أن يقول شيئًا، وأن يجتذب انتباههم، فنهض. وفي تلك اللحظة شعر بالبرد في ساقَيْه اللتين خرجتا من تحت الغطاء.

أحسَّ بالخجل، فأعاد بإحدى يديه معطفه الذي انزلق على ساقَيْه، وبينما كان بيير يسوِّي معطفه، فتح عينيه فطالعته الأروقة نفسها والأعمدة نفسها والفناء نفسه، ولكنه تحت ضوء مائل إلى الزُّرقة، مزيَّن بالندى اللامع والجمد الأبيض.

فكَّر بيير: «ها هو ذا الفجر، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا. يجب أن أُصغي حتَّى النهاية وأن أفهم أقوال المحسن.» عاد بيير يغيِّب نفسه تحت معطفه، لكن لم يعُد هناك محفل ولا محسن، لم يبقَ له إلا الإصغاء إلى آراء أُخذت توضِّحها كلمات ينطق بها بعضهم ويصيغها أولًا بأول.

ولَمَّا تذكَّر تلك الآراء فيما بعد، التي لم تنجم إلا عما رآه خلال ذلك النهار، ظل مقتنعًا أن شخصًا ما خارجيًّا عنه قالها له، خُيِّل إليه أنه ما كان يستطيع قط في حالة اليقظة أن ينعم بأفكار مماثلة، وأن يعبِّر عنها بنفسه.

كان الصوت يقول: «إن أصعب ما في الوجود هو إخضاع الحرية الإنسانية للقانون السماوي. أن يكون المرء بسيطًا يعني أن يخضع لله ولا يمكن الإفلات منه. و«هم» بسطاء، «هم» لا يتكلمون، ولكن يفعلون. إن الكلام من فضة، ولكن الصمت من ذهب، والرجل لا قيمة له طالما ظل يخاف الموت، وكل شيء مِلكٌ للذي لا يخافه. إن الإنسان — لولا الألم — لا يستطيع معرفة حدوده ولا معرفة نفسه. إن أصعب ما في الوجود هو — كما ظل بيير يسمع، أو بالأحرى يفكِّر — هو أن يوحِّد المرء في نفسه معاني الأشياء.» وتساءل: «إن كلها؟ كلا، إنه غير صحيح. إنه يتعذَّر توحيد الأفكار، وإذن يجب ربطها. هذا ما يجب! نعم، «يجب ربطها، ربطها»!» وراح يردِّد بيير هذه العبارة بحماس داخلي وهو يشعر بأن هذه الكلمات — وهذه الكلمات وحدها — تعبِّر عما يريد أن يقول، وتحلُّ كل المسألة التي تعذِّبه.

– «نعم، يجب ربطها، لقد آن الوقت أن تُربط.»

فردَّد الصوت.

– «يجب قطر الخيول، لقد آن وقت قطرها يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة، يجب قطر الخيول، لقد أزِف الوقت.»[١]

وكان ذلك هو صوت خادمه المرافق الذي جاء يوقظه، وكانت الشمس تغمر وجه بيير بضيائها. نظر إلى فناء الخان القذر الذي كان في وسطه بئر راح بعض الجنود يوردون إليها خيولًا نحيلة، بينما راحت عربات تجتاز الباب الخارجي. أشاح بيير بوجهه متقزِّزًا، وأغمض عينيه، ثم حشر نفسه بشدة على مقعد عربته. «كلا، لا أريد رؤية هذا، لا أريد رؤيته ولا فهمه، أريد فقط أن أعرف ما كُشف عنه الغطاء لي خلال نومي. لو تأخرت ثانية أخرى لاستوعبت كل شيء. وماذا يجب لي؟ أن أربط، نعم، ولكن كيف أربط كل شيء؟» وشعر بيير برعب أن المعنى العميق لِمَا رآه وفكَّر فيه بالحلم قد انهار.

روى الخادم والحوذيُّ والبوَّاب لبيير أن ضابطًا حمل نبأ تقدُّم الفرنسيين على موجائيسك وتراجُع رجالنا.

نهض بيير وأمر بأن تقطر الخيول، وأن يلحقوا به، ثم مضى مشيًا على قدميه عبر المدينة.

[١] ذكر المترجم إلى الفرنسية أن كلمتَي «ربط وقطرة» باللغة الروسية لهما جرس واحد، وأن الأفعال الروسية بهذا المعنى لا تختلف إلا بالمقطع الذي تبدأ به الكلمة فحسب.

كانت القطعات قد ذهبت مخلِّفة وراءها قرابة عشرة آلاف جريح، وكان هؤلاء يُرون في الأفنية ووراء نوافذ المنازل وجماعات متراصَّة في الشوارع، وحول العربات التي كان عليهم أن تحملهم، كانت الصرخات والشتائم ترتفع، بل وكانوا يتبادلون اللكم. ولقد قدَّم بيير عربته التي لحقت به إلى جنرال جريح كان يعرفه، فحمله إلى موسكو. وخلال الطريق اطلع بيير على نبأ موت أخي زوجه والأمير آندريه.

الفصل العاشر

قصة النداء

وصل بيير إلى موسكو في الثلاثين من الشهر، وعندما بلغ المدخل جاء مساعد عسكري للكونت روستوبتشين يلقاه. قال المساعد العسكري: «إننا نبحث عنك في كل مكان. إن الكونت يرغب رغبةً ملحَّة في رؤيتك. إنه يستدعيك لأمرٍ غاية في العَجلة.»

وبدلًا من أن يذهب إلى منزله، استقل بيير عربة عامة ومضى لمقابلة الحاكم.

كان روستوبتشين قد عاد ذلك الصباح بالذات من دارته في سوكولنيكي القائمة في الضاحية. وكانت ردهته وغرفة استقباله غاصَّة بالموظفين الذين استدعاهم، أو الذين جاءوا لوحدهم للتزود بالأوامر. ولقد استطاع فاسيلتشيكوف وبلاتوف أن يقابلاه من قبل، وأن يشرحا له استحالة الدفاع عن موسكو التي يجب تسليمها. وكان هذا النبأ الذي ظلوا حتَّى ذلك الحين يخفونه عن السكان، معروفًا من الموظفين ومن رؤساء مختلف الإدارات. لقد كانوا يعرفون كما يعرف روستوبتشين نفسه أن موسكو ستقع بين أيدي العدو، فجاءوا كلهم رغبةً منهم في التخلص من المسئولية، يسألون الحاكم عما يعملونه بالخدمات الموكولة إليهم.

وفي الوقت الذي دخل فيه بيير غرفة الاستقبال كان ساعٍ موفَد من قِبل الجيش يخرج من مكتب الكونت.

ولقد أجاب بحركة يائسة على الأسئلة التي راحوا يلقونها عليه عبر القاعة.

أخذ بيير يُسرِح عينيه المتعبتين في مختلف الموظفين بين كهول وشبَّان عسكريين ومدنيين، الموجودين هناك وهو ينتظر دوره. لقد كانوا جميعًا تنطق تقاطيعهم بالاستياء والقلق، فانضم بيير إلى زُمرةٍ شاهَد في عدادها بعضَ معارفه. وبعد أن حيَّوه عاد الحديث إلى سياقه: «إن تسريحه، ثم استدعاءه فيما بعد، لن يكون ذا شأن سيئ طالما أنه لا يمكن التكهُّن بشيء حول الوضع الذي نحن فيه ...»

فقال آخر وهو يعرض ورقة مطبوعة أمسك بها في يده: «نعم، لكن ها هو ذا، إنه يكتب ...»

فاستأنف الأول: «إن هذا مختلف. إنه واجب من أجل الشعب.»

سأل بيير: «ما الخبر؟»

– «هذا. إنه آخر منشور له.»

أخذ بيير المنشور فقرأ فيه ما يلي:

إن الأمير عظيم الرفعة، بغية الالتحاق بالقطعات التي تمشي للقائه بأسرع ما يمكن، قد اجتاز موجائيسك وتمركز في موقع حصين لا يستطيع العدو أن يداهمه فيه، ولقد أرسل إليه من هنا ثمانية وأربعين مدفعًا مع ذخائرها. إنَّ عظيم الرفعة يؤكِّد أن موسكو سيُدافع عنها حتَّى آخر قطرة من الدم، وأنه على استعداد للقتال حتَّى في الشوارع. أيها الإخوان، لا تقلقوا إذا كانت الخدمات العامة قد توقَّفت، كان لا بدَّ من وضعها في مكان أمين. أما نحن، فإننا سوف نسوِّي حسابه، ذلك اللص! عندما يحين الوقت، أكون بحاجة إلى فتيات أشدَّاء مدنيين وقرويين. سوف أُطلِق صرخة النداء في غضون يوم أو اثنين. أما الآن، فإنني أصمت لأنه لا لزوم لذلك. سيكون مناسبًا أن يمتلك المرء فأسًا، ولا بأس من أن يكون لديه حَربة، بل وأفضل أن يكون مسلَّحًا بمنجل؛ فالفرنسي ليس أثقل وزنًا من حزمة الخرطال. غدًا بعد الغداء، سأنظِّم موكبًا دينيًّا يحمل أيقونة أيبيريا للجرحى في مستشفى كاتيرين، وهناك سنبارك الماء فيشفون بسرعة أكثر. إنني أنا الآخر قد شُفيت الآن؛ لقد أُصبت بألم في عيني، والآن بتُّ أرى بعينَيَّ الاثنتين.

هتف بيير: «لكن العسكريين قالوا لي إنه لا يجب التفكير في القتال في المدينة، وإن الموقع ...»

فقال الموظف الأول: «نعم، وهذا ما كنا بصدد التحدث عنه.»

سأل بيير: «وما معنى: «أُصِبت بألم في عينَيَّ والآن بتُّ أرى بعينَيَّ الاثنتين»؟»

شرح المساعد العسكري والابتسامة على شفتيه: «لقد أصيب الكونت بشحاذ العين. لقد تعذَّب كثيرًا عندما قلت له إن الشعب جاء يسأل عن أخباره.»

وأضاف دون أن يكفَّ عن الابتسام وهو يخاطب بيير: «وعلى فكرة، كونت؟ لقد سمعنا أنك متعرِّض لمتاعب زوجية، وأن الكونتيس زوجتك ...»

قال بيير بلا مبالاة: «ليست لديَّ أنباء عن ذلك. ماذا يقولون؟»

– «آه! إنك تعلم أن هذه الأمور تكون غالبًا من بنات الأفكار. إنني ما سمعت.»

– «وماذا يقولون؟»

استأنف المساعد العسكري يقول بالابتسامة نفسها: «يقولون إن الكونتيس زوجتك ستسافر إلى الخارج. لا ريب أنه أمر مستحيل.»

فقال بيير وهو يُجيل حوله نظرة ساهمة: «إنه ممكن الوقوع.»

ثم سأل وهو يشير إلى كهل قصير أبيض شعر اللحية والحاجبَيْن كالثلج، قرمزي الوجه، يرتدي «قفطانًا» أزرق شديد النظافة: «وهذا، من هو؟»

– «هذا؟ إنه تاجر، أو على الأصح خمَّار اسمه فيريشتشاجين. لا بدَّ وأنك سمعت بقصة النداء.»

هتف بيير وهو يتأمل وجه الكهل التاجر الهادئ الحازم دون أن يجد فيه تعبيرًا عن الخيانة: «آه! إنه فيريشتشاجين!»

قال المساعد العسكري شارحًا: «إنه ليس هو، إنه والد الرجل الذي كتب النداء. أما الشاب ذاك، فقد أودعوه أسفل زنزانة عميقة، وأظن أنه يستحق ذلك.»

اقترب كهل صغير على صدره وسام، وموظف ألماني آخر يتدلَّى وسامه حول عنقه، من المتكلمين، بينما استرسل المساعد: «كما ترى، إن قصة ذلك النداء حافلة بالغموض، إنها ترجع إلى شهرين أو ثلاثة أشهر، ولقد أنهوها إلى الكونت فأمر بفتح تحقيق، وشرح كافريل إيفانيتش في أبحاثه فوجد أن ذلك النداء قد مرَّ بثلاثٍ وستين يدًا، جيء بأحد المذنبين وسُئل: ممَّن أتيت به؟ من فلان وفلان، فيذهبون إلى الآخر: وأنت، ممن؟ وهكذا ... بذلك وصلوا إلى فيريشتشاجين ... تاجر صغير غير ماكر، كما تعلم — وأضاف المساعد العسكري ضاحكًا — شخص صغير عادي، سألوه: «من أين جئت بهذا؟» هذا مع أننا كنا نعرف الذي أعطى النداء إليه؛ إذ ما كان يمكن أن يحصل عليه إلا من مدير البريد، وكان واضحًا أنهما متواطئَين، فأجاب: «ليس من أحد، إنني أنا الذي كتبته.» هدَّدوه وضغطوا عليه، لكنه ظل يؤيد كلامه، ولقد قُدِّم التقرير إلى الكونت فاستقدم الشخص: «من أين جئت بهذا النداء؟ إنني أنا الذي كتبته».»

وأردف المساعد العسكري بابتسامة الفخور العابث: «وأنت تعرف الكونت! لقد أرغى وأزبد، تصور: سفاهة لهذه الدرجة وعناد إلى هذا الحدِّ في الكذب!»

قال بيير: «نعم، إنني أفهم، لقد كان الكونت يريده على أن يشي بكيليوتشاريف.»

رد المساعد العسكري مذعورًا: «أبدًا، ليس بالضرورة، لقد كان كيليوتشاريف يحمل وزر بعض الخطيئات الصغيرة، فنُفي من أجلها، لكن ما كان مؤكَّدًا هو أن الكونت كان خارجًا عن طوره. سأله: «كيف استطعت أن تدبِّج هذا؟» وأخذ من على المائدة جريدة هامبورج. «ها هو ذا! إنك لم تدبِّجه، بل ترجمته، وترجمة رديئة؛ لأنك لا تعرف الفرنسية أيها الغبي!» ثم ماذا تظن؟ لقد أجاب ذاك: «كلا، إنني لم أقرأ أية صحيفة، لقد أنشيته بنفسي.» «إذن، طالما الأمر كذلك فأنت خائن، وسأقدِّمك للمحاكمة، سوف تُشنق، اعترف ممن أخذته؟» «إنني لم أقرأ أية صحيفة، بل أنشيته بنفسي.» وأصرَّ على هذا الكلام. استدعى الكونت أباه كذلك، ولكن دون جدوى! إنه يأبى الاعتراف، ولقد حاكموه وحكموا عليه بالأشغال الشاقَّة على ما أظن، والآن جاء الأب يلتمس الرحمة لابنه، لكنه مواطن رديء، أنت تعلم، إنه واحد من أبناء التجار هؤلاء، حقير المنزلة، مغازِل القرويات. لقد درس في مكانٍ ما، وعلى ذلك فإن الملك ليس ابن عمه. نعم، إنه فتًى غريب، إن أباه يدير دكَّان شواء عند جسر بطرس. وتصوَّر، إن لديه أيقونة كبيرة للإله الأب، ممسكًا بإحدى يديه الصولجان، وبالأخرى الكرة الأرضية. لقد حملها إلى منزله لبضعة أيام، ثم ماذا عمل؟! لقد وجد رسَّامًا سافلًا ...»

الفصل الحادي عشر

اختفاء بيزوخوف

وفي غمار هذا الحديث الجديد، استُدعي بيير للدخول على الحاكم.

وفي اللحظة التي دخل بيير إلى المكتب، كان الكونت روستوبتشين مقطَّب الحاجبَيْن، يمر بيده على عينيه وجبهته، وكان رجلًا مربوع القامة مسترسِلًا في التحدث إليه، فصمت وخرج. قال روستوبتشين حينما ذهب رجله: «آه! مرحبًا أيها المحارب الشهير، لقد سمعناهم يتحدَّثون عن إقدامك وشجاعتك، لكن الأمر لا علاقة له بهذا.»

استرسل يقول بلهجة صارمة وكأن الانتساب إلى الماسونية جريمة، لكنه يريد أن يكون رحيمًا: «يا عزيزي، الكلام بيننا أنك ماسونيٌّ.»

فصمت بيير بينما استرسل الكونت: «إنني يا عزيزي على يقين من صحة معلوماتي، مع ذلك فإني آمل أن يكون هناك ماسوني وماسوني، وأنك لست من أولئك الذين يريدون ضياع روسيا بحجة إنقاذ الجنس البشري.»

أجاب بيير: «نعم، إنني ماسوني.»

– «حسنًا، تأمَّل يا عزيزي، إنك لا تجهل أن السيدَين سبيرانسكي ومانييتسكي أُرسلوا إلى مكان أمين، وأن السيد كيليوتشاريف وآخرين من الذين يزعمون إعادة بناء هيكل سليمان وهم يجهدون في تهديم هيكل الوطن، قد لقوا مثل هذا المصير. ولا بدَّ وأنك تعلم أننا كنا مدفوعين ببعض الأسباب المبررة لانتهاج هذا السبيل، وأنني ما كنت لأنفي مدير بريد موسكو لو لم يكن رجلًا خطيرًا. ولقد علمت أنك أرسلت له عربتك الجاهزة ليغادر المدينة فيها، بل وأنه عهِد إليك ببعض الأوراق. إنك عزيز عليَّ، ولا أرغب في أن يصيبك أيُّ أذًى، ولمَّا كنت أبلغ ضِعف ما لكَ من سنٍّ، فإنني أوصيك كأبٍ أن تكفَّ عن علاقاتك مع أشخاص من هذا النوع، وأن تذهب أنت بنفسك من هنا بأسرع ما يمكن.»

سأل بيير: «ولكن يا كونت، ما هو ذنب كيليوتشاريف؟»

صرخ روستوبتشين: «عليَّ أنا أن أعرف، وليس عليك أن تسألني.»

قال بيير دون أن ينظر إلى روستوبتشين: «إنهم يتهمونه بتوزيع منشورات نابليون، لكن هذا لم يثبت بالدليل، أما فيريشتشاجين ...»

فقاطعه روستوبتشين مقطِّبًا حاجبَيْه وهو يتجاوز في الصراخ ويقول: «ها نحن أولاء ... إن فيريشتشاجين رجل باع ضميره، خائن سيلقى جزاءه.»

كان الحاكم يصرخ بلهجة يستعملها الأشخاص الذين يتذكَّرون إهانةً شخصية: «لكنني لم أستدعِك لتناقش تصرفاتي. لقد استدعيتك لأعطيك نصيحة أو أمرًا إذا شئت تحرِّي الصراحة، إنني أرجوك أن تتوقَّف عن أي اتصال مع أشخاص من طراز كيليوتشاريف، وأن ترحل من هنا. سوف أجعلهم جميعًا يعزفون عن جنونهم مهما بلغ عددهم.»

ولا ريب أنه شعر بتجاوزه الحد وهو يهدِّد بيزوخوف بهذا الشكل، رغم أن هذا لم يرتكب أية مخالفة، فهتف وهو يمسك بذراعه بحركة ودية: «إننا على وشك الوقوع في دمار عام، وليس لديَّ من الوقت ما يمكنني من التحدُّث بجمل لطيفة مع كلِّ مَن لهم شأن معي! إن المرء أحيانًا يصاب بدوار! حسنًا يا عزيزي، ماذا تعمل أنت شخصيًّا؟»

أجاب بيير دون أن يرفع عينيه أو أن يبدِّل أمارات وجهه الساهمة: «لا شيء البتة.»

ومن ثم، قطَّب الكونت حاجبَيْه: «نصيحة صديق يا عزيزي، ارحل بأسرع ما يمكن، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك، والخلاص للمصغي إلى النصح! وداعًا يا عزيزي.»

وبينما هو يجتاز عتبة الباب هتف يستوقفه: «آه! على فكرة، هل حقيقةٌ أن الكونتيس قد وقعت بين براثن الآباء المقدَّسين لصحبة يسوع؟»

لم يُجِب بيير، وخرج من لدن روستوبتشين مقطَّب الحاجبَيْن في حالة من الهياج لم يُرَ من قبلُ على مثلها قط.

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل إلى مسكنه، ولقد جاء إليه سبعة أو ثمانية أشخاص مختلفين خلال تلك الأمسية: أمين سر اللجنة، زعيم لوائه، مسجِّله، رئيس خَدَمه وبعض ذوي المصالح. ولكلٍّ منهم أعمال يريد تصفيتها. ما كان بيير يفقه شيئًا من هذه الأمور، ولم يكن ليهتم بها، فكان يجيب على الأسئلة بغية التخلص من هؤلاء الأشخاص فحسب. وأخيرًا، عندما خلا لنفسه فضَّ غلاف رسالة زوجته وقرأها.

– ««هم»، يعني جنود البطارية، الأمير آندريه الذي قُتل ... الكهل ... البساطة هي الخضوع لله ... ضرورة الألم ... معنى الأشياء ... الارتباط ... زوجتي تتزوَّج من جديد ... يجب النسيان والفهم ...»

وألقى بنفسه على سريره دون أن يخلع ثيابه، فلم يلبث أن نام.

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي، أخبره رئيس الخدم أن الكونت روستوبتشين أرسل شرطيًّا يستعلم عما إذا كان الكونت بيزوخوف قد ذهب أم هو يتأهَّب للرحيل.

وكان في البهو حوالي عشرة أشخاص ينتظرونه لحاجات لهم، فأصلح بيير زينته بسرعة، ولكن بدلًا من أن يدخل على المنتظرين لجأ إلى سُلَّم الخدم وخرج من باب الفناء.

ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية تدمير موسكو، لم يرَ أحد من أشخاص بيته الكونت بيزوخوف، وعلى الرغم من كل الأبحاث لم يعرف أحدٌ ماذا حلَّ به.

الفصل الثاني عشر

آل روستوف

ظل آل روستوف في موسكو حتَّى أول أيلول؛ أي إلى أمسية اليوم الذي دخل العدوُّ فيه المدينة.

بعد التحاق بيتيا في فيلق قوقازي أوبولنسكي وذهابه إلى بييلايياتسيركوف؛ حيث كان ذلك الفيلق يتشكَّل، استولى الخوف على الكونتيس.

أخذت فكرة وجود ولديها في الحرب بعيدين عن جناحها، وأن اليوم أو غدًا سيُقتَل أحدهما أو كلاهما، كما قُتل الأبناء الثلاثة لصديقتها، أخذت هذه الفكرة تغزو رأسها لأول مرة طيلة الصيف بوضوح ممقوت، فاجتهدت في أن تعيد نيكولا إلى قُربها، وأرادت أن تلحق ببيتيا، وأن تعيِّنه في مكان ما في بيترسبورج. لكن كل هذا بدا لها مستحيلًا؛ فبيتيا لا يمكن أن يعود إلا مع فيلقه، أو يفضِّل نقله إلى فيلق آخر. ونيكولا كان في مكان غير معلوم تمامًا وقد انقطعت أخباره بعد رسالته الأخيرة التي روى فيها قصة لقائه مع الأميرة ماري. ولم تعُد الكونتيس تذوق طعم النوم، فإذا ما أغفت ليلًا رأت ولديها في منامها قتيلَيْن. وبعد استشارات ومشاورات جمَّة، تخيَّل الكونت أخيرًا أنه وجد الوسيلة لتهدئتها؛ نَقَل بيتيا من فيلق أوبولنسكي إلى فيلق بيزوخوف الذي كان يشكَّل قرب موسكو، وبذلك كان يمكن للكونتيس، رغم بقاء بيتيا في الخدمة العسكرية، أن تجد العزاء بوجود واحد من ولدَيْها قريبًا منها تحت جناحها؛ آمِلًا ألَّا يبتعد عنها بعد ذلك، وأن يستطيع إقراره في بعض المهام التي لا يتعرَّض فيها للاشتراك في الحرب. كان يبدو للكونتيس — كما كانت تعترف بنفسها — أن ابنها البكر مفضَّل على أولادها الآخرين طالما هو غائب ومعرَّض للخطر، ولكن عندما ذهب ابنها الأصغر، ذلك الطفل الذي كان يرفض أن يتعلَّم شيئًا ويحطِّم كل شيء في البيت، ويزعج كل إنسان فيه، عندما ذهب بيتيا هذا ذو الأنف الأفطس والعينَيْن السوداوين الماكرتين والوجه المتورِّد النضير الذي لم ينبت على وجنتيه إلا ما

يشبه الزغب، عندما ذهب إلى هناك بين الفتيان الكبار الضارين الرهيبين الذين يقتتلون ويجدون متعة في ذلك، حينئذٍ خُيِّل إلى الأم أنها كانت تحب هذا الفتى أكثر بكثير، ولحدٍّ لا يقاس، من أولادها الآخرين. وكلما اقتربت اللحظة التي كان بيتيا هذا المنتظِر بفارغ صبر سيعود فيها إلى موسكو، ازداد قلق الكونتيس. كانت تفكِّر حينذاك أنها لن تعرف السعادة بعد ذاك. ولم يكن حضور سونيا وحده هو الذي يسخطها، بل كذلك معبودتها ناتاشا وزوجها نفسه. كانت تفكِّر: «ما حاجتي إليهم؟ لست في حاجة إليهم. إن بيتيا هو الذي أريده.»

في الأيام الأخيرة من شهر آب، تلقَّى آل روستوف رسالة ثانية من نيكولا، كان يكتب من حكومة فورونيج؛ حيث أرسلوه لتدارُك خَيْل للفرسان، فلم تهدِّئ رسالتُهُ الكونتيس؛ ذلك أنها حينما علمت أن واحدًا من ولدَيْها خارج منطقة الخطر، راح عذابها يتضاعف من أجل بيتيا.

وعلى الرغم من أن كل معارف آل روستوف تقريبًا غادروا موسكو منذ العشرين من آب، بعضهم إثر بعض، وأن كل الناس نصحوا للكونتيس بأن ترتحل بأسرع وقت، فإنها لم تشأ أن يَرِدَ ذكر الرحيل في حضرتها قبل أن يعود كنزها؛ بيتياها الحبيب. وأخيرًا عاد في الثامن والعشرين، فلم يَرُق لهذا الضابط ذي الأعوام الستة عشر ذلك الحنان المدنف المَرَضي الذي استقبلته به أمه! ولقد عملت جاهدةً على أن تخفي عنه خطتها الرامية إلى عدم السماح له بعد ذلك بالإفلات من العُشِّ، لكن بيتيا أدرك نيتها السرية، فراح يعاملها ببرود؛ خشيةَ أن يلين أو أن يتخنَّث بين طيَّات ثوب أمه — كما كان يفكِّر بينه وبين نفسه — وظل كذلك طيلة بقائه في موسكو ساعيًا، جهدُهُ تحاشي اللقاء بها والبقاء مع ناتاشا التي كان يشعر نحوها دائمًا بحبٍّ أخوي خاص يكاد أن يكون غرامًا.

وبسبب لا مبالاة الكونت، فإن ما من شيء كان معدًّا للرحيل يوم الثامن والعشرين، ولم تصل العربات التي كان ينتظرها من إقطاعية ريازان ومن ضاحية موسكو إلا في الثلاثين.

ولقد عرفت موسكو بين الثامن والعشرين والواحد والثلاثين من آب اضطرابًا محمومًا، ومن يوم إلى آخر عن طريق مدخل دوروجوميلوف الكائن غربي المدينة، كانوا يأتون بالألوف من جرحى بورودينو ويُجْلُونهم، بينما كانت ألوف العربات المحمَّلة بالناس والأمتعة تخرج من المدينة عن طريق الأبواب الأخرى. وعلى الرغم من منشورات روستوبتشين — بل ولعلها هي السبب — كانت الشائعات الأكثر غرابةً وتناقضًا تروج:

فالبعض كان يزعم أن الرحيل أصبح ممنوعًا، والبعض الآخر على العكس يؤكِّد أنهم رفعوا الأيقونات مع الكنائس، وأنهم يطردون الناس كلهم بالقوة. وفلان يزعم أنهم اشتبكوا مع الفرنسيين في معركة أخرى في بورودينو فهزم هؤلاء، وآخر يزعم أن الجيش الروسي كله قد أُبيد. هذا يؤكِّد أن المتطوعين الموسكوفيين سيذهبون إلى «الجبال الثلاثة» وعلى رأسهم رجال الدين، وذاك يهمس في أذنك أن الحَبْر «متروبوليت» أوجوستين لم تعُد له حرية الحركة، وأنهم أوقفوا بعض الجواسيس، وأن القرويين الثائرين يسلبون القوافل على الطرق ... إلخ ... إلخ، لكن هذه كلها لم تكن إلا ثرثرات. أما الحقيقة، فكانت أن الذين يذهبون كالذين يبقون، رغم أن المجلس العسكري الذي عُقد وتقرَّر فيه إخلاء موسكو لم يكن قد عُقد بعدُ. كانوا يشعرون بأن موسكو لا ريب مسلَّحة للعدو، وأنه يجب الارتحال بأسرع ما يمكن وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات. وكانوا كلهم يشعرون شعورًا مسبقًا بأن كل شيء سينهار فجأةً ويتبدَّل. مع ذلك، فإن ما من شيء تبدَّل في اليوم الأول من أيلول، وظلَّت موسكو، التي لا تجهل شيئًا عن مصيرها الوشيك وعن الانقلاب في الشروط الحياتية الذي سيعقب ذلك، مستمرَّةً رغم كل شيء في حياتها الطبيعية، أشبه بالمحكوم الذي يساق إلى الإعدام، والذي يعرف أن كل شيء سينتهي بالنسبة إليه بعد لحظات، لكنه مع ذلك يظلُّ يتلفَّت حوله، بل ويسوِّي قلنسوته التي مالت قليلًا.

تخبَّطت أسرة آل روستوف خلال الأيام الثلاثة التي سبقت سقوط المدينة في بلبال مبعثه مشاكل الخدم، فربُّ الأسرة الكونت إيليا آندريئيفيتش ما كان يكفُّ عن التنقل هنا وهناك سعيًا وراء الأخبار، بينما كان يتخذ في البيت استعدادات غامضة غير كاملة وارتجالية تتعلَّق بالرحيل.

كانت الكونتيس تراقب حزم الأمتعة وهي دائمة التذمُّر، لا تَنِي تبحث عن بيتيا الذي كان يعمل ما يستطيع لتحاشيها، وتغار من ناتاشا التي كان يُمضي جُلَّ وقته بقربها. أما الناحية العلمية، فكانت سونيا وحدها تهتمُّ بها وتعد الرزم، لكن سونيا أصبحت منذ بعض الوقت حزينة صامتة. ولقد استفزَّت رسالة نيكولا التي تحدَّث فيها عن الأميرة ماري، ملاحظات بهيجة نطقت بها الكونتيس في حضورها؛ إذ كانت ترى إصبع الله وراء لقاء الأميرة ونيكولا ابنها. كانت تقول: «لم أبتهج قط عندما تقدَّم بولكونسكي لخِطبة ناتاشا، لكنني رغبت دائمًا في أن يتزوَّج نيكولاي الصغير بالأميرة، وعندي شعور مسبق بأن هذا الزواج سيتم. آه! كم سيكون جيدًا!»

وكانت سونيا تشعر أن هذه هي الحقيقة، وأن الوسيلة الوحيدة التي يستطيع آل روستوف أن يطفوا بها من أعماق اللجَّة التي سقطوا فيها، هي زواج ابنهم بتلك الوارثة، لكن ذلك كان أليمًا على نفسها. وعلى الرغم من حزنها — بل ولعله بسبب حزنها — تعهَّدت بكل مشاكل الرحيل وحزم الأمتعة، حتى إنه لم يعد لديها دقيقة تفكِّر فيها. وكان الكونت والكونتيس يعتمدان عليها لإصدار الأوامر اللازمة. أما بيتيا وناتاشا، فعلى العكس؛ إنهما لم يُغفِلا مساعدة ذويهما فحسب، بل كانا كذلك يزعجان ويربكان كل الموجودين في أغلب الأحيان؛ فالبيت كله كان طيلة النهار يردِّد صدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما التي ليس لها ما يبرِّرها. كانا يضحكان ويتسليان لا لسبب خاص، بل لأن روحهما مبتهجة، ولأن كل ما كان يحدث كان بالنسبة إليهما سببًا للضحك والانشراح. لقد كان بيتيا مرحًا؛ لأنه أصبح رجلًا، بل وعملاقًا قويًّا (على حد قول كل الناس)، وهو الذي غادر البيت فتًى. وكان سعيدًا بالعودة إلى بيته، سعيدًا بالتفكير في أنه بدلًا من بقائه في بييلاييياتسيركوف، حيث لم يكن له أمل في خوض غمار القتال، سيكون في موسكو حيث المعركة وشيكة النشوب. وكان سعيدًا أكثر من كل شيء؛ لأن ناتاشا — التي كان يتبنَّى كل حالاتها النفسية — على مزاج مرح. أما ناتاشا، فكانت مبتهجة الآن؛ لأنها ظلَّت حزينة زمنًا طويلًا، وأن ما من أحدٍ أصبح يذكِّرها بموجبات حزنها، ولأنها استعادت صحتها. وكانت منشرحة الصدر كذلك؛ لأنه كان لديها رجل يعجب بها، وإعجاب الآخرين بها كان بمثابة الزيت الذي لا غِنى عنه لحركة آلتها؛ وهذا المعجَب هو بيتيا. كانا مبتهجَيْن بصورة خاصة؛ لأن الحرب باتت على أبواب موسكو؛ ولأنهم سوف يقتتلون عند أبوابها، وسيوزِّعون الأسلحة، ولأن الناس كلهم يهرعون ويهربون إلى جهة ما، وأخيرًا، لأن شيئًا ما خارقًا قد وقع، وهو الأمر الذي يفتن دائمًا وخصوصًا مَن هم في سنِّ الشباب.

الفصل الثالث عشر

الضباط الجرحى

بدا كل شيء مقلوبًا رأسًا على عقب في بيت آل روستوف يوم السبت الواحد والثلاثين من آب. كانت الأبواب كلها مفتوحة على مصاريعها، والأثاث منقول من أمكنته، والمرايا واللوحات مرفوعة. وفي الغُرف تكدَّست الصناديق وتناثر القش وورق الحزم وقِطَع الحبال في كل مكان، وراح القرويون وعبيد الأسرة يروحون ويغدون بخطوات ثقيلة حاملين الأمتعة، وفي الفناء تزاحمت العربات، بعضها محمَّل ومربوط بالحبال، والبعض الآخر ينتظر حمولته.

وفي كل مكان، كانت الخطوات والأصوات ترتفع؛ فالخدم الكثيرون لدى آل روستوف والقرويون الذين جاءوا مع العربات، كانوا يتبادلون النداءات التي أخذت تدوِّي في الفناء وفي البيت، وكانت الكونتيس التي أصيبت بالصداع بسبب الضجَّة والحركة الدائبة، ممدَّدة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمَّادات الخل. أما بيتيا، فكان غائبًا؛ إذ ذهب يزور رفيقًا بغية السعي معه إلى الانتقال من فِرَق المتطوِّعين إلى الجيش النظامي. وكانت سونيا في البهو الكبير تُشرف على حزم النجف والخزَف، وناتاشا جالسة على الأرض في غرفتها المقلوبة بين الأثواب والشالات المبعثرة تمسك بين يديها ثوبًا قديمًا من ثياب الرقص بطل زيه، ذلك الذي ارتدته في أول حفلة لها في بيترسبورج، وتتأمل الأرض ساهمة مفكِّرة.

كانت تشعر بالخجل إذ تبقى عاطلةً دون عمل في البيت، في حين أن كل من فيه مشغول، فراحت تحاول مرات عديدة منذ الصباح أن تجد لنفسها ما يشغلها، لكنها لم تكن راغبة في العمل، لا تعرف ولا تقدر على الشروع في شيء دون أن تستغرق فيه بكل روحها وكل قواها. أرادت أن تحلَّ محل سونيا في حزم الخزف، لكنها لم تلبث أن هجرت هذا العمل لتعود إلى حجرتها وتسوِّي متاعها الشخصي. لقد تسلَّت بادئ الأمر بتوزيع

أثوابها وأشرطتها على وصيفاتها، ولمَّا بات عليها أن تعود إلى حزْم ما تبقَّى لديها، بدا لها الأمر مزعجًا.

– «دونياشا يا عزيزتي، سوف تقومين بالرزم؟ نعم؟ نعم، أليس كذلك؟»

ولمَّا وعدتها دونياشا بأن تعمل كل شيء، جلست ناتاشا على الأرض، وأمسكت بثوبها القديم الخاص بالرقص، واستغرقت في ذكرياتها التي لم يكن لها أي دخل مع ما كان يجب أن يكون شاغلها في تلك اللحظة. ولقد انتُشِلت من تأمُّلاتها على أصوات حديث الخادمات في غرفتهنَّ المجاورة وصوت خطوات سريعة ذاهبة من تلك الغرفة نحو سلم الخدم. نهضت ناتاشا ومضت تُطِلُّ من النافذة، فرأت قافلة كبيرة من الجرحى متوقفة في الشارع.

وكان الخدم والوصيفات والقيِّم ومربِّية الأطفال العجوز والطهاة والسائقون والسُّيَّاس والمرافقون على الباب يتأمَّلون الجرحى.

ألقت ناتاشا منديلًا أبيض على شعرها، ونزلت إلى الشارع وهي تمسك المنديل من طرفَيْه بيدها.

خرجت المديرة السابقة مافرا كوزمينيتشنا من بين الجَمْع المحتشد أمام الباب، واقتربت من إحدى العربات المغطاة بطوق فوقه سماط من الجلد. دخلت في حديث مع ضابط شاب شاحب الوجه، كان ممدَّدًا بداخلها، وتقدَّمت ناتاشا بضع خطوات دون أن تترك طرفَي المنديل، وتوقَّفت مروَّعة تصغي إلى ما تقوله المديرة.

سألت مافرا كوزمينيتشنا: «كيف هذا بالله؟! أليس لك أحد في موسكو؟ إنك ستكون أكثر هدوءًا في مسكن هنا مثلًا ... عندنا. إن السادة راحلون.»

فقال الضابط بصوت ضعيف: «لست أدري إذا كان مسموحًا به. ها هو ذا الرئيس ... سَلِيه.»

وأشار إلى طبيب ضخم كان ينزل الشارع على طول خطِّ العربات.

ألقت ناتاشا نظرةً مذعورة على الجريح، وجرت للقاء الطبيب. سألته: «هل نستطيع إيواء جرحى عندنا؟»

ابتسم الطبيب ورفع يده إلى حافة عَمْرته، وقال وهو يغمز بعينيه ويثابر على الابتسامة: «ماذا يمكن تقديمه لكِ من خدمات يا آنسة؟»

كرَّرت ناتاشا سؤالها بهدوء ووجهها وكل مظهرها ينطقان بالجد، رغم أنها ظلَّت ممسكة بطرفَي منديلها، وأن الماجور كفَّ عن الابتسامة. وبعد أن فكَّر هذا وكأنه يتساءل عن مدى ما يمكنه إعطاء مثل هذا الإذن، أجابها قائلًا: «ولكن بلى، ولِمَ لا؟ يمكن.»

أومأت ناتاشا برأسها إشارة خفيفة، وعادت مسرعة إلى مافرا كوزمينيتشنا التي كانت منحنية فوق المريض تتحدَّث معه بحنان، همست ناتاشا في أذنها: «يمكن. لقد قال إنه ممكن!»

انعطفت العربة التي تحمل الجريح لتدخل في باحة آل روستوف، في حين راحت عشرات من العربات الأخرى المتجمِّعة على طول شارع بوفارسكاييا تدخل أفنية المنازل المجاورة بناءً على تدخل سكانها. ولقد ظهر الافتتان على وجه ناتاشا لهذا التماس مع عالم جديد بعيدًا عن كل اعتبارات الحياة العادية.

سعت تؤازرها مافرا كوزمينيتشنا إلى أن تُدخِل إلى الفناء أكبر عدد ممكن من الجرحى. قالت مافرا كوزمينيتشنا: «يجب على أية حال إعلام أبيك.»

– «ولماذا؟ أليس ذلك سيَّان؟ ما الفائدة؟! إننا نستطيع أن نقضي ليلتنا الوحيدة في البهو. إننا قادرون على منح أجنحتنا كلها للجرحى.»

– «لكنك لا تفكِّرين في الأمر يا آنسة، يجب الحصول على إذن حتَّى في سبيل التصرف باللواحق والأشياء المتداوَلة وغرف الخدم.»

– «حسنًا، سأمضي للحصول على الإذن.»

دخلت ناتاشا تجري إلى البيت، ودخلت على أطراف قدميها إلى المخدع الذي كانت تسبح فيه رائحة الخل ونقط «هوفمن».

– «أماه، هل أنتِ نائمة؟»

فقالت الكونتيس التي انتفضت؛ لأنها أغفت منذ حين: «آه! كيف أستطيع أن أنام؟»

ركعت ناتاشا وضغطت وجهها على وجه أمها وقالت: «يا أمي الصغيرة العزيزة، صفحًا، لن أعود إلى مثلها. لقد أيقظتكِ. إنها مافرا كوزمينيتشنا التي أرسلتني. لقد جاءوا بضباط جرحى منذ حين. هل تسمحين؟ إنهم لا يعرفون إلى أين يمضون. إنني واثقة من أنكِ ستسمحين ...»

وكانت تتحدث مندفعة دون أن تلتقط أنفاسها، فقالت الكونتيس: «أي ضباط؟ من الذي أتى بهم؟ لست أفقه شيئًا!»

انفجرت ناتاشا ضاحكةً، فابتسمت أمها بدورها.

– «كنت أعرف أنكِ ستقولين نعم ... وها أنا ذاهبة لأقوله لهم.»

قبَّلت ناتاشا أمها ونهضت ثم خرجت.

وفي البهو، قابلتْ أباها الذي كان داخلًا يحمل أنباءً سيئة. قال ووجهه مكتئب دون عمد: «لقد تأخَّرنا كثيرًا جدًّا! لقد أُغلق النادي ورحل رجال الشرطة.»

سألته ناتاشا: «بابا، هل من مانع إذا أنا أدخلت جرحى إلى بيتنا؟»

أجابها بلهجة ساهمة: «بالطبع لا مانع. لكن الأمر لا يتعلَّق بهذا. إنني أطلب أن نكفَّ عن الاهتمام بالترَّهات، وأن يعمد كلٌّ منا إلى العمل لنكون جاهزين كلنا حتَّى نذهب غدًا، غدًا منذ الصباح ...»

كرَّر الكونت هذا الأمر على رئيس الخدم والخدم، وعاد بيتيا عند الظهر يحمل هو الآخر أنباءً.

روى أن الشعب خلال النهار مضى إلى الكريملن ليتسلَّح، وأنه رغم نشرات روستوبتشين التي زعمت أنه سوف يُطلِق صرخة النداء قبل يومين أو ثلاثة أيام، فقد أقيمت الاستعدادات للذهاب منذ الغد بالسلاح الكامل إلى الجبال الثلاثة حيث ستقع معركة كبرى.

أخذت الكونتيس تتأمَّل وجه ابنها الملتهب بالانفعال بذعر خجول خلال استغراقه في الكلام. كانت تعلم بأنه يكفي أن تقول لبيتيا ألَّا يذهب إلى تلك المعركة — وهي التي رأت أن تلك الفكرة هي التي تبهجه — حتَّى تجعله يتحدَّث مالئًا الدنيا عن البسالة والشرف والوطن. سوف ينطق بكل أنواع الحماقات بعناد صبياني ودون أن يتقبَّل النقض فيضيع كل شيء؛ لذلك فقد كانت تأمل أن تصبح جاهزة للرحيل قبل نشوب المعركة، وأن تصحب ابنها معها بوصفه حاميها والمُدافِع عنها. وعلى هذا، فإنها لم تعقِّب على حديث بيتيا بكلمة، ولكن ما إن انتهوا من تناول الطعام حتَّى انتحت بالكونت جانبًا وتوسَّلت إليه خلال دموعها السخيَّة أن يذهب بها بأسرع ما يمكن، في تلك الليلة بالذات إذا كان الرحيل ممكنًا. أكَّدت بالمكر البريء الخاص بالنساء الذي يصنعه الحب، أنها — وهي التي ظلت حتَّى ذلك الحين غير آبهة بالخطر — ستموت من الخوف إذا لم يرحلوا تلك الليلة بالذات. ولم يكن قولها مجرد خدعة، ما كانت تتظاهر بالخوف، بل كانت فريسة خوفٍ حقيقيٍّ.

الفصل الرابع عشر

الأمير آندريه

زادت السيدة شوسي التي كانت في زيارة ابنتها، مخاوف الكونتيس عندما روت لها ما شاهدته لتوِّها قُرب مستودع الكحول في شارع مياسنيتسكايا.

لم تستطِع أن تجتاز هذا الشارع على قدميها بسبب جماعة السكارى التي كانت تملؤه؛ فاستقلَّت عربةً وجاءت عن طريق شارع صغير إلى بيت الكونتيس. ولقد روى لها الحوذيُّ أن الجمهور يحطِّم براميل المستودع؛ لأن الأمر ينص على ذلك.

بعد تناول الطعام، شرع كل من في بيت آل روستوف يعمل بسرعةٍ مبعثُها التحمُّس لإنهاء الرزم قصد إعداد الرحيل، وفجأةً اهتم الكونت العجوز بالموضوع بنفسه، فلم يكفَّ عن التنقُّل بين الفناء والبيت، وعلى العكس، وهو يزجر رجاله الذين ما كانوا يسرعون بالقدر الذي يريد، وهو الذي يريد أن تضاعف سرعتهم، واهتمَّ بيتيا بالفناء، فوضعه تحت أوامره، ولم تعُد سونيا تعرف أين تعمل وسط أوامر الكونت المتناقضة، وراح الخدم يصرخون ويتماحكون بصخب ويجرون عبر الغرف والباحة، بينما اندفعت تعمل بذلك الانكباب الذي تبديه عندما تعمل. ولقد تقبَّلوا مساعدتها في شئون الحزم بشيء من التحفُّظ بادئ الأمر؛ إذ ما كانوا يتوقعون منها أكثر من فراهات، وبالتالي لم يُظهروا رغبة في الإصغاء إليها، لكنها أبدت عنادًا وطالبت بحرارة أن يصغي إليها، وكادت أن تبكي لإغضائهم عن الاستماع إليها حتَّى انتهى بهم الأمر إلى تصديقها. ولقد اقتضاها عملها الأول مجهودات عظيمة، وأعطاها سلطانًا. كان ذلك العمل هو حزم النجد؛ لأن الكونت كان يمتلك هوايات طائشة إلى جانب نجده العجمية. ولَّما شرعت ناتاشا في العمل كان في البهو صندوقان مفتوحان: الأول مملوء حتَّى حافته بالأواني الخزفية، والثاني بالنجود. وكان على المناضد المختلفة كثير من هذه الأواني التي راح الخدم يأتون بها من المدَّخرات، فكان يجب إعداد صندوق ثالث ذهب الخدم للإتيان به.

قالت ناتاشا: «انتظري يا سونيا، أعتقد أننا نستطيع إيداع كل شيء في هذين الصندوقين.»

فقال الخازن: «مستحيل يا آنسة، لقد حاولنا من قبل.»

– «ولكن لا، انتظر قليلًا.»

وشرعت ناتاشا تُخرِج من الصندوق الأطباق والصحاف الملفوفة بالورق بسرعة وهي تقول: «يجب وضع هذه الأطباق هنا بين النجود.»

فأضاف الخازن: «ولكن النجد وحدها تتطلَّب ثلاثة صناديق.»

انتظر قليلًا وسترى.

وراحت ناتاشا تُخرِج الأشياء بسرعة وتقول وهي تشير إلى خزف كييف: «لا يجب وضع هذا هنا.» ثم تلتفت إلى أطباق الخزف من صنع الساكس وتؤكد: «هذا، نعم، هذا يمكن وضعه بين النجود.»

غمغمت سونيا: «دعي عنكِ يا ناتاشا، هيا، يمكنهم تدبير الأمر بدونك.»

وقال رئيس الخدم: «ذلك أنه يا آنسة ...»

لكن ناتاشا ما كانت لتلين. أفرغت محتويات الصندوق كله وقد قرَّرت أنه لا يجب حمل النجود المستعملة ولا كثيرٍ من الأواني. ولمَّا أخرجت كل شيء عادت إلى الترتيب. وفي الواقع، بعد أن استبعدت كلَّ ما ليس بذي ثمن واقتصرت على الأشياء النفيسة، استطاعت أن تضع كل شيء في الصندوقين، غير أن غطاء أحد الصناديق امتنع عن الإغلاق، فكان يجب إبعاد شيء ما مما بداخل الصندوق. لكن ناتاشا كانت تريد الاحتفاظ بكل ما وقع عليه اختيارها، فراحت تفكُّ وتربط وتحزم وتضغط، ثم تطلب إلى الخازن وبيتيا — الذي سرت إليه عدوى نشاطها — أن يضغطا على جانبَي الصندوق، في حين راحت من جانبها تبذل مجهودًا بائسًا. قالت لها سونيا: «كفى، كفى يا ناتاشا. إنكِ على حق، وأنا واثقة من ذلك، لكن انزعي على أية حال الرزمة الأخيرة.»

فهتفت ناتاشا وهي تزيح بإحدى يديها شعرها المشعث عن وجهها السابح بالعرق وتضغط بالأخرى على النجود: «لا أريد. اضغط، بيتيا، اضغط! هيا يا فاسيليتش!»

ورُصفت النجود وأُنزل الغطاء، فصفَّقت ناتاشا بيديها، وأطلقت وهي في نشوة انتصارها صرخة انتصار ملأت عينيها بالدموع، لكن ذلك لم يلبث إلا فترة؛ إذ لم تلبث حتَّى استدارت إلى مهمة أخرى، وحينئذٍ اكتسبت ثقة كبرى. ولم يغضب الكونت عندما أنهوا إليه أن ابنته خالفت تعليماته، وراح الخدم يرجعون إليها لمعرفة ما إذا كانت حمولة

العربة كافية، وكان يجب ربطها أم لا. وبفضلها أخذ العمل يتقدَّم، فهجروا كل قديم وتافه عديم النفع وجمعوا كلَّ ما هو ثمين إلى أقصى ما يمكن ذلك.

مع ذلك، على الرغم من مجهودات الجميع، لم يستطيعوا حزم كل شيء ذلك المساء، فنامت الكونتيس ومضى الكونت بعد أن أجَّل الرحيل إلى صباح اليوم التالي، إلى مخدعه فنام.

ونامت سونيا وناتاشا في المخدع دون أن تنزعا ثيابهما.

وفي تلك الليلة، جيء بجريح آخر إلى شارع بوفارسكاييا، فأدخلته مافرا كوزمينيتشنا، التي كانت موجودة قرب الباب الخارجي، إلى مسكن آل روستوف. وكان ذلك الجريح — على حد زعم المديرة العجوز — شخصًا رفيع المقام؛ إذ جالدوا به في عربة خفيفة مغطَّاة بقماش واقٍ خاص. وعلى المقعد، قُرب الحوذي، جلس خادم عجوز محترم، وتبعت العربة الأنيقة عربةٌ عادية فيها طبيب وجنديَّان.

قالت العجوز تخاطب الوصيف العجوز: «ادخلوا عندنا، ادخلوا أرجوكم، إن السادة راحلون والبيت خالٍ.»

فأجاب هذا وهو يزفر: «آه! نعم. ما كنا نصدِّق أن نجيء به حيًّا. إن لنا بيتنا في موسكو، لكنه بعيدٌ من هنا ومغلق.»

قالت مافرا كوزمينيتشنا: «ولكن ادخلوا عندنا، فلدينا كل ما ينبغي. ادخلوا.»

ثم سألت: «يبدو أنه في حالة سيئة؟»

ندَّت عن الوصيف حركة تدل على الأسى، وكرَّر: «ما كنا نصدِّق أننا سنعيده إلى الصواب! يجب أن نسأل الطبيب.»

نزل من مقعده واقترب من العربة. قال الطبيب: «ولِمَ لا؟!»

عاد الوصيف إلى العربة الأنيقة، فألقى نظرةً إلى داخلها وهزَّ رأسه، ثم قال للحوذي أن ينعطف ليدخل الفناء، ووقف وهو بالقرب من مافرا كوزمينيتشنا.

هتفت هذه: «آه! يا مولانا يسوع المسيح!»

عرضت مافرا كوزمينيتشنا أن يُنقَل الجريح إلى البيت الرئيس، وقالت: «لن يعترض السادة بشيء.»

ولَمَّا كان يجب تحاشي نقل الجريح عن طريق السلم، فقد حُمِل إلى الجناح وأُسجي في الغرفة التي كانت السيدة شوس تحتلها حتَّى ذلك الحين. كان ذلك الجريح هو الأمير آندريه بولكونسكي.

الفصل الخامس عشر

عواطف الكونت

أشرق آخر يوم من أيام موسكو، وكان الطقس خريفًا بهيجًا واليوم أحدًا، فقُرعت الأجراس كلها على جري العادة داعيةً إلى القُدَّاس، وكان يبدو أن ما من أحد أدرك حتَّى تلك اللحظة ما ينتظر المدينة.

إلا أن بادرتَيْن اثنتين دلَّتا فقط على الموقف الذي كانت فيه موسكو: موقف الجماهير وارتفاع الأسعار. ولقد ذهب العمال وخدم البيوت والقرويون منذ الصباح الباكر إلى الجبال الثلاثة على شكل حشد هائل، جاء الموظفون يضخِّمونه بالانضمام إليه وتلامذة اللاهوت والنبلاء، وظلَّت الجمهرة هناك زمنًا ما دون أن يحضر روستوبتشين، وحينئذٍ أدرك المتجمهرون أن موسكو ستسلَّم، فتفرَّقوا في الخانات والحانات، وراحت أسعار الأسلحة والذهب والعربات ترتفع أكثر فأكثر، في حين تدنَّت أسعار الأوراق النقدية ولوازم الترف، حتى إنه لم يؤذن الظهر حتَّى كانت السلع الثمينة — كالأكواخ مثلًا — تُباع بنصف الثمن، في حين أصبح أضعف حصان قروي يباع بخمسمائة روبل. أما قِطَع الأثاث والمرايا والبرونز فكانت تُباع بأتفه الأثمان.

لم يشعر آل روستوف في بيتهم القديم المحترم بهذا الانقلاب في الشروط الأولية للحياة إلا قليلًا، فلم يختفِ خلال الليل أكثر من ثلاثة أشخاص، ولم يُسرَق شيء من البيت. أما فيما يتعلَّق بقيم الأشياء، فإن العربات الثلاثين التي جاءت من الريف كانت تمثِّل ثروة هائلة يحسد الكثيرون آل روستوف عليها، ثروة تقدَّر بمبالغ ضخمة. لم يقدِّموا لهم عروض بيع تلك العربات فحسب، بل إنه في السهرة والصباح الأول من أيلول توارد تابعون وخدم ضباط جرحى وجرحى كذلك أووا في البيوت المجاورة، توارد هؤلاء إلى فناء آل روستوف يتوسَّلون إلى الخدم أن يمنحوهم عربة؛ كي يستطيعوا مغادرة المدينة فيها. وكان رئيس خدم آل روستوف الذين كانوا يتوصَّلون به، يرثي للجرحى، لكنه كان

يرفض بإصرار ويؤكِّد أنه لا يجرؤ حتَّى على إنهاء الخبر إلى سيده. لقد كان كل هؤلاء التعساء جديرين بالاهتمام، ولكن لو أُعطيت العربة الأولى فإنه لا يمكن أن يكون هناك سبب للامتناع عن إعطاء ثانية ثم الأخرى حتَّى عربات السادة نفسها. ثم إن ثلاثين عربة لا يمكن أن تنقذ الجرحى. وفي هذا البلاء العام لا بدَّ وأن يفكِّر المرء في نفسه وذويه، وهكذا كان يفكِّر رئيس الخدم باسم سيده.

ما إن استيقظ الكونت إيليا آندريئيفيتش صباح الأول من أيلول حتَّى خرج بخطوات خفيفة من حجرته متحاشيًا إيقاظ الكونتيس التي عادت إلى النوم منذ حين، والتفَّ بثوب منزلي من الحرير البنفسجي وخرج من المرقاة. وكانت العربات المربوطة تنتظر في الفناء، وعربات الركوب منتظمة أمام المرقاة. وكان رئيس الخدم واقفًا أمام الباب الخارجي يتكلَّم مع تابع وضابط شاب شاحب الوجه يحمل ذراعه إلى عنقه. ولمَّا وقعت عينُ رئيس الخدم على سيده، أشار إلى التابع والضابط أن يبتعدا!

قال الكونت وهو يمر بيده على جبهته الصلعاء وينظر إلى الضابط والتابع بعطفٍ وهو يومئ لهما برأسه — والكونت يحب الوجوه الجديدة: «إذن، هل كل شيء جاهز يا فاسيليتش؟»

– «يمكن أن تقطر الخيول فورًا يا صاحب السعادة.»

– «حسنًا، حسنًا جدًّا! فور ما تستيقظ الكونتيس، إلى الأمام وعلى بركة الله!»

وسأل الضابط: «من أنت يا سيدي؟ هل أنت في بيتي؟»

اقترب الضابط وغدا وجهه الشاحب متورِّدًا فجأةً: «كونت، أرجوك، بحق السماء، اسمح لي أن أجد ركنًا لنفسي في إحدى عرباتك. إنني لا أملك شيئًا، ولا فرق عندي إذا حُمِلت على عربة نقل.»

ولم يكَد يفرغ من كلامه حتَّى كان التابع يتقدَّم بمثل ذلك الالتماس على لسان سيده، فبادر الكونت يقول: «ولكن، بلى، بلى، بالتأكيد! وسأكون سعيدًا بذلك، سعيدًا جدًّا! يا فاسيليتش، مُرْ أن يُجهَّز لهما مكانان على عربة أو اثنتين، هذه ... إنها تمامًا ما يلزم ...»

ولم يلبث الضابط أن عبَّر عن عرفانه بعبارات مرتبكة، حتى إن الكونت اضطر إلى أن يتمِّمها بنفسه. نظر حوله فإذا الجرحى والتابعون في الفناء وعلى الأبواب ونوافذ الجناح، وكلهم ينظرون إلى الكونت وهو يقترب من المرقاة. قال رئيس الخدم: «هل تأمرون سعادتكم بالانتقال إلى الرواق؟ ما هي أوامركم حول اللوحات؟»

دخل الكونت مع رئيس الخدم إلى البيت بعد أن كرَّر أمره بعدم صرف الجرحى الذين يتقدَّمون ملتمسين نقلهم، وأضاف بصوتٍ خافتٍ ولهجة غامضة وكأنه يخشى أن يسمعه أحدٌ: «على أية حال، يمكن أن نستغني عن بعض الأمتعة.»

استيقظت الكونتيس في الساعة التاسعة، فجاءت ماترينا تيموفيثيفنا، وصيفتها العجوز التي أصبحت تشغل عندها وظيفة رئيسة «الضابطة»، تُعلِمها أن ماري كارلوفنا ساخطة جدًّا، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال ترك الألبسة الصيفية العائدة لهذه السيدة. ولقد حاولت الكونتيس أن تعرف سبب استياء السيدة شوسي، فعلمت أن صندوقها قد أُنزل من أحد العربات، وأنهم فكُّوا الحمولة ليفسحوا المجال للجرحى الذين سمح الكونت — على طيبة نفسه المعهودة — بنقلهم، فاستقدمت الكونتيس زوجها: «ماذا يحدث يا صديقي؟ لقد أُبلِغت أنهم فكُّوا الأحمال!»

– «كنت على وشك إخطارك بالأمر يا عزيزتي ... يا عزيزتي الكونتيس الصغيرة ... لقد جاءني ضابط يسألني بضع عربات لنقل الجرحى. إن كل هذه الأشياء يمكن استبدالها، أما هم فكيف نهجرهم؟! فكِّري في الأمر! ... صحيح، إننا نحن الذين أدخلنا هؤلاء الضباط إلى بيتنا ... إنكِ ترين حقًّا يا عزيزتي، يُخيَّل إليَّ يا عزيزتي أن ... لماذا لا نأخذهم؟ ... ما الذي يضايقنا؟»

كان الكونت يتكلَّم بلهجة وجِلة كالعادة عندما تُطرح القضية المالية على بساط البحث، وكانت الكونتيس قد أَلِفت هذه اللهجة التي تمثِّل دائمًا مشروعًا يضرُّ بثروة أبنائها؛ كإقامة ممشًى للَّوحات وحديقة شتوية أو مسرح أو جوقة موسيقية في البيت؛ لذلك كانت تعتقد أنها مرغمة على مخالفة زوجها كلما دقَّت سمعها تلك اللهجة الوَجِلة.

اتَّخذت مظهر الضحية الخاضعة وأعلنت: «أصغِ يا كونت، لقد سُقْتَنا لدرك أصبح فيه لا يمكن أن نطمع بقرش واحد يدفعه لنا شخص ما ثمنًا لهذا البيت، والآن تريد أن تضيع كل مقتنياتنا وثروة الأولاد! أنت أعلنت بنفسك أن لدينا ما قيمته ألف روبل من الأمتعة المنقولة. إنني يا صديقي لست موافقة على رأيِك مطلقًا. أنت حر في تصرفاتك! إن الدولة هي المكلَّفة بالعناية بالجرحى، وهم يعرفون ذلك. انظر قبالتنا عند آل لوبوخين. لقد حملوا كل شيء منذ أول أمس. هذا ما يعمله الآخرون. إننا وحدنا الأغبياء، فأشفِق على أبنائك على الأقل إذا كنت لا تشفق عليَّ!»

قام الكونت بحركة غامضة وغادر الحجرة. سألت ناتاشا التي دخلت بعدهما: «أبي، ماذا حدث؟»

فأجاب الكونت غاضبًا: «لا شيء مطلقًا! هذا ليس شأنك.»

قالت ناتاشا: «لكنني سمعت كل شيء. لا تريد أمي؟»

– «هذا ليس من شأنكِ!»

فاقتربت ناتاشا من النافذة وهي ساهمة، ثم أعلنت: «أبي، إنَّ بيرج آتٍ ...»

الفصل السادس عشر

نقل الجرحى

كان بيرج، صهر آل روستوف، قد بلغ رتبة زعيم، وحاز على وسامَي فلاديمير وسانت آن، وكان يشغل دائمًا مهامه الهادئة الممتعة كمساعد لرئيس المكتب الأول في أركان حرب الفوج الثاني.

وكان يأتي في ذلك الصباح — الأول من أيلول — من جيش موسكو مباشرةً.

ما كان لديه ما يعمله في موسكو، لكنه لمَّا رأى أن الضباط الآخرين يطلبون مأذونياتهم للذهاب إلى هذه المدينة لأعمالٍ لهم فيها، خُيِّل إليه أنه مرغَم على طلب مأذونيته لأعمال عائلية.

وصل بيرج إلى بيت حميه مستقلًّا إحدى تلك العربات الأنيقة التي يجرُّها جوادان قويَّان، مقلِّدًا بذلك تقليدًا متقنًا شكل عربة أمير من معارفه. تأمَّل المركبات التي في الفناء بانتباه، ثم أخرَج منديله الموشى وهو يصعد المرقاة وعَقَدَه.

اقترب بيرج من الردهة إلى البهو بخطًى مَرِنة سريعة، فعانق الكونت وقبَّل يد ناتاشا وسونيا، وبادر يستعلم عن صحة الكونتيس. قال الكونت: «إن المجال مجال الاستفسار عن الصحة حقًّا! إنَّ عليك أنت أن تخبرنا بما يعمل الجيش. هل سيتراجع أم سيقاتل؟»

فأجاب بيير: «الله وحده قادر على الإجابة على ذلك يا أبتاه، إنه وحده الذي سيقرِّر مصير الوطن. إن الجيش يحترق بالبطولة، ولقد اجتمع الرؤساء الآن في مجلس عسكري على ما يقولون. أمَّا ما سينجم عنه، فإن ما من أحدٍ يعرفه، لكنني أقول لك بصورة خاصة يا أبتاه إنه ليست هناك كلمات قادرة على وصف بطولة القطعات الروسية والبسالة التي ... التي أظهرتها وبرهنت عليها في معركة السادس والعشرين ... أؤكد لكَ يا أبي (وقرع صدره على طريقة جنرال رآه يروي تفاصيل المعركة، لكن حركته جاءت متأخرة؛ إذ كان عليه أن يجريها فور نطقه بكلمتَي الجيش الروسي)، أؤكد لك بصراحة أننا معشر

الرؤساء لم نكن في غير حاجة إلى دفع الجنود إلى المعركة بأية وسيلة كانت فحسب، بل كان علينا أن نوقف بالقوة أولئك، أولئك ...»

ثم هتف بطلاقة: «إنها مآثر وبسالة جديرة بالأقدمين. لم يوفِّر الجنرال باركلي دوتوللي حياته على رأس قطعاته، والشهادة لله. أما فيلقنا، فكان متمركزًا على سفح الجبل، ولكَ أن تتصور الموقف!»

وهنا، روى بيير كل ما تناهى إلى سمعه من مصادر مختلفة، وكانت ناتاشا تصغي إليه دون أن تبارحه بأنظارها الشاخصة إلى وجهه، وكأنها تحاول اكتشاف جواب على سؤال طرحته على نفسها ...

هتف بيير وهو يستدير نحو ناتاشا مجيبًا على نظرتها الملحَّة بابتسامة وكأنه يحاول استرضاءها: «لا يمكن تصوُّر البطولة التي برهن عليها الجيش الروسي، ولا يمكن امتداحه بالقدر الكافي. «إن روسيا ليست في موسكو، بل في قلوب أبنائها!» أليس كذلك؟»

وفي تلك اللحظة، خرجت الكونتيس من المخدع بادية التعب مكتئبة الوجه، فاندفع بيير نحوها يقبِّل يدها ويستعلم عن صحتها وهو يهزُّ برأسه ليُظهر العناية التي يعلِّقها عليها، ثم جلس إلى جانبها: «نعم يا أماه، إنني أعترف بكل صراحة أن الظروف كئيبة عصيبة بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ منا، ولكن لماذا كل هذا الاكتئاب؟ لا زال لديكِ الوقت الكافي للرحيل ...»

قالت الكونتيس مخاطبة زوجها: «لست أدري ماذا يفعل رجالنا! لقد أخبروني منذ حين أن ما من شيء جاهز بعد. يجب إيجاد من يعطي الأوامر، وهنا نأسف على ميتانكا. إننا لن نخرج قط من هذه المحنة!»

أراد الكونت أن يردَّ، لكنه فضَّل أن يُمسِك، فنهض وتوجَّه نحو الباب.

وانتقى بيير هذه اللحظة بالذات ليُخرِج منديله ويتمخَّط فيه، لكنه لمَّا رأى العقدة التي عقدها بنفسه، شرد مفكِّرًا ورفع رأسه بشكل معبِّر، وقال: «بابا، لديَّ رجاء هام أتوجه به إليك.»

قال الكونت وهو يتوقَّف: «آه!»

استأنف بيير بلهجة منطلقة: «لقد مررت منذ حين أمام بيت يوسوبوف، فهرع القيِّم الذي أعرفه للقائي وقال: «هل تريد شراء شيء؟» فتبعته بفضول ووجدت خزانةً للثياب مع مائدة للزينة، وأنت تعرف كم كانت فيرا ترغب في مثلها، وكم تخاصَمنا لهذا السبب (استعاد بيير رغمًا عنه لهجته المرِحة؛ لأن تلك الخزانة ذات مائدة الزينة كانت

تجعله فخورًا ببيته)، إنها تحفة! إنها تُفتح وفيها عدد من الجرارات وقفل إنجليزي خفي. هل تعرف؟ إنها تمامًا ما كانت صغيرتي فيرا ترغب فيه منذ زمن طويل، وإنني أحب أن أفاجئها بها، وفي الأسفل، في الفناء، عدد من القرويين، فأعطِني واحدًا أرجوك، وسأجزل له العطاء ... و...»

قطَّب الكونت حاجبَيْه وسعل بعصبية: «اطلب إلى الكونتيس. لست أنا الذي آمُر.»

اعترض بيرج: «إذا كان ذلك صعبًا فلن أقول شيئًا. إن مرادي هو مفاجأة فيرا فحسب.»

هتف الكونت العجوز: «آه! ليحملكم الشيطان جميعًا! نعم، اذهب إلى الشيطان، إلى الشيطان! إن المرء ليفقد صوابه!»

وبعدها خرج فانهمرت الدموع من عينَي الكونتيس، فقال بيرج: «نعم يا أماه، إن الأوقات عصيبة!»

وخرجت ناتاشا مع أبيها، ولكن ذهبت بادئ الأمر تلحق به، وكأنه تتابع فكرةً ما بصعوبة، ثم لم تلبث أن اندفعت إلى السلم.

وعلى المرقاة، كان بيتيا يوزِّع الأسلحة على الرجال الذين كانوا سيخرجون من موسكو مع القافلة، في حين وقفت العربات الجاهزة في الفناء، وكانت اثنتان منها قد أنزلت أحمالها وارتقى على أحدهما ضابط شاحب يسنده تابع.

سأل بيتيا أخته: «هل تعرفين السبب؟»

أدركت ناتاشا أن بيتيا يريد بذلك أن يسأل عن النقاش بين أبيهما وأمهما، فلم تُجِب.

– «لأن أبي كان يريد إعطاء العربات كلها للجرحى. لقد روى لي فاسيليتش الخبر. إنني من جانبي ...»

فهتفت ناتاشا وهي تدير نحو أخيها وجهها المغضب: «من جانبي، من جانبي أرى أنَّ هذا بشِع مرذول. إنه منفِّر لدرجة حتَّى لست أستطيع أن أقوله، من نحن؟ لا أكثر من ألمان، إذن!»

وجَرِضَت ناتاشا بالحسرات التشنجية، ولكي لا تضيع غضبتها هباءً استدارت وصعدت السلم أربعًا فأربع.

كان بيرج جالسًا بجانب الكونتيس يقدِّم لها تعزيات بنوية محترمة، والكونت وغليونه في يده يذرع الغرفة عندما دخلت ناتاشا إلى الغرفة بجلبة ووجهها متقلِّص من الغضب، واندفعت بخطوات سريعة نحو أمها وصرخت: «يا للبشاعة! يا للهول! أيُعقل أن تكوني قد أعطيتِ أوامر مماثلة؟!»

فراح بيرج والكونتيس، مروَّعَيْن أكثر مما هما مذهولَيْن، يتأملانهما، بينما جمد الكونت قُرب النافذة يصيخ السمع.

هتفت ناتاشا: «أماه! هذا مستحيل. انظري إلى الفناء! إنهم يتركونهم ...»

– «ماذا بكِ؟ مَن يتركون؟ ماذا تريدين؟»

– «لكن الجرحى ...! كلَّا يا أماه، لا يمكن. إن هذا لا اسم له ... يا أمي العزيزة، لست أريد أن أتكلم على هذا النحو، فعذرًا يا أمي الصغيرة، ولكن ما حاجتنا إلى ما نحمله؟! انظري إلى الفناء يا أماه، انظري! ... إن هذا لا يمكن أن يكون! ...»

وكان الكونت الواقف قرب النافذة يصغي إلى ناتاشا دون أن يدير رأسه، وفجأةً نَخَر وهو يدني وجهه من الزجاج ...

تأمَّلتِ الكونتيس ابنتها، وشاهدت انفعالها والعار الذي تحسُّ به، ثم السبب الذي من أجله أشاح زوجها بعينيه، فنظرت حولها مشتَّتة الخاطر، ثم اعترضت دون أن تستسلم تمامًا: «آه! اعملوا ما تشاءون! هل تراني أضايق كائنًا من كان؟»

– «ماما، يا أمي الصغيرة، عذرًا!»

لكن الكونتيس دفعت ابنتها واقتربت من زوجها. قالت وهي تخفض عينيها كالمذنبة: «يا عزيزي، أعطِ الأوامر اللازمة ... ما كنت أعرف شيئًا.»

فغمغم الكونت مبتهجًا خلال دموعه وهو يطوِّق زوجته بذراعَيْه، الأمر الذي أسعد هذه؛ إذ استطاعت بذلك أن تخفي وجهها الخجِل في صدر زوجها: «البَيْض ... البيض والدرس الذي يعطيه للدجاجة.»

سألت ناتاشا: «بابا، ماما! يمكن إعطاء الأوامر، أليس كذلك؟ يمكن؟ ...»

وأضافت: «مع ذلك، سوف نحمل أكثر من حاجتنا.»

فندَّت على الكونت إشارةُ موافَقة، فاندفعت ناتاشا بمثل الطريقة التي كانت تجري فيها عندما كانت تلعب، من القاعة الكبيرة إلى الردهة ومنها إلى السلم الذي يؤدي إلى الفناء.

لم يلبث الخدم أن أحاطوا بها وهم يرفضون تصديق الأوامر الغريبة التي أصدرتها لهم إلا بعد أن يؤيِّدها الكونت باسم زوجته. كانت تلك الأوامر تنص على وجوب رصف الصناديق كلها في مخازن الأمتعة، ووضع العربات كلها رهن إشارة الجرحى. وما إن فهموا حتَّى راح الرجال يعملون بحماس بهيج. لم يعد الخدم الآن يجدون غرابة فيما يعملون، بل إنه خُيِّل إليهم استحالة التصرف على نهج آخر، رغم أنه قبل ربع ساعة ما كان أحد يدهش لفكرة هجر الجرحى وإنقاذ المتاع، بل يعتقد بأنه لا سبيل إلى غير ذلك.

شرع كل السكان، وكأنهم يحاولون تلافي الوقت الذي خسروه، في تهيئة الأمكنة للجرحى الذين كانوا يجرُّون أنفسهم خارج حجراتهم ساحبي الوجوه سعداء، ويحيطون بالعربات. ولقد انتشر الخبر في البيوت المجاورة يفيد وجود عربات للنقل، فتوارد الجرحى من تلك البيوت إلى فناء بيت آل روستوف، ولقد راح عددٌ كبير منهم يتوسَّل إليهم أن يتركوا الأحمال في العربات، وأن يسمحوا لهم بالركوب فوق الأحمال فحسب. ولكن ما إن بدأ تفريغ حمولة العربات حتَّى بات إيقافه متعذِّرًا؛ إذ كان ترك كل شيء أو نصف الشيء أمرًا واحدًا. ولقد تناثرت الصناديق المملوءة بالآنية والبرونز واللوحات والمرايا المخرومة بعناية طيلة الليلة الماضية في الفناء، وكانوا دائمًا يجدون مبررات جديدة لإنزال هذه أو تلك من الأحمال للحصول على عربة فارغة جديدة.

عَرَضَ المسجِّل: «نستطيع أن نحمل أربعة آخرين، وإنني أمنح عربتي لهذا الغرض، وإلا أين نضعهم؟»

فقالت الكونتيس: «أعطِهم العربة التي تحمل حوائجي، وستركب دونياشا معي في عربتي.»

وأفرَغوا العربة التي تحمل صناديق الكونتيس وأرسلوا يحملون الجرحى من البيوت البعيدة، وكان السادة والخدم يتنافسون في هذا المضمار، ولقد كانت ناتاشا في حميًّا انتصارها سعيدة كما لم تسعد من قبل أبدًا.

أخذ الرجال يقولون وهم يحملون صندوقًا على المرقاة الضيقة لإحدى العربات: «كيف نثبته هنا؟ يجب على الأقل أن نترك عربة.»

فسألت ناتاشا: «ماذا في هذا الصندوق؟»

– «كُتُب سيدي الكونت.»

– «دعوها. سوف يهتم فاسيليتش بها. لسنا في حاجة إليها.»

امتلأت العربة بالركاب، وراحوا يتساءلون أين يمكن أن يجلس بيتيا. فهتفت ناتاشا: «سوف يصعد على المقعد. أليس كذلك يا بيتيا؟»

وكانت سونيا مشغولة مثل انشغال ناتاشا، ولكن على عكسها؛ إذ كانت تنظِّم الأشياء التي ينزلونها من العربات وتسجِّلها على لوائح بناءً على رغبة الكونتيس، وهي تجتهد في أن تنقل مع ذلك أكبر قدر ممكن من الأمتعة.

الفصل السابع عشر

رحيل آل روستوف

وفي الثانية والنصف بعد الظهر، وقفت مركبات ركوب آل روستوف الأربع جاهزةً تمامًا أمام المرقاة، وخرجت العربات التي تحمل الجرحى من الفناء واحدة إثر الأخرى.

اجتذبت عربة الأمير آندريه الأنيقة انتباه سونيا في اللحظة التي خرجت فيها إلى المرقاة، وكانت في تلك اللحظة منهمكة مع خادمة بإعداد مكان مريح للكونتيس في العربة الكبيرة العريضة المريحة الواقفة أمام المرقاة.

سألت سونيا وهي تُخرِج رأسها من باب المركبة: «لِمَن هذه العربة الأنيقة؟»

أجابت الوصيفة: «ألا تعلمين يا آنسة؟! إنها لأميرٍ جريح أمضى الليل هنا وسيرتحل معنا.»

– «ولكن مَن هو؟ ما اسمه؟»

تنهَّدت الوصيفة وقالت: «خطيبنا القديم نفسه، الأمير بولكونسكي! يقولون إنه لا أمل في شفائه.» قفزت سونيا من العربة وهرعت إلى الكونتيس، وكانت هذه قد استعدَّت للسفر في شال وقبَّعة مناسبَين، تروح وتجيء متعَبة في البهو، منتظرة كل الأسرة لكي يجلسوا لفترة قصيرة ويغلقوا الباب، ثم يضرعوا بالصلاة المألوفة في مثل هذه المناسبات قبل الرحيل. ولم تكن ناتاشا في الغرفة. قالت سونيا: «أماه، إن الأمير آندريه هنا، وهو مصاب بجرح قاتل. إنه سيرحل معنا.»

فتحت الكونتيس عينَيْن مذعورتين جاحظتين، وأمسكت بسونيا من ذراعها، ثم التفتت حولها وهتفت: «هل ناتاشا؟ ...»

لم يكن لهذا النبأ بالنسبة إلى سونيا، كما بالنسبة إلى الكونتيس، إلا معنًى واحد للوهلة الأولى. إنهما تعرفان ناتاشا وتفكِّران برعب في حالتها عندما تطَّلع على النبأ. أما إشفاقهما على الرجل الذي كانتا رغم ذلك تحبَّانه كثيرًا، فإنه لم يكن يحتل إلا المرتبة الثانية.

كرَّرت سونيا: «لا زالت ناتاشا لا تعرف شيئًا. لكنه راحل معنا.»

– «تقولين إن جرحه قاتل؟»

فأجابت سونيا بإيماءة من رأسها.

أحاطتها الكونتيس بذراعَيْها وراحت تبكي. فكَّرت وهي تشعر أن كل ما يحدث حينذاك توجِّهه يدُ الله التي ظلَّت غير منظورة حتَّى تلك اللحظة، والتي راحت الآن تتجلَّى: «إن دروب الربِّ لا تُسبَر!»

سألت ناتاشا التي هرعت في تلك اللحظة مورَّدة الوجه: «إذن ماما، كل شيء جاهز. ماذا تنتظرون؟»

فقالت الكونتيس: «لا شيء. إذا كنتِ جاهزة أمكن لنا أن نرحل.»

وانحنت الكونتيس على حقيبة يدها لتخفي وجهها المنقلب، بينما ضمَّت سونيا ناتاشا إلى صدرها وقبَّلتها.

نظرت إليها ناتاشا بقلق: «ماذا بكِ؟ هل جرى شيء ما؟»

– «كلا ... لا شيء ...»

سألت ناتاشا بإدراك مألوف لديها: «هناك شيء سيئ بالنسبة إليَّ؟ ما هو هذا الشيء؟!»

زفرت سونيا دون أن تجيب، ودخل الكونت وبيتيا والسيدة شوسي ومافرا كوزمينيتشنا وفاسيليتش إلى البهو، وأغلقوا الباب ثم جلسوا بصمت دون أن ينظر أحدُهم إلى أحد لمدة بضع ثوانٍ.

نهض الكونت أول مَن نهض، وبعد أن أطلق زفرة مسموعة رسم إشارة الصليب على صدره أمام الأيقونة، فحذا الباقون حذوه، ثم ربَّت الكونت على كتف مافرا كوزمينيتشنا وكتف فاسيليتش اللذَين كانا سيمكثان في موسكو، في حين شرع هذان يمسكان بيده ويقبِّلان كتفه. ربَّت على ظهرهما برفق وهو يغمغم بكلمات غامضة ولكن ممالقة ومغرية. ومضت الكونتيس إلى مصلَّاها؛ حيث وجدتها سونيا راكعة أمام بعض الأيقونات التي تُركت هنا وهناك على الجدار بعد أن رزمت الأيقونات الثمينة وحُملت معهم كذكريات للأسرة.

وفي الفناء، وعلى المرقاة، كان الخدم الذين سيرحلون، المسلَّحون بالخناجر والسيوف التي وزَّعها عليهم بيتيا، وقد أدخلوا أكمام سراويلهم في أحذيتهم العالية ولفُّوا حول خصورهم نطقًا من الجلد أو الصوف؛ يتبادلون عبارات الوداع مع الذين سيمكثون.

وكالعادة عند الرحيل، تبيَّن أن هذا الأمر أو ذاك قد نُسي أو أسيء عمله؛ لذلك فقد ظل الحارسان المسلَّحان فترة طويلة واقفَين على طرفَي العربة أمام البابين المفتوحين

وفوق مرقاة المركبة بانتظار جلوس الكونتيس، في حين أنَّ الوصيفات كنَّ يهرعن حاملات الوسائد واللفائف من البيت إلى المركبة أو العربة الصغرى أو العربة الثالثة.

قالت الكونتيس: «يجب دائمًا أن ننسى شيئًا ما. ربَّاه، إنكِ تعرفين تمامًا أنني لا أستطيع الجلوس على هذا الشكل!»

فجَرَت دونياشا مستاءة تصرِف على أسنانها، إلى «البرلين» الفخمة لتبدِّل الوسائد من مكانها دون أن تنطق بكلمة. وقال الكونت وهو يهزُّ رأسه: [...]

وكان السائق الكهل «إيفيم»، وهو الوحيد الذي تثق به الكونتيس في ارتحالها، جالسًا على مقعده العالي لا يُلقي بالًا إلى ما يحدث وراءه. كان يعرف بفضل خبرة ثلاثين عامًا، أنهم لن يقولوا له بمثل هذه السرعة: «إلى الأمام!» وأنه عندما تشرع «البرلين» في الحركة، يجب أن تقف من جديد مرتين أو ثلاث مرات للإتيان بشيء ما منسي، وأن الكونتيس ستُخرِج رأسها من النافذة لتقول له أن يمشي بهدوء في المنحدرات حبًّا بالمسيح. كان يعرف كل هذا وينتظر بصبر أكثر من جياده، وخصوصًا الأصهب الأيسر «سوكول» الذي ما كان يفتأ يقرع الأرض بقدمه ويعَضُّ على لجامه. أخيرًا، جلس كلٌّ في مكانه ورفعوا المرقاة وانصفق الباب، ثم أرسلوا يأتون بصندوق صغير آخر، وأخرجت الكونتيس رأسها وفاهت بكلمات مقدَّسة، وحينئذٍ رفع إيفيم قبَّعته ببطء ورسم إشارة الصليب على صدره، فاقتدى به السائس والخدم كلهم، وقال إيفيم وهو يعيد قبعته على رأسه: «بحراسة الله!» ثم صاح: «هو!» فقاد السائس العربة. جذب الجواد الأيمن عنانه وصرت النوابض العالية، وتأرجح صندوق المركبة الكبير، وتحفَّز الخادم المرافق وقفز على المقعد والعربة في سيرها، وانتقلت «البرلين» وهي تقرقع من الفناء إلى الشارع المبعد تتبعها العربات الأخرى المترنِّحة، ولم يلبث ذلك الرتل أن راح يصعد الشارع. وراح ركاب «البرلين» والعربتين الأخريين يرسمون إشارة الصليب على صدورهم عندما مرَّت المراكب بالكنيسة المقابلة، بينما راح الخدم الذين سيبقون في موسكو يواكبون العربات على الجانبين لفترة ما من الطريق.

لم تشعر ناتاشا بمثل المرح الذي شعرت به في ذلك الحين، فجلست في «البرلين» قبالة أمها تنظر إلى جدران المنازل وهي تمرُّ أمامها، منازل موسكو القديمة هذه التي انقلبت الأوضاع فيها، وبات الناس يهجرونها. ومن حينٍ إلى آخر كانت تميل على الباب لتتأمَّل ما وراء العربة أو المشهد الذي أمامها، مشهد الرتل الطويل من عربات الجرحى التي تسبقهم. وفي المقدمة تقريبًا كان غطاء عربة الأمير آندريه الأنيقة واضحًا للعيان،

وكانت تجهل من يحتل تلك العربة، لكنها كلما راحت تحصي طول الرتل، كانت تبحث بأنظارها عن تلك العربة التي ظلت محافِظة على مكانها في المقدمة.

وفي شارع «كودرين» وصلت قوافل أخرى مماثلة لرتل آل روستوف آتية من نيكيتسكاييا وبريستاييا وجادة بودتوفينسكي، وعندما بلغت القوافل كلها شارع سادوفاييا، اضطرت إلى أن تنتظم في صفَّين.

وبينما هم ينعطفون حول برج سوفارييف، هتفت ناتاشا فجأةً باستغراب تشوبه البهجة وهي التي كانت تتأمل المارَّة بين راكبي عربات ومشاة: «آه! ربَّاه! ماما، سونيا، انظرا، ها هو ذا!»

– «مَن؟»

قالت وهي تزداد انحناءً ليتسنَّى رؤية العملاق الضخم الذي يرتدي معطف السائقين الذي تدل هيئته ومشيته على أنه نبيل متنكِّر، والذي كان يجتاز في تلك الأثناء برفقة كهل قصير القامة صفراوي أجرد قوسيِّ البرج: «انظر، هذا بيزوخوف، أقسم لكما على أنه هو!»

وكرَّرت ناتاشا: «نعم، نعم وأقسم لكما. إنه بيزوخوف في معطف حوذي ومعه كهل قصير مضحك. إنني واثقة.»

– «ولكن لا، إنه ليس هو. كيف تقال مثل هذه الحماقات؟!»

هتفت ناتاشا: «أماه، أقدِّم رأسي للنطع إن لم يكن هو. (للحوذي): قف! قف!»

لكن الحوذي ما كان يستطيع الوقوف؛ لأن قوافلَ أخرى كانت تخرج من مييشتشانسكاييا، فكان السائقون يهتفون طالبين إليهم التقدم كيلا يعرقلوا حركة السير.

وفي الواقع، إن آل روستوف كلهم شاهدوا بيير رغم أنه كان أبعد من ذي قبل، أو على الأقل رجلًا يشبهه بشكل خارق في معطف حوذي، يمشي على طول الشارع مطرق الرأس صارم الأسارير، وإلى جانبه عجوز قصير أجرد يشبه الوصيف. ولاحظ الكهل القصير رأس ناتاشا بارزًا من باب العربة، فمسَّ باحترام مرفق بيير، وقال له شيئًا وهو يشير إلى «البرلين». ولقد لبث بيير فترة قبل أن يستوعب ما يقال له. لَشَدَّ ما كان مستغرقًا في خواطره! وأخيرًا، عندما أدرك الفرض، نظر في الوجهة التي أشار إليها العجوز، فعرف ناتاشا على الفور. اندفع مستسلمًا لحركته الأولى، متوجهًا نحو العربة، لكنه بعد بضع خطوات توقَّف بسبب بعض الذكريات التي كان قد نسيها من قبل ولا ريب.

وكان وجه ناتاشا المنحني على الباب يشعُّ بالحبور والبشاشة. هتفت وهي تمدُّ له يدها: «يا بيوتر كيريلوفيتش، تعالَ، هيا! إنك ترى تمامًا أننا كشفناك! هذا رائع، كيف جرى؟ لماذا هذا الزي؟»

فأمسك بيير باليد الممدودة وقبَّلها بمهارة وهو يسير بحذاء العربة (التي تتوقَّف بالطبع)، وسألته الكونتيس بصوت تظهر فيه الدهشة مشبعة بالإشفاق: «ماذا حصل لك يا كونت؟»

قال بيير: «ماذا؟ لا شيء البتة! لا تسأليني.»

والتفت إلى ناتاشا التي كانت نظرتها المشعَّة المرحة — وكان يشعر بها دون أن يرفع عينيه إليها — تحيطه بالفتنة. ماذا تفعل إذن؟ هل تبقى في موسكو؟

فلم يُجِبها بيير على الفور.

وأخيرًا قال بلهجة استفهام: «في موسكو؟ نعم، في موسكو. إلى اللقاء.»

فقالت ناتاشا: «آه! كم آسف لأنني لست رجلًا، وإذن لبقيت حتمًا معكِ. سيكون رائعًا! ماما، إذا كنتِ تسمحين لي بالبقاء سأبقى.»

تأمَّل بيير ناتاشا بنظرة ساهمة، وأراد أن يقول شيئًا، لكن الكونتيس قاطعته: «يبدو أنكِ كنت في المعركة؟»

فأجاب بيير: «نعم، لقد كنت. وغدًا ستنشب أخرى ...»

فقاطعته ناتاشا هذه المرة: «ولكن ماذا بك يا كونت؟ إن مظهرك غريب جدًّا ...»

– «آه! لا تسأليني ولا تستجوبيني عن شيء؛ لأنني لست أفقه شيئًا ... غدًا ... كلا، ليس غدًا! الوداع، الوادع!»

ثم أعقب: «يا لَلَّحظات المروِّعة!»

ثم ابتعد عن العربة ومضى إلى الرصيف.

وظلَّت ناتاشا فترة طويلة على الباب تتبعه بنظراتها وعلى شفتَيْها ابتسامة مرحة ودودة يشوبها شيء من السخرية.

الفصل الثامن عشر

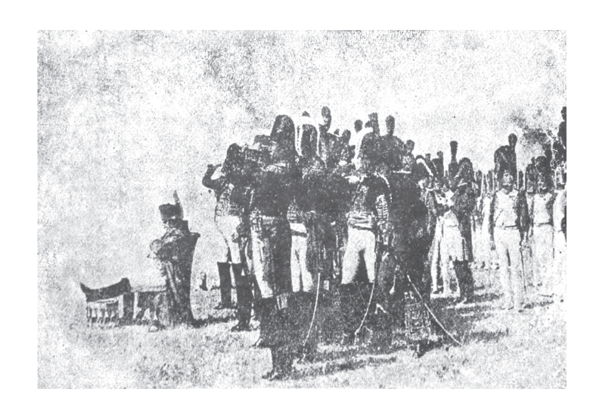
قصة بيير

منذ اليومين اللذين مرَّا على اختفائه من مسكنه، كان بيير قاطنًا في الشقة الفارغة التي كان يقطنها المتوفَّى بازدييف. وهذا ما جرى:

عندما استيقظ غداة يوم وصوله إلى موسكو ومقابلته مع روستوبتشين، ظل بيير فترة طويلة يفكِّر في المرحلة التي بلغ إليها والغاية التي يريدونها منه. ولمَّا أعلنوا له بين الذين ينتظرون مقابلته، ذلك الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته، شعر فجأةً بالإضراب الغامض واليأس اللذين كان ميَّالًا بطبعه إليهما. حدَّث نفسه بأنها النهاية، الآن، وأن كل شيء ليس إلا لبس ودمار، وأنه لم يعُد هناك حق وباطل، وأن المستقبل لن يحمل له شيئًا في طيَّاته، وأن موقفه لا مخرج منه، فكان يجلس تارةً على أريكته في وضع المثْقَل وهو يضحك ضحكة مغتصَبة ويدمدم بين أسنانه شيئًا، وتارةً ينهض فيقترب من الباب وينظر خلال ثقب المفتاح إلى الردهة، ثم يعود بحركة يائسة فيجلس على الأريكة ويمسك بكتاب. دخل رئيس خدمه مرةً ثانية يُعلِمه بأن الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته يرغب رغبة قوية في مقابلته ولو لدقيقة واحدة، وأضاف أن أرملة بازدييف ترغب قبل أن ترحل إلى الريف في معرفة ما إذا كانت تستطيع ائتمانه على بعض الكتب.

أجاب بيير رئيس خدمه: «آه! نعم، فورًا، انتظر … أو بالأحرى لا! قل إنني سأحضر بعد حين.»

لكن، لم يكَد رئيس الخدم يخرج حتَّى أخذ بيير قبَّعته التي كانت ملقاة على الطاولة وفرَّ من مكتبه من الباب الداخلي. وكان الممشى خاليًا، فسار فيه بيير حتَّى السلم، فهبط عليه وهو مستغرق في التفكير، يضغط جبهته بكلتا يديه حتَّى بلغ بسطة الدور الأول. وكان البوَّاب واقفًا أمام الباب الرئيسي، ولكن كان هناك سلم آخر قرب البسطة التي وقف عليها بيير يقود إلى المخرج الخلفي. اتخذ سبيله من هناك ونزل إلى الفناء دون أن يراه



على مرتفعات بورودينو.

أحد. وفي الفناء نفسه، في اللحظة التي كاد فيها أن يجتاز الباب المؤدي إلى الشارع، رآه السائقون الذين وقفوا هناك بعرباتهم، وكذلك رآه البوَّاب، فخلعوا قبَّعاتهم. أحس بيير بتلك الأنظار تحدق فيه، فأطرق برأسه كالنعامة التي تُخفي رأسها في الرمال كيلا يراها أحدٌ، وحثَّ خطاه ثم خرج إلى الشارع.

بدا لبيير أن أكثر الأشياء التي عرضت له ذلك الصباح عجلةً هو أخذ كتب جوزيف ألكسيئييفيتش وأوراق.

استقلَّ أول عربة صادفها، وأمر أن يُحمل إلى مستنقعات البطريرك «إيتان دوباتربارش» حيث كان بيت بازدييف.

كان ينظر في كل الجهات إلى أرتال العربات التي تغادر موسكو، وهو لا يدري كيف يحيد بجسمه الضخم كي يتحاشى الانزلاق تحت إحدى العربات الشديدة القدم التي كانت تصرُّ، ويحسُّ بمثل ذلك الإحساس الذي يخامر الغلام الهارب من مدرسته، فراح يثرثر مع الحوذي وهو مبتهج.

روى له هذا أنهم يوزِّعون الأسلحة في الكريملن، وأنهم سينتقلون غداة اليوم التالي إلى الجبال الثلاثة حيث ستنشب معركة كبرى.

ولمَّا وصل إلى مستنقعات البطريرك استدلَّ بيير على مسكن بازدييف الذي لم يزُره منذ فترة طويلة. واقترب من الباب، فلمَّا قرعه هرع جيراسيم، ذلك الكهل القصير ذو اللون الأصفر، الأجرد، الذي رآه بيير قبل خمس سنوات مع سيده في تورجوك. سأل بيير: «هل من أحد؟»

– «بالنظر إلى الظروف، فقد ارتحلت صوفي دانيلوفنا مع الأولاد إلى ملكها في تورجوك يا صاحب السعادة.»

فقال بيير: «سوف أدخل رغم ذلك؛ إذ عليَّ أن أختار الكتب.»

– «على الرحب والسعة. إن أخا فقيدنا — لِيتغمَّده الله برحمته — ماكار ألكسيئييفيتش قد ظل هنا، لكنه كما تعلم ضعيف العقل.»

وكان بيير يعرف أن ماكار ألكسيئييفيتش — أخا الفقيد — نصف مجنون، مدمن على الشراب، فقال وهو يدخل البيت: «نعم، نعم، أعرف، هيا، ولْنُسرع.»

وكان كهل طويل القامة أحمر الأنف مرتديًا معطفًا منزليًّا، عاري القدمين في خفَّين من المطَّاط، واقفًا في الردهة، فلمَّا شاهد بيير غمغم ببضع كلمات ومضى إلى الممشى.

قال جيراسيم: «لقد كان عبقريًّا، لكنه كما ترى أصبح ضعيف الذكاء. هل ترغب في دخول المكتب؟ (فأومأ بيير موافقًا) لقد وضعوا الأختام ولا زالت سليمة، ولقد أمرَتْ صوفي دانيلوفنا أن نسلِّم الكتب إلى من يأتي من قِبلك.»

دخل بيير ذلك المكتب المعتم بالذات الذي ما كان يدخله إلا وهو يرتعد طيلة ما لبث المحسن على قيد الحياة. ولم يَمسَّ أحدٌ شيئًا منذ وفاة جوزيف ألكسيئييفيتش، فكان الغبار يعلو كل شيء، وكل شيء محزن أكثر من أي وقتٍ مضى.

فتح جيراسيم خلفه نافذة وخرج من الحجرة على أطراف قدميه، فدار بيير بالمكتب وجاء إلى الخزانة التي وُضعت فيها المخطوطات، فأخذ واحدةً منها، كانت فيما مضى من أكثر تراث المحفل قدسيَّةً. كانت تلك المخطوطة هي الوقائع الإيكوسية الصحيحة، شرحها المحسن وفسَّرها بخط يده. جلس بيير إلى طاولة العمل المغطَّاة بالغبار ووضع المخطوطة أمامه وفتحها ثم تصفَّحها، وأخيرًا تركها ليستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه.

وجاء جيراسم أكثر من مرة يلقي نظرة مختلسة إلى المكتب، فكان في كل مرة يرى بيير على وضعه ذاك. وانقضت ساعتان ونيف فسمح جيراسيم لنفسه أن يُحدث ضوضاء أمام الباب ليجذب انتباه بيير، لكن بيير لم يسمعه.

– «هل أصرف العربة؟»

فقال بيير الذي استعاد حواسَّه ونهض بعزم: «آه! نعم.»

ثم أضاف وهو يمسك زرَّ ثوب جيراسم وينحدر على العجوز القصير بنظرة جليلة مشرقة مبلَّلة بالدموع: «أصغِ، أصغِ. هل تعلم أنهم سوف يقتتلون غدًا؟»

فأجاب جيراسيم: «يقولون ذلك.»

– «أطلب إليك ألَّا تقول لأحد مَن أكون، واعمل ما سأطلبه منك ...»

قال جيراسيم: «تحت أمرك. هل أقدِّم لك طعامًا؟»

قال بيير وقد تضرَّج وجهه فجأةً: «كلا، ليس هذا ما أريده. تدبَّر لي ثيابَ قرويٍّ ومسدَّسًا.»

فردَّد جراسيم بعد أن فكَّر قليلًا: «تحت أمرك.»

ظلَّ بيير طيلة ذلك النهار معتكفًا في مكتب ذلك المحسن، ولقد سمعه جيراسيم يذرع المكتب جيئةً وذهابًا بعصبية وهو يكلِّم نفسه. وفي الليل، نام على سرير نُصب خصيصًا له.

لم يدهش جيراسيم الذي شاهد خلال حياته كخادم، آخرين أشد غرابةً يقيمون في البيت، بل إنه بدا سعيدًا بوجود من يقدِّم له خدماته. وفي المساء، ودون أن يسأل عما يمكن أن يعمل به، حمل لبيير معطفًا من ذلك النوع الذي يلبسه السائقون، وقلنسوة، ووعده بتقديم المسدس صباح اليوم التالي. ولقد جاء ماكار ألكسيئييفيتش مرتين خلال الليل إلى باب المكتب يجرُّ خُفَّيه وينظر إلى بيير باستمالة، لكن ما إن يلتفت بيير إليه حتَّى يحتجب بذعر ويسخط في ثوبه المنزلي ويبادر إلى الابتعاد. ومضى بيير متَّشحًا بمعطف الحوذي الذي اشتراه له جيراسيم ونظَّفه له إلى برج سوخارييف ليشتري مسدَّسًا حينما التقى بآل روستوف.

الفصل التاسع عشر

نابليون على مشارف موسكو

في ليلة الأول والثاني من أيلول، أصدر كوتوزوف الأمر إلى الجيش الروسي بالانثناء عبر موسكو على طريق ريازان.

تحرَّكت القطعات الأولى تلك الليلة بالذات دون أن تتعجَّل في تلك الظلمات، فكانت تتقدَّم ببطء واتزان، ولكن عند الفجر، عندما اقتربت من جسر دوروجوميلوف على نهر موسلفا غربي المدينة، وجدت أمامها كتلًا من الناس يتدافعون لعبور الجسر ويجتمعون على الضفة المقابلة، يسدُّون الشوارع والأزقَّة ووراءهم قِطَع لا تُحصى من الجنود التي تدفعهم، فاستولى على الجيش اضطراب وقلق لا مبرر لهما. اندفعوا جميعًا إلى الأمام نحو المجازات والقوارب، أما كوتوزوف، فقد أمر بنقله عن طريق دائري من الجانب الآخر من موسكو.

وفي الثاني من أيلول، الساعة العاشرة صباحًا، لم يبقَ في ضاحية دوروجوميلوف إلى المؤخرة، أمَّا السواد الأعظم من الجيش، فكان قد اجتاز موسكوفا وابتعد عن موسكو.

وفي تلك الأثناء، كان نابليون الذي وصل مع جنوده إلى جبل بوكلونايبا يتأمل المشهد الذي عرض لناظريه، ولقد كان الطقس منذ السادس والعشرين من آب وحتى الثاني من أيلول — منذ معركة بورودينو وحتى يوم دخول الأعداء موسكو — طيلة ذلك الأسبوع التاريخي، آيةً في جمال الجوِّ الخريفي الخارق المدهش أبدًا؛ فالشمس المنحنية على الأفق كانت محرقة أكثر منها في الربيع، وإشعاعاتها الباهرة المنتشرة في الفضاء تؤلم العيون، والصدور تتمدَّد ويستنشق الناس ملء رئاتهم عبير الخريف، والليالي نفسها لطيفة، وفي تلك الليالي الحالكة الحارَّة كانت النجوم الذهبية تسقط من السماء فتوقظ الرعب والفرح.

وكان اليوم الثاني من أيلول، الساعة العاشرة صباحًا، على مثل البهاء الذي وصفنا.

كان ضياء الصباح سحريًّا، وموسكو من أعلى جبل بوكلونايا تنبسط في الأبعاد بنهرها وحدائقها وكنائسها، وتبدو وكأنها تعيش حياة خاصة بها بقبابها الملتمعة تحت إشعاعات الشمس كالنجوم.

ولمَّا رأى نابليون هذه المدينة، غريبة البناء، الأخَّاذة، شَعَرَ بذلك الفضول المشوب بقليل من الحسد والقلق، الذي يشعر به الناس لمرأى خطوط حياة غريبة تجهلهم. كان واضحًا أن تلك المدينة تحيا حياتها الخاصة بكل ما في هذه الكلمة من قوى، وكانت الدلائل التي لا توصف، الدلائل التي تجعل المرء يفرِّق بها ولو على البُعد، جسدًا ميتًا من جسدٍ حيٍّ، هذه الدلائل جعلت نابليون من أعلى جبل بوكلونايا يشعر بسكان هذه المدينة أشبه بأنفاس هذا الجسد الرحيب الرائع.

إن كل روسي يتأمَّل موسكو يشعر أنها أم، وكل أجنبي ينظر إليها دون أن يدرك معنى الأمومة فيها، تُدهشه رغم تلك الصفة النسوية التي لهذه المدينة، ولقد شعر نابليون نفسه بذلك.

قال نابليون وهو يترجَّل عن جواده: «هذه المدينة الآسيوية ذات الكنائس الكثيرة، موسكو المقدَّسة. ها هي ذي أخيرًا، هذه المدينة العتيدة! لقد كان الوقت مناسبًا.»

وأمر أن يُنشر أمامه مخطَّط موسكو، ثم استدعى مترجمَهُ ليلورم ديدفيل وهو يفكِّر: «إن مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة فقدت شرفها.» وكان يردِّد ما قاله في سمولنسك وفي توتشوكوف. ولقد كان يتأمل هذا الجمال الشرقي الذي تفتَّح له فجأةً ممتدًّا تحت قدمَيْه وهو يشعر بهذا الشعور، ولقد بدا تحقُّق ذلك الحلم الذي هدهده منذ زمن طويل، ذلك الحلم الذي بدا له بعيد المنال، لونًا من الغرابة، فكان في ضياء الصباح الوضَّاء ينقل بصره تارةً إلى المخطط وطورًا إلى المدينة مدقِّقًا في كل تفصيل، وقد ملأه التأكُّد من امتلاكها الانفعال والذعر.

كان يحدِّث نفسه: «ولكن، هل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ ها هي ذي عند قدمي، تلك العاصمة تنتظر مصيرها. أين ألكسندر الآن؟ وماذا تُراه يفكِّر؟ يا لها من مدينة غريبة ضخمة رائعة! يا لها من دقيقة غريبة وجليلة! وهم تحت أي ضوء يجب أن أبدو لعيونهم.» هذا ما كان يفكر فيه وهو يذكر جنوده في نفسه، وألقى نظره على من حوله وعلى جيشه الذي كان يتقدَّم بنظام جميل: «ها هي ذي، المكافأة لكل هؤلاء القليلي الإيمان. كلمة واحدة مني، إشارة واحدة، فإذا بها تضيع، مدينة القياصرة القديمة هذه، لكن رحمتي على استعداد دائمًا لتسبغ على المقهورين. يجب أن أبرهن على شهامة ونفس كبيرة حقيقية ...»

وفجأةً فكَّر: «كلا، يستحيل أن أكون قد بلغت موسكو. مع ذلك، ها هي ذي أمامي، بذهب قبابها وصلبانها الذهبية؛ حيث تتلاعب إشعاعات الشمس وترتعد، لكنني سأحميها. سوف أطبع كلمات العدالة والرحمة الكبيرة على هذه الأبنية، أبنية البربرية والاستبداد. وأنا أعرف أن ألكسندر سوف يقدِّر هذا رغم كل شيء. (كان يُخيَّل إلى نابليون أن المعنى الرئيسي للأحداث الجارية يُترجم إلى مبارزة شخصية بينه وبين ألكسندر.) ومن أعلى الكريملن — لأن هذا هو الكريملن ولا ريب! — سوف أعطيهم القوانين العادلة، وسأريهم معنى المدينة الحقيقية. سوف أرغم أجيال أشراف روسيا على أن يذكروا المنتصر عليهم بحب. سأقول لوفود ممثِّليهم إنني ما أردتُ الحرب ولا أريدها، وإنني ما خضتها إلا بسبب سياسة بلاطهم الكاذبة، وإنني أحب وأحترم ألكسندر، وإنني مستعد لأن أتقبَّل في موسكو نفسها صلحًا جديرًا بي وبشعوبي. إنني لا أريد أن أنتهز فرصة حرب ظافرة لأحطَّ من قيمة ملك محترم. سأقول لهم: «أيها الأشراف! إنني لا أريد الحرب، بل أريد السلم وراحة كل أتباعي ورفاهم.» ثم إنني أعرف أن حضورهم سوف يلهمني ما يجب أن أقوله لهم، وسوف أكلِّمهم كما أتكلَّم دائمًا؛ بوضوح وجلال وعظمة. ولكن هل حقيقة أنَّا في موسكو؟ نعم، إنها هي نفسها!»

قال وهو يلتفت إلى حاشيته: «ليأتون بالأشراف.»

فمضى جنرال تتبعه حاشية لامعة بحثًا عن الأشراف.

ومضت ساعتان، فأكل نابليون ثم اتخذ المكان نفسه على جبل بوكلونايا بانتظار الوفود. ولقد اتخذ الخطاب الذي سيُلقيه على الأشراف خطوطه الواضحة، وأصبح مفعمًا بالكرامة والعظمة.

ولقد راحت لهجة الشهامة التي سيتخذها والتي ستُخضِع موسكو، تُخضِعه هو نفسه. أخذ يحدِّد في ذهنه يوم «الاجتماع في قصر القياصرة»؛ حيث سيلتقي كبار السادة الروسيون مع شخصيات بلاطه الرفيعة، وسُمِّي سلفًا الحاكم الذي سيعود انتقاؤه بعطف السكان. ولمَّا علم أن موسكو تضم عددًا من مؤسسات الإحسان، فقد قرَّر أن يُغرق هذه المؤسسات بما يغدقه عليها، وكان يفكر في أنه إذا كان في أفريقيا يجب الذهاب إلى الجامع «بالبُرْنُس»، فإنه في موسكو لا بدَّ وأن يظهر محسنًا كالقياصرة. ولكي يكسب عطف الروسيين نهائيًّا، قرَّر ككل فرنسي عاجز عن القيام بأعمال الرفق والحنان دون أن يتذكر «عزيزتي، أمي المسكينة الحنون» أن يأمر بأن يُنقَش على مداخل تلك المؤسسات كلها: «مؤسسة مهداة إلى أمي العزيزة»! نعم، هذه العبارة وليس «بيت أمي» فحسب. وعاد

يفكر من جديد: «ولكن، هل من الممكن أن أكون بلغت موسكو؟ نعم، ها هي ذي أمامي، ولكن لماذا تأخرتْ وفود المدينة عن المجيء كل هذا الوقت.»

في تلك الأثناء، في الصفوف الأخيرة من حاشية الإمبراطور، كان الجنرالات والماريشالات المنشغلون يناقشون بصوتٍ خافت. لقد عاد أولئك الذين ذهبوا للإتيان بالوفود بنبأٍ خلوٍّ موسكو من السكان الذين فرُّوا جميعًا. وكانت الوجوه ممتقعة ومذعورة. لم يكونوا خائفين؛ لأن موسكو هجرها أهلها — رغم أهمية مثل هذا الحدث — بل كانوا خائفين من إبلاغ النبأ للإمبراطور، فكانوا يتساءلون عن الوسيلة التي سيبلِّغون الأمر لجلالته دون أن يصفوه في ذلك الموقف المُريع الذي يسميه الفرنسيون «مستحق الهُزْء»، قائلين له إنه انتظر الأشراف عبثًا، وإن موسكو لم يعُد فيها إلا الرعاع من السكارى. كان بعضهم يشير بأن تُجمع وفود كيفما اتفق، والبعض الآخر يبعدون هذه الفكرة مؤكِّدين وجوب إعداد الإمبراطور بحذر وحذق لمعرفة الحقيقة.

قال أولئك السادة من حاشيته: «يجب إنهاء الخبر رغم كل شيء. ولكن أيها السادة ...»

ولقد كان الموقف يزداد صعوبة؛ لأن نابليون المستغرق في خططه المتعلِّقة بعظمة النفس، كان يروح ويجيء متذرِّعًا بالصبر أمام مخطَّطه المنشور يبتسم ابتسامة محمومة مبتهجة، ويرفع بين الحين والحين يده إلى طرف قلنسوته أمام عينَيْه ناظرًا إلى طريق موسكو.

وكان الأتباع من رجال البلاط يردِّدون وهم يهزُّون أكتافهم دون أن يقرِّروا النطق بتلك الكلمة الرهيبة التي تحوم على شفاههم: «يستحق الهزء.»

– «ولكن هذا مستحيل ...»

وفي تلك الأثناء، شعر الإمبراطور الذي أتعبه الانتظار، بإحساس الممثل الهزْلي الذي تفرَّد به أن اللحظة الحاسمة قد طالت أكثر مما ينبغي، فبدأ يفقد جلاله وأومأ بيده. وعندئذٍ دوَّى قصفُ مدفعٍ ليعطي الإشارة إلى القطعات التي كانت تحيط بموسكو من كل الجهات، فلم تلبث هذه أن تحركت نحو مداخل المدينة: تغيَّر، كالوجا، دوروجوميلوف مستحثَّة خطاها، يسبق بعضها بعضًا أثناء السير، بين مشاة وفرسان وراحت تتقدَّم سحابة من الغبار وهي تطلق هتافات مدوية.

جرف حماس الجنود نابليون، فبلغ معهم مدخل دوروجوميلوف، لكنه هناك أَمَرَ بالوقوف ونزل عن حصانه، وراح يتنزَّه على طول حاجز «كوليج دولاشامبر» وهو لا يزال بانتظار الوفود.

الفصل العشرون

الحيلة الميتة

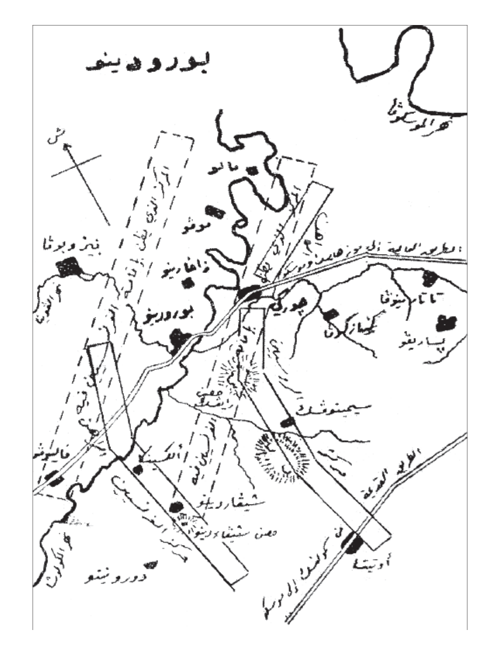
في تلك الأثناء، كانت موسكو خالية. كان لا يزال بعض السكان طبعًا، بنسبة واحد إلى خمسين من مجموع السكان العاديين، لكن المدينة كانت رغم ذلك خالية كخلية نُذرت بالموت برحيل ملكتها.

والواقع أن مثل هذه الخلية تُعتبر محرومة من الحياة رغم ما تبدو للنظرة السطحية، حافلة بالنشاط للوهلة الأخرى كأية خلية.

فالنحل يحوم حولها تحت إشعاعات الشمس الدافئة حومًا مرِحًا يشبه حومه حول خلية حيَّة، ورائحة العسل تفوح من مسافة بعيدة، ويرى الناظر النحل يخرج منها، ولكن يفي مجرد المراقبة لمعرفة أن الحياة مفقودة في تلك الخلية. إن النحل لا يحوم على هذا النحو حول الخلايا الحية، بل إن هذه الرائحة نفسها والطنين ليس إياه. فإذا قرع بعضهم خلية مريضة، فإنه بدلًا من الجواب الفوري الإجماعي الذي يتمثَّل بانطلاق بضع عشرات الألوف من الحشرات في حالة غليان مشرعة حماتها تضرب بأجنحتها بجنون مُحدِثة صخب الحياة الشديد، لا ترد الخلية الأبدندنات منعزلة يتردَّد صداها في بعض الخلايا الفارغة. لا يشعر المرء عند دخوله بالرائحة المألوفة، الرائحة الكحولية العطرية، رائحة العسل والسم، ولا يحس بالنفحات الفاترة التي تملأ المكان المأهول، بل إن رائحة العسل تمتزج برائحة الفراغ والعفن، ولا يصبح الدخول ممنوعًا من قِبَل حارسات على استعداد للتضحية بأنفسهنَّ وقد شرعن مؤخراتهنَّ استعدادًا للنزال، ولا تُسمع الضجة اللينة للعمل الناشط الذي يشبه الماء في غليانها، ولكن حركات غير منظمة، مبعثرة، حركات الفوضى، والذباب الأسود يدخل ويخرج، وهذا الذباب الوجِل الماكر ذو الشكل الطويل، المنغمس كله بالعسل، هو سلاب الخلية لاحمة له، يفرُّ حالما يُدفع. أما من قبل، فالعاملات وحدها كانت تُرى داخلة بحملها لتخرج خاوية، بينما تذهب الآن

مع أسلابها. ويفتح مربِّي النحل الكوة السفلى وينظر إلى القسم الأسفل من الخلية. وبدلًا من العنقود المألوف من النحل الأدكن الذي يتدلَّى حتَّى السطح الأسفل وقد تشبَّثت النحلة بأختها، وراحت تفرز بنشاطٍ شمعها في طنين لا ينقطع، يرى عاملات منهكات خائرات تائهات من جانب إلى آخر، مبعثرات في الأسفل وعلى الجوانب. وبدلًا من الأرض المطلية بالعبكر المكنوسة بعناية بضربات الأجنحة العنيدة، تناثرت بقع من الشمع في الأسفل وعسل النحل نضف الميت الذي لا زال يحرِّك أطرافه، و«جثث» نحل نافق لم يُرفع بعد.

ويفتح مربِّي النحل بعدئذٍ الكوَّة العليا وينظر إلى «رأس» الخلية، وبدلًا من الشهاد الممتنعة التي تحتضن البيض والصفوف المتراصَّة من النحل، يرى هندسة الأقراص الفنية الحاذقة، لكنها تكون محرومة من ذلك المظهر البتولي الذي كان لها من قبل. فكل شيء مهجور ومدنَّس، والذباب الأسود سلَّاب الخلية قد تسلَّل بمهارة ورشاقة بين العاملات، في حين أن هذه باتت متراخية جافَّة نحيلة فاشلة، تتيه من هنا إلى هناك أشبه بعجائز ضعيفات، دون أن تتعرض للنهب أو تأبه لشيء وقد فقدت طعم الحياة. والذكور وذباب البقر وضروب الفراش تتصادم وهي تحوم على الجنَبات. وفي وجهةٍ ما بين الأقراص المليئة بالبيض الفاسد والعسل، يلاحظ في حركات فجائية طنين غاضب، وفي مكان آخر نحلتان بهما غريزة العمل إلى تنظيف عشهما، فراحتا تسعيان جهد طاقتهما لطرح جثث عاملة أو ذكر خارج الخلية دون أن تدركا ما هما فاعلتان. وفي جهة أخرى نحلتان هرِمتان تقتتلان بتراخٍ أو تنظِّفان جسديهما أو تطعم إحداهما الأخرى دون أن يُعرَف ما إذا كان نشاطهما وديًّا أو عدائيًّا. وفي زاوية أخرى كتلة من النحل يسحق بعضها بعضًا، تهاجم ضحية ما وتضربها وتخنقها، فتسقط الضحية القتيل ببطء خفيفة كالفقاعة على كوم الجثث، ويقلِّب المربِّي قرصَي الوسط ليرى العش، وبدلًا من ألوف النحل المتساند ظهرًا إلى ظهر في دائرة سوداء، المقيم هناك لمراقبة سر النقف، يرى حشرات كئيبة محذِّرة لا تكاد تبلغ بضع مئات وهي في حالة أقرب إلى الموت. فالنحل كله ميت تقريبًا، يجهل أنَّ الكنز الذي يحرسه لم يعُد له وجود، تفوح منه رائحة عفِنة، باستثناء البعض الذي يتحرَّك ويطير بضعف ليقعقع على يد المربِّي، وقد بلغ من ضعفه أنه لا يفقد الحياة إذا لسعه. أما البقية الباقية، فكلها ميت، تسقط إلى الأسفل أشبه بإسقاط السمك. وحينئذٍ يعيد المربِّي الكوَّة كما كانت، ويشير إلى الخلية بالحكك، ثم يتخيَّر اللحظة المناسبة لإخراج الثول وإحراقه.



وهكذا كانت موسكو خالية، بينما كان نابليون المتعَب القلِق المقطِّب حاجبَيْه، يروح ويجيء عند حاجز «كوليج دولاشامبر» منتظرًا الوفود، وهو أمر لا يتعدَّى مجرد مظهر تقليدي، لكنه لا بدَّ منه في رأي نابليون.

وفي مختلف أحياء المدينة كان بعض الناس يروحون ويجيئون عاجزين عن قصد معين، تحرِّكهم عادات قديمة، لا يفقهون ما يفعلون.

وعندما جاءوا يُعلِمون نابليون بالاحتياطات اللازمة، أن موسكو خالية، تأمَّل حامل هذا النبأ بعين غاضبة، ثم استدار وعاد إلى نزهته الصامتة، وأخيرًا قال: «لِيأتوني بعربتي.»

ثم صعد إليها مع المساعد العسكري المنوب ودخل الضاحية وهو يردِّد في نفسه: «موسكو خالية! يا لَلحدث الذي لا يصدَّق!»

لم يدخل المدينة، بل توقَّف في خان في ضاحية دوروجوميلوف.

لقد أخفقت المفاجأة المسرحية!

الفصل الحادي والعشرون

أعمال السلب

اجتازت قطعاتنا موسكو ابتداءً من الساعة الثانية صباحًا وحتى بعد الظهر، جارَّة وراءها المبطئين والجرحى.

ولقد حدث أكثر زحام على جسور بيير وموسكوفا وإياووزا خلال الفترة التي استغرقها مسير الجيش.

وبينما كانت القطعات تنقسم إلى شطرين حول الكريملين، وتتجمَّع عند جسرَي موسكوفا وبيير، كان عدد لا يستهان به من الجنود ينتهزون فرصة التوقف والفوضى؛ ليعودوا على أعقابهم وليتسلَّلوا خِلسة وبسكون على طول كنيسة «بازيل السعيد» الضخمة، وليصعدوا على طريق باب بوروفيتسكي إلى الساحة الحمراء مدفوعين بحاسَّة خفيَّة، محدِّثين أنفسهم أنَّ النهب هنا أسهل منه في أي مكان آخر. اجتاحت هذه الجماعة جوستينيِّي دفور من كل المنافذ المؤدية إليه كما هي العادة أيام البيع بأثمان بخسة. لكن أصوات الباعة المتجوِّلين والمنادين الودودة المغرية لم تعُد تُردَّد فيه، ولقد حلَّ محل الجمهور المرقش من المشتريات جنودٌ في أزيائهم أو معاطفهم، غير مسلَّحين، يدخلون الأروقة بأيدٍ فارغة ليخرجوا منها صامتين محمَّلين بالأسلاب، ولقد كان عدد التجَّار المستخدمين المذعورين — وكانوا قلة — يجولون بين هؤلاء الجنود، يفتحون دكاكينهم أو يغلقونها، محاولين — بمساعدة الحمَّالين — أن يضعوا بضاعتهم في مأمَن. وعلى ساحة جوستينيي دفور راح قارعو الطبول يطلقون النداء إلى الصفوف، لكن دويَّ الطبل كان بدلًا من أن يجمع الجنود النهَّابين، يحثُّهم على الابتعاد أكثر فأكثر، ولم يلبث أن بدا بين العسكريين الذين اجتاحوا الدكاكين والممرات أشخاص في معاطف رمادية ذوو رءوس حليقة. وراح ضابطان؛ أحدهما يتقلَّد وشاحًا فوق بزَّته ويمتطي صهوة حصان قصير

القوائم هزيل كهبي اللون، والآخر يرتدي معطفًا طويلًا يبلغ قدميه، يتحدَّثان فيما بينهما عند زاوية إيليئينكا حيث توقَّفا، وجاء ثالث يلحق بهما على جواده.

– «لقد أعطى الجنرال الأمر بطردهم جميعًا بأي ثمن وعلى الفور. هذا أمر لا يوصف! لقد تفرَّق نصف الجيش.»

وصرخ مناديًا ثلاثة من الجنود المشاة تسلَّلوا تحت عينَيْه إلى الأروقة دون أسلحة وقد حسروا أطراف معاطفهم: «إلى أين أنت ذاهب؟ وأنتم يا هؤلاء، قفوا، أسافل!»

ردَّ الضابط الأول: «حاول أن توقفهم! لم تعُد هناك وسيلة لإيقافهم! يجب أن نحثَّ الخطى حتَّى يبقى الباقون منتظمين في صفوفهم. هذا كل شيء!»

– «كيف نتقدَّم؟ لقد توقفوا هناك وهم متجمهرون على الجسر لا يستطيعون التقدم أكثر من ذلك. هل ترى يجب وضع سلسلة لمنع الصفوف الخلفية من التشتُّت؟»

هتف الضابط الكبير: «نعم، اذهب إلى هناك. طاردوهم جميعًا.»

ترجَّل متقلد الوشاح واستدعى قارع طبل، ثم دخل معه تحت الأروقة فاختفى بعض الجنود على الفور، وتقدَّم تاجر ذو وجنتين حمراوين تغطِّي البثور ما حول الأنف، وعلى وجهه تعبير حسابي لا يتزعزع، من الضابط مسرعًا وهو يلوِّح بيديه بتكلُّف وقال: «يا صاحب النبالة، تفضَّلْ بمنحي حمايتك، لن ندقِّق كثيرًا، إننا في خدمتك. إذا كنت ترغب في جوخ أخرجت لك منه ما تريد، قطعتين على الأقل لرجل نبيل. إنه في خدمتك لأننا ندرك الأشياء تمامًا، ولكن هذا، ما هذا؟ إنه سلب! ارحمنا! تفضَّل بوضع حرس حتَّى نستطيع إغلاق متاجرنا.»

وجاء عدد آخر من الباعة يحيطون بالضابط، قال أحدهم، وهو نحيل ذو وجه صارم، يخاطب زميله: «إيه! إنك تصرخ ولا تقول شيئًا. عندما يُقطع رأس إنسان لا يجب أن يبكي على شعره.»

ثم التفت نصف التفاتة نحو الضابط وقام بإشارة نشيطة من يده، وأردف: «انتقِ ما تشاء، خذ ما تشتهي.»

فقال البائع الأول: «أنت يا إيفان فيدوريتش، إنك تتكلَّم على هواك. تعال أرجوك يا صاحب النبالة.»

وصرخ البائع الهزيل: «كيف أتحدث على هواي؟! إن لديَّ في دكاكيني الثلاث ما قيمته ثلاثمائة ألف روبل من البضائع، فكيف أحتفظ بها إذا كان الجيش راحلًا؟ إننا نعرفه، الشعب. «إن اليد لا تستطيع شيئًا ضد قوة الله».»

استأنف البائع الأول وهو ينحني بالتحيات: «أرجوك يا صاحب النبالة.»

وكان الضابط مترِّدًا ووجهه بكل تقاطيعه ينطق بتردده، وفجأةً، هتف وهو يدخل تحت الأروقة بخطًى حثيثة: «إيه! سيَّان عندي، بعد كل شيء!»

كانوا يتخاصمون ويتبادلون السباب في حانوت مفتوح عندما اقترب الضابط منه، وكان رجل ذو معطف رمادي ورأس حليق يخرج من الحانوت بعنف مطرودًا.

انحنى ذلك الرجل حتَّى انطوى وتسلَّل بين البائع والضابط، وانهال الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت، ولكن في تلك اللحظة، ارتفعت صرخات مروِّعة من حناجر جمهور غفير على جسر موسكوفا، فعاد الضابط مسرعًا إلى الساحة. سأل زميله: «ماذا هناك؟ ماذا جرى؟»

لكن هذا كان يجري صوب الصيحات على طول كنيسة «بازيل السعيد» الكبيرة.

امتطى الضابط جواده وتبعه، فلمَّا بلغ الجسر شاهد مدفعَيْن انتُزعا من عجلاتهما، وجنودًا مشاةً سائرين، وعربات نقل مقلوبة، ووجوهًا مذعورة، وجنودًا يتقهقرون. وبالقرب من المدفعَيْن وقفت عربة يقطرها جوادان، ووراء العربة ربطوا أربعة كلاب صيد، أحدهما لصق الآخر. وعلى العربة جبل من الأمتعة قبَعت فوقه — على الذروة — امرأة جلست إلى جانب كرسي أطفال وقدماها في الخواء تطلق صرخات ثاقبة. وروى رفاق الضابط له أن كل تلك الصيحات سببها أمر أصدره الجنرال إيرمولوف؛ ذلك أنه عندما علم أن الجنود يغزون الحوانيت، وأن السكان متجمهرون قرب الجسر، أمر بأن تُنزع المدافع من عجلات القطر، وأن تتخذ الاستعدادات لإطلاق القذائف على الجسر، وحينئذٍ راحت الجماهير تقلب العربات وتتدافع يسحق بعضها بعضًا، وتزمجر، لكنها أخلت الجسر فاستطاع الجيش أن يواصل تقدُّمه.

الفصل الثاني والعشرون

مافرا والضابط المجهول

وفي تلك الأثناء، كان كل شيء مقفر في وسط موسكو، والشوارع تكاد أن تكون خالية، وأبواب المساكين والحوانيت مُقفلة، وهنا وهناك، حول المشارب، كانت بعض الأصوات ترتفع، وبعض أغنيات السكارى؛ فلا عربة واحدة ويندر أن تردد خطى عابر سبيل. وفي بوفارسكاييا الخاوية تمامًا، الصامتة، كان فناء مسكن آل روستوف الرحب يشهد تناثر القش والأرواث دون أن يضمَّ نفسًا حية، وفي ذلك البيت الذي أُبقيَت فيه كل ثروة أصحابه، لم يقُم غير شخصين في البهو الكبير؛ هما البواب إينياس والخادم الصغير ميشكا حفيد فاسيليتش، الذي بقي في موسكو مع جدِّه. ولقد رفع ميشكا غطاء الأرغن وراح يعزف بإصبع واحدة، بينما انتصب البواب أمام مرآة كبيرة واضعًا يديه على وركيه وهو يبتسم ابتسامة بهيجة.

هتف ميشكا الذي راح فجأةً يضرب أصابع المعزف بكلتا يديه: «انظر يا عم إينياس! إنني أعرف كيف أعزف. أليس كذلك؟»

فأجاب إينياس وقد فتنه أن يرى على وجهه في المرآة ابتسامة تزداد إشراقًا: «أصدِّقك!»

وقالت مافرا كوزمينيتشنا من ورائهما وقد دخلت خلسة: «إنكما لا تخجلان! حقًّا يجب أن تخجلا! وهذا المنفوخ الضخم الذي يقهقه! هذا ما أنتما صالحان له! في حين أن كل شيء يجب أن ينظَّم وفاسيليتش لا يستطيع الوقوف على قدميه! انتظرا قليلًا!»

كفَّ إينياس عن الابتسام، وراح يسوِّي نطاقه وهو يخفض عينَيْه مذعورًا، وخرج من الغرفة. وقال الغلام الصغير: «أيتها العَمَّة الصغيرة، سأعزف برفق أكثر.»

فصرخت مافرا كوزمينيتشنا وهي ترفع على الغلام يدًا مهدِّدة: «وسأُذيقك «برفق» ما تستحق، يا فاجر! اذهب وأعِد السماور.»

مسحت مافرا كوزمينيتشنا الغبار وأغلقت غطاء المعزف، ثم خرجت من البهو وهي تزفر زفرة عميقة، ثم أغلقت الباب بالمفتاح.

ولمَّا أصبحت في الفناء، راحت مافرا كوزمينيتشنا تفكِّر: «أين يجب عليها أن تذهب الآن؟ أتذهب لاحتساء الشاي مع فاسيليتش في الجناح أم ترتِّب الأشياء التي لم تنظَّم بعدُ في مخزن الأمتعة؟»

ارتفعت خطوات سريعة في سكون الشارع، ثم توقَّفت أمام باب الفناء الصغير، وراح الرتاج يصل تحت يدٍ تعالجه لتفتحه.

اقتربت مافرا كوزمينيتشنا من الباب: «من تريد؟»

– «الكونت، الكونت إيليا آندريئيفيتش روستوف.»

– «وأنت، من أنت؟»

فأجاب الصوت الروسي المستحب: «إنني ضابط في حاجة إلى رؤيته.»

فتحت مافرا كوزمينيتشنا الباب، فدخل الفناء ضابط شاب في حوالي الثامنة عشرة من عمره، مستدير الوجه، تذكِّر تقاطيعه بتقاطيع آل روستوف.

قالت مافرا كوزمينيتشنا بلهجة متودِّدة: «لقد ذهبوا جميعًا أيها السيد العزيز، لقد رحل السادة أمس مساءً ...»

لعق الضابط الشاب بلسانه وهو واقف قرب الباب، وتردَّد لا يدري أيدخل أم يرحل! هتف: «آه! يا له من أمر مؤسف! كان عليَّ أن أحضر بالأمس ... آه! كم هو مؤسف! ...»

خلال ذلك، كانت مافرا كوزمينيتشنا تتأمل بانتباه مفعم بالعطف، ذلك الشاب الذي تذكِّرها تقاطيعُ وجهه بأسرة روستوف، كان معطفه خَلِقًا، وحذاءاه مثنيَّان. سألته: «ولأي سبب كنت تريد رؤية الكونت؟»

فقال الضابط الشاب غاضبًا وهو يقترب من الباب استعدادًا للخروج: «فات الوقت ... ولا حيلة بالأمر!»

ثم توقَّف وهو في حيرة، ثم قال فجأةً: «ذلك أنني قريب للكونت، وكان دائمًا جمَّ العطف عليَّ. وكما ترين ...» وتأمل معطفه وحذاءه بابتسامة مرِحة طيبة. «لقد بليتْ كل هذه حتَّى فنيت، ولست أملك نقيرًا؛ لذلك أردت أن أسأل الكونت ...»

لم تدعه مافرا كوزمينيتشنا ينهي جملته وقالت: «انتظر دقيقة صغيرة يا سيدي الطيب دقيقة صغيرة.»

وما إن تخلَّى الضابط الشاب عن رتاج الباب حتَّى استدارت مافرا كوزمينيتشنا ومضت بخطوات العجوز السريعة إلى الفناء الخلفي حيث يقع مسكنها.

وبينما كانت مافرا كوزمينيتشنا تهرع إلى غرفتها؛ راح الضابط — مطرق الرأس — متأملًا حذاءَيْه الممزَّقين، يروح ويجيء في الفناء وعلى شفتَيْه ابتسامة خفيفة: «كم هو مؤسف ألَّا أجد عمي! ولكن يا لها من امرأة باسلة! تُرى إلى أين ذهبت؟ وددتُ الآن لو أعلم في أي شارع أسير لألحق بفيلقي الذي يجب أن يكون الآن قريبًا من روجوسكاييا — حاجز يقع شرقي موسكو.»

ظهرت مافرا كوزمينيتشنا عند ركن الفناء وعلى أساريرها مسحة من الذعر المشوب بالعزم الثابت، تُمسِك بيدها منديلًا معقودًا ذا مربَّعات، ولمَّا باتت على قيد خطوات من الضابط حلَّت المنديل وأخرجت منه ورقة نقدية بيضاء من ذات الخمسة والعشرين روبلًا، مَدَّتها للضابط الشاب برشاقة: «لو أن سعادته كان هنا، بالطبع، كما لقريبه ... وإذن، علَّني أستطيع ... الآن ...»

لم تكن مافرا كوزمينيتشنا — في خجلها الشديد — تدري ما تقول، لكن الشاب دون أن يعترض ودون أن يتعجَّل، أخذ الورقة النقدية وشكر العجوز، فكرَّرت هذه معتذرة: «لو أن الكونت كان هنا ... لِيحفظك الله يا سيدي الطيب.»

وأعقبت وهي تنحني وترافقه إلى الباب: «لِيحفظك الله.»

راح الشاب يبتسم وكأنه يهزأ من نفسه، ويهزُّ رأسه، وانطلق بما يشبه الجري خلال الشوارع المقفرة ليلحق بفيلقه.

وظلت مافرا كوزمينيتشنا فترة طويلة أمام الباب المغلق والدموع ملء مآقيها، وهي تهزُّ رأسها مفكِّرة وقد استبدَّت بها موجة من العطف والحنان حيال الضابط المجهول الشاب.

الفصل الثالث والعشرون

الغوغاء

في منزل لم يتمَّ بناؤه بعدُ بشارع فارفاركا، كان الدور الأسفل منه يحوي مشربًا، ارتفعت الصيحات وأغنيات السكارى، وكان حوالي اثني عشر عاملًا يحتلون المقاعد حول طاولة في حجرة قذرة، وقد نضحت وجوههم بالعرق واعتكرت عيونهم، فراحوا وهم في حالة سكرهم الشديد يفتحون أفواهًا عريضة ويرفعون عقائرهم بالغناء. كانوا يغنُّون دون مطابقة في الأصوات بمجهود ليس بدافع الرغبة في الغناء، بل ليبرهنوا على أنهم سكارى تلذَّذوا بالطعام والشراب. وكان الواقف الوحيد بينهم فتًى عملاقًا أشقرَ يرتدي رداءً عريضًا أزرق، وكان وجهه ذو الأنف المستقيم الدقيق قابلًا للتحلِّي بصفات الجمال لولا شفتاه المنقبضتان المصعَّرتان وحاجباه المقطَّبان وعيناه الشاخصتان العكرتان. كان متسلِّطًا على المغنِّين، يعتقد بوضوح أنه شخص ما، فيؤرجح فوق الرءوس بحركة خرقاء جليلة، ذراعه التي شمَّر عنها كمَّه حتَّى المرفق، وأصابعه القذرة التي كان يباعد بينها على أفضل ما يستطيع. وكان كُمُّ ردائه يسقط دائمًا فيشمِّره الفتى دون كلل بيده اليسرى، وكأن بقاءَ ذراعه البيضاء المعرقة عارية أمرٌ ذو أهمية حيوية. وفي وسط الأغنية تردَّدت عند المدخل جلبة مماحكة، فأشار الفتى العملاق بيده وصاح بصوتٍ آمِر: «كفى معركة أيها الرفاق!»

ودون أن يُرخي كُمَّ ردائه اندفع نحو المرقاة.

اندفع العمال وراءه. لقد جاء العمال ذلك الصباح إلى المشرب تحت قيادة العملاق حاملين جلودًا من المعمل إلى الخمَّار ثمن شرابهم، ولمَّا علا صخبهم وضجيجهم ظن حدَّادون في معمل قريب للحدادة أن الحانة معرَّضة للنهب، فأرادوا الدخول إليها بالقوة.

وكانوا عند المرقاة يتبادلون الكلمات، والخمَّار الذي يدافع عن بابه مشتبك مع حدَّاد في اللحظة التي ظهر فيها العمال. فراح الحدَّاد بعد أن أفلت من يد الخمَّار، يسقط على الأرض ورأسه تسبق جسمه.

وهجم أحد رفاقه على الباب، وأطبق بساعدَيْه على جسد الخمَّار.

وضرب الفتى ذو الكُمِّ المشمَّر حدَّادًا على ملء وجهه، راح يسعى للدخول وزمجر: «أيها الرفاق، إنهم يضربوننا!»

وفي تلك اللحظة، نهض الحدَّاد الأول وراح يمر بأصابعه على وجهه المدمى، وصرخ بصوت محزن: «الغوث! إلى القاتل! إنهم يقتلوننا! النجدة أيها الرفاق!»

ونبَحَت امرأة كانت خارجة من بيتٍ مجاور: «أوه! ربَّاه! لقد ضربوا رجلًا حتَّى الموت!»

وأحاط جمع من الناس بالحدَّاد ذي الوجه المغطى بالدم. قال صوت يخاطب الخمَّار: «لا يكفيك أن تسلب الفقراء وأن تنزع عنهم حتَّى قميصهم، فأصبحت الآن تطمع في جلودهم أيها اللص؟!»

وقف الفتى العملاق على المرقاة، وراح ينقل أبصاره بين الخمَّار والحدَّاد فترة وكأنه يفكِّر في أيٍّ من الجانبين ينحاز إليه، وفجأةً صرخ بالخمَّار: «يا قاتل! أوثقوه أيها الرفاق!»

صرخ الخمَّار وهو يدفع الذين ألقوا بأنفسهم عليه وينزع قلنسوته بحركة عنيفة فيضرب بها الأرض: «هن، يوثقوني أنا؟!»

وكأن تلك الحركة كانت ذات معنًى غامض متوعِّد؛ إذ ترك العمال الخمَّار وتوقفوا مترددين. هتف الخمَّار وهو يرفع قلنسوته: «أنا أعرفه، القانون، أعرفه معرفةً عميقة، سأذهب إلى مديرية الشرطة. آه! هل تظن بأنني لن أذهب؟ ليس من حق أحد الآن أن يقوم بأعمال السلب!»

وردَّد الخمَّار والفتى العملاق على التعاقب، وذهبا معًا على طول الشارع: «هيا بنا إذا أردت! هيا بنا ... إذا أردت!»

وتبعهما الحدَّاد ذو الوجه المدمى، ثم سار العمال والفضوليون على آثارهم وهم يتناقشون ويصرخون.

عند زاوية شارع ماروستيئيكا، قبالة بناء كبير مغلق المصاريع، يحمل لافتة معمل لصنع الأحذية، وقف حوالي عشرين عاملًا حذَّاء، وكلهم نحيلون أضناء يلبسون الأردية الفضفاضة والمعاطف الخَلِقة.

قال عامل شديد النُّحول ذو لحية نادرة وحاجبين كثيفين: «لِيعطِنا حسابنا حسب الأصول! لقد امتصَّ دماءنا وهو الآن يعتقد أنه بريء الذمة. لقد سوَّفنا وماطلنا طيلة الأسبوع، والآن وقد بلغنا أقصى حالات العوز، انسلَّ هاربًا!»

ولَّما رأى العامل الحذَّاء الجماعة والرجل الجريح صَمَتَ واستولى عليه وعلى رفاقه فضول لا يقاوم، فانضمَّ معهم إلى الجمهور المندفع.

– «إلى أين يمضي كل هؤلاء؟»

– «لكن هذا واضح، إلى الشرطة.»

– «قل يا هذا، هل حقيقة أن جيشنا هو المنتصر؟»

وراحت الأسئلة والأجوبة تتقاطع، فانتهز الخمَّار فرصة الهياج العام وتسلَّل من بين الجماعة عائدًا إلى حانته.

وكان العملاق الذي لم يلاحظ اختفاء عدوِّه يحرِّك ذراعه العارية حركات عريضة دون أن يكفَّ عن التحدث بإسهاب، جاذبًا بذلك إلى نفسه الانتباه العام، ولقد كان الفضوليون يحيطون به أكثر من سواه؛ طمعًا في الحصول على جواب للأسئلة التي كانت تشغل بال الجميع.

قال الفتى العملاق بابتسامة دقيقة: «أمَّا أن يعطونا الأوامر وأن يحقَّ الحق، فهذا عمل السلطة! أليس كذلك أيها الناس البواسل؟ هل يظنون أن ليس هناك سلطة؟ هل يمكن الاستغناء عن السلطة؟ لولا ذلك لسُلِب كلُّ شيء.»

وسمع من بين الجمع قائل يقول: «يا لَلأكذوبة! إذن يتركون موسكو هكذا؟ لقد قالوا لك هذا ليسخروا منك فصدَّقته. إن عدد الجنود ليس بالقليل، ثم يتركونه يدخل! هناك قيادة مهمتها منع ذلك.»

وراحوا يشيرون إلى الفتى العملاق ويقولون: «أصغوا إلى ما يقول!»

وأمام جدار كيتائي-جورود أحاط فريق من الناس برجل ذي معطف ثقيل من الصوف يمسك بيده ورقة، وكانوا يردِّدون بين الجمع الذي ما لبث أن انضمَّ إلى الدلال العمومي: «بلاغ. إنهم يقرءون بلاغًا! بلاغ!»

كان الرجل ذو المعطف يقرأ منشور الواحد والثلاثين من آب، فلمَّا رأى أنهم أحاطوا به بدا كأنه يستعيد قواه، لكنه عاد نزولًا عند رغبة العملاق الذي اندفع إلى الصفِّ الأول وطلب إليه أن يقرأ من البداية، فقرأ بصوت فيه رعدة خفيفة: «غدًا، من الصباح الباكر سأمضي لزيارة الأمير عظيم الرفعة (فكرَّر الفتى العملاق بأبَّهة وعلى شفتَيْه ابتسامة عريضة وهو يقطِّب حاجبَيْه: عظيم الرفعة)؛ لكي أتشاور معه حول العمل أو مساعدة جيشنا على إبادة العدو. يجب أن نجعل نفسه تمجُّ طعم الخبز.» وتوقَّف المنادي بعد استرسالٍ، فهتف العملاق بانتصار: «هن! أترى هذا! يا لها من «علقة»!»

«وسوف نُفني هؤلاء الزوار وسنرسلهم إلى الشيطان، وسأعود غدًا إلى هنا لأتناول طعام الغداء، وعندئذٍ سنشرع في العمل معًا، ولا نكاد نبدأ حتَّى ننتهي ولن نتحدَّث بعد ذلك عن هؤلاء اللصوص مطلقًا.» وسقطت الكلمات الأخيرة في الصمت العام. وكان العملاق مطرِقًا برأسه أشبه بالمثقل. لا ريب أن ما من شخص فهم شيئًا من هذه النهاية، وكانت هذه الكلمات: «وسأعود غدًا إلى هنا لتناول طعام الغداء» هي التي تزعج بشكل واضح المنادي والمستمعين إليه معًا. لقد كان الإدراك العام بحاجة إلى عبارات كبيرة، فكانت هنا تبدو بسيطة جدًّا، بل ومبتذَلة. لقد كانت هذه الكلمات هي نفسها التي يمكن أن يردِّدها كلٌّ منهم وبهذه العبارات نفسها؛ وبالتالي فإنها لم تكن هي التي يجب أن تَصدُر عن سلطة عليا.

لزموا جميعهم صمتًا كئيبًا، وراح الفتى العملاق يحرِّك شفتيه ويتأرجح من قدم على أخرى. هتفت أصوات من الصفوف الخلفية من الجماعة: «ماذا لو ذهبنا نسأله الخبر؟ ... آه! ها هو ذا ... ولكن كيف؟ ... ولِمَ لا؟ ... سوف يقول لنا ...»

وتركَّز الانتباه العام على عربة رئيس الشرطة الذي وصل حينذاك إلى الساحة يواكبه اثنان من الفرسان.

لقد ذهب مدير الشرطة ذلك الصباح، بناءً على أمر روستوبتشين، ليُشعل النار في بعض المباني، وتقاضَى لقاء ذلك مبلغًا ضخمًا من المال كان يحمله معه، فلمَّا رأى الجمْع آتيًا للقائد أصدر الأمر للحوذيِّ بالتوقف.

هتف بالناس الذين راحوا يتوافدون الواحد تلو الآخر ويقتربون من عربته بوجَل: «ماذا تريدون؟»

كرَّر لمَّا رأى أنه لم يتلقَّ ردًّا: «ماذا يريدون هؤلاء المتجمهرون؟ قولوا.»

قال المنادي العمومي: «إنهم يريدون — وفقًا للمنشور — أن يقدِّموا حياتهم. إنهم يريدون تقديم خدماتهم لا التمرُّد كما نما عن طريق مولاي الكونت ...»

صرخ رئيس الشرطة: «إن الكونت لم يذهب. إنه هنا، وسوف يعطيكم تعليماته.»

ثم أهاب بسائق عربته: «إلى الأمام!»

تكأكأ الناس حول أولئك الذين سمعوا الكلمات التي فاهت بها السلطة، وهم يتابعون بأبصارهم العربة المبتعدة.

استدار مدير الشرطة نحو الحشد المتكاثر، فذُعر وقال شيئًا لسائق عربته، فضاعف سرعة الجياد.

زمجر العملاق: «إنهم يخدعوننا أيها الرفاق! قدنا إلى الحاكم نفسه! لا تدعوه يفلت أيها الأولاد! ليقرِّر لنا حقائق الأمور!»

وصرخت أصوات كثيرة: «احتجزوه.»

واندفع الجمهور وراء العربة.

راح الجمهور وهو يتبع عربة مدير الشرطة يتوجَّه بصخب وجلبة نحو لوبيانكا، والناس يتحدَّثون فيما بينهم: «لقد انسلَّ السادة والتجار بعضهم إثر بعض؛ ولذلك فقد قُضي علينا بسببهم، في حين أننا لسنا كلابًا.»

الفصل الرابع والعشرون

حالة روستوبتشين

عاد الكونت روستوبتشين إلى موسكو مساء الأول من أيلول بعد مقابلته مع كوتوزوف، وقد أصيب بجرح مرير لعدم دعوة كوتوزوف أباه إلى الاشتراك في المجلس العسكري، ولأنه لم يُعِر أي انتباه عرضه المتعلق بالاشتراك في الدفاع عن موسكو، وأذهله كذلك الرأي الجديد الذي اكتشفه المعسكر، والذي — تبعًا له — يكون أمن المدينة وعواطفه الشخصية الوطنية ليست أمرًا ثانويًّا فحسب، بل وعديمة الأهمية والجدوى كذلك. عاد وهو مجروح الكرامة جُرحًا مريرًا ومذهولًا بآن واحد، وتمدَّد على أريكة بعد العشاء بكامل ثيابه، فأُوقِظ في الساعة الواحدة صباحًا من قِبل ساعٍ قادم من لدن كوتوزوف يرجوه أن يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات العسكرية المتقهقرة عبر المدينة على طريق ريازان، فلم يكُن هذا نبأً حسَنَ الوقْع على روستوبتشين. كان يعرف أن موسكو سوف تُهجَر، ليس منذ مقابلته مع كوتوزوف على جبل بوكلونايا فحسب، بل منذ معركة بورودينو، عندما أعلن الجنرالات العائدون إلى موسكو بصوتٍ واحد أن أيَّة معركة جديدة مستحيل وقوعها. ومنذ ذلك الحين راح يضع في أمكنة مأمونة ممتلكات التاج ليلة إثر ليلة، كما ارتحلت نصف أُسر موسكو بعضها في أثر بعض. مع ذلك، فإن ذلك النبأ الذي تلقَّاه على شكل كتاب بسيط يحوي أمر كوتوزوف وصله خلال الليل بعد إغفاءته الأولى؛ مما أدهشه وأسخطه.

ولقد كرَّر الكونت روستوبتشين فيما بعد في مذكراته مبرِّرًا تصرفاته خلال هذه الحقبة، بأنه كان يهدِف حينذاك إلى شيئين مهمَّين: توطيد الأمن في موسكو، وترحيل السكان عنها. فإذا قُبِل هذا الهدف المزدوج فإن كل سلوك روستوبتشين يصبح بعيدًا عن اللوم. ولكن، لماذا إذن لم ترحل كنوز الكنائس الموسكوفية والأسلحة والذخائر والبارود واحتياطي الحبوب؟ لماذا خُدعوا وبالتالي نكبوا ألوفًا من الأشخاص مؤكدين لهم أن

موسكو لن تُهجَر؟ إن الكونت روستوبتشين يجيب: «لتوطيد أمن المدينة!» ولكن لماذا رحَّلوا أطنانًا من الأوراق الرسمية ومنطاد ليبيخ وكثيرًا من الأشياء عديمة الجدوى؟!

يجيب الكونت روستوبتشين: «لكي تُترك المدينة فارغة. يكفي أن يكون هناك ما يهدِّد أمن المدينة العام حتَّى يصبح أيُّ تصرف مقبولًا.»

إن كل بشاعات الإرهاب لم تكن تهدِف هي الأخرى إلا لتوطيد الأمن العام.

إذن، على أي أساس كانت ترتكز مخاوف الكونت روستوبتشين المتعلِّقة بأمن موسكو عام ١٨١٢م؟ ما هي الأسباب التي جعلته يفترض وجود ميول إلى الفتنة في المدينة؟ لقد كان سكانها يجلون عنها والجيش في تراجعه يملؤها، فلماذا كان الشعب لا بدَّ ثائرًا حينذاك؟

لا في موسكو، ولا في أي مكان من روسيا، لم تقع حوادث من هذا النوع. لقد ظل في موسكو حتَّى الأول والثاني من أيلول قرابة عشرة آلاف شخص ولم يقع — إذا استثنينا الجمهرة التي تشكَّلت في فناء سراي الحاكم، والتي سبب قيامها بنفسه — أيُّ حادث شغب. وإنه من الواضح أن روستوبتشين بعد بورودينو عندما بات لا مندوحة من إخلاء موسكو، أو على الأقل بات إخلاؤها متوقَّعًا، كان يستطيع بدلًا من إلهاء السكان بتوزيع الأسلحة والمناشير أن يتخذ الاحتياطات التي لا بدَّ منها لنقل كنوز الكنائس والبارود والعتاد والمال، وأن يعلن بصراحة إخلاء موسكو فيقضي على كل خوف من التمرُّد الشعبي.

لقد عاش روستوبتشين دائمًا — وهو الشخص ذو العقلية الغضوب الدموية — في أجواء الإدارة العليا، فلم تكن لديه — رغم وطنيته الملتهبة — أية فكرة عن الشعب الذي يزعم أنه يحكمه. لقد اتخذ روستوبتشين لنفسه منذ دخول العدوِّ إلى سمولنسك، دَوْر مدير وجدان الشعب الروسي في «قلب روسيا»، وكان يظن (ككل إداري) أنه ليس على رأس تظاهرات سكان موسكو الخارجية فحسب، بل إنه كذلك يوجِّه عواطفهم بنداءاته ومنشوراته التي استعمل فيها لغة لصوص المجتمع الراقي، وهي لغة يمقتها الشعب ولا يفهمها عندما تفوح بالسلطة. وكان هذا الدور، دور قائد الشعور الشعبي، يفتن روستوبتشين ويرتاح إليه لدرجة أن الخروج منه بالجلاء الإلزامي عن موسكو دون أي عمل بطولي كان أوقع مفاجأة عليه. خُيِّل إليه أن الأرض تميد تحت قدميه، فلم يعُد يعرف ما يعمل. وعلى الرغم من معرفته الأكيدة بالأحداث، فإنه رفض بكل روحه أن يصدِّق فكرة مغادرة موسكو حتَّى اللحظة الأخيرة. لقد ذهب السكان ضد موافقته، وإذا كانوا

قد أخلوا المكاتب والوزارات فإن ذلك كان بناءً على طلب الموظفين أنفسهم، فلم يسمح لهم إلا مكرهًا. لم يكن يهتم إلا بالدور الذي عزاه في خياله إلى نفسه، وكان يعرف منذ أمدٍ بعيد أن موسكو ضائعة لا محالة، كما يحدث غالبًا لذوي الخيال الخصب، لكنه ما كان يعرف ذلك إلا من الناحية المنطقية؛ فلقد كان يرفض بكل قواه الروحية أن يصدِّق أو أن ينقل نفسه على أجنحة الخيال الموقف الجديد.

ولقد اندفع نشاطه اللاهب وحيويته كلها.

ماذا كان جدوى ذلك النشاط؟ وأي أثر له في نفوس الشعب؟ ذلك بحث آخر. لقد اندفع كل نشاطه نحو ضرورة إيقاظ الأحاسيس التي تعتلج في نفسه في نفوس السكان، إيقاظ الحقد الوطني على الفرنسي والثقة بالنفس.

ولكن عندما اتخذت الأحداث نِسَبَها التاريخية الحقيقية، عندما خُيِّل أن إظهار الحقد على الفرنسيين بلغة الكلام وحدها لم يعد كافيًا، عندما بات يستحيل إظهار ذلك الحقد حتَّى عن طريق القتال، عندما بدا الإيمان بالذات عديم الأثر في كل ما يتعلق بمسألة موسكو، عندما تدفَّق السكان من موسكو هاجرين ممتلكاتهم تدفُّق السيل، مظهرين بهذه البادرة العمياء كلَّ قوة شعورهم القومي، عندئذٍ ظهر الدور الذي اضطلع به روستوبتشين عديم المعنى فارغًا. شعر روستوبتشين أن الأرض تميد تحت قدمَيْه، ورأى نفسه فجأةً وحيدًا ضعيفًا يثير الهُزْء.

وعندما قرأ رسالة كوتوزوف الجافَّة الآمرة، كان مبلغ سخط روستوبتشين الذي استيقظ منتفضًا، كافيًا ليجعله يشعر بذنبه بأكثر وضوحًا. لقد ظلَّ كل ما أنيط به بصراحة، كل الممتلكات التابعة للدولة التي كان عليه إخراجها من منطقة الخطر، ظلَّت كلها في موسكو، وبات إجلاؤها ضربًا من المستحيل.

راح يفكِّر دون أن يحدِّد لنفسه من هم «السفلة» و«الخونة» الذين ورد ذكرهم في كلامه: «من هو المذنب إذن؟ حالة هذه الأمور من الذي سبَّبها؟ لست أنا بكل تأكيد. لقد أعددتُ أنا كل شيء، وكنت أُمسك بموسكو في يدي! وكيف؟! وها هو المدى الذي بلغنا إليه! سفلة! خونة!» لكنه كان مدفوعًا بضرورة مقت السفلة الخونة، هؤلاء المخلوقات الذين وضعوه في الموقف الخاطئ الداعي إلى السخرية الذي بلغ إليه.

استمر روستوبتشين طيلة الليل يصدر الأوامر التي جاءوا من كل جهات موسكو يطلبونها إليه، ولم يرَه المحيطون به قط على مثل تلك الحالة من الكآبة والانفعال. راحوا طيلة الليلة يسألونه دون توقف: «يا صاحب السعادة، لقد جاءوا يسألونك الأوامر من

جانب مدير الإقطاعيات ... من جانب مجمع الكرادلة، مجلس الشيوخ، الجامعة، الميتم، النائب الرسولي الأكبر ... ما هي أوامركم لرجال المطافئ؟ لمدير السجن؟ لمدير المأوى؟»

وكان يجيب على كل هذه الأسئلة إجابات مختصرة ثائرة تدل على أن أوامره لم يعُد لها أية أهمية، الآن بعد أن دمَّر آخرون عمله الذي أعدَّه بعناية فائقة، وإن هؤلاء «الآخرون» إنهم سيحتملون كامل مسئولية الأحداث الدائرة.

أجاب روستوبتشين على سؤال رسول دائرة الإقطاعيات: «اذهب وقل لذلك الأخرق أن يقف حارسًا أمام أوراقه. ثم ما هذا السؤال السخيف بصدد فريق الإطفاء؟ إن لديهم جيادهم فليذهبوا إلى فلاديمير — على حوالي ٣٠٠كم عن موسكو — إذا لا يجب أن نتركهم للفرنسيين.»

– «يا صاحب السعادة، لقد جاء مراقب دار المجانين، فماذا يجب أن نقول له؟»

– «ماذا تجيبونه؟ ليذهبوا جميعًا، هذا كل شيء. أما المجانين، فليطلقوا سراحهم في المدينة! طالما أن المجانين باتوا الآن يقودون الجيش عندنا، فإن الله يريد ذلك.»

وعندما تحدثوا إليه عن السجناء المكبَّلين بالحديد في أعماق زنزاناتهم، صرخ الكونت في وجه مراقب السجن وهو محنق: «ماذا تريد؟ هل يجب أن نقدِّم لك لواءَيْن لحراستهم؟ لست أملك اللواءَيْن، فأطلِق سراحهم. هذا كل شيء!»

– «يا صاحب السعادة، والمساجين السياسيون مييشكوف وفيريشتشاجين؟»

– «فيريشتشاجين؟ ألم يُشنق بعد؟ ليأتوني به!»

الفصل الخامس والعشرون

انسحاب روستوبتشين

حوالي التاسعة صباحًا، كانت القطعات قد شرعت تجتاز موسكو، فلم يعد يتقدَّم أحد لتلقِّي الأوامر، ولقد ذهب كل من استطاع أن يذهب مستعملًا وسائله الخاصة. أمَّا الذين بقوا في المدينة فكانوا يقرِّرون بأنفسهم ما عليهم أن يعملوه.

وكان الكونت قد أعطى أمرًا بإعداد عربة له تقلُّه إلى سوكولنيكي، وراح ينتظر في مكتبه مربدَّ الوجه صفراويه، متجهِّم الأسارير معقود الذراعين.

أثناء السلم، يعتقد كل إداري أن الفضل في سير كل المواطنين الذين عهد أمرهم إليه يرجع إلى قيادته زمام حركتهم، ويجد في إيمانه بأنه لا غِنى لهم عنه، المكافأةَ الرئيسية على عمله ومجهوده. وطوال الهدوء الذي يخيِّم على محيط التاريخ يعتمد ذلك الربَّان الإداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة، بمحجنه على سفينة الدولة، ليتقدَّم هو نفسه، ويستطيع هذا الربَّان، وهذا أمر ملموس، أن يظنَّ أنه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية، ولكن إذا ما ثارت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الأمواج وجُرحت السفينة، فإن ذلك الوهم يصبح مستحيلًا؛ فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلَّة، وربَّان السابحة يكتشف أنه ليس الرئيس مبعث كل قوة، بل رجل ضعيف غير ذي فائدة، تافهًا ومسكينًا.

وهذا ما كان يحس به روستوبتشين، وهو ما كان يثير حفيظته.

ولقد دخل رئيس الشرطة — ذلك الذي أوقفه الجمهور — على الكونت في اللحظة التي جاء مساعده يعلن أن الجياد جاهزة. كان كلاهما شاحب الوجه، فأعلن مدير الشرطة بعد أن كشف عن إنجازه مهمته، أن الفناء يعجُّ بجمهور ضخم يرغب في رؤية سعادته.

اجتاز روستوبتشين دون أن ينطق بكلمة البهو المشرق الفخم، واقترب من باب الشُّرفة، فأمسك بمقبضه ثم أفلته، وجاء إلى نافذة يمكن مشاهدة الجمهور كله منها.

كان الفتى العملاق في الصف الأول صارم الوجه، يتابع أحاديثه وهو يلوِّح بيديه، وكان الحدَّاد ذو الوجه الدامي واقفًا إلى جانبه مربدَّ الأسارير، وزمجرة الأصوات تبلغ الأسماع من وراء النوافذ المغلقة.

سأل روستوبتشين وهو يغادر النافذة: «هل العربة جاهزة؟»

فقال المساعد: «هي جاهزة يا صاحب السعادة.»

اقترب روستوبتشين من الشرفة مرةً أخرى، ثم استدار نحو مدير الشرطة واستعلم: «ولكن، ماذا يريدون؟»

– «يا صاحب السعادة، إنهم يصرخون بأنهم اجتمعوا ليمشوا على الفرنسيين تبعًا لأوامركم، وأنهم خينوا. إنهم طائفة من اللغَّاطين يا صاحب السعادة، ولقد أفلتُّ منهم بصعوبة كبرى. يا صاحب السعادة، لو حق لي أن أعرض ...»

زمجر روستوبتشين غاضبًا: «تفضَّل بالانسحاب. إنني أعرف ما يجب عليَّ أن أعمله بدونك.»

وراح ينظر إلى الجمهور من باب الشرفة، فكَّر والغضبة الهوجاء تغلي في أعماقه ضد ذلك الذي يمكن أن يُعزى إليه كل ما حصل فجأة: «ها هو ذا ما عملوه بروسيا! هذا هو الأسلوب الذي يعاملونني به!» وكما يحدث عادةً للأشخاص الغضوبين، كان الغضب يجتاحه لكنه ما زال يبحث عن الغرض. راح يحدِّث نفسه دون أن يبارح الجمهور بعينَيْه: «ها هم أولاء خمان الناس، حثالة الشعب، السُّوقة الذين ألَّبوهم بحماقتهم.» وأعقب وهو يتابع بعينَيْه الفتى العملاق وهو يلوِّح بيديه: «لا بدَّ لهم من ضحية.» ولقد راودته هذه الفكرة فجأةً؛ لأنه كان في حاجة إلى تلك الضحية لتجد غضبته سببًا. كرَّر: «هل العربة جاهزة؟»

فقال المساعد العسكري: «نعم يا صاحب السعادة، أية أوامر تعطيها بصدد فيريشتشاجين؟ إنه ينتظر قرب المرقاة.»

فزمجر روستوبتشين وكأن ذكرى فجائية طافت بخياله: «آه!»

وفتح باب الشرفة فجأةً وتقدَّم بخطًى ثابتة، فصمتت الأصوات، ورُفعت القلانس والقبَّعات، وشخَصت الأبصار كلها إلى روستوبتشين.

هتف دائريًّا وبصوتٍ مرتفع: «مرحى يا أبناء! وشكرًا إذا جئتم. سوف أنزل من فوري إلى صفوفكم، ولكن يجب قبل كل شيء تسوية حساب المجرم. يجب أن نعاقب المجرم الذي سبَّب ضياع موسكو. انتظروني!»

واختفى الكونت داخل حجراته بمثل السرعة التي ظهر فيها، وانصفق باب الشرفة بعنف.

وطافت بالجمهور همسة ارتياح وراح الناس يتحادثون وكأنهم يتبادلون الاعتذار لضعف إيمانهم: «هن! سوف يخلصنا من المجرمين! وأنت الذي كنت تقول إنه فرنسي ... سوف يريك ما هو النظام!»

وبعد دقائق، خرج ضابط من مدخل الشرف مسرعًا، فأصدر أمرًا لم يلبث بعض الفرسان بعده أن وقفوا في وضعية «تنكَّبْ سلاحك»، فكفَّ الجمهور عن النظر إلى الشُّرفة وتقدَّم بنَهَم نحو المرقاة.

وكان روستوبتشين في تلك اللحظة قد وصل بخطوات سريعة حازمة، فجال بعينيه فيما حوله وكأنه يبحث عن شخص ما.

سأل الكونت: «أين هو؟»

وفي اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات، شاهد شابًّا ذا عنق طويل رقيق ورأس حليق حتَّى وسطه، وقد بدأ شعره ينبت من جديد، آتيًا من ركن البيت يخفره اثنان من الجنود، كان مرتديًا «فروة» كانت فيما مضى أنيقة جدًّا ولا ريب، يغطِّيها جوخ أزرق على فراء ثعلب مهترئ من الاحتكاك. وكانت سراويله الخاصة بالسجناء المصنوعة من الكِتَّان ممزَّقة وقذِرة، وقد أُدْخِلت في ساقَيِ الحذاءَيْن الدقيقين القذرين المثنيين، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعيق ساقَيْه الهزيلتين تجعل مشيته أشبه بالمتردِّدة.

صاح روستوبتشين الذي أشاح بسرعة عن الشاب وأشار إلى آخر درجة من المرقاة: «آه! ليأتوا به إلى هنا!»

فصعد الشاب على الدرجة المعينة وهو يتقدَّم بتثاقل مصحوبًا بصليل السلاسل، وأزاح بإصبعه ياقة معطف الفراء التي كانت تزعجه، وأدار مرتين عنقه الطويل، ثم عقد وهو يزفر يديه الناحلتين اللتين لم تمارسا عملًا؛ على بطنه.

ران الصمت بضع ثوانٍ، بينما كان الشاب يقف على الدرجة، باستثناء بعض النحنحات والأنَّات وبعض فورات الغضب العابرة، وقليل من الردي في الصفوف الخلفية.

راح روستوبتشين يمر يده على وجهه ويقطِّب حاجبَيْه منتظرًا أن يتخذ الشاب مكانه على درجة المرقاة، وفجأة، قال بصوت معدني رنَّان: «أيها الأولاد! هذا الرجل هو فيريشتشاجين، السافل الذي سبَّب ضياع موسكو.»

اتخذ الشاب ذو معطف فراء الثعلب وضعية متواضعة، عاقدًا يديه أمامه، مُحنِيًا جذعه قليلًا، وكان وجهه الفتيُّ الناحل ذو الأمارات اليائسة، الذي شوَّهه رأسه الحليق، منحنيًا بعناد، ولقد رفع جبهته ببطء عندما فاه الكونت بكلماته الأولى ونظر إليه من أسفل وكأنه يهمُّ أن يقول له شيئًا، أو أن يقابل نظرته على الأقل، لكن روستوبتشين ما كان ينظر إليه، وقرب الأذن، على طول عنق الفتى النحيل، ازرقَّ عرق أشبه بالحبل الممدود، وغدا وجهه فجأةً بلون الأرجوان.

شخَصَت العيون كلها إليه، فراح يتأمل الجمهور. ولعل تعابير الوجوه التي طالعته شجَّعته، فطافت على شفتَيْه ابتسامة حزينة مذعورة. ومن جديد أطرق برأسه، لكنه نصب قامته على الدرجة.

قال روستوبتشين بقسوة دون أن يرفع صوته وهو يحطُّ بنظرة على فيريشتشاجين: «لقد خان إمبراطوره ووطنه وباع نفسه لبونابرت، إنه وحده بين الروسيين الذي لوَّث شرف الاسم الروسي، وبسببه ضاعت موسكو.»

وكأن صغار موقف الشاب سبَّب في نفسه انفجارًا؛ إذ رفع يده وقال في شبه زمجرة وهو يخاطب الجمهور: «احكموا عليه بأنفسكم! إنني أهبُهُ لكم!»

ظل الجمهور صامتًا تتكاثف صفوفه، وكانوا جميعًا متراصِّين بعضهم إلى جانب البعض الآخر، وقد امتنع عليهم التنفس والحركة، ينتظرون حدوث شيء مجهول، شيء غامض رهيب.

وكان الذين في الصفوف الأولى، الذين يرون ويسمعون ما يحدث، مذهولين وقد جحظت عيونهم، وفَغَرُوا أفواههم، يقاومون بكل قواهم موجة الذين من ورائهم.

هتف روستوبتشين: «اضربوه! لينفق الخائن الذي لوَّث شرف الاسم الروسي! مزِّقوه! آمركم بذلك.»

ولدى سماع الجمهور لهجة روستوبتشين الغاضبة وليس كلماته، ندا عنه ما يشبه الزمجرة، وارتعش، لكنه عاد إلى جموده.

نطق فيريشتشاجين بصوتٍ وَجِل ومسرحي معًا في اللحظة التي ران فيها الصمت: «كونت! أيها الكونت، إن الله وحده قاضينا!»

ورفع رأسه فعاد الدم من جديد ينفخ العِرق الضخم في العنق الهزيل، بينما راح الدم يتصاعد إلى وجهه ويبارحه بسرعة، لكنه لم يستطِع أن يتابع الكلام؛ إذ زمجر روستوبتشين فجأةً وقد حاكى امتقاع وجهه امتقاع فيريشتشاجين: «مزِّقوه! آمُر بذلك!»

ونضا ضابط الحرس حسامه من غِمده وصاح: «أشهِروا السيوف!»

واستفزَّت الجمهور موجة أقوى من السابقة بلغت الصفوف الأولى، فجعلتها تندفع مترنِّحة حتَّى درجات المرقاة، وبات العملاق قرب فيريشتشاجين وقد بان الروع على وجهه وإن ظلت يده مشرعة، وقال الضابط بصوت لا يكاد يُسمع: «أثخنوه جراحًا!»

فضرب أحد الجنود وقد صعر وجهه فجأةً بالغضب، فيريشتشاجين بعرض سيفه على رأسه، فصرخ التاعس وقد فوجئ بالضربة: «آه!»

وبان الذعر في عينيه دون أن يبدو عليه أنه فهم ما يريدونه منه، وطافت بالجمهور زمجرة ذعر وذهول، وهتف بعضهم بحزن: «أوه! يا ربي!»

ولكن، بعد صيحة الذهول تلك، أطلق فيريشتشاجين صيحة أخرى من الألم هذه المرة، فكانت تلك الصرخة سبب ضياعه. لقد تحطَّم شعور الإشفاق الذي توتَّر إلى أقصى الدرجات، فاستوقف الجمهور، تحطَّم فجأةً فكانت الجريمة التي شُرِع بها واجبة الإنهاء، وضاعت أنَّة الرجل المتألِّمة وسط زمجرة الجمهور الحاقدة المتوعِّدة، وكما تبتلع موجة سابعة وأخيرة بأخرى غارقة، فإن الموجة الأخيرة التي لا تقاوم من الغضبة الشعبية انتقلت من الصفوف الخلفية إلى الأمامية فأغرقتها وابتلعت كلَّ شيء. أراد الجندي الذي ضرب أول مرة أن يضرب مرةً أخرى، فاندفع فيريشتشاجين نحو الجمهور مادًّا يدَيْه إلى الأمام وهو يطلق صرخات مذعورة، فغرس الفتى العملاق الذي اصطدم به، أظافره في عنقه النحيل، وتدحرج معه تحت أقدام الذين راحوا يندفعون إلى الأمام.

ولقد راح البعض يضربون فيريشتشاجين ويمزِّقون ثيابه، في حين راح الآخرون ينهالون على العملاق ضربًا. ولقد أبلغت صيحاتُ الذين كانوا على وشك الاختناق من الزحام والذين هرعوا لنجدة العملاق، الغضبةَ الجماهيرية إلى ذروتها، فلم يخلِّص الجنود العامل المدمى وهو على حال أقرب إلى الموت إلا بشقِّ الأنفس. ولقد ظل الأشخاص الذين راحوا يضربون فيريشتشاجين ويخنقونه ويمزِّقونه، فترة طويلة رغم الغضب اللاهب الذي حفَّز الجمهور على إنهاء الجريمة التي شرع فيها، وقتًا طويلًا عاجزين عن الإجهاز عليه. كانوا متدافعين من كل الجهات يترنَّحون ويتقاذفون يمينًا ويسارًا، لا يتوصَّلون إلى توجيه الضربة القاضية إليه ولا إلى الإبقاء عليه.

– «ضربة بلطة موفَّقة، هن؟ ... هل نفق؟ ... الخائن، يهوذا! كلا، لا زال يتنفَّس! ... إن روحه مرنة! ... لم يَلْقَ إلا ما يستحق! ... ضربة بلطة! هل انتهى؟»

ولَمَّا كفَّت الضحية عن التخبُّط، وحلَّت الحشرجة الطويلة محل صرخاتها، كفَّ الجمهور أخيرًا عن التدافع حول الجثة الدامية. راح كل شخص الآن يقترب ليُلقي نظرة فيأخذه الرَّوع والخزي والتبكيت، وينسحب وقد غدا شديد الصَّغار.

كانوا يردِّدون: «أوه! يا ربي! الشعب، يا لَلوحش الضاري! كيف كان يستطيع أن يعيش بعد كل هذا؟ ثم يا له من شابٍّ يافع! لا ريب أنه كان مُدلَّلًا! آه! الشعب! يقولون إن الفاعل ليس هذا ... كيف ليس هو؟ ... أوه! يا ربي! والآخر الذي ضربوه، يقولون إنه هو الآخر نصف ميت! ... أوه! الشعب ... الذي لا يخاف الخطيئة ...» هذا ما كان يقوله الأشخاص أنفسهم الذين راحوا الآن يتأملون بحنان رءوف جثة فيريشتشاجين، الذي راح وجهه يزرقُّ وقد غطَّاه الدم والغبار، والذي كان عنقه النحيل نصف مفصول.

وأراد شرطي أن يبدي غيرة بعد أن وجد أنَّ بقاء تلك الجثَّة في فناء سعادته أمر غير لائق، فأمر الجنود بجرِّها إلى الشارع، فأمسك جنديَّان بساقَي فيريشتشاجين المحطَّمتين وجرَّاه خارجًا، فكان الرأس الحليق الملوَّث بالدم والغبار في نهاية العنق الدقيق الطويل، يقفز على الأرض ويصطدم بها، وابتعد عن الجثة.

عندما سقط فيريشتشاجين، وبينما راح الجمهور الثائر يتدافع ويصطخب حوله وفوقه، شحب وجه روستوبتشين فجأةً، وبدلًا من الذهاب إلى المرقاة الخلفية، حيث كانت عربته تنتظره، راح بخطوات آلية يمشي مطرق الرأس مسرعًا في الممشى المؤدي إلى حجرات الدور الأرضي. كان ممتقع الوجه، لا يستطيع ضبط فكِّه الأسفل عن الارتعاد كالمصاب بالحمَّى، وكان صوت مذعور مرتعد يردِّد خلفه: «من هنا يا صاحب السعادة. إلى أين ترغب في الذهاب؟ من هنا إذا أمرت.»

لم يكن الكونت روستوبتشين بحالة تمكِّنه من الإجابة، لكنه عاد بخضوع على أعقابه، فسار في الاتجاه الذي أشير به عليه، وكانت عربته تنتظر عند المرقاة الخلفية، وزمجرة الجمهور الصاخب تصل إلى هناك. صعد الكونت روستوبتشين إلى عربته وأصدر أمره بالذهاب إلى بيته الريفي في سوكولنيكي.

عندما بلغ مياسنيتسكايا، ولم يعُد يتناهى إلى مسامعه صراخ الجمهور، اجتاح الأسف الكونت روستوبتشين. تذكَّر فجأةً الاضطراب والخوف اللذين ترك مرءوسيه يرونهما عليه، فحدَّث نفسه بالفرنسية وهو ساخط على نفسه: «إن الرعاع مخيفون، إنهم كريهون، إنهم كالذئاب الذين لا يمكن تهدئتهم إلا باللحم!» وعادت إلى ذاكرته كلمات فيريشتشاجين: «كونت! إن الله وحده قاضينا!» فاجتازت ظهره قشعريرة باردة بغيضة، لكن هذا الشعور كان مؤقَّتًا؛ إذ لم يلبث الكونت روستوبتشين أن ابتسم لنفسه ابتسامة محتقرة. فكَّر: «كانت لديَّ واجبات أخرى. كان يجب أن أهدِّئ الجمهور. إن ضحايا كثيرة أخرى قضت وتقضي للصالح العام.» وحينئذٍ راح يفكِّر في الالتزامات المتطلَّبة

منه حيال أسرته وحيال المدينة (المعهود أمرها إليه) وحيال نفسه، ليس حيال شخص فيدور فاسيلييفيتش روستوبتشين (وكان يرى أن هذا يضحِّي بنفسه من أجل الصالح العام)، ولكن حيال الحاكم، مسلِّم السلطة وممثل الإمبراطور. «لو أنني لم أكن إلا فيدور فاسيلييفيتش، لارتسم خط سلوكي على نحوٍ آخر، لكنني كنت مضطرًّا على أن أصون حياة الحاكم وكرامته.»

راح يتأرجح بليونة فوق نوابض عربته المرِنة بعيدًا عن الزمجرات الجماهيرية الكريهة، ويتذوَّق طعم الراحة الجسدية، ولقد أتت الراحة الجسدية كالعادة بالهدوء الفكري. لم تكن الفكرة التي هدَّأته جديدة، فمنذ أن وُجِد العالم وراح الرجال يقتتلون، لم تقع جريمة ما دون أن يجد فاعلُها لنفسه مبرِّرًا في قوله لنفسه إنها ارتُكبت للصالح العام أو لسعادة الآخرين المزعومة.

إن سعادة الغير هذه تظل أبدًا مجهولة من الرجل الذي لا يعميه هواه، لكن الرجل الذي يندفع حتَّى يبلغ الجريمة، يعرف دائمًا وبكل تأكيد، ممَّ تتألَّف، وكان روستوبتشين الآن يعرف هذه السعادة.

لم يكن ضميره لا يأخذ عليه ذلك الفعل الذي أتى به فحسب، بل إنه كان كذلك يجد المبررات ليكون راضيًا عما فعل؛ لأنه استخدم هذه المناسبة لمعاقبة مجرم وتهدئة الجمهور بآنٍ واحد.

فكَّر روستوبتشين: «لقد حُوكِم فيريشتشاجين وحُكِم عليه بالموت — في حين أنَّ مجلس الشيوخ لم يحكم عليه إلا بالأشغال الشاقَّة — لقد كان ماكرًا وخائنًا، فما كنت أستطيع أن أتركه دون عقاب، وبذلك اصطدتُ عصفورين بحجرٍ واحد. لقد أعطيتُ ضحيةً للشعب لأهدِّئه وعاقبت سافلًا.»

ولَمَّا بلغ منزله الريفي، أصدر الكونت — الذي هدَأت أعصابه نهائيًّا — أوامره بالإقامة هناك.

وبعد نصف ساعة، كان يجتاز سهل سوكولنيكي جريًا بقوة الجياد البطرة، دون أن يعود إلى التفكير فيما جرى منذ حين، مقتصرًا بتفكيره على المستقبل، قاصدًا جسر إياووزا الآن؛ حيث قيل له إنه سيجد كوتوزوف.

كان الكونت روستوبتشين يعدُّ خياله في التعنيف القاسي الغاضب الذي سيوجِّهه إلى كوتوزوف جزاء مكره. سوف يجعل هذا الثعلب العجوز الملَّاق يشعر بأن مسئولية كل المصائب الناجمة عن ترك موسكو، المصائب التي سينجم عنها ضياع روسيا

(حسب تنبؤات الكونت)، تقع على رأسه العجوز ضعيف الذكاء بكليَّتها. وراح روستوبتشين وهو يفكِّر فيما سيقوله لا يستقر في عربته من الغضب، ويُلقي حوله نظرات حانقة.

كان سهل سوكولنيكي قاحلًا، وعند أقصاه قام المستشفى ومأوى العجزة، فكانت تُرى جماعات بثياب بيضاء، وبعض الأشخاص المنعزلين الذين يبدون كأنهم يهيمون على وجوههم وهم يلوِّحون بأذرعهم ويزمجرون.

كان أحد أولئك الأشخاص قادمًا لاستقبال العربة، فراح الكونت روستوبتشين نفسه وسائق عربته وحرَّاسه من الفرسان، راحوا جميعهم ينظرون بتطلُّع ممزوج بالذعر إلى أولئك المجانين الذين حُرِّروا منذ حين، وبصورة خاصة إلى ذلك الذي يقترب منهم.

راح المجنون يترنَّح على ساقَيْه الطويلتين الهزيلتين في ثوب منزلي فضفاض، وعيناه شاخصتان إلى روستوبتشين، وأخذ يصرخ له بقولٍ بصوتٍ صدئ وهو يشير إليه بالوقوف. وكانت لحيته غير الكاملة تشكِّل خصلات غير منتظمة حول وجهه النحيل الأصفر، ووجهه الكالح المكتئب خطير وصارم، وحدقتاه بلون الزجاج الأسود تتراقصان في أعماق عينيه الكئيبتين زعفرانيتَي اللون. أخذ يصرخ بصوت مدوٍّ: «قف! قف! آمرك أن تقف!»

ثم عاد يهدِّد لاهث الأنفاس ويشيح بيديه بحركات واسعة.

وعندما أضحى بحذاء العربة راح يجري بجانبها. صاح وصوته يعلو أكثر فأكثر: «ثلاث مرات، لقد قتلوني ثلاث مرات، ونُشِرت من بين الموتى! ... لقد مزَّقوني وصلبوني ... وسوف أُبعث ... سأُنشَر ... لقد مزَّقوني إربًا. سوف ينهار ملكوت الله، سوف أَهدمه ثلاث مرات ثم سأقيمه ثلاث مرات!»

وفجأةً امتقع وجه الكونت روستوبتشين كما حدث في اللحظة التي ألقت الجماهير بنفسها على فيريشتشاجين، فأشاح بوجهه وصرخ بالحوذي بصوت مرتعد: «بسرعة ... بسرعة أكثر!»

فانطلقت العربة بأقصى سرعة، لكن الكونت روستوبتشين ظل فترة طويلة يسمع صيحة المجنون اليائسة الآخذة بالخفوت تدريجيًّا في البُعْد، في حين راحت تظهر أمام عينَيْه تقاطيع وجه الخائن في معطفه الفراء، ذلك الوجه المذهول المأخوذ الدامي.

كانت هذه الذكرى لا تزال قريبة، لكن روستوبتشين شعر بها الآن مغروسة في أعماق نفسه. كان يشعر أن أثرها الدامي لن يُمحى، وأنه على العكس كلما تقدَّمت به السنوات كلما عاشت هذه الذكرى في قلبه قاسية معذِّبة. كان يسمع ويظن أنه يسمع

صدى كلماته الشخصية: «فرِّقوه بسيوفكم. أنتم مسئولون عنه بحيواتكم.» وفكَّر: «لماذا قلت هذه الكلمات؟ لقد نطقت بكل هذا دون أن أفكِّر فيه تقريبًا. كنت أستطيع ألَّا أقوله وما كان شيء ليحدث.» عاد يرى الوجه المروَّع الذي غدا فجأةً غاضبًا، وجه الجندي الذي كان أول من ضرب، والنظرة الصامتة المفعمة باللوم التي ألقاها عليه ذلك الغلام في ردائه المصنوع من فراء الثعلب، فراح يكرِّر لنفسه: «لكني لم أفعل هذا من أجل نفسي. لقد كنت مُرغَمًا عليه. الرعاع، الخائن ... الصالح العام.»

وكان الجيش يتزاحم على جسر إياووزا والحرارة شديدة، وكان كوتوزوف جالسًا حزينًا على مقعد قرب الجسر مقطَّب الحاجبَيْن يَنكُت الرمال بطرف سوطه، عندما اقتربت منه عربة في جلَبة صاخبة، وتقدَّم إليه رجل في بزَّة جنرال يضع على رأسه قبَّعة ذات ريش، له نظرة تائهة تجمع بين الانفعال والخوف، وراح يحدِّثه باللغة الفرنسية. ذلك كان الكونت روستوبتشين. قال لكوتوزوف إنه جاء يلحق به؛ لأن موسكو والعاصمة لم يعُد لهما وجود، ولأنه لم يبقَ إلا الجيش. وأكَّد: «وكان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك لو أن سموَّكم لم تؤكِّدوا لي أن موسكو لن تُسلَّم على الأقل دون قتال. إن كل هذا ما كان ليحدث!»

تأمَّل كوتوزوف روستوبتشين وكأنه لم يفقه معنى كلماته، وبدا كمن يحاول بكل قواه ليقرأ شيئًا ما خاصًّا كان ينمُّ عنه وجه الرجل الذي يحدِّثه في تلك اللحظة. وانتهى الأمر بروستوبتشين المضطرب إلى الصمت، هزَّ كوتوزوف رأسه ببطء وقال بلهجة هادئة دون أن يحوِّل عنه نظرته الفاحصة: «لكنني لا أُزمع تسليم موسكو دون قتال.»

فهل كان كوتوزوف يفكِّر في شيء آخر وهو ينطق بتلك الكلمات؟ أم تراه نطق بها لغايةٍ في نفسه وهو عارف أنها خالية من المعنى؟ مهما كان الأمر، فإن روستوبتشين ابتعد دون أن يجيب، ثم — وهو أمر عجيب — راح حاكم موسكو العام روستوبتشين المتجبِّر وفي يده سوط، يقترب من الجسر ليفرِّق العربات التي ازدحم بها بصيحات عالية.

الفصل السادس والعشرون

احتلال موسكو

حوالي الساعة الرابعة، بدأت قوات مورا تدخل موسكو وعلى رأسها كتيبة من الفرسان الورتمبرجيين، جاء بعدهم مباشرةً ملك نابولي شخصيًّا تحيط به حاشية عديدة.

ولمَّا وصلوا عند وسط «الأربات» قرب سان نيكولا ريفيليه، أمر مورا بالتوقف بانتظار تقرير الطليعة عن حالة قلعة الكريملن.

اجتمع حول مورانير قليل من السكان الذين لم يغادروا موسكو، راحوا يتأمَّلون بذهول مشوب بالفزع، هذا الرئيس الغريب بشعره الطويل وريش قلنسوته وزينته، ويقولون فيما بينهم: «قل يا هذا، هل هذا هو قيصرهم، هم؟ حسنًا …»

اقترب مترجم من الجماعة فغمغم الناس فيما بينهم: «ارفع قلنسوتك … قلنسوتك … القلانس …»

خاطب المترجم بوَّابًا كهلًا، فسأله عما إذا كان الطريق إلى الكريملن ما زال طويلًا، فأصغى البوَّاب، لكنه تاه في اللكنة البولونية فلم يتعرَّف على اللغة الروسية؛ لذلك لم يفهم شيئًا مما كان المترجم يسأله، فذهب يختبئ وراء الآخرين.

اقترب مورا من المترجم وأمره أن يسأل أين هو الجيش الروسي. ولقد فهم أحد الحاضرين ماذا يسألون، فأجابت أصوات عديدة فجأةً معًا، وعاد ضابط فرنسي من الطليعة فأعلن لمورا أن باب الحصن محدود بسور، وأنه لا بدَّ من وجود كمين وراءه، فقال مورا: «حسنًا.» والتفت إلى أحد ضباط حاشيته وأمره بأن تُستعمل أربعة مدافع خفيفة في ضرب الأبواب.

خرجت «بطارية» من القطعات التي كانت تتبع مورا، ومضت على طول «الآربات»، فلما بلغت أسفل فوزدفيجنكا، وقفت وتمركزت هناك، وراح بعض الضباط الفرنسيين يعدون المدافع في المواقع المناسبة، ويفحصون الكريملن بمناظيرهم المقرَّبة.

كانت الأجراس في الكريملن تُقرع مُؤذِنةً بصلاة الغروب، فاضطرب الفرنسيون لقرعها، وظنوا أنها نداء لحمل السلاح، وجرى بعض جنود المشاة نحو باب كوتافييف الذي كانت تحصِّنه من الداخل أعمدة من الخشب وألواح من البلوط السميك. ودوَّى طلقان ناريَّان حينما كان الضابط يقترب جريًا مع كتيبته، فأصدر الجنرال الواقف قرب المدافع أمرًا إلى ذلك الضابط، فوقف وتراجع مع جنوده إلى الوراء مندفعًا.

وانطلقت ثلاث طلقات أخرى من الباب.

أصيب جندي فرنسي في ساقه وارتفعت صيحات غريبة من وراء المتراس. وفجأةً، وكأن المسألة جاءت نتيجة لأمر صادر، فقد وجَّه الجنرال والضابط والجنود تعبير البهجة المتوتِّرة واكتست بطابع العناد والتركُّز الذي يلوح على وجوه أولئك الذين يستعدُّون للنضال والألم. ومن الماريشال وحتَّى آخر جندي فهموا جميعًا أن هذه الساحة ليست ساحة فوزدفيجنكا ولا موخوفاييا ولا أبواب كوتافييف أو الترينيتيه، بل إنها ساحة حرب جديدة، ساحة تُنذر بوقوع معركة دامية كما تدلُّ الظواهر، فاستعدوا جميعهم لها. توقَّفت الصيحات وراء المتراس وسُدِّدت المدافع، وراح المدفعيُّون ينفخون على الفتيل، وأمر الضابط: «نار!» وصفَّرت قذيفتان انطلقتا الواحدة تلو الأخرى، وتساقطت قِطَع الحديد كالبرد على الباب المسدود والأعمدة والألواح، في حين راحت سحابتاهما من الدخان تتصاعدان فوق الساحة.

وبعد دقائق من هدوء الهدير الذي خلَّفته الطلقتان على طول جدران الكريملن، ارتفعت ضجَّة غريبة فوق رءوس الفرنسيين؛ ذلك أن سِربًا هائلًا من غربان الزرع نفر من الساحة المسوَّرة وهي تنعب، فارتفع صوت ألوف الأجنحة وهي تصطفق وتدور حتى غطَّت السماء تمامًا، وبنفس الوقت ارتفع صوت بشري منفرد من وراء الباب، وبدا خلال الدخان شبح رجل عاري الرأس يرتدي رداءً فضفاضًا وبيده بندقية كان يسدِّدها إلى الفرنسيين. ردَّد ضابط المدفعية: «نار!» فانطلقت قذيفتان من المدفعين مع طلقة البندقية معًا، وعاد الدخان يحجب الباب من جديد.

لم يعُد شيء يتحرك وراء المتراس، فاقترب الضباط الفرنسيون يتبعهم مشاتهم. كان هناك ثلاثة جرحى وأربعة قتلى، وفرَّ رجلان يرتديان رداءَيْن فضفاضَيْن وهما يستتران بالجدران نحو زنامنكا.

قال الضابط وهو يشير إلى الألواح والجثث: «ارفعوا هذا.»

فدفع الفرنسيون الجثث بعد أن أجهزوا على الجرحى من فوق الحاجز.

مَن كان أولئك الأشخاص؟ هذا ما لم يُعرَف أبدًا. إن كل ما قيل عنهم هو: «ارفعوا هذا.» ولقد ألقوا بهم ثم جمعوا رفاتهم بسبب العفن، لكن «تيير» وحده كرَّس لهم هذه الأسطر الفخمة: «كان أولئك الحقيرون قد داهموا القلعة المقدَّسة واستولوا على بنادق من مخزن السلاح، وراحوا يطلقون النار (أولئك الحقيرون!) على الفرنسيين، فضربوا بعضهم بالسيوف وطهَّروا الكريملن من وجودهم.»

أخبروا مورا أن الممر أصبح حرًّا، فاجتاز الفرنسيون الباب وأقاموا معسكرهم في ساحة مجلس الشيوخ، وألقى الجنود مقاعدَ من نوافذ ذلك البناء ليقدِّموها طُعمة للنيران.

اجتازت ألوية أخرى الكريملن، ومضت تُعسكِر في موروسيئيكا ولوبيانكا وبوكروفكا، وأقام بعضها أيضًا في فوزدفيجنكا وزنامنكا ونيكولسكاييا وتفيرسكاييا. وفي كل مكان، إذ لم يجدوا أحدًا في المساكن، أقام الفرنسيون فيها ليس على حسب ما يجري في بلد يقدِّم لهم السكن، بل كما يقيمون في معسكر عام في صميم المدينة.

وعلى الرغم من أن عددهم تضاءل إلى النصف، وأنهم باتوا في ثياب خلِقة يتضوَّرون من الجوع ويضنيهم التعب، فإن الفرنسيين — رغم ذلك — دخلوا موسكو بنظام. كانوا لا يزالون يكوِّنون جيشًا مقاتلًا يُحسب له حساب رغم حالة الإنهاك الشديد والضعف التي كانوا عليها. مع ذلك، فإن هذا الجيش لم يبقَ على هذا النحو إلا حتى الدقيقة التي تفرَّق فيها جنوده على المنازل؛ إذ ما إن دخل الرجال ونعموا في المنازل الغنية الخالية حتى اختفى الجيش إلى الأبد، ولم يبقَ إلا أولئك السكان بين المدنيين والعسكريين الذين يُطلَق عليهم اسم: سلَّابون. وعندما خرج هؤلاء الرجال أنفسهم من موسكو بعد خمسة أسابيع ما عادوا يشكِّلون جيشًا. كانوا جماعة من النهَّابين حمل كلٌّ منهم في عربةٍ أو على ظهره طائفة من الأشياء اعتبر أنها ثمينة لا غِنى له عنها. لم يعُد هدف هؤلاء الرجال — كما كان من قبل — أن يقاتلوا، بل أن يحتفظوا بغنائمهم، وقد كان حال الفرنسيين عند خروجهم من موسكو كحال القرد الذي مدَّ يده في قِدر ذات عنق وفوَّهة ضيِّقَين فأطبقت أصابعه على عدد من ثمار الجوز، لكنه لم يشأ أن يفتح أصابعه كيلا يُفلت شيئًا مما أمسك به. كانوا يمشون إلى نهايتهم المحتومة؛ لأنهم جرُّوا معهم حصالة سلبِهم، وما كانوا يقدرون على التخلِّي عنها كما فعل القرد بثمار الجوز. لم يعد بعد عشر دقائق من دخول فيلق من الجند إلى حيٍّ من أحياء المدينة ضباطٌ ولا جنود. كان يُرى من نوافذ المنازل في معاطف ورانات، يروحون ويجيئون عبر الغرف، وآخرون في مثل حال أولئك يستولون على المؤن المودَعة في الأقبية والعنابر، وغيرهم في الأفنية يغتصبون أبواب الأروقة

والإسطبلات، أو في المطابخ يوقدون النار ويعجنون الدقيق وأكمامهم مشمَّرة، أو يطهون طعامهم وهم يلتصقون بالنساء أو يداعبون الأطفال. مع ذلك، فإن عددهم لم ينقص في الحوانيت والمنازل، لكنهم ما عادوا يشكِّلون جيشًا.

خلال ذلك اليوم توالت الأوامر من أركان حرب الجيش الفرنسي، أمرًا إثر أمر، ترمي جميعها إلى منع الجنود من السَّلب والانتشار في المدينة واستعمال العنف ضدَّ السكان، وفُرضت الأوامر نفسها مساءً عند النداء العام. لكن رغم كل ذلك انتشر الرجال الذين كانوا حتى الأمس يشكِّلون الجيش في كل مكان في تلك المدينة القاحلة، يضفون على أنفسهم وسائل الترف ويغدقون على أنفسهم المؤن والثروات. وكما هو حال القطيع الجائع الذي يبقى مجتمعًا في مرعى أسلخ وينتشر فور وقوعه على مرج نضير، انتشر الجيش في المدينة الضخمة دون أن يقدروا على إيقافه.

كانت موسكو خالية، والجنود يتخلَّلون في كل مكان أشبه بالماء فوق الرمل، ويحومون جماعات حول الكريملن حيث استطاعوا الدخول بادئ الأمر، وكان الفرسان إذا ما دخلوا بيوتًا بورجوازية غنية هجرها أهلها وفيها كل مفروشاتها وأثاثها، يجدون فيها إسطبلات لجيادهم أكثر اتساعًا مما يتطلَّبون، لكنهم مع ذلك ما كانوا يتورَّعون عن احتلال منزل مجاور بدا لهم أكثر امتلاءً، وكان كثيرون يحتلون عدة مساكن معًا ويؤشِّرون عليها بكتابة أسمائهم بالحكك، بل ويشتبكون بالأيدي مع آخرين من وحدات أخرى. وآخرون لا يكاد يستقرُّ بهم المقام حتى يندفعوا خلال المدينة لزيارتها، فما إن يجدوا أنَّ كل شيء مهجور حتى يندفعوا إلى الأماكن التي يستطيعون الفوز منها بأثمن الأسلاب. وكان الضباط يحاولون إيقاف الجنود عند حدِّهم، لكنهم لا يلبثون حتى ينجرفوا هم أنفسهم في غمار حركة السلب العامة. ولم ينجُ سوق العربات نفسه؛ إذ راح الجنرالات يجتمعون في الأروقة المملوءة بالعربات الجاهزة؛ لينتقوا لأنفسهم عربة خفيفة أو مغلقة. وكان المتخلِّفون من السكان يَدْعُون الضباط للسكنى عندهم آملين أن ينجو من السلب العام، والثروات من الغزارة لدرجة لا يُدرَك مداها، حتى إن أمكنة كثيرة حول المواقع التي كان الفرنسيون يحتلونها، ظلَّت سالمةً لم تمسَّها الأيدي، فكان هؤلاء يطمعون في العثور فيها على ثروات خرافية تفوق ما عُثر عليه حتى الآن، وموسكو تستوعبهم أكثر فأكثر. وكما تختفي المياه التي تُصب على أرض جافَّة وتخفي معها جفاف الأرض، كان ذلك الجيش الجائع؛ ما إن يوغل في أعماق تلك المدينة الموسرة ولكن الخالية، حتى يختفي ويُخفي معه يسارة المدينة، فلم يبقَ إلا الوحْل والحريق والنهب.

يعزو الفرنسيون حريق موسكو إلى وطنية روستوبتشين الضارية، والروسيون يعزونها إلى وحشية الفرنسيين. والواقع أنه لا يمكن ولا يجب تسجيل هذا الحريق على حساب شخص واحد أو بعض الأشخاص. لقد احترقت موسكو لأنها وُجدت في مثل الشروط التي يجب على كل مدينة مبنية من الخشب أن تحترق معها، بصرف النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخَّة رديئة أو عدم وجودها، كان على موسكو أن تحترق؛ لأن سكانها رحلوا بمثل البديهة التي تحترق بها رزمة من النُّشارة راحت تتساقط عليها طيلة أيام كاملة شراراتٌ متوالية. فمدينة من الخشب يقع فيها كل يوم حريق، رغم احتياطات السكان ورجال الشرطة، لا يمكن أن تنجو من الحريق بعد أن يهجرها سكانها ويقطن فيها جيش، ويدخِّن جنوده الغليون ويوقدون النيران على ساحة مجلس الشيوخ ويغذُّونها بكراسي المجلس، ويعدُّون طعامهم مرتين كل يوم. ففي وقت السِّلم يكفي أن يتخذ الجنود معسكرًا لهم في قرى معيَّنة حتى يزداد عدد الحرائق فيها. فكم يجب — والحالة هذه — أن تتضاعف إمكانيات الحرائق في مدينة من الخشب خالية من السكان يعسكر فيها جيش غريب؟ فوطنية روستوبتشين الضارية ووحشية الفرنسيين لا علاقة لهما بالأمر مطلقًا، لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات، وبسبب لا مبالاة الجنود، سادة منازل لا تخصهم. وإذا كان هناك حقًّا مَن أشعل النار (وهو أمر مشكوك به؛ لأنه لم يكن لأحد دافع يُلجِئه إلى إضرام النار؛ لأن الخطر كان متماثلًا في جسامته بالنسبة إلى الجميع على الأقل)، فإنه لا يجب اعتبار هؤلاء الأشخاص المسبِّبين؛ لأن النتيجة بدونهم ما كانت لتختلف عما وقع في شيء.

ومهما كان اتهام ضراوة روستوبتشين مُراقًا حينذاك بالنسبة إلى الفرنسيين، وكذلك عداء بونابرت بالنسبة إلى الروسيين، ووضع مشعل بطولي في يد الغوغاء فيما بعد، فإنه يستحيل ألَّا يُرى أن مثل هذه الأسباب لا يمكن أن تُغْفَل؛ لأن موسكو كان يجب أن تحترق كما يجب أن تحترق أية قرية أو أي مصنع أو بيت يكون صاحبه غائبًا، فيقطنه غرباء ويطهون طعامهم فيه. لقد أُحرقت موسكو من قِبل سكانها، وهذا صحيح، ولكن من قِبل الذين خرجوا منها لا الذين لبثوا فيها. فإذا لم تبقَ موسكو سليمة بعد احتلالها من قِبل العدو مثل برلين وفيينا ومدن أخرى، فما ذلك إلا لأن سكانها هجروها بدلًا من أن يقدِّموا المفاتيح للفرنسيين على أطباق إلى جانب الخبز والملح.

الفصل السابع والعشرون

نفسية بيير

امتدَّت موجة الفرنسيين على شكل نجمة من الوسط نحو أحياء موسكو الخارجية التي استمرَّت تستوعبهم طيلة اليوم الثاني من أيلول حتى بلغت حوالي المساء الحي الذي يقطن فيه بيير.

وكان بيير بعد يومين من الانزواء في شروط خارقة، في حالة أقرب إلى الجنون، تشغل كيانَه فكرةٌ وحيدة ملحاحة، ما كان يعرف من أين ولا كيف غزَت رأسَه، وكانت تلك الفكرة قد استحوذت عليه، لدرجة لم يعُد معها يذكر شيئًا من الماضي، ولا يدرك شيئًا من الحاضر، فكان كل ما يراه وما يسمعه يدور أمامه وكأنه في حلم.

لقد غادر مسكنه لسبب وحيد؛ وهو الإفلات من التعقيدات التي وجد نفسه فيها، والتي بات الآن وهو على تلك الحالة الفكرية يشعر أنه عاجزٌ عن حلِّها. لقد ذهب إلى مسكن جوزيف ألكسيئييفيتش بحجة تصفُّح أوراق المتوفَّ وكتبه، بينما كانت الحقيقة فرارًا من حياة حافلة بالهزَّات؛ لأن ذكرى هذا الرجل كانت مرتبطة في نفسه بعالم حافل بالأفكار الخالدة الجليلة المسالِمة المناقِضة كلَّ التناقض لذلك الاندفاع الجنوني الذي شعر بأنه يُجرف فيه. كان يبحث عن مأوًى بعيدًا عن كل صخب، فوجد ذلك المأوى بالفعل في مكتب جوزيف ألكسيئييفيتش، وعندما جلس واتَّكأ على مكتب المتوفَّ المغبر في صمت الموت الذي يخيِّم على تلك الحجرة، أفاقت في ذاكرته وذكريات أيامه الأخيرة الواحدة تلو الأخرى بسكون مشبعة بالمعاني، وبصورة خاصة ذكريات معركة بورودينو؛ حيث شعر بتفاهته وبطلان حياته إزاء حياة أولئك الأشخاص الغائصين في الحقيقة والبساطة، الذين يسمَّون «هم» في مخيِّلته، وعندما جاء جيراسيم ينتشله من أحلامه راودته فكرة الاشتراك في الدفاع عن موسكو، وهي فكرة كان يعرف أن السكان يصبُّون إليها، ولقد طلب إلى جيراسيم

والمعطف المسدس لهذه الغاية، وأنهى إليه رغبته في التكتُّم حول اسمه، وفي البقاء في منزل جوزيف ألكسيئييفيتش. عاد من جديد خلال يوم عطالته الأول — ولقد حاول بيير عبثًا مرات عديدة أن يركِّز انتباهه على المخطوطات الماسونية — يتذكَّر بغموض المعنى السحري لاسمه بالارتباط مع اسم بونابرت، لكن تلك الفكرة — فكرة أنه هو «أروسي بيزوخوف» منذور سلفًا ليضع حدًّا لحكم الوحش — لم تكن حتى تلك اللحظة بالنسبة إليه أكثر من حلم من أحلامه الغامضة يخترق تفكيره عرَضًا دون أن يخلف فيه أثرًا.

وعندما اشترى معطفه بغية المساهمة مع السكان في الدفاع عن موسكو فحسب، قابل بيير آل روستوف وناتاشا التي قالت له: «هل تبقى؟ آه! كم هو حسن هذا!» وعندئذٍ واتته فكرة البقاء كوميض البرق لينجز مهمته المُعدَّة له منذ الأزل.

وفي اليوم التالي، مضى إلى مدخل الجبال الثلاثة تسيطر عليه فكرة وحيدة؛ ألَّا يوفِّر نفسه، وأن يكون جديرًا بـ: «هم»، لكنه عندما عاد إلى البيت مقتنعًا بأن موسكو لن يُدافَع عنها، شعر فجأةً بأن كل ما بدا له حتى تلك اللحظة ممكنًا أصبح بما لا يقبل الشك ضروريًّا ومحتومًا، وأن واجبه يقضي بإخفاء اسمه وبالبقاء في موسكو والبحث عن نابليون وقتله، ثم أن يموت هو نفسه أو أن يضع حدًّا لآلام أوروبا، تلك الآلام التي لم يكن لها في مخيِّلة بيير غير فاعل واحد وهو نابليون الأوحد.

وكان بيير يعرف كل تفاصيل المحاولة التي وقعت في فيينا عام ١٨٠٩م ضد حياة بونابرت من قِبَل طالب ألماني، ويعرف أنَّ ذلك الطالب أُعدِم رميًا بالرصاص، فكان الخطر الذي يواجهه للقيام بمهمته يزيد في تحمُّسه زيادة كبيرة.

وكانت عاطفتان متساويتان في القوة تدفعان بيير إلى ذلك العزم؛ الأولى حاجته إلى التضحية بنفسه والتألم، تلك الحاجة التي أيقظتها المصيبة العامة المشتركة؛ وهي العاطفة التي دفعته يوم الخامس والعشرين إلى موجائيسك، وألقت به في صميم المعركة، وجعلته الآن ينفر من بيته الخاص ومن ترفه ورفاهيته لينام بكامل ثيابه على أريكة دون نوابض، وليأكل الأصناف نفسها التي يأكلها جيراسيم. والعاطفة الثانية هي ذلك الإحساس غير المنطقي الخاص بالروسيين، الإحساس بالاشمئزاز من كل ما هو اصطلاحي اصطناعي بشري، من كل ما يعتبره السواد الأعظم من الناس الخير الأعم. لقد شعر بيير في قصر سلوبودسكي بالنشوة الغريبة عندما أحس فجأةً للمرة الأولى بأن الثراء والسلطان والحياة

وكل ما يجهد الناس بشدة لكسبه والمحافظة عليه، لا تصبح ذات شأن إلا بالبهجة التي تغمر قلب الإنسان عند استطاعته هجرها.

هذا هو الشعور الذي يحسُّ به المتطوِّع الفدائي عندما يثمُل بآخر «كوبيك»[١] في جيبه، والرجل الثمل الذي يحطِّم المرايا والزجاج دون أي سبب وهو عارف أن تصرفه ذاك سيكلِّفه كلَّ ما في جيبه، إنه هذا الشعور الذي يدفع الإنسان نحو تصرفاته مخالفة للصواب (بصورة عامة)، وكأنه يريد اختبار قوته وسلطته، وأن يبرهن بهذه الوسيلة على وجود محكمة عليا تتحكَّم بالحياة فوق سنن البشر.

منذ ذلك اليوم الذي شعر فيه بيير بهذا للمرة الأولى في سلوبودسكي لم يكفَّ مرة عن احتمال أثره حتى بات في تلك اللحظة راضيًا عنه كل الرضى. ومن جهة أخرى كان بيير في تلك اللحظة معتمدًا في قراره على استحمال التراجع بعد ما اجتازه حتى الآن في هذا السبيل، فكان فراره من بيته ومعطفه ومسدسه وتصريحه لآل روستوف بأنه باقٍ في موسكو، كل هذا سيصبح عديم المعنى، بل ومبعث سخرية واحتقار — وكان بيير يشعر بذلك شعورًا قويًّا — إذا تصرَّف بعدئذٍ تصرُّف كل الناس وغادر موسكو.

وكانت حالة بيير الجسدية تتلاءم مع حالته الفكرية كالعادة دائمًا، فالطعام المغلَّظ الذي تناوله خلال أيامه الأخيرة والذي لم يألفْه من قبل، والعَرق الذي شربه وحرمانه من الخمر والسيجار، واستحالة إبدال ثيابه الداخلية، وليلتان دون نوم تقريبًا أمضاهما على أريكة قصيرة بالنسبة إلى جسمه دون متطلبات السرير المريح، كل هذه الأمور جعلت بيير في حالة انفعال عصبي قريبة من الجنون.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر، وكان الفرنسيون قد فرغوا من دخولهم إلى موسكو، وبيير يعرف ذلك، لكنه بدلًا من أن ينشط إلى العمل، لم يكن يفكِّر إلا في مشروعه الذي أخذ يستعيد في ذاكرته أدقَّ تفاصيله. ما كان مكوِّنًا لنفسه أية فكرة واضحة عن الطريقة التي سيتصرَّف بها لينفِّذ فكرته، ولا أيَّة فكرة عن موت نابليون، ولكن كان موته هو وجرأته البطولية هما ما يتمثَّله بجلاء خارق والتذاذ سويداوي.

راح يفكر: «نعم، واحد في سبيل الكل، يجب أن أنجح أو أموت! نعم، سوف أقترب ... ثم فجأة ... ترى المسدس أم الخنجر؟ ... سيَّان على كل حال. لست أنا الذي أعاقبك، بل هي يد القدرة ... — كان بيير يفكِّر في الكلمات التي سيقولها وهو يضرب نابليون —

---

[١] كوبيك: عملة روسية، كل مائة منها تساوي روبلًا.

حسنًا، ماذا؟ خذوني، احكموا عليَّ.» بذلك أخذ يفكِّر معقِّبًا على آرائه وعلى وجهه مزيج من الحزْم والحزن وهو مطرق الرأس.

وفي اللحظة التي كان بيير فيها واقفًا في مكتب عمل جوزيف ألكسيئييفيتش يناقش نفسه بتلك الصورة، فتح الباب وبدا على العتبة ماكار ألكسيئييفيتش وقد تخلَّص تمامًا من مظهره المذعور الذي بدا عليه من قبل.

كان ثوبه المنزلي مفتوحًا، ووجهه مصفرًّا متضرِّجًا وهو بادي الثمل، فلمَّا رأى بيير ارتبك لحظة، ولكن لم يلبث أن تشجَّع من فوره لمَّا رأى بيير نفسه مرتبكًا، فتقدَّم إلى وسط الحجرة وهو يترنَّح على ساقَيْه النحيلتين.

قال بصوت أبحَّ ولكن ثابت: «لقد استبدَّ بهم الخوف. إنني أقول: لن أستسلم، أقول ذلك أنا ... أليس كذلك يا سيدي؟»

واتخذ سمة المفكر، لكنه فجأةً عندما رأى المسدس على المكتب، أطبق عليه بحركة سريعة وفرَّ إلى الممشى.

أوقفه جيراسيم والبوَّاب اللذان لحقا به عند المدخل واجتهدا في نزع المسدس منه، وهرع بيير إلى الممشى وراح ينظر إلى الكهل نصف المجنون في عطف مشوب بالاشمئزاز. وكان ماكار ألكسيئييفيتش يعجو وجهه بتأثير المجهود، ويشدد قبضته على المسدس ويصرخ بصوته الأبحِّ وقد خُيِّل إليه حقًّا أنه في لحظة جليلة. زمجر: «إلى السلاح! إلى الهجوم! كلا، لن تناله!»

بينما راح جيراسيم يردِّد وهو يحاول أن يدفعه بمرفقه ليجعله يجتاز الباب: «كفى، أرجوك كفى. أرجو أن تترك هذا! هيا يا سيدي ...»

وعاد ماكار ألكسيئييفيتش يزمجر: «مَن تكون؟ بونابرت! ...»

– «هذا ليس بمستحسن يا سيدي. ادخل إلى غرفتك أرجوك. اذهب واسترِح. تفضَّل بإعطائي هذا المسدس.»

قال ماكار وهو يشهر المسدس ويزمجر بصوت أشد ارتفاعًا: «إلى الوراء أيها العبد الحقير! لا تلمسني! هه، أرأيت؟ إلى الهجوم!»

فهمس جيراسيم في أُذُن البوَّاب: «احمله.»

ولقد جُرَّ ماكار ألكسيئييفيتش محمولًا نحو الباب.

لم يلبث الممشى أن امتلأ بصرخات السكِّير المنهوك الأجش.

وارتفعت صيحة مدوِّية على المرقاة، خرجت من حنجرة امرأة، وهرعت الطاهية بدورها إلى الممشى وهي تهتف: «ها هم أولاء! أوه! يا ربي، أقسم لكم أنهم هم! إنهم أربعة على جياد!»

فأفلت جيراسيم والبوَّاب ماكار ألكسيئييفيتش، وفي الممشى الذي ران الصمت عليه من جديد ارتفعت طرَقات جليَّة أحدثتها قبضات الأيدي على باب المدخل.

الفصل الثامن والعشرون

حياة الضابط

كان بيير قد قرَّر إخفاء هُويته ومعرفته باللغة الفرنسية حتى بعد فراغه من إنجاز مهمته، وكان واقفًا قرب باب المشى الموارب متحفِّزًا للاختفاء فور دخول الفرنسيين إلى البيت، لكن الفرنسيين دخلوا دون أن يتحرَّك من مكانه؛ لأن فضولًا لا يقاوَم استبدَّ به فأقامه في مكانه.

كانا اثنين؛ أحدهما ضابط طويل القامة جميل جليل الطلعة، والآخر جندي بسيط تابعُ الأول ولا شك، مربوع القامة نحيل العود ملفوح الوجه بوجنتين غائرتين ووجه بليد. دخل الضابط أولًا وكان يعرج ويتكئ على عصا، وبعد أن سار بضع خطوات توقَّف وقد وجد أن البيت يوافق مزاجه ولا ريب، والتفت إلى الجنود الواقفين أمام الباب وهتف بهم بصوتٍ آمِر أن يأتوا بالجياد. وبعد ذلك، رفع الضابط مرفقه إلى الأعلى بحركة متغطرسة، وبرم شاربه ثم رفع يده إلى مقدِّمة عَمْرته وهو يوجِّه الحديث إلى الجميع: «مرحبًا أيها الموجودون!»

وراح يعاين المكان وهو يبتسم، فلم يجِبه أحدٌ.

– «هل أنت البورجوازي؟»

فراح جيراسيم ينظر إليه بجزع وفي عينيه استفهام.

قال الضابط وهو يقيس بنظره من علٍ قامة الرجل القصير الواقف أمامه وعلى شفتيه ابتسامة عطوف: «كارتير، كارتير، سكن!»

ثم أعقب وهو يربِّت على كتف جيراسيم الصامت المروَّع: «أواه! إن الفرنسيين أطفال عاقلون. يا للشيطان! هيا لننبذ السخط يا عجوزي!»

وأضاف وهو يجيل بصره فيما حوله ويلاقي به نظرة بيير الذي انفصل عن الباب: «آه! هذا! قولوا، ألا يتحدَّث الفرنسية أحدٌ في هذا المكان؟»

وخاطب الضابط جيراسيم وهو يعتقد أنه يستطيع أن يجعل أجوبته أكثر وضوحًا إذا شوَّهها: «سادة ليسوا هنا ... لا أفهم ... أنا ... لك ...»

فلوَّح الضابط وهو لا يزال يبتسم بإشارة أسفل أنف جيراسيم، مشيرًا بذلك إلى أنه هو الآخر لا يفهم، وتوجَّه وهو يعرج نحو الباب الذي وقف عنده بيير، الذي كان يودُّ لو يبتعد قبل أن يُرى لو لم يَرَ في تلك اللحظة ماكار ألكسيئييفيتش يظهر على باب المطبخ والمسدس في يده. وبمكر المجانين، نظر ماكار ألكسيئييفيتش إلى الضابط ورفع المسدَّس وصوَّبه وصاح وهو يضغط على الزناد: «إلى الهجوم!»

استدار الضابط، وبنفس اللحظة ارتمى بيير على السكران، ولكن بينما كان بيير يمسك بالمسدس وينتزعه، استطاع ماكار ألكسيئييفيتش أن يضغط على الزناد أخيرًا، فدوَّت طلقة تصمُّ الآذان، وامتلأت الغرفة بالدخان، فشحب وجه الفرنسي واندفع نحو الباب.

نسي بيير عزمه على إخفاء معرفته باللغة الفرنسية، فانتزع المسدس من يدَي ماكار ألكسيئييفيتش وألقاه جانبًا، ثم هرع إلى الضابط وسأله بالفرنسية: «ألم تُجرَح؟»

فأجاب هذا وهو يلمس نفسه: «أظن أن لا.»

وأشار إلى خدْش في طلاء الجدار وقال: «لكنني نجوت هذه المرة بمعجزة.»

ثم سأل بصرامة وهو يتأمل بيير: «مَن هذا الرجل؟»

فهتف بيير بقوة وقد نسي دوره تمامًا: «في الحقيقة إنني آسف أشد الأسف لما حصل. إنه مجنون، تاعس، ما كان يعرف ما هو فاعل.»

اقترب الضابط من ماكار ألكسيئييفيتش وأمسك به من ياقته.

فتهاوى السكران على الجدار وقد سقطت شفته، ونطقت أساريره بالتبلُّد وراح يترنَّح، فقال الفرنسي وهو يفلته: «أيها المجرم، ستدفع لي ثمن ذلك! إننا نحن معشر الفرنسيين رحماء بعد النصر — وأضاف بلهجة خطيرة وجليلة وهو يرفق قوله بإشارة نشيطة عريضة — لكننا لا نغفر للخونة.»

استمر بيير يتوسَّل إليه بالفرنسية ألَّا يعاقِب سكرانًا أقرب إلى الجنون، ولقد أصغى إليه الفرنسي في صمت بادئ الأمر وهو مُكْفهر الوجه، ثم ابتسم فجأةً وتأمله بضع ثوانٍ، فاتخذ وجهه الجميل مسحة مؤسية وحانية معًا، ومدَّ له يده وقال: «لقد أنقذت حياتي! إنك فرنسي.»

لقد كان الشك لا يمكن أن يتطرَّق إلى نفس هذا الفرنسي الذي يعتقد أن الفرنسي وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل النبيل الذي هو إنقاذ حياة السيد

رامبال رئيس الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، والذي هو عمل يُعتبر أكثر نُبلًا من كل الأعمال الأخرى.

لكن بيير ظن أن من واجبه أن يصحِّح خطأ الضابط مهما بلغ ذلك الرأي الذي صرَّح به من يقين، فهتف بشدَّة: «إنني روسي.»

فردَّ الضابط وهو يبتسم ويشير له إشارة ساخرة: «تا، تا، تا! قلها لغيري! سوف تروي عليَّ الأمر بعد حين. إنني سعيد بلقاء مواطن.»

وأضاف وهو يخاطب بيير وكأنه يتحدَّث إلى أخيه: «حسنًا، ماذا سنعمل بهذا الرجل؟»

ولم يكن بيير مستطيعًا حتى ولو لم يكن فرنسيًّا أن يرفض هذا اللقب الذي هو أرفع لقب في العالم، وهو ما راح الضابط يعبِّر عنه بكل وضوح بلهجته وبتعبير وجهه، ففسَّر بيير مرةً أخرى حالة ماكار ألكسيئييفيتش وكيف استولى السكران، ذلك المجنون، في اللحظة التي دخل فيها الضابط، على مسدس محشو لم يستطيعوا انتزاعه من يديه، ثم رجا الضابط مرةً أخرى ألَّا يعاقبه.

فانتصب الضابط وأشار بيده بحركة مَلَكية حقًّا، وقال بلهجة سريعة حازمة: «لقد أنقذت حياتي! أنت فرنسي. تسألني العفو عنه؟ أمنحك ما تطلب. ليأخذوا هذا الرجل.»

ثم أمسك بذراع ذلك الذي رفعه إلى مرتبة الفرنسي لأنه أنقذ حياته، ودخل معه إلى داخل المسكن.

ولقد اندفع الجنود الذين كانوا في الفناء إلى الدهليز على دويِّ الانفجار، وراحوا يستفسرون عما وقع ويُعرِبون عن استعدادهم لمعاقبة المذنب، لكن الضابط استوقفهم بصرامة وقال: «سوف تُستَدعون عندما تدعو الحاجة إليكم.»

فخرج الجنود، وجاء التابع الذي تسنَّى له خلال ذلك أن يعاين المطبخ يقول للضابط: «أيها الرئيس، إن لديهم حساءً وضلع خروف في المطبخ، فهل آتيك به؟»

فأجاب الضابط: «نعم، والخمر.»

الفصل التاسع والعشرون

الرئيس رامبال

عندما دخل الضابط مع بيير إلى داخل البيت ظنَّ بيير أن من واجبه أن يؤكِّد له مرةً أخرى بأنه ليس فرنسيًّا، وكان يريد أن ينسحب، لكن الضابط لم يُصغِ إليه. أظهر تهذيبًا جمًّا وتودُّدًا فائقًا وبشاشة ورغبة عميقة في إبداء عرفانه حيال منقذه، حتى إن بيير لم يجد الشجاعة ليرفض له طلب مجالسته في البهو الذي كان أول غرفة دخلا إليها. ولقد أدهش استمرار بيير على القول بأنه ليس فرنسيًّا الضابطَ أيَّما دهشة، وهو الذي لم يفهم كيف يرفض مثل هذا الشرف، فهزَّ كتفَيْه وقال لبيير إنه إذا كان يصر على اعتبار نفسه روسيًّا، فإنه لن يعارض رغبته، وسيحتفظ برغم ذلك بعرفان أبدي للرجل الذي أنقذ حياته.

ولو أن ذلك الفرنسيَّ أبدى أقل استعداد لفهم شعور الغير، وأدرك ما يعتلج في نفس رفيقه لتركه بيير دون ريب، لكن عدم قابليَّته الظاهرة لكل ما هو غير نفسه هو الذي حدا ببيير أن يبقى.

قال الفرنسي وهو يلقي نظرة على ثياب بيير القذِرة ولكن الثمينة، وعلى الخاتم الذي في إصبعه: «فرنسي أو أمير روسي متنكِّر، إنني مدين لك بحياتي، وأعرِض عليك صداقتي. إن فرنسيًّا لا ينسى قط إهانة ولا خدمة. أعرِض عليك صداقتي ولا أقول أكثر من ذلك.»

كان في لهجة ذلك الضابط وفي تعابير وجهه وحركاته كثيرٌ من النُّبل وجودة النفس (بالمعنى الفرنسي للعبارة)، حتى إن بيير أجاب على ابتسامته بابتسامة مثلها برغمه، وشدَّ على اليد الممدودة إليه. قدَّم الفرنسي نفسه فقال وعلى شفتَيْه ابتسامة راضية لا تقاوم غضنتها تحت شاربه: «الرئيس رامبال من الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، المنعم عليه بوسام لمعركة اليوم السابع. هل تتفضَّل الآن وتخبرني مع من لي الشرف بالتحدث بكل ودٍّ بدلًا من أن أكون في عربة إسعاف حاملًا رصاصة ذلك المجنون في جسدي؟»

فأجاب بيير بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه، وراح وقد تضرَّج وجهه يبحث عن اسم يقدِّم نفسه به، وعن الأسباب التي يزعم أنها دعته إلى التنكُّر، لكن الفرنسي بادر يقاطعه قائلًا: «عفوك. إنني أقدِّر ظروفك. إنك ضابط ... ضابط كبير على ما أظن، ولقد حملت السلاح ضدنا. إن هذا ليس من شأني. إنني مدين لك بحياتي وهذا يكفيني. إنني لك بكليَّتي.»

وفجأة سأل: «أنت نبيل؟»

فأطرق بيير برأسه: «اسمك في العماد إذا أمرت! لا أطلب أكثر من ذلك. تقول السيد بيير؟ ... عال. هذا كل ما أرغب في معرفته.»

فقدَّموا فخذ الخروف والشطير ووضعوا السماور على المائدة، ثم جاءوا بالعَرق والنبيذ المأخوذَين من صندوق روسي للسفر حمله الفرنسيون معهم، ثم دعا رامبال بيير أن يشاطره الطعام، ولم يلبث هو نفسه أن راح يأكل بنهَم كما يأكل الرجل القوي الجائع ويمضغ بأسنانه القوية، ويصفق بلسانه في كل حين وهو يهتف: «ممتاز، رائع!» ولم يلبث وجهه أن تضرَّج وغطَّاه العرق، ونهج بيير الجائع نهجه في الأكل، وجاء موريل، تابعُ الضابط، بقِدْر معدنية فيها ماء ساخن غمس فيه زجاجة من النبيذ الأحمر، كما جاء بزجاجة من خمرة «كواس» حملها من المطبخ ليذوقها. ولقد أصبح هذا النوع من الشراب معروفًا من الفرنسيين مقبولًا لديهم، وكانوا يسمونه «ليمونادة الخنزير»، فأخذ موريل يطري الزجاجة التي اكتشف وجودها في المطبخ، ولكن لمَّا كان الرئيس متزوِّدًا بخمر ممتاز حصل عليه خلال اجتيازه موسكو، فقد تنازل عن زجاجة الكواس لموريل وهاجم هو نبيذ بوردو. أخذ منشفة أحاط بها عنق الزجاجة وصبَّ لنفسه قدحًا ثم لضيفه. ولقد كان من تأثير الشبع ومساعدة النبيذ أنِ ازداد الرئيس حيوية، فلم يكفَّ خلال فترة الطعام عن الثرثرة.

– «نعم يا عزيزي السيد بيير، إنني مدين لك بفضل عميم لأنك أنقذتني ... من هذا المسعور ... إن بي كفاية كما ترى من الرصاص في جسدي، وها هي ذي واحدة (وكشف عن جنبه) أصابتني في «واجرام» كما أُصبت باثنتين في سمولنسك (وأشار إلى آثار خياطةِ جرح في وجنته). وها هي ذي ساقي كما ترى ترفض أن تسير. لقد أُصبت بهذه الإصابة في معركة اليوم السابع الكبرى، في موسكوفا. يا لله! كم كانت جميلة! ليت رأيتها، إنها طوفان من نار. لقد أظهرتم لنا مقاومة عنيفة يمكنكم أن تفخروا بها، وأقسم بشرف نبيل صغير. ولعَمري فإنني رغم كل ما أُصبت به خلال هذه الملاحم، أراني على استعداد لإعادة الكرَّة من جديد، وأرثي لحال الذين لم يروا تلك المعارك.»

قال بيير: «لقد كنت هناك.»

فهتف الفرنسي: «حقًّا! حسنًا، هذا أفضل. إنكم رغم كل شيء أعداء فخورون. لقد كان التل الصغير شديد الصمود (وملأ الغليون)، ولقد جعلتمونا ندفع ثمنًا عاليًا. لقد ذهبتُ إليه ثلاث مرات كما تراني. كنا ثلاث مرات على المدافع، وثلاث مرات دُفعنا مثلما تُدفع الأرانب. أوه! كان ذلك رائعًا يا سيد بيير. لقد كان قنَّاصتكم رائعين وحق الله. لقد رأيتهم ست مرات يعبِّئون صفوفهم ويمشون وكأنهم في عرض عسكري. يا للرجال الرائعين! ولقد هتف ملكنا — ملك نابولي — الذي يقدِّر هذه الأشياء: «مرحى! آه! آه! جنود مثلنا»!»

وبعد دقيقة صمت أضاف: «هذا أفضل يا سيد بيير، هذا أفضل. رهيبون في المعركة، ظرفاء (وغمز بعينيه وهو يبتسم) مع الجميلات، أولئك الفرنسيون يا سيد بيير، أليس كذلك؟»

كان الفرنسي في حالة مرح صريحة جدًّا ومعدية جدًّا، وكان شديد الرضى عن نفسه، حتى إن بيير كاد أن يجيبه على غمزة عينه بمثلها وهو ينظر إليه بمرح، ولقد أعادت كلمة «ظرفاء» أفكار الفرنسي ولا شك إلى الموقف في موسكو، فقال: «وبهذه المناسبة، قل لي، هل حقيقة أن النساء غادرن موسكو؟ يا لها من فكرة مضحكة! ماذا كان يخيفهنَّ؟»

فسأل بيير: «أمَا كانت السيدات الفرنسيات ليغادرن باريز لو احتلَّها الروسيون؟»

هتف الفرنسي وهو يقهقه ويربِّت على كتف بيير: «آه! آه! آه! ... آه! إن هذه قوية جدًّا. باريز؟ ... ولكن باريز، باريز ...»

فأعقب بيير: «باريز، عاصمة العالم ...»

نظر إليه الضابط دون أن يرمش، لقد كان من عادته أن يصمت فجأةً وهو في غمار حديثه ليتأمل مخاطبَهُ بعينَين ضاحكتين ودودتين.

– «حسنًا، لو أنك لم تقل لي إنك روسيٌّ لراهنت على أنك باريزي. إن فيك هذا الذي لا أعرف ما هو، هذا ...»

وقطع على نفسه الحديث بعد هذا الإطراء ليتأمَّل من جديد بيير في صمت. قال بيير: «لقد كنت في باريز. لقد أمضيت فيها سنوات.»

– «أوه! هذا يُرى بوضوح. باريز ... إن الرجل الذي لا يعرف باريز إنسان متوحِّش. إن الباريزي يُعرف من رائحته على بُعْد ميلين. باريز هي تالما، دوشين بوتييه، السوربون، الشوارع العريضة.»

ولَمَّا رأى أن خاتمة حديثه لا تساوي بدايته بادر يقول: «لا يوجد في العالم إلا «باريز» واحدة، لقد كنت في باريز ثم لبثت في روسيا. لعَمري إن تقديري لك لن ينقص.»

وجد بيير تحت تأثير الخمر — وبعد كل هذه الأيام التي قضاها في خلوة مع أفكار قاتمة — متعة غير إرادية في التحدث مع هذا الفتى الباسل المرِح.

– «عودة إلى سيداتكم، يقولون إنهنَّ جميلات جدًّا. يا لها من فكرة سيئة أن يذهبن إلى الأقفار فيدفنَّ أنفسهنَّ فيها عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو! يا للحظ الذي فات على هؤلاء السيدات! إن فلَّاحيكم «موجيك» يختلفون، أما أنتم — معشر المتمدِّنين — فإنكم ولا ريب تعرفوننا أفضل من ذلك. لقد احتللنا فيينا وبرلين ومدريد ونابولي وروما وفارسوفيا وكل عواصم العالم … إنهم يخافوننا لكنهم يحبوننا. إننا نصلح لأن يتعرَّف الناس علينا. ثم إن الإمبراطور …»

وهمَّ أن يستمرَّ لولا أن قاطعه بيير، فكرَّر بلهجة اعتراها الارتباك ووجه انطبع فجأةً بالوجوم: «الإمبراطور، هل الإمبراطور …»

– «الإمبراطور! هو الكرم والرحمة والعدالة والنظام والعبقرية. هذا هو الإمبراطور! إنني أنا، رامبال، الذي أقول لك هذا … إنني كما تراني، كنت عدوَّه منذ ثماني سنوات خَلَتْ. لقد كان أبي كونتًا مهاجرًا … هزمني، هذا الرجل، لقد أسرني. لم أستطِع مقاومة مشهد العظمة والمجد اللذين أضفاهما على فرنسا، ولَمَّا فهمت ما يريد ورأيت أنه إنما يصنع لنا محملًا من العار، قلت لنفسي — لاحِظ: ها هو ذا سلطان، واستسلمت إليه، وهذا كل شيء. أوه! نعم يا عزيزي، إنه أعظم رجل في القرون التي خلت والتي سوف تحين.»

سأل بيير وهو يتردَّد تردُّد الرجل الذي ضُبط في الخطأ: «هل هو في موسكو؟»

فتأمَّل الفرنسي ذلك الوجه الذي يشبه وجه الُمذنب وراح يضحك، ثم قال وهو يستأنف حديثه: «كلا، سوف يدخل المدينة غدًا.»

قطع الحديث ارتفاع أصوات آتية من وراء الباب، ودخول موريل الذي جاء يعلن لرئيسه أن فرسانًا ورتمبرجيين وصلوا منذ حين يريدون إيداع خيولهم في الفناء نفسه الذي احتلته جياده هو، وكانت الصعوبة في الموضوع ناجمة عن أن الفرسان لا يفهمون شيئًا مما يقال لهم.

أعطى الرئيس الأمر باستقدام الرقيب الأول وسأله بلهجة صارمة عن الفيلق الذي ينتمي إليه وعن اسم رئيسه، والحق الذي سمح لنفسه بموجبه أن يحتلَّ مسكنًا احتُلَّ

من قبل. ولمَّا كان الألماني ضعيف الفهم للغة الفرنسية، فقد أجاب على السؤالين الأولين بإعطاء اسم فيلقه ورئيسه، لكنه لم يستوعب معنى السؤال الأخير، فراح يعبِّر بنُتَف من الجمل الفرنسية ممزوجة بلغته الألمانية مجيبًا بأن رئيسه أصدر إليه الأوامر باحتلال صف المنازل كله. ولمَّا كان بيير يعرف الألمانية فقد ترجم للرئيس ما يقوله الفارس، وللفارس ما قاله الرئيس. فلمَّا فهم الألماني حقيقة الأمر أخيرًا، تراجع وأخذ معه رجاله، وبعد ذلك خرج الرئيس إلى المرقاة وأصدر بعض الأوامر بصوت مرتفع.

ولمَّا عاد إلى الحجرة وجد بيير جالسًا في مكانه نفسه ورأسُهُ بين يديه ووجهه ينطق بالألم، والحقيقة أنه كان في تلك اللحظة يتألم؛ إذ إنه عندما لبث وحيدًا بعد خروج الرئيس، عاد بيير فجأةً إلى نفسه واستوعب الموقف الذي أصبح فيه. لم يكن ما يعذِّبه في تلك اللحظة أن موسكو قد احتُلَّت وأن المنتصرين السعداء باتوا أسيادًا فيها، بل وأصبح هو نفسه تحت حمايتهم. صحيح أن كل هذا ثقيل على قلبه، ولكن لم يثقل على مثل ثقل إحساسه بضعفه؛ ذلك أن بضعة أقداح من الخمر والمحادثة التي دارت بينه وبين هذا الفرنسي اللطيف، انتصرت على حالته النفسية الكئيبة المركَّزة التي أمضى بها أيامه الأخيرة تلك، وهي الحالة النفسية اللازمة للقيام بما اعتزم أن يقوم به. فالمسدس والخنجر والمعطف كلها جاهزة، ونابليون سيدخل موسكو غدًا، ولقد ظل بيير يرى أن قتل هذا الأثيم عمل نافع وفروسي، لكنه بات يشعر الآن بأن لن يقوم به. لماذا؟ لم يدرِ، لكنه كان يشعر شعورًا مسبقًا بأنه لن يسير في مشروعه إلى النهاية. راح يناضل ضد شعوره بالضعف، لكنه كان يحسُّ إحساسًا غامضًا بأنه لن يسيطر على ذلك الضعف، وأن أحلامه بالانتقام والاغتيال والتضحية قد ذراها الريح كالرماد لدى اللقاء مع أول وافد.

عاد الرئيس إلى الغرفة وهو يجرُّ ساقه ويصفِّر.

خُيِّل إلى بيير أن ثرثرته التي سلَّته بادئ الأمر قد أصبحت بشعة فجأةً ومنفِّرة، وذلك الصفير وذلك التصرف وتلك الطريقة في عَكْف شاربه، كل ذلك بدا له الآن مهينًا. فكَّر: «إنني سأذهب من فوري دون أن أضيف كلمة أخرى إلى ما قلته له.» مع ذلك، فإنه لم يتحرَّك رغم هذه الفكرة. لقد كان ذلك الشعور الغريب بالضعف يسمِّره في مكانه، فكان يريد النهوض والرحيل، ولكن لا يستطيع.

أمَّا الرئيس، فقد بدا على العكس شديد المرح إلى أقصى حد. طاف بالحجرة مرتين وعيناه تلتمعان وشاربه يرتعد قليلًا وكأن شيئًا مضحكًا جدًّا يجعله يبتسم ابتسامًا خفيفًا. وفجأةً هتف: «رائع، زعيم هؤلاء الورتمبرجيين! إنه ألماني، لكنه فتًى باسل إذا وجب، ولكنه ألماني. (ووقف قبالة بيير وأعقب) وبالمناسبة، إنك إذن تعرف الألمانية أنت؟»

فنظر إليه بيير في صمت.

– «كيف تقول: ملجأ، بالألمانية؟»

فكَّر بيير: «ملجأ؟ ملجأ بالألمانية: أونتركونفت.»

سأل الرئيس بلهجة قوية غير مصدِّقة: «كيف تقول؟»

فردَّد بيير: «أونتركونفت.»

فقال الرئيس وهو يتأمَّل بيير خلال لحظات بعينَيْه الضاحكتين: «أونتركوف. إن الألمان وحوش فخورون.»

ثم أعقب: «أليس كذلك يا سيد بيير؟»

وأردف: «حسنًا، زجاجة أخرى من هذه الأنبذة الموسكوفية. أليس كذلك؟»

ثم هتف بمرح: «موريل، اذهب وسخِّن لنا زجاجة صغيرة. موريل!»

جاء موريل بالزجاجة وبالشموع، فتأمل الرئيس بيير على ضوئها، ودهش لما بدا على قسماته من عطف عنيف. اقترب منه بيير وانحنى عليه بانجذاب ينطق بالحدب المخلص، وقال وهو يضغط على يد بيير وسأل: «حسنًا، إنك حزين، فهل تراني أسأتُ إليك؟ كلا، قل الحق، هل في نفسك شيء عليَّ؟ هل الأمر يتعلَّق بالموقف؟»

فنظر بيير إلى الفرنسي بودٍّ دون أن يجيب. لقد كان شديد التحسُّس بالعطف الذي أُظهِر له.

هتف الفرنسي وهو يقرع صدره: «أعاهدك بالشرف على أنني أشعر بصداقة نحوك بصرف النظر عما أنا مدين به إليك. هل أستطيع أن أُسدي إليك يدًا؟ تصرَّف بي، وهو عهد يشمل الحياة أو الموت. أقول هذا لك ويدي على قلبي.»

فقال بيير: «شكرًا.»

تأمَّله الرئيس بإمعان بمثل النظرة التي تجلَّت في عينَيْه وهو يتعلَّم كلمة ملجأ بالألمانية، وأشرق وجهه فجأةً.

هتف بكل مرح وهو يملأ كأسَيْن: «آه! في هذه الحالة سأشرب نخْب صداقتنا!»

أخذ بيير كأسه المترَعة وأفرغها دفعة واحدة، وشرب رامبال كأسه وضغط على يد بيير مرة أخرى، ثم اتكأ على المائدة في وضع سويداوي ومفكر. شرع يقول: «نعم يا صديقي العزيز، هذه هي صروف الدهر ... مَن كان يقول إنني سأكون جنديًّا ورئيسًا لكوكبة من الفرسان في خدمة بونابرت كما كنا ندعوه من قبل؟ مع ذلك، ها أنا ذا في موسكو معه.»

وأعقب بصوت محزون ومتزن، صوتِ رجل يتأهَّب لرواية قصة طويلة: «يجب أن أقول لك يا عزيزي إن اسمنا من أعرق الأسماء الفرنسية.»

وبصراحته الساذجة البسيطة كفرنسي، روى الرئيس لبيير تاريخ أسلافه وطفولته وصباه وشبابه وكل مشاكله المادية والعائلية، وغنيٌّ عن الذكر أن «أمي المسكينة» كانت تلعب في هذا الحديث دورًا مهمًّا. قال وهو ينتعش: «لكن هذا كله ليس إلا إخراج الحياة، أما الأساس فإنه الحب! الحب! أليس كذلك يا سيد بيير؟ هل لك بقدح آخر؟»

فشرب بيير وصبَّ لنفسه كأسًا ثالثة.

– «أوه! النساء! النساء!»

وراح الرئيس ينظر إلى بيير بعينَيْن متراخيتَيْن، ويحدِّثه عن الحب وعن مغامراته الغرامية.

كانت عديدة جدًّا، والمرء يسهل عليه تصديقه إذا نظر إلى الحماس الذي يتحدَّث به عن النساء، وإلى أمارات الرضى المرتسمة على وجهه، وإلى ذلك الوجه الجميل نفسه. وعلى الرغم من أنَّ مغامرات رامبال كانت تحوي الجانب الخلاعي الذي يكوِّن لدى الفرنسيين فتنة الحب وشاعريته، فإن الرئيس راح يروي وقائعه بإيمان مخلص بأنه وحده الذي ذاق كل يُمن الحب وتعرَّف عليه، ويصف بطلات أقاصيصه بإغراء عنيف، حتى إن بيير كان يصغي إليه بفضول.

كان واضحًا أن الحب الذي يحبه الفرنسي بمثل هذه الشدة ليس ذلك الكَلَف البدائي والشهواني الذي أحسَّ به بيير فيما مضى نحو زوجته، ولا ذلك الحب الرومانتيكي الذي يشعر به نحو ناتاشا (وكان رامبال يحتقر كليهما معًا؛ لأن الأول في نظره «غرام السواقين»، والثاني غرام الحمقى)، بل إن الحب الذي يجرفه كان يتألَّف بصورة خاصة من العلاقات الخارقة مع النساء، وكانت سلسلة من تآلف الأشياء الغريبة تكوِّن المظهر الرئيسي للعاطفة.

وهكذا فقد روى الرئيس قصة غرامه المثيرة مع مركيزة فاتنة في الخامسة والثلاثين، التي يبطنها غرامه لابنة هذه الأخيرة، وهي فتاة أنيسة ساذجة في السابعة عشرة من عمرها. ولم يعد الصراع في الكرامة بين الأم والبنت الذي انتهى بتضحية الأم التي قدَّمت ابنتها زوجةً لعشيقها، إلا مجرد ذكرى بعيدة، ذكرى لا زالت رغم ذلك تثير عواطف الرئيس. ثم روى سلسلة من القصص كان الزوج فيها يلعب دور العاشق وهو — العاشق — دور الزوج، ثم بعض قصص أخرى مضحكة عن «ذكرياته في ألمانيا»؛ حيث تلفَّظ كلمة ملجأ أونتركونفت، وحيث الأزواج يأكلون الكرنب المهرم المخمر، وحيث الفتيات شقراوات جدًّا.

أخيرًا، وصل إلى سرد مغامرته الأخيرة في بولونيا، تلك المغامرة التي لا زالت حديثة العهد في ذاكرته، فرواها بحركات ملؤها الحياة ووجهُهُ ينطق بالنشوة. لقد أنقذ حياة بولوني (وفي روايات الرئيس كان لا بدَّ من حادث ينقذ فيه حياة أحدهم) بشكل راح هذا البولوني معه يسلِّمه قيادة زوجته الفاتنة باريزية القلب، بينما انخرط هو في خدمة فرنسا. وكان الرئيس في غاية ما يشتهي، فأرادت البولونية الفاتنة أن تفرَّ معه. مع ذلك، فقد أعاد الزوجة إلى زوجها في غمرة إحساس نبيل، وقال له: «لقد أنقذت حياتك، وها إنني أنقذ شرفك!» وأخذ رامبال وهو يردِّد هذه الكلمات يمسح عينَيْه ويهزُّ رأسه وكأنه يريد أن يطرد التحنان الذي غمره أمام ذكرى على هذا الجانب من التأثير.

وكما يحدث غالبًا في ساعة متأخرة من الليل وتحت تأثير الخمر، راح بيير وهو يصغي إلى أقاصيص الرئيس، يتبع ذكرياته الخاصة التي داهمت ذاكرته فجأةً، ولقد أيقظت اعترافات الحب تلك هواه بناتاشا، فراح يستعيد صورته في خياله ويقارنه بأقاصيص رامبال. ولقد ذكَّرته قصة الصراع بين الواجب والحب بلقائه الأخير مع ناتاشا قرب برج سوخارييف. مرَّت ذكريات ذلك اللقاء نصب عينَيْه في أدقِّ تفاصيله. لقد أثَّر فيه ذلك اللقاء تأثيرًا خفيفًا في حينه، بل إنه نأى تمامًا عن ذاكرته. أما الآن، فعلى العكس، لقد بدا له أن معنًى وشاعريَّةً خاصة مختلفة تمامًا.

«يا بيوتر كيريلوفيتش، تعالَ، لقد عرفتك.» كان يسمع هذه الكلمات ويرى أمامه عينَي ناتاشا وابتسامتها وقلنسوة السفر التي على رأسها وخصلات شعرها المجنونة … لقد كان لكل هذه الأشياء لون من الحنوِّ والتأثير.

وبعد أن فرغ من حكاية البولونية التي أعادها إلى زوجها، سأل الرئيس بيير عما إذا كان أحسَّ بمثل عاطفة التضحية بالذات هذه في سبيل الحب والحقد نحو الزوج الشرعي.

رفع بيير رأسه عقِب هذا السؤال، واستبدَّ به شعور بالحاجة إلى أن يفثأ عما في نفسه، فراح يشرح لجليسه كيف أنه يفهم الحب على لونٍ آخر. قال إنه خلال حياته كلها لم يحبَّ إلا امرأة واحدة، وأن هذه الامرأة لن تكون له أبدًا.

فهتف الرئيس: «هه!»

ثم قال بيير إنه يحب هذه المرأة منذ نعومة أظفارها، لكنه لم يجرؤ قط على التفكير فيها؛ لأنها لم تكن أكثر من «بُنيَّة» صغيرة، وإنه هو — الابن غير الشرعي — لا يملك حتى اسمًا، ولَمَّا تلقى فيما بعد الاسم والثروة إرثيًّا، ما عاد يجرؤ على مفاتحتها كذلك؛ لأنه كان يحبها حبًّا عنيفًا ويضعها في مكانٍ سامٍ جدًّا؛ وبالتالي أرفع من مقامه بكثير.

ولمَّا وصل إلى هذه النقطة من روايته سأل بيير الرئيس عما إذا كان يفهمه، فبدرت عن الرئيس إشارة تعني أنه ولو لم يكن يفهم شيئًا، فإن هذا لا يجب أن يَحُول دون بيير ومتابعة الحديث، وغمغم: «الحب الأفلاطوني ...!»

هل كان النبيذ الذي احتساه، أم ضرورة فتح مكنونات قلبه، أم كذلك التأكيد من أن هذا الرجل لا يعرف ولن يعرف قط شخصًا واحدًا من الذين يتحدَّث عنهم، أم تُرى كل هذه الاعتبارات مجتمعة هي التي حلَّت لسان بيير من عقاله؟ مهما كان الأمر، فقد راح يروي قصة حياته وقد جفَّ لعابه وشخَص بعينَيْه العكرتين إلى نقطة ما في البُعْد. روى قصة حياته وزفافه وحب ناتاشا لصديقه الحميم ثم خيانة الفتاة والعلاقات القلبية التي يكنُّها لها، بل لقد أفشى مدفوعًا بأسئلة رامبال ما أخفاه في بادئ الأمر: مركزه الاجتماعي واسمه الحقيقي.

وكان الذي زاد من دهشة الرئيس لاعترافات بيير، هو أنه إزاء رجل غني جدًّا يملك قصرَيْن في موسكو، هجر كل شيء دون أن يفرَّ من المدينة، وبقي آخر الأمر وهو يُخفي اسمه ومركزه.

خرجا معًا في ساعة متأخرة من الليل إلى الشارع، كان الليل صاحيًا بديعًا، وإلى يسار البيت التمعت نيران أول حريق شبَّ في موسكو على بيتروفكا، وإلى اليمين قرص القمر الجديد عاليًا جدًّا في السماء وقبالة القمر، المذنَّب المضيء الذي كان يشترك في نفس بيير مع غرامه. وأمام البيت وقف جيراسيم والطاهية وفرنسيان، وكانوا يضحكون ويتحدَّثون محاولين أن يتفاهموا وقد علَت أصواتهم. كانوا يتأملون الضوء الذي أخذ يتصاعد فوق المدينة.

لم يكن لهذا الحريق البعيد في مدينة كبرى أي أثر مخيف.

أحسَّ بيير بحنوٍّ مرِح وهو يتأمل السماء الكبرى ذات النجوم والقمر والنجم المذنَّب والضوء الأحمر. فكَّر: «كم هو جميل كل هذا!» لكنه فجأةً عندما تذكَّر مشروعه، أحسَّ بدوار في رأسه وألم ينتابه، فاستند إلى الحاجز مرغمًا كي يتفادى السقوط.

ودون أن يستأذن من صديقه الجديد، ابتعد بيير عن الباب وهو يترنَّح، ودخل إلى غرفته حيث استلقى على الأريكة ونام لفوره.

الفصل الثلاثون

المظاهر الأولى

في الثاني من أيلول، شوهد وميض الحريق الأول من نقاط عديدة، وأحدث تأثيرات مختلفة على السكان الفارِّين وعلى الجيش المنسحب.

توقَّفت قافلة آل روستوف تلك الليلة على بُعْد عشرين فرسخًا[١] من موسكو في ميتيشتشي؛ لأنهم في اليوم الأول رحلوا متأخرين جدًّا، وكان الطريق مملوءًا بالعربات والقطعات الكثيرة، واضطروا إلى انتظار عديد من الأشياء المنسية أرسلوا يستحضرونها حتى قرَّروا أخيرًا أن يناموا على بُعْد خمسة فراسخ عن موسكو. وفي اليوم التالي، استفاقوا متأخرين ووجدوا كذلك كثيرًا من العوائق في الطريق، حتى إنهم لم يجتازوا جراند ميتيشتشي. ولقد تفرَّق آل روستوف والجرحى المسافرون معهم في الساعة العاشرة في الأكواخ الخشبية وأفنية تلك الضَّيعة الكبيرة. وبعد أن قام الخدم والتابعون بخدمة أسيادهم، تناولوا الطعام بدورهم، وعنوا بشأن الخيول، ثم خرجوا على المرقاة.

كان في المنزل المجاور مساعد راييفسكي العسكري وقد تحطَّم معصمه، وهو يتألَّم ألمًا شديدًا رهيبًا، وزمجراته المستمرة تدوِّي بشكل مؤثِّر جدًّا في تلك الليلة الخريفية المعتدلة. ولقد أمضى هذا المساعد العسكري الليلة الأولى في الفناء الذي حلَّ فيه آل روستوف، فشَكَت الكونتيس أنها لم تغمض جفنها بسبب تلك الأنَّات. لذلك فقد انتقلت في ميتيشتشي إلى كوخ خشبي أكثر تواضعًا بغية الابتعاد عن ذلك الجريح.

[١] الصحيح في النص هو فيرست، وهو مقياس روسي طوله ١٠٦٧ مترًا.

شاهد أحد الخدم في الظلمات، من وراء صندوق إحدى العربات العالي المتوقفة عند مدخل الفناء، وميض حريق آخر أقل انتشارًا. وكان الحريق الأول واضحًا تمامًا منذ أمدٍ طويل، والكل يعرف أن مكانه هو بوتيت ميتيشتشي (الصغرى)؛ حيث أضرم قوقازيو مامونوف النار.

قال أحد التابعين: «وهذا أيها الرفاق، إنه حريق آخر.»

فالتفتوا جميعهم نحو اللهيب.

– «ولكن ماذا؟ وقد قيل إن قوقازيي مامونوف يحرقون ميتيشتشي الصغرى!»

– «هم؟ كلا، ليس في ميتيشتشي الصغرى، بل أبعد من ذلك بكثير.»

– «انظر جيدًّا، لا بدَّ وأن الحريق في موسكو.»

نزل خادمان عن المرقاة ومضيا وراء العربة، ثم اعتليا المرقاة.

– «إنه أكثر إلى اليسار. انظر. إن ميتيشتشي من هذه الناحية، وهذه في الجهة المضادَّة.»

واقترب بعض الرجال من هذين وقال أحدهم: «هه، كيف يرتفع اللهب! هذه أيها السادة هي موسكو التي تشتعل، سواء في سوشتنشيفسكاييا أو في روجوسكاييا.»

فلم يُجِب أحدٌ على هذه الملاحظة، واستمر هؤلاء الأشخاص ينظرون خلال فترة طويلة إلى لهب هذا الحريق الجديد المتصاعد وهم صامتون.

اقترب وصيف عجوز للكونت، دانيل تيرانتيتش، من الجماعة ونادى ميشكا.

– «ماذا تنظر هنا أيها الغبي الصغير؟! ... إن الكونت يناديك فلا يجيبه أحد! امضِ واهتمَّ بالألبسة.»

فردَّ ميشكا: «كنت ذاهبًا لأملأ ماءً.»

قال خادم: «وأنت يا دانيل تيرانتيتش، ماذا تقول؟ إن هذا يبدو من موسكو دون ريب.»

لم يُجِب دانيل تيرانتيتش، وراح ينظر بصمت فترة طويلة، وكان اللهب المتراقص يزداد اتساعًا ...

قال صوت: «ليحفظنا الله! ... بهذه الريح وهذا الجفاف ...»

– «انظر كم تقترب النار بسرعة. أوه، مولانا! إن المرء ليرى طيور «الشوكا»! مولانا، ارفق بنا!»

فردَّ دانيل تيرانتيتش الذي ظل صامتًا حتى ذلك الحين: «ومن الذي سيُطفئها؟»

وأردف بصوت هادئ بطيء: «نعم، إنها في موسكو أيها الإخوان، الأم ذات الأسوار البيضاء ...»

وتهدَّج صوته فجأةً وراح ينتحب كما ينتحب الكهول.

وكما لو أنهم جميعًا لم يسمعوا إلا هذا القول ليدركوا معنى ذلك الحريق بالنسبة إليهم، فارتفعت الحسرات والصلوات الممتزجة بإجهاش الوصيف العجوز.

الفصل الحادي والثلاثون

خطة ناتاشا

ولمَّا عاد إلى سيده، روى الوصيف أن موسكو تحترق، فارتدى الكونت معطفه المنزلي وخرج مستطلعًا. خرجت معه السيدة شوس وسونيا التي لم تكن قد خلعت ثيابها بعد، فلم يبقَ في الداخل إلا ناتاشا والكونتيس وحدهما؛ إذ كان بيتيا قد افترق عن أسرته؛ لأنه تبع فيلقه الذي كان متجهًا إلى تروئيتسا الواقعة على بُعْد ثمانية وستين فرسخًا من موسكو.

راحت الكونتيس تبكي عندما علمت بحريق موسكو، أمَّا ناتاشا الشاحبة، شاخصة البصر، الجالسة تحت الأيقونات على مقعد لا مسند له (وقد ظلت جالسة فيه دون أن تتحرك منذ وصولها)، فإنها لم تُلقِ بالًا إلى ما كان يقوله أبوها. كانت تُصغي إلى أنين المساعد العسكري المستمر الذي كان يُسمَع رغم المنازل الثلاثة الفاصلة.

هتفت سونيا وهي عائدة من الخارج مرتعدة مروَّعة: «آه! هذا مريع! أعتقد أن موسكو كلها تحترق. يا للشعلة المخيفة! ناتاشا، اذهبي إلى النافذة وانظري، يمكن الآن رؤية كل شيء بوضوح.»

وكانت بهذا القول الموجَّه إلى ابنة عمِّها تحاول التسرية عنها، لكن ناتاشا نظرت إليها وكأنها لا تفقه ما يُطلَب إليها، وعادت تحدق من جديد إلى ركن المدفأة. لقد كانت في هذا النوع من السُّبات المستغرق من الصباح، منذ أن ظنت سونيا لسبب لا يعلمه إلا الله — ولعظيم دهشة الكونتيس وانزعاجها الكبير — أن من الضروري إخطار ناتاشا بجرح الأمير آندريه وبوجوده معهم في القافلة. ولقد ثارت الكونتيس على سونيا ثورةً لم تتعرض هذه لمثلها إلا نادرًا، فسألتها الصفح وهي تبكي. والآن، وكأنها تحاول التكفير عن ذنبها، راحت تُظهر مزيدًا من الاستمالة.

قالت سونيا: «انظري ناتاشا، كيف يشبُّ الحريق بقوة. هذا رهيب!»

سألت ناتاشا: «ما الذي يحترق؟ آه! نعم، موسكو!»

وكأنها أرادت ألَّا تجرح سونيا برفضها وأن تتخلص منها، فأدارت رأسها نحو النافذة ونظرت بشكل كان بديهيًّا معه ألَّا ترى شيئًا، وعادت إلى وضعيتها السابقة.

– «لكنك لم ترَي!»

فقالت بصوتٍ يتوسَّل أن تُترك وشأنها: «بلى، بلى، لقد رأيت جيدًا.»

فهمت الكونتيس وسونيا أن موسكو وحريق موسكو وكل ما يمكن أن يقع، لا يمكن أن يكون على أي لون من الأهمية بالنسبة إلى ناتاشا في تلك اللحظة.

عاد الكونت إلى وراء حاجز الكوخ الخشبي واستلقى، فاقتربت الكونتيس من ناتاشا ومسَّت رأسها بظاهر يدها كما كانت تعمل كلما كانت ابنتها مريضة، ثم لمست جبينها بشفتَيْها وكأنها تريد أن تعلم ما إذا كانت مصابة بالحمى، ثم عانقتها وقالت: «أبِكِ بَرْد؟ إنكِ ترتعدين! عليكِ أن تنامي.»

فأجابت ناتاشا: «أن أنام؟ نعم، حسنًا، إنني ذاهبة لأنام على الفور.»

ذلك الصباح، عندما علمت أن الأمير آندريه المصاب بجرح خطير يسافر معهم، بدأت أول الأمر تطرح الأسئلة تلو الأسئلة، كانت تريد أن تعلم أين وكيف جُرح، وهل جرحه خطير، وهل يمكن مشاهدته. وعندما أكَّدوا لها بأنه لا يمكن رؤيته وأن جرحه رغم خطورته لا يعرِّض حياته للخطر، لم تصدِّق بالطبع ما قالوه لها، لكنها لاحظت أنهم يقدِّمون الأجوبة نفسها على أسئلتها. لذلك فقد كفَّت عن السؤال، بل وعن الكلام أيضًا. وخلال المرحلة كلها لم تُحرِّك ناتاشا ساكنًا في ركنها، واحتفظت بذلك المظهر الذي شوهدت عليه في تلك الآونة وهي جالسة على المقعد الذي لا مسند له: عينان واسعتان كانت الكونتيس أخبرَ الناسِ بمعنَيْهما، وأكثرهم خوفًا مما تدلَّان عليه. كانت تفكِّر وتقرِّر شيئًا ما في أعماق نفسها إن لم يكن قد اتخذت قرارها بعد، وكانت الكونتيس تشعر بذلك، لكنها لم تكن تعرف ما يمكن أن يكون ذلك، وهذا ما كان يخيفها ويعذِّبها.

– «ناتاشا، اخلعي ثيابكِ يا عزيزتي ونامي في سريري (لقد كانت الكونتيس وحدها تنام على سرير. أما السيدة شوسي والفتاتان، فكنَّ ينمن على قشٍّ فوق الأرض).»

فأجابت ناتاشا نافذة الصبر: «يا أماه، سأنام هنا، على الأرض.»

ثم اقتربت من النافذة وفتحتها، وتناهت أنَّات المساعد العسكري إلى الآذان أكثر وضوحًا خلال النافذة المفتوحة. أخرجت رأسها إلى هواء الليل الرطيب، فشاهدت الكونتيس عنقها الدقيق ينتفض من النشيج ويصطدم بالإطار الخشبي. كانت ناتاشا تعرف أن

هذه الأنَّات ليست أنَّات الأمير آندريه، وتعرف أن الأمير يرقد في الكوخ الخشبي الملاصق، يفصله عن كوخهما مدخل عادي. لكن ذلك الأنين المتواصل المريع كان ينتزع العَبَرات من عينَيْها. تبادلت الكونتيس نظرة مع سونيا وقالت وهي تلمس كتفها برفق: «نامي يا عزيزتي، نامي يا صغيرتي، هيا، نامي.»

فقالت ناتاشا وهي تبادر إلى خلع ثيابها منتزعةً أشرطة أثوابها انتزاعًا: «آه! نعم ... على الفور، على الفور.»

وبعد أن خلعت ثوبها ارتدت صدرتها وجلست على ساقَيْها المثنيتين فوق السرير المعدِّ لها على الأرض، وكفأت شعرها الناعم القصير إلى الأمام وراحت تضفِّره. ولقد حلَّت أصابعها الطويلة الرقيقة ضفائرها، وعادت تنسِّقها بسرعة محمومة، فكان رأس ناتاشا ينحني تارةً إلى هذه الجهة، وتارةً إلى تلك بحركة أليفة، بينما ظلت عيناها المتسعتان وكأنهما متأثِّرتان بالحمى؛ شاخصتين. ولمَّا فرغت من زينة الليل، استلقَت ناتاشا دون ضوضاء على الشرشف الممدد فوق القش قرب الباب.

قالت لها سونيا: «ناتاشا، نامي في الوسط.»

فردَّت ناتاشا: «إنني مرتاحة هنا.»

وأضافت بسأم: «ولكن، هيا جميعكنَّ إلى النوم.»

وأغرقت وجهها في وسادتها.

خلعت الكونتيس والسيدة شوسي وسونيا ثيابهنَّ بسرعة وأوين إلى فراشهنَّ، ولبث السراج المتراقص أمام الأيقونات وحده يضيء الحجرة، لكن الفناء كان مضاءً تمامًا بلهب حريق ميتيشتشي الصغرى البعيدة مسافة فرسخين، وكانت صيحات السكارى تدوِّي في المشرب الكائن عند منعطف الشارع الذي نهبه قوقازيو مامونوف، وصيحات المساعد العسكري المستمرَّة تُسمع دون انقطاع.

أصاخت ناتاشا السمع دون أن تتحرَّك إلى الضوضاء الآتية من الخارج والداخل، فسمعت بادئ الأمر أمها تتلو صلاتها وتتنهَّد، ثم فرقعة السرير تحت ثقل جسمها وشخير السيدة شوسي الخفيف المألوف الذي يرافقه صفير قصير، وتنفُّس سونيا الهادئ. ثم نادت الكونتيس ناتاشا التي لم تُجِب على النداء.

همست سونيا: «أظنها نائمة يا أماه.»

وبعد فترة صمت، نادت الكونتيس مرةً أخرى، ولكن لم يجِبها أحد هذه المرة.

وبعد قليل، سمعت ناتاشا تنفُّس أمها المنتظم، لم تندَّ عنها حركة رغم أن قدمها الصغيرة كانت خارج الغطاء متجمِّدة على الأرض الباردة.

وراح جدجد يصرُّ في أحد الشقوق وكأنه يحتفل بانتصاره على كل هؤلاء النيام، وصاح ديك على البعد، وردَّ آخر في مكان أقرب على صياحه، وهدأت الصيحات في الحانة، فلم تعُد تُسمع إلا أنَّات المساعد العسكري. انتصبت ناتاشا وهمست: «سونيا، هل أنتِ نائمة؟ ماما!»

فلم يجِبها أحدٌ. نهضت ناتاشا ببطء وحذر، وبعد أن رسمت إشارة الصليب وضعت باطن قدمَيْها العاريتين النحيلتين على الأرض القذرة الباردة، فصرَّت الألواح الخشبية. اقتربت من الباب بخطوات سريعة صغيرة كالقطة، وأدارت الرتاج المتجمِّد.

خُيِّل إليها أنهم يقرعون كل جدران الكوخ الخشبي بضربات مكتومة متزنة. كان ذلك قلبها الذي يتخاذل وينبض بشدة تكاد تنتزعه من الهلع والخوف والحب.

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدمَيْها على أرض المدخل الرطيب المتجمِّد، ولقد أنعشها ذلك البرد الذي يسري إلى أوصالها. صَدمت بقدمها العارية جسمَ رجل نائم فتخطَّته، ثم فتحت باب الكوخ الخشبي الملاصق حيث كان الأمير آندريه مسجًى. كان كل شيء معتمًا هناك؛ ففي إحدى الزوايا قرب السرير، حيث كان جسد إنسان مسجًى، وضعت شمعة من شحم الغنم تحترق ذبالتها احتراقًا سيئًا مشكِّلةً أخيلةً فوق مقعد خشبي.

منذ الصباح، منذ أن علمت بجرح الأمير آندريه ووجوده بينهم، قرَّرت ناتاشا أنه يجب عليها أن تراه. ما كانت تعرف لماذا يجب ذلك، بل تعرف فقط أن هذه المقابلة ستكون عقابًا، ولهذا السبب وجدت أنها ضرورية جدًّا.

أمضت النهار في أمل واحد؛ هو لقاؤه ذلك المساء. والآن وقد أزِفت الدقيقة المنتظرة، كان الذعر يملأ صدرها لما ستراه. كيف تراه مشوَّها؟! ماذا بقي منه؟! هل كان مثل ذلك المساعد العسكري الذي لا يكفُّ عن الأنين؟ نعم، لقد كان كذلك، كان في خيالها ذلك الأنين المريع مجسدًا. ولَمَّا رأت في الركن كتلة غير واضحة المعالم، اعتبرت ركبتَي الأمير آندريه اللتين كانتا ترفعان الغطاء كتفَيْه، فتصوَّرت جسدًا مخيفًا، وتوقَّفت مروَّعة، لكن قوَّةً لا تقاوَم دفعتها إلى الأمام. خطَت خطوة بتحرُّز، ثم أخرى، فوجدت نفسها وسط غرفة مملوءة بالأشياء. وعلى المقعد الخشبي تحت الصور وجدت رجلًا آخر ممدَّدًا (هو تيموخين)، بينما هجع رجلان آخران على الأرض (الطبيب والوصيف).

نهض الوصيف وتمتم بضع كلمات، أما تيموخين الذي كان يتألَّم من جرح ساقه، فإنه لم يكن نائمًا، بل كان يختلس النظر بعينَيْه المتسعتين إلى ظهور الفتاة الغريب

في قميص أبيض وصدرة وقلنسوة ليل. بَيد أن الكلمات القليلة التي نطق بها الوصيف المذعور وهو لا يزال تحت تأثير النوم: «مَنْ هناك؟ ماذا تريدين؟» دفعت ناتاشا إلى الإسراع بالتقدم نحو الذي يهجع في الركن. كان يجب أن ترى ذلك الجسد مهما كان مشوَّهًا ومُريعًا. مرَّت بالقرب من الوصيف، وعندئذٍ انتهى احتراق القسم الرديء من الشمعة، فشاهدت ناتاشا على الضوء الذي أصبح أكثر توهُّجًا، الأميرَ آندريه ممدَّدًا ويداه فوق الغطاء، كما عرفته من قبل دائمًا.

كان يشبه نفسه، لكن لونه الذي وردَّته الحمَّى وعينَيْه الشاخصتين إليها بنشاط، وخصوصًا عنقه الرخص الطفولي الذي يخرج من ياقة قميصه المفتوحة، كانت تعطيه هيئة خاصة، مظهرًا فتيًّا بريئًا لم تَرَه عليه من قبل أبدًا. اقتربت، وبحركة فتيَّة سريعة ومرِنة ركعت على ركبتَيْها.

فابتسم ومدَّ لها يده.

الفصل الثاني والثلاثون

لقاء الحبيبَيْن

مضى أسبوع على الحين الذي عاد فيه الأمير آندريه إلى وعيه في عربة الإسعاف في ساحة معركة بورودينو. لم يستعِد خلاله وعيه تقريبًا أبدًا. لقد انتصرت الحمَّى الدائمة والتهاب الأمعاء اللذان أصاباه، على حد قول الطبيب الذي كان يرافقه. مع ذلك، فإنه في اليوم السابع أكل بشهيَّة شريحةَ خبز، وشرب قدحًا من الشاي، ولمس الطبيبُ انخفاضًا في الحمَّى. لقد استعاد الأمير آندريه رشده صباحًا، ولقد تركوه ينام أول ليلة خلال الرحلة في عربته؛ لأن الجو كان دافئًا، لكنه في ميتيشتشي أصرَّ هو نفسه على أن يخرجوه من العربة، وأن يقدِّموا له قدحًا من الشاي. ولقد انتَزَعَ منه الألم الذي أحسَّ به وهم ينقلونه من العربة زمجراتٍ قوية. فَقَدَ الرشد من جديد، وظلَّ طويلًا على سرير الميدان الذي أسجوه عليه مغمض العينين لا حراك به، ثم فتح عينَيْه وتمتم: «والشاي؟» ولقد دهش الطبيب لتلك الذاكرة المدقِّقة لأتفه تفاصيل الحياة، فجسَّ نبضه، ولدهشته الكبيرة — وبشيء من القلق — وجد أنه أفضل! وإذا كان الطبيب قلِقًا فذلك لأنه كان يعرف بالتجربة أن الأمير آندريه مقضيٌّ عليه، وأنه إذا لم يمُت من حينه فسيموت فيما بعد وسط أقوى نوبات الألم، وكانوا ينقلون مع الأمير آندريه عسكريًّا برتبة ماجور، تابعًا لفوجه، ألحقوه بالقافلة في موسكو، اسمه تيموخين، وهو ذو أنف أحمر صغير، أصيب بجرح في ساقه في معركة بورودينو نفسها. وكانا — الأمير آندريه والماجور — مصحوبَين بطبيب ووصيف الأمير وحوذيِّه وتابعين.

قدَّموا الشاي للأمير آندريه، فشرب بنَهم وعيناه المحمومتان شاخصتان أمامه على الباب، وكأنه يحاول أن يدرك وأن يتذكَّر. قال ثم سأل: «كفاني. هل تيموخين هنا؟»

فجرَّ تيموخين نفسه ناحيته وتعلَّق بالمقعد: «ها أنا ذا يا صاحب السعادة.»

– «كيف حال جرحك؟»

– «جرحي؟ تافه. ولكن أنت؟»

استغرق الأمير آندريه في التفكير وكأنه يبحث عن شيء في ذاكرته. سأل: «هل من سبيل للحصول على كتاب؟»

– «أيُّ كتاب؟»

– «الإنجيل. لست أملكه.»

وَعَدَ الطبيب بإيجاد إنجيل، وسأل الأمير عما يشعر به، فأجابه مُكرهًا، ولكن بكل وعي، على كل أسئلة الطبيب، ثم أعلن أنهم لو وضعوا تحته وسادة لشَعَر براحة أكثر وبآلام أقل، فرفع الطبيب والوصيف المعطف الذي يغطِّيه وراحا وهما يصعِّران وجهَيْهما من رائحة النتن المتصاعدة من لحمه النتن، يفحصان الجرح المريع. ولقد ندا عن الطبيب ما يُشعِر بالاستياء، ثم أعاد ترتيب جانب من الضمادة وقَلَبَ المريض بشكل جعله يعاود الزمجرة ويفقد الوعي من جديد بتأثير الألم ويعود إلى الهذيان. استمر يكرِّر دون انقطاع طلبه للكتاب ورغبته في أن يوضع بجانبه بأسرع ما يمكن. ردَّد: «ماذا يكلِّفكم؟ لست أملكه. أوجِدوه لي أرجوكم وضعوه بالقرب مني دقيقة صغيرة.»

واستمر يردِّد هذه الشكوى الأليمة بصوت ضعيف، وخرج الطبيب إلى الدهليز ليغسل يدَيْه، فقال للوصيف الذي كان يصبُّ الماء على يديه: «آه! إنك لا تدرك الموضوع حقًّا. يكفي للقضاء عليه دقيقة واحدة من عدم الانتباه من جانبي. إنه ألم هائل، حتى إنني جدُّ مندهش إذ أراه يحتمله.»

فأجاب الوصيف: «يبدو أننا نبذل أفضل ما في وسعنا! أيها المولى يسوع!»

أدرك الأمير آندريه للمرة الأولى كُنه ما وقع له. تذكَّر أنه جريح، وأنه في اللحظة التي وقفت عربته الخفيفة في ميتيشتشي، طلب أن يُنقل إلى أحد الأكواخ. وبعد أن فقد رشده من جديد بتأثير الألم استعاد وعيه مرةً أخرى في الكوخ، وشرب الشاي وأخذ يعيد تخطيط ما أصابه في ذاكرته، فعاش من جديد وبأكثر إحساس من ذي قبل تلك اللحظة التي قضاها في مستشفى الميدان، عندما رأى آلام الرجل الذي يمقته، فامتلكت عليه مشاعره إحساسات وآراء جديدة كانت تبشِّره بالسعادة، فراحت تلك الأفكار — رغم غموضها وحيرتها — تستحوذ على روحه من جديد. تذكَّر أنه الآن يملك سعادة جديدة، وأن لتلك السعادة علاقة ما بالإنجيل؛ ولهذا السبب طلب هذا الكتاب. لكن الوضعية الرديئة التي جعلوا جرحه عليها وهم يقلبونه، جعلته يُضيع مرةً أخرى حبل أفكاره، وكانت تلك هي المرة الثالثة التي يستعيد تماسَّه مع الحياة في سكون الليل المطبق. كان كل شيء نائمًا

حوله، وعند المدخل جدجد يصرُّ، وفي الخارج يُغنِّي أحدُهم ويُكثر من اللفظ وديوبات الليل «تخربش» على المائدة وفوق الأيقونات والجدران، وذبابة كبيرة تصطدم بوسادته الكبيرة وتدندن حول الشمعة الموضوعة بالقرب منه التي كانت تبرعم وهي تسيل.

لم تكن روحه في حالتها الطبيعية؛ فالرجل الصحيح الجسم عادةً تنتابه معًا ألف فكرة وإحساس وذكرى، فإذا ما أوقف اختياره على سلسلة واحدة من الأفكار أو الوقائع يجد الإرادة والقوة لتثبيت كل انتباهه على تلك السلسلة. والرجل الصحيح الجسم قادر على أن ينتزع نفسه من فكرة عميقة ليقول كلمة رفيقة لشخص دخل منذ حين، ثم أن يعاود سياق أفكاره. ورُوح الأمير آندريه — تبعًا لهذا الرأي — لم تكن في حالتها الطبيعية؛ لأن قواه الفكرية كانت أكثر نشاطًا وإشراقًا من أي وقتٍ مضى، لكنها كانت تعمل خارج نطاق إرادته. لقد كانت الأفكار والصور الأكثر تباينًا تستحوذ عليه، وكان تفكيره أحيانًا يشرع فجأةً في العمل بشدَّة ووضوح وعمق لم يكن له مثلها وهو في أفضل حالة صحية، لكنها فجأةً — في غمار النشاط — تتحطَّم الفكرة وينبعث خاطر غير منتظَر، فيصبح مستحيلًا عليه إعادة ربط السلسلة.

كان يفكر وهو مسجًى في الكوخ المظلم الساكن وعيناه الكبيرتان المحمومتان تحدقان أمامه: «نعم، لقد بشَّرت بسعادة جديدة لا يمكن أن تنتزع من الإنسان، سعادة لا تخضع للقوى المادية والتأثيرات الخارجية، سعادة الروح وحدها، سعادة الحب! إن كل إنسان يستطيع أن يفهمها، لكن الله وحده يستطيع أن يضفيها أو أن يبشِّر بها. وكيف بشَّرنا الله بهذا القانون؟ لماذا الابن؟ ...»

وفجأةً انقطع حبل أفكاره وسمع الأمير آندريه — دون أن يعرف ما إذا كان ذلك في اليقظة أم في الهذيان — صوتًا رقيقًا هامسًا يكرِّر باستمرار وبإيقاع: «بيتي-بيتي-بيتي»، ثم من جديد: «أي-تي-تي»، ثم: «أي-تي-تي»، وبنفس الوقت على صوت هذه الموسيقى الهامسة، أحسَّ بأن بناءً غريبًا يرتفع فوق وجهه عند منتصفه تمامًا، بناءً في الهواء قوامه إبر دقيقة أو قِطَع خشبية صغيرة، وشعر — رغم شدة إيلام هذا الشعور — أنه مرغم على الاحتفاظ بتوازنه بعناية كيلا ينهار ذلك البناء الهوائي، لكنه مع ذلك انهار، ثم عاد ببطء من جديد يرتفع ويتكوَّن على صوت تلك الموسيقى الهامسة. أخذ الأمير آندريه يحدِّث نفسه: «إنه يكبر، إنه يستطيل ويكبر!» وفي الوقت الذي أخذ يصيخ فيه السمع إلى ذلك الهمس، ويشعر بذلك البناء من الإبر يرتفع وتتسع رقعته، كان الأمير آندريه يرى خلال فترات تلك الدائرة الحمراء التي ينشرها لهب الشمعة، ويسمع «خربشة» الدويبات

وطنين الذبابة التي كانت تصطدم بوسادته أو بوجهه. وكلما مسَّت الذبابة وجهه، أحدثت إحساسًا بالاحتراق، لكنه بنفس الوقت يدهش كلما رأى أنها تصطدم في المكان نفسه الذي ارتفع فيه ذلك البناء فوق وجهه دون أن ينهار. علاوةً على ذلك، كانت ظاهرة أخرى مهمة تقع في ذلك الحين؛ إنها بقعة بيضاء عند الباب، تمثال لأبي الهول، راح هو الآخر يسحقه.

فكَّر الأمير آندريه: «لعله قميصي الموضوع على الطاولة. هنا ساقاي، وهنا الباب. إذن لماذا يطول ويرتفع هذا الـ: بيتي-بيتي، بيتي-بيتي، أي-تي-تي-أي-بيتي، بيتي، بيتي ...» وصرخ الأمير آندريه بصوت ناحب وكأنه يتوسَّل إلى أحدهم: «كفى، كُفَّ، أرجوك، توقَّف!» ثم عادت فجأةً أفكار ومشاعر ذات قوة وجلاء خارقَين.

حدَّث نفسه وهو في إشراق فكري عميق: «نعم، الحب. ليس هذا الحب الذي يعرف غايته ودوافعه أو سببه، ولكن ذاك الذي أحسست به لأول مرة حينما رأيت عدوِّي وأنا على شفا الموت، فأجبته رغم العداء. لقد شعرت حينذاك بذلك الإحساس الذي هو جوهر روحنا بالذات، والذي لا يحتاج إلى غرض. والآن أيضًا أحسُّ بهذا الشعور الهنيء. حب الآخرين! حب أعداء المرء! حب كل شيء، هو حب الله في كل مظاهره. حب مخلوق عزيز إنما هو حب اختُصَّ به الإنسان، ولكن حب العدو إنما هو حبٌّ سماويٌّ مجرد. ولهذا السبب أحسست بتلك البهجة الكبرى عندما شعرت بأنني أحب ذلك الرجل. ماذا حدث له؟ هل مات؟

أن يحب المرء حبًّا إنسانيًّا معناه أن ينتقل من الحب إلى الكراهية، في حين الحب السماوي لا يتبدَّل. ما من شيء حتى ولا الموت يستطيع أن يحطِّمه. إنه جوهر الروح. كم من الناس كرهتُهم طيلة عمري، مع ذلك فإنني لم أحبب أحدًا ولم أكره أحدًا بقدر ما أحببتها وكرهتها.»

وتصوَّر ناتاشا بقوة ليس كما يتصورها من قبلُ بتلك الفتنة وحدها التي سحرته، بل تصوَّر لأول مرة روح ناتاشا، فأدرك عواطف الفتاة وألمها وخجلها وندمها. شعر الآن بكل قسوة رفضه، ورأى للمرة الأولى قسوة فَصْمِه علاقاته معها. «ليتني أستطيع رؤيتها من جديد مرةً واحدة. مرةً واحدة أرى فيها عينَيْها وأقول لها ...»

«بيتي-بيتي، بيتي-بيتي، بوم!» واصطدمت الذبابة من جديد، وفجأةً انتقل انتباهه إلى عالم آخر من الحقائق والتخيلات كان شيء ما خاص يقع فيه. لقد كان بناءٌ آخر يرتفع في هذا العالم أيضًا دون أن ينهار، بناءٌ يكبر باستمرار وإن كانت الشمعة نفسها

تحترق فيه أيضًا وسط دائرتها الحمراء والقميص أبو الهول نفسه ينتصب عند الباب، إلا أنه إلى جانب كل ذلك ارتفعت خشفة ونفحة هواء عليل، ثم أبو هول جديد أبيض منتصب ظهر أمام الباب. وكان أبو الهول هذا شاحب الوجه ملتمع العينَيْن، أشبه بناتاشا هذه التي كان يفكِّر فيها منذ حين.

فكَّر الأمير آندريه وهو يحاول طرد هذا الوجه من مخيِّلته: «أوه! كم هو أليم هذا الهذيان المستمر!» لكن ذلك الوجه ظلَّ هناك بكل ما للحقيقة من قوة، وراح ذلك الوجه يقترب. أراد الأمير آندريه أن يعود إلى عالم الفكر النقيِّ الذي بارحه منذ حين، لكنه لم يقدر؛ لشدة ما كان الهذيان يجرُّه إلى قطاعه. تابع الصوت الهادئ الهامس دمدمته الإيقاعية، وضيَّق عليه شيء ما وجسمه، وظل الوجه الغريب ماثلًا أمامه. استجمع الأمير آندريه كل قواه ليتمالك نفسه، وانتفض، لكن أذنَيْه دوَّتا فجأةً واضطربت عيناه وفَقَدَ الرشد، أشبه برجل على وشك الغرق، وعندما عاد إلى وعيه كانت ناتاشا، ناتاشا نفسها، تلك التي كان يودُّ أن يحبَّها من دون خلق الله طرًّا بذلك الحب الجديد النقي السماوي الذي تنزَّل عليه، راكعة على ركبتَيْها أمام سريره. أدرك أنها ناتاشا الحقيقية بلحمها ودمها، فابتهج ابتهاجًا رقيقًا بدلًا من أن يندهش. وكانت ناتاشا راكعة على ركبتَيْها مرتعدة من الخوف، ولكن ساكنة — إذ كانت عاجزة عن الحركة — تنظر إليه وهي تحبس نحيبها، ووجهها شاحب وكأنه جامد باستثناء الرعدة التي تمرُّ بالفكِّ الأسفل.

أطلق الأمير آندريه زفرة ارتياح، ومدَّ لها يده وابتسم وقال: «هذا أنتِ؟! يا للسعادة!»

اقتربت منه ناتاشا على ركبتَيْها بقوة واحتراس، وأمسكت يده برفق، وأحنت رأسها فوقه، ثم قبَّلتها وهي لا تكاد تلمسها بشفتيها. قالت لاهثة وهي ترفع رأسها وتنظر إليه: «صفحًا! اصفح عني!»

قال الأمير آندريه: «أحبكِ!»

– «صفحًا ...»

سأل الأمير آندريه: «أصفح عن أي شيء؟»

فقالت ناتاشا بصوت متقطِّع لا يكاد يُسمع: «اصفح عني عما ... عملت.»

وغمرت يده بقبلات مترفِّقة، فقال الأمير آندريه: «أحبكِ أكثر بكثير وأفضل بكثير مما كنتُ أحبكِ من قبل.»

ثم رفع وجهها بيده ليتسنَّى له أن يتأمل عينَيْها.

كانتا مغمورتين بدموع السعادة، تانك العينان اللتان راحتا تنظران إليه بخجل مفعمتَيْن بالحنوِّ والفرح والحب. كان وجه ناتاشا النحيل ذو الشفتَيْن المنتفختين أبعد

من أن يكون جميلًا، بل مخيفًا، لكن الأمير آندريه ما كان يراه، بل كان ينظر إلى تينك العينَيْن اللامعتين اللتين كانتا آية بالجمال. ومن ورائهما ارتفعت جلبة أصوات.

لقد أيقظ بيير الوصيفُ، الذي تخلَّص تمامًا من سلطان النوم، الطبيبَ بدوره، أما تيموخين الذي كان جُرْح ساقه يمنعه من النوم، فقد كان يرى كل ما يحدث منذ أمدٍ طويل، ولقد أعاد الغطاء بعناية على جسده المعرَّى وتكوَّر على قدْر طاقته فوق مقعده.

قال الطبيب وهو يغادر مرقده: «ما هذا؟ تفضلي بالخروج يا آنسة.»

وفي تلك اللحظة، طرقت الباب خادم أرسلتها الكونتيس لتبحث عن ابنتها.

خرجت ناتاشا من الغرفة كالمصاب بمرض السير أثناء النوم، الذي أوقظ من نومه العميق، فلمَّا دخلت الكوخ الآخر سقطت على مرقدها منتحبة.

ومنذ ذلك اليوم وطيلة فترات التوقف والمراحل التي مرَّت بها رحلة آل روستوف الطويلة، لم تترك ناتاشا الجريحَ حتى اضطر الطبيب إلى الاعتراف بأنه ما كان يعتقد قط أنه واجدٌ فتاةً على مثل تلك الحيوية وتلك البراعة في معالجة الجرحى.

ومهما بلغت فكرة إمكان موت الأمير آندريه بين يدَي ابنتها خلال السفر بالنسبة إلى الكونتيس — وهو أمر ممكن الوقوع تبعًا لرأي الطبيب — فإنها لم تقدر على منع ناتاشا من التصرف وفق رغبتها، وكان تقارُب الأمير آندريه الجريح من ابنتها يحمل في أعطافه إمكانية عودة علاقات الخطوبة إلى سابق عهدها عند الشفاء، لكن ما من أحد كان يشير إلى ذلك، بل إن ناتاشا والأمير كانا أقل الناس تفكيرًا في مثله. لقد كان شاغلٌ واحدٌ يحتكر الانتباه العام: مسألة موت أو حياة معلَّقة ليس فوق رأس بولكونسكي فحسب، بل فوق روسيا كلها.

الفصل الثالث والثلاثون

الحريق

استيقظ بيير في الثالث من أيلول متأخرًا جدًّا وهو يحسُّ بصداع في رأسه، وبدت له ملابسه التي لم يخلعها قبل النوم ثقيلة جدًّا، بينما أبهظته موجة غامضة تشعره بأنه ارتكَب بالأمس شيئًا مخجلًا، وكان ذلك الشيء هو حديثه مع الرئيس رامبال.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، لكن الجو في الخارج بدا معتمًا بشكل خاص. نهض بيير وفرك عينَيْه، فلمَّا رأى المسدس ذا المقبض الملبس الذي أعاده جيراسيم إلى مكانه على المكتب، تذكَّر بيير المكان الذي هو فيه، وما قرَّر أن يقوم به ذلك اليوم بالذات.

فكَّر: «ألست متأخرًا؟ كلا. «إنه» لن يدخل موسكو على ما يبدو قبل الظهر.»

لم يسمح بيير لنفسه بعدئذ أن يفكِّر في مهمته، بل راح يتعجَّل الانتقال إلى العمل بسرعة المحموم.

وبعد أن أدخل بعض النظام على ألبسته، أخذ المسدس واستعدَّ للذهاب، لكنه في تلك اللحظة تساءل للمرة الأولى كيف عليه أن يحمل سلاحه الذي ما كان يستطيع الاحتفاظ به في يده في الشارع؟ كان يستحيل عليه إخفاء مسدس من هذا العيار حتى تحت معطفه الواسع. ما كان يستطيع وضعه في منطقته ولا تحت إبطه دون أن يكون ملحوظًا. ثم إن المسدس كان فارغًا ولم يجد بيير وقتًا كافيًا لإعادة حشوه. حدَّث نفسه رغم أنه قال لنفسه أكثر من مرة وهو يفكِّر في مشروعه إن خطيئة الطالب الرئيسية عام ١٨٠٩م كانت لجوءه إلى الخنجر في محاولته قتل نابليون: «سوف يفي الخنجر كذلك بالغرض.» لكن غاية بيير الحقيقية كانت في واقع الحال البرهان لنفسه بأنه لن يتراجع عن غرضه، بل إنه بسبيل عملِ كل شيء لإنجازه على أفضل وجه أكثر مما كانت إنجاز خطته نفسها. أخذ بيير بسرعة خنجرًا رديئًا مثلمًا في غِمد أخضر اشتراه مع المسدس في وقتٍ واحد من برج سوخارييف وأخفاه تحت صدرته.



معركة بورودينو.

اجتهد بيير أن يسير دون جلبة وأن يتحاشى الرئيس بعد أن جذب نطاق معطفه جيدًا وأرخى قلنسوته على عينَيْه، فاجتاز الممشى ونفذ إلى الشارع.

ولقد اتخذ الحريق الذي لم يأبه له مطلقًا مساءَ أمس شكلًا جدِّيًّا؛ إذ كانت موسكو تحترق فعلًا من نقاط عديدة. كان الحريق مستقرًّا بآنٍ واحد في أروقة صانعي العربات، وفي الحي المقابل، وفي جوستينيي دفور، في بوفارسكاييا بين الأكواخ الخشبية القائمة على نهر موسكوفا، وفي «ورشات» الخشب قرب جسر دوروجوميلوف.

وكان الطريق الذي يريد بيير السير فيه يقوده عبر شوارع ضيقة ابتداءً من بوفارسكاييا، ثم عبر الآربات نحو كنيسة القدِّيس نيكولا؛ إذ كان ذلك هو المكان الذي عيَّنه في خياله منذ زمن طويل ليقوم فيه بعمله. كان الجانب الأكبر من البيوت مغلقَ النوافذ والأبواب، والشوارع والأزقَّة كانت خالية، والهواء مفعم برائحة الحريق والدخان. وهنا وهناك كان المرء يقابل روسيين على وجوههم أمارات الذعر والقلق، وجنودًا فرنسيين تظهر القحَّة على وجوههم يحتلون وسط الشارع، فكان أولئك وهؤلاء يصوِّبون إلى بيير نظرات حافلة بالدهشة. كان ما يُدهش الروسيين — إضافةً إلى قامته المديدة وبنيانه المتين وأمارات وجهه المعذَّبة المركَّزة بشكل غريب مثل مجموع شخصيته — استحالة قدرتهم على تحديد البيئة التي ينتمي إليها هذا الرجل، في حين أن الفرنسيين كانوا يتابعونه بأعينهم؛ لأنه بدلًا من أن ينظر إليهم بفضول ممتزج بالرعب ككل مواطنيه، ما كان يُعيرهم التفاتًا. وأمام أحد البيوت استوقف ثلاثةٌ من الفرنسيين كانوا يتحدثون مع روسيين دون أن يفهم هؤلاء عليهم، بيير ليسألوه عما إذا كان يعرف الفرنسية.

أشار بيير برأسه أنْ لا، وتابع طريقه، وفي زقاق آخر صاح به حارس واقف إلى جانب صندوق خشبي مطلي بالأخضر وقال شيئًا، فلم يفهم بيير أن عليه أن يعمد إلى الجانب الآخر من الشارع إلا عندما كرَّر الحارس أمره المتوعِّد ورآه يصلي بندقيته. لم يكن منتبهًا إلى ما حوله، بل كان يحمل فكرته في نفسه وكأنه شيء غريب خطير، يحملها بعجلة وهول وهو يخشى — بعد تجربته في الليلة السالفة — أن يفقدها نهائيًّا، ولكن لم يكن مقدَّرًا على بيير أن يحتفظ بتلك الحالة النفسية سليمة حتى يبلغ المكان الذي اتجه إليه، بل إنه حتى ولو لم يستوقفه أحد فإن فكرته ما كانت لتتحقق؛ لأن نابليون كان منذ أكثر من أربع ساعات قد اجتاز ضاحية دوروجوميلوف عن طريق الآربات متجهًا إلى الكريملن مباشرةً، وكان في تلك اللحظة يحتل مكتب القيصر في قصر الكريملن وهو في أسوأ حالاته الفكرية، ويعطي الأوامر المفصَّلة لإطفاء الحريق فورًا ومنع النهب وتهدئة رَوْع السكان. لكن بيير ما كان يعرف شيئًا من ذلك؛ كان مستغرقًا في الحادث المستعجل، يعذِّب نفسه على شاكلة العنيدين الذين يحاولون المستحيل ليس بسبب صعوبة العمل نفسه، بل لأن طبيعة العمل منافية لطبعه، ولأنه يخاف أن يضعف في اللحظة الحاسمة فتنحطَّ قيمته بالتالي بنظر نفسه.

وعلى الرغم من أنه لم يسمع شيئًا من كل ما يدور حوله، فإنه كان يتبع بالغريزة الطريق التي اختطَّها لنفسه دون أن يخطئ في متاهة الأزقَّة المؤدية إلى بوفارسكاييا.

وكلما اقترب من بوفارسكاييا كلما ازداد الدخان وشعر الإنسان بحرارة الحريق، ومن حين إلى آخر كانت ألسنة من اللهيب تنبعث من سقوف المنازل، وأصبح اللقاء بالناس كثيرًا، واتسمت الوجوه بطابع ظهر فيه الذعر بأكثر جلاء، لكن بيير رغم شعوره المكين بأن شيئًا ما خارقًا يحدث حوله، لم يكن منتبهًا إلى أنه يسير مباشرةً نحو الحريق. وبينما هو يجتاز ممرًّا يخترق أرضَ خواء واسعة متصلة من جانب ببوفارسكاييا، ومن الآخر بحدائق نزل الأمير جروزينسكي، سمع بيير بجانبه فجأةً صيحة يائسة تطلقها امرأة، فتوقَّف وكأنه أفاق من حلم ورفع رأسه.

تناثرت خارج الممر، على الحشائش المغبرَّة الجافَّة قطع من الأثاث: فرس وسماور وأيقونات وصناديق. وعلى الأرض بجانب الصناديق جلست امرأة ناحلة في مفترق سنِّين، ذات أسنان أمامية طويلة، مرتدية معطفًا أسود تضع على رأسها قلنسوة. راحت هذه المرأة تتمايل وهي تدمدم بشيء ما وتبكي بكاءً سخيًّا، بينما راحت فتاتان، إحداهما في العاشرة والثانية في الثانية عشرة، مرتديتان أثوابًا قصيرة متَّسخة ومعطفَيْن صغيرين

مبطَّنين بالفراء، تنظران إلى أمهما وعلى وجهيهما الشاحبين المروَّعَين أمارات الذهول. وكان غلامٌ أصغر سنًّا، في حوالي السابعة من عمره، ملفوف بمعطف طويل وقبَّعة ذات حافَّة واحدة عريضة جدًّا، يبكي بين ذراعَي مربِّيته العجوز، وجلست خادم قذرة على صندوق حافية القدمين وقد فردت شعرها الأشقر، وراحت تنتزع منه شعرات مَغراء اللون كانت ترفعها إلى أنفها. أمَّا الزوج، وكان رجلًا قصيرًا محدودب الظهر في بزَّة موظف صغير ذا سالفَيْن طويلين وشعر مصقول جيدًا على الصدغين بارز من قبعة وحيدة الطرف موضوعة على رأسه باتزان، فقد راح يحرِّك الصناديق الموضوعة الواحدة فوق الأخرى غير بادي التأثر؛ بحثًا عن بعض الأسمال. ألقت المرأة بنفسها على قدمَي بيير تقريبًا عندما شاهدته وصرخت خلال عَبَراتها: «أيها الناس البواسل، أيها المسيحيون، أنقذونا، ساعدونا! ... سيدي العزيز! ... كُنْ من كنت، ساعدنا! ابنتي الصغرى! ... ابنتي! ... أصغر بناتي! لقد تُركت! ... لقد احترقت! أوه، أوه، أوه، أوه! أَلِأجل هذا هدهدتك كل هذا الوقت؟! ... أوه، أوه، أوه!»

فقال الزوج بصوت هادئ اتخذه لا ريب ليبرِّر تصرفَّه الغريب: «هدِّئي روعكِ يا ماري نيكولاييفنا، لا ريب أن أختكِ حملتها معها.»

ثم أضاف: «وإلا، فأين يمكن أن تكون؟»

فصرخت المرأة بحقد وقد كفَّت فجأةً عن البكاء: «أيها المغفَّل، أيها الوحش! إنك عديم القلب. إنك لا تأسَف على ابنتك مجرد أسف. لو كان غيرك مكانك لأنقذها من النار. إن هذا الغبي ليس رجلًا ولا أبًا.»

ثم قالت لبيير وكلماتها تتلاحق وهي تنشج: «أنت، أنت قلب نبيل أنت، لقد شبَّت النار بجانبنا ثم بلغت مسكننا، ولقد صاحت الوصيفة: شبَّ الحريق! فاندفعنا نجمع حاجاتنا، ولقد فررنا بما نحمله على أنفسنا ... هذا ما استطعنا حمله ... الأيقونة، وسرير زواجي، وكل ما عدا ذلك ضاع! أخذتُ الأطفال وإذا بكاتنكا غير موجودة. أوه، أوه ... أوه! يا ربي! ...»

وعادت تنتحب: «لقد احترقت صغيرتي الوديعة. احترقت!»

سألها بيير: «ولكن أين ظلت؟»

أدركت تلك المرأة من أمارات وجهه المحتدَّة أن هذا الرجل قادر على مساعدتها، فراحت تتوسَّل إليه وهي تحيط ساقَيْه بذراعَيْها.

– «يا سيدي الطبيب! يا أبي! يا محسني! أَرِح قلبي على الأقل ...»

وصرخت بالوصيفة: «أنيسكا، أيتها الفتاة القذرة، اذهبي ودُلِّيه.»

وفتحت وهي تصرخ فمًا مكشرًا كشف عن أسنانها الطويلة، فبادر بيير يقول لها بصوت لاهث: «قوديني، سوف ... سوف أعمل جاهدًا.»

خرجت الوصيفة القذرة من وراء صندوقها وسوَّت ضفيرتها، وزفرت ثم سارت في المقدمة فوق الممر عارية القدمين، وكان بيير أشبه بالرجل الذي عاد إلى الحياة بعد إغماء طويل. نصب رأسه والتمعت عيناه من جديد ببريق الحياة، وراح يتبع الفتاة بخطًى حثيثة حتى أدركها وبلغ بوفارسكايا. كان الشارع ممتلئًا بسحابة كثيفة سوداء، وألسنة من النار تنبعث من بعض جنباتها، وجماعة من الناس تجمهرت عند مشارف الحريق، وفي وسط الطريق كان جنرال فرنسي يقول شيئًا ما للمحيطين به. كاد بيير الذي تقوده الخادم أن يقترب من المكان الذي وقف فيه الجنرال، لكن الجنود الفرنسيين أوقفوه وصرخوا به: «ممنوع المرور!»

قال الخادم: «من هنا يا عمَّاه، سنسير في هذا الزقاق لنجتاز فناء آل نيكولين.»

عاد بيير على أعقابه وراح يوسع الخطى أحيانًا ليلحق بالخادم. اجتازت الشارع ركضًا، ثم سارت إلى اليسار عبر الزقاق واجتازت ثلاثة بيوت، ثم انعطفت يمينًا واجتازت بابًا. قالت مفسِّرة: «سنصل بعد قليل.»

وبعد أن اجتازا الفناء جريًا فتحت باب سياج وأومأت إلى بيير تدلُّه على جناح من الخشب كان يلتهب بنار عنيفة وينشر حرارة قوية، وكان جانب كامل من الجناح منهارًا، بينما كان الجزء الآخر ملتهبًا كله واللهب المضيء الملتمع يخرج من فتحات النوافذ والسقف.

توقَّف بيير رغمًا عنه عندما اقترب من باب الفناء، وقد كادت الحرارة أن تخنقه، وسأل: «أي بيت؟ أي بيت بيتكم؟»

زمجرت الخادم وهي تشير إلى الجناح: «أوه، أوه، أوه! ها هو ذا، هذا هو بيتنا الصغير، وأنتِ في النار يا كاتنكا، يا كنزنا، يا آنستي الصغيرة العزيزة! أوه، أوه، أوه!»

وراحت أنيسكا تزمجر وهي تشعر بوجوب إظهار مشاعرها هي الأخرى أمام الحريق.

انطلق بيير نحو الجناح، لكن الحرارة كانت من الشدة بحيث اضطر إلى أن يلتفت حوله، فوجد نفسه قرب مسكن كبير كان جانب واحد من السقف يحترق وحوله جمهور غفير من الفرنسيين. لم يفهم بيير بادئ الأمر ماذا كان أولئك الفرنسيون يعملون هناك.

لقد كانوا يجرُّون شيئًا ما، لكنه لَمَّا رأى أحدهم يضرب بعرض سيفه أحد القرويين ويسلبه معطفه المبطَّن بفراء الثعلب، أدرك أنه إزاء جماعة من السلَّابين. مع ذلك، فإنه لم يجد الوقت الكافي للتعمُّق في تفكيره حول النقطة.

أثارت الطقطقة وقرقعة الجدران والسقوف المنهارة وصفير النار وشخيرها وهتافات الجمهور ومشهد زوابع الدخان التي تنتشر كثيفة سوداء تارةً وترتفع مضيئة مشعَّة تارةً أخرى، ورؤية اللهب ينتقل من جدار إلى آخر، أحمرَ كثيفًا أشبه بالعرم، والأحاسيس التي سبَّبتها الحرارة والدخان والجري، كل ذلك أثار في نفس بيير الانفعال الذي تُحدِثه الحرائق عادةً في نفوس الأطفال. بل إنه كان أشدَّ قوةً في نفسه، حتى إنه أحسَّ فجأةً بخلاصة من الأفكار التي كانت متسلِّطة عليه. وجد نفسه من جديد فتيًّا مرِحًا حاذقًا. دار راكضًا حول الجناح من جانب المسكن الكبير، وأراد أن يندفع إلى الجزء الذي ما زال قائمًا عندما سمع فوق رأسه تمامًا عددًا من الأصوات تصيح، ثم على الأثر قرقعة شيء وجلبة سقوط جسم ثقيل بالقرب منه.

رفع بيير عينَيْه فشاهد فرنسيين ألقوا منذ فترة بقِمَطْر ممتلئ بالأدوات المعدنية، بينما اقترب جنود فرنسيون آخرون كانوا في الأسفل نحو القِمَطر الملقى من علٍ.

صاح أحدهم وهو يرى بيير: «حسنًا، ماذا يريد هذا؟»

سأل بيير: «طفل في هذا البيت. ألم تشاهدوا طفلًا؟»

هتفت أصوات كثيرة: «هه، ماذا ينفق هذا؟ امضِ في سبيلك.»

وتقدَّم أحد الجنود نحو بيير متوعِّدًا وقد خشي بلا ريب أن تكون غايته استعادة الفضِّيات وموجودات القِمَطر من البرونز منهم.

صرخ أحد الفرنسيين من الأعلى: «طفل؟ لقد سمعت شيئًا يصرخ في الحديقة. لعله صبي الرجل. يجب أن يكون المرء إنسانيًّا، وَيْحَكم! …»

سأل بيير: «أين هو؟ أين هو؟»

هتف به الفرنسي الواقف عند النافذة وهو يشير إلى الحديقة وراء البيت: «من هنا! من هنا! انتظر، سوف أنزل إليك.»

وفي الواقع لم تمضِ ثوانٍ حتى قفز الفرنسي من نافذة الدور الأرضي، وكان فتًى في مقتبل العمر أسود العينين، يحمل شامة على وجنته، يرتدي قميصًا دون سترته، ووكز بيير في كتفه وقاده إلى الحديقة. صاح يخاطب رفاقه: «أسرعوا أنتم كذلك. بدأت الحرارة تزيد.»

اندفع مع بيير وراء البيت عبر ممشًى مفروش بالرمال، وفجأةً جذب الفرنسي بيير من ذراعه وأراه شيئًا مستديرًا. كان ذلك الشيء طفلة في الثالثة من عمرها في ثوب وردي مسجاة فوق مقعد.

قال الفرنسي: «هذا طفلك. آه! طفلة! هذا أفضل. إلى اللقاء أيها الرجل الضخم. يجب أن نكون إنسانيِّين، وكلنا مائت كما ترى.»

وجرى الفرنسي ذو الشامة للِّحاق برفاقه.

اندفع بيير وهو يلهث من الفرح نحو الصبيَّة، وأراد أن يحملها بين ذراعَيْه، ولكن عندما شاهدت الطفلة المصابة بداء الخنازير ذات الوجه المريض الشبيهة بأمها؛ رجلًا غريبًا، راحت تصرخ وأرادت أن تفرَّ. وفي تلك الأثناء كان بيير قد لحق بها وحملها بين ذراعَيْه، فصرخت بصوتٍ شرِس يائس، وراحت تتخبَّط مُحاوِلة بيدَيْها الصغيرتين أن تُرغِم بيير على التخلِّي عنها، بل حاولت كذلك أن تعضَّ يدَيْه. ولقد استولى على بيير شعور بالرَّوع والاشمئزاز شبيه بذلك الذي يعتلج في صدره إذا لمس حيوانًا ما تتقزَّز منه النفس، لكنه بذل مجهودًا ليسيطر على نفسه كيلا يطرح الطفل، وعاد يجري وهو يحمل حمله نحو البيت الكبير. لم يعُد حينذاك ممكنًا أن يمرَّ من الطريق نفسه، كما أن أنيسكا كانت قد اختفت، فضمَّ الفتاة المبلَّلة الباكية إلى صدره بأقصى ما يستطيعه من حنان وهو مفعم النفس بالإشفاق بقدر ما فيها من اشمئزاز، واندفع عبر الحديقة يحاول إيجاد مخرج جديد.

الفصل الرابع والثلاثون

اعتقال بيير

بعد أن اجتاز بيير جاريًا عددًا من الأفنية والأزقَّة، عاد بحمله نحو حديقة جروزينسكي عند زاوية بوفارسكاييا. لم يتعرَّف للوهلة الأولى على النقطة الذي ذهب منها بادئ الأمر باحثًا عن الفتاة؛ لكثرة ما تراكمت هناك من أمتعة جُرَّت خارج البيوت، وما اجتمع من أشخاص هناك. كان هناك — فضلًا عن الأسر الروسية المجتمعة بالقرب مما أمكن إنقاذه من البيوت المحترقة — عددٌ من الجنود الفرنسيين في أزياء مختلفة، فلم يعبأ بيير بهم مطلقًا. كان متلهِّفًا للعثور على أسرة الموظف وإعادة الصغيرة إلى أمها، ثم العودة من جديد للمساهمة في أعمال الإنقاذ. وكان يُخيَّل إليه أن أمامه كثيرًا ممَّا يجب أن يعمل، وأن الوقت يدركه، ولقد بعثت النيران والجريُ الدفءَ في أوصال بيير، فشعر بذلك الإحساس الفتيِّ بأكثر قوة في تلك اللحظة مشفوعًا بالعزم والحماس، ذلك الإحساس الذي استولى عليه بادئ الأمر عندما انطلق للبحث عن الطفلة. أصبحت الفتاة هادئة الآن وقد تشبَّثت بمعطف بيير بيدَيْها الصغيرتين، وقبَعت فوق ذراعه، وراحت تنظر حولها بعينَي حيوان صغير متوحِّش. ومن حين إلى آخر كان بيير يتأملها وعلى شفتَيْه ابتسامة خفيفة. كان يُخيَّل إليه أن يرى لونًا من البراءة يثير الشفقة في تقاسيم هذه الطفلة المريضة المروَّعة.

لم يبقَ الموظف وزوجته في مكانهما الأول؛ لذلك فقد راح بيير يسير بخطوات واسعة وهو يتفحَّص وجوه الجماعات التي تمرُّ بها. لم يستطِع الامتناع عن النظر إلى أسرة أرمنية مؤلَّفة من كهل في سنٍّ متقدِّمة جدًّا ذي مظهر شرقي جميل يرتدي «فروة» مبطَّنة وأحذية جديدة، وعجوز في مثل تلك السن وامرأة شابَّة. كانت هذه لا تزال في مقتَبل العمر، بدت لبيير نموذجًا للجمال الشرقي الكامل بحاجبَيْها الأسودين المقوَّسين الواضحين ووجهها الطويل الجميل ذي اللون الوردي النضير الخالي من أي تعبير، فكانت بين هذه الأشياء المبعثرة وذلك الجمهور من الناس على تلك الساحة، في «فروتها» الثمينة

«الساتان» والوشاح البنفسجي الصارخ الذي يغطِّي رأسها، أشبه بنَبْتة دقيقة ملقاة على الثلج. كانت جالسة على بعض الرزم إلى وراء المرأة العجوز قليلًا تحدِّق إلى الأرض بعينَيْن سوداوين كبيرتين لوزيتين تظلِّلهما أهداب طويلة، وكان يرى أنها شاعرة بجمالها خائفة عليه، ولقد استلفَتَ وجهها نظر بيير الذي رغم تعجُّله في السير على طول أحد الحواجز، لم يتمالك إلا أن يلتفت أكثر من مرة. ولَمَّا بلغ نهاية الحاجز ولم يجد من يبحث عنهم في أي مكان، توقَّف بيير وهو في حيرة.

ولقد بات هذا الرجل طويل القامة الذي يحمل طفلة بين ذراعَيْه يلفت النظر أكثر من ذي قبل، فلم يلبث بعض الروسيين بين رجال ونساء أن التفُّوا حوله. سألوه: «هل أضعتَ أحدًا أيها الرجل الباسل؟ أنت نبيل. أليس كذلك؟ لمن هذه الطفلة؟»

أجاب بيير بأن الطفلة لامرأةٍ ترتدي «فروة» سوداء كانت جالسة مع أولادها في هذا المكان، وسأل عما إذا كان أحدٌ يعرفها أو يستطيع أن يقول إلى أين ذهبت.

قال شمَّاس عجوز يخاطب امرأة مجدورة: «لا بدَّ وأن يكونوا آل أنفيروف. أيها المولى، أشفِق علينا.»

ثم كرَّر بصوته الخافت الاعتيادي: «أيها المولى، أشفق علينا!»

أجابت المرأة: «أين هم آل أنفيروف؟ لقد رحلوا هذا الصباح. لا بدَّ وأنها لماري نيكولاييفنا أو لآل إيفانوف.»

قال خادم مفسِّرًا: «لقد قال امرأة، وماري نيكولاييفنا سيدة.»

قال بيير: «لا بدَّ وأنكم تعرفونها. امرأة نحيلة ذات أسنان طويلة.»

قالت المرأة وهي تشير إلى جنود فرنسيين: «لكنها ماري نيكولاييفنا نفسها. لقد هربوا إلى الحديقة عندما انقضَّ هؤلاء الذئاب عليهم.»

ردَّد الشمَّاس: «أيها المولى، أشفِق علينا!»

وقالت امرأة أخرى: «مُرَّ من هنا. خُذْ. إنهم هناك. ها هي ذي بالذات! إنها لم تكفَّ عن التأوُّه والبكاء. إنها هي نفسها، من هنا.»

لكن بيير ما كان يصغي إلى المرأة. لقد كان منذ بضع ثوانٍ لا يرفع عينَيْه عما يدور على قيد بضع خطوات منه. كان ينظر إلى الأسرة الأرمنية وقد اقترب منها جنديان فرنسيان؛ كان أحدهما قصير القامة، حافي القدمين، يرتدي معطفًا أزرق ويتمنطق بقطعة حبل، وعلى رأسه قلنسوة من الفراء. أمَّا الآخر، وهو الذي اجتذب انتباه بيير بصورة خاصة، فطويلٌ أشقر نحيلٌ محدودب الظهر بطيء الحركات بادي الغباء، يلبس معطفًا

من نسيج صوفي خشِن وسراويل زرقاء وأحذية عالية ممزَّقة. اقترب الفرنسي القصير حافي القدمين ذو المعطف الأزرق من الأرمن وقال شيئًا وهو يشير إلى ساقَي الكهل الذي سارع إلى حذاءَيْه يخلعهما. أمَّا ذو المعطف الخشن، فقد وقف أمام الفتاة الأرمنية الجميلة جامدًا لا ينبس ببنت شفة ويداه في جيبه، وراح يتأملها.

قال بيير للمرأة وهو يقدِّم إليها الفتاة بعجلة بحركة لا ردَّ فيها: «خذي، خذي هذه الطفلة.»

وصرخ وهو يضع الفتاة على الأرض دون أن يحوِّل عينَيْه عن الأسرة الأرمنية والفرنسيين: «ستعيدينها إليهم، هه؟»

كان الكهل قد خلع حذاءَيْه، وقد نزع الفرنسي الصغير الفردة الثانية من ساقه وراح يضرب بها الأولى. وراح الكهل يغمغم بكلام والدمعة تترقرق من عينَيْه، لكن بيير لم يُلقِ على هذا المشهد إلا نظرة سريعة. كان يراقب الفرنسي الآخر ذا المعطف الخشن الذي أَخذ في تلك اللحظة يقترب من الفتاة متأرجحًا ببطء ثم يخرج يديه من جيبه ويمسك بعنقها.

وكانت الأرمنية الحسناء لا تزال جامدة وأهدابها الطويلة مسبلة، وكأنها لا ترى ولا تشعر بما يفعل الجندي.

وبينما كان بيير يجتاز الخطوات القليلة التي تفصله عن الفرنسيين، كان السلَّاب الطويل ذو المعطف الخشِن قد نزع من عنق الأرمنية عقدًا كان يحلِّي جِيدها، فرفعت الشابة يدَيْها إلى عنقها وراحت تطلق صيحات ثاقبة.

زمجر بيير غاضبًا وهو يُطبِق على الجندي الطويل المحدودب من كتفَيْه ويدفعه بعنف: «دَعْ هذه المرأة!»

سقط الجندي ثم نهض وفرَّ بأقصى سرعة، لكن زميله ألقى بالحذاءَيْن على الأرض، وامتشق حسامه وتقدَّم إلى بيير متودِّعًا وصاح: «هه، كُفَّ عن الحماقات.»

كان بيير حينذاك يتلظَّى بإحدى سَوراته التي يفقد معها اتزانه وتتضاعف قواه عشرة أمثالها. ألقى بنفسه على الفرنسي حافي القدمين قبل أن يتيح له الوقت ليرفع سيفه، فألقاه أرضًا وانهال عليه لكمًا، وانطلقت من حناجر الجمهور صرخات مشجِّعة. ولكن في تلك اللحظة ظهر دورية من الفرسان عند منعطف الشارع، انطلقوا خببًا على جيادهم وأحاطوا ببيير والفرنسي. ولقد أضاع بيير ذكرى ما حدث فيما بعد. تذكَّر بغموض أنه ضَرب أحدهم وأنهم ضربوه ثم أوثقوا يدَيْه فيما بعدُ وراء ظهره، ثم شرع الجنود الملتفُّون حوله في تفتيشه.

كانت الكلمات الأولى التي وعاها بيير: «إنه يحمل خنجرًا أيها الملازم.»

قال الضابط الذي راح يخاطب الجندي عاري القدمين: «آه! سلاح. هذا أحسن. ستقصُّ هذا على المحكمة العسكرية.»

ثم استدار إلى بيير وأضاف: «هل تتكلم الفرنسية أنت؟»

سرح بيير حوله عينَيْه المحقونتين بالدم ولم يُجِب، ولا بدَّ أن وجهه لم يكن يوحي بالطمأنينة؛ إذ همس الضابط كلامًا في أذن أحد الفرسان، فانفصل أربعة من الكوكبة ليحيطوا بيير.

كرَّر الضابط وهو يقف على مسافة من بيير: «هل تتكلم الفرنسية؟ أحضروا المترجم.»

خرج من الصفوف رجلٌ في ثوب مدني عرف فيه بيير على الفور من ثوبه وحديثه فرنسيًّا في أحد مخازن موسكو، قال المترجم بعد أن حدج بيير: «لا يبدو عليه أنه من أبناء الشعب.»

فهتف الضابط: «أوه، أوه! يبدو عليه أنه واحد من أولئك الذين دأبوا على إشعال الحرائق.»

ثم أردف: «سَلْه مَن يكون.»

سأل المترجم بصيغة المفرد: «من أنت؟ يجب أن تجيب على أسئلة السلطة.»

قال بيير فجأةً بالفرنسية: «لن أقول لكم من أنا. إنني سجينكم، فخذوني.»

هتف الضابط وهو يزوي حاجبَيْه: «آه! آه! لِنمشِ.»

تجمهر الناس حول الفرسان وباتت المرأة المجدورة مع الطفلة الصغيرة قريبة جدًّا من بيير، فلمَّا تحرك الموكب تبعته. قالت: «إلى أين يأخذونك أيها الرجل الباسل؟ والصغيرة، ماذا أصنع بها إذا لم تكن لهم؟»

سأل الضابط: «ماذا تريد هذه الامرأة؟»

شعر بيير أنه أشبه بالسكران، وتعاظم حماسه لمرأى الصغيرة التي أنقذها. قال: «ماذا تقول؟ إنها تحمل ابنتي التي أنقذتها من الحريق. وداعًا!»

ودون أن يدري سببًا لهذه الكذبة غير المجدية التي أفلتت منه، ابتعد مع حرَّاسه بخطًى مَهيبة حازمة.

كانت تلك الدورية واحدة من كثير نظَّمها دوروسنل، وأرسلها إلى مختلف أحياء موسكو لتقمع السلب، ولتضع يدها على الأخص على مُشعلي الحرائق الذين كانوا — بحسب الرأي العام المقبول من القيادة الفرنسية العليا — يتعمَّدون إحراق المدينة. وقد أوقفت الدورية وهي تجتاز عددًا من الشوارع، خمسةَ مشبوهين آخرين: صاحب حانوت،

طالبان في معهد ديني، قروي وخادم، فضلًا عن بعض السلَّابين. لكن الرجل الذي بدا أكثر قابليةً للشبهة كان بيير. قادوهم لقضاء تلك الليلة في بيتٍ كبير عند حاجز زوبوفو؛ حيث أقيمت هناك وحدة من الحرس، لكن بيير عُزِل عن الآخرين وبات موضع رقابة صارمة.


هنداوي